

تاريخ مصر البطلمية

بين المد فى عهد الملوك الثلاثة الأولين
والجزر فى عهد كليوباترة السابعة

تأليف

زكى على

أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى

كلية الآداب -- جامعة القاهرة

تاريخ
مصر البطلمية

بين المد فى عهد الملوك الثلاثة الأولين
والجزر فى عهد كليوباتــرة السابعــة

تأليف

زكى علي

أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنه ليطيب لى أن أتقدم إلى القارئ المصرى الكريم ، والقارئ العربى العتيد بهذه الموسوعة فى تاريخ مصر البطلمية كيما يتأمل الجميع فى تلك الجهود المضنية التى بذلها ملوك ثلاثة من البطالمة الأولين ، وهم بطلميوس سوتير (المخلص) ، وبطلميوس فيلادلفوس حبيب أخته أرسينوى الثانية وزوجته ، وبطلميوس الملقب يورجتيس أى فاعل الخير ، وقد طال حكم هؤلاء الثلاثة على مدى نحو مائة سنة من ٣٢٣ – حتى ٢٢١ ق.م. وقد حققوا فى هذه الحقبة أعمالاً مجيدة هى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف منبعجة الشكل ، من برقة غرباً وسوريا شمالاً ثم آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة ومنها جزيرة كوس (Kws) وجزيرة قبرص ثم أقاموا فى مصر حكومة بيروقراطية شديدة التركيز ، ونظاماً اقتصادياً ملكياً "Economie Royale dirigée" على حد قول العالمية البلجيكية الراحلة كلير بريو "Claire Préaux" فى كتابها الخالد "Economie royale des lagides" وهو موسوعة شاملة لنواحى كثيرة من ألوان هذا الاقتصاد الموجه والمنظم والشامل لنظام الأراضى بتشكيلاته المختلفة ، ونظام الالتزام فى جباية الضرائب والاحتكارات ، والضرائب المختلفة والأعباء (Leitourgiae) ، والالتزامات (Obligations) وهى كثيرة ومتنوعة امتلأت بها الخزانة الملكية (τό βασιλίκον) والشون (Thesauriae) المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وهى غاصة بمحاصيل القمح والشعير والقمح المستنبط فى خلال ثلاثة أشهر (τρις μενος σιτος) والنباتات الزيتية المختلفة من سمسم وبذر كتان وخلافة.

وقد بانت أمارات الحركات القومية فى مصر البطلمية بدءاً من تاريخ معركة رفح سنة ٢١٧ عندما تحقق النصر للجيش بفضل ذلك الفيلق المصرى (Phalanax) المدرب بواسطة القائد سوسيبيوس "Sosibius" وانتصاره على جيش الغازى أنطيوخوس ، وعندئذ بدأ المصريون يطالبون بحقوق وامتيازات نظير ماكسبوه من

نصر على جيش العدو الغازى ، وقد توالت الحركات القومية فى مصر بعد ذلك التاريخ ، وبان ذلك بشكل جلى فى عهد ملوك البطالمة الأخيرين الذين كانوا أسخياء فى منح حقوق الإيواء للمعابد المختلفة والصغرى منها بوجهة خآص. وهى حقوق heira asyla كفلت لتلك المعابد كرامتها وقدسيتها ، وكانت ملاذاً للاجئين واللائذين بها.

وقد تعثرت الأمور فى مصر على عهد بطلميوس يورجتيس الثانى وزوجتيه (الأم والابنة) ، وعهد بطلميوس الزمار والد كليوباترة السابعة منذ عام ٥٩ ق.م عندما طرده أهل الإسكندرية على أثرٍ تفريطه فى التنازل عن قبرص لروما ، ولكنه لجأ إلى روما التى أسبغت عليه لقباً أجوفاً وهو الصديق والحليف "amicus et socius" فى نظير الرشاوى التى أغدق بها على الرومان وعلى زعمائهم واستطاع بفضل بمبى وعميله جابينيوس أن يعود إلى مصر فى عام ٥٤ ق.م.

وجاء عهد كليوباترة السابعة منذ عام ٥١ ق.م حتى ٣٠ ق.م حافلاً بالأحداث الجسام والمحالفات مع قائدين عظيمين رومانيين هما يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس ، وعقدت زيجة بينهما وبين القائد الآخير ماركوس أنطونيوس وأنجبيت منه ذرية كثيرة ، ولكن حلفها معه باء بالحزن المبين ، وانتهى بهما المطاف إلى انتحار كل منهما على التوالى ، وبذلك دخلت مصر فى حظيرة الرومان بعد أغسطس ٣٠ ق.م وانطوت صحيفة العصر الملكى البطلمى على هذا النحو المأساوى.

زكى على

مصر الجديدة

أغسطس ٢٠٠٠

الباب الأول
عصر المد

الفصل الأول

"الإسكندر" الأكبر فى مصر

"الإسكندر" الثالث هو ابن فيليب المقدونى من زوجته "أوليمبياس" ، وكان مولده فى عام ٣٥٦ ق.م. وقد وافته المنية وهو فى ريعانه شبابه فى بابل فى اليوم الثامن بعد العشرين من الشهر القمرى المقدونى "ديسيوس" فى عام ٣٢٣ ق.م ، وكان يبلغ من العمر إذ ذاك ٣٢ سنة وثمانية أشهر بعد أن قضى فى حكم إمبراطوريته المترامية الأطراف والمنبعجة فى الشكل أحد عشر سنة وأربعة أشهر. وقد عُرف على مضى الزمان بالإسكندر الأكبر (Magnus) ، وكناه العالم الألمانى "أولريخ فيلكن" فى مؤلفه الرائع عن "الإسكندر" بلقب (Der Grosse) ، وكانت وفاته وهو لا يزال فى ريعان شبابه وقمة مجده يمثل حدثاً جللاً هز المشاعر وزلزل عقول الناس فى كل مكان حتى أنه فى ذكرى وفاته الثانية بعد السبعين ، وهى الموافقة عام ٢٥٢ ق.م كان الناس فى مصر والسكندريون بصفة خاصة لا يزالون يذكرونه ويؤرخون بهذا الحديث الجلل ما يبرمونه مع الغير من عقود الدين التى يبرمونها[١] على النحو الآتى: (Trite phthinontos menos) أى فى الثالث من العقد الأخير من الشهر (ديسيوس) وهو فى المحاق بالعد التنازلى ، كما كانوا يستخدمون هذه الصيغة نفسها فى النص على موعد انعقاد مجلس البولى فى الإسكندرية[٢]. وهذا دليل قاطع على أن ذكرى وفاة "الإسكندر" كانت لا تزال عالقة بالأذهان بعد هذا المدى البعيد حتى أن الناس لم يجدوا أى ضير عند توثيق ما لديهم من عقود الدين أو عند عقد مجالسهم العامة من أن يؤرخوها بهذه الذكرى العطرة أو المريرة.

*

---

(١) "ت. اسكيت" - مجموعة بردى لندن ، الجزء السابع ١٩٧٤ ، رقم ١٩٨٦.

(٢) "بريشيا" فى كتابه عن النقوش رقم ١٦٤ سطر ٤ عن عقد دين بين امرأة وضابط يونانى فى الجيش. ثم "ب.مز فريزر" فى كتابه عن الإسكندرية فى عصر البطالمة سنة ١٩٧٢ ، الجزء الثانى فصل ٣، هامش ٣.

"والإسكندر" كان نبتاً فريداً وشخصية فذة لماحة ، وكانت له على مدى الأجيال المتوالية من الذكريات والقصص المتواترة الشئ الكبير وحيكت حول اسمه شتى النوادر ونُسبت إليه أعمال بطولية كثيرة. وقد حباه الحظ الوافر وسدد خطاه باستمرار فى التحركات العسكرية والأعمال الإنشائية والعمرانية التى أتمها وأصبح هذا التوفيق الذى لازمه فى حركاته وسكناته موضع تعليق الكتاب والمؤرخين الذين نوهوا بكنيته التى عُرف بها وهى (Eutyclhes) أى المحظوظ ، بل إنه هو نفسه كان مؤمناً بذلك ومعتبراً أن هذا هو قدره. ولم يكن يكف عن التلميح إلى مرافقيه بأن إلهة الحظ (Fortuna = tyche) كانت تقف إلى جانبه وتؤيده فى كل تصرفاته أينما حل، ولعل هذا الاعتقاد الراسخ كان هو الحافز له على الإقدام على كثير من المخاطر وركوب شتى الصعاب فى ميادين القتال، نظراً لعلمه المسبق بأن التوفيق لابد مُلازمه. ثم إنه فضلاً عن ذلك كان شديد الإيمان بأنه شخص لا سبيل إلى قهره وكلمة (Aniketos) هى الكنية الثانية الدالة على أنه لا يقهر. وقد أسبغت هذه الكنية عليه واشتهر بها ، وترجع نسبتها إلى واقعة معينة هى زيارته لمعبد "ديلفى" وما قيل عن تلقيه لنبوءة مشهورة فى معبد أبوللو هناك. وسواء أصحت نسبة هذه النبوءة إلى وحى "ديلفى" أم لم تصح وبصرف النظر عما ذكره كل من ""بلوتارخوس"" "وأريانوس" من ذهابه إلى "ديلفى" أو عدم ذهابه إليها وأسلوب تعامله مع الكاهنة المكلفة بالوحى ، فإن "الإسكندر" أصبح بعد ذلك هو الشخص الذى لا سبيل إلى مقاومته ولا إلى قهره. وقد تحقق له ذلك فى جميع المعارك التى خاضها ضد الملك الفارسى دارا الثالث وضد المدائن الكثيرة التى حاصرها على طول سواحل آسيا الصغرى والشام ومن أهمها حصار صور (Tyre).

وقد أثير حول قيامه بغزو مصر عدة تساؤلات ونُسب إلى ذلك العديد من التعليلات والذرائع ، وكان كنهها وجود استراتيجية بعيدة المدى وتخوف من احتمال اعتصام الأسطول الفارسى بموانى مصر كيما يقطع على "الإسكندر" طريق العودة إلى بلاده. وقيل فى هذا الصدد إن مصر لم تكن فى برنامجه الأصلى ولكن المؤرخ "أريانوس" أثبت أنه كان منذ البداية يفكر فى غزو مصر ، وهذا يُدحض القول بأنه فعل ذلك لتأمين ظهره. وقد فتحت مصر له أبوابها عندما زحف إليها عن طريق غزة والفرما ولقى ترحيباً بمقدمة كمخلص ومنجى لها من ظلم الفرس ،

وهكذا خضعت له مصر دون كبير عناء. ثم واصل المسيرة بمحاذاة الفرع البلوزى للدلتا حتى وصل إلى ممفيس. وهناك كانت له وقفة تاريخية لها مغزاها وفيها تم تتويجه وتنصيبه فرعونا على عرش البلاد بواسطة الكهنة فى معبد الإله "بتاح" بوصفه خلفا "لنختانبيو"[1]. وفى الفترة القصيرة التى قضاها فى ممفيس صدرت له بعض التصرفات التى يمكن أن نستشف منها وجهة نظره وأسلوبه المرتقب فى حكم البلاد ، فهو عندما أقام حفلا رياضيا وموسيقيا وشعريا فى ممفيس للآلهة اليونانية فى اللاهوت الأليمبى ، ابتهاجا بما أحرزه من نصر مؤزر أتبعه فى اليوم التالى بحفل مماثل تكريما للآلهة المصرية : بتاح "آبيس" "وايزيس" وعرف هذا الحفل هكذا (kousikos kai gyminkos agon)[2] فكان هذا التصرف من جانبه بمثابة لفتة كريمة واعتراف ضمنى بحسن تقديره للمشاعر المصرية وعزمه على الاستعانة الجادة بالعنصر المصرى فى برنامج حكمه للبلاد والاستعانة الجادة بالعناصر المصرية فى حكم البلاد.

ومن ممفيس ركب "الإسكندر" الفرع الكانوبى حتى وصل إلى نهايته ، وفى القرب من مصبه انتحى قليلا إلى حيث كانت تقع قرية للصيادين تسمى راقودة ووقع اختياره على هذه البقعة ، وأسس فيها مدينة حقة (Polis) على النسق اليونانى السليم وأسماها بالإسكندرية كيما تخلد ذكراه. وأثبتت المقادير أنه كان موفقا فى هذا الاختيار الحسن ، وقيل فى هذا الشأن أن هذا كان بإلهام من الشاعر هوميروس ، وقيل كذلك أنه استرشد بأهل نقراطيس حتى يضمن أن تكون المدينة بعيدة عن التيارات المائية الناجمة عن فيضان النيل ، وقيل كذلك أنه تذكر موقفه العصيب وقت أن كان يحاصر مدينة صور التى قاومته وصادف فى حصارها أهوالا وعنتا كبيرا من قبل المقاومة المستميتة التى بذلها سكانها ، مستعينين فى ذلك باستراتيجية المدينة المحاصرة والمفتوحة صوب البحر. وقد وجد فى جزيرة فاروس الواقعة فى مواجهة الشاطئ إمكانية ربطها بالساحل ببناء جسر طوله سبعة فراسخ ، وبذلك انقسمت الميناء إلى شقين ، وقد فصل العالم الهولندى "فان جرونجن"

---

(1) εθρονιζον αυτον εις τοτον ηθαιγτον (Pseudo-Callisthenes ‘A,1,34,2).

(2) Arrianus iii, 1, 4, και αγυνα επεοιησε γψμνικον και μουσικον.

المقاصد والأغراض الكامنة من وراء تأسيس مدينة الإسكندرية التى كانت أولى المدائن الثلاث عشر التى تحمل هذا الاسم[1].

وبعد ذلك أزمع "الإسكندر" على القيام برحلة فريدة إلى واحة سيوة لزيارة معبد مشهور هناك كان مُكرساً للإله آمّون بتشديد الميم (Ammon) كناية عن أنه سيد الرمال[2]. وكان الشوق (Pothos) قد هزه وجعله يقدم على القيام بهذه الزيارة فى وقت عصيب دون أن يأبه بأى من الصعاب المرتقبة ولا بالملك الفارسى المتربص له على رأس قواته غربى الفرات. ولا ريب أنه كانت تحدوه عدة أغراض انتواها فى نفسه من أجل هذه الزيارة ، وقد أثارت هذه المرحلة اهتمام العلماء لما شابها من غموض شديد حول الدوافع والأغراض الحقيقية منها والكيفية التى تسنّى بها فى الدفاع عنها حتى ترك المهام العسكرية ظهرياً إلى حين وأقدم على القيام برحلة شاقة ومحفوفة بكثير من المخاطر دون أن يُبالى بأى نصح من رفاقه كيما يعدل عن هذه المخاطرة. إنه سار بحذاء الشاطئ صوب الغرب حتى وصل إلى مرسى مطروح ثم شق طريقه فى جوف الصحراء نحو الجنوب حتى بلغ واحة سيوة. وقيل إنه ضل الطريق وتعرض لأهوال كثيرة منها العطش والغوص فى الرمال وكثبانها ، وقيل إن الطيور والغربان هدته وأن الغمامات أظلته من قيظ الشمس ، وإن السماء أمطرت وابلاً مدراراً فكان فى هذا الإنقاذ لحماية حياة الرهط الكبير المحيط به من الهلاك. وفى آخر المطاف وصل إلى معبد أمّون حيث استقبله الكاهن الأعظم بالترحاب وأسبغ عليه شتى الألقاب التقليدية بوصفه فرعوناً مُتوجاً من قبل فى ممفيس ثم صحبه إلى قدس الأقداس بمفرده. وكان طبيعياً أن تثار بعض التكهنات الكثيرة حول مغزى هذه التحية التى قوبل بها من الكاهن الأعظم الذى ناده بابن "زيوس أمّون" ، على حد قول "كالسثنيس" وحول معرفة أسلوب

---

(١) انظر المقال المنشور فى مجلة كلية الآداب ، الجزء الثانى سنة ١٩٤٤ ، جامعة الإسكندرية، لمؤلفة "زكى على" ، تلخيص للآراء التى أدلى بها "فان جرونتجن" على الملابسات التى أحاطت بهذا التأسيس ثم ماجاء فى "استرابون" ، الكتاب السابع عشر من جغرافيته عن تخطيط المدينة ووصف مؤسساتها ثم "ب.م. فريزر" ، "الإسكندرية البطلمية" ، الفصل الخاص بطبوغرافية المدينة.

(٢) Psommos كلمة يونانية معناها الرمال ثم اشتق منها "آمّون" (Ammon).

التخاطب ولغة الحوار الذى جرى بين "الإسكندر" والكاهن الأعظم فى أثناء خلوتهما داخل قدس الأقداس. وقد لوحظ أن "الإسكندر" عند خروجه من هذا المحراب قد انبسطت أسارير وجهه وانتفخت أوداجه ، مما دل على أن نفسه قد استراحت إلى شيء مما سمعه من الكاهن وأنه اطمأن إلى سر عظيم فيما يخص أبوته المزدوجة وأصل بنوته (Teknosis) ، فهو بوصفه أجد فراعنة مصر كان له أب من البشر وأب روحانى هو الإله آمون – رع. ويبدو أن هذا التفسير البراق قد راق لدى "الإسكندر" ورحب به ، وقد أخفى هذه الفكرة عن جميع مرافقيه ويعث لأمه "أوليمبياس" ينبئها بأن لديه سر خطير ، آثر الاحتفاظ به حتى يلقاها فيسر به إليها. ولكن القدر لم يمهله حتى تتحقق له بغيته هذه ، فمات وأخذ معه هذا السر الدفين ، تاركا العلماء وهم فى حيرة يتخبطون فى التعرف على كنه ذلك. وكان ممن أعملوا الفكر من الأقدمين: "كليتارخوس وآريانوس ويلوتارخوس واسترابون وديوردورس الصقلى وكيرتيوس" ، ومن العلماء الحديثين : "أوليرخ فيلكن وتارن وفيكتور إيرنبرج وبيتر جرين وجورج راديه وهوجارث وغيرهم". وكل هؤلاء تناولوا هذه الإيماءات وأخذوا يتلمسون البعض من التلميحات عن مغزى هذه النبوءة وموضوع الألوهية التى شاعت عنه ، وجاءت التكهنات والأراجيف تترى بكثرة عن هذه الأمور وما يترتب عليها من عبادة "الإسكندر" ، وما لبث أن شاع فى أوربا وآسيا ومصر فى العصر الهيللينستى وفى العصور الوسطى شتى الأقاويل التى روجتها المدارس الفلسفية المختلفة من الرواقيين والكلبيين وغيرهما ، وانتشرت الروايات الرومانسية عن مولد "الإسكندر" ونسبة بنوته إلى "زيوس" – "آمون" ومدى تمسكه بالتعاليم التى تلقاها فى مطلع شبابه على يد أستاذه العظيم الفيلسوف "أرسطاطاليس" عن النظم السياسية فى الحكم وعلوم الميتافيزيقيا والأخلاق والطبيعة وقد نصحه هذا الفيلسوف بأن يفرق فى المعاملة بين الشعوب المحكومة فيعامل رعاياه من اليونانيين الحنون والعطوف بوصفه الزعيم (Hegemon) أما بالنسبة لغير اليونانيين من الشعوب التى كناها "أرسطاطاليس" بالبرابرة فيقتضى معاملتهم بوصفه حاكما مطلقا مستبدا (Despotes)، ولكنه ضرب عرض الحائط بهذا النصيحة الفجة.

وعبادة "الإسكندر" أصبحت مرعيه فى الإسكندرية وشتى أنحاء مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد وجاءت الأدلة على ذلك متواترة فى العديد من النقوش وأوراق البردى ، ولعل أهمها ما جاء فى قوانين الأحكام السائدة فى الإسكندرية (Dikaiomata) ، وهى المسطرة على بردية مشهورة نشرت فى المانيا سنة ١٩١٣ وتسمى (Pap. Halensis) فى الأسطر ٢٤٢-٢٤٥ ، وتقضى بتخصيص مبلغ ٥ ٪ وتحصيلة من أثمان البيع والشراء فى كل من الأراضى والعقارات من بيوت وأراضى البناء ، على أن تورد كل هذه المبالغ لدى السلطات القائمة على بيت المال (Fiscus) وتصبح هذه مكرسة للصرف على عبادة "الإسكندر" مما يتجمع من هذه الحصيلة ، وها هو منطوق ذلك النص القاضى بذلك

τασσετηο τοις ταμισις των μεν εκατον δραχμας ε χωρις των σηιν ... εστο δε τουτο ιερον Αλεξανδρωι[1].

وقد استطاع ""بلوتارخوس" " بكل ما أوتيه من براعة وقدرة على التحليل وسرد النوادر مع توخى الأصالة ، أن يُتحفنا بسيرة متكاملة عن حياة "الإسكندر" ، فسرد لنا نتفاً لها طرافتها عن علاقته بأبيه وأمه وبمختلف المربين والأساتذة وبخاصة "أرسطاطاليس" ثم برفاقه وخلانه وجنده فى أوقات الجد واللهو ، فجاءت الصورة متوازنة ومتسقة ولكنها بعيدة عن أن تكون تاريخاً مؤيّداً بالأسانيد والوثائق ، وقد أفصح ""بلوتارخوس"" نفسه عن أنه لم يقصد شيئاً من ذلك. وإذا ما عرضنا لحياة "الإسكندر" بالتحليل وسلطنا عليها الأضواء ، فإنه قد يشوقنا أن نقف على سلوكه فى شتى المناسبات ، وما كان يعتريه بين حين والآخر من انفعالات وثورات مضرية غاضبة ، فقد كان إنساناً مرهف الحس وميالاً بطبعه إلى سرعة الانفعال. وإذا ما استعرضنا هذا القصص الطويل الذى أتحفنا به ""بلوتارخوس"" عن "الإسكندر" فى حله وترحاله فإننا نجد فيه شخصية جابت أقطاراً نائية شرقى الفرات حتى وصل إلى أفغانستان ثم البنجاب شمالى الهند. وقد عرّج "بلوتارخوس" على وصف طبيعة هذه البلاد وما كان بها من خيرات مبهرة ومعادن وزيوت ونباتات ثم بين لنا الكيفية التى اقتبس بها "الإسكندر" شيئاً كثيراً من عادات تلك البلاد فيما

---

(1) P.M. Fraser, "Ptolemaic Alexandria" 1972, Vol. II, P. 203, Note 151

يختص بالزي والسلوك والطقوس والمراسم حتى أنه حاول أن يفرض على أتباعه طقساً بابلياً وفارسياً هو تحية السجود (Proskynesis) لشخصه ، وأوجب على الناس أداء ذلك عند اللقاء به أسوة بما كانوا يفعلونه مع ملوكهم الأقدمين. ولكن الفيلسوف السفسطائى "كاليسثنيس" انبرى له متصدياً ومعارضاً فى أداء هذا الطقس وأنكر عليه ذلك واعتبره سُبّه فى جبين المقدونيين واليونانيين على السواء. ولذلك أعرض "الإسكندر" عن غيه وأعفى هؤلاء اليونانيين من هذا الطقس فقط أما الفرس فاستمروا يؤدون له هذه التحية السقيمة والمقززة ، وبذلك يكون "كاليسنيس" قد أسدى خدمة جُلّى لليونانيين عامة بتخليصهم من عار كبيركما خلص "الإسكندر" نفسه من عار أكبر (η αισχενε μειζων) ، وكلما مضينا فى التفنيد والتحليل الدقيق لكل ما جاء عن "الإسكندر" فى المصادر الأصلية الأخرى ، ومنها "آريانوس وكليتارخوس وديودورس الصقلى واسترابون وكيرتيوس" ورجعنا إلى الأصول التى استقى منها كل واحد من هؤلاء فى الحصول على مادته العلمية ثم ما ردده كل واحد على حدة من هؤلاء عن الآخر ، فإن هذا قد يفسر ما جاء لدينا من تصور عن شخصية "الإسكندر" ، فالبعض منها مشرق ومؤيد تماماً بينما الآخر جاء بكل أسف قاتما ومنكراً ، وقد تجتمع الصورتان فى مؤلف واحد ، كما هو الحال فى "ديودورس". وهنا قد يتساءل الإنسان عما إذا كانت صورة "الإسكندر" قد اعتراها شئ من التغيير والتبديل بعد انتصاره الحاسم على دارا الثالث فى موقعة "جَوجميلا" فما لبث ذلك القائد المظفر أن انقلب من شخص عطوف وحليم ومقدام ومعتدل ومتأنى ومحبب إلى الجميع إلى وحش كاسر، متقلب وغادر ومدمن لشرب الخمر ومستبد ومتغطرس ، وكانت تغلب عليه بين حين وآخر الغلظة والعنجهية. فما هو يا ترى تفسير هذا التغيير الفجائى ، وما هو رأى كل من المدارس الفلسفية الأربعة وهى المشاءون والرواقيون ورجال الأكاديمية والإبيقوريون ؟؟ على أن اليونانيين جميعاً وقفوا منه بعد موته موقفاً عدائياً وسارت مدرسة الإسكندرية على هذا النهج وأشبعه هؤلاء وهؤلاء لوماً وتقريعاً على سلوكه المعيب وانقلابه من تلميذ نابه وسمح وطيع لتعاليم أستاذه فى صباه على النحو الذى أخرجه عليه معلمه الكبير "أرسطاطاليس" فقوّمه حتى بدا فى أحسن تقويم ، ولكنه تحول إلى شخص متغطرس يملؤه الغرور وتنتابه حالات

نفسيه كلها عجرفة وعنجهية وقحة (Hypris and Typhos) حتى أصبحت هاتان الرذيلتان هما الصفتان اللصيقتان به υβυs και τυφos وهو شغوف (Potheinos) متعجل وولهان ومشتاق.

على أنه لا ينبغى علينا الانسياق بطريقة جزافية ونتعجل فى الحكم ونجرى وراء أى من المادحين أو القادحين ، فلا نأخذ كل ما سطره "آريانوس" "وبلوتارخوس" على علاته ونقبله على عواهنه ، بل إن الواجب يقتضى منا تفنيد ذلك فنطرح الغث من الصفات والنابى من التفسيرات ولا نعتد بكل ما ذكره "ديودورس" "وكيرتيوس" فكلاهما كان يتخبط ويعترّيه التناقض فيما أقتبسه ، ولذلك جاءت كتاباتهما عنه متسمة بالخلط وتمثل خليطا جمع بين الغث والسمين ، ومن الإنصاف "للإسكندر" باعتباره شخصية عالمية أحاطت بها هالة ضخمة من العظمة ونسجت حولها شتى الأقاصيص فى الشرق والغرب قديما وحديثا ، أن نحرص على ذكر ماله وما عليه. وهو بلا ريب قد تحول وانبهر وتأثر بما صادفة فى الشرق من مظاهر العظمة والأبهة ، ثم إن الأحداث والمصاعب الجمة التى واجهته والصدمات الكثيرة التى تعرض لها والجروح العديدة التى أصابته فى أجزاء كثيرة من جسمه ثم السرعة الفائقة التى كان يؤدى بها أعماله ويصرف بها أموره ، كل هذا كان لابد أن يترّك أثره العميق فى نفسه ويهز وجدانه ويعيد حساباته وتقديراته فى ضوء تلك المستجدات. وفوق كل هذا كانت العقدة الكبرى فى حياته ما لازمه من عقدية راسخة بأنه إنسان محظوظ وأن الحظ كان دائما فى عونه وأن القدر سخر له الطير والريح يخوض فى بحر رمال الصحراء كيما تكون فى خدمته ، كل هذا ساهم فى إفساد شخصيته وحوله إلى إنسان يملؤه الغرور وجعله مستبدا ، بل وطاغية فى تسيير دفة حياته.

وهناك أدلة كثيرة وقاطعة على أن "الإسكندر" كان فى حياته العامة والخاصة يؤمن بالتطير وتستهويه الغيبيات ويضع ثقته التامة فى الفئول ، فيستبشر بها أحيانا وينفر من نذر التشاؤم أحيانا أخرى. ولذلك كان يحيط نفسه دائما بنفر من العرافين والمفسرين للنبؤءات (Prophetae and augurs) من اليونانيين والبابليين ، وهؤلاء كانوا يوافونه دائما وفى كل حين بتفسير النبوءات والفئول ، وما كان يتراءى له من شواهد خارقة فى أحلام نومه أو يقظته. ومن أشهر هؤلاء المفسرين

شخص يونانى يسمى "أريستاندروس" (Aristandros) ، وهكذا كان هذا الجانب الروحانى والدينى مؤثراً فى حياته ، وقد ورثه عن أمه "أوليمبياس" التى اشتهرت بأعمال السحر والتنجيم والانسياق إلى الروحانيات والشعوذة ولها ولع شديد بأعمال خارقة.

ويُمثل الجانب العمرانى وأعمال التشييد والبناء صفحة فخار "للإسكندر" الذى أدرك بعقله الثاقب منذ أول الأمر أن يواكب برنامجه العسكرى خط سير عمرانى متزامن ، فعمد إلى تأسيس ثلاثة عشرة مدينة (Oppida = Poleis) تحمل اسمه وكلها فيما عدا الإسكندرية المتاخمة لمصر (Ad Aegyptum) تقع شرقى الفرات ، وكان قصد "الإسكندر" أن تكون هذه المدائن بمثابة بواتق حضارية وعمرانية ومنارات ومراكز ثقافية وتجارية تربط أجزاء هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وتُوطّد سكانها وتضمن لهم حياة مستقرة. وهكذا كان هذا البرنامج العمرانى العظيم (grandiose acheme) مفخرة له ، ومن بين هذه المدن الإسكندرية القاصية الموصوفة بكلمة (eschaté) ، ومحلها الآن طشقند فى أفغانستان ثم ترمز فى بلاد الصفد (Sogdiara) وغزنة وهيرات وقندهار. وهكذا ترك "الإسكندر" بصماته فى أرجاء الشرق وقصد أن ينصهر فى أرجائها الأعاجم واليونانيون وتمتزج الشعوب وتزول الفوارق بين اليونانيين ومن عداهم من الشعوب الشرقية.

وهاهى أهم المراجع

١. "أريانوس" وكتابه المسمى - Anabasis.

٢. "بلوتارخوس" - حياة "الإسكندر".

٣. "ديودورس" الصقلى - تاريخ العالم ، الكتاب السابع عشر.

٤. "كوينتوس كيرتيوس" - تاريخ "الإسكندر".

٥. "أوليرخ فيلكن" - "الإسكندر" الأكبر (Der Grosse).

٦. "و.و. تارن" - "الإسكندر" الأكبر - الجزء الأول والثانى.

٧. "بيير جوجيه" - الإمبريالية المقدونية (Macedonian Imperialism).

٨. جورج راديه - "الإسكندر" الأكبر ، ١٩٣١.

٩. "د.ج. هوجارث" - "فيليب والإسكندر المقدونى".

١٠. "بيترجرين" - "الإسكندر" المقدونى.

١١. "فيكتور إيرنبرج" - "الإسكندر" واليونانيون ، ١٩٣٨.

١٢. "فيكتور إيرنبرج" - "الإسكندر" ومصر - طريحة من الدراسات فى الشرق القديم، رقم (٧) ، ١٩٢٦.

١٣. "مارجريت بيبر" - "الإسكندر" الأكبر فى الفن اليونانى والرومانى ، ١٩٦٤.

١٤. "و.د." قارن "الإسكندر" الأكبر - جزء أول مترجم إلى العربية فى عام ١٩٦٠، بواسطة "زكى على" ونشرته وزارة الثقافة.

"بطلميوس" الأول الملقب سوتير "Soter" (أى المخلّص والمنجى)

كان "بطلميوس" بن لاجوس ، المقدونى الأصل هو المؤسس لدولة بطلميـَـة ، ظلت قابضة على ناصية الحكم فى مصر طوال ثلاثة قرون من عام ٣٢٣ ق.م حتى ٣٠ ق.م، وحياة هذا الملك حافلة بالأحداث الجسام ومليئـة بـالحروب شـرقاً وغربـاً وكانت فتوحاته وغزواتـه بحسـاب ومقـدار ، وليـس سـبر غـور حيـاة هـذا الملـك والتعرض لسجل أعماله بالأمر اليسير وقد صادفه التوفيق فى جميع مراحل حياتـه فى أكثر من مجال ، وذلك بفضل ما كان يتحلى به من بُعد النظر والروية والتـؤدة والحصافة والدهاء مع توخى الحرص الشديد فى كل تحركاته. ولقد كان من حُسـن حظ مصر أن وقع اختياره عليها بمحض إرادته ، بل وبإصرار شـديد منـه ، فـآلت إليه لقمة سائغة كنصيبه فى تقسيم الولايات بين القواد من خلفاء "الإسـكندر" أو أخلافه. وكان "بطلميوس" إذ ذاك فى سن الأربعين ، وقد عركتـه الأيـام وحنّكتـه التجارب طوال الفترة التى كان يلازم فيها الإسكندر ويعمـل فـى صحبتـه بوصفـه واحداً من خيرة قواده وأركان حربه ، وخاض إلى جانبه شتى المعارك وصادفته أشـد الأهوال فى الحرب ضد الفرس فى غرب آسيا. وبذلك أتيحت له الفـرص العديـدة كيما يقف على أخص الأمور وأدقها فى السياسة العليا ، (وكـان يعتـبر مـن خـيرة قواد الإسكندر) وأقرب المقربين إليه ومن أحبهم إلى نفسه وأكثرهم دهـاءاً وحنكـة. وكانت ظروفه وهو فى مقتبل العمر قد أتاحت لـه أن يكـون رفيقـاً "للإسـكندر" وعضداً له عندما تأزمت العلاقة بينه وبين أبيه فيليب الثـانى بسـبب إقـدام والـده على عقد زيجة مـن أمـيرة إيـبروس تسـمى "يوريديكـة" (Eurydicē) (مـن ولايـة إيبروس) وطلاق أم الإسكندر ، "أوليمبياس" (Olympias) ، وشـاءت الظـروف أن يكون "بطلميوس" نعْم النصير "للإسكندر" فى هذه المحنة ، ولم يضره فى شـئ أن وقع عليه غضب فيليب ، فنفاه مع آخرين من الموالين "للإسـكندر" ، ولكـن مـدة هذا النفى لم تطل، إذ عاد ومعه جميع المنفيين بعد اغتيال فيليب فـى عـام ٣٣٦ ق.م ، وتـولى ابنـه الإسـكندر عـرش مقدونيـا. وعندئـذ عيّـن الإسـكندر صديقـه

"بطلميوس" في هيئة أركان حربه وقرّبه منه ثم جعله واحداً من حراسه الخصوصيين وهم الذين يكنون بالإسم الآتي Ptolemaiôn mèn somatophylaka katestesen somatophylakes.

كان "بطلميوس" فى رفقة الإسكندر عندما قام بفتح مصر وتخليصها من حكم الفرس فى عام ٣٣٢ ق.م ، وصار ملازماً له طوال الفترة القصيرة التى قضاها الإسكندر فى مصر ، وهى لا تعدو بضعة شهور ، فاستطاع أن يطلع على الخطط العريضة التى كان ينتويها الإسكندر بالنسبة لمصر. إنه شارك ولابد فى وضع المنهاج العام الذى استنه الإسكندر عندما وكل إلى ثلاثة من الرجال اثنان مصريان هما" دولوأسبس" Doloaspis ، "بيتسيس" Peteesis وثالثهم "كليومينيس" اليونانى وهو من أهل مدينة نقراطيس (مركز إيتاى البارود) فى غرب الدلتا ، وقد كلفهم بتنفيذ برنامجه ثم رحل عن البلاد فى ربيع عام ٣٣٢ ق.م ، وشاءت الظروف أن يستأثر "كليومينيس" بالسلطة (بعد توارى الموظفين المصريين) بتفويض من الإسكندر فترك له الحبل على الغارب حتى وفاة الإسكندر فى عام ٣٢٣ ق.م ، وعندئذ آلت هذه المهمة العمرانية إلى "بطلميوس" بوصفه الشاغل فى أول الأمر لمنصب رفيع هو الساتراب أو المرزبان (Satrapes) على مصر ، وكان بمقتضى ذلك يعمل بالنيابة عن صاحب الحق الشرعى وهو "الإسكندر" الرابع (الابن الرضيع من زوجته الفارسية روكسانة (Roxanē) والوصى عليه المسمى "فيليب أريدايوس" ، وهو أخ غير شقيق للإسكندر). وقد طالت فترة النيابة هذه حتى بلغت قرابة عشرين عاماً فى عام ٣٠٥ ق.م. حينما أعلن نفسه ملكاً على مصر (أسوة بما فعله بعض زملائه فى ولاياتهم وجاءت الإشارة إلى تلك الحقبة صريحة فى ديباجة فى وثيقة بردية فى مجموعة بردى إلفانتين وهى المرقومه برقم واحد وقيل ذلك فى ديباجتها وتأريخها. وهى عبارة عن عقد زواج مشهور بين "ديمتريا" "وهراقليديس" ، وجاءت الديباجة التى أرخ بها هذا العقد على النحو الآتى : فى السنة السابعة من حكم الإسكندر الرابع بوصفة ملكا شرعيا ، وفى السنة الرابعة عشرة من ولاية "بطلميوس" بوصفة ساترابا على مصر) ، ويقابل هذا التاريخ عام ٣١١-٣١٠ ق.م. فلما جاء عام ٣٠٥-٣٠٤ ق.م أعلن "بطلميوس" نفسه ملكا (Basileus) علي مصر

أسوة بما فعله غيره من الزملاء من قواد الإسكندر وهم الذين استأثروا بملك البلاد التى تولوا إمرتها فى آسيا وأوربا ، وبعد ذلك قضى "بطلميوس" عشرين سنة أخرى امتدت حتى قضى نحبه فى عام ٢٨٣ ق.م كان فيها يتولى زمام الأمور بوصفه حاكما مطلق اليدين وينفذ سياسة قوامها البطش والجبروت ، وبذلك بلغت جملة مدة حكمه ٤١ سنة قضى نصفها تقريبا بالنيابة ونصفها الآخر بالأصالة ، وكان "بطلميوس" طوال حكمة يتحسس طريقه ويحسن تدبير أموره ويضع خططه فى حرص شديد ويتخير أصدقاءه. ويستدعى نفرا من الفلاسفة والمفكرين فى بلاد اليونان وجزر بحر الأرخيل ويهيئ لهم مقاما هنيئا فى ربوع الإسكندرية ويغدق عليهم من المال والعطف الشئ الكثير وكان على رأسهم "ديمتريوس الفاليرى" بالإسكندرية مما ألهج ألسنتهم بالشكر والعرفان بالجميل. وفضلا عن ذلك فقد أنشأ الطقوس والكهانات السنوية حسبما جاء فى أبكر بينة دالة على ذلك ، وجدت فى وثيقة بردية من مجموعة بردى إلفانتين رقم "٢" (وجرى تأريخها على النحو الآتى : "فى السنة الأربعين من عهد الملك "بطلميوس" وفى كهانة "مينيلاوس" (Menelaus) بن لاجوس"[١] ، وفى أغلب الظن كانت تلك الكهانة التى شغلها أخ حميم للملك "بطلميوس" الأول فى ذلك الحين ترجع إلى خمس سنوات سابقة على هذا التاريخ أى أنها أنشئت فى عام ٢٩٠ ق.م).

العبادة الأسرية متوجة باسم "الإسكندر" واستهلالها باسمه الكريم :

نشأت تلك العبادة مصحوبة بعبادة "الإسكندر" بقصد تخليد ذكرى ملوك البطالمة المتعاقبين ، وعلى رأسهم "بطلميوس" الأول (وكان كهنتها يختارون من بين الأسر النبيلة ومهمتهم رعاية طقوس هذه العبادات وبأسمائهم كانت تؤرخ الوثائق وكافة الصكوك) ، وكان الوازع على نشأة هذه العبادة الأسرية "المتوجة باسم الإسكندر هو حرص الحكومة على توكيد فكرة مبتدعة ، أريد تثبيتها فى الأذهان وهى عن علاقة "بطلميوس" الأول وسلالته بالإسكندر ، وبالتالى انتسابهم إلى الفرع الذى كان "الإسكندر" يباهى به ويدعى الانتماء إليه فى مقولة مشهورة له

(1) Papyri Elephantine No. 2 = Select Papyri by Edgar and Hunt No. 82, dated 285-284 B.C.

وهو يدعو الآلهة كيما تبارك خطواته وتسددها طالما أن نسـبه يرجع إلى "زيـوس". ومما لا ريب فيه أن هدف "بطلميوس" كان ينطـوى علـى نـوع مـن المماحكـة أو بالأحرى الالتصاق باسم هذا البطل العظيم ، ويقتضى هـذا بالتبعيـة إضفـاء مهابـة على الملك البطلمي وفيه تدعيم كبير لمركزه فى مصر ، وفضلا عن ذلك فـإن فيـه مغزى لا ينبغى أن يغيب عن الأريب وهو أن عاصمة ملكه وهى الإسكندرية بعـد اكتمال بنائها هى بحق تلـك المؤسسـة المدنيـة التـى بـارك "الإسـكندر" تخطيطـها وأشرف على وضع القواعد والأسس فى أهم مبانيها وأسوارها وحوائطها ومعابدها ، ثم وكل إلى "كليومينيس" الشروع فى بناء أسـوارها وحوائطـها ومعابدهـا ، فلمـا جاء "بطلميوس" الأول أكمل هذه المهمة وأتمها على خير وجه فخرجت المدينة فـى أبهى حلة ، وكانت قبلة الأنظار فى الحوض الشرقى من البحر المتوسـط وأصبحـت المثل والأنموذج الذى احتذاه "بطلميـوس" الأول عندمـا فكـر فـى تأسـيس مدينـة يونانية أخرى فى جوف الصعيد بإقليم سوهاج أسماها بطلمية (Ptolemais) تيمنـا باسمه ومحلها الآن بلدة المنشاة. وقد راعى أن تكون بها عبادة أسرية وكهانـة سـنوية ترعى شئون هذه العبادة للملك "بطلميوس" سوتير (أى المخلص) باعتباره المؤسس الأول لتلك المدينة، وفى إنشاء عبادة أسرية دليل على أن "بطلميوس" جال بخاطره قيام عبادة ينـدرج فيـها أفـراد البيـت المـالك علـى التـوالى ، فيكـون هنـاك الإلـه "بطلميوس" سـوتير وزوجتـه برنيقـة وهمـا يعبـدان تحت الاسـم الآتــى: الإلهـان المخلصان (Hoi Theoi Soteres) ثم يجئ بعدهما ابنـهما "بطلميـوس" فيلادلفـوس فيعبد هو وزوجته الثانية وهى أخته "أرسينوى" الثانية تحت الاسم الآتـى : الإلهـان الأخوان (Hoi Theoi Adelphoi) ، والحال بالمثل مع باقى ملوك البطالمة ، وقد لقبوا بألقاب تنم عن فعل الخير أو المحبة للأخت وللأم وللأب ، ولعل مثل هذه الأفكـار المنطوية على اعتبارات شخصية أو أسـرية والتـى قضـت بـها سياسـة عليـا ، كـان ينتويها هذا الملك الأول لاعتبارات أملتها سياسة الحكـم البـيروقراطى وطبقـها هـذا الملك الحصيف والسياسى البارع. على أن هذه الأفكـار كـانت فيمـا يبـدو غريبـة على طباع رجل مثل "بطلميوس" الأول الذى عرف بأن نفسه فطـرت علـى روح الجدية والواقعية والترفع عن سفاسف الأمور وعدم التمسك بالشكليات. وقد ألفنـا

فيه روحا عملية دأبها مراعاة التخطيط والإعداد الجيد للسياسة التى ينوى اتخاذهـا.
والغالب على الظن أنه كان يروم تـأصيل وتوكيـد فكـرة راودتـه منـذ زمـن بعيـد
وملكت عليه فؤاده ، وهى وجود علاقة وثيقة وصلات حميمة تربطـه بالإسـكندر
مؤسس المدينة العاصمة وهى الإسكندرية. وقد رأى بعين صائبة أن فى التمسك بها
رفعة لشأنه ومباركة لخطواته. ومما لا ريب فيه أن "بطلميـوس" الأول خطـط لكـل
ذلك منذ أول الأمر فكان فى صدر عهد ولايته على مصر أى فـى عـام ٣٢١ ق.م
يسعى جاهدا لجلب جثمان الإسكندر إلى مصر والاسـتيلاء عليـه عنـوة مـن قـائد
الموكب الجنائزى ، وهو الساتراب "فيليب أريدايوس" (Philip Arrhidaeus) عندمـا
كان يسير به محمولا على عربة حربية من بـابل ، متجـها صـوب مقدونيـا ، فلمـا
التقى به فى الشام أقنعه أو على حد قولهـم أغـراه بـأن مـن الخـير أن يحمـل هـذا
الجثمان كيما يدفن أولا فى ممفيس ثم ينقل بعد ذلك إلى الإسكندرية بعـد تهيئـة
القبر اللائق به ليستقر فيه، وهو ما يعرف باسـم السـوما (Soma) أى الجثمـان ثـم
حرفت الكلمة إلى (Sema) أو على حد قول اليونانيين "منيمـايون" (Mnemeion)
بمعنى القبر. ويعتبر استيلاء "بطلميوس" على جثمان الإسكندر عمـلا فريـدا ، دل
به على بعد نظره الثاقب وعلى مدى عبقريته ، وقد جاء فى الوصف الرائـع الـذى
دبجه المؤرخ والجغرافى "استرابون" عن الإسكندرية التى زارها فى مسـتهل الحكـم
الرومانى (٢٤ق.م حتى ٢٠ ق.م) أن قبر الإسكندر كان من بين المعالم الشهيرة التـى
يقوم بزيارتها العظماء ، ومنهم الإمبراطور أغسطس سـنة ٣٠ ق.م. ويقـع هـذا القـبر
وكذلك المتحف (Mouseion) فى حرم القصـور الملكيـة وفـى تخومـها فـى منطقـة
السلسلة (بالشاطبى الآن)[1]. وقد حرص "استرابون" فى وصفه هذا على سرد قصة
صور فيها الوالى "بطلميوس" وهو يخوض هذه التجربة الناجحة متحديـا فـى ذلـك
"برديكاس" ، وهو الوصى على ملك الإسكندر وهكذا كـان "بطلميـوس" متـآمرا
مع قائد المسيرة وصاحب الموكب الجنائزى. وقـد اسـتطاع "بطلميـوس" بدهائـه أن
يستولى على العربة المحمول عليـها الجثمـان بخديعـة وان ينقلـها إلى الإسـكندرية.

---

(1) Strobo, Book XVII, 1,8 = C794.

ويشوب رواية "استرابون" هذه عدم توخى الدقة فى جميع تفاصيلها، وهى لا تزال حتى الآن فى حاجة إلى بعض التفنيد.

ولعل الشق الصحيح فيها قول "استرابون" إن "بطلميوس" الأول هو الذى نقل الجثمان إلى الإسكندرية ، وهذه المقولة أفضل من رواية أخرى نسبت هذا العمل إلى ابنه "بطلميوس" فيلادلفوس. وسواء أكان "بطلميوس" الأول أو ابنه "فيلادلفوس" هو الذى قام ببناء المقبرة ، فهذا أمر ليس بذى بال ، وكان الوازع "لبطلميوس" الأول على حد قول "استرابون" هو الطمع الأشعبى والرغبة الدفينة فى تملك مصر والاستحواذ عليها ، حتى تصبح خالصة له وفى قبضة يده وحده. وقد تحقق له كل ذلك فى حينه وصدق قول "استرابون" "إن "بطلميوس" بن لاجوس قد غافل "برديكاس" وباغته عندما استولى على الجثمان ، وبذلك كسب الجولة الأولى وحقق أطماعه ورغبته فى تملك مصر"[1] ، ويروى "ديودور" الصقلى فى كتابه الأول عن وصف مصر[2] إن "أريدايوس" هذا قضى عامين فى عمل جميع الترتيبات اللازمة لنقل جثمان الإسكندر من بابل إلى مقدونيا وتهيئة وتزين عربة لائقة لهذه المهمة الجليلة ، ولكن "بطلميوس" بن لاجوس ذهب للقائه فى سوريا واعترض الموكب الجنائزى واستطاع بالحيلة تارة وبما لديه من حجج وأسانيد تارة أخرى أن يضع يده على الجثمان وان ينقله إلى مصر حيث تم دفنه مؤقتا فى ممفيس ثم جرى نقله بعد ذلك إما بواسطة "بطلميوس" الأول أو ابنه فيلادلفوس إلى الإسكندرية حيث وورى التراب فى الحرم أو المقبرة (Temenos) التى تليق بمقامة الرفيع. ولم يكن تصرف "بطلميوس" إزاء الاستيلاء على جثمان الإسكندر نابعا من فراغ ، ولا يمكن وصف هذا العمل بأنه كان إجراءا عشوائيا من قبل "بطلميوس" وإنما جرى التمهيد له بحكمة وروية وانتحلت الذرائع من أجل كسب الرأى العام. وقد تضاربت الأقوال فى هذا الشأن وتعددت الروايات فى تفسير تلك الأحداث التى مهدت السبيل "لبطلميوس" كيما يتخذ هذه الخطوة الجريئة ،

---

(1) Strabo, Book XVII, 794, 8.
(2) Diodorus Siculus, Book I, XVIII, 26-28.

مستعديا فى ذلك "برديكاس" وغيره من الزعماء الطامعين فى ملـك الإسكندر[1] (وقد أشار كالسثنيس "Callisthenes) إلى السند الذى تذرع به "بطلميوس" بقوله "إن الفخر لينسب إلى "بطلميوس" سوتير فى أنه بادر بسؤال "زيوس" البابلى واستلهم الوحى منه عن المكان المختار الذى ينبغى أن يوجه إليه الموكب الجنائزى حيث يدفن فى طيات رماله. وكان الرد هو أن يحمل إلى مصر ويدفن فى ممفيس"[2]. وهذا هو الإجراء بعينه الذى اتخذه "بطلميوس" ولم يحد عن ذلك قيد شعرة، وكانت ذريعته فى ذلك ما أوحت به تلك النبوءة الواردة من "زيوس" البابلى. ثم بعد ذلك استلهم الوحى من العراف الكبير فى معبد ممفيس ، وقد أشار عليه بضرورة نقل الجثمان إلى الإسكندرية لتكون مثواه الأخير.

وقد قام "بطلميوس" بتنفيذ هذا الأمر فى حينه ، وفى ضوء كل هذه البينات تكون الحقيقة قد جلت وأصبح واضحا أن الجثمان دفن أولا فى ممفيس ثم نقل بعد بضع سنوات إلى الإسكندرية. وما نظن أن "بطلميوس" جال بخاطره ولو للحظة واحدة أن يتم دفن الإسكندر فى غير المدينة التى حملت اسمه ، وهذا هو ما كان يمليه منطق الأحداث ، وهكذا أثبت "بطلميوس" بن لاجوس براعة فائقة وبعد نظر واستباق للحوادث ، عندما باغت خصمه "برديكاس" ثم بانت حصافته عندما مهد لذلك باستشارة نبوءة "زيوس" البابلى تارة والعراف الأعظم فى معبد ممفيس تارة أخرى. وفى ضوء ذلك لا يحق لأحد أن يصف تصرف "بطلميوس" بالعشوائية أو العمد إلى الغصب والاغتيال ، وإنما كان أسلوبه نابعا من استلهام الوحى فى بابل ومشورة العراف الكبير فى معبد ممفيس ، وبعد نقل هذا الجثمان إلى مرقده الأخير فى الإسكندرية ، استطاع "بطلميوس" أن يضفى على مصر وعلى الإسكندرية بالذات مهابة كبيرة ومنزلة رفيعة وأن يجعل عاصمة البلاد الجديدة محل تشريف وتبجيل من الجميع فى شخص "الإسكندر" الأكبر ، فاشرأبت إليها الأعناق واتجهت إليها الأنظار وأمها الزوار وكبار الشخصيات من كل مكان

---

(1) Diodorus Siculus, Book I, XVIII, 28-28, Sir W. Tarn, Journal of Hellenic Sludies, 41, 1921, Alexander the Great Book II by Tarn, passim.

(2) Pseudo – Callisthenes, Chapter III, 34.

لنتبرك بزيارة قبر هذا العاهل العظيم أولا ، ثـم التعـرف علـى معـالم تلـك البـلاد وآثارها الخالدة.

نشأة عبادة "سيرابيس" والملابسات المتواترة بشأنها:

أما أنه كان "لبطلميوس" الأول دور مشهود فى ابتداء عبادة "سيرابيس" فى مصر فتلك حقيقة لا يمكن إغفالها أو عدم التسليم بـها ، ولكننـا لا نـدرى مـدى ارتباط هذا الدور بنظام الحكم ولا معرفة الدوافع الدفينة التى حضت "بطلميـوس" على اتخاذه هذه الخطوة الجريئة مستعينا فى ذلـك بشـخصيتين ، إحداهمـا مصريـة صميمة ، وهى الكـاهن "مـانيتون" السـمنودى، والأخـرى لآثينـى مـن المنشـدين والمرتلين ويسمى "تيموثيوس" (Timotheus) ، وهو المجود فى الإنشاد حتـى لقـب بكلمة يونانية دالة على ذلك وهى (Eumolpos). ولعل هذه السياسة التى ابتدعها "بطلميوس" الأول فى هذا الشأن كان موحى بها وفيـها شـئ مـن التقليـد لسيده الإسكندر وتدل على مدى الحرص الشديد على ترسم خطاه ، فالإسكندر لم يدخر وسعا فى الاهتمام بعبادة امون (Ammon) بتشديد الميم والقيام بزيارة وحى أمـون فى سيوة فى وقت عصيب للغاية ، غير مبال بالمشاق والصعاب التى تجشـمها فـى تحقيق هذا المأرب ولم يأبه بنصائح قواده وأركان حربه حتى يعدل عن هذه الرحلـة المباركة. ومما لا ريب فيه أن "بطلميوس" كان يبغى إضفاء صيغة رسمية على تلـك العبادة وجعلها عبادة ملكية ، وكـان دور "مـانيثون" متمثـلا فـى ابتـداع الصيـغ والمراسم المصرية ، إذ أن اسم هذا الإله مقتبـس مـن إلهيـن مصريـين عتيديـن همـا "أوزوريس وآبيس" (Osoris – Apis) ، ومنـهما جـاء نحـت اسـم هـذا الإلـه وهـو "سيرابيس" (Sarapis – Serapis) ، وأكمل المنشد والمرتل "تيموثيوس" الدور بوضع اللمسات اليونانية على مراسم تلك العبادة ، وهكذا ساهم كل من هذين القطبـين بقسط ملحوظ فى ابتداع الطقوس والمراسـم اللازمـة لهـذه العبادة المبتكـرة حتـى يستسيغها المصريون واليونانيون على السواء وتصبح رباطا وثيقا يجمع ويؤلف بـين قلوب الطرفين فى صعيد واحد.

وإنه لمن الإنصاف "لبطلميـوس" أن يحـاول الإنسـان التعـرف علـى الدوافـع الحقيقية التى أوحت إليه بـابتداع هـذه العبـادة واتخاذهـا محـور ارتكـاز مبهم فـى

سياسته الداخلية والخارجية، فقد نجتلى الأغراض الدفينة والمقاصد البعيدة المدى التى كان يهدف إليها مما ذكره كل من "بلوتارخوس" "وتاكيتوس". ولربما كان هدفه الحقيقى منصبا على الرغبة الأكيدة فى توثيق عرى المودة بين المصريين واليونانيين والربط بين الطرفين بهذا الرباط الوثيق الذى يدعم ولاءهم للجالس على العرش البطلمى وخاصة بعد أن أسبغ على هذا الإله المصرى الأصيل من الصفات ما جعله مشوبا بغشاء يونانى ومتقمصا ثوبا قشيبا فظهر فى صورة يونانية حقه (Interpretatio Graeca). وسرعان ما أصبح "سيرابيس" بعد وقت قصير هو الإله الراعى الذى اتخذه اليونانيون وسيلة وأداة يتقربون ويتوددون بها من أجل تحسين مراكزهم لدى البلاط البطلمى مثلما فعل يونانى من أهل مدينة أسبندس "Aspendus" بآسيا الصغرى ويسمى "زويلوس" (Zoilos) عندما تقدم برسالة إلى "أبوللونيوس" وزير مالية "فيلادلفوس" يسأله فيها أن يعاونه فى بناء معبد لسرابيس الذى نكل به وأقعده عن العمل عندما لم يلبى نداءه وختم السائل رسالته بالتمنى للوزير بأن يحظى بمزيد من العطف الملكى بفضل "سيرابيس"[1].

وإنه لمن نافلة القول إعادة التوكيد على صحة ما يتردد فى كثير من المصادر من أن "سيرابيس" ظهر لأول مرة فى مصر البطلمية فى عهد "بطلميوس" الأول ثم ما لبث أن أصبح له شأن عظيم طوال عصر البطالمة ، وفيما عدا ذلك لا توافينا هذه المراجع سوى بالقليل من المعلومات المتناثرة. ونجم عن ذلك الوضع أن أصبح الناس فى حيرة من أمرهم ، فأطلقوا العنان لخيالهم وهم يسبحون فى ترهات. على أن الأمر التقليدى عن نشأة هذه العبادة أصبح مرتبطا "ببطلميوس" الأول ، على اعتبار أنه هو الذى ابتدع هذه العبادة ثم رعاها بجل عنايته ، وهناك قصة نسجت حول ذلك وهى مستوحاة من حلم منسوب لهذا الملك وقد شاعت هذه القصة بين الناس وهم بين مصدق ومرتاب. ولعل أول شئ يتبادر إلى الذهن هو استعراض الآراء المختلفة والمتعلقة بنشأة هذا الإله ، وهناك بعض الآراء المتعارضة التى تردد ذكرها فى كتابات عدد من المؤرخين القدامى وعلى رأسهم المؤرخ الرومانى

(1) Popyri Cairo Zenon No. 59034; The Popularity of the Sarapis Cult, by Zaki Aly, Études de Papyrologie Vol. IX 1971 PP. 165-219.

"تاكيتوس" (Tacitus) والكاهن اليونانى "بلوتارخوس" (Plutarchus) الرابض فى معبد ديلفى ببلاد اليونان ، وبذلك أصبح لدينا فى المقام الأول رأيين تقليديين عن نشأة هذا الإله ، أولهما لتاكيتوس الذى ربط هذا الحدث الجلل ببطلميوس الأول ومالبث أن أصبح هذا التقليد المتواتر عن "تاكيتوس" يمثل أكثر الروايات ذيوعا وانتشارا ، فقيل مثلا أن شابا فى مقتبل العمر تجلى فى صورة جسم إنسان للملك "بطلميوس" الأول وهو نائم تراوده الأحلام. وصادف أن وقعت هذه الرؤيا فى الوقت الذى كان هو مشغولا ببناء حوائط مدينة الإسكندرية وإقامة سور من حولها وهو ما يسمى بكلمة (Peribolē). وقد أسدى هذا الشخص إلى الملك بنصيحة مفادها أن يبعث برسول من قبله إلى مدينة بنطش (Pontus) الواقعة على الشاطئ الجنوبى للبحر الأسود ، كيما يحضر له تمثال هذا الإله. وبعد إسداء هذه النصيحة إلى الملك شوهد هذا الشاب متمثلا للملك وهو يرتفع إلى عنان السماء وسط نيران متأججة ، وعلى الفور أخذ هذا الملك فى التشاور مع الكهنة المصريين وبصفة خاصة مع الكاهن "مانيتون" ومع "تيموثيوس" المنشد الأثينى المرموق الذى كان قد استدعاه من أثينا فلبى الدعوة على الفور وأبدى نصحه فيما ينبغى أن يكون عليه الطقس الدينى لهذا الإله. على أن رسول الملك إلى "سينوبى" كان قد وجد نوعا من التلكؤ والمماطلة من جانب الملك الإسكيذى وهو المتصرف فى شئون سينوبى ، وقد طالت المفاوضات فى هذا الشأن وامتدت لأكثر من ثلاث سنوات نظرا لأن الملك الإسكيذى لم يرق له أن يتصرف فى هذا التمثال على النحو المطلوب ويوافق على نقله إلى مصر. وقد تجمهر الناس للحيلولة دون نقله ، ولكن هذا تم بطريقة مسرحية وروائية وغلب المتجمهرون على أمرهم عندما شاهدوا التمثال ينتقل من تلقاء نفسه إلى السفينة المرابطة فى الميناء ، ولشد ما دهشوا لما شاهدوه وكأنما العناية الإلهية شاءت أن تكون الإسكندرية هى المقر لهذا التمثال ، وقد استقر هناك فى معبد مخصص له يسمى السرابيوم (Sarapeum) فى الحى الوطنى بقرية راقودة (Rhakotis) (كوم الشقافة حاليا) ، وأصبح الرواد من كل صوب يفدون من كل مكان منذ ذلك الحين من أجل أن يتبركوا به ويستجلبوا

منه البركات ويؤدون له التحيات والصلوات (Proskynemata) ويبتهلون إليه حتى يسبغ عليهم الأمان والخلاص (Soteria) ويجلب لهم الشقاء.

أما الرواية الأخرى عن قصة جلب هذا التمثال إلى الإسكندرية فقد ذكرها "بلوتارخوس" ، متوخيا فى ذلك نوعا من الواقعية من نواحى كثيرة ، فقال إنه عند وصول هذا التمثال إلى الإسكندرية تقدم كل من المنشد الأثينى تيموثيوس والكاهن المصرى "مانيتون" فتعرفا عليه بوصفه الإله "بلوتو" (Pluton) رب العالم السفلى ، نظرا لوجود كلب ذى ثلاثة رؤوس يسمى "كيربيروس" (Cerberus) وحية راقدة إلى جانب هذا التمثال. وقد بذلت محاولات جادة من أجل المطابقة بينه وبين بعض الآلهة المصرية وهى "أوزوريس وآبيس وإيزيس وأنوبيس" ، وجميعها من الآلهة المصرية العتيدة ، وقد غلف كل ذلك بغشاء من صميم الديانة اليونانية ، وهناك أقوال أخرى جاءت متواترة ومتضمنة أن هذا التمثال جاء على سبيل الهبة من شعب سينوبى إلى الإسكندرية فى مقابل منحة من الغلال كان قد قدمها "بطلميوس" فيلادلفوس إلى ملك تلك المدينة الآسيوية المنكوبة عندما تفشت فيها مجاعة ، ولكن لا يمكن التعويل على مثل هذه الأقوال المتناثرة. وقد أجمعت المصادر الأساسية على حقيقة مؤكدة وهى أن نشأة عبادة سيرابيس إنما تنتمي بحق إلى صدر عصر البطالمة وبالذات فى عهد كل من "بطلميوس" الأول وخليفته "بطلميوس" فيلادلفوس ، وقد أتفق الرواة الكرونولوجيون على توكيد ما تنطوى عليه هذه الرواية من صدق. على أن أيا من هذه المصادر لم تذكر شيئا على سبيل اليقين عن دور الإسكندر الأكبر فى إقامة طقس خاص بعبادة سيرابيس بالذات، ولكن على الرغم من ذلك ترددت رواية تربط بين اسم الإسكندر والتاريخ المبدئى لنشأة هذه العبادة. وكان العماد فى أغلب المصادر عن هذه الرواية على ما تردد فى الإسكندرية وشاع فيها من أقاويل عن حياة الإسكندر ، وما جرى من تدبيجها وتلفيقها فى الإسكندرية طوال القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، وجاءت كلها محشوة بمعلومات يرجع تاريخها إلى ما مضى من الحقب السابقة. وقد روى فى هذا السجل المتواتر عن حياة الإسكندر أنه عقب تخطيطه لمعالم الإسكندرية عكف بناءا على المشورة التى تلقاها من نبوءة ووحى "آمون" فى سيوه بعد إتمام زيارته لمعبد

آمون فى سيوة ، على تنفيذ ما أوحى به إليـه مـن ضـرورة التوجـه إلى معبـد لإلـه الخلود "بلوتو" (Aion Plutonios) المقام على تلال خمس فى الإسكندرية ، وهناك تجلى له ذلك الإله وهو نائم فى حلم على صـورة سـيرابيس وعندئـذ توسـل إليـه الإسكندر فى أن يقدم له العون والمساعدة فى الشق الباقى مــن حربـه ضـد "دار" الثالث ملك الفرس ، وبناءا على ذلــك سـارع "الإسـكندر" فـى إصـدار أمـره إلى "بارميينون" (Parmenion) ببناء معبد لهذا الإله سمى "بسـيرابيوم بارمينسـكوس" (Parmeniskos)، وهو الاسم البديل لبارمينيون. وقد ذاعت شهرة هـذا المعبـد فيمـا بعد ، ومع التسليم بأن "الإسكندر" الأكبر لا يمكن بحال من الأحـوال أن يوصـف على أنه هو الذى أنشأ هذا المعبد على النحو الذى قام به الملك "بطلميوس" الأول طبقا لما ذكرته ورددته المصادر الأخرى ، فإن اسم الإسكندر ظل مرتبطا بصـورة مـا بموضوع إقامة عبادة الإله "سيرابيس" اليونانى فى الإسكندرية. وهناك الدليل على ذلك نجده واضحـا فـى تلـك الروايـة المشـهورة التـى ذكرهـا المؤرخ "آريـانوس" (Arrianus) فى كتابه عن حملة الإسكندر فى آسـيا الصغـرى (Anabasis) ، وقـد جاء فى هذه الرواية أن الإسكندر عندما كان يعانى سكرات الموت فى بابل وبانت عليه أمارات الاحتضار، تقدم إليه نفر من قواده وأركان حربة المقربـين ومـن بينـهم "برديكاس" "وبطلميوس" الأول، وقد عقدوا العزم على أن يقضوا الليل فى حــرم معبد لسرابيس بقصد استلهام الوحى وعلى أمل الاستفسـار عمـا إذا كـان ينبغـى نقل الإسكندر إلى حرم هذا المعبد حتى يتحقق له الشفاء هناك بفضـل بركـة هـذا الإله.

وإذا ما أخذت هذه الرواية على علاتها فإنها تربط بين الإسكندر وبين عبـادة سيرابيس بطريقة أكثر فاعلية من أية روايـة أخـرى. ذلـك أنـها لم تكتفـى بـالمعنى الضمنى بأن الإسكندر هو المؤسس لتلك العبادة فى الإسكندرية وإنما تشير كذلـك إلى وجود معبد واحد على الأقل فى مدينة بابل فى عام ٣٢٣ ق.م ، وأنه كان فـى مكنة أناس أن يؤموه ويبيتـوا فـى حرمـه وبـين جنباتـه. أمـلا فـى تلقـى الوحـى والحصول على النبوءة فى كل ما بقى لهم من أمور الحيــاة ؛ وفـى مواجهـة هذيـن الرأيين المتناقضين ، وبعد تمحيص كل ما قيل عـن علاقـة الإسـكندر بنشـأة عبـادة

سرابيس وما روى عن تواجد معبد لهذا الإله فى بابل فى أخريات أيام الإسكندر ، لا يسعنا إلا أن نقول أن العلماء الذين توفروا على دراسة هذا الموضوع من جميع نواحيه ثم حاولوا التعرف على من هو صاحب الفضل فى نشأة تلك العبادة ، قد أجمعوا رأيهم على قبول فكرة الإنشاء لتلك العبادة بطريقة أو بأخرى فى عهد الملك "بطلميوس" سوتير وعلى أبعد الفروض فى صدر عهد ابنه "بطلميوس" فيلادلفوس الذى لا بد أنه قد جنى ثمار جهد أبيه فى هذا الشأن وترسم خطاه ولم يحد عن ذلك قيد شعرة. وقد تبارى هؤلاء العلماء الأعلام فى ذكر العديد من المبررات التى تؤيد هذا الرأى. ومما لا ريب فيه أن "بطلميوس" الأول كان هو اليد المحركة والدافع لكل من "مانيتون" "وتيموثيوس" فيما وصفاه من طقوس ومراسم لهذه العبادة المبتدعة فى ظروف أحاط بها الكثير من الملابسات الغامضة. وقد آل على نفسه أن يقف بكل ثقله وجبروته فى سبيل التأييد والمناصرة لتلك العبادة حتى أصبح يعتبر بحق هو مبدعها بل ومنسقها والنصير لها. وقد تصورها على نحو كانت فيه أداة صالحة وفعالة فى الربط بين المصريين واليونانيين وضمهم فى صعيد واحد ، وقد عكفوا جميعا على الابتهال لهذا الإله وتقديم التكريسات (Dedicationes) له وإقامة الشعائر والصلوات والتحيات (Proskynemata) فى المعابد المنتشرة فى أرجاء البلاد ابتداء من حواضر الأقسام والأقاليم المصرية ثم فى القرى النائية فى الخورا. والمثل الرائع على ذلك جاء من قرية فيلادلفيا بالقسم الهيراقليدى بالإقليم الأرسنويتى (الفيوم)[1] ، وكانت المراكز الرئيسية لهذه العبادة فى مصر هى الكائنة فى معبد السرابيوم الكبير فى ظاهر ممفيس ثم فى معبد آخر فى الإسكندرية فى كوم الشقافة بحى راقودة. وفى المركز الأول وهو ممفيس كانت الطقوس فيما يبدو ، مصرية بحتة ، أما فى الإسكندرية فكانت فى أغلب الظن يونانية الطابع إلى حد كبير ، وذلك على الرغم من أن السرابيوم المشيد

(١) أر شيف "زينون" المنشور فى كتالوج المتحف المصرى رقم ٥٩١٦٨ ، وقد جاءت به وثيقة بردته مؤرخة فى عام ٢٥٦ ق.م ، وفى هذا النص الدليل القاطع على وجود معبد للإله "سيرابيس" فى الشارع المخصص للمعابد والمطل على القناة الكبرى من بحر يوسف بإقليم الفيوم وذلك فى عهد "بطلميوس فيلادلفوس".

على ربوة كان فى حى شعبى يسكنه المصريون من الصيادين وغيرهم[1]. وبقى معبد السرابيوم فى الإسكندرية على مدى أجيال طويلة قبلة الأنظار وأصبح من المعالم الرئيسية فى تلك المدينة ، يحج إليها الناس من كل فج عميق ويرون فيه مركزا للإشعاع الحضارى ومنبعا تنبثق منه الطقوس لتلك العبادة التى صيغت بتشجيع من الملك "بطلميوس" الأول وانتشرت فى جميع الأنحاء بالحوض الشرقى من البحر المتوسط. وهكذا أصبح بمثابة الكعبة التى يحج إليها العباد على مختلف شاكلتهم بين قاصى ودانى. وكان الناس يتبارون فى الحج إليه ويتبركون بسرابيس بوصفه مخلصا ومنجيا وشافيا من الأمراض ومصدرا للوحى والإلهام واستطلاع النبوءة والتعرف على ما قد تخبئه المقادير من الغيبيات باعتباره إله النبوءات والكاشف للرؤى والمتجلى للناس فى منامهم والموحى لهم بالأحلام. وهكذا شاع بين الناس المبيت فى محراب معبده (Temenos) كيما يتراءى لهم فى المنام ويوحى إليهم بما يراه وهم فى مرقدهم (Incubatio). ومن المظاهر الشيقة فيما يتصل بعبادة هذا الإله ما عرف بنظام النسك والتبتل والانجذاب (Theolepsy) إلى الحد الذى كان فيه بعض الناس يهبون أنفسهم كلية إلى الإله على مدى تسعين عاما أو أكثر ، وهؤلاء عرفوا بالنساك أو الزهاد[2] (Katochoi) ، وقد أثير جدل ونقاش طويل حول هذا الموضوع ، وكان للعالم الألمانى "أوليرخ فلكن" (Ulrich Wilcken) باع طويل فى هذا الموضع فأثبت بطريقة لا تقبل النقض ما لهذا الإجراء من طابع دينى بحت.

---

(1) H. I. Bell, Cults and Creeds 1953 PP. 19-20; Emil Kiessling, "La génése du culte de Sarapis a Alexandrie", Chronique d' Egypte, XXIV No. 48 (1949) PP. 317-322.

(2) Papyri Paris 47=Select Papyri, Hunt and Edgar, Loeb Edition No. 100 (about 152 B.C.); H.I. Bell Cults and Creeds PP. 68-69.

"بطلميوس" الأول المؤسس لمدينة بطلمية :

كان الإقدام على تأسيس مدينة حرة (Polis) تسمى بطلميه (Ptolemais) محل قرية مصرية قديمة هى إيسوى (Psoi) فى زمام سوهاج بقلب الصعيد ، يمثل حدثاً جللاً قام به "بطلميوس" الأول غير هياب ولا وَجِل ، وقد سماها بطلمية (Ptolemais) نسبة إلى مؤسسها ومحلها الآن بلدة المنشاة. وقد حظيت منذ نشأتها بعطف خاص من قِبل ذلك الملك الذى حرص على أن يسبغ عليها جُل عنايته وعظيم اهتمامه وأولاها كل ما تستحقه من الرعاية ، فأشادت المدينة بذكره ، وقد جاء الدليل على ذلك فى نقش منشور باليونانية نصه كالآتى : "أسبغ الملك الإله سوتير على تلك المدينة جُل عطفه ورعايته (Prostasia)"[1]. ويدل هذا العمل الرائع من قِبل "بطلميوس" على فكر تقدمى وينم عن مفخرة كان يباهى بها على زملائه من خلفاء الإسكندر ، ويؤكد أنه كان لا يزال إذ ذاك يسير على الدرب الذى استنه الإسكندر من حيث تأسيس المدائن الحرة فى البلاد التى فتحت شرقى الفرات أسوة بأولاها وهى الإسكندرية فى تخوم مصر (ad Aegyptum) ، وكان للإسكندر من هذه المدائن السكندرية ثلاثة عشرة خلدت ذكراه. ولكن "بطلميوس" الأول ما لبث أن نكص على عقبيه ، مكتفياً بإنشاء مدينة واحدة على هذا النسق، خشية منه أن تتقطع أوصال البلاد إذا ما سار فى هذا المضمار وتوسع فى إنشاء مدن أخرى أسوة بزملائه من قواد الإسكندر فى البلاد والمقاطعات التى آلت إليهم. وكانت بطلمية تتمتع باستقلال ذاتى (autonomia) ، وتوفر لها مجلس بولى (Boulē) ومجلس آخر يضم الأحرار بها ويسمى (Demos) وبواسطتهما كانت تلك المدينة تدير شئونها بحرية مطلقة وبتخاطب معها الملك بواسطة سفرائه ومندوبيه. ومن الحق علينا أن نذكر بالفضل "لبطلميوس" سوتير إقدامه على تأسيس هذه المدينة وحُسن اختياره للمكان الذى قامت عليه ، فكان عمله هذا دالاً على مبلغ ما كان يتمتع به من سعة الأفق ورحابة الصدر وبُعد النظر. وقد لازمه التوفيق فى اختيار مكان المدينة فى صميم الصعيد وعلى مقربة من طيبة ،

(1) Supplementun Epigraphicm Graecum, XX, 665, LL. 4-5 (Leiden) dous ho Theos Soter autei tēn hautou prostasian see Plaumann, Ptolemais, 1918.

وهى العاصمة العتيدة لمصر على عهد الفراعنة وبذلك تستطيع أن تراقب وتتسمع ما قد يجرى بين الكهنة فى طيبة من تدبيرات فى الخفاء للكيد بالحكم البطلمى والعمل على تقويضه وهم الذين قبلوا هذا الحكم الأجنبى على مضض ولكنهم أضمروا له السخط والبغض فى نفوسهم.

استمرت بطلمية تدين بالولاء لمؤسسها "بطلميوس" سوتير وتحتفى سنويا بالعبادة الأسرية لهذا الملك وزوجته برنيقة باعتبارهما الإلهين المخلصين (Theoi Soteres) بعد أن أقام هذا الطقس "بطلميوس" الرابع الملقب "فيلوباتور" وأمر بإنشاء كهانة خاصة سنوية لهذا الجد وزوجته ، وبذلك أصبحت عبادة سوتير وزوجته ضمن العبادة الأسرية المرعية ولعبت دورا هاما فى الحياة الدينية السائدة فى بطلمية بالذات ، بل واستمرت مرعية حتى جاء الحكم الرومانى سنة ٣٠ ق.م فأبقى على هذا الوضع ، وكان حريصا على تنفيذ أوامر الملك "بطلميوس" سوتير وخلفائه فى هذا الشأن.

وهناك موضوع آخر له أهمية بالغة وفيه نوع من الطرافة بالنسبة لمدينة بطلمية وتحكمها فى جارة لها تسمى قفط ، وقد حدث نزاع بينهما ثم استحكمت حلقاته فى صدر العصر الرومانى بشأن موضوع الإيراد الناجم عن بيع وظيفة سادن المعبد (Neocoros)[1]. وإزاء تمسك بطلمية بأحقيتها فى الاستئثار بتحصيل هذا الإيراد وتحريم قفط من أن تنفرد به ، احتدم الخلاف وامتد أجله وجاءت التفاصيل المسهبة عن أدوار هذا النزاع فى وثيقة بردية نشرها عالم فرنسى يسمى "جان شيرر" (Jean Schérèr) الأستاذ بجامعة السربون بفرنسا[2]. ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى عام ١٦٠ ميلادية ، وقد كشفت اللثام عن تداول هذا النزاع منذ عام ٤٨ ميلادية حتى تم حسمه فى عام ١٦٠ ميلادية، ومن الطريف أن هذه الوثيقة أضفت أضواء ساطعة على المصير الذى آلت إليه الهيللينية (Hellenism) البطلمية التى ابتدعها "بطلميوس" سوتير فى مصر وحرص على إقامة صرحها فى جميع أرجاء البلاد ، وقد بقيت مرعية فى العصر الرومانى وذاع صيتها فى صميم الصعيد ،

---

(١) السادن يقابل الراعى أو الشماس فى الكنيسة المسيحية.
(٢) مجموعة بردى فؤاد رقم ٢١١ ، العدد ٤١ لسنة ١٩٤٢ - المعهد الفرنسى بالقاهرة.

وقد حافظت الحكومة الرومانية فى مصـر علـى هـذا الـتراث وأبقـت علـى النظـم السياسية والمجـالس ذات الطـابع اليونـانى مـن "بـولى ، وديمـوس" فـى بطلميـة باعتبارهما من المؤسسات التى أقامها "بطلميوس" الأول فكان فى العصر الرومانى مسموحا لمجلس البولى أن يباشر اختصاصاته ويصدر قراراته ، ويحـرص علـى إقامـة مراسم العبادة لذلك المؤسس الأول وهـو "بطلميـوس" الأول ويرعـى تطبيقـها فـى مناطق فسيحة مجاورة ومنها بلدة قفط حيث كان بها معبـد للملـك "بطلميـوس" سوتير. أما عن النزاع بين بطلمية وقفط فقد أسفر فى آخر الأمـر علـى أن بطلميـة هى صاحبة الولاية فى تعيين من يـروق لهـا ومـن تـرى فيـه الأهليـة لتـولى ذلـك المنصب الرفيع وهو السادن ، وذلك فى نظير حصولها على أربعة من التالنتات[1].

الدور البارز" لبطلميوس" فى حركة الإنشاء والتعمير فى الإسكندرية :

كان "لبطلميوس" الأول النصيب الأكبر والـدور الملحـوظ فـى شـتى أعمـال البناء والحركة المعمارية التى قامت علـى قـدم وسـاق فـى الإسـكندرية ، ولم يعـد هناك من سبيل للإنكار فى مدى مساهمته فى هذا المضمار ، فالمؤسسات العمرانية كانت قد بانت معالمها وترسخت قواعدها على الرغم من الحالة البدائية التـى كـان عليها موقع مدينة الإسـكندرية عندمـا قـدم "بطلميـوس" إليـها بوصفـه واليـا (أو ساتربا) على مصر فى عام ٣٢٣ ق.م. وإنه لمن المؤسف حقـا أننـا لا نكـاد نعـرف شيئا عن مدى التطور وسير حركة العمران فـى الفـترة السـابقة التـى كـانت فيـها مقاليد الأمور فى أيدى "كليومينيس" النقراطى اليونانى (وهو من أهل نقراطيـس) على مدى نحو تسـع سـنوات كـان فيـها قـد حصـل علـى تفويـض صريـح مـن الإسكندر من عام ٣٣١ حتى عام ٣٢٣ ق.م ، والمعروف أنه فى خـلال هـذه الفـترة تـرك له الحبل على الغارب ، فـارتكب الكثـير مـن المسـاوئ (Polla adikamata) علـى حـد قـول المـؤرخ "أريـانوس" فـى مؤلفـه عـن الإسـكندر (وهـو المسـمى "Anabasis"). على أن هذه الفترة قد طـمست فيها الحقائق واعترى البعض منـها شئ كثير من التزييف ، ثم إنه لا يوجد لدينـا عنـها أى بينـات مستقاة مـن عـالم

---

(١) التالنتوم عملة يونانية تساوى نحو ٢٤٠ جنيها مصريا.

النقوش وعلم البردى ، وأغفلت هذه الحقبة التى خيم عليها الغموض وكأنما يد خفية امتدت إليها وكان لها صالح فى هذا الطمس المتعمد. ومما لا ريب فيه أن هذه اليد هى "لبطلميوس" الذى عرف عنه أنه هو الذى كشف النقاب عن التصرفات السيئة التى تردى فيها "كليومينيس" فسوأ صحيفته وضيق عليه الخناق ، وحاسبه حسابا عسيرا عن سوء تصرفاته واستغلاله لموارد القمح فى البلاد واحتكاره لها ثم المتاجرة بها فى السوق العالمية ببلاد اليونان. وكانت رائحة هذا السلوك المشين قد فاحت من قبل ووصلت بالفعل إلى علم الإسكندر ، ولكن القدر لم يمهله حتى يتبين حقيقة الأمر ويستوثق من صحة ما يشاع حول "كليومينيس". وقد حاكمه "بطلميوس" وأدانه ثم أعدمه فى شتاء عام ٣٢٣ ق.م، وهى نفس السنة التى تولى فيها مهام منصبه كوالى على مصر. على أن كل ما لدينا من الإشارات عن الأوضاع الجارية فى مدينة الإسكندرية وما أقيم بها من منشآت، إنما ترجع إلى الحقبة الأخيرة من حكم الملك "بطلميوس" الأول وعهد ابنه "بطلميوس" الثانى وخاصة بعد أن ظهر فى عهده (أى فيلادلفوس) تراث بردى هائل ساهم فى كشف النقاب عن الجهود المبذولة والحركة العمرانية والنشاط المحموم فى أعمال البناء والتعمير فى الإسكندرية من ناحية وفى باقى أجزاء مصر وبخاصة فى إقليم الفيوم[1].

ومما لا شك فيه أن مدينة الإسكندرية منذ أن خططها الإسكندر ووضع معالم الخطوط الرئيسية فيها كانت محور تفكير أولى الأمر فى الجهاز الإدارى وذلك فى شخص "بطلميوس" الأول. وعقب تأسيسها بقليل كان قد أولاها "كليومينيس" جل عنايته ، وكانت الشغل الشاغل له ثم "لبطلميوس" الأول من بعده. ومن المعروف عن "كليومينيس" هذا على الرغم من كل مساوئه أنه كان إداريا بارعا

---

(1) Fayum Towns and their Papyri by Mahaffy,

ثم أرشيف "زينون" وأرشيف "يوكليس" وأرشيف "بيون" ، ومجوعات بردى "تبتونس"، وثيادلفيا وفيلادلفيا وغيرها من مجموعة البردى فى أكسير نخوس (البهنسا) وغيرها.

وأنه أوتى قدرة وكفاية عظيمتين ، وما كان فى وسعه أن يتقاعس عن تنفيذ أوامر الإسكندر الأول أو يتوانى لحظة واحدة فى الاضطلاع بمهمة الإنشاء والتعمير فى تلك المدينة التى كان الإسكندر بالطبع شغوفاً بتعميرها وحريصاً على إتمام بنائها فكان يتابع من بعيد كل ما كان يجرى فى كنفها ، ويبقى التعرف على مدى تنفيذ كل ما رسمه وخططه بنفسه من معالمها. واستمرت هذه المتابعة عن كثب إلى أن وافاه القدر فى عام ٣٢٣ ق.م ، وعندئذ آلت مقاليد الأمور فى مصر كلها إلى "بطلميوس" بوصفه "ساترباً" فسار علي نفس المنوال وأكمل المهمة على خير ما يرام. وقد أبلى "بطلميوس" بلاءاً حسناً فى متابعة الحركة العمرانية وبذل قصارى جهده فى مواصلة أعمال البناء والتشييد ، وكان فضله فى ذلك غير منكور ، وبان هذا بصفة خاصة فى إتمام حوائط المدينة وأسوارها ثم فى بناء جسر ممتد من جزيرة فاروس إلى سوق المدينة ، وبلغ طوله سبعة فراسخ وعرف باسم دال على ذلك وهو هيبتا ستاديوم (Heptastadium). وبذلك انفصلت الميناء إلى شطرين ، أحدهما يمثل الميناء الشرقية والآخر عُرف باسم "يونوستوس" (Eunostos) أى بر السلام والعود السعيد. ثم أتبع ذلك ببناء فنار فاروس وهو ما يسمى بالبرج (Purgos) أو (Light-House) ، وجاء وصف تفصيلى لكل ذلك فى جغرافية "استرابون"[١] ، فشمل هذا الوصف جميع معالم المدينة وما أقيم بها من منشآت. على أن هذا الوصف بالذات تشوبه شائبة فى أنه ليس بقاطع فيما يختص بنصيب كل من "كليومينيس" "وبطلميوس" الأول وابنه "بطلميوس" الثانى فى هذه المنشآت ، فلم يحفل هذا المؤرخ والجغرافى فى حديثه عن طبوغرافية المدينة بذكر بيان تفصيلى عن نصيب كل واحد من هؤلاء الثلاثة على حدة ، ومن هنا جاءت الحيرة فى نسبة كل أثر من هذه الآثار إلى صاحبه حتى يمكن إعطاء الفضل لذويه.

وهكذا لم يتوخ هذا المؤلف الجزم والقطع بالنسبة للنصيب الذى اختص به "بطلميوس" الأول فى هذا المضمار. وقد جاء من قبل "استرابون" مؤرخان عظيمان

---

(١) "استرابون"، الكتاب السابع عشر وترجمة إلى العربية منشورة فى مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٤٤ ص ١٢٤-١٢٩ ، بقلم "زكى على".

هما "ديودورس" الصقلى "وبوليبيوس" (Polybius) ، وكلاهما أبرزا نقاطاً غير تلك التى عُنى "استرابون" بذكرها ، ولكنهما اثرا كذلك توخى الإجمال ولذلك ضاع الأمل فى معرفة أى شئ عمن يكون من هؤلاء الثلاثة بالذات يمكن أن ينسب إليه أى صرح بذاته أوان "بطلميوس" وحده هو صاحب الفضل فى بناء صرح معين بأكمله ، ولعل السبب فى هذا التداخل والخلط أن ما لدينا من الأدلة قليل ومفكك. ولا يستطيع الإنسان أن يَخلص منه بشئ على وجه التحديد أو يستنبط معلومة مؤكدة تساعده على تكوين فكرة صائبة ووافية. على أن وصف "استرابون" لمدينة الإسكندرية جاء فى جملته صادقاً ودقيقاً ، ومطابقاً لما شاهده وعرفه بنفسه عن تلك الأوضاع السائدة فى تلك المدينة التى أتاح له الحظ فرصة ذهبية كيما يزورها فى عام ٢٤ ق.م ، وهو فى رفقة صديقه الوالى الرومانى الثانى المسمى "أيليوس جاللوس" (Aelius Gallus). وقد راق "لاسترابون" أن يطيل مقامه فى مصر حتى عام ٢١ ق.م ، وطوال هذه الفترة لقى جميع التيسيرات وتمكن من مشاهدة جميع المعالم فى شتى أرجاء مصر.

ومن المسلم به أن الخطة الأصلية للمدينة كانت من وضع الإسكندر وأنها صُممت بواسطة "دينوقراطيس" (Deinokrates) على النسق اليونانى فى تخطيط المدن فجاء على شكل رقعة الشطرنج ، وكانت شوارعها مستقيمة ومتقاطعة فى زوايا قائمة ، تحيط بها الأسوار والحوائط وتتخللها البوابات التى ذكر منها باب كانوب (Canopus). أما فى "سرة" المدينة فكانت توجد المبانى العامة ، ومنها سوق المدينة أو الأجورا (Agora) وبعض المعابد والمؤسسات ، ومما لا ريب فيه أن البرنامج الأصلى تناولته يد التغيير والتبديل على يد كل من "كليومينيس" "وبطلميوس" الأول ولم يلتزم به أحدهما خاصة وأن المدينة كانت إذ ذاك لا تزال فى دور الإنشاء والتعمير ، ولم يكن قد اكتمل بناؤها قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. على أننا لا نستطيع الجزم بالمدى الذى وصلت إليه مبانى المدينة على عهد كل من "كليوميبتيس" "وبطلميوس" الأول ثم ما طرأ عليها من مظاهر الاختلاف والتباين على مدى الأجيال اللاحقة.

وقد أجمعت كل المصادر والأدلة التى فى متناولنا على نسبة تلك المبانى والمنشآت التى ورد ذكرها من قبل كونه للثلث الأخير من القرن الرابع ، وهو يمثل فى أغلبه عهد "بطلميوس" الأول بوصفه ساترباً أو مرزباناً. أما الأجورا أو السوق العامة وقلة من المعابد فيمكن نسبتها إلى الإسكندر وهى من تنفيذ "كليومينيس" ونصيبه المسلم به لكن الفنار المقام على الطرف الشمالى من جزيرة فاروس فينسب أمره إلى "بطلميوس" ونشاطه الجم فى الإنشاء والتعمير وتوطيد أركان الحكم.

الفصل الثالث

"مانيتون"

كان "مانيتون" كاهناً مصرياً عتيداً ، ومؤرخاً مرموقاً ، وينتمى أصله إلى أهل شمال الدلتا ، فتارة كان ينتسب إلى مدينة سمنود ، ومن هنا كنى بالسمنودى ، وتارة أخرى قيل إنه من منديس الواقعة فى شرقى الدلتا أو من ديوسبوليس بارفا (دمنهور). وقد استقر به المقام فى آخر المطاف فى معبد آمون بهليوبوليس (أون - المطرية). حيث حظى هناك بلقب مرموق هو الكاهن الأعظم (Archicrēus) ، وقد نال قدراً كبيراً من العلم وأصول المعرفة فى مجال الثقافتين المصرية واليونانية ، ثم إنه شهد فترة انتقالية من تاريخ مصر هى مطلع حضارة هيللينستية[1]. كانت قد هلت بشائرها عقب موت الإسكندر الأكبر وفتحه من قبل لمصر فى عام ٣٣٢ ق.م. وقد ساهم "مانيتون" بنصيب ملحوظ فى تعريف ملوك البطالمة الأولين بأصول الحضارة المصرية العريقة وانضوى فى ركاب كل من الملكين "بطلميوس" الأول ، وابنه "بطلميوس" فيلادلفوس ، فكان خير عون لكليهما فيما أراداه وانتوياه من التعرف على كنه التاريخ المصرى القديم وأسراره. وكان له باع طويل فيما قام به من مساهمة جادة فى وضع الطقوس والمراسم الخاصة بعبادة مبتدعة أو مقتبسة بالأحرى للإله سيرابيس[2] (Sarapis) ، وذلك بالاشتراك مع المنشد الآثينى تيموثيوس (Timotheus) ، وكان الجانب المصرى فى طقوس هذه العبادة من بنات أفكار "مانيتون" بالذات ، بينما كان الجانب اليونانى من عمل "تيموثيوس"[3]. وكان المراد من هذه العبادة أن تكون رباطاً وثيقاً يؤلف بين العناصر المصرية واليونانية ، ويجمع الطرفين فى صعيد واحد.

---

(١) الحضارة الهيللينستية : تأليف السير تارن ، وترجمة "عبدالعزيز توفيق" ، ومراجعة "زكى على" ، والحضارة الهيللينستية ، تأليف "رستوفتزف".

(٢) عبادة سيرابيس - مقال بالإنجليزية لمؤلفه "زكى على" فى مجلة الدراسات البردية ، العدد التاسع لسنة ١٩٧٠ عنوانه : The Popularity of the Sarapis Cult

(3) Emil Kiessling, "La Genèse du culte de Sarapis à Alexandrie, Chronique de Egyptè No. 48, 1949 PP. 317-323.

وهكذا كانت معرفته الوثيقة باللغة اليونانية وعيون الثقافة والفكر اليونانى ، إلى جانب تضلعه فى اللغة المصرية القديمة مؤهلا كبيراً وعوناً له على تحقيق جُل مآربه ونوال حظوة خاصة لدى السلطات الحاكمة. وساهم كل هذا فى تلبية رغبات الملك "بطلميوس" فيلادلفوس الذى كلفه بتدوين مؤلف باليونانية أسماه "بالمصريات" (Aegyptiaca). وبعد أن أتمه قدمه لمولاه فى ديباجة رقيقة ، أشاد فيها بذكر هذا الملك العظيم وأسبغ عليه عدة ألقاب منها الحاكم المطلق (Despotes) ، والمبجل (sebastos) ، والملك العظيم (Megalos). وللأسف ضاع هذا المؤلف ، ولكن بقيت منه شذرات ومقتطفات متناثرة أقتبسها لحسن الحظ عدد من المؤلفين العديدين ، وبذلك أتيحت لنا فرصة الاطلاع على لمحات طريفة وعينات فريدة مما صنفه وحكاه "مانيتون" بأسلوب شيق. ولعل الشق الخاص بالهكسوس وتنديده بكل ما أرتكبوه من فظائع فى حق البلاد هو الذى دعا "يوسيفوس" ابن "ماتياس" وهو حبر يهودى من أهل بيت المقدس إلى أن يرمى "مانيتون" هذا بأنه كان الداعى الأول لمناهضة السامية (anti-Semitism) بل والمبتدع لها.

ومن الفخر "لمانيتون" أنه كان أول مصرى صميم ، أتيحت له الفرصة كيما يكتب ويؤلف باللغة اليونانية ، فأخرج بها تلك "المصريات" ، وهى عبارة عن سجل فى ثلاثة أجزاء ضمنه بيانات وأوصافاً للعقائد وأصول الحكمة فى الديانة المصرية ، وأشفع ذلك بذكر الأحداث وتسلسلها فى التاريخ المصرى القديم على مدى الأسرات الحاكمة. وكان اعتماده فى تدوينه هذا المصنف على أصول السجلات المصرية التى كانت متاحة له إذ ذاك. وقد ثبت على سبيل اليقين أنه كان يستقى معلوماته من النصوص والكتابات المقدسة. وقد شهد بذلك خصمه اللدود يوسيفوس إذ قال فى الكتاب الأول من مؤلفه المعنون "ضد آبيون" (Contra Apionem) الفصل ٧٣ مايلى "وهذا الأمر كان واضحا وجلياً من ثنايا التاريخ الذى سطره "مانيتون" عن أمته باللغة اليونانية ، وجاء مترجماً وموصى به على حد قوله من الكتب والمصنفات المقدسة. وجاء فيه ما يدين هيرودوت ويشينه باعتباره شخصاً كان مضللاً به نظراً لعدم معرفته بنقاط كثيرة من التاريخ المصرى". ولو وافانا الحظ بالعثور على الصورة الأصلية من ذلك المصنف الذى كتبه "مانيتون" لكان لذلك أهمية بالغة وقيمة علمية عظيمة. وقد ظل هذا القصور

يعتورنا ، وبقى الأمل يراودنا أمدا طويلا فى إمكان العثور على هذا المصنف الأصلى ، إلى أن حان الوقت الذى تم فيه التوفيق بالعثور على قصاصة بردية واحدة من هذا المصنف ، يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الميلادى، وقد ذكرها باك (Pack) فى كتابه عن البردى الأدبى تحت رقم (١٠٧) ، وهى تنتمى إلى مجموعة بردى بادن[١]. وتشتمل على فقرة مما كتبه "مانيتون" عن ملوك الفرس الذين حكموا مصر ، وانتقلت إلينا بطريق مباشر دون وسيط، وفيما عدا ذلك عرفت كتابات "مانيتون" من ثنايا نتف ومقتبسات اعتراها فى أغلب الظن بعض التشويه ، وبقيت محفوظة فى مؤلفات بعض الكتاب ومنهم "بلوتارخوس ويوسيفوس ويوليوس الأفريقى وثيوفيلوس وأيليان وديوجنيس اللائرتى ولينـدوس وسينكلوس" ، وبذلك أصبح لدينا فيض لا بأس به من هذه الأشتات المتناثرة.

أما عن سجل حياته الخاصة ، فليست لدينا من الحقائق المؤكدة سوى بعض نتف قليلة جاءت فى مصنفات مستعارة وحاملة لإسمه ، ولكنها تبدو لأول وهلة متناقضة ويعتريها اقتضاب شديد ، "فبلوتارخوس" مثلا ذكر أن "بطلميوس" الأول استدعى كلا من "مانيتون" "وتيموثيوس" ، وكلفهما بتفسير كنه تمثال للإله بلوتو - سيرابيس ، كان قد جلبه بطريقة روائية من سينوبى على البحر الأسود إلى الإسكندرية. وهذه بلا ريب هى الواقعة التى أشار إليها الكتاب فيما بعد ، ومنهم المؤرخ الرومانى "تاكيتوس" فنوهوا عن "وصول سيرابيس إلى الإسكندرية" ، ولكنهم تخبطوا فى نسبة هذا الحدث إلى تاريخ ما فقال بعضهم إن ذلك كان فى أواخر حكم "بطلميوس" الأول أى فى عام ٢٨٦-٢٨٥ق.م. وقال آخرون إن هذا كان بعد ذلك بقليل أو صدر حكم "بطلميوس" فيلادلفوس أى فى عام ٢٧٧-٢٧٦ ق.م. وعلى هذا النحو يكون إسم "مانيتون" قد أرتبط بهذه الواقعة بالذات وليس بتوطيد عبادة سيرابيس حسبما جاء فى "بلوتارخوس" ، وعلى أى حال فقد ثبت أن التاريخ الذى تألق فيه نجم "مانيتون" ، وكان فيه ازدهار نشاطه هو صدر حكم "بطلميوس" فيلادلفوس. ولدينا الدليل الذى يؤيد هذا الرأى فيما جاء من ملاحظات أبداها "سينكلوس" ومفادها أن "مانيتون"

---

(1) Papyri Baden, Bilabel, IV, 59; Pack Literary Papyri No. 107.

عندما آلف كتابه عن "المصريات" كان ينحو نحو زميل له يسمى "بيروسوس" الكلداني وأنه كان مقتفياً أثره ومتخذاً منه القدوة الحسنة فى تأليف مصنف أراد به أن يكون مماثلاً لما ألفه "بيروسوس" عن التاريخ البابلى الذى قدمه إلى مليكه "أنطيوخوس" الأول. ولما كان هذا المصنف الأخير قد تم فى الفترة ما بين ٢٨٠-٢٦١ ق.م. فإن هذا التاريخ الواضح يكون هو الحد الفاصل والحاسم فى تأريخ مصنف "مانيتون" وانتمائه قطعاً إلى عهد "بطلميوس" فيلادلفوس ، وهذا هو تفسير العبارة التى ساقها "سينكللوس" ، وهى أن "مانيتون" كان مقلداً ومحاكياً لبيروسوس (και κατα μιμησιν βηρωσσου) وفحوى هذه العبارة الطريفة دليل على وجود توافق زمنى بين هذين المؤلفين. وهكذا اقترن الاسمان : "مانيتون" "وبيروسوس" وأصبحا يذكران سوياً على اعتبار أنهما مثلان فذان ، ألف كل منهما كتاباً حاوياً لتاريخ شعبه[1].

وفى الحق كان هناك ذخرٌ من السجلات والألواح الحاوية لتواريخ دقيقة عن العصر الفرعونى ، وهى مرتبة ومنسقة بحسب التسلسل الزمني ، وجاء هذا مسطراً إما على حوائط وأحجار أثرية أو مُدوناً فى وثائق بردية وحاملاً لكثير من أوجه الشبه بما صنفه "مانيتون". على أن هذا الكاهن اكتسب ميزة وهى " تفرده بكتابة تاريخه باللغة اليونانية واستحق بذلك الإشادة بذكره على النحو الذى ذكره "يوسيفوس" الذى لم يسعه إلا أن يمتدحه وينوه بحسن صنيعه وحذقه فى ذلك فقال" وسوف أستهل كلامى بالوثائق المصرية ، ولكن ليس فى مكنتى اقتباس شئ من مصادرها الأصلية أما فى حالة "مانيتون" فقد توفر لنا فى شخصه إنسان جمع بين العديد من المؤهلات ، ومنها كونه مواطناً مصرياً أوتى قدراً كبيراً من البراعة والحذق فى معرفته بأصول الثقافة اليونانية (ο ανηρ της Ελληνικης μετεσχηκως) وهذا واضح وجلى مما دبجه باللغة اليونانية عن تاريخ أمته الذى يمثل ، على حد قول "مانيتون" نفسه ، ترجمة صادقة مستقاة من الألواح المقدسة"[2]. واستناداً إلى هذه الشهادة يحق لنا أن نقول

(1) Josephus, Antiquities Vol. I, 107.
(2) Josephus, Contra Apionem, Vol. I, 73.

إن "مانيتون" كان رجلاً حصيفاً ومثقفاً ، واتاه الحظ بالوقوف على كثير من ألـوان المعرفة فى مجال الثقافة اليونانية.

وهناك بضع فقرات قليلة ، مما بقـى محفوظـاً مـن هـذا المؤلـف الثمـين ذات موضوعات متصلة أقتبسها "يوسيفوس" فى شريحتين طويلتين متعلقتـين بموضـوع الهكسوس[1]. ولكن هذا الحبر اليهودى ، عن قصد أو غير قصد ، شاء لـه أن يمـزج هاتين الشريحتين بقدر كبير من المادة النقشية الزائفة ، ولم يخـف التنويـه بالحقيقـة التالية ، وهى "أنه استعان بالفعل بمصـادر أخـرى غـير "مـانيتون" ، وأنـه أدرجـها ضمن الشق الذى اقتبسه من هذا الكاهن المصرى ، وبذلك اختلـط الأمـر ، ولعـل "يوسيفوس" قصد من وراء ذلك إلقاء بعض الظلال الكثيفة على تلك الاتـهامات التى وجهها "مانيتون" بطريقة سافرة ضد الهكسوس. وقد أسرف "يوسيفوس" فـى تهجمه وتجنيه على "مـانيتون" ووجـه جُـل اهتمامـه إلى الإشـادة بعراقـة الشـعب اليهودى وأصالته فى القدم (η αρχαιοτηs) . ولا يتسع المجال هنا لعرض أى مـن التفاصيل عن بعض المسائل العويصة والمتعلقة بالتعرف علـى كنـه ملـوك وهويـة الهكسوس وطبيعة حكمهم لمصر ، ومدى فترة هذا الحكم. ويكفى "مانيتون" فخراً أنه زودنا بالسجل الأدبى الوحيد عن تلك الوقائع وأن بيانه عنها بقى على مـدى الزمان، ذا طابع جوهرى ثم ما لبث أن أصبح هو الأساس فى أية دراسة جادة عـن هذه الحقبة وما اعتراها من مسائل شائكة. وقـد حـاول "مـانيتون" تفسـير اشـتقاق كلمة الهكسوس مُبيناً أن معناها ملوك الرعاة[2]. ثم تناول بعد ذلك وصـف تلـك الثورة العارمة التى قام بها المصريـون بقيـادة "أحمـس" ضـد الهكسـوس فضربـوا الحصار من حولهم وهم قابعون فى "أواريـس" (تـانيس أوختانـا قنطـير) إلى أن تم طردهم ورحيلهم عـن الديـار المصريـة صـوب بـلاد اليهوديـة، والثابت أن جميـع التواريخ التالية عن مصر الفرعونية كان الأساس المرعى فيها قائماً علـى الأسـلوب المـانيتونى مـن حيـث سـرد الأسـر علـى التـوالى علـى النحـو الـذى حفظـه لنـا "سينكللوس" نقلاً عن نفر من المصنفين الكرونولوجين ، ومع أن النص الوارد فى "سينكللوس" اعتراه شئ من الزيف والتحريف ، فقد بقى على الرغـم مـن ذلـك

(1) Josephus, Contra Apionem, Vol. I, 73-92.
(2) Josephus, Contra Apionem, I, 82.

محتفظاً بأهميته القصوى وقيمته الجوهرية فى دراسة علم المصريات. وهكذا كانت الظاهرة البارزة فى مؤلف "مانيتون" هى نظام الأسر ، وأصبح اهتمامه بالكرونولوجيا هو السمة البارزة فيما صنفه. وسواء أكانت تلك القوائم المنسوبة إلى "مانيتون" تمثل بحق مبلغ اهتمامه وعنايته الفائقة بالكرونولوجيا ، وأنها كانت من بنات أفكاره أم أن هناك من المبررات ما يدعو إلى القول بأن تلك الكرونولجيا الأسرية كانت راجعة إلى شخص آخر، اضطلع بعمل تلك الملخصات فى تاريخ تالٍ ، فهذا موضوع لا يزال محل خلاف ونقاش.

ولا ينبغى أن يفوتنا فى هذا المقام التنويه ببعض اللمسات التى جاءت فى تعقيبات "يوسيفوس" على بعض المقتبسات التى استقاها من ""مانيتون"" وساقها حرفياً ثم شاء بعد ذلك أن يلخص ويجمل موضوعات أخرى ذكرها من قبيل السرد والرواية. ولعل الشق الخاص بالهكسوس كان من أهم الموضوعات التى عُنى بها "يوسيفوس" وبان أن رغبة أكيدة كانت تحدوه في ضرورة التعقيب والتفنيد لما جاء فى هذا الشق بالذات ، وأنه قصد أن يقدم دفاعاً مجيداً عن قومه من اليهود وحرص كذلك على أن يكشف ""مانيتون"" ويُعريه ويتهمه بالمبالغة فى تسوئ سمعة الهكسوس. وقد غالى فى كيل الاتهامات إلى ""مانيتون"" بصفة خاصة وإلى المصريين بصفة عامة. وهكذا أصبح موقف "يوسيفوس" مشوباً بشئ كثير من الريبة ، فهو يمتدح "مانيتون" أحياناً ويقول عنه أنه عندما يتوخى النقل عن الكتابات والأسفار المقدسة يصيب كبد الحقيقة ، ولكنه عندما يعود إلى الأساطير والخرافات وينقل عن السماع ، يحيد عن جادة الصواب ويتردى فى مزالق وفى ترهات ويصبح ما يرويه من قبيل القصص والقول الهراء (η ψευδολογια) ، وهكذا بان فيما كتبه "يوسيفوس" عن "مانيتون" أنه كان مشوباً بالهوى والرغبة فى طمس الحقائق ، فتخبط بين مادح وقادح فى شخصية مصرية لامعة ، فمانيتون فارس مقدام ومؤرخ من طراز فريد ، له وزنه ولا يُضيره فى شئ ما رماه به "يوسيفوس" من عنت ومكابرة وكفاه فخراً أنه استقى معلوماته من مصادرها الأصلية ، وأتاحت له معرفته باللغة المصرية القديمة أن يَسبر غور هذه المصادر وأن يتعمق فى معرفة أسرارها وأن ينقلها لنا باللغة اليونانية (لغة الكوينى "κοινη") فى أسلوب قشيب ومتميز.

وها هى بعض المراجع التى عرضت لتاريخ "مانيتون" ومصنفاتـــه :

BIBLIOGRAPHY

(1) W.G. Waddell, Manethon, Loeb Edition 1940.

(2) P.M. Fraser, Ptolemaic Alexandria 1972, Vol. I. P. 510 and Vol. II Notes.

(3) Ed. Meyer, Aegyptiacke Chronologie, 1904.

(4) Laqueur, Real. Encyclopedic Cols. 1060-1101.

(5) Fosephus, Cortra Apionen, Vol. II.

(6) Harold Idris Bell, Cults and Creeds, 1952.

الفصل الرابع

بيتوزيريس (*Petosiris*)

إنه هو الكاهن الأعظم (Archièreus) فى معبد الإله تحوت أوتوت بالأشمونين (شمون) مركز ملوى ، وقد جاء فى عجز اسمه ما يحمل فى طياته معنى كريماً ينم عن نسبته لإله عظيم من آلهة مصر وهو أوزوريس ، وكان شأنه فى ذلك شأن أسماء أخرى مصرية قديمة نذكر منها بيتوسيرابيس المنسوب إلى الإله سيرابيس وبيتوسوخس المنسوب إلى التمساح سبك أو سوخوس بالفيوم وبيتوباستيس المنسوب إلى إلهة القط باستيت الكائن بتل بسطة بالزقازيق. وقد عاش هذا الكاهن حياة طويلة ، وكان معمراً وعاصر حقبة دقيقة فى تاريخ مصر، تعرف بالفترة الانتقالية بين أواخر الحكم الفارسى وصدر الحكم اليونانى والبطلمى، فشهد عهد الإسكندر الأكبر الذى خلص مصر من الحكم الفارسى البغيض سنة ٣٣٢ ق.م. وقدّر لهذا الكاهن الألمعى أن يشهد بنفسه تلك اللفتات الكريمة التى قدمها الإسكندر عقب وصوله إلى ممفيس مباشرة ، وهى إقامته حفلاً رياضياً وموسيقياً (Γμνικος και μουσικος αγων) من قبيل التكريم للإلهة الأوليمبية ثم أتبع ذلك فى اليوم التالى بإقامة حفل مماثل للآلهة المصرية : بتاح وآبيس وإيزيس. ومما لا ريب فيه أن جماهير الشعب المصرى وعلى رأسهم "بيتوزيريس" قد بهرهم هذا الحفل الرائع وفهموا مغزاه واستبشروا خيراً كثيراً بالعهد الجديد.

كان "بيتوزيريس" كاهناً مرموقاً ، آثر العكوف منذ نعومة أظافره على خدمة الإله تحوت (Thoth) فى زمام مدينة الأشمونين وتفانى بإخلاص فى عمله هذا وبخاصة بعد أن عُين سادناً (Iesonès) لمعبده ، وكان هذا اللقب المسبغ عليه بطريق الانتخاب السنوى على مدى ست سنوات متوالية قد خّول له أن يصبح مديراً لهذا المعبد طوال سبع سنوات متوالية[1]. وقد أدى عمله هذا على خير وجه ،

---

(١) فى رأى العالم الفرنسى "شارل بيكار" (Ch. Picar) أن هذه السنوات السبع تقع بين ٤٠٦ ق.م حتى ٣٩٩ ق.م. وجاء هذا فى مقال له منشور فى مجلة المعهد الفرنسى بالقاهرة وعنوانه

Les Influences Etrangerès au Tombeau de Petosiris : grec : ou perse ? PP. 203-227.

وبفضل ما أوتيه من قوة العزيمة وسعة الأفق وما توافر لديه من ثراء ونفوذ عريض، مضى فى طريقه لا يلوى على شئ ، وتغلب على كل الصعوبات ، فأعاد للمعبد أمجاده القديمة وأصلح ما تخرب منه وحرص على أن تقام به المراسم والطقوس فى مواقيتها واسترد للكهنة والعرافين ما ضاع من هيبتهم وحفظ لهم المكانة المرموقة التى يقتضيها السلك الكهنوتى (heiratikè taxis : heirosynè). وكان كريما فى إغداق الرواتب والأطعمة على الكهنة وملأ خزائن المعبد بالخيرات والطيبات ، مما ألهج ألسنة أهل مدينة هرموبوليس ماجنا (الأشمونين) بالشكر له. وقد عُنى كذلك بكافة الأماكن المقدسة فى تلك المدينة ، وكان منها المعبد المكرس لإلهة "حِقت" التى كانت تُصور على شكل ضفدعة ، بعد أن كانت يد البلى قد اعترته ، فأعاد بناءه على شكل جميل وأحاطه بالأسوار كيما يحميه من أن تتسرب إليه المياه من بركة مجاورة. وقد باركت تلك الإلهة هذه الأبنية وسرت بها ورفعه الإله "تحوت" على سائر نظرائه من الكهنة ، جزاء ما قدمت يداه من الأفعال الجيدة والإصلاحات العظيمة ، وهكذا ذاع صيت "بيتوزيريس" وأصبح من المقربين للوالى "بطلميوس" الأول ونال حظوة كبيرة لديه ولدى رجال بلاطه ، وكان مثله فى ذلك مثل ند ونظير له فى الوجه البحرى هو الكاهن السمنودى "مانيتون" وأصبح كلاهما فى مقدمة المعاونين والمتفهمين للأوضاع الجديدة والمقربين لأولى الأمر فى البلاد.

ومن المآثر الخالدة "لبيتوزيريس" أنه ابتنى مقبرة لأبيه ولأخيه الأكبر الذى قضى نحبه من غير عقب ، وقيل إنه كان أعزبا وكانت هذه المقبرة على شكل معبد وقدر لها أن تكون هى نفسها المثوى الأخير الذى احتوى على جثمانه المحنط محفوظاً فى تابوت بديع مصنوع من الخشب الأسود (الأبنوس) ، وكان محلى بقناع أو غطاء من الجص المزركش والمذهب وقد نقشت عليه كتابات وآيات من كتاب الموتى وعظات من قبيل الترحم على روح المتوفى. وقد وُجد مع الجية نص بردى هيراطيقى سُطرت عليه بعض التعاويز المرقشة للإلهة سنحمت إلهة الحرب[1]. وكان هذا القبر مؤلفاً من دهليز أمامى على شكل (Pronaos) تتصدره أربعة أعمدة ثم يلى ذلك ساحة داخلية على شكل ناووس (Naos) ، وكان بناء هذا القبر على

---

(١) لهذه الإلهة تمثال مصنوع من الجرانيت الوردى ، وهو محفوظ الآن بمتحف نيويورك.

هذه الشاكلة يعتبر فى حد ذاته أمراً عجيباً له جدته ، وهناك ما هو أغرب من هذا، فالصور التى كانت تُحلى الواجهة الأمامية ثم الجدران الداخلية جمعت بين الطـرز المصرية القديمة ، وقد شابتها عناصر يونانية وتأثرت بالأساليب المتداولة فى العصـر الهيللينستى من حيث حرية الحركة وعدم التقيـد بالمواجهـة الأماميـة (Frontality) فى رسم الشخصيات وفى إقامة التماثيل. وطبقاً لما كان أمراء العصر القديم يبدونه من حرص على الاحتفاظ فى قبورهم بصور لسائر الأشياء التى كانت تحيـط بـهم فى حياتهم من حيث التصوير لقطعانهم وحقولهم وصُنّاعهم وموظفيـهم فقـد شـاء "بيتوزيريس" أن يفعل بالمثل ، فأمر بأن تُصوّر مجموعة مماثلة من مناظر الحياة على حوائط تلك المقبرة. وقد تُـرك للفنانين الحرية المطلقة فى اختيـار مـا يشـاءون مـن الصور والأشكال دون قيد ولا حرج فى التمسك بالطرز المصرية القديمة أو التقيـد بمحاكاتها تماماً ، وبذلك أفسح لهم المجال فى التجديد والتحديث. وقد تجلى هذا فى تأثر هؤلاء الفنانين بأساليب النحاتين والمصوريـن الإغريـق ومدارسـهم فـى أعمـال النحت والنقش الغائر (relief en creux) والنقش البارز وحريـة الحركـة واسـتخدام الـزى اليونـانى مـن قميـص (Chiton) يُـغطـى الجسـد حتـى أخمـس القـدم (Chiton Poderes) ومن ارتـداء إزار أو لبـاس (himation) أطرافـه السـفلى محززة ، ومن نقاب (kalyptra) ومن غطـاء للـرأس بطاقيـة وانتعـال الصنـادل بصفـة عامـة. وجاءت مناظر الحصاد ودراسة الحبوب بشكل واضح مستخدمة فـى ذلـك الأدوات المستحدثة مثل مضرب الدراس ، وهناك مناظر الصنـا ع والصـائغين والجوهرجيـة ، وقد صُورت أعداد غفيرة منهم وهم عاكفون على استخدام الآتهم فـى صنـع الآنيـة والأوانى على الطراز الإغريقي ، ومنها الأكواب وكؤوس الشراب المسـاة (Rhyta) ، وقد ظهر واحدٌ منها على شكل قرن ، وجاء النبيـذ وهـو يتدفـق مـن ثقـب بـه ، وكان هذا من المناظر الغريبة[١]. وعلى غطاء أحد تلك الآنية تجلى "ايروس" (Eros) إلـهه الحب عند اليونان فى شكل بديع[٢] ، وكانت أمثلة من هذه المناظر تبدو لأول وهلة غريبة وفيها خروج على المألوف واستهتار وعبث بقدسية المكان الذى صُورت فيه. ولا بد أن "بيتوزيريس" قد راقت لديه أعمال التجديد هـذه ، ومما زاد الطـين

---

(1) A. Adriani "ta hryta", Bulletin, Societé Archaeologie d' Alexandrie, , XXXII PP. 350, 361.

(2) Gystave Lefebvre, Le Tombeau de Petosinis 1924, Vol. I Plete 8.

ومما زاد الطين بلة أنه استحل لنفسه أن يغير ويبدل فـى النصـوص المكتوبـة تحـت هذه الصور فجاءت محرفة وغير مطابقة للنصوص المسطرة على المقابر القديمة ، وهى بالتأكيد من مبتكراته الشخصية. ولعل المثل الرائع على ذلك ما وجد مسطرا علـى واجهة هذه المقبرة من عصارى الكروم وهـم "تـارة يقطفـون عنـاقيد العنـب وتـارة أخرى وهم يقومون بعصرها بأرجلهم فى أوعية وخوابى أعدت لهذا الغرض ، وهـم فى أثناء هذه وتلك يخاطبون سيدهم بقولهم "هلم أيها السيد ، أبشر وابتهج وأسرع بالحضور لإلقاء نظرة على كرمك اليانع الذى يسر الناظر إليه ويشرح لك صـدرك. إن عمال الكروم عاكفون على عملهم فى عصر النبيذ ولا يزال على الأغصان مـن عناقيد العنب الشئ الكثير وقـد زادت وفرتـه بدرجـة كبـيرة عـن أى سـنة أخـرى وأصبحت تتطلب العصر ، فاهنأ بالشراب والخمر كما تحب وتهوى[١] ".

وما لبـث هذا القبر أن أصبـح معبـدا (ieron) يؤمـه السائحـون والـعباد (Hai Proskyneis) ويقدمون لصاحبه ابتهالاتهم ويحظون بالبركة منه ، وكان بعـض هؤلاء ممن أطلقوا على أنفسهم كنية بأنهم أبناء يونانى يدعى "ميثرون" Mithron ، وقد سجلوا أسماءهم على أحد الأعمدة الشامخة فى واجهة هـذه المقـبرة فـى صـورة بضع خرابيش سوداء وسطروا بجانبها نقشـا مؤلفـا مـن سـطرين يونـانيين بالشـعر الإيـامبى (أى الثلاثـى الـوزن) ونصـه كمايلـى : "إنـى أبتـهل وأتوسـل إلى روح "بيتوزيريس" وأحيى جثمانه الراقد الآن فى بطن الأرض فـى رفقـة الالهـة ، وهـو الحكيم مع الحكماء"[٢]. وكانت له ذرية صالحة مـن البنـين والبنـات ، تمثـل فيـهم الجيل الرابع أما والدهم فكان يمثل الجيل الثالث، وكان النظام المتبع فى الكـهنوت المصرى أن يرث الابن الشرعى منزلة أبيه أو يتمتع بألقابه ، وهكذا بالتتابع حسـب ما قضى به العرف. وكان محرما على الأبناء غير الشرعيين مـن اللقطـاء فـى نطـاق المعبد (hoi nothoi) أو ممن تسموا بأسمـاء أمهاتـهم (tas de apatores)[٣] أن يتولـوا إحدى الوظائف الكهنوتية ، ويرجع البدء فى الكشف عن هـذا الأثـر إلى عـام ١٩٢٠

(1) Gustave Lefebvre, Le Tombeau, Plate 43.

(2) Petoseiris auds katach thong neus (c.e. deas body) nun d'en Oeoisi keinenon, meta sopham sophos.

(٣) وهم الذين عرفوا بالاسم الآتـى (Aapatores), Homage á claire Préaux, Mr. 723-740.

ثم استمرت أعمال الكشف بعد ذلك لعدة سنوات ، وهو يقع فى زمام تونة الجبل على الضفة الغربية من النيل وفى تخومه بل وبمعزل عنه صوب الغرب توجد عدة دهاليز وسراديب ، تحوى فى كواتها آلافاً مؤلفة من الطائر المقدس المسمى إيبس (Ibis) ، وهو محنط كرمز للإله تحوت ، وتعرف بمقابر طائر الأيبس (Ibiotapheion)، وقد حكى عن ذلك هيرودوت فى الكتاب الثانى الفصل ٦٧ بقوله : (tas de ibis apagousi eis Hermopolin)، وقد زودنا العالم الفرنسى "جوستاف ليفيفر" بدراسات مستفيضة لعدد من النقوش المسطرة على حوائط هذا الأثر البديع ، وقد ضمّن ذلك فى عدد من المقالات المنشورة بحوليات مصلحة الآثار المصرية ثم أخرجها فى مؤلف من ثلاثة أجزاء. وها هى الألقاب التى كان بيتوزيريس يتمتع بها بعد موت أخيه الأكبر: "إنه الابن التالى ، المحبوب والوريث لكل ما آل إليه من أملاك ، وهو ذو المرتبة الأولى فى الألقاب الخمسة ورب الأريكة والكاهن الأعظم ، والمشاهد لرؤية الإله فى محرابه ... وهو الوحيد بين الكهان العظام الذى يحق له الاشتراك فى مراسم العبادات ، وهو العرّاف للثامون الإلهى (Ogdoade) ورئيس كهنة "سينحمت ورئيس كهنة الطبقة الثالثة وكهنة الطبقة الرابعة والكاتب الملكى لحسابات جميع الأملاك الخاصة بمعبد هرموبوليس .... الخ". وجَل هذه الألقاب لم تكن تستوعب سلسلة الأعباء الكهنوتية التى كانت تقع على عاتقه.

وقد شاءت المقادير أن تبقى هذه المقبرة ، مزاراً يؤمه الناس من كل فج فى العصور القديمة ، بل وفى العصور الحديثة فى شتى المناسبات ، وكان تابوت "بيتوزيريس" يشبه فى عظمته وجماله توابيت ملوك الفراعنة ، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى ، مخلداً لذكرى هذا الكاهن العظيم.

الفصل الخامس

لمحات فى حضارة مصر البطلمية[1]

(٣٠5 ق.م - ٣0 ق.م)

هناك جوانب كثيرة فى حضارة مصر البطلمية ، ولكنها اتسمت فى مجموعها بطابع معين ولا يمكن لمن يتصدى لهذا الموضوع إلا أن يعرض له ويتناوله بشيء من التفصيل وذلك أن البطالمة جاءوا إلى مصر فى ركب غزوة الاسكندر الأكبر (الثالث) وفتحه لأبواب هذه البلاد. وقد آثر أحد قواد الاسكندر ورئيس حربه وهو "بطلميوس" بن لاجوس أن يستأثر بمصر ويخص نفسه بها بعد ممات الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م. ثم عمل منذ البداية على أن يحتفظ بها لتكون مُلكاً خالصا له ولأسرته من بعده ، فأثبت بذلك أنه كان رجلا حصيفا وبعيد النظر وهو الرجل الذى كان قد نيّف على الأربعين من عمره عندما قدم إلى البلاد وكان يعرف ، على حد قولهم "من أين تؤكل الكتف" ويعرف كذلك كيف يصيب بحجر واحد أكثر من عصفورين ثم إنه كان يؤثر ويفضل الاحتفاظ بعصفور فى اليد خيراً من الاثنين والتطلع إلى العديد من العصافير على الشجرة . تلك هى صورة ذلك الرجل الألمعى الذى وطد أقدامه فى مصر وحكمها بوصفه "ساتربا" أو "مرزبانا" ، أي نائبا عن ورثة الاسكندر بعد مماته ٣٢٣ ق. م. حتى ٣٠٤ عندما أعلن نفسه ملكاً مستقلا على مصر بلقب "باسيليوس" (Βασιλευς).

ومنذ ذلك الحين حتى ٣٠ ق.م. بقيت مصر فى حوزة عدد من أبنائه وأسلافه عدّهم "استرابون" فى كتابه الجغرافى السابع عشر ، وفى عجالة ، وسماهم جميعا باسم "بطلميوس" وخص كل واحد منهم بكنية أو صفة تُضفى عليهم القداسة فوصف الثلاثة الأولين منهم بالكفاية والمقدرة إذ هم المؤسسون لهذه الحضارة البطلمية التى استرعت أنظار العالم ، بما وضعته لمصر من نظم فى الحكم

---

(١) البطالمة (Ptolemies) نسبة إلى "بطلميوس" الأول (Ptolemaeus) ، ويطلق عليهم بالفرنسية (Lagides) أو باللاتينية (Lagidae) أو نسبة إلى الجد (Lagos) ،ومعناها الأرنب البرى.

اتسمت بالبيروقراطية الشديدة وبما طبقوه من نظام اقتصادى بديع كان رائدا فى العالم الهيللينستى ومصدرا لثراء ضخم ، ملأ الخزانة البطلمية (باسيليكون) بثروات عينية ونقدية هائلة مكنتهم من السيطرة وبسط النفوذ فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ، والمحافظة لفترة أو لحين ما على إمبراطورية بحرية تشمل عدة جزر منها قبرص وبعض أجزاء من آسيا الصغرى وبرقة وسوريا الحالية (سهل البقاع) وفلسطين. وبهذا كانت للملوك البطالمة الأولين سيادة بحرية تسمى باليونانية "ثالاسوكراسيا" ولكنها لم تدم طويلا. وأول هؤلاء الملوك الثلاثة هو ""بطلميوس"" الأول الملقب "سوتير" أو المخلص (٣٠٤ حتى ٢٨٣ ق.م.) ثم ""بطلميوس"" الثانى ٢٨٣- ٢٤٦ ق.م.) وهو الملقب "بفيلادلفوس" (Philadelphus) أى المحب لأخته وكان هذا اللقب أصلا يسبغ على أخته وزوجته الثانية المسماة "أرسينوى" الثانية وكان قد تزوجها بعد أن طلق زوجته "أرسينوى" الأولى وترك لأخته مقاليد الأمور وكانت تكبره سنا ، فلما توفيت رفعت إلى مصاف الآلهة والآلهات ورصدت لها أموال تتوفر من ضريبة "الأبومويرا" (Apomoira) أو الجزء (Hekte- Dekate) المقتطع وهو السدس أو العشر ، على الكروم والبساتين ، للصرف من حصيلتها على مراسم هذه العبادة الجديدة ، أما ثالثهم فهو ""بطلميوس"" الثالث الملقب "يورجتيس" (٢٤٦- ٢٢١ ق. م) أى "فاعل الخير" فكان محاربا مغوارا خاض فى السنين الخمس الأولى حروبا فى الشام وبلاد ما بين النهرين وما وراء الفرات وأبلى بلاءاً حسنا وانتقم لأخته المتوفاة وكانت زوجة "لأنطيوخوس" ملك الشام[1] أى سوريا القديمة. وحافظ على تلك الإمبراطورية التى ورثها عن أبيه وجده.

وهؤلاء الملوك البطالمة الثلاثة كانوا فى نظر "استرابون" أقوياء الشكيمة ودعامة قوية لمصر وعظمة مصر ، وكانوا حريصين على سمعتها ومجدها. وقد أفاض "استرابون" فى مدحهم والإشادة بذكرهم. أما من جاءوا بعدهم فكانوا إما أبناء لهم على التوالى أو أخوة لهم ، وقد سردهم "استرابون" فى سلسلة متصلة ولكنه مر

---

(١) والجدير بالذكر أنها كانت حتى ذلك الوقت تسمى "سوريا" ، ولكن لفظة الشام لم نعرفها إلا بعد الفتوحات الإسلامية.

عليهم مر الكرام فذكر منهم ""بطلميوس"" الرابع بن ""بطلميوس"" الثالث بالذات وكان هذا الملك الملقب بلقب إلهى هو الذى عرف به على مر السنين وهو ""بطلميوس"" "فيلوباتور" أى المحب لأبيه ، وكان من عشاق عبادة الإله "ديونيسوس" والداعين للاحتفال بطقوسه ومراسم عبادته سنويا وكان يقيم المواكب التى يسير فيها حملة القنينات من الخمر ويحرص على تسجيل أسماء المنضوين فى هذه العبادة فى ديوان بالإسكندرية ، وفى عهده انغمس الناس فى الملذات والشهوات وأعمال المجون وارتمى الملك فى أحضان ثالوث ماجن يمسك بزمامه وزير ماكر هو المسمى "سوسيبيوس". ثم كان هذا الثالوث عبارة عن أم فاجرة تسمى "أوينانثى" وابنتها الجميلة "أجاثوكليا" عشيقة الملك وأخوها "أجاثوكليس" أحد وزراء الملك ومعاونيه. وعلى الرغم من انغماس الملك فى مجونه واهتمامه البالغ بعبادة الإله "ديونيسوس" إله الخمر والكرم واشتراكه فى الحفلات الماجنة وتكتيل قوى هؤلاء العباد واتباع ذلك الإله ودعوته لهم للحضور للإسكندرية وتسجيل أسمائهم هناك واهتمامه البالغ بحصر أولئك الذين تلقوا أسرار هذه العبادة ، فإن عهده اشتهر فى تاريخ البطالمة بما وقع فيه من أحداث جسام[1] ذلك أن ملك سوريا "انطيوخوس" شن غزوة على البلاد فى حوالى ٢٢٠- ٢١٨ ق.م فانبرى له "سوسيبيوس" الماكر وأخذ يفاوض سوريا ويتظاهر بالرغبة فى المسالمة وهو فى الحقيقة يستعد لخوض معركة هائلة - تلك هى معركة رفح ٢١٧ ق. م التى غيّرت من سياسة البطالمة فى مصر ومن الاتجاهات التى كانت تسير نحوها. ذلك أن فيلقا مصريا تألف وتدرب على أساليب القتال اليونانية وبعد أن كان هيرودوت يسخر من الجنود المصريين ويصفهم بأنهم جماعة من القوات المحاربة المسماة "بالماخيموى" لا يعرفون النظام ولا يلبسون إلا السراويل ولا يحملون سوى البلط والعصى ، أثبتوا بعد ما يزيد عن قرنين من الزمان فى معركة رفح أنهم أكفاء وأبلوا بلاءً حسنا وصدوا العدو فكانوا بذلك أصحاب الفضل على أسرة البطالمة والمؤيدين لعرشهم بعد أن كان العرش قد اهتز تحت أقدام هذا الملك المفتون. ولذلك تعتبر معركة رفح ٢١٧ ق.م فى حضارة مصر

---

(١) أنظر ما كتبه المؤرخ اليونانى "بوليبيوس" عن هذا الملك المفتون !

البطلمية بمثابة مفترق طرق لما كان لها من آثار بعيدة المدى فى السياسة الخارجية والداخلية فبينما هى التى حفظت عرش البطالمة من الانهيار والسقوط إذا بها رفعت من معنويات الشعب المصرى وجماهيره وجماعات "اللاوى" (Laoi) التى أخذت تطالب منذ ذلك الحين بثمن هذا النصر الذى كسبوه وتلح فى أن تشارك فى الحكم وأن يكون المصريون على قدم المساواة مع اليونانيين. وبعد أن كان اليونان ينظرون شذرا إلى المصريين وينزلونهم منزلة دنيا فى السلم الاجتماعى ويشيرون إليهم بشيء من الاحتقار ، أصبحوا يعملون للمصريين ألف حساب وحساب . وعلى ذلك لا ينبغى أن نغفل أثر معركة رفح فى حضارة مصر البطلمية.

جاء بعد ذلك ملك هو ""بطلميوس"" الخامس الملقب "إيبفانيس" (Epiphanes) أى المتجلى أو الظاهر وفى عهده تم تسطير لوح فى عام ١٩٦ ق.م اشتهر على مر السنين وكان له أهمية فى حياة مصر القديمة ذلك هو "حجر رشيد" وقد عثر عليه أثناء الحملة الفرنسية على مصر فى رشيد ثم نقل إلى المتحف البريطانى ، وقد كتب عليه قرار أصدره الكهنة المصريون وهم يشيدون فيه بما منحه عليهم هذا الملك الشاب من إعفاءات "فيلانثروبا" وتسامحات و انعامات.
ولما كان هذا القرار مكتوبا باللغة المصرية القديمة ، الهيروغليفية ثم بالخط الديموطيقى ثم ترجمة هذا كله باللغة اليونانية. وجاء فى ثنايا هذا القرار كلمتان مهمتان باليونانية هما "بطلميوس" ثم زوجته "كليوباترة" والمقابل لهما مكتوب داخل إطار أو خرطوش بالهيروغليفية ، فقد توفر لعالم فرنسى هو "شامبليون" عمل دراسة مقارنة ، وكان له الحظ فى تولى فك رموز اللغة المصرية القديمة عن طريق التعرف على حروف الباء والتاء واللام والسين والميم ، والحروف المتحركة بينها ثم الكاف واللام والباء والتاء والراء والحروف المتحركة فى كلمة "كليوباترة".

ثم أخذ هذا العالم يعمل الفكر والتنقيب حتى استنبط آخر الأمر حروفا هجائية أخرى وتوصل إلى كشفه العظيم وبذلك فك طلاسم اللغة الهيروغليفية وأسدى بذلك جميلا إلى علماء العاديات المصرية أو علم المصريات ، فأثرى بهذا الكشف العلمى معرفتنا الوثيقة بتاريخ الأمة المصرية فى العصر الفرعونى ثم فى

العصرين البطلمى والرومانى على مدى حقبة طويلة تعد بالآلاف من السنين ولا تزال مهمة فك الطلاسم فيما يكشف من آثار ماثلة أمامنا. وتتطلب قراءة ما سطر على الحوائط والحجارة والنقوش والألواح والبردى والشفافة باللغة المصرية القديمة وبالخط الديموطيقى وما أكثر ما سطر بهذا الخط. ولا يزال راقدا ومكدسا بالمتاحف الأوربية ينتظر أيدى العلماء من المصريين والأجانب على السواء.

جاء بعد ذلك فى قائمة "استرابون" ملكان هما "بطلميوس" السادس الملقب "بفيلوميتور" أى "المحب لأمه" ، وقد اشترك معه لفترة من الزمان أخوه "بطلميوس" السابع الملقب فيما بعد "بيورجيتيس" الثانى واقتسما الملك فكان "بطلميوس" السابع يحكم إمارة فى قبرص وأخرى فى برقة ولم يكن عهدهما بعهد استقرار ، بل قامت الفتن والحروب ، وقد مات الأخ الأكبر عام ١٤٥ ق.م. وانفرد بالملك أخوه "بطلميوس" يورجيتيس الثانى وحكم من ١٤٥ ق. م حتى ١١٧ ق.م وقد تزوج هذا الأخير من أرملة أخيه وكانت تسمى "كليوباترة" الثانية ثم تزوج من ابنتها فى الوقت نفسه وكانت تسمى "كليوباترة" الثالثة ونشب خلاف أسرى وانقسمت البلاد وكان الصعيد فى حوزة زوجته الأولى وكان الوجه البحرى مشايعا له.

ويبدو أنه كان ملكا شريرا وكانت علاقته بالسكندريين على غير ما يرام فلقبوه بالشرير "كاكرجيتيس" وذلك على النقيض من معنى اللقب الذى كان يكنى به وهو "فاعل الخير" أى "يورجيتيس" واشتهر حكمه بتلك الحرب الأهلية التى نشبت بينه وبين أخته وزوجته الأولى وانقسمت البلاد على نفسها ،، وأصبح الوجه القبلى يناصر الملكة والوجه البحرى يناصر الملك وزوجته الثانية "كليوباترة" الثالثة وانتهت الحرب الأهلية سنة ١١٨ ق.م بقرار أعلن فيه الطرفان هدنة وعفوا عاما سلم فيه كل جانب للآخر ببعض الترضيات وعرف هذا بكلمة "فيلانثروبا" (Philanthropa) حفظتها لنا وثيقة بردية مشهورة ، ومنشورة فى مجموعة بردى "تبتونس" أى (أم البرجات بجنوب إقليم الفيوم) تحت رقم (٥) وجاءت هذه البردية حاوية لكثير من الأحكام المتبادلة بين الطرفين ، فيسلم كل منهما للآخر بحقوق يحافظ بها على مصالح المؤيدين له ، ومن كانوا يناصرونه من الطوائف المختلفة من رجال الدين والعمال والصناع وأصحاب الحرف المختلفة

ويعفى المحاربين من كثير من الأعباء وحقوق الإسكان للجند ، وهى التى كانت تثقل كاهل الناس والأهلين.

ويأتى فى آخر المطاف فى سلسلة ملوك هذه الأسرة البطلمية ملك مفتون آخر هو "بطلميوس" الملقب "أوليتيس" (Auletes) أى الزمار ، وكان يهوى الزمر على الناى وكان يلقب بـ "ديونيسوس" الجديد (Neos Dionysus) واشتهر بأنه كان والد "كليوباترة" الأخيرة وهى السابعة. وكان عهده غير مستقر وكان لهوه ومجونه قد كلف البلاد أعباءاً كثيرة وترتب على ذلك بيعه لأملاك وأراضى كثيرة وتوسع فى الملكية الخاصة للأفراد لأنه كان فى حاجة إلى الأموال الطائلة ، وكانت روما إذ ذاك قد تدخلت فى شئون مصر بدرجة سافرة وخاصة بعد أن طرد الملك من مصر من ٥٩/٥٨ ق.م بعد أن ضاق به السكندريون ذرعا فتخلصوا منه وعندئذ ذهب إلى روما طالباً العون والتأييد ، وهناك ارتمى فى أحضان قائد رومانى مشهور هو "بومبى" العظيم وكان ثانى رجل فى روما بعد "يوليوس" قيصر وكلاهما يتنافس على الانفراد بسلطة فى حكم ثلاثى عرف بنظام الثالوث الحكومى الأول بين "يوليوس" "وبومبى" "وكراسوس" فى روما (Triumvirate) ، وقد قدّم "بومبى" هذا الملك المخلوع إلى مجلس الشيوخ الرومانى فمنحه لقبا كان يعتز به هو "الصديق والحليف لروما" "أميكوس وسوكيوس" (Amicus et Socius) وكبّده هذا كله أموالا طائلة جمعها من مصر وأغدقها على زعماء الرومان كيما يكسب صداقتهم وتأييدهم. وعلى ذلك استطاع "بومبى" أن يوحى إلى صديقه "جابينيوس" (Gabinius) وكان يمثل الحاكم الرومانى فى سوريا إذ ذاك فى أن يعيد هذا الملك إلى عرشه بقوة السلاح الرومانى ، وقد تم هذا بالفعل وجاءت حامية من سوريا إلى مصر يقودها "أنطونيوس" قائد قوة الفرسان Magister (Equitum) ودخلت مصر من الفرما واستقرت فى الإسكندرية وأعادت الملك إلى عرشه عام ٥٥ ق.م وبقى جيش الاحتلال الرومانى يؤيد عرش البطالمة. ومات هذا الملك عام ٥١ ق.م فخلفته ابنته "كليوباترة" السابعة بحسب الوصية التى كان والدها قد أودعها فى روما لدى العذارى فى معبد رومانى (Vestal Virgins) وطلب إلى الرومان أن يكونوا شهداء على تنفيذ الوصية التى قضت بأن تتزوج "كليوباترة" من أخيها "بطلميوس" الصغير ، وأن يشتركا فى الحكم ولكن ما لبث

أن دب الخلاف بين الأخ والأخت وحمل كل منهما السلاح فى وجه الآخر من ٥٠ حتى ٤٨/٤٩ ق.م.

وعندئذ حدث أن وقعت الموقعة الهائلة بين "يوليوس" قيصر "وبومبى" فى "فارساليا" (Pharsalia) فى بلاد اليونان ٤٩/ ٤٨ ق.م انتصر فيها الأول على "بومبى" الذى فر إلى مصر مؤملا أن يلقى الأمان فيها بعد الهزيمة المنكرة ولكن الاغتيال كان نصيبه وهو يرسو على الشاطئ فى الفرما (بيلزيوم) وقد اغتاله أحد رجال الملك البطلمى الصغير ، ظنا منه أن هذا الاغتيال سيكون خير قربان يقدمه إلى القائد المظفر "يوليوس قيصر".

وقد عاد هذا القائد بالفعل فى أعقاب "بومبى" ودخل مصر ويكى زميله فى القتال بعد أن خر صريع الخيانة الدنيئة وأصبح "يوليوس" قيصر يملك زمام الموقف فى الإسكندرية وحضرت إليه "كليوباترة" من معسكرها فى شرقى الدلتا بطريقة فيها شيء كثير من الروائية والروعة التى تأخذ بلب الشعراء وأصحاب الخيال وقد نصح القائد الرومانى كلا من الأخ والأخت بأن يعيشا فى وئام ، وأنجب من "كليوباترة" ابنا عرف على مدى الأيام باسم ينم عن والده وهو "قيصر" فسمى "بقيصر" الصغير "قيصرون". وكان هذا الابن يشبه أباه فى مشيته وفى سحنته وكان موضع إعزاز وإكبار من والدته التى أشركته معها فى الحكم بعد موت زوجها وأخيها وكان مستقبله السياسى هو الشغل الشاغل لهذه الملكة المصرية الطموحة ، بل كان فى هذا فى واقع الأمر مقتلها ونكبتها - كان كل همها كامرأة أن تكسب إلى جانبها قائدا رومانيا عظيما ينفذ لها برنامجها السياسى أو تحقق عن طريقه شيئا من مطامعها الواسعة وهى مطامع مصرية صميمة ، لا غبار عليها ، فهى تريد العظمة لمصر وتريد للإسكندرية أن تكون عاصمة العالم الهيللينستى وتستعيد الإمبراطورية المصرية التى كانت على عهد "فيلادلفوس" وتبغى السيطرة على روما. ولكن اتصال "يوليوس" قيصر بها لبضع سنين أثار عليه حفيظة الرومان من أمثال "شيشرون" وهو الخطيب والأديب والكاتب السياسى العظيم فاغتاله فريق من الحزب الجمهورى هما "بروتس" "وكاسيوس" وهو خارج من مجلس الشيوخ الرومانى عام (٤٤ ق. م) فى يوم مشئوم هو الخامس عشر من شهر مارس (ايديس) (Ides) من شهر مارس بعد وداعه لهذا

المجلس والتأهب لشن حملة ضخمة على دولة الفرس وعندئذ انهار أمل "كليوباترة" وعادت الملكة إلى مصر ، وهاربة كما قيل فى وصف "شيشرون" (فوجا ريجيناى Fuga reginae) باللاتينية. وعندئذ عكفت على إعادة التفكير فى خططها ومن عام ٤٣ حتى ٣٠ ق.م وهى تتخبط وتحاول أن تصلح ما أفسده الدهر فاتصلت "بانطونيوس" أو بالأحرى هو الذى اتصل بها فى عام ٤٣ ق.م وأحبها وأنجب منها توائم وتزوجها آخر الأمر عام ٣٧ ق.م بعد أن كانت زوجته الأولى فولفيا (Fulvia) قد تركته وتزوج بالإكراه من أوكتافيا (Octavia) شقيقة حليفه ، أوكتافيوس (Octavius) وهو الوريث والحفيد "ليوليوس" قيصر بحسب الوصية التى تركها القائد العظيم "يوليوس" قيصر . ولكن العلاقة الزوجية بين "أنطونيوس" وزوجته أكتافيا لم تدم طويلا بسبب اختلاف الأمزجة وعدم التكافؤ بين الاثنين فما لبث أن طلقها كذلك غير عابئ بمقتضى الاتفاق المبرم مع أخيها وهو الحكم الثلاثى الثانى (تريومفيريت) (Triumvirate) بين "اكتافيوس" "وانطونيوس" "ولبيدوس". فلما تزوج "أنطونيوس" من "كليوباترة" بدأ العداء السافر بين الاثنين الأولين وقضى العالم الرومانى فترة سنتين من سنة ٣٣- ٣١ ق.م فى حالة انشقاق وتأهب بين ، الطرفين الشرق والغرب ، وكان الغرب يناصر "اكتافيوس" بينما الشرق يؤيد "أنطونيوس" ومعه "كليوباترة" ملكة مصر.

ووقفت مصر إلى جانب هذه الملكة مؤيدة لها فى كفاحها ضد "اكتافيوس" والغرب بعد أن أعلن "اكتافيوس" الحرب على ملكة مصر واعتبر زوجها عدوا لدودا (Hostis) تخلى عن رومانيته وارتمى فى أحضان ملكة مصرية. وهنا وقعت موقعتان هامتان فى سنتين متتاليتين أولاهما فى بلاد اليونان فى أكتيوم (Actium) عند مدخل بحر الادرياتيك على الشاطئ الغربى من بلاد اليونان فى خليج امبراشيا حيث وقف الأسطول المصرى والقوات المعبأة من جميع أرجاء الشرق تؤيد "أنطونيوس" ضد قوى الغرب (إيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال) وكان مآل النصر للغرب بعد فرار أسطول "كليوباترة" وزوجها "أنطونيوس" من الميدان إلى مصر. أما المعركة الثانية فكانت فى ظاهر الإسكندرية فى نيقوبولس فى أغسطس من عام ٣٠ ق.م ، وقد خاضها "أنطونيوس" بعد أن فشل فى مرسى

مطروح ضد القائد "كورنيليوس جاللوس" الذى انبرى "لأنطونيوس" وخدعه حتى وقع هو وأسطوله فى كمين داخل الميناء وردّه على أعقابه ولم يجد "أنطونيوس" وكليوباترة غير الانتحار فتواريا عن الأبصار وتركا مصر فريسة وضحية تخر تحت وطأة الحكم الرومانى وتدخل فى زمرة الأملاك الرومانية فى حوض البحر المتوسط. وكانت مصر صاحبة الشرف الرفيع الذى يراق على جوانبه الدم الغزير بأن خرت بوصفها آخر دولة فى هذا الحوض.

هذه إلمامة عابرة فى عرض سريع للأحداث السياسية ، بل هى الإطار العام لحكم بيروقراطى ساد مصر طوال حقبة مدتها ثلاثة قرون شهدت فيها البلاد تطورا اقتصاديا وعلميا واستغلالا لموارد هذا البلد على نحو لم تشهده من قبل.

الفصل السادس

لمحة عن النظام الاقتصادى والاجتماعى

فى مصر البطلمية

ننتقل الآن إلى ذكر لمحة عن الشئون الاقتصادية باعتبارها الركيزة الأولى في الحكم البطلمي فنقول:

كان الحافز الرئيسى فى ذلك النظام الاقتصادى الذى أقامه ملوك البطالمة الأولون هو الرغبة الملحة فى تنظيم الإنتاج وكان أسلوبهم فى ذلك رعايته وتنسيقه فى سلسلة متصلة من القوانين أهمها تلك التى أصدرها "بطلميوس فيلادلفوس" سنة ٢٥٨ ق.م ثم أعيد تنسيقها فى عهد ""أبوللونيوس"" وزير المالية. وعرفت تلك القوانين باسم يونانى هو (Nomoi Telonikoi) أى "القوانين الضريبية" والالتزام بجباية مختلف الضرائب وهى تمثل أعظم وثيقة بردية محفوظة الآن بمكتبة البودليان بجامعة إكسفورد وهى الأساس فى أى دراسة جادة عن نظام الحكم البطلمى كله وفيها تنظيم لجباية الضرائب وتحصيل المكوس ونظام الاحتكارات وتسوية الحسابات بين الحكومة والملتزمين ونظام المصارف وأعمال النسيج. ومنها يُلم الإنسان بألوان من الحياة ويعرف أوضاع العمال فى المصانع الخاصة بعصر الزيوت والنبيذ ومشاركتهم فى الأرباح وتوزيع الفائض - وبالاختصار جمعت هذه الوثيقة البردية ووعت الكثير من التعليمات - ولا مندوحة من أن يطلع كل واحد من الباحثين فى الحضارة البطلمية على بعض صفحاتها ويتأمل فى تلك التشريعات التى أصدرها "بطلميوس فيلادلفوس" وكان فيها مقتبسا من نظم سائدة فى أثينا ومستعينا بجهود مسبقة لفيلسوف أثينى مرموق هو"ديمتريوس الفاليرى" (أى من أهل مرفأ أثينا القديم وهو فاليروم). ولا مجال هنا للدخول فى أى من التفصيلات المسهبة ، فهذه مهمة الباحث المتقصى ونقتصر هنا على مجرد الإشارة إليها بين حين وآخر.

وكان الغرض الأساسى من وراء ذلك كله هو أن تصير الدولة - أو بالأحرى الملك- غنية وقوية ، يهابها العالم اليونانى ، وكانت كل جهود الشعب موجهة

نحو تحقيق هذا الغرض الأسمى ، فكان يُطلب إلى كل فرد أن يكد ويشقى من أجل الدولة ووفق برنامج موضوع ومعد بعناية شديدة بواسطة السلطات والهيئات الإدارية وكانت الحكومة تسهر على تنفيذه بدقة ولم تكن تتردد فى فرض العقوبات والغرامات وأخذ الضمانات والمواثيق الغليظة من قَسَم (ορκος βασιλικος) وخلافه حتى تطمئن الدولة إلى أن كل شيء يسير على ما يرام.

أما عن دور المواطنين من المصريين وهم جماعة تُعرف بالاسم الآتى (Laoi) فكان بعيدا عن القيادة والتوجيه وأغلبه محصور فى الكد والشقاء ونصيبه فى المكاسب والغنائم ضئيل إذ لم تكن الحكومة تترك للطبقات المختلفة من الشعب سوى الكفاف والقليل من الحرية ، ولم تتح لهم من الفرص إلا ما ندر ليسهروا على مصالحهم الخاصة فكان نصيب الفرد الواحد من الربح أو الفائض وهو ما يسمى (epigenema) إلا قدرا ضئيلا جدا ، بل يكاد يكون معدوما بالنسبة للمواطنين المصريين الذين كانت تقع على كواهلهم أثقل الأعباء. فالكثرة الفقيرة منهم كانت ملزمة أو مكرهة على أن تعمل من أجل الحكومة والملك فى هذا أو ذاك سواء فى الحقل أو المزرعة أو فى مختلف المصانع والمناجم أو المصايد ، ويستوى فى ذلك الفلاحون الملكيون (georgoi basilikoi) أو غيرهم من الفلاحين فى الأراضى والضياع الأخرى التابعة لبعض الأفراد من المحظوظين أو للمعابد أو فى الأراضى التى كانت فى حيازة الجنود ، مشاة أم فرسانا وضباطا أم جنوداً فى جيش مرابط بمصر من المرتزقة اليونان ومن على شاكلتهم من العناصر المتأغرقة التى هبّت إلى مصر سعيا وراء الكسب أو لاستغلال موارد بلد غنى بخيراته فجاءوا إليها كالسيل المنهمر متكالبين على خدمة ملك بطلمى سخى كان يعتبر فى رأى الشاعر اليونانى "ثيوقريطس" (Theocritus) بطلاً وجواداً كريماً ، وكان هذا الشاعر الألمعى يتغنى بفضل الملك "بطلميوس فيلادلفوس" ويحض الناس على الانضواء فى الخدمة العسكرية من أجله باعتباره أحسن من يجزل العطاء للجنود.

وهناك غير المزارعين فئات أخرى من المصريين كانوا يمثلون جماعات مختلفة من دافعى الضرائب (hypoteleis) وكل من لهم علاقة أيا كانت بالإيرادات ويطلق

على هؤلاء ذلك الاصطلاح اليونانى المشهور (epipeplegmenoi tais prosodois) ومعناه المرتبطون بموارد الدخل. وبعض هؤلاء كانوا إما من العمال فى المصانع أو تجار التجزئة والبدالين أو رعاة أغنام وماشية أو من الصيادين البريين أو صيادى الأسماك أو الجدفين والتجار أو عمال المناجم والمحاجر فى الأماكن النائية أو على حواف الصحراء الشرقية والغربية. وبخلاف الأعمال العادية لكل هؤلاء فإنهم كانوا معرضين للقيام بأعمال كثيرة كانت تدخل فى نطاق السخرة أو الأعباء (Leiturgiae) فى حفر القنوات وإقامة السدود ، ومن وقت لآخر للعمل فى المناجم والمحاجر ولربما كذلك فى صيد الأسماك وأعمال القنص أو فى تشجير جوانب الجسور وجوانب الطرق وشتى أعمال نقل المحاصيل على ظهور الحمير والبغال والجمال- كل هذه الأعمال وأضرابها. كانت فى الكثير الغالب تحض الناس على القيام بأعمالهم المعتادة من أجل كسب قوت يومهم ، ولسنا نعرف على وجه الدقة أى صفة ووضع قانونى كانت تدخل تحت طائلته مثل هذه العلاقات الإجبارية ، ويبدو أنها كانت فى كثير من الأحوال تتخذ طابع التعاقد المبرم وكانت تبذل المحاولات أحيانا فى الحصول على تنازل عن هذه العقود متى ساءت العلاقات بين صاحب العمل والأجراء وتستعمل وسائل الإكراه للضغط حتى يتنازل أصحاب العمل. ولكن العقود بين الحكومة وأولئك الذين كانوا يعملون فى خدمتها كانت من نوع فذ إذ أنها كانت فى العادة تحتوى على بند هام خاص بحق التنفيذ فى حالة العجز عن الوفاء بسداد المطلوب من الديون فيذكر أن التنفيذ يجب أن يتم على نحو ما هو متبع فى سداد الحقوق والمطلوبات الملكية.

(he praxis esto hos pros ta Basilika esten kathaper ek dikes) ولدينا الكثير من الوثائق البردية الدالة على أن هذه الصفة كانت مستعملة كثيرا وتتضمن حق الحكومة فى تحصيل المستحق للتاج بالتنفيذ على شخص المدين العاجز عن الوفاء بالمطلوب ومعنى هذا مصادرة كل أملاكه للوفاء بالدين أو إلقاء القبض عليه وعلى ضامنيه والزج بهم فى غياهب السجون فيصبحون رقيقا ، مسلوبى الحرية حتى توفى الديون.

وهناك فريق آخر من المواطنين المصريين كان جُلّ اعتمادهم على الحكومة أو على الملك وكان هذا الفريق يشقى وينصب تحت عبء من المسئوليات الجسيمة وهؤلاء كان سوء طالعهم هو الزج بهم فى خدمة الحكومة البطلمية ، وكان هؤلاء يُساقون فى المناطق التى يؤدون فيها أعمالهم ، ترقبهم عيون الحكومة الساهرة فلا تأخذها سِنَة من النوم ولا تغفل أبدا عن مراقبة أعمالهم وبث العيون والمخبرين من الوشاة (sykophanteis) لرصد حركات الناس والإبلاغ عن المتهربين من الضرائب أو من العمل من أجل الحكومة وعلى الأخص فى مجال الزراعة واستصلاح الأراضى . ذلك أن مسئولية كل هؤلاء بصفتهم الشخصية والمادية كانت جسيمة وعملهم كان كريها وبغيضا ، يبعث أحيانا على الملل والفتور ، فلا عجب إذاً ، أنهم كانوا يحاولون بشدة أن يفروا من أداء هذا الواجب. وهناك مسئولية أكبر من احتمال الحصول على كسب أو نفع مادى فى هذا المجال ، فلدينا بعض الوظائف فى السلك الإداري ، تجئ فى أسفل الدرج ، وهذه كانت مباحة للمصريين ويحق لهم أن يتولونها ومن هذه وظيفة رئيس القرية أو شياختها وعموديتها وأصحاب هذه الوظائف كان يطلق عليهم (komarchae) وهناك كتبة القرى وهم أشبه بالصيارف حاليا وهؤلاء كانوا يسمون (komogrammateis) وهذا باعتبار أن القرية كانت تسمى عند اليونان (Kômē) وهى أصغر وحدة فى النظام الإداري . وكان شاغلوا هذه الوظائف القروية يتمتعون بالطبع بمركز مرموق فى دائرة نفوذهم ولكن عملهم كان مُضنيا ومعقدا وهناك احتمال بسيط للحصول على نوع من الكسب من وراء هذه الوظائف القروية ولكن يغلب على الظن أن تولى مثل هذه الوظائف كان يمثل عبئا باهظا أو غرما مؤكدا وليس فيه شرف أو مغنم وقد تَجُر هذه الوظائف على أصحابها الوقوع فى أخطاء ومسئوليات تفوق ما قد يجلبه من نفع أو كسب وما يتمتع به شاغلوها من نفوذ وجاه عريض ونفع جزيل.

وليس هنالك بالطبع أى أساس للقول بأن الطبقات العاملة فى مصر البطلمية كانت أشبه ما تكون بالعبيد أو الأقنان ، ذلك أن أفراد الشعب المصرى كانوا يُكنون بالاسم الآتى: (Laoi) ولم تكن أيديهم مغلولة إلى أعناقهم تماما وإنما كانوا يتمتعون بقسط وافر من الحرية الاجتماعية والاقتصادية بوجه عام ولهم حرية التنقل بصفة خاصة ، أما علاقاتهم العادية بالحكومة فيما يختص بمجالات

النشاط الاقتصادى فكانت ذات طابع تعاقدى. والخدمة الإجبارية التى كانت تكلفهم الحكومة بأدائها كانت تكافئهم أو تجزيهم عليها ولو أن هذا الجزء كان تافها ويصل فى أحيان كثيرة إلى قدر ضئيل . ومع كل هذا وذاك فإنهم لم يكونوا أحرارا بكل معانى الكلمة فارتباطهم مع الحكومة كان رباطا وثيقا ولا سبيل لهم إلى الفكاك منه أو التخلص من هذه الأغلال التى فرضتها عليهم الحكومة فأصبحت أمرا واقعا ، لا مجال فيه لأى صورية ، وفضلا عن ذلك فإنهم كانوا يعتمدون فى الحصول على رزقهم وكسب عيشهم على الحكومة. وهناك رهط كبير من الموظفين الملكيين وجباة الضرائب على مختلف أنواعهم ، تحميهم فصائل من الجند والخفر والحراس والكتبة والمفتشين الذين يجوبون فى كل مكان وهم يفتشون ويتجسسون ولا يتورعون عن التدخل فى الشئون الخاصة بحياة الناس وخاصة فى شئون أولئك الذين كانوا يعملون من أجل الحكومة فى الحقول أو فى المصانع وذلك على أساس أن كل عمل يقوم به هؤلاء العمال والفلاحون قد يؤثر بصورة إما بالسالب أو بالموجب فى إيرادات الملك البطلمى. وهذه الإيرادات تأتى فى المقام الأول ولها قداستها فى نظر رجال الحكومة فهى الغاية القصوى التى يجب أن تصبوا إليها عيون جميع الناس فى مصر البطلمية والتى يجب أن تتضافر جميع الجهود لتحقيق أكبر إيراد ودخل على أتم وجه.

وهؤلاء العمال والفلاحون الذين كانوا يعلمون علم اليقين أن عناية الحكومة بشئونهم سببها راجع بصفة خاصة إلى حرصها على سلامة إيراداتها وأن هذا كله يتوقف على عملهم ، وعلى ذلك كانوا إذا ما رفعوا عرائض وملتمسات إلى الملك - والكثير من هذه الملتمسات فى مصر البطلمية جاءت فى كتاب فرنسى نشره عالم فرنسى يسمى "أكتاف جيرو" (Octave Guéraud) والعديد من هذه الملتمسات والشكايات يسمى (Enteuxeis) أى الشكاوى ، وهذا الكتاب منشور فى مصر عام ١٩٣١م ، ويؤرخ بعهد كل مِن "بطلميوس" الثالث و"بطلميوس" الرابع. وكان الناس دائما فى هذه الملتمسات يُنوهّون من طرف خفى أو بصراحة إلى ضرورة رفع الظلم عنهم حتى يستطيعوا أن يؤدوا للملك الخدمات المطلوبة ولا تضار إيرادات الملك فهم عندما يشكون لا يتوسلون فقط بالتوجه إلى ساحة الملك واللجوء إلى عطفه وحبه فى إحقاق الحق ونشر العدالة بين الناس بقدر ما يردفون

أسماءهم بقولهم أن المعاملة الظالمة تحيق بهم سوءاً قد يحول دون قيامهم بأعمالهم مما قد ينم فى آخر المطاف عن خسارة مؤكدة فى إيرادات الملك . فلا عجب إذاً أن كان الشعب المصرى فى مثل هذه الظروف القاسية لا يظهر سوى القدر الضئيل من الحماس والغيرة ولا يبدى شيئا كثيرا من النشاط والقدرة على الابتكار فى عمله الذى كان يضيق به ذرعا ويعتبره فرضا ثقيلا عليه ، مما يتسبب عنه عدم الاكتراث أحيانا وعدم المبالاة.

ولسنا نعرف على سبيل اليقين عدد أولئك المواطنين من المصريين الذين لم ينضووا فى خدمة عمل من أعمال الملك وبقوا بمنأى عن أولئك الذين ارتبطوا مع الحكومة بعقد أو بالتزام معين أو حتى بالتزام ضمنى. فالذى نعرفه أن آلافا بل عشرات الآلاف من المصريين كانوا يعملون فى خدمة الملك ولصالحه ، ولا بأس أن كان الكهنة ونفر من الموظفين التابعين للتاج الملكى وبعضهم من ذوى الرواتب العالية ولهم حظوة لدى الملك ثم ملاك الأراضى الخاصة وهم بالطبع قلة فى مصر البطلمية - كل هؤلاء كانوا بصورة ما خارج نطاق تلك الأغلال المباشرة التى كان يرسف فيها سائر أفراد الشعب ، وذلك أسوة بما كان عليه ذوو المهن الحرة- إذا صح أن وجد مثل هؤلاء فى مصر- ونحن نرتاب كثيرا فيما يقال من أنه كان يوجد لمصر فى العصر البطلمى عدد كبير من المصريين ممن أتيحت لهم الفرص الحرة كيما يكسبوا قوتهم (بعرق جبينهم) بوصفهم الأجراء الأحرار دون أن يكون لديهم حرفة أخرى فى نفس الوقت . أما النساء والأطفال فهم بالطبع خارج هذا النطاق وليس هناك من سبيل لأن تجرى الحكومة معهم أى تعاقد بصفة مباشرة.

العبيد:

إن هؤلاء كان يطلق عليهم الكلمة اليونانية (hoi douloi) وهم يمثلون شقا كبيرا – وقد أفرد عالم أمريكى ضليع يسمى "وليام وسترمان" (W.L. Westermann) الأستاذ الراحل بجامعة كولومبيا بنيويورك- مؤلفاً عن العبيد والرق بصفة عامة فى دراسات مستفيضة فى كتاب صدر له فى عام ١٩٥٦ عنوانه (Slave System) ، وقد تناول فيه مركز العبيد فى مصر البطلمية وتجار العبيد وأوضاعهم القانونية. ويجب أن نعترف بادئ ذى بدء أن النقص والقصور يعتور معرفتنا بدور الرق فى معترك الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر ،

وعلينا أن نميز بين نوعين من الرق هما الرقيق المصرى والرقيق اليونانى أو الإغريقى. فالأول كان نتيجة نوع أو شكل من أشكال الاستعباد والاسترقاق ولسنا نعرف سوى النذر القليل عن أصل هذا النوع ، أما النوع الثانى فكان مجلوبا إلى مصر ، اصطحبه اليونان معهم عندما وفدوا إلى البلاد واعتمدوا عليه كثيرا فى حياتهم وعملوا على اقتنائه بالشراء وسجلوا أوصاف هؤلاء العبيد فى وثائقهم وتابعوهم وتربصوا للآبقين منهم. وما أكثر حوادث فرار العبيد فى مصر البطلمية وأصداء هذا كله نسمعها من خلال البرديات المكتشفة وتؤرخ بالفترة ذاتها.

والشكل المصرى للرقيق والعبيد كما نعرفه من تلك الوثائق هو ذلك الذى نجده فى المعابد المصرية وكان يسمى بالعبيد المقدسين (heiro- douloi) ونظامهم يطلق عليه (heirodoulia) وهم فئة كان لها كيانها ، وهى تمثل رقيق المعابد الذين التصقوا بالمعابد وأصبحوا ملتزمين بالبقاء هناك برباط مقدس . وكان هذا النظام يمثل قوام الرباط الحيوى فى شتى المعابد ويقع على كاهلهم عبء العمل اليومى واليدوى. ومما لا ريب فيه أن رقيق المعابد حالوا دون وجود العبيد المجلوبين ومنع تسرب النوع الآخر من الرق اليونانى إلى نظام المعابد أو التغلغل فى كيانها. ويبدو من المحقق أن لا مجال للرق فى حياة الجماهير الغفيرة من الشعب المصرى وأنه لا يمكن أن تقوم للرق على أى صورة من صوره ، أى قائمة أو يكون له شأن هام فى معترك الحياة المصرية العادية لسبب واحد وهو رخص العمل اليدوى فى مصر فى العصور القديمة ثم إن الفلاح الملكى أو العامل فى أحد المصانع الخاصة بنوع من أنواع الاحتكارات من ورق أو ملح أو زيوت أو عصر نبيذ أو جعة أو نسيج أو تعدين أو صيد أو نحالة الخ من قائمة الاحتكارات الهائلة ، التى كانت تشتهر بها مصر البطلمية وتحيطها بسيل متين من الضمانات وتسخر فى عملها الموسمى أو الدائم جموعا هائلة من العمال وتراقبهم مراقبة شديدة خشية أن يعملوا لحسابهم أو يتهربوا - نقول إن هذا الفلاح أو العامل المصرى لم يكن على قدر من الغنى والثراء بحيث يمكنه أن يقتنى عبيدا ممن يشتريهم من أسواق النخاسة بمصر أو من الخارج سواء أكان هؤلاء عبيدا من المصريين أو الأعراب مثل عبيد الشيخ "طوبيا" القابع فيما وراء شرقى الأردن وكان هذا الشيخ العربى يظفر بملكيته لهؤلاء العبيد ويقدم منهم هدايا إلى الملك البطلمى "بطلميوس

فيلادلفوس" وإلى وزير ماليته المشهور "أبوللونيوس" (Apollonios) ، وكان الأخير يشغل وظيفة مرموقة هى وزير المالية (dioecetes) طوال خمسة عشر عاما هى الفترة الأخيرة من حكم "بطلميوس فيلادلفوس" الذى امتد إلى تسعة وثلاثين عاما حتى ٢٤٦ ق.م (وكانت وفاته فى يناير من عام ٢٤٦ ق.م). على أن هذا الفلاح كان بالطبع رقيق الحال ويعوزه المال دائما ، ولا نكون مبالغين إذاً ما قلنا أنه كان يعيش دائماً من اليد للفم، فهو قانع بكسب قوت يومه. وعلى ذلك كان الطابع المميز له هو الرضا والقناعة ، ولا يعقل أن درجة الفقر والعوز التى كان عليها تمكنه من شراء أو اقتناء عبيد من حوله، بل إنه هو نفسه كان يسعى إلى العمل نظير أجر زهيد لدى أولئك الراغبين فى الانتفاع بخدماته والمحتاجين إلى جهده الجثماني - كل هذا جعل تطور نظام الرق بشقيه وعلى أى نطاق واسع أمرا مستحيلا فى مصر البطلمية. أما العناصر الثرية فى مصر ذات الجاه والنفوذ فهى القادرة على شراء العبيد واقتنائهم سواء أكان هؤلاء من كبار الموظفين أو من الأعيان ، ويستوى فى هذا اليونان والعناصر المتأغرقة والعناصر المصرية التى سايرت الحكام وكانت على معرفة بلغتهم وأساليبهم وهؤلاء ممن عرفوا بأنهم كانوا يعرفون أو يجيدون لغتين: الديموطيقية أو (المصرية القديمة) واليونانية فهم إذاً (blinguals) ومن أمثال هؤلاء الكاهن "مانيتون" السمنودى "وبتوزيرويس" (Petosiris) من الأشمونين ، أو "هرموبوليس" ماجنا (ملوى) بالصعيد (تونة الجبل) حيث كانت فى وقت ما لجامعة القاهرة (كلية الآداب) حفائر أثرية هناك وهى منطقة ذات أهمية بالغة بالنسبة لهذه الدراسة لأنها كانت ملتقى الحضارة اليونانية أو البطلمية مع الحضارة المصرية وموطن عبادة الإله "توت" (Thoth) الذى كان يرمز له بالقرد فى الأشمونين وبطائر الإبيس (Ibis) فى تونة الجبل غربى النيل وله مدافن هناك ، وهى عبارة عن سراديب تمتد لآلاف الكيلومترات وتمثل كل واحدة منها (Ibeum) وتحكى لنا قصة هذه العبادة ، وعلى جدران تلك السراديب وجدت كتابات ونقوش باللغة المصرية المتأخرة وعلى توابيت. هذا الإله تكريسات بالخط الديموطيقى تعد بالآلاف. وهكذا كان اقتناء العبيد مقصورا على طوائف معينة ، هى تلك التى كانت قادرة على جلبه من الخارج أو شرائه من الداخل ، فسادة البلاد الجدد وحكامها وكبار الموظفين فى تلك البيروقراطية

والحكومة المركزية من الملك ورجال بلاطه والبيوتات الكبيرة وكبار رجال الدولة والضباط ورجال الجيش والجنود ، كل هؤلاء كانوا يفاخرون بالاستحواذ على أعداد هائلة من العبيد وغالبا ما كانت قبورهم يسطر على جدرانها وشواهد قبور موتاهم وبصحبتهم رهط من العبيد. ثم إن أعضاء العائلات المتوسطة سواء من الإغريق أو من المصريين والأجانب المتأغرقين وهؤلاء الأخيرون كانت أعدادهم في تزايد مستمر - كل هؤلاء كانوا بوصفهم الممثلين للبرجوازية القديمة ، قد تعودوا على استخدام العبيد ، بل إن الكثيرين منهم أصبحوا لا تقوم لهم حياة بدون رهط من العبيد من حولهم كلاعبات القيثارة أو محظيات أو فاتنات أو مرضعات والذكور منهم كانوا يؤدون خدمات عامة ، وهم يحومون حول سيدهم للمسرات والترفيه. وقد وُجدت في مصر سوق رائجة لهؤلاء العبيد ازدهرت في أثناء الحروب الخارجية المستمرة التي شنها "بطلميوس" الأول في سوريا وفلسطين وغزة وسهل البقاع أي لبنان وفي آسيا الصغرى وفي برقة وجزر بحر إيجة. وتابع ابنه "بطلميوس فيلادلفوس" الشوط في مضمار الحروب وكان يشنها بواسطة قواده وضباطه وليس بنفسه. أما الملك البطلمي الثالث وهو "بطلميوس يورجيتيس" الأول فكان بطلا مغوارا سارع في سِنيه الأولى من توليته إلى الشام وما وراء الفرات محاولا استعادة الأملاك التي كانت قد بدأت تتقلص من مصر- ومن نتائج فترة الحروب هذه راجت سوق العبيد في مصر بفضل تواجد الأعداد الهائلة من الأسرى ومن هؤلاء أي العبيد المجلوبين من سوريا وقد تحدثت عنهم الوثائق والأوامر الملكية التي أصدرها الملك "بطلميوس فيلادلفوس" بشأن إطلاق سراح بعض هؤلاء الأسرى من قبيل التسامح. فلما تواجد في مصر سوق هائلة للرق مزودة بجميع العناصر لهذه السلعة البشرية البغيضة راجت فكرة اقتناء العبيد لدى الكثيرين ، وذلك إما من باب المفاخرة وليس من باب الحاجة الماسة فالعمل كما قلنا رخيص في مصر ولا يدعو بحال من الأحوال لاستخدام العبيد ، على أن هذه العناصر الثرية وذات الجاه والنفوذ عرفت كيف تتخذ رقيقا من بين بعض المصريين بسبب الديون. والعجز عن الوفاء بها في حد ذاته ككل كان السبب في تضخم أعداد العبيد تنفيذا لشروط الدين وأهمها حق التنفيذ على أشخاص المدينين العاجزين عن السداد وعلى الضامنين لهم. وهكذا كانت الروابط تتفكك

بين الناس فلا يلبث الإنسان أن يجد نفسه قد تحول بين يوم وليلة إلى عبد مستخدم ومُسخر على الأخص فى مثل الأعمال المنزلية. ومصر البطلمية حاولت بالتأكيد إدخال نظام العمل بواسطة الرقيق فى الأعمال الصناعية والتجارية وبذلت المحاولات فى هذا السبيل وبخاصة فى الإسكندرية ولكنها لم تعم وباءت بالفشل للأسباب التى ذكرناها آنفا وأهمها رخص الأيدى العاملة بدرجة ملحوظة وما كان ينطوى عليه الرق من مبادئ ليس فيها إنسانية ولا كرامة وليس هناك ما يحمل على الظن بأنه فى مثل تلك المنشآت والأعمال الواسعة التى كانت تجرى فى ضيعة كبرى هى هبة مساحتها عشرة آلاف من الأرورات (تساوى ستة آلاف من الأفدنة المصرية) فى نطاق بلدة مشهورة هى قرية فيلادلفيا الواقعة بشرقى إقليم الفيوم وهو الإقليم الأرسينوينى (كما أسماه فيلادلفوس بعد موت أخته وزوجته أرسينوى الثانية) وكان هذا الملك البطلمى قد وهبها إلى كبير وزرائه "أبوللونيو" وهى قابلة للاسترداد واستردت بالفعل بعد موت أو اختفاء "أبوللونيوس" فى صدر حكم "بطلميوس يورجيتيس" الأول مباشرة) ، وفى هذه الضيعة كان استخدام الرق فى العمل يجرى على قدم وساق ، ويمثل ظاهرة فريدة، جنبا إلى جنب الأعمال الأخرى التى كان يستخدم فيها الأحرار. وعلى أى حال لا ينبغى أن نغالى فى تقدير أعداد العبيد المستخدمين فى منازل وبيوت أعيان البلاد وحكامها وكبار موظفيها ، ذلك أن الملوك البطالمة لم يكونوا من المشجعين على زيادة أعداد العبيد وإنما فرضوا الضرائب والقيود الكثيرة على بيعها وتداولها وأوجبوا تسجيلها وحاولوا جهد استطاعتهم منع انتشار هذا الداء الوبيل والحيلولة دون استرقاق العناصر الوطنية وتحديد أعداد العبيد المجلوبين من الخارج ، والمصدرين من مصر إلى خارج البلاد وفرضوا الضرائب والمكوس العالية على التجارة الخارجية فى هذه السلعة البشرية الوبيلة.

وخلاصة الرأى إن الرق كعامل اقتصادى كان أقل أهمية فى مصر البطلمية منه فى أى جزء من العالم الهيللينستى أو العالم اليونانى عقب مقدم الإسكندر (وهو الاسم الذى أطلق على هذه الحضارة الهيللينستية تمييزا لها عن الحضارة الهيلينية الأصيلة وهى حضارة القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وحضارة سقراط والشعراء من أمثال "يوربيديس" "وأرسطو فانيس" والمفكرين والكتاب مثل

"هيرودوت وثوكيديديس وبريكليس") أما حضارة ما بعد الاسكندر فكانت شبيهة من تلك ولا تدانى الحضارة الأولى فى أصالتها لاصطباغها بصبغة شرقية أرادها الاسكندر أن تكون خليطة وأن يمزج الشرق بالغرب وأن يمزج أوروبا بآسيا وأفريقيا ، وقد نجح إلى حد ما فى أفكاره التقدمية هذه.

الكهنة فى مصر البطلمية:

ألّف الكهنة فى مصر طبقة متميزة وكانوا بالطبع من العناصر الوطنية الصميمة ، وكانت معابدهم بمثابة معاقل للوطنية المتأججة ضد الحكم الأجنبى ولكنهم سايروا الملوك البطالمة إلى حين وتباروا فى إصدار القرارات التى تشيد ببعض ملوك البطالمة وما أسبغوه على المعابد من إنعامات وحقوق للإيواء والاستجارة لبعض الطوائف من حقوق وامتيازات ومن عفو عام عن المتأخر من الديون وإطلاق سراح المساجين ... إلخ. ولدينا من هذا القبيل نقوش مسجلة على الحجارة منها حجر كانوبوس ("بطلميوس" الثالث) (٢٣٧ ق.م) وحجر رشيد "لبطلميوس" الخامس (١٩٦ ق.م) وكان رجال الدين يحظون بمنزلة خاصة ويتمتعون ببعض المميزات الهامة مثل الإعفاء من العمل بالإكراه، وفى واقع الأمر لم يكن الموظفون الإداريون فى مصر البطلمية يرعون لهم باستمرار هذه المميزات وإنما كانوا يتجاهلونها ، على أنه من المؤكد أن الكهنة كان مسموحا لهم أن يتمتعوا بقسط وافر من الحكم الذاتى فى داخل معابدهم فكانوا يباشرون طقوسهم ومراسمهم الدينية دون أى تدخل من جانب الحكومة ، وفوق هذا وذلك فإنهم كانوا يحصلون على إيراد من الزراعة بوصفهم ملاكا لمساحات ضخمة من أراضى المعابد المرصودة على هذه المعابد للصرف على الأغراض الدينية.

وكانوا كذلك يستفيدون من الناحية المادية من وراء الإشراف على الصناعات التى كانوا يزاولونها فى المعابد مثل أعمال نسج الكتان الرفيع المعروف باسم "بيسوس"وعصر الزيوت لفترات مؤقتة من كل عام وعصر النبيذ للاستهلاك الخاص بهذه المعابد وليس للمتاجرة بحال من الأحوال وإلا اعتبروا مخالفين ومنافسين للحكومة البطلمية التى لم تكن تطيق احتمال وجود أى منافس لها فى مضمار التجارة والصناعة الداخلية فى هذه السلع الحيوية. كما كان مسموحا لهم بالمتاجرة فى بعض السلع الأخرى والحرف التى غفلت عنها عين الحكومة كأعمال

التحنيط وبيع سلع لها ارتباط وثيق بأعمالهم الدينية ، ولكن جزءا كبيرا من موارد رجال الدين بل لعل الجزء الأكبر من هذه الموارد كان يذهب إلى خزانة الملك أو إلى بيت المال.

وهنا يجدر بنا أن نعاود الكرة إلى التنويه بوجود طائفة مهمة في داخل المعابد المصرية كان لها كيانها الاقتصادى والاجتماعى ولا غنى عنها ، تلك هى رقيق المعابد (Heirodouloi) وقد يكون من الشائق أن نعرف شيئا عن هذا النوع من الرقيق الملتصق بالمعابد والذى لم يكن ينتمى بالطبع لأى مرتبة من مراتب رجال الدين ، فلا هم كهان (Heireus, Heireis) ولا هم كهان عرافون (Propheteis) ولا هم حملة الأردية المقدسة (Stolistai) ولا هم سَدَنة المعابد (neckoroi) وإنما كانوا يعملون من أجل المعابد فى فلاحة الأرض المقدسة (gē heira) أو يعملون كصناع فى المصانع الصغيرة الملحقة بالمعابد ومنهم من اشتغل برعى الأغنام والماشية أو المحافظة على الأوز المقدسة (Chenoboskoi) وهناك فريق ثالث (مُن الذكور والإناث) كان يقوم بالأعمال اليدوية على مختلف أنواعها ، مما كان يتصل بإدارة المبانى الخاصة بتلك المعابد والسقاية وإعداد الوقود وشتى الواجبات الدنيا فى هذا المحيط الدينى. ولو أطلقنا على هؤلاء اسم الرقيق كما يفهمه الإغريقي من مدلول كلمة رقيق (douloi) لكان فى هذا الشيء الكبير من خطل الرأى ، ولعل حقيقة مركز هؤلاء العبيد المقدسين تتكشف لنا شيئا فشيئا بعد نشر الوثائق الديموطيقية التى تجرى دراستها بعناية فائقة وتنشر تباعا ويكفينا الآن هذا القدر ولا داعى للخوض فى مسائل قد نحتار فى الإجابة عنها.

العناصر الأجنبية المنضوية فى خدمة مصر البطلمية

كان يُطلق على هؤلاء الأجانب كلمة (hoi xenoi) باليونانية. وكان "هيرودوت" أول من أطلق على المصريين أنهم كانوا يخشون الأجانب بصفة خاصة وينفرون منهم وصار وصفه للمصريين على أنهم (xenophoboi) أى ينفرون من الأجانب والغرباء ، وصار هذا وصف لاصقا بالشعب المصرى على مدى الزمان ، وكان المصريون ، فيما عدا موظفى الحكومة وقلة من ملاك الأراضى والكهنة وبعض ذوى الحرف والمهن ، لا يجدون سوى المجال الضيق يكسبون من ورائه ثروات طائلة إما عن طريق الادخار أو بفضل نشاطهم وقدرتهم على العمل وهم فى هذا المجال كانوا يختلفون اختلافاً بيّناً عن مركز الطبقات الممتازة من الأجانب والوافدين إلى مصر وهم الذين تفتحت أمامهم الأبواب وأصبحوا باستقرارهم وسكناهم فى أرض مصر وهم الرعية (subjecti) لملوك البطالمة وهى المنزلة الرفيعة التى كان يحظى بها نفر من سكان الإسكندرية وسكان مدينة نقراطيس ثم سكان مدينة بطلمية (Ptolemais) (أو المنشأة فى محافظة سوهاج بأقاصى الصعيد). ولا ريب أن مركز هؤلاء الأغراب المستقرين فى مصر كان أسعد بكثير من هؤلاء الأجانب ، ونجم عن هذه التفرقة فى المعاملة حساسية شديدة واحتكاكات مستمرة بين هذه الطوائف.

وليس هنا مجال مناقشة المركز السياسى والقانونى لأولئك الأجانب فى النصف الأول من القرن الثالث وهو صدر عصر البطالمة فالموضوع شائك وطويل ، وقد نستقى بعض مصادره من لمحات وإشارات ترد فى الأوامر والتشريعات الملكية أو فى ثنايا الخطابات والمظالم التى كانت تصدر عن كل فريق إزاء الآخر بسبب سوء المعاملة وروح الأثرة ، وقد وضعت الفوارق فى شتى المجالات وافترضت الاحتمالات كتفسير لهذه الظواهر بهدف الوصول إلى رأى قاطع ، وأنّى لنا ذلك والموضوع معقد ومتشعب، ومما لا ريب فيه أن الإنسان يستطيع التحدث بإفاضة عن أحوال أولئك الأجانب من يونان خُلّص أو عناصر آسيوية مصطبغة بصبغة يونانية من أنحاء كثيرة فى آسيا الصغرى هى: كبادوكيا وكيليكيا وفريجيا .

وكانت الألوف المؤلفة من هؤلاء جميعا بشتى مراتبهم ومختلف حرفهم قد إنسابوا إلى مصر ورحبت بهم البلاد لأنها كانت فى حاجة ماسة إلى خدماتهم وإلى جهودهم العسكرية والفنية وخبرتهم وعلمهم فى شتى المجالات من زراعة المحاصيل التقليدية واستنبات نباتات كثيرة وجلب أخرى مثل الكروم والسمسم والبنجر والقلقاس وأنواع شتى من التوم والتوابل والقمح الذى كان ينضج فى ثلاثة أشهر وعرف فى عهد "فيلادلفوس" باسمه الدال على ذلك (Trismenos sitos) ثم الفاكهة على مختلف أنواعها وكان لهم فيها باع طويل فأشجار الزيتون والتفاح والكروم كانت محببة إليهم. وقد أصبح جل هؤلاء ينقسمون إلى شيع وسلالات ويؤلفون فى موضوعهم فريقا منفصلا ومتميزا عن باقى السكان ويمثلون طلاءً خارجيا فى مبنى مكسو بهذا الغشاء. وقد نأى أفراده بجانبهم عن باقى المصريين كلما أمكن ذلك ، وتمثل هذا فى الحضر أكثر منه فى الريف أو الخورا (Chora) حيث كان الاختلاط أشد وألزم فى الحقول والأجران والشون حيث كان يجرى التصرف فى المحاصيل بعد تقديرها واحتساب الضرائب المقررة عليها وترك الفائض (epigenema = bonus) منها للمصريين وقد حرص الأجانب على اقامة الحواجز والفواصل بينهم وبين المصريين كلما أمكن ذلك خشية أن تطغى عليهم الجموع الغفيرة أو الكثيرة من المصريين فيذوبون فيها كما تذوب حبات الملح أو نقطة العسل فى بحر خضم. وقد قسموا أنفسهم إلى سلالات وشيع حسب الجهة التى وفدوا منها وكان الأساس فيها يقوم على قاعدة إثنولوجية أساسها السلالة وتسمى الواحدة منها "بوليتيوما" (Politeuma) وكان لها حقوق وضمانات سياسية واجتماعية ونظم مرعية. وكان انتقال فرد من جموع المصريين إلى صفوف أولئك الأجانب أو بالعكس أو من شيعة من الأجانب إلى سلالة أخرى أمراً مُحرماً تماماً. على أن الأجانب الذين استقروا فى البلاد بصفة دائمة كانوا مثلهم مثل المصريين، عُرضة لدفع الضرائب ولا سبيل لإعفائهم من قيود الاحتكارات ، كما كان عليهم واجب الوفاء بنصيبهم فى تلك الأعباء المالية الجسيمة المفروضة على الشعب وكان ينتظر منهم بالطبع أداء جميع ما يفرض عليهم من أعباء من قِبَل الحكومة.

والأجانب كانوا على أى حال فى نظم معيشتهم ومركزهم سواء الواقعى (de facto) أو القانونى (de iure) – يحظون ببعض الخصائص والمميزات التى

فرّقت بينهم وبين المصريين ويحق لنا أن نسمى هذه الخصائص امتيازات ، وكانت أكبر الجماعات وأكثرها تنظيما هى:

(١) الجيش البطلمى: وحامياته فكان رجاله وضباطه (hoi stratiotac) يعيشون حياتهم الخاصة ويتمتعون بكثير من الامتيازات وتسود بين صفوفهم تقاليد قديمة متوارثة وتُطبق عليهم لوائح وضعها الملك لضباطه ورجال جيشه.

(٢) الأجانب فى المدائن: ثم يلى الجيش فى الأهمية تلك الجماعات الكبيرة من المستوطنين الأجانب من عصر ما قبل البطالمة وجُلهم من المهاجرين الذين كانوا يكوّنون الهيئات المدنية فى المدن الإغريقية القديمة وأولاها وأقدمها نقراطيس (فى مركز إيتاى البارود فى محافظة البحيرة ومحلها الآن نقراش وكوم جعيف ونبيرة). وهذه كانت منذ أيام الفراعنة وملوك الأسرة السادسة والعشرين مؤسسة يونانية خالصة جاء سكانها من أهل "ميليتوس" بآسيا الصغرى وعناصر يونانية أخرى أخذت تسود فيها المقومات اليونانية والمجالس التى تتميز بها المدن اليونانية الخالصة ولعل هناك مدينة أخرى هى "بارايتونيوم" (Paraetonium) ومحلها الان "مرسى مطروح" وحرّفها العرب إلى البرتون ثم إلى بأرق مرسى ثم استقر التحريف أخيرا إلى مرسى مطروح. ولما جاء الاسكندر أسس بنفسه مدينة الإسكندرية واختار موقعها الحالى وكان موفقا فى اختياره وأرادها أن تكون مركز إشعاع حضارى وقد أتم "بطلميوس" الأول وابنه "بطلميوس" الثانى بناءها ونقلت إليها العاصمة من ممفيس بعد أن اكتمل البناء وأسس "بطلميوس" الأول مدينة أخرى كانت آخر المؤسسات الحضرية فى هذا النسق وتلك هى بطلمية وكان محلها قديما قرية مصرية تسمى "ابسوى" (Psoi) وتعرف الآن باسم (المنشأة بمحافظة سوهاج) وقصد بها كذلك أن تكون مركز إشعاع حضارى فى الصعيد ولم يشأ البطالمة التوسع فى هذا المجال واقتصروا على هذا الجهد المتواضع ولم يجاروا السلوقيين فى الشام (وهم خلفاء الاسكندر هناك) وعرف عنهم التوسع فى إنشاء المدن فى الشام أما البطالمة فخشوا أن تتقطع أوصال البلاد بتأسيس المدن وهى ذات الكيان الذاتى. ومما لا ريب فيه أن هذه المدن كانت تتمتع بقسط وافر من الحكم الذاتى ولم يكن نظامها الداخلى من حيث توافر مجلس الشيوخ أو البولى (Boulé) ومجلس الأحرار أو الاكليسيا (ekklesia) والانقسام إلى قبائل وديمات

(phyles & demes) ، ووجود رؤساء "بريتانيس" (Prytancis) وإصدار قرارات من مجالس الأحرار تبلغ للسلطة البطلمية بواسطة سفراء الخ - لم يكن الجو السياسي في هذه المدن مختلفا كثيرا عما كان عليه الحال في المدن الحرة الإغريقية مثل أثينا.

ويظهر أن الحكومة البطلمية لم تكن تعترف لمعظم الإغريق الذين انتشروا في ريف البلاد وعاشوا بين ظهراني المصريين واختلطوا بهم في الحقول ومواطن الصناعات المختلفة ، بأي نصيب ولو بقسط معقول من الحكم الذاتي - فهذا الأمر كان بعيد المنال ، ولكن ثبت أن كانت لهم نظمهم وهيئاتهم التعليمية في المعاهد والنوادي الثقافية المعروفة بالجمناسيا (gymnasia) جمع (gymnasium) والمتمتعة ببعض المميزات مثل حق تملك الأرض والاستيلاء على إيرادها. وكانت هذه المدن تحرص على تكوين هذه النوادي وغيرها من مختلف الجمعيات والمؤسسات (synodoi) ذات الطابع الديني والقومي أو الاجتماعي ، وإن أكثر هذه الهيئات أهمية وأعرقها من الناحية السياسية هي تلك الجماعات القومية أو الجاليات (politeumata) وأغلبها كان وثيق الصلة بالجيش ولربما كانت كل جماعة منها تتمتع بمنحة أو حق من الحقوق المدنية أو بميزة من الميزات التي لا نعرف كنهها. ونسوق على سبيل المثال جالية ليكيا (Lycians) أو جالية كاريا (Carians) ويبدو أن اليهود الساكنين في الإسكندرية كان لهم حق العبادة في بيعهم على النحو الذي شرعه لهم سيدنا موسى وليس للدولة حق الاعتراض على مباشرتهم طقوسهم الدينية ولربما كان لهم كذلك حق التشريع والقضاء في شئونهم الخاصة وقد فصل لنا ذلك الفيلسوف السكندري اليهودي "فيلون" فيما كتبه عن القوانين الخاصة (de specialibus legibus) ، وكان يلي هذه الهيئات من حيث الأهمية طائفة من خريجي هذه المؤسسات الثقافية أو الجيمناسيا وهم أشبه ما يكونون بخريجي الجامعات في العصر الحديث فكان هؤلاء يطلق عليهم بالخريجين (Hoi apo tou gymnasiou) وهم يمثلون فئة مثقفة كان يشار إليها بالبنان، وهي تقوم على تبرعات أعضائها وتشرف على تطبيق النظم الأساسية الكفيلة ببقاء الحياة الإغريقية ومراعاة أصولها في مصر . وكانت هذه الجماعات على اتصال وثيق بجيش البطالمة المرابط وكانت تنظم محاكم خاصة للتقاضي بين صفوف الأجانب من الإغريق ويعترف الملك البطلمي بشرعية القانون المدني

الإغريقى ويوافق على تطبيقه على اليونان وقد حفظت لنا أوراق البردى مجموعة من تلك القوانين ، نشرتها جامعة "هالى" (Halle) الألمانية عام ١٩١٣ تحت عنوان (Dikaeomata) أى الأحكام.

وعرفت هذه ببردية "هالنسيس" (Papyrus Halensis) فكشفت لنا عن القوانين الجنائية والمدنية والقسم القانونى ومحاكمة المزورين وشهود الزور وكيفية التقاضى بين هذه الطوائف اليونانية القديمة بالإسكندرية. ومن المحتمل أنها كانت تخص المدن الإغريقية الأخرى بمصر ومطبقة فيها ، بل ولربما كذلك الهيئات القومية التى سبق أن نوهنا عنها. وهذه القوانين تعرف بالاسم الدال على كنيتها ومجالها وهو (hoi politikoi Nomoi) ولو أنه لابد لنا أن نقول فى شيء من التأكيد أن الاستعانة بهذه القوانين والتشريعات الخاصة بالمدن وتطبيق المحاكم اليونانية المعروفة باسم الخريماتستاى (Chrematistae) واعتراف الموظفين الملكيين الذين كانوا يقومون فى بعض الأحيان بدور القضاء العاجل ، كانت لا تصل إلا فى الأحوال والظروف التى لا يوجد فيها نص صريح عليها فى القانون العام ولم يرد بشأنها أمر ملكى سواء أكان هذا الأمر من قبيل ما يسمى فيما يلى , prostagmata) diatagmata , diagrammata) وهناك قضاء أهلى خاص بالمصريين عندما تكون الوثائق المعروضة ديموطيقية فعندئذ يذهب المتقاضون إلى محكمة مصرية هى محكمة (Laocritae) أو هى تسمى (Knbt) بالمصرية القديمة وهذه تستند فى أحكامها على القانون المدنى المصرى فى حالة عدم وجود أوامر ملكية أو لوائح يمكن تطبيقها فى هذا الشأن.

والآن نعرض لمظهر آخر له طابع ودى من جانب الحكومة البطلمية إزاء أولئك الأجانب أو بالأحرى إزاء العناصر غير الوطنية من رعايا الملك ، فهؤلاء الأجانب وسلالاتهم كانوا معفين فى أغلب الظن من أداء أى عمل من الأعباء التى كان يُكلف بها غيرهم وتدخل فى أعمال السخرة (Leiturgia) أو هى أشبه ما تكون بها ، كما كانت بعض الطبقات من بين هؤلاء ، مثلهم فى ذلك مثل الأفراد ، متمتعة بامتيازات وإعفاءات خاصة فيما يتعلق بالضرائب مثال ذلك ضريبة الملح (halike telos tou halis) والتى قال "أبوللونيوس" وزير المالية على عهد "فيلادلفوس" لعامله وهو مدير الشئون الاقتصادية وكان يسمى "زويلوس"

أن الملك أمره بإعفاء المعلمين والمدربين والمتشيعين لعبادة ""ديونيسوس والحائزين لقصب السبق فى المباريات والألعاب التى تعقد فى الأعياد الملكية وعيد الأسرة البطلمية وعيد الخمس سنوات من ضريبة الملح هم وسلالاتهم أو بالأحرى هم وأتباعهم من الساكنين معهم (oikeoi) (انظر بردية هالنسيس الأسطر ١٦٦ حتى ١٧٠) ولكن كل هذه الامتيازات والإعفاءات تقدم لنا الدليل على أن "فيلادلفوس" كان ينتهج سياسة مشايعة للهيللنية إذ خَصَّ المعلمين للغة اليونانية والحائزين لقصب السبق فى الألعاب والمباريات اليونانية بهذه المنحة وهى الإعفاء من ضريبة الملح دون غيرهم من المصريين الذين يقومون بتعليم الكتابة الديموطيقية للناس وقد أخذ الكتّاب والمعلقون على هذا البند ، عليه هذا الانحياز لبنى جلدته ورموه بالتحيز السافر.

على أن كل هذه الامتيازات والمنح التى أسبغها الملوك البطالمة المتعاقبون على طوائف معينة من الأجانب ، كانت مجرد منح قابلة للاستّرداد فى أى وقت ومُعرضة للنقض والإبرام حسب هوى الملك ، فلم تكن حقوقا مكتسبة ووراثية لها سندها من القانون ولا ينبغى توريثها. ولو أننا عثرنا على وثيقة بردية نشرها مؤخرا عالم بريطانى اسمه "ت. اسكيت" (T. Skeat) تفيد أن يونانيا من الحاصلين على نصيب من الأرض قوامه مائة وعشرون من الأرورات (الأفدنة اليونانية) كتب وثيقة يُورث فيها هذا القدر بعد موته لآخرين = (الوثيقة رقم ٢٠١٥ من بردى المتحف البريطانى وتاريخ الوثيقة ١٣ يونيه ٢٤١ ق.م).

وفى هذا الصدد ينبغى أن نذكر أن فريقا كبيرا من الأجانب الذين استوطنوا فى مصر ، كان يعمل بشكل أو بآخر فى خدمة الملك ، فالجيش الذى كان يمثل العنصر الأجنبى المجلوب والمرتزق ، أحسن تمثيل ، كان يُعتبر جيش الملك ولا تربطه أية التزامات جوهرية نحو البلاد ، بل إن الوطنية أو القومية كانت بعيدة كل البعد عن تفكير قادته ورجاله ، فهو ليس بجيش البلاد المصرية التى يزود عن حوضها ويرد كيد الأعداء عنها وإنما هو جيش ملك من ملوك البطالمة ، المقدونى الأصل، ويغدق عليه الملك من الخيرات ما يروق له ويحركه كيفما يشاء.

أما عن باقى الأجانب ممن ليست لهم صفة عسكرية فكانت الغالبية العظمى منهم من المدنيين والكثرة الغفيرة التى وصلت إلينا معلومات عنهم كانوا ينتمون

إلى حاشية الملك وبلاطه فهم أتباعه وزبانيته الذين يضخمون السراى الملكية بأعدادهم الغفيرة وتعج بهم دهاليزها وأروقتها - هذا هو شأن بيت الملك (oikos) الخاص به فى الحى الملكى برأس لوخياس (Lochias) أو البراخيوم (Bracheum) على شاطئ البحر بالإسكندرية (فى حى الشاطبى حاليا ، فى منطقة السلسلة) ، ويطوف من حوله رهط من الأتباع وكل من يلوذ بالأسرة الملكية المقدونية وهؤلاء جميعا كانوا بمثابة خدام الملك الخصوصيين ، وكان لكل واحد من هؤلاء بدوره أسرته وبيته الخاص (oikos) الذى يجمع شمل أتباعه ، فكان "لأبوللونيوس" (Apollonios) وزير مالية "فيلادلفوس" (dioecetes) ورهن إشارته ، رجاله وأعوانه التابعون له ممن يحيطون به ويخضعون لأوامره ، فهم كما ورد ذكرهم فى النصوص البردية:

(hoi para Apolloniou abu hoi peri Apollonion hoi hypo Apolloniou)

وكان لمدير أراضيه وضياعه الواسعة فى كل من ممفيس وفى الفيوم وهو المسمى "زينون" (Zenon) وهو سكرتيره الخاص ورفيقه فى زياراته ورحلاته خارج القطر فى فلسطين والأردن ثم مندوبه المقيم والمستقر فى فيلادلفيا (Philadelphia) بالشق الهرقليدى الواقع شرقى الفيوم بعد عزل "باناكستور" وكان لهذا الوكيل العتيد الكاونى الأصل (من أهل كاونس) بكاريا بآسيا الصغرى ، دواره وحاشيته وقلم الكتاب وحفظة السجلات وقد ترك لنا أرشيفا من البردى حاويا لجميع مقتنياته ورسائله مع سيده وزير المالية ومع أفراد عديدين ممن يقيمون بالإسكندرية وشتى أنحاء البلاد وبرنامج عمله اليومى والمعاملات العامة والخاصة التى كانت تجرى هناك معه على قدم وساق. وكل هذا مبوب ومحفوظ بتواريخه ومناسباته ، وقد عثر على هذا المخطوط حوالى عام ١٩١٧ بخرابة الجرزا المتاخمة لفيلادلفيا بالفيوم بواسطة العمال الذين كانوا يبحثون عن السباخ فوجدوا بين الأنقاض هذا الكنز الثمين الذى يحكى لنا أحوال مصر فى هذه الحقبة بالذات والجهود المبذولة فى الإصلاح والنشاط المحموم الذى كان لحكومة "بطلميوس فيلادلفوس" من أجل النهوض بمصر وإصلاح أراضيها والتوسع الرأسى والأفقى فيها. فكانت منطقة فيلادلفيا والقرى المحيطة من حولها عبارة عن بساتين وحقول زيتون وكروم وأحواض بها الغلال والفول والعدس والخضراوات والرياحين التى

تفوح منها رائحة زكيه. ويعتبر هذا السجل الذى يتألف من أكثر من ألفين من القصاصات البردية ، معظمها باللغة اليونانية والقليل منها بالديموطيقية ، وقد نشرت عشرات من الكتب وآلاف من المقالات عن هذا التراث العلمى الذى يحكى لنا تاريخ مصر ويُصوّر لونا من ألوان الحضارة السائدة فيها فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاما من ٢٦٠ ق.م حتى ٢٣٦ ق.م.

وليس هنا مجال الإفاضة فى الشروح التفصيلية ويكفى أن نقول أن هذه الصفحة من تاريخ مصر البطلمية هى صفحة فخار حقة ، تزهو بها على العالم فجهود الملك البطلمى وكبير وزرائه والخبراء الأجانب على مختلف ألوانهم ، ساهمت بقسط وافر فى تغيير معالم الحياة كلها فى مصر فأثرى الكثيرون وعكفوا على البحث واقتباس الأساليب المستحدثة فى الزراعة واستنباط البذور المنتقاة واستخدام الميكنة فى الزراعة كالطنبور والساقية بدلا من الشادوف ثم النورج والمدراة وإدخال الجمل فى حمل الأثقال واستخدام الفيل فى القتال - هذا وغيره كثير من وسائل النهوض بمصر حتى أصبحت مصر إذ ذاك قبْلة الأنظار ، ومزارا لملوك آسيا وأمراء الهند والبسفور وسفراء من أرجوس ببلاد اليونان ، يخطب ودها وعطف ملوكها وكبير وزرائها أمراء آسيويون كملك الهند ويقدمون لهم الهبات والعطايا استرضاءً لهم والعمل على كسب ودهم.

وفيما عدا ما كان يجرى فى المدائن والحواضر وبخاصة فى المدن اليونانية الثلاث أو الأربع ، فإنه كان من العسير العثور فى ريف البلاد وقراها على عدد يذكر من الأجانب ممن لم يكونوا ينتمون إلى بيت أو دوار من البيوتات التى كانت لأحد من عظماء الإسكندرية فى بلاط الملك أو أحد وزرائه أو يقعون تحت حماية صاحب العمل الذى كانوا يعملون فى خدمته ، مما كان يسبغها عليهم ويؤمنهم على مستقبلهم ويدفع عنهم شر المعتدين وكيدهم.

كان مركز الأجانب من الوجهة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يختلف فى الواقع عن مركز المصريين فمركز الأولين كان أكثر نفعا وجدوى من أهل البلاد ، وذلك أن الطبقة العليا من الموظفين المدنيين كانت مقصورة على الأجانب القادرين على التفاهم مع الملك المقدونى بلغته اليونانية كما كان كذلك ضباط

الجيش وقادته من المقدونيين واليونان ، وقد جاءوا طائعين مختارين بواسطة زعماء لهم (stratiotae) انبروا فى لخدمة الملك كجند مرتزقة بعد أن أغراهم المال والكسب المادي والفرص الذهبية فسارعوا إلى اقتناصها. أما سكان مدينة الإسكندرية فجلهم من الأجانب الذين جاءوا من كل صوب وفج عميق ، وكان الأحرار منهم قلة بالطبع ولكن الأجانب بوجه عام كانوا يتمتعون بمركز سياسى خاص وقد تهيأت لهم كل الفرص المتاحة والسانحة كيما يضاعفوا من تقدمهم ويؤكدوا نجاحهم فى شتى المجالات فى التجارة والصناعة ثم فى الزراعة فكان من اليسير عليهم الحصول على الأراضى والاستحواذ عليها من الملك على سبيل "الكليروكيات" وهى إقطاعات من الأراضى الصالحة للزراعة أو القابلة للاستصلاح بدءا من خمسة أرورات ويطلق على صاحبها من صغار الجند إلى صاحب الخمسة والعشرون أرورات ويطلق عليها εικοσιπενταρουρος إلى صاحب الستين والسبعين والثمانين والتسعين والمائة أرورات أى صاحب المائة أو المائة والعشرون ، وهكذا كل بحسب رتبته العسكرية من الضباط والفرسان. وكان كل هؤلاء يحصلون بفضل هذه الاقطاعات على جزء كبير من الأرض التى كانوا يتركونها بدورهم للفلاحين المصريين ليزرعوها من الباطن. أما فى مجال الصناعة فكانوا هم أصحاب العمل والمقاولون والمتعهدون والمهندسون والخبراء وغيرهم من العمال لتنفيذ ما يؤمرون به. وكان لأصحاب العمل بالطبع الغنم ولغيرهم من العمال الفتات والغرم. أما فى موضوع جباية الضرائب فكان الأجانب هم الملتزمون والمشرفون المتعهدون بجبايتها ومنهم الضامنون والموقعون على صكوك الالتزام باعتبارهم أصحاب أكبر عطاء مقدم فى مزاد بيع الضرائب وكان هذا المزاد يعقد سنويا بواسطة مندوب وزير المالية وهو الموظف المقيم فى حاضرة كل إقليم ويعرف بمدير الشئون المالية οικονομος) ، ويجرى هذا المزاد تحت إشرافه وهو الذى يراقب هذه العملية الدقيقة ويشرف على المتزايدين فيها وينحى المشكوك فى أمرهم وذوى السمعة السيئة والمذنبين ويمنع الموظفين من الاشتراك فى هذه المزادات لا بالذات ولا بالواسطة أى من الباطن وبذا يضمن أن تجرى هذه المزادات على أسس سليمة ثم يطالب الضامنين بتقديم الضمان الكافى على مدى ثلاثين يوما مقسمة إلى ستة أيام كل منها خمسة أقسام ، وينبغى أن يوفى الضامن خلالها

جزءا من الضمان يساوى سدس المطلوب فإذا عجز الضامن أو الملتزم عن ذلك أعيد المزاد من جديد ، وكانت هذه المزادات السنوية وحساباتها الشهرية وعملية التسوية الشهرية (διαλογισμος) بين الملتزم ومدير الشئون الاقتصادية تمثل عبئا دقيقا توليه الدولة كل عنايتها عليه فى سبيل عمل ميزانية الدولة السنوية.

وكان الإشراف على معظم المصارف الملكية والخصوصية فى أيدى أولئك الأجانب من اليونانيين ومن على شاكلتهم فهم الذين يعرفون كيف يمسكون الدفاتر والحسابات المصرفية ويسددون ما يتحصل من ضرائب وما يوفيه أصحاب الالتزام والملتزمون من المستحقات عليهم شهريا ويدرجون الأصول والخصوم فى قوائم وحسابات منفصلة وكان يتم ذلك كله بدرجة من الإتقان منقطعة النظير فى هذا العهد القديم بواسطة هؤلاء اليونانيين الأكفاء.

ومع أن هؤلاء الأجانب كانوا من الناحية القانونية يمثلون رعية الملك سواء بسواء مع المصريين فإنهم كانوا من الناحية العملية رفقاء الملك وأعوانه الذين شاركوه فى الحكم ، وفى السيطرة على المصريين ولذلك خصهم بجل عنايته وغض الطرف عنهم فى كثير من الأمور. وعلى ذلك فإن نظام الحكم فى عهد البطالمة الأولين أو بالأحرى فى صدر هذه الدولة البطلمية اتسم بطابع يذكرنا إلى حد كبير بذلك النظام الذى كان سائدا فى مطلع القرن العشرين فى المستعمرات التابعة للدول الأوربية الحديثة فى الهند وشمال أفريقيا وآسيا الغربية وعى الأخص فى العصر الأول من فترة التقدم الاستعمارى الأوربى وعندئذ كانت العلاقة بين الأوربيين والوطنيين تنم عن روح السيطرة والتعالى وليس فيها أى أثر أو بادرة تكشف عن الزمالة والرعاية الواجبة. وكان غرض المستعمرين يهدف دائما إلى استغلال موارد تلك البلاد لصالحهم وفائدتهم المادية - هكذا كان الحال إلى حد ما فى عصر البطالمة الأولين ، ومهما قيل عن حكم البطالمة ورغبتهم فى العمل على إسعاد شعبهم وأن حكمهم كان مشوبا بحبهم للخير وميلهم للأفكار التى من شأنها الأخذ بيد الناس والترفيه عن أحوال الشعب وسعيهم لرفعة شأنه إلى غير ذلك من الأقوال التى ضمنها عالم أمريكى راحل هو "وليام لين وسترمان" (W. Westermann) فى مقال مشهور له عنوانه:(The Ptolemies and the Welfare of their Subjects). "أى البطالمة ورفاهية شعوبهم" فإن هذا الدفاع

الجيد لا يزال يفتقر إلى تأييد من مصادر أخرى ، ولعل "وسترمان" قد بالغ بعض الشيء في استخراج واستنباط الرأى السليم فكون الملك البطلمى الأول الملقب "سوتير" أى المخلص وكون الملك "بطلميوس" الثالث يحمل لقب "فاعل الخير" أو (يورجيتيس) ضمانا كافيا بأنه كان يهدف إلى فعل الخير وليس استنجاد اللائذين والمكلومين بالملك لا يعنى أنه كان دائما فى نصرة المظلومين فهذه كلها أدوات وأمارات لا تنم عن شيء إنما الحكم البطلمى اتسم بالقسوة والشدة وأخذ الناس بغير المعروف، وقوانين الأسرة البطلمية وأوامرها فى عدم التهاون فى أى شيء وفرض الغرامات الباهظة على المخالفين من الناس إلى الماثلين فى الأغلال ليلقوا العقاب إذا ما تواتر إلى سمع الملك أن تاجرا من تجار الجعة مثلا فى قرية واقعة بدائرة الفيوم تسمى فيلادلفيا قد دلس فى الحساب أو تفوه بعبارات يؤاخذ عليها - وتقوم عليه البينة فى الوثائق البردية وتحصيل الغرامات التى كانت تصل إلى عشرة أمثال وإلى آلاف من الدراخمات وعشرات الفئات ، إزاء كل هذا لا يسع الإنسان وهو يطالع صفحات من قوانين الالتزام فى جباية الضرائب "لفيلادلفوس" إلا أن يشفق على أفراد الشعب المصرى ويأسى لحالهم وبؤسهم ، فخيرات البلاد كانت تذهب تحت سمعهم وبصرهم إلى خزائن الملك وشونه ولا يبقى لهم منها إلا الفتات والنذر اليسير.

على أننا لا يجب أن نبالغ فى تقدير هؤلاء الأجانب فكبار الموظفين كان لهم بالطبع نفوذ كبير فى تسيير دفة الشئون فى البلاد ولكنهم كانوا يعتمدون كلية على الملك أو على رؤسائهم ، فمسئوليتهم المادية والشخصية كانت جسيمة ومع ذلك فإن هؤلاء الموظفين الكبار الذين كان ينظر إليهم كما لو كانوا أنصاف آلهة قد يصبحون بين عشية وضحاها ، وقد حلت عليهم نقمة الملك وغضبه فيعزلهم أو يقتلهم أو يزج بهم فى غياهب السجون ثم يصادر أملاكهم وثرواتهم الطائلة ، ولدينا من الوثائق البردية ما يدل على وقوع مثل هذا بالنسبة "لأبوللونيوس" نفسه وزير المالية المشهور الذى توارى فجأة وقيل عزل أو مات بعد وفاة "فيلادلفوس" واعتلاء ابنه "بطلميوس يورجيتيس" الأول عرش البلاد. وقد يلقى الموظفون من الدرجة الثالثة مثل هذا الجزاء مثلما حدث فى فيلادلفيا (انظر المقال الذى دبجه العالم البريطانى "إريك تيرنر" بجامعة لندن فى هذا الشأن).

وهناك أمثلة أخرى عديدة فى الوثائق البردية وفى أرشيف "زينـون" بصفـة خاصة ، فالملك كان يعتبر كل هؤلاء بمثابة الوكلاء عنه ، فإذا مـا تبـين لـه وجـود خيانة من أحدهم أو عجـز وعـدم مقـدرة وكفايـة فـى أى منـهم ، لم يتردد فـى الحصول على ما يعوضه عن الخسارة التى لحقت به وذلك بمصادرة ما لدى هؤلاء الموظفين الصغار أو الكبار من ممتلكات . وبالطبع لسنا على بينة من عدد المرات التى كان يحدث فيها مثل هذا التقصير والعقاب ، ولكن الذى نعرفه علـى سـبيل اليقـين هـو أن هـذا مـن الجـائز حدوثـه فـى أى وقـت ولأى موظـف فـى تلـك البيروقراطية المصرية على عهد البطالمة.

الضباط والجنود:

كان أمام الضباط وجنود الجيش من الفرص السانحة للإثراء الشيء الكثـير ، فالخدمة فى الحرس الملكى كانت تصبـو إليـها نفـوس الكثـيرين وكذلـك كـانت الخدمة فى المعسكرات المختلفة على حـدود البـلاد والمنـاطق الاسـتراتيجية تجلـب أجزل العطاء ويثاب عليها من يؤدونها على خير مـا يـرام ، ثـم إن الانتصـار فـى الحروب قد يجلب معه الغنم الوفـير للجيـش المنتصـر. ولسـنا نعـرف كيـف كـان البطالمة يعالجون مسألة أسلاب الحرب ولو أننا نعرف أن الملك "بطلميوس" الرابـع الملقب (فيلوباتور) بعد إحرازه النصر فى معركة رفح الشهيرة عـام ٢١٧ ق.م قـدم لجنـده مكافـآت سـخية ، وكـان ضبـاط كـل مـن الملكـين "بطلميـوس" الثـالث (يورجيتيس الأول) وبطليموس الرابع (فيلوباتور) يفخرون بما حصلـوا عليـه مـن منح وعطايا وهبات كان بعضها من الذهب الخالص. وعندما كانت تنتهى الحروب ويعم السلم كان الجنود والضباط يكفلون بتهيئة حياة فيـها الاسـتقرار والسـكينة بعد الصخب والجلاد ، وفيها الضمان لعيش كريم هادئ فيرتبطون بـالبلاد برباط وثيق وتستفيد البلاد من خبراتهم ومعرفتهم بأصول الزراعة كما هـى مدونـة فـى الكتب المتداولة مثل (Theophrastus , Historia Plantarum) عـن زراعـة النباتـات لثيوفراستوس أحد علماء المدرسة الأرسطالية ، ثم كان الملك يقطعهم على سـبيل الهبة القابلة للاسترداد رقعا من الأراضى الزراعية تتناسب فى مساحتها مع رتبـهم العسكرية كما سبق أن أوضحنا مـن قبـل. وكـل قطعـة منـها تكنـى "كلـيروس" (Kleros) وصاحبها يسمى "كليروخوس" (Klerouchos) أى الحـائز "للكلـيروس"

وبذا تهيأت لهؤلاء الضباط والجند من الفرسان (Hippeis) أو المشاة (Pezoi) الفرص المواتية لتحسين أحوالهم المعيشية لتحسين رقع الأراضى التى منحوا إياها كما كانوا يحصلون على ثكنات أو بيوت يسكنونها ولها نظم غير مستقرة وقواعد وضعها الملك وراقب تنفيذها وهذه تدخل تحت نظام إسكان الجند. وعلى اعتبار أن هذه المساكن كانت ذات طابع عسكرى ،وقد خول للجند والضباط الاستيلاء عليها إما بواسطة مديرى الشئون المالية أو إنهم ابتنوها لأنفسهم ووضعوا الأختام عليها عندما كانوا يستدعون لأداء التدريبات الدورية أو الخدمة العسكرية كما لو كانت ملكا خاصا لهم وإنما يتركونها وهى فى الحالة التى كانت عليها عندما تسلموها.

وكان فى مكنة هؤلاء الضباط والجنود أن يضيفوا لتلك الاقطاعات من الأراضى التى يحوزونها من قبل الحكومة أراضى خاصة يتملكونها وتسمى هذه (κτηματα) وذلك بفضل ما يزرعونه فيها من كروم وزيتون ونخيل وشتى أنواع الفاكهة ، أما عن الضرائب التى كان على هؤلاء الجند والضباط دفعها ، فإنها لم تكن عالية بالقدر الذى كان يدفعه الفلاحون الملكيون. ففى البند الخاص بالضريبة المشهورة وهى "الأبومويرا" (Apomoira) ومعناها النصيب أو الجزء المقتطع فكانوا يدفعون نصيبهم فيها عشرا (dekatos) بدلا من السدس (hektos) مما يستخرجونه من النبيذ فيما يزرعونه من كروم وفضلا عن ذلك كان قسطهم من الحرية الاقتصادية أعظم من شركائهم ، وقد صادف بعض هؤلاء الجنود من المستوطنين فى اقطاعاتهم العسكرية شيئا من النجاح فى هذا المضمار بوصفهم ملاكا للأراضى ، ومع أنه من العسير أن نقدر نسبة هؤلاء ، إلا أن هذه النسبة قد تكون قليلة بحال ما ، وكان أغلب هؤلاء الجند المستوطنون من المقدونيين والإغريق ومن التراكيين والسوريين وسكان الأناضول. والمعنى المستفاد من هذا أنهم كانوا ينتمون لشعوب وأصول وسلالات عريقة أخرجت على مدى الزمان أناسا عرفوا بالجدية والنشاط فى العمل والقدرة على الابتكار ، ومع ذلك فقد نشأت ظروف ، تنم عنها عوائق كثيرة كانت تحد من ذلك النجاح الاقتصادى الذى صادفوه. فاحتراف الجندية فى عصر مثل عصر "بطلميوس فيلادلفوس" لم تكن بالمهمة السهلة التى تدر الأرباح على أصحابها دون عمل ، ذلك أن الجنود

كانوا بين حين وآخر يطلبون لأداء الخدمة العسكرية ، وكان الاضطلاع بهذه الأعباء يتطلب وجودهم فى أقطار نائية ولمدد طويلة وفى أثناء غيابهم هذا كانت أنصبتهم ترد فى بعض الأحيان للحكومة أو يديرها أناس لا يمتون لهم بصلة وتعوزهم الكفاية والمقدرة والحماس. ثم إن هؤلاء الجنود والضباط لم تكفل لهم الحرية التامة فى مباشرة أعمالهم الزراعية التى كانت تخضع لدورات زراعية سنوية تحددها الحكومة فتعين المحاصيل والمساحات التى تزرع من كل نوع وتراقب هذه الدورة (diagraphe tou sporou) بعناية شديدة وتعاقب المخالف لهذه الدورة الزراعية السنوية المقررة.

وهناك صعوبة أخرى كان الناس يقاسون منها بشدة فى أحوال كثيرة ويشترك فى ذلك العناء الجنود والضباط والمصريون على السواء ، فالشكوى كانت عامة من عدم أمانة الموظفين وقلة كفايتهم واستغلالهم لنفوذهم ومنصبهم وضاعف من هذا كله تلك الصعوبات التى كان يسببها لهم ذلك الاقتصاد الموجه Econmie derigée الذى فرضه عليهم ملوك البطالمة المتعاقبون ، وكان عنوانا بارزا على حكم البطالمة ، اضطروا فيها إلى أن يبيعوا محاصيلهم والحبوب التى تجود بها أراضيهم ، لا للأسواق العامة الحرة ، وإنما للحكومة ثم بالسعر المقرر فى تعريفة محددة وهذا طبقا لحكم الاقتصاد الموجه.

ملاك الأراضى وأصحاب المساكن:

هناك من الأدلة ما يثبت وجود طبقة من ملاك الأراضى وأصحاب البيوت والمساكن وهم على درجة مرموقة من الغنى والثراء وذلك بخلاف أولئك الضباط وموظفى التاج والجنود المستوطنين الذين كانوا يعيشون فى بحبوحة من العيش ، ويمكن استنباط هذا كله من بعض مظاهر النظام الاقتصادى السائد فى مصر البطلمية ولعل المصدر المهم الذى نستقى منه أهم معلوماتنا عن ذلك هو تلك الوثيقة البردية الشائقة المعروفة بالقوانين الضريبية (Nomoi Telonikoi) التى صدرت فى منتصف حكم "بطلميوس فيلادلفوس" ٢٥٩- ٢٥٨ ق. م والجزء التمهيدى فيها يمثل أمثل القوانين المنظمة لجباية الضرائب على الإطلاق وهو القانون المسمى (Nomos telonikos) وهو يوضح كيف كانت تحصل الضرائب وتربط فى مزادات سنوية وكيف كان يجرى فحص الراغبين فى الاشتراك فى هذا

المزاد بواسطة مدير الشئون الاقتصادية أو (oikonomos) وكيف كانت تبرم العقود مع من يرسو عليه أكبر عطاء وكيف كان يتم الحصول على الضامنين من ذوى العقار وكيف كان المتزايدون ، أفرادا كانوا أم جماعات يضم شملهم شركاء (metochoi) ويمثلهم مفوض (archones) . وهكذا اتخذت الحكومة فى ظل هذا القانون جميع الضمانات التى تكفل الحصول على المبالغ التى سبق أن تعاقدت عليها وهناك وثيقة بردية أخرى شبيهة بذلك ، تنتمى لعصر تالى هو عصر الملك "بطلميوس" الخامس (إبيفانيس) أو "المتجلى" ، وقد صدرت فى عام ٢٠٣ - ٢٠٢ ق.م وهى تحتوى على مجموعة من اللوائح الخاصة بجباية الضرائب بواسطة أولئك الملتزمين فى زمام إقليم أوكسيرنخوس (البهنسا). وقد نشرت هذه الوثيقة بواسطة العالم الألمانى "فلكن" وعرفت بالاسم الآتى (Wilcken, U.P.E. 112) ومن المعلومات التى نستمدها من هاتين الوثيقتين بالإضافة إلى ما وصل إلى علمنا من المعلومات المستمدة من وثائق أخرى عديدة متصلة بموضوع نظام العقود فى جباية الضرائب (Wnai) نرى كيف نظمت الحياة الاقتصادية فى مصر على هذه الركيزة باعتبار أن نظام الالتزام هذا كان يمثل أحد الركائز الأساسية فى كيان الحكم البطلمى.

ونود فى هذا المقام أن نفرد فصلا قائما بذاته لهذا الموضوع لما له من أهمية بالغة فى كيان الجهاز الإدارى وفى مستقبل الحكم البطلمى ، وتمثلت به مظاهر هذا الحكم وكان عنوانا بارزا فى الحضارة السائدة فى مصر البطلمية.

الفصل الثامن

لمحة عابرة عن نظام الالتزام مستوحاة من وثيقة بردية

هى قوانين الإلتزام فى جباية الضرائب (لبطلميوس فيلادلفوس)

تعتبر قوانين الالتزام الخاصة بجباية الضرائب ونظم الإحتكارات التى أصدرها "بطلميوس" الثانى الملقب بفيلادلفوس فى غاية الأهمية ، وهى متضمنة وثيقة بردية مودعة الآن فى مكتبة "البودليان" بجامعة أكسفورد ، وكانت بمثابة الحجر الأساسى فى كيان ذلك المجتمع الهائل المؤلف من بضع ملايين من السكان فى مصر فى عصر "بطلميوس فيلادلفوس" أى فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، فهذا المجتمع الذى التأمت طوائفه وعناصره فى رهط عجيب وتشكيل خليط وخالى من أى تجانس فى كثير من الأحيان ، هبطت جموعه الهائلة كالسيل المنهمر من بلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل وبلدان كثيرة فى أسيا الصغرى والشام وفلسطين ، وكان البعض منهم من الإغريق الخلص ومن المقدونيين بصفة خاصة ، بينما كان البعض الآخر من المتأغرقين وهم بين جند مرتزقة ورجال أعمال ومهندسين وخبراء والكل يسعى إلى الكسب والبحث عن عمل فى شتى المجالات ، بعد أن فتحت مصر أبوابها على مصارعها ورحبت بمقدمهم ، فوجدوا فرصا سانحة ومتاحة على أوسع نطاق فى أرض كانت لاتزال بكرا ، لم تستغل مواردها على الوجه الأكمل وهم فى خدمة ملك مقدونى مستنير وسط شعب مغلوب على أمره ، مكره على الترحيب بهذه العناصر المجلوبة التى أقامت بين ظهرانى المصريين وعاشت فى كنفهم ، تستثمر مواردهم إلى أقصى حد وتستغل تلك الفرص المتاحة من زراعة وتجارة وصناعة. وهكذا فرضت هذه الجموع نفسها على عامة الشعب المصرى وعناصره الوطنية من جماعات الـ (laoi) الذين انتشروا فى ريف البلاد وأنحاء الخورا (η χωρα) راضين مستسلمين للأوضاع الراهنة ، يكنون الخوف والنفور من الأجانب (ξενοφοβοι) على حد قول "هيرودوت" فى وصفه للمصريين ونفورهم من الاختلاط بالأغراب والأجانب، وقد حظى الفريق الأول من العناصر المجلوبة من الخارج بتأييد مادى وأدبى ، بل وقانونى من الحكومة البطلمية ذات الطابع العسكرى ، ويستشعر الإنسان إذا ما تصفح بعض أوراق البردى التى ترجع لهذا العصر والمليئة

بالشكايات والمظالم (Enteuxeis) التى كان يرفعها الطرفان إلى السلطات الحاكمة أقول يستشعر الإنسان مدى هذا التشجيع والمحاباة التى كان يلقاها اليونانيون ومبلغ الظلم الذى كان يحيق بالمصريين فى شتى المجالات وتفوح رائحة هذه الروح من ثنايا الوثائق البردية ، ويصرح بها بعض أصحاب الظلامات واستمر هذا التشجيع بل والمحاباة للعناصر اليونانية على حساب العناصر القومية والمصرية فى جميع المجالات طوال فترة تُربى على سبعين عاما ، تخللها سنى حكم كل من "بطلميوس" الأول وابنه "بطلميوس" الثانى إلى ان جاء "بطلميوس" الثالث يورجتيس الأول ٢٤٦- ٢٢١ ق.م. وكان القرن الثالث قد انتصف أو كاد وعندئذ بدأت تخف حدة هذه اللهجة أو بالأحرى تلك النعرة والعنجهية من قبل اليونان وبدأ المصريون يشعرون بما كان لهم من كيان وأهمية فى هذا المجتمع المكتظ بالمتناقضات، فأخذوا يطالبون برد الحقوق المهدرة وبمزيد من الامتيازات وتأكد هذا المنحى بصورة جلية وعلنية عقب موقعة "رفح عام ٢١٧ ق.م (٢٢ يونيه) وفيها أبلى الفيلق المصرى بلاءا حسنا وكسب النصر للملك "بطلميوس" الرابع الملقب "فيلوباتور" على حساب عدوه الملك السلوقى "انطيوخس" الثالث. وبذلك استطاع الملك البطلمى الشاب أن يرد كيد الأعداء والغزاة عن مصر ، بعد أن كاد العرش البطلمى يهتز تحت أقدام الجالس عليه ، وكان للدور الذى قام به الوزير "سوسبيوس" (Sosibius) كما رواه المؤرخ اليونانى "بوليبيوس" (Polybius) مظهرا أساليب المكر والدهاء ، الفضل الأكبر فى نجاح الخطة المرسومة وكسب هذه الجولة العسكرية لصد الأعداء وردهم إلى سوريا. ولكن هذا النصر حمل فى طياته مظاهر التذمر من قبل الطبقات المصرية من المحاربين ، وقد صحت عزيمتهم على أن ينفضوا عن كاهلهم فكرة طالما علقت بالأذهان وكان قد أسبغها عليهم من قبل مؤرخ يونانى هو "هيرودوت" الذى عاش فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وأطلق على هذه الطبقة المحاربة من المصريين اسماً علق بهم على مضى الزمان على أنهم جماعة من المحاربين "الماخيموى" (οι μαχιμοι)كناية عن اشتراكهم فى المعارك حتى أصبح هؤلاء المقاتلون (οι μαχιμοι) يؤلفون طبقة من المصريين ومضى "هيرودوت" فى وصفه لهم ، مضفيا عليهم من النعات والأوصاف ما يكن عن معانى الازدراء والاحتقار من حيث الزى العسكرى والإعداد الفنى والسلاح ،

فهم أولئك الذين يرتدون السراويل المهلهلة ويحملون العصى والبلط ، يخوضون بها المعارك فكانوا فى نظره رهطا غير متجانس ، ولا يعرف شيئا عن النظام العسكرى ولا يحسن التدريب على القتال ، على أن هـذه "التّرهـات" التـى أسبغها عليـهم هيرودوت بحق أو بغير حق ، قد تقلصت بعد معركة رفح التى أبلى فيها الفيلـق المصرى بلاءا حسنا ، بعد أن كان "سوسيبيوس" قـد أتـاح لهـم فرصـا كافيـة مـن التدريب على القواعد التى كان قد ابتدعها "فيليب" المقدونـى وهـى تقـوم علـى الانضواء فى الحرب فى تشكيلات ونظم عمادها الفيلق (Phalanx) وهو عبارة عن صفوف متراصة من المقاتلين ذات سمك وعمق كبـير بحيـث لا تؤثـر فيـها حـراب العدو ولا سهامه. وكان "الاسكندر" الأكبر قـد طبـق هـذا النظـام العسـكرى فـى حروبه وفتوحه فى آسـيا الصغـرى وبـلاد فـارس ، فلقـى نجاحـا هـائلا وحقـق انتصارات عظيمة فى جميع المعارك التى خاضها ضـد دارا الثـالث وفلـول جيشـه وشعوب آسيا ، ابتداء من بلاد الصفد وبلخ والتركسـتان وأفغانسـتان وبلوخسـتان حتى إقليم البنجاب فى شمال الهند.

والحقبة الأولى من تاريخ هذه الأسـرة البطلميـة أو "اللاجيديـة" كمـا يحلـوا للفرنسـيين والبلجيكيـين أن يسـموها ، تشـمل حكـم ملكـين عظيمـين همـا "بطلميوس" بن لاجوس والملقب "سوتير" (Σωτηρ). مؤسس هــذه الأسـرة وابنـه "بطلميوس" الثانى الملقـب بفيلادلفـوس أى المحـب لأختـه وزوجتـه "أرسـينوى" الثانية وقد امتدت هذه الحقبة إلى أكثر من خمسين عاما مـن ٣٠٥ ق.م. حتـى ٢٤٦ ق.م وقد شهدت هذه الفترة إلى جانب الجهود الحربية وأعمال الفتح والغزو وكسب المعارك فى الشرق والغرب والشمال والجنوب فى البر والبحر - نشاطا فى ميـادين أخرى . وتتطلب هذا كله تنظيمات اقتصادية ومالية وإصلاحات جوهرية وجسيمة فى شتى المجالات. ولم تأل الحكومة البيروقراطيـة السـائدة فـى مصـر ، جـهدا فـى الاضطلاع بكل هذه المهام ، فهى حكومـة متمـيزة ، اسـتعانت عـن طيـب خـاطر بعديد من المهندسين والخبراء والعلماء ، ممن وفدوا إليها من الخارج ، ففتحـت لهـم صدرها ورحبت بمقدمهم وهم من جانبهم أخلصوا فى خدمتها ، وكان علـى رأس كل هؤلاء المشرع الأثينى المشهور "ديمـتريوس" الفالـيرى (Demetrius Phalerius)

فعاون بكثير من آرائه وتشريعاته فى بناء هـذا الصـرح العظيـم ، وحققـت البـلاد نجاحا مرموقا فى هذه الحقبة الأولى من التاريخ البطلمى.

ولا ريب ان هذا العمل تطلب تشريعات مختلفة واستصدار قوانـين عديـدة ، تنظم حياة الناس فى شـتى المجـالات ، ولعـل قوانـين جبايـة الضرائـب والمكـوس بطريق الالتزام ثم تنظيم الاحتكارات العديدة وأعمال المصارف تمثل أهم ركن فيما أصدره الملك "بطلميوس فيلادلفوس" من تشريعات ، إذ تحكى بنود هذه القوانـين الضريبية جانبا مهما من حياة ملك توفر على حُب التنظيـم والإدارة ثـم التقنـين والتشريع بهدف معالجة مسائل ذات أهميـة بالغـة ولهـا صـلات وثيقـة بالاقتصـاد القومى. ثم بالعمل والعمال وجميع وسائل الإنتاج فـى عديـد مـن المجـالات بـين زراعية وصناعية وتجارية وحرفيه. وشتى المعاملات ويبدأ هذا من الحقل فى صميم الريف ومن "جرن" القرية إلى المخـازن والشـون والمسـتودعات الحكوميـة ثـم مـن المصانع التى تنتج الزيوت والنبيذ وتقطر الجعة والمصانع التى تنتج الأقمشة وتصنع الملابس المطرزة وغير المطرزة والأنـوال التـى كـانت تُحـاك عليـها المنسـوجات فـى البيوت لحساب الدولة وفضلا عن ذلك كانت هناك المصارف فى القـرى والمراكـز والحواضر بين حكومية وأهلية ولها مجالات عديدة تباشر فيها أنشطة لاحصر لها من إيداع ودائع والسحب عليها وتبـادل النقـد وتمويـل المشـروعات وتحويـل عمـلات وتقديم ضمانات وسلف مع مراعاة سعر الفائدة المقرر وهو بين ١٢٪ إلى ٢٤٪ سـنويا بحسب أمر ملكى (diagramma) فى هـذا الخصـوص ، إلى غـير ذلـك مـن شـتى المعاملات التى تحاكى ما نعرفه عن معاملات المصارف فى العصر الحديث.

وفضلاً عن هذا كله فقد جاء ذكر طائفة من الموظفين الإداريين والماليين ، بل والعسكريين ، مع تحديد الأعباء المنوطة بكل منهم والواجبـات التـى كـان يتحتـم عليهم إتباعها والسلوك المعـين فـى مختلـف المهام ، بحيـث لا ينبغـى بحـال مـن الأحـوال تعديـه أو الخـروج عليـه ، ثـم هنـاك العقوبـات الماليـة والمصـادرات (αναλειφθεντα) التى فرضتها هذه القوانين على المخالفين لأحكامها ، أيا كانوا ، وكانت الضرائب مختلفة ومتنوعة ، نذكر منها على سبيل المثال قائمة متواضعة:-

وهى ضريبـة علـى الكـروم والبسـاتين απομοτρα = εκτη δεκατη تقـدر بالسدس أو العشر لحساب المعابد ثم خصصت لعبادة أرسينوى بعد وفاتها.

ضريبة الزيوت ελαικη ضريبة الملح αλικη ضريبة الكتان οθονιηρε ضريبة الجعة وبيعها ζυτοπωλιον ضريبة عقارية خاصة بالأرض επαρουριον ضريبة المراعى θυνομιον ضريبة الإيجار على الأرض φoρos = tributum ضريبة على السدود χωματικον ضريبة الخفارة φυλακιτικον ضريبة الثلث مقدرة على متوسط ثلاث سنوات τριτη αμπελωνων ضريبة على بيع المحاصيل فى السوق επωνιον ضريبة على تربية الخنازير υικη ضريبة الضيافة للغرباء ξενια ضريبة لصالح الأطباء والتطبيب τατρικον ضريبة أشبه بالمعلوم συνταξιs.

أما قواعد جباية هذه الضرائب ونظيراتها عن طريق نظام الالتزام (Tax-farming system) وعرض ذلك فى مزاد عام وعلنى كل عام فهذا أمر كانت الدولة توليه جل عنايتها وتحيطه بجميع الضمانات باعتباره من المسائل الحيوية التى تتوقف عليها ميزانية الدولة مسبقا ولذلك كان هذا الموضوع هو الاستهلال الذى بدأ شرحه فى صدر هذه القوانين فى شيء من الإسهاب والتفصيل ، حتى لا يكون هناك أى مجال للتلاعب أو للاجتهاد والتأويل والتفسير ولا للتهرب من أحكام هذه القوانين.

وعلى ذلك تعتبر تلك القوانين بمثابة حجر الأساس فى كيان هذا المجتمع النامى وفى بنائه الاقتصادى. وكان الملك البطلمى قد وضع نصب عينيه منذ أول الأمر أن يبنى اقتصاديات مصر على أسس متينة وجديدة . وكان هدفه بالطبع أن تدر عليه البلاد أرباحا طائلة وأن يتحكم فى مواردها الاقتصادية وينميها باستحداث آليات وطرائق محسنة وأساليب مجلوبة من الخارج واستحضار بذور ونباتات من أنواع جديدة وعمل دورات زراعية منظمة وبذل عناية فائقة بأشجار الفاكهة على مختلف أنواعها والتحكم فى جهود أفراد الشعب وما يستطيع بذله من نشاط بشرى وجثمانى فى كل من مجالى الزراعة والصناعة الريفية وغير الريفية - كل ذلك بتوجيه من الحكومة وغايته صالح الخزانة الملكية (το Βασιλικον) وقد حقق الملك بالفعل أرباحا طائلة وامتلأت خزائنه بالأموال ومستودعاته وشونه بالمحاصيل التقليدية ، التى كان يسوّقها ويتاجر فيها فى الداخل والخارج ، ومن ذلك مثلا تجارة الورق المصنوع من البردى وقد عُرف أن الملك البطلمى كان يتحكم فى السوق العالمية فى هذه السلعة باعتبارها من خصائص مصر

واحتكاراتها فإذا ما تراءى له أن يحجب هذه السلعة الحيوية قليلا ما ارتفع سعرها وأصبح ثمنها باهظا وإذا فتح السوق أمام هذه السلعة انخفض سعرها عالميا وهكذا كان سعر ورق البردى فى تقلب مستمر.

وأحكام تلك القوانين كما تبدو فى تلك الوثيقة الضريبية ، تناولت شتى الموضوعات فكانت بحق خير موجه للموظفين عامة بل ولأفراد الشعب ، فلا سبيل لأن يحيد أحد منهم عن أحكامها ، بل ولا يملكون سبيلا إلى غير هذه الحيدة ، إن سولت لهم نفوسهم الاستفادة أو ركبوا متن الشطط. ذلك أن العقوبات كانت شديدة وقاسية للغاية ، فمن مصادرات لربع الأملاك أو لنصفها ومن غرامات باهظة قد تصل إلى آلاف الدراخمات أو إلى بضع تالنتات أو خمسين مثلا (πεντηκοντακουν) بقدر ما قد يحصله جباة الضرائب وغيرهم من القائمين بالتزام جباية الضرائب إذا غفلوا عن الإبلاغ عما حصلوه أو جمعوه. ثم هناك محاكمات وتحقيقات تجرى أمام قضاة متجولين أو أمام محكمة وزير المالية نفسه وهناك من زج بهم فى السجون بعد إلقاء القبض على المخالفين وإرسالهم إلى ساحة الملك لتجرى محاكمتهم أمامه[1]. وهنا قد يتساءل الإنسان هل كانت هذه الشدة والقسوة التى جاءت بها هذه التشريعات المالية عاصما للناس من الوقوع فى مواطن الزلل؟ الغالب على الظن أن المخالفات كانت كثيرة وأن عيون الملك المنبثة فى كل مكان من مخبرين ومبلغين ومدعين عموميين لم تكن حائلا دون ارتكاب المخالفات على أوسع نطاق ، بل إن فى تكرار ذكر العقوبة واستمرار التلويح بها خشية الوقوع فى الخطأ يعتبر من الأدلة الضمنية على كثرة المخالفين . وقد ترامى إلى سمعنا صدى ذلك فى مجموعات من الوثائق البردية المتعاصرة مع تلك القوانين مثال ذلك أرشيف "زينون" وبردى "تبتونس" وبردى "فلندرز بيترى" ، حيث نجد إشارات عديدة إلى ما ورد بها من أحكام خاصة فى موضوع الزيوت وتصنيعها وتسويقها واستيرادها وكيفية الحصول على بذورها ونقل الناتج

---

(١) أنظر مقال العالم البريطانى السير "إريك تيرنر" (Sir. Eric Turner) ، الأستاذ بجامعة لندن عن قطار الجعة المتهم هو وأمين الخزانة بتصرفات وأقوال منسوبة إليهما وكيف أن وزير المالية طلب أن يرسل إليه قطار الجعة هذا وهو مكبل اليدين لمحاكمته ، وقيل فى وقت ما لشنقه ، ولكن هذا المعنى أصبح منقوضا فى ضوء الدراسات الحديثة.

منها من الأجران إلى المستودعات بحضور لجان مشكلة خصيصا لهذا الغرض وضرورة عمل محاضر موقع عليها من الموظفين المختصين ومن الشهود. وتدل كل هذه الاستحكامات على مدى اهتمام الحكومة بهذا المورد بالذات ومبلغ اهتمام الناس بأصناف الزيوت التى كانت تمثل فى حياة المصريين واليونانيين ركنا حيويا فهى لازمة لهم فى إعداد الطعام وفى العلاج والتطبب وهى لازمة للنساء فى العطور ووسائل التجمل والزينة (Κοσμος) كما هى لازمة لأداء المراسم والطقوس الدينية وفى أعمال الإنارة.

ولعل من الموضوعات الطريفة فى هذه القوانين ما ورد بها من إشارات عابرة إلى وجود نظام أشبه ما يكون بنظام الدورة الزراعية ويمثل خطة مرسومة وموجهة من قبل الحكومة ، لتنظيم زراعة تلك النباتات الزيتية وبذر البذور فى رقع ومساحات شاسعة تقدر أحيانا بالآلاف من الأرورات أو الأفدنة اليونانية فى مختلف الأقسام الإدارية أو النومات ويخصص بعضها لصالح الإسكندرية واستهلاك سكانها ولا يخضع هذا كله لأحكام الملتزم وضرائبه وبعضها الآخر كان يجرى التصرف فيه حسبما تقتضيه قوانين الاحتكار وأحكامها الصارمة وكانت هذه الدورة الزراعية تعرف بالعبارة الآتية η διαγραφη του σπορου. وكان الأمر بتنفيذ هذه الدورة يصدر سنويا ووردت الإشارة إليه صريحة فى وثيقة من مجموعة بردى "تبتونس" رقمها ٧٠٣ كما ورد فى غيرها. وبمقتضاه كانت تحدد المناطق فى كل قسم إدارى وتعين المساحات الواجب زراعتها من كل صنف من النباتات الزيتية كالسمسم والكروتون (العصفر) وبذر الكتان وخلافه. وكان من الواجب على الموظفين الإداريين والماليين من نوماركيين وتوباركيين ومديرين للشئون المالية والاقتصادية (οι οικονομοι). الإشراف على كل هذه العمليات بحسب اختصاص كل واحد من هؤلاء. ثم العمل على تزويد الفلاحين بالبذور اللازمة والتأكد من أن الأرض قد استجابت وأنبتت نباتا حسنا وإلا فلترقع الأجزاء التى ماتت بذورها وأوجب وزير المالية على مندوبيه فى الأقسام الإدارية.عمل دورة تفتيشية للتأكد من أن كل شيء يجرى حسب الخطة الموضوعة وتقديم العون والمساعدة للفلاحين والأخذ بيدهم ورفع معنوياتهم والتسرية عنهم بكل الوسائل كل هذا وغيره كثير جاء مفصلا وبأسلوب لا موارية فيه ضمن التعليمات الدورية

التى كان يصدرها وزير المالية المصرية إلى مندوبيه فى الأقسام الإدارية وهم جماعة الـ (οι οικονομοι).

ولعل موضوع نظام الدورة الزراعية وكل ما يتصل به من أحكام وتفصيلات ، يضفى بعض الأضواء على الأحكام الواردة فى وثيقة الالتزام فى جباية الضرائب ومدى تطبيقها وخاصة فيما يتعلق بالنباتات الزيتية التى كانت تمثل احتكارا فى غاية الأهمية ، خاصة وأن الدولة كانت تحرص دائما على توفير الكفاية الذاتية من مختلف أنواع الزيوت وتركت لذوى الأذواق من المرفهين من اليونان أن يستوردوا من بلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل ما يكفى حاجياتهم دون المتاجرة فيه وأوجبت عليهم دفع ضريبة على ما يستوردونه لإشباع أذواقهم هذه وذلك من قبيل التسوية بين سعر السلعة المستوردة والسلعة التى كان يبيعها الملك فى داخل البلاد للمستهلكين فلا تضار الحكومة فى شيء وتستطيع الدولة أن توفى احتياجات الجماهير وبخاصة مدينة الإسكندرية ، ولذا كان نظام الدورة الزراعية بصفة مطلقة وبخاصة فى موضوع الزيوت من الموضوعات الطريفة التى أولتها الدولة البطلمية جل عنايتها ، وقد عرض لها كثيرون من العلماء والباحثين ونخص بالذكر منهم عالم بلجيكى فى بروكسل هو "بيير فيدل ناكيه" (Pierre Videl Naquet) فى كتيب صدر له فى عام ١٩٦٧ عنوانه: Le Bordereau d'ensemencement dans l' Egypt Ptolémaique . η Διαγραφη του σπορου وكان هذا التشريع يصدر سنويا ويجرى تحديد المناطق التى ينبغى زراعتها بمختلف أنواع وأصناف النباتات الزيتية من سمسم وكتان وكروتون أو عصفر وحب الملوك الخ. وهذا وضع أشبه ما يكون بما يجرى حاليا فى وزارة الزراعة المصرية من حيث تنظيم دورة زراعية سنوية وتعيين المناطق والمحافظات التى يزرع فيها كل صنف من أصناف القطن بين أشمونى ومنوفى وجيزة ٦٧، وجيزة ٦٨ وبين طويل التيلة وقصيرها ثم كذلك تعيين المساحات والأحواض وزمام الترع والقنوات التى تزرع حياضها بأصناف الأرز بين أرز عربى ويابانى ونباتى وتصدر كذلك التصاريح بزراعة محاصيل أخرى مثل الفاكهة أو الكتان والفول والغلال بجميع أنواعها من هندى وبلدى ومكسيكى - وعلى ضوء هذا وطبقا لمقتضى أحكام ولوائح تتم

الدورة الزراعية الشتوية والصيفية ويعاقب كل مخالف للدورة الزراعية بتغريمه مبلغا كبيرا من المال.

وعندما تعرضت الوثيقة البردية التى أصدرها "فيلادلفوس" لتنظيم جباية الضرائب بطريق الالتزام ، لم يفته موضوع الاحتكارات ، فتناوله من جميع نواحيه التنظيمية وضرورة تشديد الرقابة والاستيلاء على جميع الإنتاج من النباتات الزيتية بالذات بسعر محدد وتحريم الاستيراد من الزيوت بالنسبة للأثرياء إلا ما كان منه للاستهلاك الشخصى لذوى الأذواق الرقيقة المترفة ، مع فرض بعض المكوس المالية على ما قد يستورد من ذلك عند وصوله إلى مينائى الفرما أو الإسكندرية حتى تعوض الحكومة وهى صاحبة الاحتكار ، عن بعض ما قد تخسره نتيجة لهذا الاستيراد لبعض الأصناف الجيدة من الزيوت من بلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل، إشباعا لأمزجة بعض المترفين والأثرياء من اليونانيين ومن على شاكلتهم. وقد جاء فى شق أخير من بنود هذه الوثيقة (الأعمدة من ٦٠ حتى ٧٣) ذكر تلك المساحات الشاسعة التى أوجب هذا التشريع تخصيصها فى مختلف المحافظات أو الأقسام الإدارية (النومات) بكل من الوجهين البحرى والقبلى ، لزراعة أصناف معينة من النباتات الزيتية فى آلاف من الأرورات (الأفدنة اليونانية) على أن تقوم الدولة من جانبها بتقديم البذور على سبيل القرض الحسن أو الإعارة بربح يقدر بـ ٥٠٪ ويجرى تحصيلها عند جنى الثمار ونصت هذه الفقرات على أن يكون تخصيص القدر الأكبر من المحصول للاستهلاك المحلى وأن يجرى عصره فى دائرة كل قسم أو يكون بعضه لحساب الأقسام الأخرى أو لصالح مدينة الإسكندرية εις τας εν Αλεξονδρειστ διαθεσεις جاء هذا فى الأعمدة ٥٣ سطر ١٩ وفى ثنايا الأعمدة من ٦٠ حتى ٧٣. وقد تعهدت الحكومة بتوريد مقادير هائلة من الكروتون (حب الملوك أو زيت الخروع) بالذات ويقدر هذا بمحصول آلاف من الأرورات لبعض هذه الأقسام كيما يجرى تشغيلها وعصرها زيوتا ، تبيعها الدولة بواسطة بدالين أو توجهها الوجهة التى تراها ، ولذلك أعفت هذه المقادير من أى ضرائب وحرمت على صاحب الحق فى الالتزام بجباية الضرائب فى زمام القسم الإدارى المعنى ، أن يفرض أى ضرائب على ما قد يورد منها للإسكندرية.

وقد جاء فى ثنايا هذه الفقرات وهى الأعمدة من ٦٠ حتى ٧٣ ، بطريقة عرضية بالطبع ، سرد لأسماء مختلف الأقسام الإدارية بكل من الوجهين القبلى والبحرى ، وقد يتساءل الإنسان عن المغزى من وراء ذكر بعض هذه الأقسام ، مصحوبة بذكر مدن مثل "نقراطيس" (Naucratis) مركز ايتاى البارود ومحلها الآن نقراش - كوم جعيف نبيره (العمود ٦٠) أو ذكر "تل بسطة" بالزقازيق حاليا (العمود ٦٤) وأسباب التنويه بذكر هذه المدن بالذات ، ثم قد يتساءل الإنسان كذلك هل هناك حكمة خاصة فى ذلك الترتيب المرعى فى ذكر تلك الأقسام الإدارية ولماذا جاء ذكر الإقليم الصاوى بالذات على رأس هذه القائمة وهل روعى فى هذا المقام أن يكون السر فى هذا ترتيب وقوعها أى الأقسام من الغرب إلى الشرق ثم من الشمال إلى الجنوب - كل هذا وما يمكن أن نستقيه من معانى خاصة لم تفصح عنه هذه الوثيقة وليس لدينا من البينات ما يمكننا من تفسير ذلك ، وأول ما يسترعى النظر هو ذلك الاختلاف والتباين الواضح بين تلك القائمة وبين القائمة السابقة واللاحقة التى عرضت للأقسام الإدارية فى مصر ، فكل من "هيرودوت" فى كتابه الثانى "واسترابون" الجغرافى تناولا هذا الموضوع وسرد كل منهما أسماء المديريات أو المحافظات (النومات) فجاءت متباينة فى ترتيبها وعددها وهذا ما دعا بعض المؤلفين الحديثين إلى التعرض لهذا الموضوع ودراسته دراسة مقارنة وبيان أوجه الشبه والتناقض بين المؤلفين اليونانيين وذلك فى ضوء ما جاء فى وثيقة التزام جباية الضرائب ونذكر فى هذا الصدد بعض هؤلاء الكتاب الحديثين A.H.M. Jones, Cities of Eastern Roman Provinces, Bell, Egypt in Classical Geographers; Gauthier, Les Nomes... وبالطبع يجب أن نسلم بادئ ذى بدء بأن عدد هذه الأقسام الإدارية لابد أن يتأثر بالزيادة أو بالنقصان على مضى الزمن وتغير ظروف الأحوال السياسية والإدارية والعمرانية ، فيتداخل بعضها مع بعض ثم لا تلبث أن تظهر بعض الظروف الجغرافية أو الإدارية فتحتم الضم أو الفصل لهذا أو ذاك. ولذا ينبغى ألا نعجب أو ندهش لهذا التغيير فى فترات امتدت طوال بضع قرون من منتصف القرن الخامس (هيرودوت) حتى أواخر القرن الأول قبل الميلاد (استرابون) وهى حقبة طويلة إلى حد ما ولكنها حافلة بالأحداث الجسام والتطورات فى النظم السياسية ، وقد شهدت فيها مصر حروبا كثيرة بين

داخلية وخارجية ، كما شهدت ثورات عديدة في صعيد مصر وروحا قومية متأججة وخاصة بعد معركة رفح عام ٢١٧ ق.م فكانت كل هذه الوحدات وغيرها وراء تلك التطورات والعامل الأساسي فيما طرأ من نقص أو زيادة في عدد تلك الأقسام الإدارية ، على أ ن إصلاحات الملوك البطالمة الأولين وما قاموا به من أعمال مجيدة نحو تحسين أحوال البلاد والنهوض باقتصادياتها وسعيهم الحثيث إلى التوسع في رقعة الأرض المنزرعة وخاصة في إقليم الفيوم وفي شرقي وغربي وشمالي الدلتا بوجه عام - لابد أن هذا كله كان من العوامل المساعدة على إضافة المناطق المستصلحة أولا بأول إلى زمام المدن والقرى وضمها للمديريات أو للنومات المجاورة وذلك لإحكام الضبط والربط في مراقبة ما يجرى من إصلاح وبث الطمأنينة في نفوس النازحين إلى هذه الأقطار النائية. ومن المعروف جيدا أن الحكومة البطلمية على عهد "بطلميوس" الثاني (فيلادلفوس) قد عنيت بالشئون الإدارية وسهرت على تنفيذ الأحكام التي كان يصدرها الملك وتعقب المخالفين لتلك للأوامر حتى أصبحت هيبة حكومة "فيلادلفوس" في الذروة طوال حكمه المديد من ٢٨٣ حتى ٢٤٦ ق.م أي نحو ٣٩ عاما ، واشتهر هذا الملك بالذات بما طبقه في مصر من بيروقراطية ، شديدة المركزية حتى ضرب بها المثل في تاريخ البطالمة ، بل وتاريخ مصر في كل العصور فكان الملك يعرف كل ما يجرى في أطراف البلاد وأقطارها النائية وما كان يجول بخواطر الناس وما كان يجرى في خلجات نفوسهم.

تلك بعض اللمحات التمهيدية التي قد تعين القارئ المتصفح لبعض بنود تلك الوثيقة البردية التي تعد من أعظم وثائق البردي في تاريخ مصر على الإطلاق ، حتى يستجلي من أحكامها صورة لما كان عليه الوضع في مصر البطلمية. فهذا التشريع كان متعدد الجوانب وينم عن حكمة وروية اتسم بها حكم هذا الملك وقد هم "فيلادلفوس" بوضعه في السنة الثالثة بعد العشرين من حكمه ٢٦٣ ق.م ثم عدل وصوب في ديوان وزير المالية المسمى "أبوللونيوس" (Apollonios) في العام السابع بعد العشرين ٢٥٩- ٢٥٨ وأعلن بعد ذلك على ملأ من الناس ، فجاء حاويا وشاملا لاتجاهات عديدة أساسها الحصر وتضييق الخناق على الملاك ومطالبتهم بتقديم بيانات تفصيلية عما يملكون من حدائق

وبساتين وما فى حوزتهم من آلات عصر ومعـدات لكـى تربـط الحكومـة عليـهم ملكياتهم وتحصى كل شيء ، فلا مجال لأى تلاعب أو تـهرب ، وقـد تـوالى وفـود النساخين من كل صوب إلى الإسكندرية لنسخ صـورة مـن هـذه الوثيقـة والعمـل بمقتضاها وعثر على تلك الصورة المنشورة فى الفيوم ، فكشفت لنـا هـذا النقـاب عن صفحة مجيدة من تاريخ البطالمة وروحهم العالية فى التقنين والتشريع.

نظام الالتزام باعتباره أحد الركائز الأساسية فى كيان الحكم البطلمى:

إذا صح أن الجيش المرتزق كان ركيزة وعماداً مهما فى تأييد الحكم المقدونى بمصر على عهد البطالمة وأن حكومة شديدة البيروقراطية هـى الركـيزة الثانيـة فـإن الموارد والأموال المتدفقة على خزانة الملك مـن شـتى الضرائـب التـى كـان يجبيـها كانت عصب الحياة والركيزة الثالثة فى هذا الحكـم الأجنبـى. وهكـذا كـان نظـام الحكم البطلمى يقوم على دعامة قوية هى تنمية الوضع الاقتصادى والعمل علـى استغلال موارد البلاد إلى أقصى حد ممكن وبطرق مفضلة وأساليب محسـنة وهـذا تطلب ابتداع نظام جديد مجلوب من بلاد اليونان ومن أثينا بالذات لجمع الأمـوال من الضرائب بطريق الالتزام ، ولكن الملك البطلمى لم يطبق هذا النظـام بحذافـيره كما جلبه بل أدخل عليه الكثير من التحسينات ووضع له العديد مـن الضمانـات التى كفلت له النجاح وحالت دون حدوث أى عبث أو استغلال ، لا من قبل فئة *الموظفين المكلفين بجباية الضرائب ولا من الملتزمين أنفسهم أو حتـى مـن طوائـف الأهالى وعامة الناس الذين كان يقع على كواهلهم عبء دفع الضرائـب وهـو فـى الحق كان عبئا ثقيلا.*

ولما كان نظام الالتزام هذا يمثل شقا مهما فـى حيـاة النـاس ، فقـد حـرص الكتاب والمؤلفون على أن يفردوا له فصولا وصفحات مطولة فى كتبهم وكان مـن السباقين فى هذا المضمار العالمة البلجيكية "كليربريو" (Claire Préaux, Economié royale des Lagides 1939) صفحـات مـن ٤٥٠ حتـى ٤٥٩. ثـم رسـتوفتزف العـالم الروسى المتأمرك فى كتبه ومؤلفاته العديدة ومن أهمها :

M. Rostovtzeff: Social & Economic History of Hell. World (1942 and 1952); Large Estate in Egypt (1922); Geschichte der Staatspacht, Philologus (1902) PP. 340-42.

ولعل من الخير أن نسوق هنا بعض التفاصيل الخاصة بعملية الالتزام فى جباية الضرائب وما كان يكتنفها من صعاب وما استلزمته من أجهزة متشابكة وما تطلبته من رقابة صارمة . وعمادنا الأساسى بالطبع فيما نسوقه من تفصيلات هو تلك البردية التى أصدرها "بطلميوس" الثانى ، على أن الغالبية العظمى من الضرائب كانت تمثل قائمة رهيبة أوردنا بعضا منها فى الصفحات السابقة وكانت تجبى بطريق الالتزام الذى يتحمله نفر من الناس أو أحد الأفراد عن طريق التقدم بعطاء فى مزاد علنى أو التأجير المباشر لمن يأنس فى نفسه الكفاية والمقدرة على الاضطلاع بهذه المهمة الدقيقة من متعهدين أو مقاولين ، فتتعاقد معهم الدولة بعد أن يكون العطاء الذى تقدموا به فى مزاد عام يعقد لهذا الغرض كل عام فى حاضرة كل قسم ، قد رسا عليهم باعتبارهم أصحاب أعلى عطاء ، وبمقتضى هذا العقد الذى أبرمته الدولة معهم كانوا يمنحون حق الإشراف والرقابة على جباية الضرائب فى مناطق وأقاليم معينة ، خصصت لمباشرة نشاطهم على هذا النحو. وكثيرا ما يحدث بعض اللبس أو الخطأ فى الإشارة إلى هؤلاء الملتزمين واعتبارهم جباة ضرائب وهم ليسوا كذلك فإذا ما رسا المزاد على الواحد منهم ووقع على عقد الالتزام ووفى جميع الضمانات المطلوبة ، أطلقت يده ، لا فى جمع الضرائب ، فهذا ليس من عمله ولا من اختصاصه وإنما فى مراقبة ما يجرى فى هذا الشأن ، أما جباية الضرائب وتحصيلها ومراعاة نظمها Tax – farming system = Staatspacht كما يتضمنه هذا الاضطلاع فالشق التنفيذى منه يقع على عاتق جباة خصصوا لهذا العمل وهم موظفون يتناولون مرتبات شهرية: وكانت عين الملتزم tax – farmer = Staatspacht لا تغفل عنهم ، ولعل السبب فى هذا اللبس أو الخطأ أن المقطعين الواردين فى عجز هذا الاصطلاح وهما farming ، farmer لا علاقة لهما بالزراعة وليس هناك أى ترادف لهما بكلمة محصل أو تحصيل وأن المعنى فيه شيء من التحريف والتصحيف أو بالأحرى انطوى على شيء من سوء الفهم فظن البعض –خطأ – أن هؤلاء الملتزمين كانوا يكلفون بجباية ضرائب معينة – وهذا

أمر لم يكن من شأنهم على الإطلاق ولم يكونوا يمارسونه على سبيل اليقين. ولعل الأسلوب الأدق فى عرض هذا الموضوع هو أن نحرص على أن ننوه أولا أنه فى كل عام كان هؤلاء المتعاقدون يحصلون عن طريق الشراء فى مزاد علنى على حق مخول لهم من قبل الملك ضمان تحصيل بضع ضرائب على أن هذا الوصف المقتضب لا يؤدى بدوره إلى الفهم الصحيح لكنه يمثل نظام الالتزام الذى كان يلقى على كاهل أو عاتق كل من قبل عطاؤه ، التزامات معينة هى الوفاء بالمبلغ الذى تعاقد عليه وأنى له بذلك وهو ليس بالجابى أو المحصل؟ ذلك أن المتعاقد على جباية ضريبة ما أصبح ملتزما وليس من شأنه أن يقنع بهذا التعاقد ثم يقف مكتوف اليدين فى صمت وهدوء ، انتظارا لما عساه أن يحدث وما قد تأتى به الأيام من ثمار التحصيل ، بل إنه على العكس من ذلك ، كان يعلم علم اليقين أن كل درهم أو كل دراخمة تحصل من تلك الضريبة ، معناها تخفيض مماثل فى مقدار ما عليه من التزام ، وأنه إذا كان الدخل الإجمالى من الضريبة التى التزم بها يفوق ما قدره وما حسبه من قبل ، يصبح ذلك الفائض (επιγενημα = epigenema) من حقه ويقع فى حوزته باعتباره نصيبا مشروعا له. وعلى ذلك كان من أولى واجباته أن يبذل قصارى جهده فى العمل على زيادة الدخل والإيراد الناجم من هذه الضريبة أو تلك . وسوف نبين فى الصفحات التالية كيف كان تأثير الملتزمين قويا وفعالا فى عملية جباية الضرائب ومدى علاقة هذا الشخص الذى يكنى بالملتزم ونوعية ارتباطاته بالجباة والمحصلين الفعليين ، وخلاصة القول أن المزايا التى كانت الحكومة تهدف إلى تحقيقها من وراء استخدام أمثال هؤلاء الملتزمين وتطبيق نظام الالتزام بصفة عامة ، كثيرة وحققت لها بالفعل فوائد جمة. ولدينا فى هذا الصدد وثيقتان هامتان للغاية أولاهما قوانين "فيلادلفوس" المعروفة بالاسم الآتى: Nomoi Telonikoi ثم بردية باريس رقم ٦٢ من عهد "بطليمموس ابيفانيس" ، وتاريخ بردية باريس هذه عام ٢٠٣- ٢٠٢ ق.م أما الوثيقة الأولى فصدرت كما قلنا فى عام ٢٥٩ - ٢٥٨ ق. م. وكانت مطبقة فى جميع أرجاء مصر وتتألف من ثلاثة أجزاء أساسية فالشق الأول منها يحتوى على قانون عام كان مرعيا فى جباية الضرائب وبيعها ωναι وهو المعروف بقانون الالتزام فى جباية الضرائب προσοπογραφη τελονικος. ويحتوى

على تعليمات عامة فى شأن تنظيم عملية الالـتزام فـى جبايـة الضرائـب لإرسـاء قواعدها بعمل مزاد سنوى بين المتقدمين والراغبين فى هذا العمل ثـم التعـاقد مـع من يرسو عليه المزاد وهو صاحب أكبر عطاء فيصبح من المتعـاقدين والملـتزمين أمـا تنظيم عملية الجباية فى حد ذاتها فقد أفرد لها فى هذا الشق بضـع بنـود حـددت واجبات فئة أخرى من الموظفين الموكلـين بـهذه المهمـة ، ورواتبـهم الشـهرية ومـن يعاونونهم من حراس وكتبة وحفظة للسجلات ومفتشين. ثم يعـرض هـذا القسـم بعد ذلك لعملية دقيقة يجريها المندوب الاقتصادى عن وزيـر الماليـة وهـو الملقـب بالأكينوموس وهو مرابط فى حاضرة كل قسم ، يتلقى تعليماته مـن وزيـر الماليـة مباشرة ويولى أهمية شديدة لهذه العملية وهى تسوية الحسابات شهريا ثم سنويا مع الملتزم وكانت هذه فى الحق عملية رهيبة ودقيقة ، فصلتها لنا بضع بنود وأفـردت لها عنوانا خاصا وهى تسمى (Διαλογισμος) ولابد أن تجـرى هـذه العمليـة فـى مواقيت معلومة ولا يعتد فيها إلا بما تورد فى المصارف من أموال ثابتة ولم يرد فى هذا الشق أى ذكر لضرائب معينة بالذات ، بـل كـان عامـا ، عـرض فيـه المشـرع لقواعد عامة لا تعرف اللبس أو الإبهام.

أما الشق الثـانى فيتنـاول موضوعـا قائمـا بذاتـه وهـو ضريبـة "الابومويـرا" (apomoira) ومعناها الجزء أو النصيب المقتطع ويمثل جزءا يقدر بالسدس أو العشر على ثمار الكروم (ampelon) والبساتين (paradeisos) ، وكان هذا النصيب يذهـب من قبل إلى المعابد المصرية ثم حوله "بطلميوس" الثانى إلى ضريبة تجبيها الحكومة بطريق الالتزام للصرف منها على عبادة الإلهة أخته "أرسـينوى" الثانيـة (Arsinoe II)، وقد رفعت إلى مصاف الآلهة بعد موتها وهى زوجته بعـد طلاقـه مـن زوجتـه الأولى وكانت تسمى ارسينوى كذلك.

أما الشق الثالث من تلك القوانين المالية ، فيتناول تنظيـم جـانب مـهم مـن الحياة المصرية ، وهى تلك الاحتكارات (monopolies) التى كانت تشـرف عليـها الدولة وأهمها الزيوت على مختلف أنواعها والملح والبردى والجعة والنحالة والتوابل والصيد والمرعى.

وقد تراءى للكثيرين من العلماء أن يقرنوا وثيقة البردى هـذه بوثيقـة برديـة أخرى من تاريخ لاحق - تلك هى بردية باريس رقـم ٦٢ التـى تضفـى دراسـتها

بعض الأضواء على نظام الالتزام فى مجموعه وعلى كيفية تطبيقه فى مختلف الأقاليم ، خاصة وأن هذه الوثيقة الأخيرة تشتمل على مجموعة من التعليمات التى أصدرها الملك بطلميوس الخامس الملقب "إبيفانيس" أو المتجلى فى عام ٢٠٣-٣٠٣ ق.م وهى تعرض لجميع الضرائب التى كان يجرى طرحها فى المزاد وإعطاؤها لملتزمين ولكن فى إقليم اكسورنخوس (البهنسا) وحده[١]. ومع ما بين هاتين الوثيقتين من تفاوت فى التاريخ ، إذ بينهما فترة تبلغ نحو ستين عاما ومع أن نطاق كل منهما ليس واحدا ، فإننا متى ألقينا نظرة شاملة عليهما وعلى محتوياتهما ، أمكننا أن نحصل على فكرة واضحة ومقبولة عن مدى تلك الأعباء الملقاة على عاتق أولئك الملتزمين وأن نتبين ما كان لهم من حقوق وما عليهم من واجبات. وكان على مندوب وزير المالية فى زمام كل إقليم أو نوم أن يشرف على توريد النصيب المقرر من إيرادات الضرائب المختلفة لخزانة الملك التى كان يشار إليها عادة ببيت المال الملكى (Το Βασιλικον). وبمقتضى هذه المسئولية كان على هذا الاويكونوموس بذل غاية جهده فى الإشراف التام على جميع أوجه النشاط التى يبديها أولئك الملتزمون وعلى جباة الضرائب أنفسهم فى نطاق قسمه الإدارى، فيراقب حركاتهم وسكناتهم وكان يعاونه فى هذا الإشراف موظف التصق به وكان يرد دائما معه فى سياق الكلام فى هاتين الوثيقتين ، ذلك هو المراجع أو الرقيب وكانت يطلق عليه (antigrapheus) بل كان يعتبر اليد اليمنى له. ثم كان هناك غير هذا وذاك الكاتب الملكى (basilikos-grammateus) ومقره حاضرة القسم وكان يقدم العون الكبير لهذا المدير الاقتصادى ، مع أن واجباته كانت مقصورة فى أول الأمر على العمل الكتابى البحت وتزويد زملائه بما يطلبونه من معلومات من واقع دفاتره وسجلاته . ويبدو من ثنايا وثيقة القوانين الضريبة أن عملية المزاد الفعلى الممهدة لعمل عقود جباية الضرائب فى داخل كل قسم ، كانت تجرى بصفة منتظمة تحت إشراف ذلك المدير الاقتصادى نفسه. على أنه كان من

---

(١) أعاد العالم الألمانى "الريخ فيلكن" (Ulrich Wilcken) نشر هذه الوثيقة فى كتابه عن الوثائق والنصوص Urkunden عام ١٩٢٧ ، جزء أول تحت رقم ١١٢ ، ويشار إليها عادة هكذا U.P.Z.112 ، ولعل تعليمات مشابهة كانت مطبقة إذ ذاك فى أقسام إدارية أخرى.

المسموح به كذلك أن الرقيب أو من يقوم مقامه ، بإذن وترخيص منه أو من قبل المدير الاقتصادى نفسه ، فى وسعه أن يعقد مزادا كتمهيد لعقد التزام يمنح لصاحب أكبر عطاء فى ضريبة من الضرائب وفى بردية باريس رقم ٦٢ ورد ذكر المدير الاقتصادى على أنه كان بمثابة "الدلال" فى أعمال المزادات وأنه كان المنظم الحقيقى للمزاد والمسئول الأول عن كل ما يجرى بشأنه وخاصة عن عمل عقود الالتزام ، على أنه كان يصحبه باستمرار فى أداء هذه المهمه الكاتب الملكى. وهذا دليل على أن عمل هذين الموظفين المشترك وتعاونهما الوثيق كان مطلوبا للغاية. ومع أن المدير الاقتصادى كان يرد ذكره دائما قبل الكاتب الملكى فى الترتيب الوظيفى ، فليس هناك أى دليل آخر على جدارته وكفايته بدرجة تسمو فى المنزلة على زميله ، وعلى العموم يمكننا أن نستنبط بحق أن مهمة الكاتب الملكى كانت مقصورة على تدوين ما استقر عليه الوضع من منح عقود الالتزام لضريبة ما ، بحيث يصبح هذا هو عمله الأساسى ، بينما كان تنظيم المزاد نفسه وتوجيه الأعمال فيه من اختصاص المدير الاقتصادى ومن شأنه وحده.

وتقضى القوانين المالية بأنه كان من المتعين على الأشخاص الراغبين فى أن يصبحوا أصحاب الالتزام الأصليين ، أن يسارعوا بتسجيل أسمائهم لدى الموظف المشرف على إجراء المزاد أو القائم بعمل الدلال فيه ، وذلك كيما يقرر قبل فتح باب المزاد مدى أهليتهم وكفايتهم للمشاركة فى أعمال المزاد والانضواء فى إجراءاته أو الدخول فى معركة التزايد . ومن بين من لم تكن تتوافر فيهم الصلاحية للاشتراك فى تلك المزادات ، بل حرم عليهم ذلك ، جموع الموظفين ممن انضووا فى سلك الحكومة. وهذا دليل قاطع على أن "فيلادلفوس" كان حريصا لأقصى حد بألا يكون لأحد من موظفيه أقل مصلحة شخصية أو مالية فى عمل العقود الخاصة بالالتزام وهذه تعتبر لفتة كريمة ومفخرة وتسجل له بالشكر وتدل على معرفته الوثيقة بشئون الحكم السليم ومقتضياته. على أن وقوف أمثال هؤلاء الموظفين هذا الموقف المحايد دون أن يكون لأحد منهم صالح

شخصى فى جباية الضرائب ، كان أمرا ضروريا ولازما لضمان حماية دافعى الضرائب من أى استغلال للنفوذ أو الابتزاز للأموال[1].

وكان الشق الأول من تلك القوانين المالية ، وهو المتعلق بموضوع التزام الضرائب بوجه عام بنص على أن المحصلين الفعليين لتلك الضرائب هم من أطلق عليهم الجباة أو المحاسبون (logeutae). ولهم أعوان كثيرون (hyperitae) وهؤلاء يتناولون رواتب شهرية منصوص عليها وهي على التوالى ثلاثون دراخمة بالنسبة للأول وعشرون للثانى شهريا. وهناك غير هؤلاء ممن كانت لهم صلة وثيقة بأعمال التحصيل والجباية. وبعض هؤلاء كان مكلفا بالحفاظ على المستندات والسجلات ويسمون (symbolophylakes) وراتب الواحد منهم خمسة عشر دراخمات شهريا. ونظرا لعدم وجود أى معلومات واضحة وصريحة عن طبيعة عمل هؤلاء ، فإننا مضطرون إلى أن نلجأ إلى أعمال الحدس والتخمين لنتعرف على كنة وظيفتهم. ولسوف نرى أن الملتزم هو الذى كان يقرر المقدار المستحق على دافع الضريبة ولعل أحد الحفاظ على العقود والمستندات هو الذى يتحفظ بين مستنداته على صورة من الاتفاق المبرم لتحديد القدر المستحق دفعه من أصل المطلوب ، ولعل كذلك حفظة العقود هم المسئولون بدورهم عن الإيصالات المعدة لدى المحصلين ، يقدمونها لأصحابها فى نظير ما يدفع أو يسلم لهم أو أنهم كانوا الأمناء على الإيصالات المزمع تسليمها لدافعى الضرائب متى قاموا بتسديد الأقساط المستحقة عليهم.

وفضلا عن ذلك فهناك مفتش واحد لكل ضريبة (ephodos) كان يتناول راتبا شهريا يقدر بمائة دراخمة ومهمته الإشراف على عملية تحصيل كل ضريبة. على أن القوانين المالية نفسها لم يرد بها أى ذكر لنوع المهام الملقاة على عاتق

---

(١) إن الموضوع الخاص بتأليف هيئات وشركات من المتعاقدين والملتزمين برئاسة واحد منهم وهو الملقب بالمفوض αρχωνης ثم إلزامهم بتسجيل أسمائهم لدى المدير الاقتصادى للتأكد مسبقا من أهليتهم وجدارتهم للاضطلاع بأعمال الالتزام على الوجه الأكمل ، ثم توقيع العقوبات على أى من المخالفين لنصوص هذا القانون - كل هذا يستأهل دراسة خاصة كيما نحيط بالموضوع من جميع جوانبه.

هؤلاء المفتشين ، وعلى ذلك آثرنا الاعتماد على المعنى الذى توحى به ألقابهم والبينات التى تسوقها مختلف أوراق البردى فيما يختص بواجباتهم ، وفى الجزء الأول من مجموعة بردى "تبتونس" ٥٥٠ إشارة عابرة إلى الموضوع الخاص بأولئك المفتشين وإلى عدم وجود أدلة قاطعة بشأن تحديد الأعباء الملقاة على عاتقهم. وإن ورود ذكرهم دائما مصحوبين بحراس ليدل فى حد ذاته على أن عملهم كان متعلقا بالإشراف على جباية الضرائب من ناحية وبمراقبة الملتزمين فى الوقت نفسه وأنه كانت لهم فوق ذلك واجبات مالية أخرى.

وكان مدير الشئون الاقتصادية فى دائرة قسمه هو الذى يحدد عدد الجباة ومساعديهم وأمناء السجلات والمستندات مما يتناسب مع حجم كل ضريبة ، ويشاركه فى هذا التقدير الرقيب والملتزم . وإذا نظرنا إلى بعض بنود هذه اللوائح المالية وبخاصة العمود الثانى عشر سطر ١٣ وما جاء بشأن تسوية الرواتب المخصصة للقائمين بتحصيل هذه الضرائب وضرورة صرفها لأصحابها من حصيلة الإيرادات الناجمة من كل ضريبة على حدة ، تبين لنا بطريقة لا تحتمل الخطأ ولا محل معها لأية مظنة أن جباة الضرائب قبل هؤلاء كانوا يعملون فى خدمة الدولة ، وليسوا بيقين من قبل صاحب عقد الالتزام . وإذا قيل إن رواتبهم كانت تدفع من قبل صاحب الالتزام ، فليس هناك فى هذه الحالة إى احتمال على الإطلاق بأن يكون "لفيلادلفوس" أى شأن بذكر المورد الذى تدفع منه هذه الرواتب. ومن الجانب الآخر فإنه كان من الطبيعى أن يصر "فيلادلفوس" على النص بأن كل ضريبة تتحمل مصاريف جبايتها ما دامت رواتب المحصلين تدفع من قبل الحكومة. ولدينا دليل آخر فيما تسوقه لنا وثيقة بردية من مجموعة "ميتشيجان" رقم ١٠٠ وتاريخها ٢٥٧ ق.م. وفيها ما يشير إلى أن الدولة كانت هى التى تستخدم جباة الضرائب وتدفع لهم رواتبهم. وقد جاء فى هذه الوثيقة أن شخصا يدعى "زويلوس" (Zoilos) كان يعمل محصلا وجابيا (logeutes). لضريبة معروفة كانت مخصصة للصرف على سفن الأسطول البطلمى وتسمى (Τριηραρχημα) ، وكان هذا الشخص يعمل فى خدمة موظف يسمى "كاليكراتيس" (Kallikrates) وهو ما نعرفه فى أغلب الظن بأنه كان أميرال الأسطول البطلمى على عهد "فيلادلفوس" ، فلدينا به معرفة من مصادر أخرى من بينها بردى أرشيف زينون

بالذات حيث جاءت إشارات عديدة إليه. ومما لا ريب فيه أن "زويلوس" عندما كان يعمل فى خدمة "كاليكراتيس" كان بهذا الوصف يشغل وظيفة رسمية وأنه كان فى أغلب الظن موظفا فى الحكومة ، وعلى ذلك فقيامه بجباية ضريبة الأسطول هذه له دلالته.

وبعد خصم رواتب الجباة كان أى فائض تحققه ضريبة ما ، ويزيد على الرقم المتعاقد عليه ، يدفع لصاحب الالتزام وشركائه. وتسوية الحسابات وتوزيع الفائض كان من الأمور التى عرضت لها القوانين الضريبية وبردية باريس ، فنظمتها بدقة وعناية فائقة ، وبعد معرفة العدد اللازم من الجباة لتحصيل ضريبة ما وتحديد المبالغ التى يستحق دفعها لكل واحد من هؤلاء الجباة ، يستطيع الملتزم فى يسر وسهولة أن يحسب مقدار ما سوف يستنزل من المبالغ التى يجبيها المحصلون. وعند تقرير عدد المحصلين المخصصين لجباية ضريبة ما ، كان الملتزم وهو يقرر ذلك بالاشتراك مع مدير الشئون الاقتصادية ، يراعى كل الظروف والملابسات المحيطة ، فلا ينبغى أن يكون العدد كبيرا من غير مقتضى حتى لا يستغرق أو يستنفذ مبالغ طائلة ، فتقلل من الكسب الناجم له من الفائض ، ولا يكون قليلا، فتضيع عليه مصالحه لقلة عدد المحصلين ، خوفا من كثرة العدد. وعلى مدار السنة كان موظفو الحكومة وأصحاب الالتزام ، متى تسرب الشك إلى قلوبهم فى أمر من الأمور المتعلقة بجباية الضرائب ، تعمد بين حين وآخر إلى الرجوع إلى السجل المودع فى ديوان الجباية أو الأموال المقررة والخاص بالمكلفين بجباية مختلف الضرائب ، وإنه لمن سوء الحظ أن القوانين المالية لم تذكر لنا صراحة المصدر الذى كانت تدفع منه رواتب أولئك المحصلين ، وإن ذكرت أرقام رواتبهم الشهرية ، ولكن لعل لنا بعض الحق فيما نظنه من أن مدير الشئون الاقتصادية أو الرقيب هو الذى كان يقوم بذلك[1].

ومع أن الملتزم لم يكن له شأن بتعيين المحصلين ، إلا أنه كان له الحق فى الإشراف والرقابة الدقيقة على كل ما كانوا يقومون به من نشاط ، وكان يعاون الملتزم فى ذلك رقيب يطابق ويقابل سميه الرقيب المماثل الذى كان بمثابة اليد

---

(١) القوانين الضريبية لفيلادلفوس ، العمود الثالث ، الأسطر ١-٣.

اليمنى لمدير الشئون الاقتصادية. وجباة الضرائب كانوا مكلفين بإبلاغ الرقيب الذى يعمل من طرف الملتزم عن كل المبالغ التى تسلموها ، وإذا قصروا فى ذلك بطريق الإهمال ، كانوا يعرضون أنفسهم لمسئولية تحتم عليهم دفع غرامة لخزانة الدولة ، تساوى مقدار ما حصلوه خمسين مرة[1]. ولما كانت هذه الفقرة من التعليمات (العمود ١٠ سطر ١١ حتى العمود ١١ سطر ٣) يقصد بها حماية مصالح الملتزم ، فهناك قاعدة أخرى مساوية فى شدتها وصرامتها وتنص على عقوبة مماثلة تماما لتلك ، وبمقتضاها أن على الرقيب المعين من طرف الملتزم أن يبلغ بدوره مدير الشئون الاقتصادية أو الرقيب التابع له عن كل المبالغ التى ترامى إلى سمعه وعلمه بأمر جمعها - وفى هذا ضمان للحكومة بأن تكون دائما على علم تام بما ورد لها من إيرادات (العمود ١١ الأسطر من ٤- ٧).

ومما لا ريب فيه أن الرقيبين اللذين كان أحدهما يعمل من طرف الملتزم والآخر تابع لمدير الشئون الاقتصادية - كانا يبذلان قصارى ما لديهما من جهد فى سبيل التحقق من صحة البلاغات التى قد تصل إلى سمعيهما أو ترفع لهما وبذلك كانا يجمعان فى شخصيتهما بين عمل المسجلين والمفتشين. على أن الملتزم لم يكن فى الوقت نفسه يكتفى بالركون إلى الرقيب التابع له ويعتمد عليه كلية فيما يصله من معلومات وأخبار عن مدى السير والتقدم فى جباية الضرائب ، وإنما كان هذا الملتزم ومعه شركاؤه يرون من واجبهم مراقبة المحصلين والجباة وتتبع خطواتهم وفحص الدخل الوارد أولا بأول من الضريبة التى تخصهم وبذلك يطمئنون إلى أن جميع المبالغ المحصلة قد أضيفت لحسابهم على نحو سليم وأن الرقيب المعين من قبلهم لم يتواطأ مع أى من جباة الضرائب أو يعمد إلى الاختلاس والتدليس وأن جميع التقارير الواردة من الجباة قد وصلت إلى هذا الرقيب. وفضلا عن ذلك فمن المحتمل جدا أن الملتزم كان فى الظروف العادية يقيم الضرائب ويقدرها فى المراحل الأولى كيما يعرف سلفا مبلغ ما يحتمل أن تصل إليه المتحصلات فى مجموعها . ولما كانت القوانين الضريبية تصف بإسهاب عملية التقدير والتقييم فيما يختص بضريبة "الابومويرا" ، فليس ببعيد أن يجول

---

(١) πεντηκοντακλουν ، العمود ١١ ، سطر ٣.

بخاطر الإنسان أن عملية مماثلة كان يجرى تطبيقها على غيرها من الضرائب الأخرى ، وذلك على الرغم من أن الشق الأول من القوانين الضريبية وهو ذو طابع عام كما نوهنا ، لم ترد به أية إشارة إلى وجود عملية مماثلة كعملية التقييم والتقدير الخاصة بضريبة الأبومويرا وهناك فقرة من هذا الشق الأول تفيد أن الملتزمين كانوا فى مركز يسمح لهم بمنح إعفاءات وتنازلات وعمل تيسيرات فى تحصيل الضرائب ، وهذا الترخيص المخول لهم دليل على أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة جهة الاختصاص العادية فى تقييم الضرائب وتقديرها.

والآن يجدر بنا أن نعرض للشق الثانى من القوانين الضريبية وهو شق له أهميته البالغة ، إذ يتناول ضريبة مشهورة هى "الأبومويرا" بصفة خاصة ، تمييزا لها عن غيرها من الضرائب الأخرى . وقد جاء فى هذا الشق تفصيلات مسهبة عن الأسلوب الذى كان مرعيا فى تقييم هذه الضريبة وشئون جبايتها ويزودنا بصورة أكثر وضوحا وإشراقا ، عن مبلغ ما كان يبذله الملتزم من نشاط وحرص شديدين. وكانت تلك الضريبة التى تبلغ السدس أو العشر من ثمار وحصيلة الكروم والبساتين وحدائق الفاكهة ، من المسائل التى خصها "فيلادلفوس" بعناية خاصة لارتباطها بعبادة "أرسينوى" أخته وزوجته التى رفعت إلى مصاف الآلهة والإلهات بعد وفاتها (٢٧٠ ق.م) وقد ذكر "جرنفل" (Grenfell). فيما دبجه من تعليق على البنود الواردة فى القوانين الضريبية (ص٩٤-٩٦) أنه فى الإمكان التمييز بحق بين الكروم (αμπελωνες) وبين البساتين وحدائق الفردوس (παραδεισοι) ونوه بأن ما ذكره "ماهافى" (Mahaffy) فى المقدمة التى صدر بها هذه الوثيقة (p. xxxii – xxxiv) لا يطابق الحقيقة فليست الكروم هى الثمار الوحيدة التى تنتجها تلك البساتين وإنما ينصرف معنى البساتين هنا إلى حدائق الفاكهة بوجه عام ، دون أن يقتصر ذلك على نوع معين بالذات من الثمار. وهناك تعديل وتغيير ما لبث أن طرأ على تلك الضريبة التى أصبحت تجبى على نوع معين من الكروم بصورة مخفضة ، فهبطت إلى العشر بدلا من السدس ، ابتداء من السنة السابعة بعد العشرين من حكم "فيلادلفوس" ، ومن الغريب أن الكروم التى حظيت بهذا التخفيض الهائل هى التى كان يقوم بغرسها فئة معينة من الناس هم الجنود المستوطنون الحائزون لأنصبة من الأراضى ثم الكروم التى كانت تزرع فى

الإقليم الطيبى وتتطلب نظاما خاصا فى الرى (العمود ٣٤ الأسطر من ٤ حتى ١٠).
وهذا التخفيض له مغزاه ، إذ يدل على أن "فيلادلفوس" كان شغوفا وحريصا كل الحرص على تشجيع زراعة الكروم بوجه عام ، كما يدل فى الوقت نفسه على رغبة أكيدة من الحكومة البطلمية فى منح امتيازات خاصة لفئة الجند . ومما يسترعى النظر أنه ليس هناك أى ذكر لتخفيض مماثل جرى بالنسبة للبساتين وحدائق الفاكهة. ولعل السر فى ذلك أن التعليمات الخاصة بالبساتين جاءت فقراتها غير وافية إذا ما قورنت بنظيراتها الخاصة بالكروم. ومما لا شك فيه أن فيلادلفوس كان حريصا وشغوفا لأقصى حد بتشجيع زراعة أشجار الفاكهة مثلما كان يفعل بالنسبة للكروم. ووثائق بردى "زينون" خير شاهد على ذلك ، ففيها أكثر من إشارة إلى التعليمات الصادرة عن هذا الملك إلى كبير وزرائه "أبوللونيوس" بأن يجلب ويستورد مختلف أشجار الفاكهة التى تعد بالآلاف ويوالى غرسها فى نطاق فيلادلفيا بالإقليم الارسينويتى (الفيوم). وقد كان من الصعب إغراء أولئك المستوطنين من الجند اليونان ومن كانوا على شاكلتهم حتى يقبلوا على زراعة أشجار الفاكهة والرياحين وغرس البساتين بالزهور فى كل مكان ، مثلما كانوا يفعلون فى إقبال وتهافت شديدين على زراعة الكروم ، وهم أخبر الناس بقواعد غرسها وتقليمها والمحافظة عليها ، من غير أن يقدم لهم الملك بعض التيسيرات والتسهيلات التى تشجعهم على فعل ذلك . ومما كان يشفع لهم فى ذلك أن أشجار الفاكهة تتطلب وقتا أطول وجهدا أكثر ، ومن هنا نشأت الحاجة إلى التعويض عن هذا الجهد المضنى.

وضريبة "الأبومويرا" على الكروم كانت فى العادة تحصل عينا أى نبيذا ، ومع ذلك ففى بعض الظروف الخاصة قد يسمح بتحصيلها نقدا ، أما البساتين فكانت تحصل ضريبة "الأبومويرا" عنها نقدا. والتفرقة بين الحالين ترجع إلى أن الفاكهة قابلة للتلف بينما النبيذ يطول عمره وفى التحفظ عليه ما يزيده حسنا وتعتيقا. ولعل التعليمات التى شاهدناها وهى تطبق فى تنظيم جباية ضريبة "الأبومويرا" كانت مطبقة كذلك على ضرائب أخرى عديدة ، مع بعض التغييرات الطفيفة. وعلى ذلك يتطلب الأمر منا دراسة دقيقة للتعرف على أوجه الشبه والاختلاف بين الحالين. وقد ذكر لنا العالم الروسى "روستوفتزف" ، فى كتابه عن

الضيعة الكبرى فى مصر (A Large Estate in Egypt) ص٩٩-١٠٠ ، بيانا ببعض هذه الضرائب التى كانت تتكبدها الكروم ونذكر منها ضريبة (χωματικον)= أى المحافظة على السدود وضريبة الخفر والحراسة (φυλακιτικον) ثم ضريبة عقارية خاصة بالأرض تسمى (απαρουριον). وضريبة أخرى تمثل الثلث محسوبة على مدى ثلاث سنوات (τριτηαμπελωνον) ، وقد أفاض "روستوفتزف" فى كلامه عن الكروم والبساتين وحدائق الخضراوات ، وبين كيف كانت الحكومة البطلمية تشجع على النهوض بتلك الزراعات وعلى جلب أحسن البذور من بلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل وآسيا الصغرى. ومن ذلك الكرومب (الحلو) والثوم والبنجر وأشجار الفاكهة على مختلف أنوعها. وقد استقى "روستوفتزف" معلوماته من مجموعات البردى المختلفة ، ومنها بصفة خاصة المجموعة الإيطالية التى يشار إليها عادة بهذا الرمز (P.S.I.) ثم أرشيف "زينون" فزودنا بحصيلة من المعلومات الطريفة عن الجهود التى بذلتها الحكومة وأفراد اليونان من الشخصيات البارزة من أمثال "أبوللونيوس" "وزينون" فى تحسين البذور وانتقائها والاعتماد على الكتب المتداولة عن النباتات مثل كتاب "ثيوفراستوس" عن تاريخ النباتات (Theophrastus, Historia Plantarum) ، والأوصاف التى جاءت فى كتاب "أثينايوس" عن موائد الحكماء (Athenaeus, Deipnosophistae) ، ولعل الظاهرة الغريبة فى شأن جباية ضريبة "الأبومويرا" أن الجهاز المعتاد فى تحصيل الضرائب الأخرى ويتألف كما رأينا من رهط من الموظفين والمعاونين والحراس والمفتشين ، لانجد له أثرا هنا ، فلماذا اختفى كل هذا ؟ ولماذا أصبحت المسئولية برمتها محصورة بين أطراف ثلاثة هى ١- الملتزم ٢- مدير الشئون الاقتصادية ٣- صاحب الكروم والبستانى؟. وكان الملتزم بالاشتراك مع صاحب الكروم هو فى العادة الذى يقيم هذه الضريبة أو تلك. أما مدير الشئون الاقتصادية فكان عادة هو الذى يتسلم المدفوعات سواء أكانت نقدا أم عينا. وفى حالة الوفاء بالمطلوب عينا كان عبء النقل لهذا النبيذ وتوريده لمخازن الحكومة ومستودعاتها يقع على كاهل صاحب الكروم. وإنه لمن سوء الحظ أن الفقرات والبنود التى تناولت تنظيم عملية تقييم ضريبة "الأبومويرا" وتحصيلها لم ترد مرتبة الواحدة منها تلو الأخرى ، ولم يراع فيها أى تنسيق أو تتابع منطقى ، وإنما جاء البيان المقتضب عن جباية تلك

الضريبة المقررة على البساتين والحدائق متمما ومتداخلا فى شق متعلق بالتعليمات التفصيلية الخاصة بضريبة "الأبومويرا" المقرر جبايتها على الكروم ، وكأنما كانت ضريبة "الأبومويرا" على الكروم هى الأساس، بينما الأخرى المقررة على الفاكهة والبساتين عارضة ودخيلة. ومعنى هذا بالطبع أن الأهمية الكبرى انصبت على الضريبة المقررة على الكروم ، بينما كانت نظيرتها المقررة على البساتين وحدائق الفاكهة تجئ فى المقام الثانى. وفضلا عن ذلك فإن البيان الخاص بالطريقة المألوفة فى تقييم وجباية ضريبة "الأبومويرا" على الكروم أرجئ إلى حين حتى يقدم بيان بما يقتضى عمله ومايتخذ من أساليب بديلة عند عدم مراعاة أى من الملتزم أو الفاكهى فى تنفيذ الإجراءات المقررة واتباع أصولها. ونحن إذ نتناول الفقرات والبنود الخاصة بالإشراف على تقييم وجباية ضريبة "الأبومويرا" لابد أن نأخذ فى الاعتبار ذلك الطابع الخاص الذى وردت به تلك الفقرات.

ومن ذلك مثلا أنه فى الوقت الملائم عندما يحل موسم جنى الكروم ، يتقدم زراع الكروم بإبلاغ الملتزم بحلول موعد جباية الضريبة ودعوته إلى تفقد مالديهم من كروم. وفضلا عن ذلك فعندما يشرع أصحاب الكروم فى عصر كرومهم فإن الأمر كان يستدعى ليس فقط حضور الملتزم وإنما كان يتطلب كذلك حضور مدير الشئون الاقتصادية والرقيب التابع له أو المندوبين عنهما. وإذ ذاك كان صاحب الكروم يتلقى التعليمات الخاصة بكيل ماتم عصره من نبيذ ثم تعبئته فى أوعية أو جرات (زلع) يجرى اختبارها وختمها بواسطة مدير الشئون الاقتصادية والرقيب ثم عندئذ ، كان يتعين على صاحب الكروم أن يدفع ما يستحق عليه من ضريبة الكروم طبقا لما يسفر عنه هذا الكيل. وفى حالة عدم مراعاة أى من هذه التعليمات وجب أن يتحمل صاحب الكروم مغبة تصرفه هذا فيدفع مقدار الضريبة مضاعفا إلى الملتزم بوصفه صاحب العقد المختص.

ومن قبيل الاحتياط كان لابد من فحص جميع معاصر الزيوت والكروم والموافقة على مواصفاتها ثم وضع الأختام عليها بواسطة الملتزم. ويجرى هذا بالطبع فى وقت مبكر وسابق على موعد جنى الكروم. وعندما يقوم أصحاب الكروم بإخطار الملتزم بما عقدوا العزم عليه من الشروع فى عصر كرومهم وعمل النبيذ فإنه كان لزاما عليهم أن يرشدوا عما يوجد لديهم من معاصر ويكشفوا له عنها

كيما يقوم بدوره بفحصها ويتأكد من صلاحيتها وسلامتها ، فإذا ثبت له أن المعاصر قد فضت أختامها أو عبث بها حق له فى الحال أن يرتاب فى الأمر ، فإما أن صاحب الكروم استخدمها فى عصر مقدار من النبيذ الخاص به خفية وبطرق غير مشروعة ، وإما أنه قد أخفى جزءا من المحصول الناجم من كرمه أو باع هذا الجزء قبل أوان نضجه بقصد تجنب الوفاء بما عليه من التزامات ودفع المستحق من ضريبة "الأبومويرا" أو غيرها من الضرائب الأخرى على هذا الكرم أو ذاك. وكان القانون يقضى فوق ذلك بأنه على أى مزارع يمتلك معصرة وقصر فى تدوين اسمه فى السجل الخاص بأصحاب المعاصر ولم يكشف عنها لفحصها ووضع الأختام عليها عندما يطلب إليه الملتزم ذلك أو رفض الكشف عن الأختام عند طلب ذلك أصبح من الضرورى على كل واحد من هؤلاء أن يدفع للملتزم التعويض عما يقدره من خسارة أيا كانت بسبب مانجم عن إهماله أو عدم إطاعته وامتثاله للأوامر. وكان من شأن هذا الإجراء أن جعل من الصعوبة بمكان على صاحب الكروم أن يعصر النبيذ من غير علم الملتزم. على أن الطريقة التعسفية فى فرض العقوبة التى يقررها الملتزم عند وقوع مخالفة للتعليمات كانت بمثابة الرادع القوى لحث الناس على الامتثال لما تقضى به اللوائح ، وبخاصة أن أصحاب الكروم كانوا يعرفون جيدا أن الحكومة لابد أن تقدم العون للملتزم وتشد من أزره عندما يعمد إلى تحصيل أقصى عقوبة من أولئك الذين قاموا بعصر النبيذ خلسة بقصد التهرب من دفع ماعليهم من ضرائب أو السعى إلى تخفيض البعض منها.

وعلى سبيل توفير الضمان الكامل ومراعاة صالح الملتزم والدولة معا ، كان على صاحب الكروم أن يعلن بعد أخذ القسم الملكى على نفسه وحلفه اليمين أنه قد قدم المحصول الناجم من مزارع كرومه برمته ، وأنه قد أبلغ عن جميع النبيذ الذى عصره بالكامل قبل الأوان ، وأنه قد قام بإخلاص بتسليم المقدار المقرر من ضريبة "الأبومويرا" المنصوص عليها فى الاتفاق المبرم مع الملتزم وهو الاتفاق المودع لدى مدير الشئون الاقتصادية ، وكان على الملتزم بدوره أن يقرر بعد أخذ القسم الملكى على نفسه أنه قد دون فى سجلاته المقدار الإجمالى لما قدمه صاحب الكروم من إنتاج ، وأنه لم يختلس شيئا منه أو يفريط فى أى جزء

منه بتركه للغير للعبث به. أما الوثيقة الأصلية من هذا الاعتراف فكان يتعين تسليمها بواسطة الملتزم إلى مدير الشئون الاقتصادية على أن تحفظ صورة منها لدى صاحب الكروم.

والقول بأنه على صاحب الكروم أن يعلن عما تم عصره من نبيذ قبل الأوان ليس معناه الاشتباه فى وجود أى تصرف سئ من قبله ، وإنما هو دليل على أن بعض هؤلاء خشوا أن تلحق بهم خسارة بعد تمام نضج كرومهم ، ولما لم يحضر أصحاب الشأن وجميع الأطراف المعنية ، فإنهم كانوا يضطرون بين الحين والآخر إلى عصر بعض النبيذ دون الانتظار حتى يحضر الملتزم وبرفقته مدير الشئون الاقتصادية كيما يتفقدا سير العملية ويتأكدا من سلامتها. وقد يكون السبب فى التأخير مرجعه إلى تقصير من جانب مدير الشئون الاقتصادية فى إقرار عقد الضريبة إلى مابعد إتمام عملية قطف العنب. وفضلا عن ذلك فالقوانين الضريبية نصت على أنه فى حالة ما إذا عجز الملتزم عن تقييم ضريبة "الأبومويرا" فى الوقت الذى يطلب إليه صاحب الكروم عمل ذلك ، وجب على مدير الشئون الاقتصادية وبصحبته الرقيب أن يقوما بتقييم الضريبة وأن ينقلا القدر المطلوب من النبيذ إلى المستودعات الملكية ، وأن يدونا مقدارها بحسب استلامها وألا يدخلاها فى حساب الملتزم المختص. وعلى هذا النحو كان صاحب الكروم يتسلم فى الحال مايفيد الاعتماد والتصديق على ماجرى من حسابه سدادا لقيمة ضريبة "الأبومويرا" المستحقة عليه ، ويقوم مدير الشئون الاقتصادية والرقيب التابع له بإعطائه المستند الدال على ذلك. أما الملتزم فكان جزاؤه وعقابه على إهماله ، سواء أكان هذا التراخى والإهمال متعمدا أم غير متعمد ، بألا يضاف لحسابه أى شئ من النبيذ الذى تم الاستيلاء عليه من صاحب الكروم على النحو السالف الذكر. ولما كان ضياع كثير من حسابات الائتمان وعملياته على هذا الأسلوب من شأنه أن يسفر عن عجز الملتزم عن الوفاء بما تعاقد عليه ، فإنه كان لزاما عليه أن يحضر على الفور ودون إبطاء عندما يطلب إليه صاحب الكروم أن يوافيه بالحضور فى المواعيد المحددة لتقييم ضريبة "الأبومويرا". وعلى العموم فإننا على يقين من أن الملتزم كان يسارع إلى تلبية نداء صاحب الكروم وأن كليهما سرعان مايصلان إلى اتفاق بشأن القدر المطلوب للوفاء بضريبة "الأبومويرا" ، وفى حالة وجود أى

خلاف فإن مدير الشئون الاقتصادية كان يدعى لفض الخلاف فى ضوء الملابسات والظروف الجوهرية المحيطة ، ويصبح قراره نهائيا وحاسما فى هذه الدعوى.

وجرت العادة أنه بعد قيام الملتزم بتقييم ضريبة "الأبومويرا" ، تصدر التعليمات إلى أصحاب الكروم كيما يقوموا بنقل القدر المطلوب من النبيذ للمستودعات الملكية ، وكان على مدير الشئون الاقتصادية أن يقوم من جانبه بإعداد مثل هذه المستودعات فى كل قرية. وكان أصحاب الكروم مكلفين بتعبئة نبيذهم فى أوعية وجرات محكمة الغلق والصمامات ، بعد فحصها فحصا جيدا للتأكد من أنها مطابقة للمواصفات ، ولم تكن هذه الأوعية الفخارية لتستخدم فى نقل النبيذ فحسب ، وإنما لحفظه فيها بعد تعبئته طالما هو موجود فى تلك المستودعات الملكية ، ولذلك كان لابد أن تكون هذه الأوعية من أجود الأصناف التى كان يعبأ بها هذا الفخار ، فكانت عادة تعطى هذه لأصحاب الكروم المكلفين بقطفها قبل بضعة أيام وذلك مناولة مدير الشئون الاقتصادية والرقيب التابع له ، وكلاهما كانا يتسلمان هذه المبالغ محولة إليهما من وزير المالية عن طريق المصرف، وإذا حدث لسبب ما أن صاحب الكروم لم يتسلم شيئا من هذه المبالغ قبل عصر نبيذه فإنه كان يتعين عليه أن يزود نفسه بالأوانى الفخارية اللازمة على نفقته الخاصة ثم يخصم هذا المبلغ الذى أنفقه من مقدار الضريبة المقررة عليه ويضمه لحسابه. وعند تسليم النبيذ للمستودعات الملكية كان مدير الشئون الاقتصادية يعطى إيصالات لأصحاب الكروم. وكان لدى مدير الشئون الاقتصادية التعليمات التى تقضى بفحص النبيذ الذى تم توريده ثم عليه أن يقوم بالاشتراك مع الرقيب والملتزم بالتصرف فيه بالبيع ، ويستولى مدير الشئون الاقتصادية على المبالغ التى يدفعها المشترون ويدونها فى سجلاته وحساباته لصالح الملتزم. ولما كان الملتزم على علم تام بمقدار ماتم تسليمه من النبيذ للمستودعات الملكية وماتم التصرف فيه بالبيع وقيمة الثمن الذى جرى قبضه ، فإنه كاد أن يكون من المستحيل على مدير الشئون الاقتصادية أن يحيد عن جادة الصواب فيثبت مبلغا أقل مما هو مطابق للحقيقة.

وإذا صادف أن صاحب الكروم لم يكن فى وسعه الوفاء بتسديد المطلوب من النبيذ عينا ، وعجز عن تسليم مافى زمته وفاءا لضريبة "الأبومويرا " لدى

المستودع الملكى ، أصبح من المحتم عليه أن يدفع الضريبة المستحقة عليه نقدا ، وقد راعت القوانين الضريبية احتمال وقوع مثل هذه الظروف فحددت مقاييس معلومة ومعايير للمقابلة بين قيم النبيذ وأصنافه ورتبه المختلفة فى الأقسام الإدارية بمصر بين مايساويها نقدا مما يدفع عوضا عن هذا النبيذ. ولدينا فى وثيقة الأحكام والأوامر الإمبراطورية (Apokrimata) التى أصدرها الإمبراطور الرومانى "سبتميوس سيفيروس" فى الإسكندرية وقت زيارة لها فى عام ٢٠٠م إشارة إلى الرغبة الأصيلة فى التحايل فى الدفع نقدا بدلا من السلع العينية ، وكان نظام المبادلة هذا معروفا بكلمة (adaeratio) فلما تقدم نفر من المسائلين إلى ذلك الإمبراطور يستفسرون منه عن جواز الدفع بدلا من القمح المطلوب إليهم توريده وسداد ثمنه نقدا ، فأفتى الإمبراطور بصورة قاطعة بعدم جواز ذلك على الإطلاق ، وجاءت عبارته فى الأسطر من ٤١ حتى ٤٤ من وثيقة بردية فى مجموعة كولومبيا رقم ١٢٣ هكذا.

αργυριον αντι πυρου καταβαλλιν υμας εκωλυσαμεν

= قد رفضنا أن تدفعوا ما عليكم نقدا بدلا من القمح وهذه حالة شبيهه من تلك مع الفارق العكسى طبعا.

وكان مدير الشئون الاقتصادية هو الموكل بمهمة تحصيل أى من هذه المبالغ ، وألقى على كاهله هذا العبء ، وكان عندما يتسلم شيئا من هذه المبالغ يسلمها بدوره إلى مدير المصرف لتضم لحساب الملتزم المختص. ولعل موعدا معينا كان محددا كيما يجوز خلاله دفع ضريبة "الأبومويرا" عينا فإذا ما انقضى هذا الموعد المضروب، أصبحت هذه الضريبة واجبة الأداء وتدفع نقدا. أما عند التقصير التام فى دفع تلك الضريبة ، لاعينا ولانقدا ، فإن صاحب الكروم يحرم منه. وواضح من القوانين الضريبة أن "فيلادلفوس" كان يتوقع أن تدفع ضريبة "الأبومويرا" المستحقة على الكروم عينا كلما كان ذلك ممكنا وفى المتناول ، بينما كان يحصل على نظيرتها المستحقة على البساتين وحدائق الفاكهة نقدا فى جميع الأحوال ودون أى تغيير فما هو السبب فى ذلك ياترى ؟ ولعل السبب هو الخوف من فساد الفاكهة بحفظها مدة طويلة وصلاح النبيذ وجودته إذا عتق ، وهذا هو السر فى هذه التفرقة فى المعاملة بالنسبة لضريبة واحدة.

وكان على المشتغلين بزراعة البساتين وحدائق الفاكهة تسجيل أسمائهم لدى الملتزم والمندوب المحلى عن مدير الشئون الاقتصادية والرقيب ، مصحوبة باسم القرية التى ينتمون إليها والمبلغ الذى يقدرونه كايراد متوقع من بيع الثمار الناتجة من بساتينهم ، فإذا راق للملتزم قبول هذا التقييم والتقدير أبرم اتفاقا مع هذا البستانى على أساس هذا التقدير ، وأعطى صورة من الاتفاق المبرم له وسلم صورة منه لمدير الشئون الاقتصادية وعندئذ يتقدم مدير الشئون الاقتصادية لتحصيل ضريبة "الأبومويرا" طبقا لشروط هذا الاتفاق. ولكن إذا اعترض الملتزم على تقدير هذا البستانى أبيح له أن يستولى على المحصول موضع الخلاف وبسر له ذلك حتى يقوم ببيعه من طرفه وتسليم ما يتحصل من هذا البيع يوميا لصاحب الحديقة أو صاحب البستان مما قد يصل إلى يد الملتزم من مبالغ حتى يوفى الرقم الذى قدره صاحب الحديقة لمحصوله ، وأى فائض بعد ذلك يمكن للملتزم أن يحققه من البيع ويزيد عن الرقم الذى قدره صاحب الحديقة من قبل يمكنه الاحتفاظ به لنفسه باعتباره مكسبا خالصا له. وفى الوقت نفسه فإن صاحب الحديقة كان عليه أن يدفع لمدير الشئون الاقتصادية سدس المبلغ الذى تسلمه من الملتزم وفاءا بالطبع لضريبة "الأبومويرا". أما إذا حدث أن المحصول عند الاستيلاء عليه وبيعه بواسطة الملتزم قد عجز عن الوفاء بالمطلوب وحقق ثمنا أقل مما قدره صاحب الحديقة ، وترتب على ذلك أن ضريبة "الابومويرا" نقصت عما كان سيدفعه لو أن الفاكهة لم يتم الاستيلاء عليها ، فإن مدير الشئون الاقتصادية ينبغى عليه أن يحصل الفرق من الملتزم. وهكذا برهن هذا التنظيم بصورته المنسقة على هذا النحو مع ما فاته من تقدير لكل الاحتمالات والظروف والملابسات ، على أن فيه جميع الضمانات لحماية مصالح الدولة إلى أقصى حد ، فالمزارع سوف يجد لديه من الأسباب ماقد يعوقه عن التمادى فى الحط من قيمة محصوله وتقديره بدرجة منخفضة جدا خشية أن يعرض الملتزم عن قبول هذا التقدير المنخفض ويؤثر الاستيلاء بنفسه على المحصول وبيعه بمعرفته كما أسلفنا لحساب المزارع الذى لن يرد له إلا المقدار الذى قدره فى حسابه. ومن الناحية الأخرى فإن الملتزم قد يجد أن من الخير له أن يقبل تقدير المزارع وتقييمه إذا ثبت أن هذا التقييم غير منخفض بصورة تدعو إلى الريبة- وذاك خشية التعرض من جانبه لخسارة محتملة فى حالة ما إذا استولى

على الحصول ولم يحقق الربح المنتظر عند بيعه بمعرفته ولم يصل ثمن البيع إلى الرقم الذى قدره صاحب الحديقة ، وعلى ذلك فإن الإجراء المعتاد هو التوصل إلى اتفاق بين الطرفين ، وما على مدير الشئون الاقتصادية إلا أن يقتص طوعا أو كراهية قيمة ضريبة "الأبومويرا" نقدا طبقا لهذا الاتفاق.

هذا هو مبلغ علمنا عن الأسلوب الذى كان متبعا فى تحصيل ضريبة "الأبومويرا" عن الكروم والفاكهة استقيناه من فقرات متناثرة من القوانين الضريبية "لفيلادلفوس" ، وفيه بعض التباين والاختلاف فى قواعد التقييم والتقدير وفى نوعية الضريبة التى كانت تحصل عينا أو نقدا فى حالات الكروم ونقدا فى حالة الحدائق والبساتين. وهاهى بعض الحقائق التى تبرز بوضوح من ثنايا هذا العرض نوجزها فيمايلى :

(١) كان الملتزم يلقى جميع التسهيلات عند قيامه بمهمة تقييم الضرائب وتقديرها.

(٢) إنه كان يعرف بالضبط المقادير الواجب خصمها من الإيرادات المتحصلة من أجل الضريبة لتغطية مصاريف الجباية ومواجهة أعبائها.

(٣) الهيئة المتكفلة بأعمال الجباية - كلما كان قيام مثل هذه الهيئة ضروريا - كانت تلقى من قبل الملتزم رقابة شديدة ، ولكن مدير الشئون الاقتصادية هو الذى كان يوجهها ويتحكم فى توظيفها.

(٤) كان لجباة الضرائب رواتب معينة يؤجرونها شهريا وليس لهم أى صالح مادى أو معنوى فى الوفاء بشروط العقد الذى كان يحتفظ به الملتزم ، ويحرص على تنفيذ نصوصه.

(٥) كانت الضرائب تحصل بواسطة أفراد من هيئة الجباية وتدفع لهم مباشرة ، أما فى حالة عدم وجود مثل هذه الهيئة فكانت تدفع لمدير الشئون الاقتصادية مباشرة ، والمبالغ النقدية المتحصلة من بيع المحاصيل العينية كانت تورد للمصرف وتضاف لحساب الملتزم بواسطة مدير الشئون الاقتصادية.

(٦) أما المبالغ نفسها فكانت تودع فى المصرف الملكى.

(٧) يدل هذا الشق من القوانين على أنه بالنسبة لهذه الضريبة بالذات كان دور الملتزم أكثر فعالية وليس مجرد متعاقد.

(٨) كان الملتزم فى هذه الحالة يقوم بدور إيجابى ، فعلية التفتيش والرقابة على الكروم وعلى معاصر النبيذ ، وهذه المهمة كانت تمثل جانبا خطيرا من عمله وتشغل جزءا كبيرا من وقته.

(٩) وفضلا عن ذلك فإن مهمة تقييم الحصيلة الناتجة فى صورة نبيذ بعد عصر الكروم وتقدير المبالغ المطلوبة كحق للدولة على البساتين والحدائق لم يكن هذا كله بالعبء الهين الملقى على كاهل الملتزم.

ولسوء الحظ فإن معلوماتنا لاتزال غير وافية بالنسبة للواجبات الأخرى الملقاه على عاتق أولئك الملتزمين فيما يختص بالضرائب الأخرى. ولعل هؤلاء الملتزمين كانوا يقومون بمهمة المثمنيين أو الخبراء فى تقدير الضرائب نظرا لعدم وجود أى مبرر للأدعاء بأن أسلوب جباية ضريبة "الأبومويرا" كان مختلفا اختلافا جوهريا عن الأسلوب المرعى فى جباية الضرائب الأخرى من حيث نظم الجباية ورجال الإشراف والرقابة على هذه العمليات المتماثلة فى طبيعتها. وقد يكون من المجدى أن نلقى نظرة على مرسوم أصدره وزير المالية المصرية المسمى "ديوسكوريديس" (Dioskurides) عام ١٥٦-١٥٥ ق.م. على عهد "بطلميوس فيلوميتور"[١]. وكان القصد من إصداره حماية فئة من الناس كانت تؤثر الحضور إلى الإسكندرية فى كثير من الأحيان لبث شكواها. مما كان يوقع على أملاكهم من حجوزات ومصادرات واستغلال للنفوذ (διασεισμων) وماكانوا يلقونه من حجوزات ومصادرات وابتزاز لأموالهم وأعمال الغش فى معاملاتهم παραλογαιων ، وكذلك ماكان يوجه إليهم من إساءات نتيجة مايدبر لهم من تلفيقات ووشايات συκοφαν τεισθαι προφερομεων ، ومن المؤسف أن كل هذه الأعمال التى كانوا يتعرضون لها وصفت بأنها كانت تصدر عن نفر من موظفى الحكومة ومن الملتزمين المتعاقدين على جباية الضرائب. فما مبلغ الصدق فى دعوى هؤلاء الشاكين ؟ وهل تطور نظام الالتزام وساءت سيرته إلى هذا الحد فأصبح فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد مثار سخط وموضع استنكار ؟ وفى ضوء

المعلومات التى تزودنا بها القوانين الضريبية وكذلك وثيقة باريس لا نكاد نتصور كيف كان فى مكنة الملتزمين أن يعمدوا إلى أعمال ابتزاز الأموال من دافعى الضرائب وإلقاء التهم وتوقيع الحجوزات على أملاكهم بوصف كونهم "جباه" أو بالأحرى شركاء فى أعمال الجباية. أما من الناحية الأخرى فهم بوصفهم المثمنين الموكول إليهم أعمال التقييم ربما عمدوا إلى شئ من ذلك. وفيما يختص بضريبة "الأبومويرا" ، رأينا أن الملتزم ربما حق له أن يحجز على الإنتاج المتحصل من البساتين ، وأنه كمثمن أو مقيم ربما أبتز دافعى الضريبة وأساء إليهم عن طريق الطعن فى كرامتهم وتشويه سمعتهم بالتشكيك فى قدراتهم على سداد المستحقات عليهم.

ولعل الميزة الكبرى من اتباع نظام الالتزام فى جباية الضرائب ووجه تفضيله على شتى الأساليب الأخرى هى أنه فى مستهل كل عام ، كان الملتزمون يتقدمون طوعا واختيارا للتعاقد مع ممثلى الجهاز الحكومى المحليين على مختلف الضرائب فيضمنون بذلك للدولة دخلا ثابتا ومعلوما من كل ضريبة ، وبذلك كان فى وسع الحكومة أن تعرف سلفا مقدار الدخل المنتظر من كل بند من بنود ميزانيتها المرتقبة من حصيلة الضرائب ، وبالتالى تستطيع أن تضع خططها المالية للعام كله تبعا لذلك دون خوف ولا وجل من أن تواجه فى المستقبل عجزا فى آخر العام ، قد ينجم عن تقصير فى تحصيل الدخل المرتقب. على أن الملتزمين الذين رسا عليهم العطاء الفائز فى هذا المزاد الذى عرضت فيه ضريبة ما ، كان يطلب إليهم خلال أيام قليلة أن يقدموا للدولة عن طريق الضامنين لهم ، ومايكفى من الضمانات الأخرى لتنفيذ عقود التزاماتهم ، ومن شأن هذه الضمانات أن تيسر للحكومة توقيع الحجز والتحفظ من أجل تعويض ماقد ينجم من خسارة أو عجز فى تحصيل الضرائب فلا تفى بما سبق أن قدره الملتزم وارتبط به. وكما أن نظام الالتزام فى جباية الضرائب كفل للحكومة بعض الحماية من الأخطار الناجمة عن وجود عجز فى حساباتها فى آخر العام ، فذلك ربما نجم عنه بين الحين والآخر أن حال دون ان تحصل الحكومة على دخل كبير من أى ضريبة كان فى وسعها أن تحصل عليه لو أن نظام التقييم والجباية كان برمته فى أيدى موظفيها والسبب فى ذلك أنه بمقتضى العقد الأصلى المبرم مع الملتزم ، كان

الفائض من حصيلة الضريبة مهما بلغ مقداره يعود عليه ويؤول إلى جيبه كما أوضحنا. ومع ذلك فنظام الالتزام كان بلا ريب من شأنه وخصائصه أن يثبت أقدام الحكومة ويوطد الإيرادات الملكية ويجعلها أكثر استقرارا ببلوغها رقما معقولا. ومن غير وجود ملتزمين يستطيعون كبح الجماح أحيانا فإن الحكام القصيرى النظر ذوى الأطماع والمطامح قد يداخلهم الغرور ويدفعهم الهوى بين حين وآخر إلى أن يشتطوا ويركبوا متن الشطط ويزدادوا فى غلوائهم فيثقلون كاهل دافعى الضرائب بشتى الالتزامات والأعباء الثقيلة التى يكون من شأنها إضعاف الكيان الاقتصادى فى مصر. والملتزمون كانوا يؤلفون طبقة محترفة لها خبرتها وتجاربها التى علمتها أن المستقبل يتوقف على الحاضر ، فلم يستجيبوا لإلحاح الحكومة ولا لمطالبها غير المشروعة أو يسارعوا لتلبية نداءاتها غير الواعية بالتقدم بمزايدات فيها شئ من الإسراف والمغالاة وتجاوز الحدود. ومما لاريب فيه أن الرجل العاقل الرزين كان فى كثير من الأحيان يتعاقد على جباية ضريبة ما لبضع سنين متوالية مع تغيير طفيف فى عطائه من عام لآخر. وبالطبع كان هناك ارتفاع وانخفاض فى الرقم الذى يتقدم به من عام لآخر ، ولكن هذا لايعدو أن يكون تغيرا طفيفا ومرده فى الحقيقة وواقع الأمر إلى الإنتاج الفعلى وحالة الإيناع والإثمار فى السلع المفروض عليها الضريبة وليس سببه المطالب العاجلة للدولة والرغبة الجامحة فى الاستجابة لاحتياجاتها. على أن الرقم المتعاقد عليه مع كل ملتزم لجباية إحدى الضرائب كان فى أغلب الظن معقولا جدا من وجهة نظر كل من دافعى الضرائب والحكومة ، وذلك لأن الصعاب التى كان يواجهها الملتزم فى سبيل الحصول على ربح ما لابد أن تتضاعف إذا كان العطاء مرتفعا جدا. ومما لاريب فيه أن روح المنافسة لدى ملتزمى الضرائب المناهضين كان من شأنها أن تجعل العطاء غير منخفض بصورة يمكن أن يستشم منها روح الافتعال.

وهناك ميزة أخرى لها أهميتها وكانت هذه ناجمة عن استخدام الملتزمين ، وهى أنه فى جباية الضرائب التى تتوافر بها الضمانات على النحو السالف الذكر، كانت هناك أطراف ثلاثة ممن لهم صالح مباشر فى تلك العملية ، بينما أنه فى نظام جباية الضرائب بصورة مباشرة كان يوجد جانبان أو طرفان اثنان فقط ، وهما بالطبع دافعوا الضرائب ومحصلها أو مستلمها وهو الحكومة ، ولما كان الحكم فى

مصر يجرى بصورة استبدادية وبيروقراطية فإنه كاد أن يكون من المستحيل على دافعى الضرائب حماية أنفسهم ضد الابتزازات غير المشروعة. وعلى ذلك فإن وجود ملتزم مكلف بالإشراف على جباية الضرائب وتحصيلها أتاح طرفا ثالثا يهمه فى الصميم تحصيل المستحقات من الضرائب بقدر ما كان لهذا العمل أهميته بالنسبة لدافعى الضريبة وللحكومة على السواء. فكانت هذه الأطراف الثلاثة تؤلف نظاما دقيقا ومرنا فى الوقت نفسه تتوافر فيه عناصر التوازن والضمانات والقيود التى تكفل له السير بخطى متئدة ، وفيه ما يضمن له أن يكون متكافئا بحيث لاتطغى سلطة على أخرى ولا تفتات هم على زميلتها ، فلوهم أحد الأطراف الثلاثة بالطغيان وشعر الطرف الآخر بأن ظلما كاد أن يحيق به كان فى وسعه فى أغلب الظن أن يضمن التأييد والعون من أحد الأطراف الأخرى ليشد من أزره.

فدافع الضريبة مثلا عندما يتصور أن ظلما قد وقع عليه بالاستيلاء على قدر من الضريبة أكثر من المطلوب ، وأن أمله فى المستقبل الزاهر أخذ يتضاءل قد يكون فى وسعه أن يقنع أولئك الذين يهمهم الأمر الخاص بالالتزام والمحافظة على نظمه ومستقبله بأن يخفضوا من عطائهم بالنسبة للسنة التالية نتيجة لهذا التصرف، ثم إن الملتزمين كانوا فى خدمة الحكومة وتقديم العون لها ، وذلك بالعمل المتواصل فى الإشراف على مندوبيها الذين يتولون بالفعل عمل الجباية وتحصيل الضرائب. ذلك أن ربح الملتزم كان متوقفا كلية على مدى المطابقة بين مقدار ما تمت جبايته بالفعل والمبلغ الذى تعاقد عليه الملتزم وارتبط به فى مقدار جباية الضريبة. وإذا ارتاب الملتزم فى سلوك أحد من مندوبى الحكومة أو لاحظ عليهم شيئا من التهاون أو التقاعس عن العمل الجاد والتراخى فى جباية ضريبة ما خشية أن تسفر الحصيلة الكلية من هذه الضريبة عن تناقص يترتب عليه نقصان فى الربح الناجم له – فإنه يسارع فى الحال إلى الإبلاغ عن مثل هذا التهاون والتراخى إلى السلطات المركزية حتى تشدد الرقابة على مندوبيها وعمالها وتبث عيونها عليهم لرصد سلوكهم وتصرفاتهم. وهناك من الجانب الآخر موقف عمال الحكومة وموظفيها الذين يتولون أعمال الجباية ، وهؤلاء لا سلطان لهم إلا بقدر ضئيل ولا مجال للمغالاة والاشتطاط فى اغتصاب الأموال من الناس وطلبها

بالإكراه من دافعى الضرائب ، وذلك لوجود احتمال قليل فى الكسب الشخصى من وراء هذا التصرف. والسبب فى ذلك أن ملتزم الضريبة كان له بالمرصاد ، وهو يسعى حثيثا وبكل ما يملك من أساليب كيما يوفر لنفسه جميع أسباب الربح الممكنة ولا يترك لغيره سوى الفتات.

وكما كان ملتزم الضريبة شغوفا ببسط حمايته على دافعى الضرائب ضد أى اغتصاب لا مبرر له ، وحريصا كذلك على أن يصون مصالح الحكومة من أى سلوك معيب أو رغبة فى الاختلاسات من جانب الذين يقومون بجباية الضرائب ،

الفصل التاسع

نظام الالتزام

سبق أن قلنا إن نظام الحكم البطلمى فى مصر كان يقوم على أسس ثابتة ودعائم قوية وهذه كان من أهمها الوضع الاقتصادى والعمل على استغلال موارد البلاد بطرق مُفضلة وأساليب مُحسنة. وكان من أهم الركائز التى كان يعتمد عليها اقتصاد البلاد بالدرجة الأولى والتى بفضلها أتى بخير الثمار ، نظام الالتزام (Tax – farming system) الذى جلبه البطالمة من بلاد اليونان ثم أدخلوا عليه الكثير من التحسينات ووضعوا له من أسس الضمانات ما يكفل له النجاح ويحول دون أى عبث أو استغلال ، لا من قِبل فئة الموظفين ولا من الملتزمين أنفسهم ، أو حتى من طوائف الأهالى الذين كان عبء الضرائب يقع على كاهلهم.

ولما كان نظام الالتزام هذا يمثل شقا مهما فى حياة الناس ، فقد حرص المؤلفون على أن يفردوا له فصولا وصفحات مطولة فى كتبهم ، وكان من السباقين فى هذا المضمار الآنسة "كليربريو" فى كتابها المشهور عن الاقتصاد الملكى صفحات ٤٥٠ حتى ٤٥٩:

(Claire Préaux, Economie royale des Lagides– 1939) ثم "م.رستوفتزف" فى كتبه ومؤلفاته العديدة ومنها الكتابان الآتيان:

1- A large Estate (1922).

2- (M. Rostovzeff, Social & Economic History of Hellenistic World)

حيث قال: "أما أنه كانت توجد طبقة من ذوى اليسار تمثل أصحاب الأراضى والعقار ، بخلاف الضباط وموظفى التاج والجنود الحائزين لأنصبة من الأراضى تتفاوت رقعتها بحسب الرتبة العسكرية التى كانوا يشغلونها وقد حرصت الحكومة على توطينهم وإسكانهم فى شتى أنحاء البلاد ، بما هيأته لهم من ثكنات، فهذا أمر قامت الأدلة والبينة على صحته ، ولم يكن هذا المعنى مستمدا من الأدلة التى سقناها من قبل ، وإنما كذلك من الطابع الخاص الذى اتسمت به الحياة الاقتصادية فى مصر". والمصدر الذى يمكن أن نستقى منه معلوماتنا عن ذلك وثيقة شائقة أو بالأحرى ما جاء بمقدمة تلك الوثيقة التى عرفت بقوانين الدخل

"لفيلادلفوس" ، وتحتوى هذه المقدمة على القواعد العامة الخاصة بنظام الالتزام المرعى فى جباية الضرائب (Wnai) وهذا القانون معروف بقانون الجباية (nomos telonikos) وكانت له الأفضلية المطلقة والأسبقية فى التنفيذ الحال المباشر (protopraxia) على غيره.

ثم هناك الوثيقة الأخرى التى سبق أن نوهنا عنها وهى تماثل هذا القانون فى أنها تعرض لنظام الالتزام ولكنها ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو ستين عاما أى (٢٠٣ ق.م) إذ صدرت فى عهد "بطلميوس" الخامس المعروف بالمتجلى أو الظاهر أى إبيفانيس.

وتحتوى هذه الوثيقة على طائفة من التعليمات الخاصة بالتزام جباية الضرائب بواسطة طائفة من الملتزمين ممن كانوا قد تعاقدوا مع الدولة على جبايتها فى إقليم أوكسيرنخوس (Wilcken, U. P. Z . 112). وحصيلة المعلومات التى يمكن أن نستشفها من هاتين الوثيقتين ينبغى استكمالها من عديد من البرديات الأخرى، التى جاءت بها إشارات ولمحات عابرة ، بل وفى أحيان كثيرة مفصلة عن نظام الالتزام فى صورته العامة بجميع محاسنه ومساوئه فى كل ما كان يكتنفه من صعاب، ولعل أرشيف "زينون" وما كشف عنه من أوراق البردى فى هذا الأرشيف من أوجه النشاط التى بذلها "زينون" نفسه ورفاقه فى هذا المضمار فيه الكفاية مبينا فى ذلك كيف أنه عندما تقاعد فى صدر حكم "بطلميوس" الثالث اشتغل بهذه المهنة وبذل فيها جهودا مضنية وجباره ليحقق لنفسه ربحا هو وشركاؤه ، وقد تحقق له كل ذلك فى آخر المطاف.

وإنا لنعرف كيف كانت الحياة الاقتصادية فى مصر البطلمية منسقة وكيف كانت الحكومة البطلمية المستنيرة على عهد "فيلادلفوس" توليها جل عنايتها وتخصها بأكبر قدر من التنظيم والإدارة ، فكانت هناك الملايين العديدة التى تؤلف الكتل البشرية من الناس بين مواطنين وأجانب وهم يعملون جميعا فى تناسق إما كمنتجين ومستهلكين ودافعى ضرائب أو كموظفين وعسكريين. وبعض هؤلاء كانت لهم صفة مزدوجة وصالح مشترك بين هذا أو ذاك وكان نفر من هؤلاء الملتزمين تربطهم بالحكومة عقود من مقتضاها المساهمة بأكبر نصيب فى هذا الثراء العريض الذى توافر للملك وهذه الموارد التى كان يقدمها هؤلاء لخدمة خزانة

الملك وخزائنه (to basilikon) ولبيوته المالية ومعارفه ، ولمستودعاته ومخازنه المنتشرة فى أرجاء البلاد (Thesauroi) ، وكان يكلف بجمعها والمساهمة فى تزويد الملك بها آلاف مؤلفة من الموظفين على اختلاف منزلتهم ومرتبتهم ، وأدنى هؤلاء جميعا من حيث المنزلة أولئك الجباة الذين كانوا يقومون بالعمل الفعلى ويعرفون بالاسم الآتى (logeutae). وجميع هؤلاء الموظفين كانوا مسئولين أمام الملك عن الوفاء بما عليهم من التزامات واردة فى العقود المبرمة التى كانت تُكبّل زراع الأرض الخاضعين للضريبة وكذلك مختلف الطبقات الأخرى من عامة الناس ممن ارتبطوا بصورة أو بأخرى بإيرادات الملك وموارد دخله ، أما الملتزمون فكانوا يمثلون طائفة مهمة للغاية وحلقة اتصال وثيق بين دافعى الضرائب والسلطة المشرفة على جباية الضرائب ، ولذلك ينبغى أن نخصّها بشيء من العناية وأن نتعرف على مدى جهودها وأوجه نشاطها وما كانت تتردى فيه من صعاب ومشاكل فى هذا الخضم من مجتمع ذاخر وخليط من أمشاج تمثل شتى العناصر وتتلاطم فيه المصالح . وفى هذا النظام الضريبى المتوازن ، الذى كان فى إحدى كفتيه دافعوا الضرائب من ناحية ، بينما فى الكفة الأخرى كان يأتى الجباة ، استطاع البطالمة أن يدخلوا أو بالأحرى أن يستخدموا طرفا ثالثا ، من أناس لهم صلة وارتباط وصالح بتحصيل الإيرادات . وهؤلاء كانوا يعرفون بالوسطاء ويعملون كأفراد أو كجماعات، ممثلة بعضها فى شركات ، لها دور مخصص وملحوظ فى تحصيل إيرادات الدولة وموارد دخلها. وهؤلاء جميعا كان يطلق عليهم الملتزمون الذين تربطهم عقود مبرمة وتُكبل أيديهم قواعد ثابتة ، فأملاكهم وكذلك أملاك ضامنيهم كانت مرهونة بسداد ما عليهم من التزامات قِبَل الحكومة.

وفى بلاد اليونان كان أمثال هؤلاء الوسطاء هم الذين يقومون بالفعل بتحصيل موارد الدخل والإيرادات العامة ، فكانوا يدفعون للدولة (أى للمدينة الدولة) مبلغا إجماليا وهذا يخول لهم الحصول على حق تحصيل مورد معين من موارد الإيرادات من دافعى الضرائب وغالبا ما كانوا يشتطون فى ذلك. أما فى مصر فالحال غير ذلك ، فمهمة التحصيل الفعلى لموارد الدخل كانت من الأعباء الملقاة على عاتق موظفى الدولة أنفسهم ، وهم الذين كانوا يقومون بتوريد ما يصل إلى أيديهم من مبالغ أو إيرادات عينية إلى المصارف الملكية أو المخازن

والمستودعات المنتشرة فى أرجاء البلاد ، وعلى ذلك كان يقع على عاتق الملتزمين فى مصر والحالة هذه ، دور ضئيل جدا فى عملية الجباية الفعلية ، وإنما كانت لهم فى الوقت نفسه مصالح حيوية فى عملية الجباية هذه ، ولذا قاموا بدور فعال فى الرقابة على كل من المنتجين والزراع الذين كانوا يساهمون فى الإيرادات وعلى المحصلين المكلفين فعلا بجباية الضرائب وذلك نظرا لأنهم بمقتضى العقود التى أبرموها مع الملك قد ضمنوا له الوفاء بالتزاماتهم ووقعوا على تعهد بذلك ، مؤداه ضرورة الوفاء بالمطلوب وهو التحصيل الكلى لأحد موارد الدخل ومعنى هذا تقديم قدر معين من السلع والبضائع أو مبلغ معين من المال ، وفى حالة العجز عن الوفاء بهذا الالتزام فإنهم ومعهم شركاؤهم (Hypoteleis) والضامنون لهم كانوا يطالبون بأن يوفوا بالعهد كاملا وغير منقوص من مواردهم الخاصة ، وفى حالة الإعسار والعجز عن الدفع يصبح مآل الأملاك الضامنة والمرتهنة من قِبَل الملتزمين المتعاقدين والضامنين ، إلى الحكومة التى كانت تستولى عليها وتقوم ببيعها وفاءً للمطلوب. أما إذا سارت الأمور وفق ما كانوا يشتهون وأسفر التحصيل الفعلى عن حصيلة من المبالغ التى تحقق فائضا فإن هذا الفائض يصبح من حقهم وفضلا عن ذلك فإنهم كانوا يتسلمون من الحكومة مكافأة أو علاوة أو راتبا.

وهكذا كان النظام البطلمى الخاص بالتزام جباية الضرائب يقوم فى أساسه على قواعد يونانية مجلوبة من بلاد اليونان ، ويعتبر فى صورته التى طبق بها فى مصر مثلا رائعا ودليلا أيما دليل على مبلغ الحذق والبراعة التى أظهرها ملوك البطالمة فهم حين استحدثوا هذا النظام باستخدام أولئك الوسطاء ليكونوا حِجابا فاصلا بين دافعى الضرائب من ناحية وبين الجباة الفعليين من ناحية أخرى أقاموا سياجا يحمى مصالحهم على نحو دل على مقدرة وكفاية فائقة فأصبح هناك فئتان هما الجباة والملتزمون وكلاهما مسئول بدوره أمام الملك ولذا كان كل جانب يتفانى فى بذل الجهد فى سبيل الحصول على الدخل والإيراد المطلوب من دافعى الضرائب . ولما كانت مصالح الفئتين فى هذا الخصوص واحدة ومتطابقة فإن تعاون الطرفين جعل من المستحيل من الناحية العملية أن يُفلت أحد من دافعى الضرائب من الوفاء بما عليهم من التزامات. ومن ناحية أخرى فإن أى تهاون أو أى محاولة للغش والتدليس من جانب الموظفين كان مصيرها أن تؤثر تأثيرا بالغا على

مصالح فئة الملتزمين . وعلى ذلك عمد هؤلاء إلى أن يكونوا بمثابة الرقباء الذين وقفوا بالمرصاد ليكونوا عوائق فعالة لكبح جماح أولئك الموظفين . وكان المغامرون بالطبع فى هذا التنظيم هم دافعوا الضرائب فكل جانب من الموظفين والملتزمين ، كان مرتبطا بالتزام لابد أن يوفيه حقه ، وأن يتم تحصيل الدخل برمته ، وإلا تعرَّض لعقوبة شديدة توقع عليه ، سواء أسفر عن ذلك أنهم فى نهاية تلك العملية أن دافعى الضرائب قد خروا صرعى ومحطمين تحت وطأة هذا العبء، ولم ينجوا من ذلك الشر الوبيل فهذا أمر لا يعنيهم فى كثير أو قليل.

أما بالنسبة للملك ، فإن هذه النتيجة كانت من الأمور التى تشغل بال الملك ، ولذلك كان يُصر دائما على ألا تسوء معاملة دافعى الضرائب ولا تُسلب منهم أموالهم ولا يقع شيء من الغش أو التدليس فى معاملتهم ، ولكن كقاعدة عامة ، كان الموظفون والملتزمون إذا ما تكتلوا واتحدت جهودهم ، يصبحون أقوى من الملك ولا عاصم لدافعى الضرائب من بطشهم وطغيانهم.

على أن حرفة الملتزم وكل ما كان يلازمها ويصاحبها من مخاطر ، كانت فى أغلب الظن مجزية بوجه عام ، فكان هناك فى صدر عصر مصر البطلمية كثيرون من الراغبين والمتهافتين على إبرام عقود الالتزام هذه ، ولم يكونوا ليجدوا أية صعوبة فى الحصول على الضمانات والضامنين اللازمين لالتزامهم هذا ، وكان عدد الملتزمين فيما يبدو كبيرا نسبياً ، وذلك لأن موارد الدخل المعروضة فى سوق الالتزام ، كانت عديدة ، وإن لم يكن من اليسير تحديد عددها . ذلك أن رجلا ثريا أياً كان بين الحين والآخر فى وسعه أن يتعاقد على عدد من تلك الالتزامات فى وقت واحد ، وبذلك يركز فى يديه شقا كبيرا من العمل ، مثلما فعل "زينون" فى أغلب الظن وبخاصة بعد اعتزاله العمل فى خدمة "أبوللونيوس" وزير المالية المشهور وقضائه العيش فى ربوع إقليم الفيوم أو فى قرية فيلادلفيا بالذات كفرد عادى (παρεπιδημος) بوصفه أحد الأعيان المجلوبين الغرباء - فالقاعدة العامة كانت تهدف إلى تفتيت هذه العقود وتوزيعها بدلاً من تركيزها فى نطاق ضيق . ولابد أن نذكر أن هذه العقود الخاصة بنظام الالتزام ، كانت تطرح فى المزاد للتعاقد عليها محليا فى نطاق الإقليم ومناطق أخرى لا تزيد عن رقعة "النوموس" (الإقليم) (nomos) أو القسم الإدارى (المحافظة).

ولا ريب أن المعرفة الوثيقة بالأحوال والأوضاع القائمة كان من المستلزمات التى يحرص عليها أى ملتزم حصيف ، طامع فى أن يتحقق له شيء من النجاح فى تقدير الصافى من أى ضريبة يتقدم للالتزام بها والتعاقد عليها ، ذلك أن عمله كان ينطوى على بذل جهد لا بأس به ويتطلب وجوده بشخصه فى عديد من العمليات التى لا حصر لها والتى كان لها ارتباط بمهمة التقييم للضرائب على الطبيعة بتحصيل المطلوبات المختلفة ، وعلى ذلك كان أغلب الملتزمين من الرجال المحليين، ممن توافرت فيهم المعرفة الوثيقة من ناحية بأحوال دافعى الضرائب ثم بالمحصلين لها ، وفوق هذا وذلك كان هؤلاء الملتزمون جميعا من الشخصيات الثرية "المليئة" ومن رجال الأعمال الذين لهم ارتباطات واتصالات واسعة المدى وكانوا فى المقام الأول مكلفين بالاشتراك مع الضامنين بتقديم ما يلزم من الضمانات التى كانت فى أغلب الأحوال تتخذ شكل عقارات وأملاك من بيوت ومساكن وكروم وحدائق وبساتين وأراضى.

وهكذا كان الالتزام فى مصر يعتبر دعامة قوية تمثل نظاما فيه من الكفالة والضمان للحقوق ما يؤمن الدولة على استحقاقاتها وليس نظاما للتحصيل حسبما وصفته الأستاذة "كلبريريو" فى كتابها المشهور عن الاقتصاد الملكى للملوك اللاجيدين أو البطلميين ، ص ٤٥٠ إذ قالت إنه مجرد نظام لحفظ الضمانات وليس مقصورا على كونه أسلوبا للجباية والتحصيل:

(une institution de garantie , non une institution de perception) وكان هذا النظام يعتبر محور ارتكاز مهم أو بالأحرى "ترسا" من تروس الجهاز الحكومى ودعامة أساسية فى دولاب الاقتصاد البطلمى ، فالجهاز الإدارى الموكل بتحصيل موارد الدخل كان تاما ومستكملا من غير نظام الالتزام هذا ولذا يمكن أن نقول إن نظام الالتزام البطلمى يمكن اعتباره جهازا ناتئا ودخيلا ، وهو أشبه ما يكون بقلم الكتاب فى أى ديوان أو مؤسسة ، إن صحت هذه التسمية ، وهذا النظام كما قلنا مقتبس من بلاد اليونان فى عصرها الكلاسيكى وأثر "ديمتريوس فاليريوس" (Demetrius Phalerius) الأثينى واضح فيه وهو الذى كان يعتبر المشرع الأول للملك "بطلميوس" الأول ، ولذلك كان اشتقاقه راجعا إلى أصل آثينى بلا ريب . ولم تكن مصر الفرعونية تعرف شيئا عن نظام الالتزام ، نظرا لأن الاقتصاد العينى

والتبادل بالمقايضة كان هو السائد فيها ، ونظام الالتزام ليس له أى معنى أو مقتضى فى بلد لا يعرف شيئا عن النقد وتداول العملة فهو بطبيعته وجوهره مرتبط أيما ارتباط بالاقتصاد النقدى ووثيق الصلة به. وعلى ذلك فهذا النظام الذى كفل جميع الضمانات بتأصله وتغلغله فى الاقتصاد الملكى ، أصبح له معنى جديداً ولم يعد يحتفظ من أصله اليونانى سوى بالشكل والمظهر فقط.

وكان نظام الالتزام فى صورته البطلمية له مبرراته وهو لأول وهلة لا يعدو أن يكون جهازا يكفل جميع الضمانات ضد الأخطار المالية وهو من بعض النواحى والاعتبارات يتناول موضوع القروض (daneia) التى كانت الدولة تقدمها للمزارعين على مدى آجال قصيرة بضمانات وكفالات أو رهون على الإنتاج المرتقب، وكانت الدولة تضمن بذلك الوفاء بمطالبها ، واحتياجاتها ومصروفاتها من الأموال السائلة ، ونظام الالتزام فى مصر البطلمية يمكن تفسيره على أنه ينطوى على البحث عن ضمان مالى إضافي وله سبب آخر يبرره كذلك وهو أن البحث عن ضمان هو فى الحقيقة مطلب عاجل وخاصة فى جميع الحالات التى كانت تؤدى فيها الضرائب نقدا ويستحق دفعها بالعملة وذلك فى بلد كان تداول العملة فيه حديث العهد وبخاصة أن الثروات الخاصة لدى دافعى الضرائب كانت فى أغلب الأحوال متواضعة ولا تحقق عند التنفيذ الفعلى وتسديد الديون أى مكاسب يُعتد بها.

والآن ينبغى علينا أن نوجز العناصر الأساسية فى تلك القوانين الخاصة بنظام الالتزام ، حتى نتبين كنهها والأهداف الحقيقية التى كانت الحكومة البطلمية ترمى إليها:

(١) كان بيع عقود الالتزام هذه يجرى باسم الملك صراحة وبلا أية مواربة إذ أن تلك العقود كانت تستهل بكلمة يونانية هى (pwloumen) أى "نحن نبيع" ، وهى عبارة تجرى فى صيغة المتكلم وعلى لسان الملك ويجرى هذا فى مزاد علنى.

(٢) كان الإعلان عن الموعد المختار للبيع وما يرفق به من دفتر أو "كراسة" شاملة لقواعد الالتزام باللغتين اليونانية والمصرية (أى الديموطيقية) لابد من تعليقه فى مكان عام ولفترة زمنية محددة قبل إجراء المزاد بمدة كافية بحيث يسمح

للراغبين فى الدخول فى المزاد بأن يدرسوا موارد الدخل وما يمكن أن يأتى به من ثمار ناجمة عن تلك الموارد المعروضة للبيع فى المزاد . وعلى ذلك تكون البيانات الإحصائية ميسورة وفى متناول المتزايدين للاطلاع عليها.

(٣) كان يتعين على كل من يرغب فى الاشتراك فى هذا المزاد ، سواء أكان أصيلا أم شريكا فعليا ، أن يسجل اسمه واسم شركائه لدى مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) وأن يذكر الجنسية التابع لها ، ولما كانت الغالبية العظمى من اليونانيين هم الأشخاص الذين توافرت لديهم المقادير الكافية من رؤوس الأموال التى تخول لهم أن يصبحوا ملتزمين أو شركاء فى أحد المشروعات التى لها اتصال بنظام الالتزام ، فهناك فى الوقت نفسه مصريون قد ساهموا بقسط وافر فى هذا المضمار . ولسنا نعرف سوى طائفتين كان مُحرماً عليهما القيام بعمل الملتزمين وهما سائر الموظفين المحليين والعبيد ، فكل من ينتمى لإحدى هاتين الطائفتين كان عليه أن يتنحى ويبتعد عن المشاركة فى هذا المضمار ، لعدم توافر الأهلية القانونية لدى أى منهما، وعلى ذلك لم يكن الموظف أو العبد يستطيع أن يتولى عمل الالتزام لا بالذات ولا بالواسطة وذلك بنص القانون الوارد فى وثيقة الالتزام وقانونه. وإنه لمن خطل الرأى أن يدهش الإنسان وتستولى عليه الحيرة إذا ما وجد أن الاعتبار القومى والتحيز الطائفى لم يكن له أى كيان أو شأن فى سير النظام الذى كان يجرى عليه الالتزام ، فليس هذا إلا ظاهرة أخرى دالة على أن الأفكار المنطوية على تفضيل البطالمة لبنى جلدتهم وإيثارهم للنعرة القومية وأخذها فى اعتبارهم ، وكانت الرائد لهم فى توجيه السياسة البطلمية فى أضيق الحدود وبصورة ضئيلة.

والصك أو العقد المكتوب كان يسبق المزاد ويكشف السبيل أمام المشرفين على الجهاز الإدارى فى تسيير عملية البيع ، على أن نظام المزاد المبدئى ثم ما كان يجرى أحيانا من إعادة فتح باب المزايدة مرة أخري فهذا حق مكفول لمن يشاء - كل هذا تناوله بلا ريب شيء كثير من التغيير والتبديل على مدى القرون الثلاثة من عهد البطالمة ، والدليل على ذلك ما جاء فى وثيقة باريس فى العمود الثالث الأسطر ١٤ حتى ١٦ (انظر Wilcken , U.P.Z. 112) إذ قيل إنه عقب رسو المزاد على شخص ما ، استؤنف التزايد وفتح بابه من جديد فى صالة المزاد نفسها ، وتقدم شخص آخر بعطاء أعلى ولكن هذا العطاء الجديد لم يكن يسمح به بأقل من

زيادة ١٠٪ على السعر الذى رسا من قبل على صاحبه الأول ، أما هذا الذى رسا عليه المزاد ، فكان مكلفا بان يقدم الضامنين الكفيلين بضمان الثمن الذى استقر عليه المزاد ، وكان على هؤلاء الضامنين أن يقدموا أملاكهم لتكون رهنا للوفاء بهذا الالتزام ، وكان يدعم هذا الارتباط ويقويه أحيانا قَسَمٌ ملكى (horkos basilikos) يؤكد أن هذه الأملاك المرهونة خالية من أى التزام أو حقوق عينية عليها.

ومنذ ذلك الوقت الذى كان يُبرم فيه عقد الالتزام ، أصبح الملتزم مسئولا عن الوفاء بما استحق عليه من ثمن يدفعه إلى الملك ، وبالطبع كان الملك يتخذ من جانبه جميع الاحتياطات التى يُخوّلها له القانون قِبَل الضامنين الكفيلين بالوفاء بالضمان الأصلى ، وهناك ضمان آخر ألا وهو إجراء التحفظ والحجز على جميع المبالغ التى يقدمها دافعوا الضرائب إلى المصرف لحساب الالتزام القائم . وفى هذا المجال بالذات كان التنظيم البطلمى يختلف اختلافا بيّنا عن تلك التنظيمات التى نجدها فى بلاد اليونان فى العصر الكلاسيكى ، ذلك أن طريقة دفع الضرائب لم تكن متروكة لحرية الاختيار ، وليس دافع الضريبة ولا الملتزم بحر فيما يجرى التصرف فيه فى هذا الصدد ، وها هو الدور الأخير الذى كانت تقوم به المصارف ، باعتبارها أجهزة خاضعة لرقابة الدولة . ذلك أنه لما كانت جميع أوجه النشاط الاقتصادى فى مصر خاضعة لضرائب منوعة تقوم الحكومة بجبايتها وكانت تلك الضرائب يجرى تحصيلها عن طريق نظام الالتزام. فمصير جميع المبالغ التى كانت ترد من التجار العديدين أو من الصناع والفلاحين كان حتما المآل فيها إلى أن تودع فى خزانة تلك المصارف ثم يتم التحفظ والحجز عليها لحساب الدولة وبذلك يستطيع الإنسان أن يتصور إلى أى مدى كان هذا البحث عن الضمانات يصل بصاحبه ومبلغ ما كان يتورط به أحيانا من مسلك وأسلوب يتبعه فى مثل هذه المعاملات. هذا فضلا عما قد يطرأ من تعقيد وشلل تبعا لذلك فى الحياة الاقتصادية من مثل تلك الإجراءات التى كانت تتخذ مبررا لفرض الرقابة على أصغر الشرايين والأجهزة وهى المصارف والمستودعات التى كانت تتدفق إليها موارد الثروة والغنى كالسيل المنهمر باستمرار. وكان رؤساء المصارف يقدمون بيانات بحسابات الملتزمين كل شهر إلى مدير الشئون الاقتصادية (oikonomos) المختص ،

فيقوم هو بدوره بمراجعتها وعمل ميزانية تقريبية منها وتلك هى إحدى العمليات التى كان يطلق عليها كلمة رهيبة هى "التسويات" (dialogismos) والإشارة هنا إلى عملية مرتبطة بديوان المحاسبات الخاص بالدولة ومركزه الرئيسى فى الإسكندرية. ولعل هذا كان يمثل أهم واجب مفروض على مدير الشئون الاقتصادية الذى كان عليه أن يفرد حساباً خاصاً لكل قرية ، إن أمكن. وإلا فلكل توبارخية أو مركز ثم يبين فيه جميع موارد الدخل ، غير مقتصر فى ذلك على النقدى منه فحسب ، بل يضمنه الموارد العينية كذلك ، وكان محرما عليه تحريما باتا وقاطعا أن يأخذ فى اعتباره عند عمل هذه التسوية الشهرية اعتماد أى مبالغ أخرى خلاف ما هو مدون فى سجلات المصارف ، وجاء هذا التحذير فى وثيقة بردية مشهورة هى بردية "تبتونس" رقم ٧٠٣ (السطران ١٢٤- ١٢٥) وكان ينبغى أن ترسل إلى الإسكندرية نسخ من الميزانية الشهرية ، ممهورة بالخاتم فترسل صورة منها إلى وزير المالية وأخرى إلى المحاسب العظم (eklögistes) وهو رئيس ديوان المحاسبات فى الدولة (logisterion) ولا يعطى للملتزم أى فائض من المبالغ المسلمة ، متى وجد أن هناك فائض فى نهاية العام ، إلا بعد إتمام عملية التحصيل وانتهاء مهمتها، ويكون ذلك بناءا على أمر من وزير المالية.

وفى جميع الحالات التى ينشأ فيها عجز فى الحساب الختامى ، تبدأ سلسلة من الإجراءات التنفيذية على الممتلكات الخاصة بالملتزم وعلى أملاك الضامنين. ومما لا ريب فيه أن التنفيذ كان يقع على أشخاص هؤلاء. وعلى أبدانهم فى آخر المطاف وفى الوقت نفسه تبدأ كذلك مساءلة الموظفين المفرّطين ، ووثائق البردى حافلة بالأمثلة التى تحكى لنا ما كان يتخذ من إجراءات ومطالبات ووضع يد أو التنفيذ على الأشياء المرهونة ، وهكذا وجد الممول نفسه أو الملتزم فى حالة من القلق والتهديد بمصادرة ممتلكاته المرهونة ، متى عجز عن الوفاء بالتزاماته قِبَل الحكومة.

ونظام الالتزام هذا كان مثار نزاع هائل وموضوع جدل طويل ، لثقل عبء الجهاز الإدارى الذى أعيى كاهل الإدارة المصرية ، ذلك أن المتقدمين فى المزاد كانوا يطمعون فى الفوز بإعلان أسمائهم باعتبار أنهم هم الذين رسا عليهم المزاد ، وفى سبيل ذلك كانوا يبالغون عندما يتقدمون بعطاءات عالية القيمة للغاية فى تلك

المزادات ، بل إن البعض منهم كانوا يعمدون إلى مناورات دنيئة ، فيحاولون التعرف على محتويات العطاءات التى تقدم بها منافسوهم أو يعملون على إخفاء صك هذا العطاء والأوراق والمستندات التى تقدم بها منافسوهم . وفضلا عن ذلك فالملتزم كان فى كثير من الأحوال يتقمص ثوب الدائن البغيض والألعبان والماكر اللئيم. حقيقة إنه كان يظهر فى أحوال كثيرة بهذا المظهر ، ولكننا فى الوقت نفسه لا يجب أن نتقبل هذه الصورة ، ونسلم بمضمونها فى يسر وسهولة أكثر من اللازم، فالوضع ليس قائماً على هذا النحو باستمرار ، خاصة وأن الالتزامات وما أبرم من عقودها التى حققت أرباحا طائلة لم يظهر لها أثر ، لا فى الإجراءات ولا فى المكاتبات مع جهات الاختصاص ولم تحتفظ لنا وثائق البردى بأى أثر لذلك ، وإنما تصل إلى أسماعنا العيوب والمساوئ فقط ويتردد صداها فى الوثائق وفى محيط الجهاز الإدارى بصورة أقوى مما نلحظه عن المحاسن.

على أنه ليس من المعقول أن مشروع الالتزام هذا كان بصورته المطبقة فى مصر كان غير مجزى ، كما يبدو من تصفح الدفاتر الحاوية لتلك الأعباء الملقاة على كواهل الملتزمين ومن الدوسيهات الخاصة بموضوعات النزاع بين مختلف الأطراف والمشاكل المترتبة عليها ، وإذا كان الملتزمون قد وجدوا الضامنين على أتم الاستعداد للتقدم بضماناتهم وفاءاً لمشروعات هؤلاء الملتزمين ، فإن ذلك لم يكن بلا ريب من قبيل المحبة الخالصة ، التى كانوا يطمعون فى تحقيقها ، وإنا لنجد من بين هؤلاء الضامنين بعض العسكريين ، وهؤلاء كان الملتزم بلا ريب يطمع بقسط معلوم أو بنصيب فى الأرباح التى قد تؤول إليه ، وعلى ذلك كانوا بتنفيذهم هذا الضمان يستثمرون الأملاك التى يديرونها . وهناك نفر من كبار الرأسماليين المقيمين فى الإسكندرية من أمثال "أبوللونيوس" وزير المالية المصرية نفسه وعامله "زينون" كانت لهم مصالح عديدة ومتداخلة فى شئون الالتزام وعقوده منذ أول الأمر.

ولا ينبغى أن يخالجنا أدنىَ شك فى أن سلطان الملتزمين ومدى نشاطهم وقدراتهم على التصرف فيما كان يعرض من أمور ، كان مطلقا ، بل كانت أيديهم مغلولة إلى أعناقهم فالحجز على المدفوعات المستحقة لدى دافعى الضرائب ، كان يمثل أحد الإجراءات والتنظيمات التى كانت تُغل يد الملتزمين الذين لم يكونوا

محصلين للضرائب ولا جباة لها ، فهذه المهمة كانت فى الحقيقة وواقع الأمر موكولة إلى موظفين تابعين للدولة مباشرة ويمثلون رهطا من المحصلين والحراس والكتبة والحفاظ على المستندات والإيصالات والأتباع والمفتشين.

(Logeutae, phylakeis, grammateis, symbolophylakeis, hyperetai, ephodoi etc.)

وكان هؤلاء جميعا يتبعون فى القرن الثالث إما مدير الشئون الاقتصادية وهو (oikonomos) وإما الكاتب الملكى (basiliko–grammateus) وهم يستمدون السلطة من أحد هؤلاء ويرجعون إليه فيما يشكل عليهم من أمور ، وكانت الدولة هى التى تحدد مرتبات هؤلاء الموظفين الموكلين بالتحصيل ولا سبيل إلى تعديلها وفقا لمزاج الملتزم وتبعا لهواه ، وكان من جراء هذا أن أتيحت الفرصة لأن يصبح هؤلاء غير متحمسين ، أو على الأقل لا صالح لهم فى أن يحقق التحصيل والتوريد النجاح المرجو. وتاريخ الملتزم "يوسف" يجعلنا نتصور أنه فى سوريا وفينيقيا فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد ، لم تكن الحماية الواجبة للدافعين للضرائب على خير ما يرام ، فالملتزم الذى كان يتقدم بصك أو بعطاء يساوى ضعف العطاء المقدم من منافسيه وخصومه كان يكسب الجولة ويمضى فى طريقه ، فيلقى القبض على الأعيان وأكابر القوم وعظمائهم ويصادر ممتلكاتهم وذلك فى بلدان كان يستطيع فيها أقل صوت أن يرتفع بالاحتجاج ضد أعمال الابتزاز وجور الملتزمين وظلمهم . والملك البطلمى ، بعد أن خص "يوسف" هذا بالثناء ومنحه التقدير اللازم ، جعل من نفسه شريكا له ، أما عظماء الإسكندرية الذين كانوا قد أقرضوه شيئا من المال، وجدوا السبيل إلى كسب الربح ، وما نظن أن هذه الواقعة التى رواها المؤرخ اليهودى "يوسيفوس" فى أحد كتبه (Antiquities XII , 180- 185) عارية عن الحقيقة أو بعيدة عن الصواب.

وفى الحالات التى كان الملتزمون يؤلفون شركة فيما بينهم (kai metochoi) كان القانون يُلزم دفع الأنصبة المستحقة للملتزمين من الباطن ويجعل مثل هذا التصرف خاضعا لرقابة شديدة من الحكومة ، وكان الشريك الأول وهو المسمى (archonēs) هو المسئول الأول والمفوّض ، ومع ذلك فالإدارة الملكية كانت ملمة بكل شيء عن أصحاب الأنصبة ، أينما كانوا ، حسبما كان مركزهم فى مشروعات الالتزام ، وهكذا كان كل شيء يهدف إلى وضع رقابة شديدة وترتيب

دقيق يكفل كبح جماح السلطان الفعلى لأولئك الملتزمين ، ويظهر أنه من الصعوبة بمكان أن يتحقق لهؤلاء الملتزمين أن ينزلوا الظلم بدافعى الضرائب وإيقاع الجور بهم من غير أن يكون هناك تواطؤ مع الموظفين المختصين. ولعل من بين الأسباب التى ساعدت على وجود مساوئ لهذا النظام ، أن عين الإدارة كانت غافلة، وهذا عيب متوطن فى مصر وقد كشفت الشكايات التى كانت تتراءى بين حين وآخر ويتقدم بها دافعوا الضرائب بلا خوف ولا وجل ، عن وجود أمثال هذه المساوئ. ولدينا فى مجموعة البردى المنشورة فى مدينة فلورنسا بإيطاليا وتعرف باسم P.S.I وهذا هو باختصار اسم الجمعية الإيطالية التى تنشر مجموعة من البردى، مثل رائع على ذلك فى الوثيقة رقم ٣٨٣ وقد أشار إليها العالم الروسى المتأمرك "روستوفتزف" فى كتابه المشهور (A Large Estate in Egypt) ص ١٠١ وتاريخ تلك الوثيقة هو العام ٣٨ من حكم الملك البطلمى "فيلادلفوس" وموضوعها أن شخصا يدعى "ثيرون" (Theron) كان من زراع الكروم ومن منتجيه وقد وفى الضريبة المستحقة عليه عن ذلك العام وقبلت الخزانة المبلغ وجميع ما ارفق به من بيانات موقعا عليها من الملتزمين الذين تسلموا هذه الوثيقة من البدال أو التاجر الذى اشترى هذه النبيذ المستخرج من الكروم وجاء فى هذا البيان المرفق توضيح بالمستحق أو المطلوب وقيمة المسلم عينا وثمنه بالنقد ، وانحصر الخلاف فى أن القيمة سددت خطأ بواسطة المندوبين عن الملتزم لا عن عام ٣٨ كما هو المطلوب وإنما عن عام سابق هو ٣٧ مع أن "ثيرون" هذا كان لديه ما يثبت أنه كان قد سدد المستحق بالكامل عن ذلك العام السابق. وهناك مثل آخر مشابه فى مجموعه بردى "زينون" المحفوظة بالمتحف المصرى والتى نشرها العالم البريطانى "ادجار" (Edgar) وهذه الوثيقة تحمل رقما فى الكتالوج الخاص بالمتحف المصرى هو ٥٩٢٣٦.

ونظام الالتزام فى مصر البطلمية باعتباره نظاما مجلوبا من الخارج (أى من أثينا) وليس أصيلا من أعماق البلاد وبوصفه مجردا من حرية المبادرة ووقوفه موقفا سلبيا من حق الضمان ، كان مصيره فيما يبدو ، أن أخذ فى الذبول ، وفضلا عن ذلك فلم تكن به تلك "الخميرة" الكفيلة بأن يحرز أى تقدم اقتصادى ولم يتوافر فيه العامل الكفيل بضمان أى تطور سياسى. وإذا ما قدر لأى من الملتزمين أن

يحرز أى تقدم بتحقيق شيء من الكسب لنفسه أو النفع والفائدة لشركته فإنه لم يكن فى الوقت نفسه بقادر على أن يجلب شيئا من السيطرة والقوة والجاه لنفسه ، وبعد الشخصية البارزة التى كان عليها "أبوللونيوس" وزير المالية فى عهد "بطلميوس فيلادلفوس" وما كان له ولعامله "زينون" من نفوذ مستمد منه فإن بردى فيلادلفيا (فى أرشيف زينون) لا يزودنا باسم آخر لأحد كبار الماليين ممن خلفوهما فى هذه القرية المصرية وهى فيلادلفيا فى إقليم الفيوم وهى ملتقى أجناس بشرية من كل فج. وكما كان النقد اليونانى والمصارف اليونانية أمراً مجلوباً من الخارج فإن نظام الالتزام اليونانى المستحدث فى بلد كان النظام الملكى فيه شديد التركيز وحكومته البيروقراطية قوية البأس ما لبث أن فقد أهميته بمضى الوقت وأصبح يسير فى ركب الدولة ويخدم أغراضها واستمر مرعيا فى مصر فى العصر الرومانى.

وإذا صح أنه كان لنظام الالتزام بعض التأثير على مستقبل المجتمع المصرى ، فإن هذا الأثر كان على نحو غير ملحوظ وبأسلوب غير مباشر . وكان من أولى متطلبات الالتزام وجود نظام دقيق للخدمات بصورة عاجلة ، يتوفر فيه نوع من الرقابة الدقيقة والإشراف التام ثم جهاز دقيق لإمساك الدفاتر والحسابات وعمل التسويات على أوسع نطاق بصورة مضطردة.

واقتضت كل هذه الضمانات الإضافية وهذا الخوف المستمر وعدم الاطمئنان على وصول الإيراد سواء أكان لهذا ما يبرره أم لا - نقول اقتضى هذا كله تكاليف باهظة وعندئذ اضطر البطالمة أن يتكبدوا مصروفات كثيرة لتوفير كل هذه الضمانات ومنع الشك باليقين بالحيلولة دون التردى فى ارتكاب أخطاء جسيمة من قِبَل الملتزمين المنتفعين أو الموظفين العموميين.

وفضلا عن ذلك ، فإن نظام الالتزام فى حد ذاته كانت له نتائج إيجابية باهرة وشائقة ، إذ كان له الفضل كل الفضل فى إقامة كيان تشريعى متعمق للغاية . ففى مصر حيث كان الفرعون فيما مضى يرضى ويقنع بتخطيط ورسم قائمة بالضرائب الواجب تحصيلها من الأقسام الإدارية المختلفة ، جاء الملك البطلمى فأظهر الحرص الشديد على تحديد وتعريف تلك الالتزامات وتصنيف الحقوق الخاصة بالملك وبالموظفين والملتزمين والضامنين ودافعى الضرائب. واستطاع

بذلك أن يساهم فى إنشاء قانون مالى بالغ الدقة ، بفضل ما حرص المشرع عليه من التدوين والتسجيل لعبارات وفقرات وبنود واشتراطات فى عقود مركبة ، اجتمع فيها روح القانونين العام والخاص ، فالالتزام لدى البطالمة كان إذاً ، بمثابة الوازع القوى والدافع لعجلة التشريع ثم أنه كان بمثابة همزة الوصل التى بعثت الحياة فى ذلك الجسم البالى فأخذت تدب الروح فى السلطة التشريعية . فهو على هذا النحو يعتبر النواة والأداة الكفيلة بتطوير قانون الالتزامات وبلوغه غاية الكمال، إذ كانت الدولة فى كل عام تقوم بتصفح قوانين الالتزام وتدخل عليها من التحسينات والتصويبات ما تراه لازما ، وبذلك استطاعت أن تنشئ أحكاما خاصة وأساليب جديدة فى إجراءات التنفيذ وأن تبتكر أشكالا وأنواعا من الالتزام، لم تكن معروفة أو مقررة من قبل. وإن قوانين الالتزام فى واقع الأمر كانت بمثابة بواتق حقيقية ، انصهر فيها القانون وتشكل حتى أخذ صورته الصافية وشكله الدقيق.

أما فيما يتعلق بوثيقة الدخل وما جاء بها من قوانين الإيرادات والضرائب ، فيكفى أن نعرف أنه تمخض عنها الكثير ، ومن هذا على سبيل المثال ذلك المنشور الدورى الذى أصدره وزير المالية إلى العاملين من قِبله فى الأقاليم وكان يلقب الواحد منهم بلقب "أويكونوموس" أو المدير الاقتصادى وقد ورد هذا المنشور فى وثيقة بردية مشهورة ومنشورة فى مجموعة بردى "تبتونيس" رقم ٧٠٣ ، وهذا المنشور فى مجموعه عبارة عن تعليمات إدارية متداولة وإرشادات مالية ونصائح غالية ، كان يسديها وزير المالية لموظفيه المنتشرين فى الأقاليم ليكونوا يقظين على الدوام ولكى يُحسنوا معاملة الناس ويرفهوا عنهم ما أمكن: على ألا يتركوا أحداً يفلت من أداء ما عليه من التزامات مالية وضريبية ، ويقوموا بإحصاء الماشية والأغنام فى فصل الفيضان من كل عام (فى شهر مسرى). وكانت جميع هذه التعليمات ذات طابع مصرى فى مادتها وروحها الإنسانية وليس لها بحال من الأحوال طابع قانونى وإنما نستشف منها ونلمح من ثناياها مبلغ ما قدمته المالية البطلمية عن طريق ما ابتدعته من نظم وقواعد فى الالتزام وما أدخلته من تطور وتقدم فى صياغة القانون وتبويبه ، على أن هذا القدر الذى ساهم به نظام الالتزام كان له تأثير عظيم فى مجالات أخرى ، وقد تبين لنا من "روستوفتزف" في مقاله

عن تاريخ الالتزام والعالم الفرنسى "م. كاركوبينو" (Carcopino) فى مؤلفه عن قانون هيرون الثانى والرومان ، مبلغ ما يدين به العالم الرومانى للقوانين الخاصة بالالتزام وهى التى أصدرها "بطلميوس فيلادلفوس" ويرجع الفضل فى انتقالها لهم إلى "هيرون" الثانى الصقلى.

وخلاصة القول إن أولئك الذين يشوقهم هذا الموضوع ويروق لهم البحث فى أصول القوانين ومبلغ تطور النظم وتغيرها وتأثرها بغيرها ، يجدون مادة خصبة فى نظام الالتزام والمصير الذى آل إليه فى المملكة البطلمية ، وقد اعتبر رجال القانون المهتمون بالتاريخ القديم فى ضوء ما أسفرت عنه دراسة أوراق البردى من أمثال العالم الألمانى "ماير" (Meyer) والعالم الهولندى المتأمرك "تاوبنشلاج" (Taubenschlag) والعالم الألمانى "زايدل" (Zeidl) أنه يمثل ظاهرة تسترعى شيئا كثيرا من الانتباه وفيه مادة شائقة للغاية.

الفصل العاشر

الزراعة ونظام الأراضى فى مصر البطلمية

كانت الزراعة فى الحق هى الدعامة الأولى التى كان يرتكز عليها الاقتصاد البطلمى ، وكانت البلاد محظوظة فى هذا المجال فالمناخ بديع وموارد المياه متوفرة فى السنين العادية وبخاصة إذا ما نظمت وأحكم توزيعها فتصبح كفيلة بضمان محصول وفير، ثم إن تربة البلاد اشتهرت بخصوبتها الفائقة وصلاحيتها لعدد كبير من مختلف المحاصيل ومن ذلك الحبوب على مختلف أنواعها والخضراوات وأشجار النخيل والسنط والأثل والصفصاف ومختلف الأعشاب وشتى النباتات التى تستخرج منها الزيوت من كتان وزيتون وسمسم وعصفر وخلافه. أما أشجار الفاكهة والكروم والتوت فلدى مصر منها أنواع كثيرة ، وهكذا كانت مصر فى نظر بقية العالم القديم جنة تفيض بالثراء والخير الوفير ، وهى "هبة النيل" ، أبى البركات ، كما كان يطلق عليه قديما فأسبغ عليها وعلى شعبها خيراته فى كرم وصفاء فى كل عام على نحو تلك المقولة المشهورة لهيرودوت المؤرخ اليونانى الشهير.

وكان طبيعيا أن يُعنى كل حاكم على مصر ، بل أول شيء ينبغى أن يعنى به - هو شئون الزراعة وتوزيع المياه وتنظيم ذلك فالزراعة فى مصر كانت من أولى مستلزماتها العناية الشديدة بموارد المياه ووضع النظم الدقيقة للمحافظة على المياه بصفة عامة وضمان حسن توزيعها عقب الفيضان وانحسار المياه التى كانت تغمر الأراضى على جانبى النيل وقت الفيضان. وتطلب هذا عينا ساهرة وإشرافا بعيد المدى على مجرى النيل وقنواته وسدوده ثم تنظيما دقيقا للأيدى العاملة من أجل تشييد عدد من السدود وحفر شبكة من القنوات لتوصيل المياه إلى المناطق البعيدة والنائية عن مجرى النيل الأصلى . وكان تنظيم العمل فى هذا المجال يتطلب أحيانا اللجوء إلى السخرة وإكراه الناس (Leiturgia) جثمانيا وماديا ومعنويا . فالشعب برمته ومعه دواب النقل يمكن أن يجرى حشده من أجل هذا الغرض إذ ذاك فى فصول معينة من السنة. وهذا بعض ما كان يحدث فى مصر الفرعونية ويبقى هذا الوضع على أشده وحوفظ عليه بمنتهى الدقة فى مصر البطلمية ، بل وفى مصر

الرومانية. ومما لا ريب فيه أن البطالمة وبخاصة الملوك الثلاثة الأولين أخـذوا النظـام الفرعونى وطبقوه بحذافيره ثم زادوا عليه مـن حيـث التنظيـم والرقابـة واسـتخدام الأساليب الهندسية التى استحدثوها فى هذا المجال وفى غيره من المنشآت العامـة ، فكانت التحسينات والتصويبات التى أدخلها اليونان كفيلة بتحسين أحـوال مصـر زراعيا واقتصاديا بدرجة ملحوظة ، أشاد بها الكتـاب اليونـان المعـاصرون ، إذ ذاك ومن جاءوا بعدهم فى العصر الرومانى ، على أننا لا نعرف على سبيل اليقـين إلى أى مدى ولا فى أى اتجاه ساروا فى هذا السبيل ولا متى تنكـروا عـن السـير فـى خطى التقدم الزراعى ، وكل ما نعرفه أنه فيما يختـص بنظـام الـرى ورث البطالمـة عن أسلافهم الفراعنة أسلوب المحافظة على مراعـاة هـذا النظـام بدقـة وأنـهم كـانوا يلجأون فى تحقيـق ذلـك إلى العمـل الإجبـارى الموسمـى ، الـذى يفرضونـه علـى الشعب برمته فى سبيل الصالح العام ، ولكنـهم كـانوا أسـوة بالفراعنـة ، يمنحـون بالطبع بعض الإعفاءات عن هذا العبء لبعض الأفراد والطوائف ، فكـانت طبقـات معينة تتمتع بالامتياز الذى يخول لها أن تدفع مالا بدلا من أداء هذا العبء ، وفـى أغلب الظن أن مثل هذا الامتياز كان يسبغ فى العصر البطلمى على الوافدين مـن اليونان ومن على شاكلتهم إما بصفة جماعية أو لطوائف معينة منهم وبقـى نفـس هذا الامتياز مرعيا للكهنة ورجال الدين.

تسجيل الأراضى وأنواعها (GEOMETRIA):

هناك شق ضرورى وتمهيدى كان يعتبر من المسـتلزمات الواجبـة لأى عمـل زراعى جاد أو مثمر ، وقد ورث البطالمة هذا الشق عن أسـلافهم الفراعنـة - ذلـك هو مسح الأراضى فى جميع أنحاء مصر وتسـجيلها بدقـة. وهـذه العمليـة كـانت تعرف بالاسم اليونانى الآتى (geometria) ، وكانت هذه العملية تتم بدقـة وعنايـة فائقة كل عام ، وسجلات الأراضى هذه كانت تتجمع لدى كتبة القرى فى العصر البطلمى وهم الذين كان يطلق عليهم (Komogrammateis) ولدى عمد هذه القرى وهـم الذيـن كـانوا يعرفـون بالاسـم الآتـى (Komarchae) وكـانت عمليـة المسـح والتسجيل هذه تخضع لإشراف دقيق يجرى فيه تقصى للحقائق على أوسـع نطـاق وبشتى الوسائل وهذا التقصى هو مـا يكنـى لـه فـى مصـر البطلميـة والرومانيـة بكلمـة (episkepsis) وكـان يباشـره كبـار الموظفـين مـن أمثـال الكتبـة الملكيـين

(basilikoi grammateis) ، وكانت هذه السجلات فى تجدد مستمر. وكان يجرى هذا التجديد سنويا وتحظى هذه العملية التسجيلية بعناية فائقة ، وبالطبع كان الغرض من هذه الأنواع المختلفة من مراحل عمليات التسجيل والمسح الشامل هو الإبقاء على سجل واحد بالأرض الصالحة للزراعة والتعرف على معدن كل قطعة منها - وهذا أمر يستوجب التدوين والتسجيل أولا بأول وهو عرضة للتغير والتبديل من عام لآخر ويتطلب معرفة أولئك الأشخاص المسئولين فى كل عام عن الوفاء بمهمة الزراعة فى كل قطعة من أرض مصر ومهمة حصر أولئك الأشخاص يأتى فى المقام الأول بالنسبة للحكومة ، فهذه الرقعة أو تلك إما أن تكون منزرعة (esparmené) أو غير منزرعة وإما أن تكون قد غمرتها مياه الفيضان السنوية بشدة (embrochos) أو تكون جدباء (abrochos) أو خرسة (chersos) على حد قول أهل الصعيد فى الوقت الحاضر. والمعنى المستفاد من هذا كله أن رقعة ما من أرض مصر البطلمية قد تكون فى حالة صالحة تماما لزراعتها فتنبت نباتا حسنا وتوفى ما عليها من الالتزامات المستحقة للملك البطلمى (to apegmenon) وإما أن تكون عرضة لأن يجرى عليها تخفيض واستنزال فى الايجار أو قد لا تخضع لأى إيجار عليها فى مصر البطلمية والرومانية (Hypologos). وهكذا كان يجرى تصنيف الأراضى بحسب حالتها ووضعها بالنسبة لمياه الفيضان ومدى صلاحيتها للزراعة فى كل عام وهذه المهمة حيوية وتمس أرزاق الناس وميزانية الحكومة السنوية ، فلا عجب أن أولتها الحكومة البطلمية جُل عنايتها وكانت هذه القوائم بما اشتملت عليه من نتائج مسح الأراضى فى زمام القرى المتناثرة ، تُبوّب من وجهة النظر المالية بواسطة حكام المراكز والدساكر (toparchoi) ثم ترسل بدورها إلى موظفين فى حواضر الأقسام الإدارية ممن يعرفون بالاسم الآتى "النومارخاى" (nomarchai) وهم المختصون بالإشراف على زراعة الأرض الملكية. وكان هؤلاء بدورهم يقومون بإرسال هذه التقارير المتعلقة بالأقسام برمتها إلى الإسكندرية وبها دواوين عديدة للسجلات ، فتتخذ هذه القوائم أساسا جوهريا في إعداد قوائم الخراج السنوى وكشوف الضرائب المطلوبة.

أنـواع الأراضى :

وإذا ما توفرت للأرض وسائل الـرى وتم حصـر الأراضـى ونوعيتـها بعنايـة فائقة فإنها كانت توكل إلى القائمين بزراعتـها مـن المصريـين أو اليونـان الوافديـن والمنتفعين من جند وضباط مستوطنين وغيرهم مـن أصحـاب الحظـوة لـدى الملـك البطلمى وكبار رجال الدولة البطلمية. ومنذ أقدم العصور كانت هناك أنواع شـتى من النظم المرعية فى حيازة الأرض ولا أقول تملكها فهى أساسا كلها ملـك الملـك الفرعونى وبالتبعية لورثة الفراعنـة وهـم ملـوك البطالمـة. وهـذه الحيـازة أو تملـك الأرض كانت متوقفة على مركز الأشخاص المسئولين عن زراعتها وعلاقتهم بالملك وكنيتـهم فـى الجـهاز الحكومـى أو الطبقـى ومنزلتـهم فـى السـلم الاجتمـاعى والكهنوتى فى مصر البطلمية. ويجب أن نعـترف بـادئ ذى بـدء أنـه لـيس لدينـا معلومات دقيقة ووثيقة عن الاشتراطات المرعية فى هذه الحيازة فى العصر السـابق على عصر البطالمة ، بل إن معلوماتنا عن عصر البطالمة نفسه ليست وافية أو كاملة بصورة تدعو إلى أن نكون على يقين تام بما نقول. وهنـا يجـب أن نذكـر أن رومـا كان لها الفضل فى اضطلاعها بعبء قامت به على الوجه الأكمل وهو إنشـاء نظـم ومصطلحات دقيقة فى نطاق القانون العام والخاص ، وفى هذا المجال تختلـف بـلاد اليونان عن روما كثيرا ، بل كانت مصر البطلمية أقل دقة مما ينبغـى ، ويبـدو أنـه فى عصر متوسط من عصور البطالمة ، كان هناك على الأقل نوعـان أساسـيان مـن الأرض ، يتميز أحدهما عن الآخر وهما:

(١) الأرض الملكية وتعرف بالاسم اليونانى الآتى (gē basilikē) (نسبة إلى الملك بالطبع) وهى تشمل الأراضى التـى كـان للملـك إشـراف مباشـر عليها ويفلحها فلاحون كان يطلـق عليـهم "الفلاحـون الملكيـون" ثـم النوع الثانى:

(٢) الأرض المتخلـى عنـها أو المتروكـة وتسـمى (gē en aphesei) وقـد منحتها الحكومة أو أسـبغتها وسـلمتها لأشـخاص آخريـن بعـد الإفـراج والتخلى عنها وبذلك انتقلت من الإشراف المباشر للملـك أو المندوبين التابعين له إلى الغير وهناك نـوع ثـالث ثـانوى يمكـن أن يؤلـف فـى مجموعه ما كان يعرف بالاسم الآتى: الأرض الواقعة فى نطاق المدن الحرة

وهذه كانت مخصصة للأراضى الواقعة فى زمام المدن اليونانية بمصر وهى الإسكندرية وبطلمية (وهى المنشأة حاليا فى محافظة سوهاج بالصعيد) ثم نقراطيس (كوم جعيف التى تتبع مركز إيتاى البارود فى محافظة البحيرة). ولدينا معلومات طفيفة عن المركز القانونى لهذه الأراضى فى صدر العصر البطلمى. وبحسب ما قضت به الأفكار اليونانية التقليدية فى نظم المدن اليونانية عموما ، كانت الأرض الواقعة فى كنف هذه المدن هى بمثابة الملكية الخاصة لهذه المدن من حيث تبعيتها للمواطنين الأحرار ولتلك المدن ، فكانت إذا بمثابة جزء أو مقاطعات يونانية حرة ، تكتنفها الأراضى الملكية من كل جانب. على أننا نستطيع أن نتصور أن هذه المقاطعات اليونانية الحرة كانت بمثابة أقسام تشعبت وتفرعت عن الأراضى المتروكة أو المتخلى عنها ، سماحا من الملك وهى التى سبق أن نوهنا عنها وأدرجناها تحت الاسم الآتى (gē en aphesei).

ومن العسير أن نسوق هنا أى فكرة ولو بصورة تقريبية ، عن المقدار الذى وصل إليه كل نوع من هذه الأراضى وبخاصة النوع الأول الذى استأثر به الملك واحتفظ به لنفسه بصورة مباشرة ولربما كان هذا يصل إلى اكثر من نصف أرض مصر ، والسبب فى تعثرنا فى الوصول إلى معرفة دقيقة عن هذا الموضوع أن المعلومات التى فى متناولنا كان أغلبها يتعلق بالأحوال السائدة فى إقليم الفيوم حيث كانت المساحات الشاسعة من الراضى الجديدة المستصلحة وهى بالطبع أراضى ملكية ، وهذه كانت تمثل العنصر الغالب ولا يمكن القياس على ذلك فى دلتا النيل ولا فى باقى أراضى الصعيد ، فالظروف متباينة. ومن خطل الرأى أن نستنبط أى حقائق من معلومات ووثائق متناثرة. وأقصى ما يمكن أن نقوله فى هذا الشأن أن الموقف بالنسبة للأرض فى باقى محافظات مصر كان مختلفا ، ولا سبيل إلى الوصول إلى كنه الحقيقة فأصبحنا نسبح فى الخيال ونعمد إلى التخمين فى تقدير نسب هذه الأراضى وتبعيتها لمختلف السلطات والهيئات.

ويمكن تقسيم الأراضى التى تخلى الملك عنها وسمح لغيره بالإشراف عليها إلى ما يلى :

(١) أراضى كانت فى حيازة المعابد وعليها عماد الدخل المقدس ويكنى لها بأحد الأسماء الآتية (gē heira أو heira gē).

(٢) أراضى خصصت أو رصدت لتكون عونا ومصدر رزق لمختلف موظفى الدولة ، فتخفف أعباء الحكومة ولا تتكفل بدفع رواتب لهم ويعرف هذا النوع من الأرض بالاسم الآتى (gē kleruchicē) ويدخل ضمن المنتفعين والمستفيدين بل يأتى على رأسهم ، طبقة الجند من مشاة وفرسان ، ضباطا وجنودا على مختلف رتبهم العسكرية. وتعرف الأراضى التى كانت فى حوزة الجند بالاسم الآتى gē kleruchia فأصبح لدينا صاحب الخمس أرورات أو الأفدنة المصرية ويسمى (pentarouros) وصاحب الخمسة والعشرين (eikosipentarouros) وصاحب السبعين والثمانين والتسعين والمائة (hekatontarouros) والمائة والعشرين وهكذا.

ويدخل فى هذا الإطار نفر من الموظفين المدنيين على اختلاف مراتبهم ، وهناك شق آخر قائم بذاته مثل أراضى الهبات أو الاقطاعات التى أسبغها الملك على سبيل الهبة أو المنحة وتعرف بالاسم الآتى (gē en doriae) وتصل أحيانا إلى آلاف الأرورات. وكان من أشهرها تلك الضيعة الكبرى التى أسبغها "بطلميوس" الثانى الملقب "فيلادلفوس" على كبير وزرائه ووزير ماليته المسمى "أبوللونيوس" (Apollonios) وكانت تبلغ عشرة آلاف من الأرورات فى الإقليم الأرسينويتى أو "الفيوم" ومركز هذه الضيعة قرية مشهورة تسمى "فيلادلفيا" وهى متعاصرة مع الإسكندرية إذ بُنيت فى نفس الحقبة وخُططت على نسق الإسكندرية وكانت قبلة الأنظار ومركزا مهما للتجارب الزراعية وتنسيق الخبرات اليونانية وملتقى الحضارة اليونانية والمصرية ومركز عبادات يونانية ومصرية عديدة. وهكذا كان الملك يمنح كبار الموظفين المدنيين والعسكريين المنضوين فى خدمته تلك المساحات الشاسعة على سبيل مكافأة لهم على إخلاصهم. فكان هؤلاء يتفانون فى إصلاح تلك الأراضى واستجلاب الخبرات اليونانية والأيدى العاملة ذات الخبرة المصرية من الأقاليم المجاورة. ويأتى فى آخر المطاف نوع من الأراضى كان بمثابة الملكية الخاصة ويسمى (gē idioktetos) أو (Ktemata) أى المقتنيات والأملاك الخاصة.

ويدخل فى هذا النطاق أراضى الفاكهة والبساتين نظرا لأنها كانت تتطلب جهدا وعناية فائقة وفترات طويلة حتى تنضج ثمارها. على أن هذه المصطلحات ليست من الدقة بحيث تكون قاطعة فى تحديد المعنى وقصره على نطاق معين دون غيره فكثيرا ما تداخلت الأقسام بعضها فى بعض ومن ذلك مثلا أن الاصطلاح العام الدال على الأراضى المتخلى عنها وهى (gē en aphesei) كان يرد فى الوثائق البردية التى فى متناولنا تارة مُعبراً عن أراضى المعابد (gē heira) وأخرى للتعبير عن الأراضى المرصودة كمكافأة للموظفين على مختلف مراتبهم ، وكذلك للتعبير عن أراضى الهبات وهكذا كانت بعض هذه المصطلحات تُعبر عن معنى شامل فى بعض الأحيان وتتضمن معانى أخرى ضيقة فى أحيان أخرى ولذا *كان التعويل عليها كلية فيه شيء كثير من التضليل أو اللبس.*

على أن المعلومات التى وصلت إلينا عن مختلف هذه الأنواع ليست متسقة ولا هى متساوية فى حصيلتها ومقدارها. ومع ذلك فالنظام المطبق فى استغلال الملكية معروف تماما فى شكله العام. ولدينا بعض المعلومات عن الأراضى التى كانت فى حوزة الجنود ، نقتطفها من شكاياتهم وتظلماتهم ، ومن الأوامر الملكية التى كانت تعكس أحيانا بعض تصرفات هؤلاء الجند فى اقطاعاتهم العسكرية وفى ثكناتهم والمحلات التى كان الملك ينزلهم فيها وهى المعروفة باسم (Stathmoi). أما عن أراضى الهبات ففى أرشيف "زينون" وكيل "أبوللونيوس" فى إدارة ضيعته المشهورة بفيلادلفيا من الرسائل والمعاملات ما يكشف عن الكثير من المعلومات المستفيضة عن ألوان الحياة والجهود المحمومة التى بذلت فى سبيل النهوض بمرفق الزراعة وإصلاح الأراضى بصفة خاصة. أما معلوماتنا عن أراضى المعابد والأراضى الخاصة فهى محدودة ولا تعدو لمحات من هنا وهناك وهذه كلها لا تؤلف فى مجموعها سوى صورة مبتورة ، وهناك أمر واحد جلى: ألا وهو أن الملك البطلمى كان يعتبر نفسه المالك الحقيقى لجميع أرض مصر ، وما تَملك فئة من الفئات لنصيب من هذه الأراضى أو الانتفاع بها واستغلالها على نحو ما ، سوى وضع لا يكسب صاحبه بأى حال من الأحوال حقا مسبقا عليها بل ويحق للملك أن يستردها فى أى وقت يشاء.

الأراضى الملكية:

كان يفلح هذه الأراضى أناس عُرفوا باسم شامل هم "الفلاحـون الملكيـون" (hoi georgoi basilikoi) وهذا وضـع كـان كذلـك مـن تـراث المـاضى ، والغالبيـة العظمى من هؤلاء الفلاحين الملكيين كانت منتشرة وتعيش فى كنفـها فـى ريـف البلاد (Chora) جموع غفيرة تطويها آلاف القرى والدساكر. وكان تسـجيل أسماء هؤلاء الفلاحين على هذا النحو فى قرية أو بلدة متواضعة يُعتبر هو الموطن أو المقر الخاص بسكنى كل واحد منهم وهو ما يكنى له عادة فى الوثـائق بكلمـة (idia) وكان المفروض أن كل واحد من هؤلاء ينبغى أن يبقـى ملتصقـا بمقـره أو بموطنـه الأصلى ومسقط رأسه ولكنه ليس ملزما ألا يغادره بصفة مستديمة فقد سمعنا بـين حين وآخر أن كثيرين منهم اعتبروا غرباء (xenoi) لأن موطنهم كان فى قرية أخرى غير التى وجدوا فيها وأنهم يسكنون قرية ليس لهم فيها ناقة ولا جمـل ، وشـاع ذلك التصرف والتنقل إلى حد أن محصلين وجبـاة اختصـوا بتعقـب هـؤلاء بقصـد جمـع المتأخـرات عليـهم وملاحقتـهم فـى كـل مكـان ، وكـان هـؤلاء يسـمون (πρακτορεσ ενικον) تمييزا لهم عـن زملائـهم المختصـين بجبايـة الضرائـب مـن أولئك الذين بقوا فى مقـارهم والـتزموا بالبقـاء فـى قراهـم. وقـد أتحفتنـا الأستاذة البلجيكيـة "كليربريـو" (Claire Preaux) بمقـال منشـور فـى مجلـة : (Chronique d' Egypte) ، العـدد ٥٩ لسـنة ١٩٥٥ عنوانـه: Sur les fonctions du praktor xenikon) صفحات ١٠٧-١١١_ عرضت فيه للتعرف على ماهية هؤلاء الجبـاة المختصين بالغرباء وفندت وجهات النظر فى هـذا الشـأن وربطـت هـؤلاء بسـكان المدينة وتعريف الغريب (xehikon) بأنه هو ما ليـس بـالمواطن فـى مدينـة حـرة أو ليس (politikos) ولسنا على علم بمـا إذا كـان يتعـين الحصـول علـى إذن خـاص بانتقال هؤلاء الفلاحين الملكيين من قرية لأخرى. وهؤلاء الفلاحون الملكيون كانوا من أحرار الرجال وليسوا أقنانا أو عبيدا ويستدل على ذلك من عدة حقـائق منـها أنه كان مخولا لهم حرية الحركة على النحو الذى نوهنا عنه آنفا ويمكن الاسـتدلال كذلك على مركزهم من العلاقات التى كانت تربط بينهم وبـين أصحـاب ضيـاع الهبات والأراضى التى كانت فى حوزة الجنـد. فالهبـات التـى كـان الملـك يمنحـها للعظماء وذوى الحظوة لديه لم تكن بحال ما تشتمل علـى قريـة أو أكـثر بمـا فـى

ذلك أراضيها وسكانها وإنما كانت تشتمل على قدر من الأرورات وهى رقعة تساوى ستة آلاف من الأفدنة المصرية. وفى الحالات القليلة التى وصلت إلى علمنا كانت هذه الأراضى تفلح لا بواسطة أولئك الذين كانوا يملكونها بالوراثة وإنما بواسطة مزارعين من مختلف الهيئات والأجناس وبخاصة أولئك الذين استأجروا أنصبة منها من صاحبها لفترة قصيرة موقوتة. ويصدق مثل هذا القول على أصحاب الأنصبة الصغيرة من الأراضى الممنوحة للغير من أمثال أولئك الجند الحائزين على قطع متفاوتة منها وهم الذين أطلق عليهم اسم (Kleruchoi) فأصبحوا يمثلون بذلك طبقة لها كيانها وعنجهيتها ،وهى تضرب فى الأرض مختالة وتعيث فسادا فى علاقاتها بالسكان المصريين الذين حلوا عليهم فى منازلهم ولكنهم آثروا فى كثير من الأحيان استعمال القوة الغشومة فكانوا (apobiasamenoi) أى الطاردين بالقوة الغشومة للسكان الأصليين من منازلهم كيما يحلوا محلهم ، وأمثال هؤلاء المستأجرين كانوا جميعا ينتمون لطبقة عرفت بالفلاحين الملكيين ، ومع أن هذه الطبقة كانت تشمل أناسا قاموا بفلاحة هذه الأرض الملكية على مدى أجيال طويلة ، فإن الاسم "الفلاح الملكى" كان يسبغ جوازا على كل من كان يفلح الأرض الملكية بصورة أو بأخرى ، باعتبارهم فى آخر المطاف مستأجرين من الملك.

وأخيرا كانت العلاقات بين الملك والفلاحين الملكيين تقوم على عقود مدونة كالمعتاد وليس على مجرد التقاليد والعرف ، وفى صدر العصر البطلمى كانت أغلب هذه العقود لآجال قصيرة ، ومع أنه ليس لدينا معلومات مباشرة فى هذا الشأن فيما يتعلق بالأرض الملكية التى كانت تخضع لإشراف ملكى بشكل مباشر، فإن هذا الاجراء كان مقررا ومرعيا بالنسبة لأراضى الهبات ولأنصبة الأراضى الخاصة بالجند ، ولدينا حالة مشهورة تردد ذكرها فى الوثائق البردية المنشورة وغير المنشورة ، وعرض لها العلماء من أمثال "روستوفتزف" و "كلير بريو" بالتعليق والتفسير وهى تتعلق بعدد من الفلاحين المجلوبين من إقليم "هليوبوليس" ليفلحوا ويصلحوا الأرض فى ضيعة "أبوللونيوس" بالفيوم وكانوا قد تعاقدوا بالفعل على أن يفلحوا ويصلحوا ألفا من هذه الأرورات فى هذه الضيعة الكبرى البالغة فى مجموعها عشرة آلاف من الأرورات ولكنهم لم يوفقوا

فى عملهم وأخذ المشرف وهـو المسـمى "داميس" (Damis) يضايقـهم ويحتقرهـم ويضيق عليهم الخناق ويلقى القبض على شيوخهم حتى أكرههم على أن يوقعـوا على تنازل عن عقد كانوا قد أبرموه بالفعل معـه وأشـاروا إلى سـوء حالتـهم فـى شكاياتهم الثلاثة ، واحـدة منـها لوزيـر الماليـة "أبوللونيـوس" صـاحب الضيعـة ، والأخرى للمدير الاقتصادى المقيم وهو "زويلوس" (Zoilos) والثالثة يطلبون فيـها تحديد موعد للقاء وزير المالية وشرح تلك الأخطاء الجسـيمة التـى لاحظوهـا فـى العمل ونوهوا بعدم وجود أخصائى يفهم فى العمـل أو لـه أيـة درايـة بمـا ينبغـى عمله ونحن نستدل من هذا التنازل عن عقـد كـان مبرمـا. ومـن الإشـارة إلى هـذا التنازل (graphē apostasiou) علـى أن هـذا النظـام المرعـى فـى إصـلاح الأراضـى وزراعتها اقتضى عمل عقود مع العاملين فى هذا القطاع ونحـن نذكـر هنـا أرقـام الوثائق:

Pap. London 2090; = Pap. Zenon, by Skeat Nos. 1954, 19555.

Pap. London 2094; = Sammelbuch 7986 + P. S.I. 502.

ثم كتاب "روستوفتزف" عن "الضيعـة الكـبرى" ص ص ٧٣- ٧٥ وكتـاب "كليربريو" عن "اليونان فى مصر" ص ٥٠- ٥١.

ولا ينبغى أن يغرب عن بالنا أن عقود الإيجار فى أواخر القرن الثانى كـانت فى أغلب الظن لآجال طويلة وفى بعض الأحيان لا يرد فيها ذكر لفـترات محـددة على الإطلاق وإنما كانت الأرض تجرى زراعتها فى الظروف العادية بـلا تأخـير إلى أن يتراءى للحكومة أن تعلن عن تأجير عام جديد (diamisthosis) ، ثـم تمضـى فى تنفيذه ، وليس لدينا من سبيل إلى التأكيد بأن صورا معينة من التعاقد كـانت مألوفة أو غير مألوفة فى صدر العصر البطلمى وإنما الذى شاهدناه هو مجرد إشارات إلى أنواع من التعاقد وتنازلات عن مثل هذه العقـود سـواء أكـانت عقـودا ايجاريـة لفلاحة الأرض أو لإصلاحها وتهيئتها للزراعة ، والغالب على الظن أن هذه العقود استحدثت فى عصر متأخر تحت ضغط الظروف والأحوال ، ويبدوا أنها كانت تمثل إجراءاً قديما ربما كان مطبقا منذ اقدم العصور ثم صـاحب ذلـك إجـراء عمـد إليـه البطالمة الأولون وهو ابتداع عقود لآجال قصيرة سايرت الإجراء القديم ولازمته.

قيمة إيجار الأرض:

كانت رقع الأراضى الملكية هذه يفلحها كما قلنا الفلاحون الملكيون ويدفعون عنها إيجارا سنويا للملك ويعرف هذا الإيجار بالاسم اليونانى الآتى (ekphorion) ، وقد يجول بخاطر الإنسان أن هذا الإيجار الذى يدفعه الفلاحون ، كان فى العصور السابقة على عصر البطالمة هو نصيب معلوم يقدر بعشرين فى المائة من المحصول أى الخمس (pars quota) ولو ان هذا التقدير ليس على سبيل اليقين ومع ذلك ففى العصر البطلمى كانت هذه النسبة غير ثابتة وتتراوح بين قدر متناسب مع المحصول أى أنها كانت تمثل (pars quanta) وليس قدرا ثابتا هو (pars quota) كما كان فى العصور السابقة على عهد البطالمة فالقدر المتناسب مع المحصول يكون مجزيا للحكومة وللملك بعكس الكمية الثابتة ، ويتحكم فى هذه القاعدة عدة اعتبارات ويخضع لعدة تغييرات طبقا للحالة الراهنة لكل قطعة من الأرض عقب الفيضان السنوى من حيث أن مياه الفيضان قد غمرتها أو لم تصل إليها ، وفضلا عن ذلك فالحكومة كانت تشارك فى الخير والمحصول الوفير إذا ما تم هذا ، وتتحمل وزر ما يحدث إذا ما أصيبت البلاد بقحط أو ندرة فى المحصول ، فهى فى الخير والشر لها نصيب ، وبالإضافة إلى الإيجار المستحق ، كان الفلاح يدفع عددا لا يحصى من الضرائب المختلفة. وقائمة الضرائب المفروضة عليه ، مع أنها غير كاملة، رهيبة للغاية فعدد الأرادب (artabae) من الحبوب المقرر تقديمها بمثابة إيجار عينى عن كل أرورا أو فدان يونانى ثم ما يضاف إلى ذلك من مقادير الحبوب التى تدفع سدادا لمختلف الضرائب الأخرى، كثيرا ما ترد إشارات إليها فيما لدينا من وثائق ولكن عندما نريد التعرف على المقدار بالضبط وتقدير ما كان يدفعه الفلاحون الملكيون للملك مما توفر لهم من محصول ، ندخل فى متاهات من الحدس والتخمين . ومما لا ريب فيه أن هذه النسبة لم تكن تقل عن النصف بل ربما كانت تزيد على النصف ، والفلاح الملكى كان بمقتضى عقد الإيجار المبرم معه ، ملزما بالقيام بفلاحة الأرض المعطاة له ، وكان مفروضا عليه أن يبقى فى القرية فى أثناء الفصل الزراعى إلى أن يوفى ما عليه من التزامات للملك ، وهذا الالتزام كان أمراً مسلما به ولا جدال فيه وعندما كان الفلاح يتسلم بذور القمح من الملك أو من أحد موظفيه كان يعترف صراحة بهذا الالتزام

ويقسم عليه قَسماً ملكيا وفى خلال الفصل الزراعى كانت عـين الحكومـة ترقبـه بواسـطة عـدد مـن الموظفـين مـن خفـر وحـراس (phylakes) ورئيـس القريـة (komarchēs) وكاتبها (komogrammateus) ونخص بالذكر من كل هؤلاء الموظفين الحكوميـين العديديـن طائفـة المديريـن الاقتصـاديين الذيـن عُرفـوا بالاسـم الآتـى (oikonomoi) والواحـد منـهم هـو (oikonomo) وهـم الممثلـون لوزيـر الماليـة أو (dioecetes) وكل منهم فى محافظته أو قسـمه الإقليمـى ، كـان يباشـر عملـه إمـا شـخصيا أو بواسـطة مندوبـين ومراقبـين منبثـين فـى أرجـاء البـلاد ولهـذا المديـر الاقتصادى أهمية فائقة فهو بمثابة دولاب الأعمال و "دينامو" الحركة فى إقليمـه ، واختصاصاته منوعة وأعماله تتسم بالدقة التامة ومجالات نشـاطه كثيرة ، نسـتأهل منا أن نُفرد له دراسة خاصـة ونخصـه بشـيء مـن العنايـة لتحديـد عملـه وتبّـين اختصاصاته فى الزراعة والصناعة والضرائب وتسوية الحسابات شهريا وسـنويا مـع الملتزمين المتعاقدين على جباية الضرائب على مختلـف أنواعـها ، وكـانت البـذور اللازمـة لزراعـة مختلـف الحبـوب وبخاصـة النباتـات الزيتيـة ، يتسـلمها أولئـك الفلاحون من الملك. ومن أولى الأغراض التى كانت تهدف إليها الحكومة مـن وراء هذه القروض الإجبارية هو الضمان الأكيد بأن رقع الأراضى المؤجرة للفلاحين يتم زراعتها بأفضل أنواع البذور وفى المواعيد المقررة لزراعة كل نبات ، بصرف النظـر عن الظروف الخاصة التى تحيط بالفلاحين فضلا عـن الضمـان بـأن تلـك البـذور المقدمة هى من نوع جيـد . وكـان مـن واجـب المديـر الاقتصـادى أن يحـول دون استخدام تلك البذور فى أغراض أخرى غير المخصصة لها. ولدينا فى وثيقـة برديـة مشهورة نشرت فى مجموعة بردى "تبتونيس" (قرية أم البرجـات بجنـوب الفيـوم) رقم ٧٠٣ سلسلة من النصائح الغالية التى كـان وزيـر الماليـة البطلميـة يـزود بـها هؤلاء المديرين الاقتصاديين ويحثهم على عدم التواكل فى عملهم وضـرورة السـهر والإشراف الدقيق على رعاية مصالح الفلاحين والتسرية عنهم إذا ما ألم بهم كـرب وإزالة أسباب شكاياتهم ورفع معنوياتهم ثم حتم عليهم المرور على الأرض بصفـة دورية للاطمئنان على أن عملية بذر البـذور قـد تمـت علـى الوجـه الأكمـل وأن الأرض قد أنبتت نباتا حسنا وتم ترقيع الأجزاء التى ماتت بذورها فلم تنبت.

الدورة الزراعية لها شأنها:

لم يكن الفلاح المصرى أو اليونانى حرا فى أن يفلح الأرض بحسب هـواه ، وإنما كانت هناك دورة زراعية سنوية نابعـة أصـلاً مـن أعمـاق الريـف ثـم تقرهـا الحكومة المركزية وتسهر على تنفيذها وتصدر التعليمـات الخاصـة بتنظيمـها بنـاءً على اقتصـاد ملكـى مُوّجـه فالاقتصـاد البطلمـى يخضـع لقواعـد تضعـها الدولـة (Economie dirigée) على حد قـول العالمـة البلجيكيـة الأسـتاذة "كلـيربريو" فـى كتابها المشهور عن اقتصاد اللاجيديين أو (البطالمة) وهو الكتاب الذى نشـرته عـام ١٩٣٩ وأصبحت نظرية الاقتصاد الموجه هى القاعدة المسلم بها ، استنادا إلى ما جـاء فى القوانين الضريبية (nomoi telonikoi) التى أصدرهـا "بطلميـوس فيلادلفـوس" عام ٢٥٩- ٢٥٨ ق.م فجاءت حاويـة لمعلومـات وأحكـام خاصـة بالزراعـة والبـذور والتصرف فى المحاصيل وجنيها ودفع المستحقات من الضرائب عليها بواسطة رهـط من الموظفين الذين يأتى على رأسهم الملتزمون والجباة تحت إشراف أولئك المديريـن الاقتصاديين (oikonomoi). وعلى ذلك كان كـل مديـر اقتصـادى يراعـى بمنتـهى الدقة هذه الدورة الزراعية (he diagraphē toû sporoû) وعليه إلزام الناس بتنفيذهـا والعمل بمقتضاها ، ولتحقيق ذلك وللتأكد من أن الأرض قد أفلحت على الوجـه الأكمل تعين على هذا الموظف الكبير أن يقوم بجولة تفتيشية يتفقد فيها ما يجرى فى أنحاء قسمه الإدارى وقت أن تكون الأرض لا تزال فى دور الإنبـات فيتـدارك أى أخطاء تكون قد وقعت ويأمر بالترقيع إن لزم الأمر ويصلح ذات البين إن وقـع خلاف ويُسَرّى عن المكروبين ويرفع من معنويات الناس. وهذه لمسـة اجتماعيـة لا ينبغـى أن يفوتنـا التنويـه عنـها كحسـنة مـن حسـنات النظـام البطلمـى والـروح الإنسانية (philanthropa) التى اتسم بها.

وعند فصل الحصاد كانت توضع رقابة شديدة على الفلاح الذى كان يكلف بجنى المحاصيل بوسائله الخاصة ويقوم بحصد القمح ثم ينقله إلى الأجـران ودرسـه بالنورج والمدراة وهذه أدوات عرفها الفلاح المصرى فى عصر البطالمة واستخدمها كما استخدم الطنبور الذى كان اختراعا يونانيا تطبيقا لقاعدة "أرشميدس" – وكان كل هذا يجـرى تحـت رقابـة الأجـهزة الإداريـة وإشـرافها وحراسـة خفـراء معينـين خصيصـاً لهـذا الغـرض لرقابـــة المحـاصيل . وهـؤلاء الحـراس كـانوا يسـمون

(genematon phylakes) وكانت الحبوب فى الجرن بعد فحصها تُقسم بين الملك والفلاح بنسبة ما إما (pars quanta أو pars quota) حسب الاتفاق المبرم مسبقًا ثم إن القدر الفائض أو المتبقى كان يسمى بالفائض (epigenema) بعد أن يتم الوفاء بجميع الالتزامات التى كان على الفلاح أن يوفيها للملك ، ثم يتم الإفراج عنه فيحصل الفلاح على إذن بالإفراج (aphesis) فيسمح له بنقل هذا الجزء إلى مسكنه أو إلى المقر الذى يقيم فيه. أما عن القمح والحبوب الخاصة بالدولة من فول وشعير وعدس وسمسم وكتان وخلافه ، فكان ينقل على حساب الفلاح إلى المستودعات الملكية والشون (Thesauroi) وهى منشرة فى طول البلاد وعرضها فى أعماق الريف فى القرية وفى الحواضر وفى المواقع الاستراتيجية ويجرى تسليمها فى هذه الشون إلى رؤساء هذه الشون وهم الذين كانوا يسمون أمناء الشون (sitologoi) ولهم شركاء (metochoi) وهم خزنة الغلال الذين يتسلمون المحصول ويعطون إيصالات عما يتسلمونه وكان يجرى التحفظ على الغلال فى أكوام هائلة وذلك بوضع أختام عليها من الجوانب ، يقوم بذلك ختامون (Sphragistai) متخصصون لذلك العمل حتى لا يعبث بها أحد بعد ختمها على هذا النحو البدائى وهى طريقة مألوفة فى الشرق لحفظ الغلال من عبث العابثين بها إلى أن يتم تشوينها ونقلها فى سفن . ذلك أن الغلال كانت تنقل من الشون المحلية إما بحرا فى النيل وقنواته العديدة أو برا على ظهور الجمال والحمير ودواب النقل الأخرى إلى الشون الكبرى الرئيسية ومنها تحويقها فى سفن نيلية ضخمة لها ربابنة يتسلمون عينات من المحاصيل التى تمتلئ بها سفنهم ويذكر فى الإيصالات أنها غلال مغربلة نظيفة وخالية من كذا وكذا فيسلمها الربان بدوره حسب المواصفات عند الوصول إلى الإسكندرية ، أما عن الإجراء الذى كان متبعا فى تحصيل القمح فكان منصوصاً عليه فى أمر ملكى خاص بذلك.

أما عن المحاصيل الأخرى بخلاف القمح فكان يطبق عليها طرق مماثلة لتلك ومن هذه المحاصيل القنب أو الكتان ثم العشب والكلأ الذى يستخدم لإطعام الماشية فكانت تخضع لعقود خاصة ويسرى مفعولها لفصل زراعى واحد كمحصول ثانوى دورى.

الأرض المخصصة للمعابد:

كان شق كبير من أرض مصر مما هو صالح للزراعة أو قابل للاستصلاح ينتمى فى العصر السابق لعصر البطالمة إلى المعابد وكانت هذه الأرض تعتبر كأنها ضيعة خاصة بأحد الآلهة وقد رُصد دخلها وإيرادها على إله أو إلهة من الإلهات العديدة فى مصر ، ومصر كانت تحظى فى عصر البطالمة بمجموعة من الآلهة المصرية والآلهة اليونانية التى تداخلت بعضها فى بعض بطريق التعرف والمقابلة والتماثل ، والأراضى المرصودة على كل هذه الآلهة كان يقوم بفلاحتها عبيد هذا الإله أو ذاك وهؤلاء كان يطلق عليهم فى الاصطلاح اليونانى "العبيد المقدسون". على أن بعض هذه الأراضى كان فى حوزة الكهنة ، الذين انتقل إليهم بطريق التوارث فكان من حقهم بيعه وتأجيره أو رهنه كما لو كان ملكا خاصا لهم ، أما الأنصبة من الأراضى التى كان يفلحها عبيد الإله فكانت كذلك مخصصة لهم لمدد غير محدودة ومن حق مستأجرها التصرف فيها حسب هواه وهنا يجب أن نضيف أن جميع سكان المعبد كانوا عبيداً للإله بصرف النظر عن مهنتهم ، بل كان كذلك الكهنة الذين كانوا يشغلون مراتب دنيا مثل رعاة الأوز (Chenoboskoi) وحراس الحيوانات المقدسة والقائمين على كل هؤلاء العبيد المقدسين (Heirodouloi)كانوا كذلك.

على أن هذا النظام الذى ألمحنا هنا إلى هيكله العام قد وصل إلى علمنا شذرات عنه بطريقة مبتورة من وثائق متناثرة من العصر الهللينستى وبخاصة فى العصر الأخير من هذه الحقبة ومن الوثائق الديموطيقية. وربما كان هذا ثمرة تطوره فى هذا العصر الهللينستى وربما كان هذا الوضع قد ورثه البطالمة عن الماضى فحرصوا عليه ولم يغيروا شيئا كثيرا فى معالمه الأساسية . وإنا لنعرف كيف أن البطالمة كانوا حريصين كل الحرص على عدم المساس بتغيير أى شيء فى العادات والعبادات والنظم المرعية فى المعابد فأبقوا عليها كما توارثوها منذ أقدم العصور إيثارا منهم لعدم إغضاب الكهنة المصريين وهم الذين كانوا يمثلون المعاقل الوطنية ومراكز المقاومة ، والبطالمة كانوا بالتأكيد حريصين على عدم تحويل أملاك المعابد أو إيراداتها إلى الأغراض العلمانية (فيما عدا ما يقال عن الانتفاع بإيرادات ضريبة الابومويرا المخصصة لعبادة "أرسينوى" الثانية التى رفعت إلى مرتبة الإلهات). وكان

هذا لأغراض علمانية والصرف منها على رواتب الموظفين. وعلى أى حال فلم يصل إلى سمعنا شيء عن أى مصادرات على نطاق واسع أو تحويل شيء من الأراضى المرصودة على المعابد إلى قطاع الأراضى الملكية كيما يلتهمها الملك بل على العكس حدث أن أسبغت على المعابد أنواع كثيرة من المنح والعطايا والحقوق مثل حق الجيرة والإيواء الذى توسع فى منحه ملوك البطالمة الأخيرون مثل "بطلميوس" العاشر الملقب "بالاسكندر" "وكليوباترة" الثالثة (١٠٧- ٩٦ ق.م) "وبطلميوس أوليتيس" والد "كليوباترة" السابعة بل "وكليوباترة" السابعة نفسها.

ومع ذلك فقد حدثت بعض التغييرات والتطورات فى العلاقة بين الملكية البطلمية وبين المعابد وقد وصل إلى علمنا بعض هذه التغيرات وكان من أولاها ما يتعلق بالمصطلحات. ففى التسوية التى أطلقت على أرض المعابد وهى (gē Heira) تطابق مع التسمية التى أطلقت على الأرض الملكية وهى (gē basilikē) ، وكان ظهور التسميتين فى الوثائق الخاصة بالعصر البطلمى مقترنة إحداهما بالأخرى دليل أيما دليلا على التعاصر والتشابه والتماثل فى المعاملة وفى مصدر الصياغة وهو واحد بالطبع. وإنه لمن الجلى أنه فى العصر البطلمى كانت الأرض الموقوفة على المعابد وكذلك الإيراد والدخل المتحصل من هذه الأراضى الشاسعة ، يؤلفان أحد الموارد الهامة فى بنود الاقتصاد الملكى ويمثلان شقا فى ميزانية البيت الملكى ، وعلى ذلك فهناك ارتباط وثيق بين الملك والمعابد - كل هذا نستشفه من تلك المصطلحات والتشابه فى التسمية ، وربما كان هذا الارتباط من صنع البطالمة الذين كانوا أول من ابتدعوه وربما لم يكن له وجود فى العصور السابقة على عصر البطالمة. وقد يجول بالخاطر أن البطالمة كانوا أول من قضى على الاستقلال الاقتصادى الذى كانت تتمتع به المعابد وقد سلبت من قبل استقلالها على يد الفرس وكان بعض ملوك الفرس وهم دارا "الأكبر" "وقمبيز" قد اتخذ بعض الإجراءات التى كانت تهدف إلى هذا الاتجاه وهو سلب المعابد استقلالها. وإنها لحقيقة معروفة أن "ارتاكزرسيس" (أوخوس) ودارا الثالث أظهرا عدم الاكتراث وقلة الاحترام للآلهة المصرية واستخفوا بالكهنة المصريين ولم يأبهوا بأى حقوق لهم، ولربما أن البطالمة الأولين عند تنظيم علاقاتهم بالمعابد حرصوا على إظهار شيء كثير من الاهتمام والاحترام بالمعابد المصرية ولا يجب أن ننسى أن الاسكندر الأكبر

لم يفته عند زيارته لمصر أن يقيم حفلا فى "ممفيس" للإله "بتاح" والإلهة "إيزيس" وأن يؤدى زيارة تقليدية لمعبد "آمون" (بتشديد الميم) فى سيوه وأن أثر هذه الزيارة كان سحريا وأخذ بألباب الكهنة واعتبر فاتحة جديدة بعد معاملة سيئة لقوها على يد الفرس. وهكذا أظهر البطالمة أنهم كانوا أكثر سخاء وأجزل عطاء من ملوك الفرس. وهناك ظواهر أخرى فيما جرى عن تنظيم شئون المعابد ، فيها إشارة واضحة إلى وجود علاقات وثيقة بين المعابد وبين ملوك البطالمة وهاهى بعض هذه المظاهر فالبطالمة هم أول من ابتدع وظيفة جديدة هى تلك التى عرفت فى الاصطلاح اليونانى بالاسم الآتى (epistates) ، وكان هذا الموظف فى أغلب الظن هو مرشح الملك والمعين من قبله وهو الممثل لديه والمسئول عن كل الالتزامات المالية التى للملك على المعبد. ومن هذه على سبيل المثال ما كان فى نطاق الصداقة والعلاقة الوثيقة بين الطرفين والإنتاج من نسيج الكتان الرفيع المسمى (byssos) ومن نبيذ معتق وخلافة والمثل الآخر الدال على ما كان للدولة من إشراف على شئون المعبد هو التصرف فى الوظائف واختيار الصالحين لها. وكانت الوظائف الكهنوتية على مختلف أنواعها لها أهميتها من الناحية الاقتصادية فهذه الوظائف الكهنوتية كانت تمثل مصادر إيراد وموارد رزق لابد منه ولها رواتب تدر على أصحابها دخلا كبيرا مثلما كان الحال عليه فى المعابد الشرقية. وقبل البطالمة كانت هذه الرواتب وموارد الدخل العريض الناجم عنها مخصصا فى أغلب الظن بواسطة المعابد للكهنة ولعبيد المعبد بنفس الطريقة التى خصصت بها الأراضى لهم ومعنى هذا أن هذه الوظائف وما ارتبط بها من رواتب كانت تباع لمن يدفع أكبر عطاء وقد طبقت هذه الطريقة فى عصر البطالمة ، فأصبحت الحكومة وليس الكهنة هى التى تتولى بيع هذه الوظائف وإبرام عقود البيع فى الوظائف غير الوراثية. أما الوظائف الوراثية فكان فيها الضمان بالحصول على رسوم تنصيب قبل أن يتولاها الورثة. ولدينا فى وثيقة (gnomon of idios logos) التى كانت تطبق فى النصف الأخير من الحكم البطلمى وفى مصر الرومانية عدة بنود تنظم هذه القاعدة . فنجد فيما بين المواد ٧١ حتى ٩٨ إشارات إلى وظائف كهنوتية كانت تباع وأخرى تورث وهذه وتلك كانت الدولة تحصل منها على مالية كبيرة. ومن هذا يتبين أن الحكومة

البطلمية والرومانية كانتا تتوليان الإشراف على ما يجرى فى الوظائف الكهنوتية وتداولها بين الشاغلين والصالحين لها.

ويحتمل جدا أن أراضى المعابد كانت تخضع فى أدائها لأسلوب شبيه من ذلك ، ومما لا ريب فيه أنه بالنسبة لإقليم الفيوم فى العصر البطلمى المتأخر كانت الإدارة المحلية تحتفظ فى سجلاتها ببيان عن أراضى المعابد ، أسوة بما كانت تفعله بالنسبة للأراضى الملكية وأنها كانت تتولى إشرافا دقيقا على زراعتها وتراقب القائمين بهذا العمل وتعتبر الدخل الوارد منها وهو الإيجار الذى كان يدفع بصورة أو بأخرى فى نظير استغلال هذه الأراضى ، كجزء من الإيراد الملكى فتحرص على أن الإيجار يدفع كاملا وأن الأراضى قد تمت زراعتها . وليس هذا النظام من مبتكرات البطالمة الأخيرين الذين اتسم حكمهم بالضعف والاستكانة ولم يكن فى مكنتهم الافتئات على المعابد ، بل على العكس توسعوا فى منح الحقوق والامتيازات لها فأسبغوا عليها حق الإيواء والجيرة (Heira asyla) وسمحوا لها بإقامة الشواهد فى مداخلها ومشارفها معلنة هذا الحق الملكى مسطرا باللغة اليونانية أو باللغة المصرية ومحذرة كل من ليس له شأن ألا يجتاز هذا الحرم المقدس أو يعتدى على من بداخله مستخدما القوة الغشومة وتصب اللعنة على كل من يرتكب شيئا من هذا. وفى أغلب الظن كان ذلك الارتباط الوثيق بين المعابد والحكومة فيما يتعلق بالأراضى المقدسة وليد العصر البطلمى الأول ، فالبطالمة الأولون هم الذين وضعوا هذا النظام أو أعادوه إلى ما كان عليه ، وغاية ما كانت الحكومة تصر عليه هو زراعة هذه الأراضى التابعة للمعابد على أحسن وجه والوفاء التام بالإيجار المستحق مسددا فى موعده لخزانة الدولة ، ولربما لم تكن الحكومة تتدخل فى تقاليد المعابد وطقوسها الدينية البحتة.

وأهم ما كان يعنى به الملك هو ألا تتكلف المعابد بأكثر من الدخل الناجم من مواردها وألا تكون معتمدة على منح أو هبات من الحكومة وفضلا عن ذلك فإنه كان حريصا على أن يكون هناك فائض وزيادة فى الدخل حتى يصل إلى جيب الملك ويصبح جزءا من موارده المنتظمة وليس فى وسعنا معرفة مقدار هذا الفائض. ولما كانت صيانة هذه المعابد تمثل مهمة باهظة التكاليف فمن المحتمل أن الشق الأكبر من هذا الدخل المتحصل من المعابد كان يعود عليها فى صورة عطاء

أو راتب (syntaxis) تدفعه الحكومة للمعابد. ونجد حالة شبيهة جدا فيما يتعلق بما نعرفه عن ضريبة الأبومويرا (apomoira) وهى ضريبة تقدر بالسدس أو العشر من حصيلة الكروم والبساتين فلما جاء "بطلميوس فيلادلفوس" أصدر بوصفه المهيمن على الشئون الخاصة بالآلهة والمعابد ، أمرا يقضى بأن هذا الدخل ينبغى تخصيصه منذ السنة ٢٥٨ق.م لتلك العبادة الجديدة لأخته وزوجته "أرسينوى" الثانية التى رفعت إلى مرتبة الإلهات بعد وفاتها وصدر القانون الخاص بذلك ضمن القوانين الضريبية (Nomoi Telonikoi) الخاصة بالتزام جباية الضرائب ، ومما لا ريب فيه أن جزءا من هذا الدخل المتحصل من تلك الضريبة كان يصرف على الأغراض المخصصة لذلك . وإذا كانت هذه العبادة الخاصة "بأرسينوى" قد أدخلت فى جميع المعابد فى مصر كما هو المحتمل ، فإن كل معبد كان يتسلم نصيبه أو قسطه منها وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن تلك الأموال كانت تصرف على المعابد الجديدة التى أنشئت للإلهة الجديدة ، وعلى أى حال فإنه عند وجود وفر وفائض من هذه الأموال فالحكومة كانت بالطبع تتصرف فيه حسبما يروق لها ، وهى فى الحق قد فعلت ذلك فصرفته على أغراض علمانية لا تمت للدين بصلة فدفعت منه أجورا لموظفيها ولدينا الدليل على ذلك فى وثيقة بردية منشورة فى مجموعة بردى "زينون" المحفوظة بجامعة كولومبيا بنيويورك رقم ٥٥ . (Pap.Columbia, Zenon, No 55)

ومع أن معلوماتنا طفيفة عن مقدار الأرض المرصودة على المعابد فالراجح أن هذا النوع من الأراضى كان يدار طبقا لنفس السياسة وتبعا لنفس الأسلوب المرعى فى الأرض الملكية وكان الهدف الأساسى من وراء ذلك كله الحرص على تقديم العون للمعابد باعتبارها نظما أساسية وهامة تابعة للدولة وهى المسئولة عن وجودها وبقائها سليمة وميسرة لمن يرتادونها فتؤمنهم على حياتهم وعلى المحافظة عليهم من أى شر يقع عليهم وهم فى داخل محاربها وحرمها المقدس ، وإذا حدث أن نجم عن الإدارة الحكيمة لهذه الأراضى أن وفت الأرض المقدسة بفائض من الإيراد مما قد وفرته الحكومة ، فإنه يكون من حقها كذلك أن تستخدم هذه الأموال على النحو الذى يروق لها ، وفى ضوء كل هذه الاعتبارات ليس من المؤكد ما إذا كانت المعابد قد باءت بخسارة أو حققت فائدة من التغيير فى أوضاعها. ومما

لا ريب فيه أن المعابد لم يرق فى نظرها هذا النظام الجديد الذى كانت فيه بعد أن أصبح للحكومة يد ظاهرة فى كل الخطوات فقد حرمت المعابد من الهيمنة "الأبوية" القديمة التى كانت لها على مواردها وقللت من نفوذ الكهنة فى شئون المعابد وفتحت أبواب المعابد على مصاريعها لمندوبى الحكومة الذين كان أغلبهم من الأجانب وليسوا من المصريين. وهذا وضع لم يكن محببا للكهنة بحال من الأحوال ولكنهم قبلوه على مضض وفى نفوسهم غصة وسارت الأمور على هذا النحو إلى أن حانت الفرص كيما يكيد الكهنة للبطالمة ويبثوا فى نفوس المصريين روح الوطنية ، والثورة على حكم البطالمة الأجنبى فكانت المعابد إذا بمثابة معاقل للقومية المصرية المتأججة.

الأراضي الممنوحة للضباط والجنود فى الجيش البطلمي:

إن الفلاحين الملكيين من ناحية والمعابد من ناحية أخرى ارتبط كلاهما ارتباطا وثيقا منذ أقدم العصور بالحياة الزراعية فى مصر ونحن نعلم أن البطالمة واجهتهم مشكلة ذات أهمية بالغة بالنسبة للجيش وتعبئته ودفع رواتب الجند وإسكانهم بوصفهم جيشا مرابطا ، شاء البطالمة له أن يكون تحت أيديهم ورهن إشارتهم فى أى وقت ولا يتحكم فيهم أحد من حكام البلاد التى يستوردون منها القوات المرتزقة التى كان يتألف منها جيشهم هذا ، وبالطبع لم يجل بخاطر أى من الملوك البطالمة الأولين الاعتماد على القوات المصرية المحاربة وطبقات المليشيا من العناصر المصرية التى أطلقوا عليها الاصطلاح اليونانى وهو (machimoi) حسب الوصف الذى نعتهم به "هيرودوت" وحمله من معانى التحقير والازدراء الشيء الكثير من حيث الملبس والمظهر والتدريب والسلاح ، مما جعل اليونان ينفرون منه ولا يُعولون عليه . وعلى ذلك لم يدر بخلد البطالمة أن يُحوّلوا هذه الفرق العسكرية الوطنية إلى جيش قومى دائم. ومن الجانب الآخر هناك ناحية لها خطورتها - وتلك هى الارتباط بالصرف على جيش دائم من المرتزقة ودفع رواتب الجند فتلك كانت تكاليف باهظة للغاية وقد لا تقوى عليها موارد مصر المالية وهى إذ ذاك كانت لا تزال حديثة العهد بالنقد وتعتمد فى كثير من موارد الحياة على أسلوب المقايضة والتبادل العينى ، فأنّى لها بالكنوز الهائلة من النقد للصرف على جيش مرتزق ، تلك مشكلة عويصة واجهها البطالمة وبحرص وشجاعة استطاعوا حلها فى شيء كثير من الذكاء والفطنة. وكان المعروف منذ أول الأمر أن الحاجة إلى جيش مرابط هى حاجة مُلحة وأن بقاء الجيش فى معسكراته معظم الوقت رهن إشارة الحكومة أمر مسلم به . ولحل هذا الأشكال عمد البطالمة إلى الاهتداء من ناحية بالتقاليد المصرية ومن ناحية أخرى إلى تطبيق تجربة الاسكندر الأكبر وخلفائه وما مارسوه فى هذا الشأن من حيث الاعتماد إلى حد ما على الأنموذج اليونانى وبخاصة الأثينىَ وهو اتباع نظام تمليك الأرض (Kleruchies) أو الإقطاعات العسكرية الممنوحة للجند من الأرض ، يحوزون إياها ويحصلون على الإيراد الناجم من محاصيلها فى مقابل أداء الخدمة العسكرية وتلبية نداء الواجب

العسكرى متى نُفخ فى البوق ودعا الداعى إلى ذلك إما فى التدريب السنوى أو فى خوض المعارك.

وهكذا احتفظ ملوك البطالمة المتعاقبون بجيش قائم ومرابط يتألف من المقدونيين والمرتزقة على مختلف جنسياتهم من يونان وآسيويين ومن على شاكلتهم ممن اصطبغوا بالصبغة اليونانية وكانوا يدفعون الجزء الأكبر من أجور الجيش لا نقدا وعينا كما كان يألفه الناس إذ ذاك وإنما عينا فقط وكان هذا بالتخصيص عبارة عن رقع من الأرض مقسمة إلى أنصبة متفاوتة فى المساحة مما يستحوذ عليها كل واحد من هؤلاء بحسب رتبته العسكرية والسلاح الذى ينتمى إليه من فرسان ومشاة وبحارة فى الأسطول وكانت هذه الرقع تبدأ من خمسة أرورات إلى خمسة وعشرين ، وخمسين وستين وسبعين وثمانين وتسعين ومائة ومائة وعشرين ، وهكذا فمن الـ (Pentarouros) صاحب الفدادين الخمسة إلى (hekatontarouros) صاحب المائة فدان يونانى .. الخ. وكان المفروض أن الدخل السنوى الناجم من محصول هذه الأرض الممنوحة يكفى للوفاء بحاجيات الجند وأسرهم فيمدهم بما يلزمهم من أقوات وسبل العيش - وعلى أى حال فلابد أن هذا كان يسد رمقهم ويدفع عنهم الحاجة إلى مد أيديهم للغير. وكان الأفراد الذين تسلموا من الملك مثل هذه الرقع من الأرض يطلق عليهم كلمة أصبح لها مدلولها فى التاريخ البطلمى وهى (hoi Kleruchoi) أى الحائزون لتلك الأنصبة ، صغيرها أو كبيرها على حد سواء أما النظام نفسه فيطلق عليه كلمة (Kleruchia) وقد عرض له عالمان فرنسيان مشهوران أولهما "ليسكيه" (Lesquier , Institutions Militaires des Lagides) وهذا الكتاب صدر سنة ١٩١١. ثم جاء عالم فرنسى آخر فى الخمسينات اسمه "لونى" (Launey) فأصدر كتابا ضخما من جزئين عن الجيوش الهيللينستية والأبحاث المتصلة بها وأفرد للبطالمة فصولا مستفيضة (Recherches sur l'Armée Hellenistique) عام ١٩٥٠ فمن يريد الاستزادة فى هذا المجال فعليه أن يرجع لهذين المؤلفين ، فالموضوع شائق وله جوانب طريفة ويمثل ركنا فى الحضارة البطلمية وواجهة مشرقة لها. فالجيش البطلمى لم يكن جيشا عاطلا أو متوفرا على الجانب العسكرى من حروب وخلافه وإنما كان أداة تحضير وتمدين وإصلاح فى مجالات عديدة من زراعة وصناعة وخلافه ، وفضلاً عن ذلك كان أداة تحضير وتمدين

وإصلاح فى مجالات عديدة من زراعة وصناعة وتجارة وبناء وتعمير واقتصاد وتعليم وثقافة ورياضة وموسيقى. فالجندى اليونانى لم يغفل أبدا عن مباشرة أوجه النشاط المحببة إلى قلبه والتى ألفها فى بلاده ، والحكومة البطلمية من جانبها كانت تحث الجند والضباط على أن يعكفوا على هذه النواحى الثقافية حتى يكونوا مرآة لغيرهم يحاكيها من حولهم من المصريين . ومن هذه الزاوية يمكن أن نعتبر الجيش البطلمى المرابط أداة تحضر فعالة فالمصريين اختلطوا بهذا الجيش الذى أقام بين ظهرانيهم واحتكوا بأفراده فى الحقل وفى الجرن وفى المسكن فتأثر بهم المصريون من حيث لا يدرون.

أما عن الكيفية التى نشأ بها هذا النظام وترعرع فى جنبات مصر على عهد كل من "بطلميوس" الأول (سوتير) وابنه "بطلميوس" الثانى (فيلادلفوس) طوال حقبة تربو على الثمانين عاما وعن الأسلوب التمهيدى الذى طبق به ثم مدى التوسع فيه فإنا نعترف أن معلوماتنا فى هذا الشأن طفيفة ، وكل ما نستطيع قوله هو التأكيد بأن البطالمة عندما اكتسبوا هذا النظام ، كانوا متأثرين بأن الاسكندر اتبعه وأن أحد خلفائه وهو "سلوقوس" طبقه فى الشام فأسكن جنده فى جموع هائلة فى مدن أو فى مستعمرات خاصة بالجند أطلق عليها اسماً دالاً على كيانها وتستمتع بنصيب من الحكم الذاتى ، ولكن البطالمة لم ينحوا نحو هذا الأسلوب وتحاشوا عيوبه التى لم تكن لتخفى عنهم فى تجميع الجند على هذا النحو وليس هذا من الحكمة فى شيء من وجهة النظر السياسية البحتة - أما الجند اليونان فى الجيش المصرى فقد روعى فى توزيعهم أن ينتشروا فى جميع أرجاء البلاد بين قاصيها ودانيها وكانت رقع الأراضى الممنوحة لهم لم تقع فى أحيان كثيرة فى نطاق القرى القديمة أو العتيقة وفى أحيان أخرى كثيرة فى نطاق القرى والبلدان المنشأة حديثا ، على حواف الصحراء بإقليم الفيوم فعلا. ولنضرب مثلا حيا على ذلك فى نطاق بلدة أو قرية فيلادلفيا وهى المنشأة الحديثة العهد التى أقامها "أبوللونيوس" وزير مالية "فيلادلفوس" واتخذ منها انموذجاً يحتذى به فى التخطيط فنُسّقت شوارعها على النحو الذى نُسّقت عليه الإسكندرية نفسها من اتباع الأسلوب الحديث إذ ذاك وهو الذى خططه المهندس اليونانى "هيبودامس" وهو أن تكون علي شكل رقعة الشطرنج فى تنسيق شوارعها المستقيمة والمتقاطعة وبها

بواتك على جانبيها وأحياء سكنية وشوارع مخصصة لبناء المعابد من مصرية صميمة ويونانية مجلوبة. وفى فيلادلفيا هذه أسكن عددا ضخما من هؤلاء الجند سواء منهم من كانوا حديث العهد بالجندية ، أو من كانوا من قدامى الجند المخضرمين بين مشاة وفرسان وكان لهم سكرتير خاص يرعى مصالحهم ويشرف عليهم فى نطاق "فيلادلفيا" وما يحيط بها من قرى مجاورة. ولربما كانت رقع الأراضى المخصصة لأولئك الجند فى هذا الزمام الواسع لا تمثل جزءا من الهبة أو الضيعة التى بلغت عشرة آلاف من الأرورات وقد أسبغها "بطلميوس فيلادلفوس" على كبير وزرائه تقديرا له ومكافأة على نشاطه.

وكانت هذه الحصص أو الأنصبة العسكرية الممنوحة لطبقات من الضباط والجند على مختلف مراتبهم تتفاوت فى مقدارها بحسب منزلة صاحبها ولربما روعى فى ذلك التوزيع الأقدمية فى الرتب والأسبقية فى التجنيد والبلاء الحسن فى القتال والعنصر الذى ينتمى إليه الجندى أو الضابط. وعلى أى حال فقد اختلفت الموازين التى بمقتضاها كان يتم هذا التحديد لرقعة الأرض والثابت أنه لم تكن هناك قاعدة واحدة كان بمقتضاها يتم هذا التحديد لرقعة الأرض. والثابت كذلك أنه لم تكن هناك قاعدة واحدة متناسقة فى هذا الشأن وأكبر الحصص كانت فى القليل النادر لا تفوق مائة أرورات وبلغت مائة وعشرين من الأرورات فى أحيان أخرى. والأرض سواء ما كان منها منزرعا أو حديث العهد بالإصلاح والتمهيد للاستزراع، جرى تسليمها لأولئك الجند والضباط وهى فى حالة لا بأس بها من الصلاحية بحيث يستطيعون معها أن يبدءوا زراعتها أو يشرعوا فى إعدادها للزراعة فى القريب العاجل ، وبها من وسائل الرى والصرف ما يكفى على الأقل للشروع فى زراعتها فورا. ثم كان على هؤلاء الجند أن يعملوا على إدخال بعض التحسينات بأنفسهم وعلى نفقتهم الخاصة وتحت مسئوليتهم وكانت الدولة تقدم لهم العون اللازم وتمدهم بالقروض "نقدا وعينا" وتمهلهم إلى سعة حتى يردوا ما اقترضوه.

ولما كان أولئك الجند معرضين باستمرار لداعى التعبئة العامة أو الاستدعاء (epaggelma) بين حين وآخر إذا ما دعا داعى الحرب أو لأداء الخدمة فى الحصون والاستحكامات فى أماكن نائية فى مصر أو فى الخارج أو لأداء الخدمة العسكرية

فى الإسكندرية فى حامية الملك وقوات الحرس الملكى أو للقيام بالمناورات فى الصحراء وفى حواف المدن - لهذا كله اصبح هؤلاء الجند فى حيرة من أمرهم بين الواجب العسكرى وبين طلب الرزق من استثمار هذه الأراضى على الوجه الأكمل، وكان التوفيق بين الحالين أمراً صعب المنال.

وعلى أى حال فهؤلاء الجند كانوا بالتأكيد مشغولين عن الأرض الزراعية ، وخاصة فى العصر البطلمى حيث كانت الحروب الخارجية على أشدها وتكاد تكون متواصلة وعلى مدى سنوات متصلة من حكم "بطلميوس" الثالث نفسه الذى خرج للحرب عبر الفرات فى بابل لبضع سنين وكانت زوجته برينيقة "البرقاوية" قلقة عليه ، وكانت تذهب كل يوم إلى معبد فى "كانوبوس" (أبى قير) وتدعو له بسلامة العودة وقصت خصلة من شعرها ورصدتها قربانا لذلك. ومن هنا طلع الفلكى اليونانى بفكرة نجم الشعرة بعد أن رصد السماء فوجد لها مثيلا وكتب الشاعر البرقاوى أو القيرينى "كاليماخوس" قصيدة بهذا المعنى. وهكذا لم يعد الجند والحالة هذه بقادرين على الوفاء للأرض بما تتطلبه من واجبات وأعباء موسمية بل ويومية فهذه الحصص من الأرض لابد من حصدها وتشوينها وتسويقها ....إلخ من الأعمال الزراعية المتوالية. ولذلك اضطر غالبية الجند إلى تأجير حصصهم للغير فى كثير من الأحوال ووجدوا المتطلعين إلى تحمل هذا العبء بشغف وكان "زينون" (Zenon) وكيل "أبوللونيوس" والمشرف على ضيعة هذا الوزير فى فيلادلفيا من السباقين إلى تقبل الإشراف على هذه الرقع من الأرض وكان له دور كبير فى إدارة هذه الأراضى الواقعة فى زمام فيلادلفيا والقرى المجاورة ، وفى بعض الحالات النادرة وبخاصة قبل أن تعمد الحكومة البطلمية إلى تخصيص هذه الأراضى للجند بصفة نهائية كانت الحكومة تضطلع بنفسها زراعة هذه الأنصبة من الأراضى ثم تقوم بتسليم المحصول الناتج منها إلى الجند ولدينا مثل على ذلك فى وثيقة بردية مشهورة فى بردية "فرايبورج".

ولا تزال هناك تفاصيل عديدة متعلقة بهذه الأنصبة من الأراضى التى كان يشوبها فى كثير من الأحوال الغموض ، وتحتاج إلى مزيد من الشرح والتفسير. ومن أمثلة تلك الحالات التى انقسم فيها النصيب من الأرض إلى شقين على

اعتبار أن كله أو نصفه كان يعامل معاملة الحصص الأخرى أى الكليرات وذلك بأن يدفع عنه ضرائب وليس إيجاراً ينبغى أن يوفيه الجندى عن إقطاعيته.

أما النصف الآخر فكأنما هو يمثل جزءا من الأرض الملكية التى استحق أن يدفع عنه إيجاراً (انظر الوثيقة البردية المنشورة فى مجموعة بردى "تبتونيس" – رقم ٤٦).

وفضلا عن هذه الأنصبة من الأراضى المخصصة للجند على سبيل العطاء أو الأجر فى نظير انضوائهم فى سلك الجندية وهّى أساسا جندية محترفة للارتزاق – كانت الدولة تسبغ عنايتها على الجند بأن تخصص لهم محلات للسكنى إما فى ثكنات أو قشلاقات: (Skenae, Katalyseis) أو تنزلهم فى بيوتات (oikemata) يحلون فيها على سكانها الأصليين ويخصص لهم فيها إما النصف أو بعض الطوابق أو فى الحوش المحيط بالمسكن (Peribolē) ويطلق على هذا النظام كلمة (Stathmodosia) والمساكن هى (Stathmoi) والساكن أو النزيل (Epistathmos) أما صاحب البيت فكان يطلق عليه (Stathmouchos) أو (Kyrios) . وما أكثر تلك الخلافات والمشاحنات بين المالك الأصلى والنزيل وما أكثر الشكايات التى كانت تُرفع إما للملك أو لأحد كبار موظفيه ، وتجرى تسويتها بالطرق السلمية أو الودية، فإن تعذر ذلك تُعرض القضية على محكمة (Chrematistai) أو المحكمة المختلطة (Koinodikion) للفصل فيها. وفى القرى التى أنشأها البطالمة مثل قرية فيلادلفيا كان الأمر يسير على ما يرام إذ كان من السهل بناء وتشييد مساكن جديدة لإيواء أولئك الجند دون مساس بأحد وكان هذا التشييد والبناء على حساب الملك أما فى البلدان والقرى القديمة مثل إدفو (Apollonopolis) وضاحية "أرسينوى" الموجودة فى كنفها فقد ترامى إلى سمع "بطلميوس فيلادلفوس" أن الجند يتصرفون تصرفات سيئة ويعبثون بحقوق الغير ولا ينتظرون حتى تخصص لهم المساكن بواسطة الموظف المختص وهو مدير الشئون الاقتصادية (Oikonomos) وهو المكلف بتوزيع المساكن على الجند ثم يحلون على الأهالى وإنما يستخدمون القوة الغشومة (bia) ويقتحمون البيوت ويطردون سكانها الأصليين ويحلون محلهم فقد كتب الملك بهذا المعنى إلى سكرتير أولئك الجند وكان يسمى "أنطيوخوس" (Antiochus) بأن يمنع حدوث مثل هذه التصرفات السقيمة مستقبلا وألا يعطى

الجند من السكن إلا ما هو ضرورى وأنه إذا ما طلب إلى هؤلاء الجند بأن يذهبوا للتدريبات العسكرية فعليهم أن يعيدوا المساكن إلى حالتها الأولى وألا يغلقوها ويضعوا عليها الأختام كما لو كانت ملكا لهم وحتى يعودوا إليها مرة ثانية وإنما يعيدونها إلى حالتها الأولى ، ذلك أن هذه المساكن العسكرية هى ملكية وملك للملك (hoi gar stahmoi basilikoi eisi). وتلك هى الجملة اليونانية التقليدية التى وردت أكثر من مرة فى الأوامر الملكية التى أصدرها "بطلميوس فيلادلفوس" وهى خاصة بموضوع إسكان الجند . ثم ختم بطلميوس خطابه هذا إلى "أنطيوخوس" بأن يبتعد الجند عن قرية "أرسينوى" بقدر المستطاع وإذا لزم الأمر فعليهم أن يبنوا لأنفسهم بيوتا (oikemata) من اللبن كما كان يفعل أسلافهم فى مثل هذه الظروف. ولعل السبب فى كل هذه المتاعب كان يتمثل فى قلة مواد البناء وفقر البلاد فى الأخشاب وضرورة استيراد الأخشاب الصالحة من شجر الأرز من لبنان وسوريا. ومما زاد الطين بلة كثافة السكان وضيق الرقعة السكنية مما دعا إلى إحلال الجند فى بيوت الأهالى بمقتضى أوامر صادرة من الملك وكان هذا التصرف مدعاة إلى الاحتكاك وسببا فى الشحناء والبغضاء بين الطرفين ، بل وفى العراك الدموى بين طرفى النزاع. وهكذا شهدنا منذ الأيام الأولى فى حكم البطالمة نظام إسكان الجند وما جره من مساوئ ، بإحلال الجند على الأهالى دون جريرة أو ذنب اقترفه صاحب المسكن الأصلى. وعلى ذلك يمكن القول أن إسكان الجند بهذه الطريقة التعسفية والعشوائية كان يمثل عيبا خطيرا فى النظم العسكرية البطلمية ومصدرا لإثارة الأهالى باستمرار ولعل التشريع الذى أصدره "بطلميوس يورجتيس" الثانى عام ١١٨ ق.م وسوى به الخلاف مع زوجته كليوباترة الثانية وأنهى به الحرب الطاحنة بين الطرفين ، خفف من هذه المشكلة بإعفائه بعض الطبقات من أن يحل عليها أى نزلاء وتلك الطبقات هى الجند ثم الكهنة ثم القطارون للجعة والعصارون للزيوت ورعاة الأوز المقدسة والنساجون ورعاة الخنازير والنحالون ، واستثنى من ذلك أصحاب البيت الواحد من تحمل هذا العبء وجعل نصف البيت الثانى إن وجد ، هو الذى يمكن أن يحل فيه أحد من أولئك الجند.

وفى القرن الثالث قبل الميلاد لم يكن قصد البطالمة أن يجعلوا من الجند مُلاّكا حقيقيين فتلك الأنصبة من الأراضى التى اقتطعوا إياها وتلك المحلات السكنية التى حلوا عليها أو نزلوا فيها كانت كلها عقارات ملكية ، أعطيت على سبيل المنحة القابلة للاسترداد فى أى وقت حسب رغبة الملك فلم يكن للضابط أو للجندى الحائز لنصيب من هذه الأرض أو الساكن فى نصف بيت أو طابق منه أو نزيل بالحديقة المحيطة بالمنزل ، إن وجدت ، أن يتصرف فيها بالبيع أو الرهن أو الهبة أو التأجير من الباطن أو الاستدانة والرهن على هذا المسكن فهذا كله محرم بل وهناك عقوبات صارمة تقضى بدفع خمسة أمثال أو ثلاثة أمثال ما قد أخذه الواحد منهم من مال على سبيل الغرامة (prostimon). وفضلا عن ذلك إذا ما طرد زميله مستخدما فى ذلك القوة الغشومة (apobiasamenos) دفع عن المسكن الأصلى ثلاثين دراخمة عن كل شهر وستين دراخمة عن المسكن فى الحديقة عن كل شهر طوال المدة التى أدين فيها وثبت أنه ارتكب هذه الحماقة وهى طرد زميله. على أنه فى واقع الأمر إذا سارت الأمور على ما يرام وساد الوئام بين الطرفين كان الضابط أو الجندى يُترك وشأنه متمتعا بما حازه من أرض ومسكن ولا يكدر صفوه أحد ولا يدفع إيجارا عن هذا المسكن فهو منْحة من الملك ولا أجر عليه ، إلى أن يموت الجندى فينتقل الوضع إلى ابنه من بعده وإلى زوجته فتبقى فى مكانها. وفى الواقع كنا نجد فى بعض الحالات أن الابن يمثل كشريك مع أبيه فى دفع الايجار عن النصيب من الأرض ويشار إليه على أنه شريك (sygkleros) (انظر البردية المنشورة فى مجموعة المتحف المصرى فى مجموعة بردى "زينون" (Pap. Cairo Zenon No. 59001) وما جاء بها من هامش على السطرين ٤٦ و ٥١.

وكان الجنود الحائزون لأنصبة من هذه الأراضى يدفعون العديد من الضرائب المستحقة على هذه الأنصبة وكانت بعض هذه الضرائب أشبه ما تكون بتلك التى كان يدفعها الفلاحون الملكيون وهاهى بعض هذه الضرائب : ضريبة التاج (stephanos) وضريبة معتدلة على الأرض المنزرعة مقدرة بعدد من الأرادب (artabaia) وضريبة لصيانة الجسور (chomatikon) وأخرى للخفارة والحراسة (phylakitikon) وضريبة فى نظير الخدمة الطبية (iatrikon) ولربما كانت هناك ضرائب أخرى بخلاف تلك الضرائب المعتادة التى كان يشارك فى دفعها باقى

السكان فى مصر . ولم يكن أولئك الجنود الحائزون لأنصبة من الأراضى عُرْضة للقيام بأعباء وتكاليف إجبارية ولكن الملك كان حرا فى أن يطلب إليهم أداء أى خدمات غير اعتيادية على سبيل السخرة (Leitourgia) فى حالات الطوارئ والملمات ، شأنهم فى ذلك شأن باقى السكان فى مصر.

وهذا النظام القاضى بتخصيص رقع متفاوتة فى مساحتها من الأراضى المنزرعة لطوائف من الجند والضباط من أجل توفير سُبل العيش والرزق لهم وتزويدهم بمورد محتّرم ويُدر عليهم دخلا منتظما ويجعلهم فى غير حاجة لمساعدة الغير ، تطلب هذا منهم قدرا كبيرا من الإشراف الإدارى المتواصل فالحائز منهم لحصة أو نصيب من هذه الأرض (Kleros) كان مسئولا أمام الحكومة عن زراعتها وكان بدوره يخضع لرقابة شديدة من رؤسائه وكذلك من الموظفين فى السلك الإدارى. وعلى سبيل المثال كانت القاعدة بخصوص التقاوى وبذور القمح (sitos) التى كانت الحكومة تقدمها على سبيل القروض ، يجرى تطبيقها عليه كذلك ، ومع ذلك فالجندى الحائز لنصيب من الأرض كان أكثر حرية من الفلاح الملكى فى كيفية تصريفه وإدارته لهذا النصيب. أما نظام الدورة الزراعية (diagraphe toû sporôu) أو التوزيع الرسمى للمحاصيل ، فلم يكن مطبقا على هذه الأنصبة العسكرية . وفيما عدا بعض المحاصيل (وهى النباتات الزيتية وربما الحشائش) كان الحائز لنصيب من هذه الأراضى حرا فى فلاحة أرضه على النحو الذى يروق له. ولكننا نعرف أن بعضا من هؤلاء بدلا من زراعة الحبوب ، قد حولوا أنصبتهم وحصصهم من تلك الأراضى أو جزءا منها على الأقل إلى كروم وأحراش الزيتون أو حدائق ، ولعلهم عمدوا إلى هذا التصرف بعد الحصول على إذن خاص من الحكومة وبالشروط المألوفة المطبقة بالنسبة لغرس الأرض (kataphyteusis).

على أن الملك كان مع ذلك يعتبر نفسه صاحب هذه الأنصبة من الأراضى وحقه فيما تخرجه هذه الأراضى من بطونها وما تلفظه من إنتاج يأتى فى المقام الأول. وكما هو الحال بالنسبة للفلاحين الملكيين ، كانت المحاصيل يتم التحفظ عليها بوضعها تحت أعين الحراسة إلى أن يتم الوفاء بدفع الضرائب المستحقة على هذا الجندى الحائز لذلك النصيب ، ولا يحق له أن ينقل لمسكنه شيئاً من نصيبه

من هذه المحاصيل أو يزيحه من الحقول أو الأجران حتى يحصل على تصريح بالإفراج عنها (aphesis) من الموظفين الملكيين.

كان هدف البطالمة من إنشاء النظام الإقطاعى الملقب باسم "الكليروكى" وهو القاضى بتخصيص حصص وأنصبة من الأراضى لطائفة الجند كيما ينتفعوا بنصيب مما تنتجه هذه الأراضى على سبيل الأجر العينى عن تلك الخدمات العسكرية التى يؤدونها للدولة - يرمى إلى تحقيق عدة أغراض ، بعضها سياسى وبعضها الآخر اقتصادى بحت. وقد ألمحنا إلى بعض منها من قبل ، وهناك اعتبارات أخرى منها أن ندرة العملة المسكوكة قد تكون أحد الدوافع إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء ، وإن لم تكن هى الباعث الأساسى. وهناك أمور أخرى ذات أهمية بالغة كان من أولاها تلك الرغبة الأكيدة فى ربط أفراد الجيش بمصر وجعلهم يتخذون من هذا الوطن بلدا آمنا لهم ثم هناك الرغبة فى إقامة علاقات وثيقة ووطيدة بين الملك والجيش ، ويأتى فى المقام الثانى حرص الحكومة على إدخال أساليب جديدة فى العمل الزراعى وابتداع روح اقتصادية وعلمية مجلوبة من الخارج وبثها فى أرجاء البلاد فتدب فيها روح متطورة. ومن المؤكد أن أولئك الجند الحائزين لأنصبة من الأراضى لم يكونوا ملاكا بعيدين عن أراضيهم غير آبهين بإقطاعاتهم هذه ، بل على العكس أظهروا رغم بعد الشقة ،اهتماما بالغا بأراضيهم هذه ، وهى التى تمثل مصدر رزقهم الأساسى ، وفى مكاتبات "زينون" وأرشيفه المشهور رسائل عديدة دالة على مبلغ الاهتمام الشديد الذى كان يظهره هؤلاء من ثنايا رسائلهم "لزينون" وغيره من الشخصيات فى نطاق فيلادلفيا ، بما شيدوه وأقاموه من مساكن وبيوت ريفية جديدة ، زينت ونسقت على أحدث الطرز المرعية فى الإسكندرية ، وكانت تحيط بها الحدائق والزرائب وطليت جدرانها بالجص وزينت حجراتها بالأرائك. وفضلا عن ذلك كله فقدْ كان أولئك الجند يعنون بما كانوا يربونه من ماشية وطيور ودواجن . وبما كانوا يزرعونه فى أراضيهم من أشجار. وكان هؤلاء قد ألفوا حياة الريف وأخذوا يترددون عليه بين حين وآخر ، وكان بعض هؤلاء من الخبراء المهرة فى شئون الزراعة وغرس الكروم وأشجار الزيتون وتربية الأغنام والماشية. وعلى ذلك رحبوا بأن يصبحوا أصحاب أراضى زراعية فى ريف مصر مرة أخرى والعودة إلى العمل الذى ألفوه وأحبوه ولو على فترات

متقطعة ، ولابد أن نذكر هنا أن بلاد اليونان وآسيا الصغرى كانت لا تزال إلى حد كبير بلادا تقوم فيها الحياة الاقتصادية على الزراعة. وأخيرا كان البطالمة يبغون أن تبقى الأموال التى تسلمها جنودهم كأجراء أو كنصيب لهم من الأسلاب والمغانم أو بمعنى آخر تبقى جميع مدخرات هؤلاء الجند فى مصر ولا ينبغى أن تتسرب إلى الخارج وإنما تصبح محبوسة أو مستغلة فى مصر - وأفضل نوع من الاستغلال هو تشغيلها فى الأراضى التى ربما بقيت رقع فسيحة منها دون زراعة ، لو لم يتم تنفيذ مثل هذا الإجراء . وكان العمل الزراعى فى مصر دائما عزيز المنال ، بينما كان مدى اتساع رقعة الأرض الزراعية فى البلاد قابلا للزيادة باستمرار ، فكلما توفر المال والرجال الأكفاء وانعقدت العزيمة على بذل الجهد ، زادت الرقعة الزراعية واتسع نطاقها.

أراضى الهبات (Doreae):

إن نفس هذه الاعتبارات الآنفة الذكر هى التى حدت بالبطالمة إلى أن يسبغوا أراضى على موظفيهم المدنيين فمنحوا هبات شاسعة من الأراضى على سبيل المنح والعطايا (doreae) . وكان البطالمة الأولون وبخاصة "بطلميوس فيلادلفوس" قد توسعوا فى إسباغ هذه المنح والهبات ، فمنحوا أعوانهم الكبار فى الشئون العسكرية والشئون المدنية. رقعا فسيحة وقد وردت إشارات عديدة إلى مثل هذه الهبات فى المصادر التى فى متناولنا ومعرفتنا بواحدة منها وهى ضيعة "أبوللونيوس" فى الفيوم ومركزها "فيلادلفيا" ، وثيقة بفضل ذلك الأرشيف من وثائق البردى الذى عرف بأرشيف "زينون" ، وقد جاء حاويا لأكثر من ألفين من الوثائق البردية فى شتى الموضوعات العامة والخاصة وبذلك ألقى أضواءا ساطعة على ذلك النشاط المحموم الذى بذل فى استصلاح أراضى هذه الضيعة وغرس الأشجار فى جنباتها حتى أصبحت جنة فيحاء وأصبحت قبلة أنظار الزائرين من مصر والخارج. وقد سرد لنا العالم الروسى "روستوفتزف" فى كتابه (A Large Estate in Egypt) ألوانا من الحياة فى هذه الضيعة وفضل لنا تلك الجهود المبذولة فى إصلاح الأراضى وكان يستقى معلوماته من الوثائق البردية التى كانت تحت تصرفه فى عام ١٩٢٢ عندما أصدر كتابه هذا. وبعد هذا التاريخ ظهرت مئات الوثائق التى تحكى لنا ألوانا أخرى شائقة عن الحياة فى خضم هذا المجتمع الزاخر

النشاط ، وفضلا عن الميل الطبيعى لدى المالك الثرى فى أن يربط أعوانه ومساعديه الأساسيين برباط وثيق عن طريق تلك الهبات السخية ، فإن الدافع الأساسى الذى أوحى إلى البطالمة فى تقديم مثل هذه الهبات هو الرغبة فى أن يجربوا نظام الضياع الفسيحة بين المقدونيين والفرس ، جنبا إلى جنب الطريقة التقليدية عند اليونان وهى توزيع أنصبة صغيرة متواضعة (Kleroi) كوسيلة لتحسين وسائل استغلال مصر . وكانت مثل هذه الضياع الفسيحة تمنح لأكثر أعوان الملك نشاطا وأشدهم تدبيرا. وكان الملك يتوسم فيهم القدرة على تطبيق نفس الأساليب التى يطبقها الملك فى باقى الأراضى ويشجعهم على اقتباسها والعمل بمقتضاها فى ضياعهم الكبيرة.

وهنا يجب أن ننوه بأن هذه الضياع كانت قابلة للاسترداد ، شأنها فى ذلك شأن "الكليرات" ، وكان أصحاب هذه الضياع فى الحق يجمعون بين صفة الملاك و "الخولة" الذين ينوبون عن الملك ويعملون رهن إشارته وينفذون تعليماته. ومما لا ريب فيه أن هذه الضياع كانت محاور ارتكاز ومناطق إرشاد ، أفادت منها البلاد كثيرا.

أراضى الملكية الخاصة (gē idioktetos, Ktemata):

وهذه الأراضى كانت تعتبر ملكية فردية أو بالأحرى هى بمثابة ذلك فالأصل أن كل شيء فى مصر كان مملوكا للملك وهذه تعتبر إذا ملكية اعتبارية ، إن صح إذا استعمال هذا القياس ، وليس هناك أقل شك فى أنه بالإضافة إلى مثل تلك الملكيات الواقعة فى نطاق أراضى المعابد ، كان هناك قطع عديدة من الأرض وهى متناثرة فى جميع أرجاء مصر مما يملكها الأفراد ، فالمساكن والبيوت والكروم والحدائق والبساتين كان يطلق عليها جوازا كلمة (ktemata) أى أملاك خاصة ، وذلك فى صدر العصر البطلمى ، وبخلاف ذلك كانت هناك رقع من الأراضى المنزرعة حبوبا وبخاصة فى صعيد مصر ، يجرى فيها البيع والشراء والرهن والوصية وتم هذا كله بمنتهى الحرية ، ومعنى هذا أنها كانت تعامل تحت سمع الحكومة وبصرها ، معاملة الأراضى ذات الملكية الخاصة ، وليس لدينا من الوسائل ما نستطيع به التعرف على أصل هذا النوع من الأراضى ولربما كان أصلها يرجع إلى أيام الفراعنة ثم زاد عددها بالتأكيد فى عهد الحكم الفارسى. وعلى أى حال

فعلى قدر علمنا لم يعمد البطالمة إلى مصادرة هذه الأراضى أو اتخاذ أى إجراء من هذا النوع فيما يتعلق بهذا الشق من الأرض المملوكة وإنما آثروا قبول الأوضاع الراهنة على علاتها. وفى هذا المجال كما فى غيره من القانون المدنى بوجه عام ، لم يحاول البطالمة على الإطلاق استحداث تغيرات جوهرية أو تعديلات أساسية.

وفى الحق إنهم منذ البداية كانوا يشجعون على التوسع فى ملكية الأرض الخاصة ، فالأرض التى كان لها الاسم الآتى (gē idioktetos) وهى التى قامت الحكومة ببيعها للأفراد كانت من مبتكراتهم وكانوا هم الذين أقروا ونظموا إيجار الأراضى بطريق التوارث فسمحوا بالمضى فى زراعة الأرض (emphyteuma) لورثة المستأجرين باعتبار أن هذا حق مشروع لهم. وكان فى رأى ملوك البطالمة أن فى وجود نفر من الناس ممن يوصفون بأنهم ملاك أراضى ، حازوها بفضل ما أوتوه من تدبير ونشاط ، كفيل بأن يسعى هؤلاء إلى زيادة رقعة الأرض المنزرعة وتحويل أجزاء من البلاد إلى كروم وحدائق وبساتين غناء ، وهذا من شأنه أن يعود بالخير العميم على ملوك البطالمة ويكون هدفه فى صالح مصر. والبطالمة كانوا بالطبع فى حاجة إلى طبقة من الناس ممن يتوافر لهم قدر من الغنى والثراء حتى يمكن الاعتماد عليهم أو على الأقل على بعض منهم كموظفين وملتزمين وضامنين لهؤلاء الأخيرين وبذا تكفل الدولة فى آخر المطاف الحصول على كامل استحقاقاتها . على أن وجود هؤلاء الأعيان بأعداد كبيرة فيه ضمان كذلك لحسن سير العمل وتأديتهم لما يوكل إليهم من خدمات واستعدادهم لتقديم ما يملكون من أراضى على سبيل الضمان ، وبالطبع لم تكن تلك الأرض الخاصة معفاة من الضرائب ، وقد حرصت الحكومة على أن ترقب زراعتها وأن يتم ذلك على الوجه الأكمل بحسب الخطة الموضوعة وتطبيقا لنظام الدورة الزراعية. ومن أمثلة ذلك ضمان زراعة المحاصيل الخاصة فى زمامها إذا لزم الأمر ثم إن الحكومة كانت تصر كذلك على الوفاء بتسديد الضرائب بانتظام ، وفى الحالات التى ثبت فيها العجز عن الوفاء بهذه الالتزامات ، كان الملك يعمد إلى المصادرة وبيع هذه الأراضى وفاءا لما استحق عليها من ديون. وقصة ديوان "الإيديولوجس" (Idios Logos) وهو الموظف الكبير الذى انفرد بإمساك حساب خاص لصالح خزينة الملك منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، وتميز بما أبداه فى القرن الأول قبل الميلاد من نشاط ملحوظ

فى أعمال المصادرات وبيع الأراضى على نطاق واسع وظهور ملاك جدد . سارعوا إلى اقتناء ما يباع وأمنوا على ملكيتهم فى هذه الأرض المشتراة من الحكومة . هذا كله يتضمن معانى كثيرة على مدى التطور فى ملكية الأرض. وقيل إن عهد الملك "بطلميوس أوليتيس" الثانى عشر أو الزمار والد كليوباترة السابعة شهد توسعا فى بيع الأراضى. فهذا الملك المفتون والمتلاف كان فى حاجة ماسة إلى الأموال ليقدمها رشاوى إلى زعماء الرومان وقادتهم ليضمنوا له ملكه وعرشه المهتز أو ليردوه إليه عندما طرد منه فى عام ٥٨ق.م وردؤه إليه بالفعل عام ٥٦-٥٥ ق.م.

تلك هى الأوضاع المختلفة لنظام الأراضى فى مصر البطلمية وهذه هى أساليب استغلالها أو إقطاع بعض منها للغير . ويتضح من ذلك كله أن الحكومة كانت لها الهيمنة التامة والإشراف الدقيق على شئون الزراعة فى جميع أنحاء البلاد وليس هذا بعجيب لأنه من الأرض الزراعية كانت الحكومة تحصل على دخلها الرئيسى ، فالإيجار (ekphorion) وما كان يضاف إلى ذلك من مختلف الضرائب ، وبعضها يمثل ضرائب صغيرة ، كان يدفعها الفلاحون الملكيون بينما بعضها الآخر كان يدفعها الجنود الحائزون للأراضى والملاك الخصوصيون ثم ضريبة ٣٣,٣٪ على الكروم ثم ما كان يضاف إلى ذلك من ضريبة "الأبومويرا" (Apomoira) وهى السدس أو العشر على الإنتاج من الكروم والحدائق والبساتين - كل هذه الضرائب المرتفعة كانت تؤلف بندا كبيرا فى موارد الدخل المتنوع لأقصى حد عند البطالمة ، وكانت جميع الطبقات من أصحاب الأراضى والحائزين لأنصبة منها تساهم بنصيب معلوم فى هذا الدخل.

ومع ذلك فليس فى وسعنا أن نقول أن البطالمة الأولين عندما شرعوا فى تنظيم الحياة الزراعية ، كانوا ينفذون خطة موضوعة ومرسومة بإحكام فى تاريخ مسبق وأن هذه الخطة كانت تقوم على مقدمات نظرية فى قياس منطقى. وفى الحق لم يكن هناك فى أغلب الظن شيء من هذا وإلا كانوا يتعثرون فى تنفيذ خططهم الموضوعة مسبقا ، وهم يعتبرون ناجحين فيما صح عزمهم عليه فى سياستهم الزراعية.

ومن الواضح الجلى أنهم عند إعادة تنظيمهم لهذا النوع من الاقتصاد المصرى كان رائدهم عدة اعتبارات مختلفة ، سبق أن ألمحنا إلى بعض منها . وهى أنهم أرادوا

مضاعفة الإنتاج كيما يزداد دخلهم وحرصوا على الاحتفاظ لأنفسهم بأكبر قدر ممكن من الإنتاج الزراعى ولكنهم كانوا يرغبون فى الوقت نفسه ألا يتورطوا أو يبالغوا فى السير فى هذا الاتجاه فالشطط فيه محفوف بالمخاطر وكانوا يخشون دائما إثارة النفوس ويعملون على تجنب معارضة الناس ، سواء أكانت هذه المعارضة سلبية أم إيجابية. ولذلك يبدو أنهم أدخلوا شيئا كثيرا من التعديلات والتحسينات فى أسلوب جباية الضرائب المستحقة على الأراضى ، وفى قوانين الجباية بطريق الالتزام وهى التى أصدرها "بطلميوس فيلادلفوس" عام ٢٥٩-٢٥٨ق.م وعرفت بالاسم الآتى (Nomoi Telonikoi) فاستحدثوا الشيء الكبير من الضمانات من قبيل الحرص على ألا يفلت أحد أو يظلم فلاح ، فراقبت الموظفين وكفلت العدالة المطلقة حتى لا تثور ثائرة الشعب ، وبالاختصار يمكن القول إن هذه القوانين جعلت نظام جباية الضرائب أفضل مما كان عليه وأكثر كفاية . على أن البطالمة عرف عنهم أنهم كانوا ينفرون من هجر التقاليد القائمة والتنكر للعادات الصميمة المتوارثة فى البلاد ، وقد حاولوا أن يكون للحكومة الإشراف المباشر على أكبر قدر من رقعة الأرض المنزرعة ، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا حريصين على عدم الإضرار بمصالح طوائف مهمة من السكان وبخاصة رجال الدين وتلك الجموع الهائلة من الملاك الأصليين للأراضى وهم سند ودعامة قوية للحكومة. حقيقة إن البطالمة أنفسهم كانوا يسترشدون باعتبارات سياسية واقتصادية توخوها عندما أوجدوا فى محيط الأرض الزراعية ، "جزرا" عديدة وجديدة من الملكية الخاصة ، التى سمحوا باقتطاعها على حساب الأرض الواقعة تحت إشرافهم المباشر وفى هذا ما فيه من تفتيت للقوى ، وفى هذه "الجزر" أراضى الهبات والحيازات الخاصة بالجند والأراضى المملوكة ملكية خاصة ، وهذه كلها تمثل رقعا فسيحة ، وقفت الدولة منها موقفا حذرا. وقد ضمن البطالمة لأنفسهم دخلا لا بأس به من هذه الأراضى "ذات الطابع الخاص" وكانوا دائما يباشرون نوعا من الإشراف على إدارتها ولكنهم تجنبوا بقدر المستطاع الإساءة إلى مصالح أصحابها أو إثارة نفوسهم.
ولا يجب أن ننسى أبدا أن ملوك البطالمة اعتبروا أنفسهم أسياد البلاد وحكامها الأوتوقراطيين وأنهم من ذوى الحول والطول وأنه ينبغى على جميع سكان البلاد إطاعة أوامرهم طاعة عمياء وقد أسبغوا على الموظفين المدنيين بعضا من تلك السلطات المخولة لهم ، ومع هذا كله فقد كانوا فى إدارتهم للأرض الخاصة بهم وهى الأرض الملكية ، يقفون أحيانا مكتوفى الأيدى ، صابرين ومتحاملين على

أنفسهم إزاء ذلك الإجراء التقليدى والاحتجاج السلبى الذى كان المصريون كثيرا ما يلجأون إليه إعلانا عن سخطهم واستيائهم وكثيرا ما عمد الفلاحون الملكيون إلى هذا الاحتجاج الصامت ضد بعض التصرفات الظالمة من جانب رجال الإدارة والمشرفين على شئون الزراعة من "نوماركيين" وغيرهم فيعمدون إلى الإعتصام بالمعابد والفرار إليها ويكفون عن العمل وهذا ما كان يعرف بالكلمة اليونانية الأتية (anachoresis) أى الذهاب إلى فوق أو أعلى باعتبار أن المعابد كانت تبنى دائما فى الأماكن العالية حتى لا تصل إليها مياه الفيضان فتغطيها أو تغمرها. وهناك طريقة أخرى بديلة وهى أنكى وأشد وتلك يعبر عنها بكلمة (ekchoresis) أى الفرار من قرية لأخرى والاختفاء والتوارى عن أبصار الحكومة إما فرارا من دفع الضرائب أو عصيانا عن العمل ، وبين حين وآخر يتردد فى الوثائق مدى هذه المظاهر وهى التى كانت تشل حركة العمل وتضيق بها الحكومة ذرعا ولا تجد من سبيل إلى استعمال القوة الغشومة أو تعمد إلى البطش بهؤلاء الغاضبين ، ذلك أن الحكومة كانت تسوى هذه الأوضاع ، لا بالعنف والإكراه ، وإنما بالحسنى والتفاهم الودى.

وخلاصة الموقف إن البطالمة أقاموا فى حكمهم لمصر نظاما أشبه ما يكون فى كثير من الوجوه بنظام التحكم والسيطرة المتضمن إشراف الدولة وسيطرتها فى العصر الحديث على وسائل الإنتاج ولكن من الإنصاف للبطالمة أن نقول إن نظامهم لم يكن صارما أو شديد الصلابة ولا متسما بضيق الأفق.

أراضى المراعى:

بالإضافة إلى الأرض الصالحة للزراعة وغرس الكروم والبساتين ، كان ملوك البطالمة وهم أصحاب جميع أراضى المراعى (nomai) وادعوا لأنفسهم الحق فى التصرف فى الكلأ الأخضر الذى ينمو فى الأراضى المنزرعة وفى الحقول كمحصول تكميلى بعد انتهاء فصل الحصاد ، وبفضل توافر مثل هذه الموارد العظيمة من الكلأ ، أمكن للبطالمة أن يستحوزوا بالطبع على قطعان وأسراب من مختلف الحيوانات المستأنسة. فمن أبقار وثيران ، تستخدم فى أغلب الأحوال فى إعداد الأرض فى الحقول وفى زراعتها ومن حمير ودواب تستخدم كوسيلة سهلة للنقل ومن أغنام وماعز تربى بالآلاف المؤلفة من أجل صوفها ولبنها ومن خنازير

للأضاحى وأوز مقدس جنى البطالمة خيرا كثيرا. وبالإضافة إلى هذه الحيوانات التقليدية المستأنسة فى مصر يمكن أن نضيف أنواعا كثيرة من الدجاج وإسطبلات الخيول التى كانت تزود منها فرق الفرسان بما يلزمها من خيول ثم هناك الفيلة المخصصة للأغراض الحربية والفيلة هى بمثابة دبابات العصر القديم ثم هناك أعداد ضخمة من الجمال التى جلبها البطالمة إلى مصر.

الفصل الحادى عشر

الزيوت ونظم الاحتكار فى مصر البطلمية

إن الزيوت هى أفضل مثل معروف لدينا عن كيفية تطبيق نظم الاحتكار فى مصر البطلمية ، وذلك بفضل ما وصل إلينا من معلومات فى وثيقة الالتزام فى جباية الضرائب حيث جاء قانون (nomos) منظم لعملية الالتزام فى النباتات الزيتية (elaike) جاء فيه تنظيم لهذا النوع من الاقتصاد الملكى المطبق فى عصر "بطلميوس فيلادلفوس" فى عام (٢٥٩-٢٥٨ق.م) ومابعده. والقانون الذى جاء فى هذه الوثيقة ، أفرد لموضوع الزيوت وأطلق عليه (nomos elaikes) ، ويكاد يكون كاملا بالمقارنة إلى القوانين الأخرى فى هذا النص البردى حيث وردت فقرات مهمة جدا بها بعض التعليمات الخاصة بضريبة النبيذ المخصص للمعابد وتقدر بالسدس أو العشر وتسمى بضريبة "الأبومويرا" (apomoira) ، ثم جاءت كذلك قصاصات أخرى مبتورة وبها بعض التعليمات الخاصة بصناعة المنسوجات من صوف وكتان رفيع وقنب (eriene, pthoniera, styppia) وقصاصات خاصة بالمصارف (trapezitike) ، وأخرى خاصة بصناعة الجعة والشراب المستخرج من الشعير ويسمى (Zytera) ، وأخرى خاصة بضريبة المرعى (ennemion) ، تلك هى المجالات التى تناولتها قوانين الالتزام فى جباية الضرائب ، بما فى ذلك الموتور منها وغير الموتور ، وهى فى مجموعها تمثل سلسلة فريدة من القوانين التى وصلت إلى أيدينا سليمة ومصححة فى ديوان وزير المالية "أبوللونيوس" ، ولربما كان القانون الأصلى يرجع وقت إصداره إلى الحقبة الأولى من عهد "بطلميوس فيلادلفوس" أو ربما مرده إلى عصر "بطلميوس سوتير".

والقدر الذى يعنينا هنا فى هذا المجال هو المتعلق بالنباتات الزيتية ، وقد أطلق عليه كلمة شاملة (elaike) أى الضريبة على الزيوت ، وهو فريد فى بابه من حيث أنه ورد كاملا وبذا أتاح لنا فرصة التعرف فى شئ كثير من التعمق والإفاضة على سياسة "بطلميوس فيلادلفوس" بالذات والكيفية التى كانت تطبق بها ثم ربما كذلك على سياسة "سوتير" فى هذا الشأن.

وهذا القانون الخاص بالزيوت (nomos elaikes) كان ينظم كيفية التصرف فى الناتج أو الحصيلة من النباتات الزيتية المختلفة والكيفية التى كان يتم بها عصر هذه النباتات والجهات المسئولة عن عصرها ومدى الرقابة المفروضة على المعاصر وعلى المشتغلين فيها ، وكانت أكثر النباتات الزيتية انتشارا فى مصر هى السمسم وزيت الخروع (kroton) والعصفر او الزعفران الكاذب والقرطم والقرع العسلى وبذر الكتان. أما المادة الخام فيمكن الحصول عليها من الفلاحين ، وفى كل عام كانت المساحة المقرر زراعتها من كل صنف يجرى توزيعها بواسطة السلطات الحكومية على مختلف المحافظات ثم تقوم السلطات المحلية فى مختلف القرى بواسطة الأجهزة الإدارية فى القرية بتوزيعها على أفراد الفلاحين ، وهذا كله بمقتضى دورة مألوفة يتم فيها تحديد لكل شئ فيما يتعلق بتلك الكميات الواجب زراعتها لكل نبات. وتحقيقاً للكفاية والدقة وضع تخطيط شامل فكان يخصص عدد معين من الارورات ويقدر هذا بالآلاف لزراعة نوع معين من هذه النباتات الزيتية أو أى صنف آخر مع مراعاة صلاحية الأرض وجودتها وملاءمتها لهذا النوع أو ذاك. وفى خارج النطاق المخصص لذلك لم يكن يجوز لأحد أن يزرع شيئا من هذه النباتات ، أما كامل المسئولية عن التنفيذ الدقيق للخطة المرسومة من حيث بذر البذور طبقا للقاعدة الموضوعة فكانت تقع على الجهاز الإدارى ، وكان كل فلاح يتسلم من الحكومة البذور المطلوبة وعليه أن يقوم بردها إلى الحكومة عند الحصاد ، فكانت المحاصيل تُجنى تحت عين الحكومة وبصرها ورقابة الموظفين والملتزمين والضامنين لتعهدات أولئك الملتزمين ، وهؤلاء هم المسئولون فى آخر الأمر عن الإنتاج من هذا الالتزام ، وكان المحصول يتم كيله ويدفع ربعه كضريبة ، أما ما بقى فكان يسلم إلى الملتزم الذى كان عليه أن يدفع للفلاحين ثمن المقادير التى تسلمها منهم ، وذلك بحسب تعريفة مقررة وضعها الملك وأعلنها على الناس من قبل. وكان الملتزم بدوره ملزما بأن يسلم المقادير التى حصل عليها من الفلاحين إلى الحكومة ونقلها إلى شون الحكومة ومنها إلى معاصر الزيوت التابعة للحكومة ، وكانت هذه المعاصر موجودة فى المدن والقرى على السواء ، ولم تكن الحكومة تسمح بوجود معاصر خاصة فيما عدا الاستثناء الوحيد وهو المعاصر التى تخص المعابد فهذه كانت تحتفظ بمعاصرها الخاصة ،

ولكنها كانت مضطرة إلى تسجيلها والاستئذان عند تشغيلها وذلك لفترة معلومة كل عام تحت إشراف الملتزمين والموظفين فى عصر مقدار معين من زيت السمسم فى معاصرها الخاصة وذلك للاستهلاك المحلى داخل المعابد ، ويتم هذا العصر طوال فترة محدودة هى شهران فقط أما عن باقى العام فكان ينبغى أن تبقى هذه المعاصر معطلة ، وقد وضعت عليها الأختام للحيلولة دون استخدامها. أما إذا كانت هذه المعابد فى حاجة إلى شئ من زيت الخروع فعليها أن تقوم بشرائه من الملتزمين ، ولم يكن مسموحا للمعابد بحال من الأحوال القيام ببيع الزيوت.

كانت معاصر الزيوت التى تعمل لحساب الملك ، تخضع لرقابة دقيقة من قِبَل الحكومة ثم من قِبَل الملتزم ، وكانت جميع المعاصر مسجلة ويجرى وضع الأختام على مالم يكن مستعملا منها ، كما كانت توضع الأختام على جميع الآلات المعطلة فى هذه المعاصر ، وكان العمل الذى يتم فى هذه المعاصر يجرى تنظيمه بواسطة الملتزم والموظفين الإداريين. وكان المفروض أن يقوم هؤلاء بتزويد كل معصرة بالقدر الكافى من المواد الخام بلا زيادة ولا نقصان فى القدر الذى يكفى لتشغيل هذه المعاصر فعلا ، وكانوا مسئولين كذلك عن قدرة كل معصرة ودرجة كفاءتها فى أداء المهمة الموكولة إليها أما عن مركز العمال فى هذه المعاصر والعنصر البشرى المهم ، وكان يطلق عليهم كلمة (elaiourgoi) فقد كانوا أحرارا وليسوا عبيدا أو أقنانا ، ولكنهم مع ذلك كانوا خاضعين لإشراف دقيق.

إن كل هؤلاء كانوا يعملون فى المعاصر فى فترة ممتدة طوال فصل التشغيل أو العمالة، وبينما هم منكبون على العمل فى هذه الحقبة كانوا ملزمين بأداء هذا العمل والبقاء فى الأماكن التى توجد فيها هذه المعاصر ، فلا يحق لهم مغادرتها أو الخروج عن نطاق مكانهم فى المحافظة التى ينتمون إليها ، وكان الملتزم والموظفون الإداريون هم أصحاب السيطرة (kyrioi) فى فصل العمالة هذا ، وهم الذين يتحكمون فى المعاصر ، وهكذا كان أولئك العمال تحت السيطرة التامة فى فصل العمالة وهم يتسلمون فى مقابل العمل الذى يؤدونه مكافآت تقدر بحسب ما يقومون بعصره من الأرادب من مختلف البذور. وإذا حدث فى نهاية فصل العمالة أن وجد فائض (epigenema) فإن العمال كانوا يحصلون على هذا الفائض على سبيل المكافأة لهم على نشاطهم.

على أن المركز الدقيق الذى كان عليه أولئك المشتغلون فى معاصر الزيوت ليس واضحا ولا جليا ، فهم ينتمون إلى طبقة ضخمة من إناس لهم ارتباط وثيق بموارد الدخل العام ، ويكنون بالاسم الشائع الآتى (epipeplegmenoi tais prosodois).

وهؤلاء يمثلون فئة من الناس لها نصيب من الامتيازات كما تحملت فى الوقت نفسه بعض الالتزامات والقيود التى تغل حركتها ، أسوة بما كان عليه الفلاحون الملكيون ، ومع ذلك فليس هذا التصنيف بكاف فى تعريف وتحديد المركز القانونى لهؤلاء الصناع. ونظرا لعدم وجود معلومات دقيقة فى هذا الشأن فالغالب على الظن أنهم كانوا من الحرفيين المهرة والمدربين على العمل فى هذه الحرفة ، وربما كانوا ينتظمون فى نقابات أو طوائف مهنية ترعاها الحكومة البطلمية على اعتبار أنها مؤلفة من أفراد كانوا يؤدون مثل هذا العمل على مدى أجيال طويلة ، فحذقوا فيه وأصبحوا ممن لا يستغنى عنهم.

والقول بأنه فى صدر العصر البطلمى ، ربما وجدت معاصر وعدد من آلات يمتلكها أفراد ولكنهم فى استعمالهم لها كانوا مقيدين ، بصرف النظر عن ماهية مركزهم القانونى ، يدل كل ذلك على أنه فى ماضى ، ليس بالبعيد ، كان هناك عصارون للزيوت من أولئك الذين عملوا فى معاصرهم الخاصة ولو لبعض الوقت، وفى زمن ما لعله فى عصر البطالمة الأولين ولربما قبل ذلك أصبح محرما تماما على الأفراد إنتاج زيوت من أى نوع كما حرم على الحرفيين من عصارى الزيوت القيام بعصرها لحساب الأفراد ، وبذلك أصبح عصر الزيوت يمثل امتيازا خاصا ، انفرد به الملك وحده، ولم يعد أمام الصناع المهرة والحرفيين فى هذا المجال إلا أن ينخرطوا فى خدمة الحكومة. أما عن مركزهم القانونى الغريب - وهو المنطوى على حالة أشبه ما تكون بنصف العبودية - فإن الشك لا يساورنا فى اعتبارها من مبتكرات البطالمة، والأفضل كثيرا أن نقول إنها كانت من تراث الماضى ومرجعها إلى ذلك الوقت الذى كانت فيه الطوائف الحرفية فى المعابد وفى المدن والقرى تعمل ولو جزئيا على أى حال من أجل الآلهة والملك فى معاصر كان أغلبها ملكاً لهم.

السياسة الخارجية التى انتهجها ملوك البطالمة الأولون:

لكى نقدر تلك السياسة الداخلية التى سار عليها ملوك البطالمة الأولون ونتعرف على كنهها بحيث يكون فى تقديرنا هذا توخى جادة الصواب ، ويكون هدفنا الوصول إلى تقدير سليم بقدر المستطاع ينبغى علينا أن نعاود النظر فى التعرف على حقيقة المنهاج الذى رُسم لهذه السياسة فى شتى ميادينها الإدارية والاقتصادية والزراعية والضريبية فهدف البطالمة من وراء هذا الاستغلال الشديد لشتى موارد البلاد كان بحق بعيد المدى.

ولعلنا نستطيع أن نجتلى شيئا من الحقيقة إذا ألقينا نظرة ، ولو عابرة على حقيقة السياسة الخارجية كيما نتعرف على الأهداف التى كان البطالمة يرمون إليها من وراء الزج بأنفسهم فى معترك السياسة الخارجية التى كانت باستمرار فى مد وجزر فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط على مدى أكثر من ربع قرن من وفاة "الإسكندر" الأكبر فى عام ٣٢٣ ق.م. إن هذه السياسة كانت متأثرة إلى حد كبير بالأغراض والأهداف التى داعبت خيال الملوك البطالمة الثلاثة الأولين ، فبغيتهم وأهدافهم والمركز الذى كانوا يحتلونه فى عالم تسوده الحضارة الهيللنستية ، حتّم عليهم سلوك طرق محفوفة بالمخاطر وكبدّهم خوض حروب عديدة. وللأسف الشديد ليست لدينا أية بيانات واضحة أو كاشفة عن كنه هذه الأهداف ، وإنما نستطيع أن نسترشد ببعض الحقائق والامارات والتصرفات والتحركات التى صدرت فى شتى المجالات ، وذلك على الرغم من اختلاف التفسيرات وتباين الآراء.

أولاً : هناك رأى يقول بأن سياسة البطالمة الخارجية كانت عدوانية وهجومية (offensive) ، وقد انبرى العالم الألمانى "أولريخ فلكن" (Ulrick Wilcken) فى مطلع هذا القرن للدفاع عن وجهة النظر هذه. وفى رأيه أن غرض الحكم البطلمى فى مصر كان ينطوى على الحصول على أقصى ما يمكن من ثروات مصر كيما تكون البلاد فى وضع يمكنها بفضل هذا الثراء العريض ، وهذه المواد الطائلة وبفضل جيش قوى وأسطول ضخم ، من أن تقوم بدور رئيسى فى معترك السياسة الخارجية فى حوض البحر المتوسط ، ولا ينبغى علينا

وسط هذا الخضم ، أن ننوه هنا عن حقيقة مهمة ، وهى أن مصر وسط هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف والممتدة من برقة غربا إلى قبرص شمالا وإلى فلسطين وسوريا الحالية ، سهل البقاع (لبنان) شرقا ثم أجزاء من سواحل آسيا الصغرى وبعض جزر بحر الأرخبيل - كانت مصر فى نظر البطالمة هى المورد الرئيسى والمعين الذى لا ينضب وهى مصدر الخير العميم وحاصلاتها منوعة وعديدة ومتجددة وصناعاتها وحاصلاتها مطلوبة. ويخلص العالم الألمانى "أولريخ فلكن" إلى حقيقة مهمة وهى أن الهدف من وراء هذا كله والغرض الأسمى من انتهاج هذه السياسة هو العمل لصالح سياسة خارجية بعيدة عن مصر ، ومعنى هذا أن مصر كانت وسيلة وليست غاية فى حد ذاتها. على أن هذا المبدأ كانت تكتنفه صعاب ، وقد تكبدت البلاد شططا وغرقت فى حروب وأطماع لا طائل من ورائها ، وقد تجنى البلاد المصرية بعض الثمار من وراء ملك شامخ وبناء إمبراطورية مترامية الأطراف ، ولكن هذا كله كان على حساب مواردها ، وقد يكون فى هذا تأمين لحدود البلاد وإبعاد بعض الأخطار عنها.

ثانيا : هناك رأى آخر طلع به علينا عالم روسى الأصل ، متأمرك اسمه "ميخائيل روستوفتزف" (M. Rostovtzeff) ، ولهذا العالم باع طويل فى الدراسات فى التاريخ اليونانى-الرومانى ، وله نشاط ضخم فى هذا المجال ، وله كتب موسعة وخبرة عميقة بالمصادر الأصلية والنصوص البردية والنقوش المختلفة عن هذا العصر ولاسيما ما يخص مصر والممالك الهيللنستية. ومن أجل ذلك ينبغى أن نقيم وزنا كبيرا لآرائه على الرغم من أنها جاءت متعارضة تماما مع آراء العالم الألمانى "فلكن" ، وفى رأى "روستوفتزف" أن الفكرة الأساسية التى كانت رائد ملوك البطالمة الثلاث الأولين ، وهم "بطلميوس" الأول (سوتير) ٣٠٤-٢٨٣ ق.م ، "وبطلميوس" الثانى (فيلادلفوس) ٢٨٣-٢٤٦ق.م ، "وبطلميوس" الثالث (يورجتيس الأول) ٢٤٦-٢٢١ق.م تأرجحت وتراوحت بين المد والجزر والإقدام والإدبار ، وقد خيّل إلى هؤلاء الملوك الثلاثة إمكانية تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف ، قوامها مصر كمحور ارتكاز ، والهدف من وراء ذلك مصر المستقلة وهى آمنة مطمئنة من غائلة الأعداء الخارجين

من الشمال أو الجنوب ، ولكى تضمن سلامتها وتؤمن جانبها ، كان لابد عليها أن تكون سيدة فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ، كيما يتحقق لها الإشراف والسيطرة على الطرق البحرية الموصلة لمصر ، وهذه المهمة فى حد ذاتها كانت صعبة المنال ويعتريها شئ من التعقيد. وفى عهد الفراعنة طوال عهد الأسرات فى الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة كان التطلع إلى الاستحواذ على الشاطئ السورى كفيلا بعمل الضمانات اللازمة لتأمين البلاد ، ولكن فى خلال الألف سنة قبل الميلاد كانت هناك تطلعات نحو آسيا الصغرى وحدث نمو فى القوة البحرية لدى اليونان مما أغرى حكام مصر بمد نطاق نفوذهم السياسى إلى حوض البحر المتوسط كله. ولم يكن هذا بقصد الغزو والفتح أو التحكم فى مصائر اليونانيين فى بلاد اليونان أو فى آسيا الصغرى ، وإنما كان بغرض المراقبة الدقيقة للقوات البحرية وكبح جماح اليونانيين حتى لا يقطعوا المواصلات البحرية عن مصر ويحولوا بينها وبين شواطئها الشمالية وشواطئها الشرقية فى كل من الشام وآسيا الصغرى. على أن هذه السيطرة كانت تتطلب إيجاد أسطول قوى وهذا يحتاج بدوره إلى موارد طبيعية هائلة لا تتوافر فى مصر ، ومن ذلك الأخشاب من أشجار الأرز بلبنان والمعادن من قبرص. ولما كانت الأخشاب والمعادن هى الشرط الأساسي لبناء أسطول قوى ، وينبغى استيرادها أو الحصول عليها من الخارج فإن خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف هى التحكم والسيطرة فى مصير البلاد المنتجة لهذه السلع وفيها الغابات والمناجم. ولعل هذا هو السبب فى أن مصر احتفظت وكان ينبغى أن تحتفظ دائما بسيناء وتطلعت فى وقت ما إلى سوريا (المجوفة)[*] وقبرص وبعض أجزاء من سواحل آسيا الصغرى والأناضول (كاريا وليكيا Lycia). وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عما سبق ، وهو أن قوة مصر وثروتها كانت تعتمد على التجارة الخارجية ورواجها وانتظامها ، ولكى تستطيع مصر الحصول على ما يلزمها من الجنود المرتزقة وهم عدة الجيش فى ذلك الحين ، مع احتفاظها بأسطول قوى ، كانت فى حاجة ماسة إلى

(*) هكذا تصفها النصوص اليونانية الكلاسيكية بأنها (Koile) أى "الجوف" أو البطن.

خزائن مليئة بالأموال للصرف على هذا الأسطول ، وهذا لا يتأتى إلا بــرواج تجارة خارجية ، تحصل منها مصر على الذهب والفضة ثم إن هذه التجارة نفسها كانت تتطلب توفر السيطرة البحرية لتأمين الطرق التجارية.

وعلى هذا كان "فيلكن" يرى أن الهدف البطلمـى مـن سياستهم الخارجية كان هجوميا وعدوانيا ، وأن طابعه مقدونى وهيلينـى ، ويرجـع أصلـه ونشـأته إلى مواطن بعيده كل البعد عن مصر فالإمبراطورية هى الغاية القصـوى ، ومـا مصـر ذات الطابع اليوناني إلا وسيلة إلى تحقيق هذه الغاية. وتتلخص هـذه السياسـة فـى كلمة واحدة ذكرها "فيلكن" ومعناهـا "السياســة" التـى ينضـوى هدفـها علـى تكوين إمبراطوريــة عالميــة بحسـب مـا ذكـره "روستوفتزف" فـإن تلـك السياسـة الإمبريالية كانت سياسة دفاعية بحتة ذات طابع اقتصادى ، وكان يتعـين بمقتضاهـا أن تكون سلامة مصر ورواج تجارتها تمثل الهدف من وراء هـذه الإمبراطوريـة التـى كانت مجرد وسيلة لتحقيق غاية.

ثالثاً : وبالإضافة إلى هذه الأراء المتعارضة والنظريات المطروحة علـى بسـاط البحـث هناك فكرة ثالثة قوامها أن الملوك البطالمة الثلاثة الأولـين كـان يُنْسب إليـهم توفر أطماع توسعية بقصد ازدياد رقعـة أملاكـهم إلى حـدود العـالم المـأهول بالسكان، وأنهم كانوا يتشـبهون أحيانـا بالإسـكندر الأكـبر فـى طموحـه إلى تكوين إمبراطورية عالميــة ، وصـاحب هـذه النظريـة هـو عـالم ألمـانى يسـمى "كورنمان" (Kornmann).

على أن مبلغ علمنا عن الإجراءات والتضرعات التى قـام بـها "بطلميـوس" الأول بن لاجوس ، وهو الملقب فيما بعد بلقب المخلّص (Soter) تكاد لا تُبرر ما قد ينسب إليه من هذا الحلم العريض فهو رجل حصيـف عـرف عنـه أنـه جـالت بخاطره بعض الأطماع أحياناً ، ولكنه كان حريصا ، يتلمس الخطى قبـل الإقـدام على شئ ، وكان يعرف جيدا من أين تُؤكل الكتف ، فكان يقدم أحيانا ثم يدبـر أحيانا أخرى، وكان إذا ما ألمت به كارثة يأوى إلى مصر ، وهى بمثابة القوقعة التـى كان يحتمى فيها حتى يزول الخطر. وعلى ذلك فرجل من هذا الطراز لا يمكـن أن تنسب إليه أطماع بعيدة المدى ، قد تكلفه غاليا ، وهو الشخص الذى اختار مصر بمحض إرادته لتكون من نصيبـه فـى مُلـك "الإسـكندر" ، باعتبـاره أحـد هـؤلاء

الخلفاء (oi diadochoi) ، وكان على رأسهم "برديكاس" (Perdiccas) ، وفيهم "سيليوقوس" (Seleucus) ،"وأنتيجونس" (Antigonus) ، "وأنتيباتر" (Antipater)، "وكاساندر" (Cassander) ، "وليسيماخوس" (Lysimachus) وغيرهم.

ومن بين كل هؤلاء القواد وقع اختيار بطلميوس على مصر ، وآثر أن يفوز بها دون غيرها من دولة "الإسكندر" ، وقد حكمها أولا بالنيابة ، لا بالإصالة فكان الوالى عليها بوصفه ساتربا (Satrap) أى مرزبانا فأعلن أنه من قِبَل صاحب الحق الشرعى ، وهو ابن "الإسكندر" الرضيع من "روكسانا" (Roxane) الزوجة الفارسية التى كان "الإسكندر" قد تزوجها فى آخر حياته ، وكان هذا الطفل هو "الإسكندر" الرابع ويشترك معه فى هذا الملك العريض كوصى أخ غير شقيق "للإسكندر" اسمه "فيليب أريدايوس" (Philip Arrhidaeus) ، ولكن "بطلميوس" مالبث أن تنكر، وتخلص من الجميع ، من ابن "الإسكندر" ومن أخيه غير الشقيق، وبذا خلا الجو "لبطلميوس" بعد عام ٣٠٥ق.م فأعلن "بطلميوس" نفسه ملكا على مصر منذ عام ٣٠٥-٣٠٤ ق.م ، وبقى متربعا على هذا العرش حتى وافته المنية فى عام ٢٨٣ ق.م. وفى خلال هذه الفترة التى امتدت عشرين عاما ، نهض فيها بأعباء جسيمة منها إتمام بناء مدينة الإسكندرية ومتابعة شن حروب فى مختلف الميادين ، فضم برقة إلى مصر وضم قبرص إلى حكمه ، وكذلك بعض جزر بحر إيجة. ومن خلال كل هذه التصرفات والأعمال العمرانية التى أضطلع بها ، يمكننا أن نجتلى حقيقة الطبيعة التى كان عليها هذا القائد المغوار وما كان يتحلى به من صفات الرجل الذى أوتى قدرا عظيما من الكفاية والمقدرة الهائلة ، إنه كان يُغلب السياسة على حمل السلاح ، وكان يؤثر استخدام اللين واستعمال الدهاء والتصنع حتى يحقق آماله ، وكان يعرف الممكن وغير الممكن. حقيقة إنه جالت بخاطره أطماع ملكية ، مثله فى ذلك مثل باقى زملائه وأقرانه ، وفى سبيل ذلك عمد إلى استخدام العزيمة التى لا تكل ولا تفل - كل هذا فى هدوء وأناة وصبر ، لا يعرف الكلل ولا الملل ، إنه "بطلميوس" بن لاجوس "وأرسنوى". وكان منبته يرجع إلى أصل مقدونى نبيل فهو إذا كريم المحتد ، تربى وسط الغلمان الملكيين فى بلاط مقدونى، وكان رفيقا "للإسكندر" فى جولاته وصولاته وأبدى قدرا عظيما من الإخلاص والوفاء "للإسكندر" ، عندما اختلف الأخير مع أبيه فيليب

الثاني ، وكان يبدو عليه الثبات والهدوء فى تصريف الأمور التى كانت توكل إليه، وقد أظهر شجاعة منقطعة النظير فى شتى المناسبات فى صدر شبابه ، فلم تُبْهره عظمة بلاد الشرق ولا أبهته ، وقد ظل طوال حكمه فى مصر محتفظا بطابع الرجل المقدونى المتسم بالبساطة. حقيقة إنه كان مخلصا ووفيا "للإسكندر" فى حياته ، ولكنه لم يَكِن شيئا من الإخلاص على الإطلاق لأخ "للإسكندر" وهو "فيليب أريدايوس" الذى عُرف بالعته ولم يؤمن بابن "للإسكندر" من أم فارسية فتنكر له، وكان أول من قلب ظهر المجن لفكرة وحدة الإمبراطورية والمحافظة على كيانها ، ولذلك قضى فترة حكمه فى مصر فى حروب طاحنة وكفاح مرير مع كل من كانوا يودون المحافظة على هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف. وكان هذا من المبادئ الأولى التى كان يؤمن بها فى سياسته ، ولكنه بعد أن ضمن لنفسه الاستقلال بمصر والاستئثار بها ووطد مركزه فيها ، بل وفى أثناء انشغاله بالدفاع عن هذا الاستقلال لوادى النيل ضد "برديكاس" وغيره من زملائه وجيرانه ، وجدناه يحاول بسط نفوذه على البلدان المجاورة وهى البلدان التى تعتبر امتدادا طبيعيا لوادى النيل ، مثل فلسطين وبرقة وسوريا (الخالية) ، وتم له بالفعل الاستيلاء على برقة بمجرد أن جاء إلى مصر واليا عليها. ثم لما ثبّت أقدامه فى مصر ، اتجهت كل جهوده إلى تحقيق السيطرة على فلسطين وسوريا (الخالية) وفينيقيا ثم تحققت له السيطرة على قبرص. وهذا البرنامج العريض هو الحلم الذى جال بخاطر الجالس على عرش مصر ولا يخرج عن المنهاج الذى ارتأه العالم الروسى "روستوفتزف".
أما السيطرة على جزر الكيكلاذيس (Cyclades) فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ثم فرض الإشراف على شواطئ آسيا الصغرى عن طريق إخضاع كيليكيا أو الأناضول ، وكذلك شواطئ كاريا (Caria) فهذا كله من الأمور التى يمكن أن نجد لها تفسيرا ومبررا فى ضوء ذلك البرنامج الذى وضعه "بطلميوس" الأول واختطه لنفسه ، ولم يحد عنه قيد شعرة ، ولكن الأمر الذى لا نجد له أى مبرر ولا نستطيع أن نجد له سنداً مقنعا ذلك هو إقدامه ومغامراته فى ٣٠٩-٣٠٨ ق.م بالتدخل فى شئون حرية اليونان والعبث بها ، ومحاولته فرض سيطرته فى شئون شبه جزيرة البلوبونيز وكورنثه وسيكيون - مع أن هذا كله - مما يدخل قطعا فى مجال المغامرات المحفوفة بالمخاطر من أجل تكوين إمبراطورية عالمية والرغبة الأكيدة

فى فرض السيطرة على عالم بحر إيجة. ولكن هذا الحلم كان مجرد حدث عارض داعب خيال "بطلميوس" الأول فى تاريخ حياته الطويل ، فلما بدأت الصعاب وقامت العراقيل وتلبدت السحب أمام ناظره فى بلاد اليونان كفّ عن ذلك وتقوقع فى وادى النيل إلى حين ، ومالبث أن عدل عن الاهتمام بمثل هذه المشروعات ذات الأفاق البعيدة المدى وعاد أدراجه إلى الإسكندرية ، فلم يغب عن خاطره لحظة واحدة أن مصر هى القلب النابض ، والدرة التى ينبغى أن يفتديها بكل شئ ويركز كل اهتمامه عليها ، ومع ذلك فلم يشأ أن يؤسس فيها غير مدينة واحدة هى بطلمية (فى جرجا) لتكون منارة فى الصعيد.

بطلميوس الثانى :

وسياسة مؤسس دولة البطالمة ، تقدم لنا صورة عامة وغير متكاملة أو ربما تخطيطيا لما ينبغى أن تكون عليه الإمبراطورية البطلمية فى مستقبل أيامها على عهد ابنه وخلفه "بطلميوس" الثانى ، إذ تحقق له بالفعل حكم هذه الإمبراطورية لأول مرة بعد "الإسكندر". فماذا كان طابع هذه الإمبراطورية وما مداها؟ هذه أسئلة قد تعرض للباحث ، ونحن لا نعرف شيئا كثيرا عن شخصية "بطلميوس" الثانى الملقب بفيلادلفوس (Philadelphus) ، ولذا لا يمكننا التعرف على حقيقة مآربه ومقاصده ومدى الخطط التى كان قد وضعها البلاط السكندرى فى عهده ، ذلك أن الكتب التى دبجها المؤرخون القدامى عنه وعن تاريخ حياته وفترة حكمه قد ضاعت ثم إن شعراء بلاطه وهما "ثيوكريتوس" (Theocritus) "وكاليماخوس" (Callimachus) كانا حريصين على تقريظه ونشر المديح عنه والتغنى بأعماله وتوخى كل منهما المبالغة والإفراط فى المديح له. ولذلك لايمكن التعويل على أحد منهما والاعتماد عليهما فى إعطائنا صورة حقيقية عن أعماله ومآربه ، ومدى إمبراطوريته والبلاد التى دانت له ، وهو بحكم مولده وأحقيته فى وراثة العرش لم يكن مؤهلا لتولى الملك فى مصر ، لأنه كان ابنا لإمه "برنيقة" ، وهى الزوجة الثانية "لبطلميوس" سوتير. وكانت الزوجة الأولى هى "يوريديكى" (Eurydice) ابنه "انتيباتر" قد ولدت لسوتير ثلاثة أبناء آخرين أكبرهم "بطلميوس" الصاعقة (Keraunos) ، ولكن الملك العجوز مالبث أن أسبغ عطفه على ابن الزوجة المفضلة لديه وهى "برنيقة" ، وكان هذا الطفل قد ولد فى جزيرة صغيرة تسمى قوص

(Kos) إحدى مجموعة الجزر المتفرقة (Sporades). وقوص هذه جزيرة مستعرضة واقعة على مقربة من ساحل آسيا الصغرى صوب الجنوب. وكان مولد هذا الطفل فى هذه الجزيرة فى عام ٣٠٩ ق.م عندما كان والده يعد العدة لحملة يعتزم شنها على بلاد اليونان واضطر أن ينقل بلاطه إلى هذه الجزيرة ليكون على مقربة من ساحة العمليات العسكرية فى بلاد اليونان فكان مركز قيادته وأركان حربه فى هذه الجزيرة. وكان من حسن الطالع أن هذا الأمير الصغير حظى بأحسن قسط من التعليم وتلقى تعليمه على يدى خير المربين والمعلمين ، وهم الشاعر "فيليتاس" (Philetas) من أهل جزيرة قوص ثم النحوى "زينودوتس" (Zenodotus) والرواقى "استراتون" (Straton) من أهل لاموساكوس على الشاطئ الجنوبى من البسفور. لقد نشأ هذا الشاب فى وسط كله ملق ومداهنة ، وليس ذلك بعجيب فى أنه كان تواقا إلى الاعتداد بالنفس ، مليئا بشئ كثير من الغرور. إنه كان بحق رجلا مثقفا ، حريصا على صداقاته مع رجالات الأدب والفكر حتى أصبح يلقب بكلمة دالة على كل هذه المعانى وهى (mousikotatos) أى أكثر الناس تعشقا لربات الفنون (Musae). ونحن نعلم من ثنايا وثائق البردى التى ترجع لعصره وهى كثيرة جدا ، ومن أهمها ذلك الأرشيف الهائل المعروف بأرشيف "زينون" ، أن هذا الملك كان محبا للعلوم الطبيعية وحريصا على اقتناء الحيوانات الأليفة وخاصة الغريب منها ، فكان الأمراء وشيوخ القبائل فى فلسطين وبلاد ما وراء الأردن وبخاصة الشيخ المشهور المسمى "طوبيا" يقدمون له الهدايا فى شتى المناسبات من هذه الأصناف الغريبة. ثم إنه كان من جانبه لا يتوانى عن أن يبعث رسلا لاصطياد الفيلة والغزلان وشتى أنواع الحيوانات الغريبة من وسط أفريقيا ومن إثيوبيا وأعالى نهر النيل ، وكان يحتفظ بهذا الصيد النادر فى حديقة الحيوانات بالإسكندرية. ثم إن هذه النزعة فى حب الاحتفاظ بهذه الطيور والحيوانات الغريبة ، صاحبتها رغبة ملحة فى إقامة المهرجانات والاحتفالات والمواكب ذات الهيبة والروعة فى شتى المناسبات بالإسكندرية ، وكان لا يضن بشئ ، بل يصرف بسخاء ليكسب هذه المهرجانات طابعا من الأبهة ، ولدينا الشئ الكثير من المعلومات عن هذه الاحتفالات ، ففى وصف رائع خلده "كاليكسينوس" (Callixenos) وذكره "أثينايوس" (Athenaeus) وردده كتاب عديدون من قبيل التداول والإشادة بحكم

هذا الملك ومبلغ ما كان له من عظمة ، الشئ الكثير ، فإذا ما طالعنا هذا الوصف الرائع فى كتاب أثينايوس ، وجدنا موكبا فخما حرص هذا الملك على إقامته فى حلبة الألعاب (الاستاديوم) بالإسكندرية فى المناسبة الثانية من عيد الأسرة البطلمية (Ptolemais) ، وهو عيد كان يحتفى به كل خمس سنوات ويطلق عليه كلمة دالة على فترة الخمس سنوات هذه وهى (Pentaeteris) ، وهذا العيد الخمسى الثانى قد أقيم فى عام ٢٧٩ ق.م تخليدا لذكرى الآلهين المخلصين (Theoi Soteres). وهناك وصف رائع آخر ذكره "ثيوكريتوس" فى قصيدة راعوية هى القصيدة الخامسة عشرة من سلسلة قصائده التى كان يتغنى بها الرعاة ، وذلك فى مناسبة عيد "أدونيس" (Adonis) ، وهو شاب جميل كان ابنا لملك قبرصى ثم أحبته الإلهة "أفروديتى" إلهة الجمال ، وكان من سوء حظه أنه بينما كان يصطاد اغتاله دب برى. وفى الإسكندرية كان يحتفى به فى مهرجان رائع بمناسبة زواجه من "أفروديتى" ثم فى اليوم التالى كان النسوة يحملن صورته متوجهات صوب ساحل البحر وسط نواح وصراخ وعويل ، بكاءا على فقده وعلى حظه العاثر. وفى آخر المطاف تسوق لنا نصوص البردى العديد من الشواهد والأدلة على مدى اهتمام هذا الملك بتلك المواكب ، وهذه المهرجانات وما كان يشاهد فيها من مناظر خلابة تستهوى أيضا الناظرين وتبهرهم بما كانت تنطوى عليه من عظمة هذا الملك واتساع ملكه وسلطانه. وقد أتحفنا مؤخرا عالم بريطانى هو "فريزر" (P. Fraser) بشروح مستفيضة فى كتاب صدر له منذ بضع سنوات (١٩٧٢) عنوانه "الإسكندرية فى عصر البطالمة" (Ptolemaic Alexandria) ، أوضح فيه ما كان يجرى فى هذه المهرجانات من مواكب وما كان يراعى فيها من طقوس ومراسم لمختلف العبادات وأخصها عبادة الآله "ديونيسوس" (Dionysus). ولدينا فى أرشيف "زينون" وثيقة بردية تحمل خطابا موجها من وزير المالية "أبوللونيوس" إلى عامله المقيم بفيلادلفيا مركز ضيعته بإقليم الفيوم ، وفيه طلب عاجل بأن يوافيه بالهدايا المقدمة إلى الملك فى مناسبة عيد ميلاده أو فى أحد الأعياد والمواسم الأخرى التى كانت تتكرر على مدار السنة. وكان يحاكى هذا الوزير آخرون من أعيان البلاد فى تقديم الهدايا فى مناسبة عيد التاج وغيره. ولا ينبغى علينا أن ننظر إلى هذه الوقائع على أنها كانت حالات فردية لا تتكرر أبدا ، وإنما ينبغى أن

نأخذها فى الاعتبار لما تكشف عنه من أدلة على عظمة هذا العصر وعلـى نوعيـة تلك المجالات والاهتمامات التى كان الملك يُعْنى بها ويوليها أهمية خاصة.

ثم إن هذا الملك الشاب وهو الملقب "بفيلادلفوس" كان على النقيـض مـن والده ، من حيث الجسارة والإقدام والمسارعة إلى امتشاق السلاح والسير على رأس جيشه فى المعارك وميادين القتال. ففى القليل النادر كان ظهوره فى ساحة القتال، وكان غالبا ما يُعوّل على قواده فيكل إليهم تلك المهام. أما هو فكان يؤثر الاهتمام بشئون الدبلوماسية والسعى إلى تحقيق أغراضه وأهدافه عن هذا الطريق ، بدلا مـن حمل السلاح. على أن السياسة التى انتهجها فى أول الأمر كانت موحى بـها مـن قِبَل أخته وزوجته الثانية وهى "أرسينوى" الثانية ، وكانت تلقب "بحبيبة أخيـها" (أى أنها فيلادلفوس Philadelphus) ثم مالبث أن أسبغ هـذا اللقـب علـى أخيـها وزوجها فيما بعد فأصبح يعرف "ببطلميوس فيلادلفـوس" ، وكـانت "أرسـينوى" هذه امرأة قديرة ترتعد لها فرائص الآخرين من شدتها وجبروتها ، وما اتصفـت بـه من القدرة على الحزم والصرامة. إنها كانت تكبر أخاها بسبع سـنوات ، وكـان لهـا نشاط جم وإن كان فى كثير من الأحيان غير مستحب. أما أخوهـا وزوجـها فكـان بالنسبة لها كالحمل الوديع وكثيراً ما يوصف بأنه مثل "أبوللو" ، له خصـائل مـن الشعر الأشقر الذهبى اللون ، وكان يمثل بأنه الشخص المنـهمك فـى الملـذات وبـه الصحة المعتلة ، والحريص باستمرار على أن كان يحيـط نفسـه بـالملذات والمبـاهج. تلك هى الصورة التى أبرزها لنا "إسترابون" فـى موسـوعته التاريخيـة - الجغرافيـة عنه (٧٨٩)، وقد يكون فى وصف "إسترابون" هذا شئ كثير من الصـدق ، ولكـن هذه الصورة برمتها لا تمثل الحقيقة ، "فبطلميوس الثانى" كان أعظم ملوك البطالمة على الإطلاق وسياسته التى اتبعها إزاء روما عندما وقع الخلاف بينها وبـين جـارة مصر من الغرب ، وهى قرطاجة (Carthago) "تونس حالياً" فوقعت الحرب الأولى بين روما وقرطاجة (٢٦٤-٢٤٢ق.م) وموقفه منها دل على حصافة وبُعْد نظر وكانت تربطه بروما إذ ذاك صلة صداقة وبينهما معاهدة منذ عـام ٢٧٣ تؤكـد هـذه المـودة والصداقة (Amicitia) فلما وقع هذا الخـلاف وتمخـض عـن حـرب سـافرة آثـر أن يـكون واسطة صلح بين الطرفين وأن يقوم بدور الوسـيط الـذى يـود إصـلاح ذات

البين بين الطرفين، ولم يشأ أن ينحاز لأحدهما ، وهذا دليل على منتهى الحيطة والحذر من جانب هذا الملك الشاب.

ولما توفيت أخته وزوجته فى شهر يوليو من عام ٢٧٠ ق.م حزن عليها حزنا شديدا ، لأنه افتقد فيها ذلك العقل الرزين وتلك اليد القوية البارعة. وقد حكم بعد ذلك منفردا ، مكتفيا بأن يحيط نفسه بالخليلات والمحظيات من مثيلات "بلتستة" (Belteste) التى حصلت على جائزة فى عام ٢٦٨ ق.م فى سباق جر العربات الذى عقد فى أوليمبيا ببلاد اليونان. وليس فى وسعنا أن نتعرف على سبيل اليقين عما إذا كانت فئة من هؤلاء النسوة الخليلات أو بعض وزرائه المقربين من أمثال "أبوللونيوس" (Apollonios) وزير ماليته (Diocetes) المشهور الذى بقى فى منصبه طوال الخمسة عشر سنة الأخيرة من حكم هذا الملك من ٢٥٩-٢٤٦ ق.م، كان لهم نصيب معلوم فى توجيه السياسة وتسيير دولاب الأعمال ودفة الحكم الداخلى. وهناك أمر نعرفه عن "بطلميوس فيلادلفوس" على سبيل اليقين وهو أن هذا الملك العظيم لم تكن عينه لتغفل عن أى شئ ، ولم يعرف عنه أنه أهمل شيئا من صغائر الأمور مما قد يؤثر فى تحريك دولاب أعمال ديوانه ، وأنه كان قابضا على ناصية الحكم بيد قوية ، وأن عهده شهد بيروقراطية أصبحت مضرب الأمثال فى سياسة الحكم البيروقراطى وتسير دفتها بمنتهى الدقة حتى قيل إن هذا الملك كان يدرى عما كان يجرى فى جميع أنحاء مصر ، وأنه لم تكن تفته لا شاردة ولا واردة ، فكان يعرف ما يجول بخواطر الناس وما تجيش به نفوسهم من أقصى البلاد فى الجنوب حتى أطرافها النائية شرقا وغربا. فهو إذا كان الملك القدير والإدارى العظيم ، ولا يمكن أن يجاريه أحد من ملوك البطالمة فى هذا المجال. ولدينا مثل رائع على مدى اهتمامه بموضوعات جانبية منها موضوع إسكان الجند (Stathmodosia)، وتوطينهم بمنحهم رقعا من الأرض تزيد وتنقص بحسب الرتب العسكرية - كما ذكرنا من قبل - وهذا النظام له شقان : مسكن وقطعة من الأرض وبهما توفر للجندى القوت كبديل عن الراتب والأجر ، فكان نظاما ابتدع لهذه الأفواج الهائلة من الجنود المرتزقة ليوفر عليهم وعلى الحكومة عناء البحث عن سكن ومورد للرزق وهم جنود مجلوبون من الخارج من كريت ومن مقدونيا ومن آسيا الصغرى ومن شتى جزر بحر إيجة ، وكانوا قد حضروا للانضواء فى خدمة

هذا الملك السخى فى معاملة الجند ودفع رواتبهم وإغداق شتى المزايا عليهم. وكان هدف الملك أن يحتفظ بهذا الجيش المرابط تحت تصرفه ورهن إشارته فى أى وقت ، ولذا دبّر لهم الأقوات والبدائل عن الرواتب وعين لهم المساكن والثكنات ، وكان أسلوبه هذا فريدا فى نوعه ، وعملا واقعيا فى حقيقته ، أفاد به مصر ونهض باقتصادياتها عن طريق الاستعانة بطائفة من اليونان والمتأغرقين المثقفين فى فلاحة الأرض والأعمال الهندسية والعمرانية التى ترتبط بالزراعة ثم فى تحضير وتمدين الجمهرة الغفيرة من السكان المصريين الذين كان يعيش بين ظهرانيهم أولئك الجنود والضباط فى حياة ريفية رتيبة فاستفادوا وأفادوا. ولدينا خطاب موجه من الملك إلى أحد هؤلاء القادة العسكريين والمسئول عن فرقة من الجند هو "أنطيوخوس" (Antiochus) ، وكان يحوز نفسه قطعة كبيرة من الأرض ويلقب بصفة دالة على ذلك فهو (myriarouros) أى صاحب عشرة ألف أرورات ، والأرورا فدان يونانى يساوى ١٠/٦ من الفدان المصرى، وكان (eponymous commander) أى ينتسب إليه الجند ويتبعونه باعتبار أنه هو الذى جلبهم. وقد كتب إليه الملك خطابا منشورا ضمن مجموعة من أوراق البردى التى نشرتها جامعة ألمانية هى هالى (Halle) ، وفى هذا الخطاب تحدث الملك بصراحة (Bapyri Halensis 166-185) ، وكشف عن تبرمه مما سمعه عن تصرفات الجند والضباط فى منطقة إدفو أو (Apollonopolis Magna) وارتكابهم مخالفات جسيمة وعدم التزامهم بما جرى عليه العرف من توزيع ثكنات عليهم ليقيموا فيها بواسطة الموظفين المختصين ، وهم مندوبو وزير المالية فى الأقسام الإدارية بل إنهم يرفضون ما يعطى أو يخصص لهم ويعمدون إلى التصرف العشوائى واستخدام العنف واقتحام مساكن الأهالى وطرد أصحابها واحتلالها بالقوة الغشومة ، وقد طلب الملك إيقاف مثل هذه التصرفات فورا ومنع حدوثها وعدم التصرف فى هذه المساكن عندما يغادرونها لا بالتأجير من الباطن أو بتغيير معالمها ولا بوضع الأختام عليها حتى يعودوا إليها ، كما لو كانت ملكا خالصا لهم ، مع أنها أساسا ملك للملك وحده.

وهذا الخطاب وغيره من الأوامر الملكية التى أصدرها الملك فى هذا الصدد ، وهى واردة فى مجموعة بردى مشهورة - تحمل اسم فلندرز بيترى (Flinders Petrie) يقدم الدليل الواضح على مدى عناية الملك بشئون الجند ، وعلى مدى

سخطه وتبرمه مما كان يجرى من مخالفات تحت سمع الحكومة وبصرها من طبقة الجند والضباط وهى الطبقة التى خصها بجل عنايته.

ثم إن الوثائق البردية قد كشفت لنا عن جوانب أخرى من حياة هذا الملك ، فَصَوَّرته وهو يقوم برحلات تفتيشية وزيارات لإقليم الفيوم وهو الإقليم الذى كان يطلق عليه أولاً إقليم البحيرة نسبة لبحيرة قارون ثم تغير الاسم إلى الإقليم الأرسينويتى نسبة لأخته المتوفاه. فنرى الملك وهو يتفقد أعمال الرى والصرف والأعمال الهندسية والإنشاءات العمرانية التى كانت تتم فى هذا الإقليم وبخاصة فى بلدة فيلادلفيا الواقعة فى شرقى هذا الإقليم على حافة الصحراء. وهذه كلها أعمال كانت تجرى بسرعة فائقة ، وكانت هذه الأعمال الإصلاحية وبخاصة استصلاح الأراضى والتوسع الأفقى على حدود إقليم الفيوم يسير على قدم وساق وبطريقة أقل ما يقال فيها أنها كانت تتسم بحمى السرعة. فالملك ووزرائه وكبار موظفيه كانوا لا يتوانون ولا يفرطون فى شئ من هذا المنهاج الإصلاحى الواسع المدى. ونجد صدق هذا فى خطاب منشور ضمن أوراق بردى "بيترى" موجه من ابن مهندس مقيم بإقليم الفيوم اسمه "كليون" (Cleon) إلى أبيه وفى هذا الخطاب إشارة إلى غضب الملك على هذا المهندس الكبير وصاحب المشروعات الضخمة فى إقليم الفيوم ، وعلى الرغم من هذه الجهود الجبارة لم يتردد الملك فى توجيه اللوم إليه لتفريطه.

ومن المعروف عن "بطلميوس" الثانى أنه كان أغنى ملوك عصره ، بل وربما كان أقواهم ، وكانت عظمة مصر وما تحقق لها من تقدم سريع ونجاح وفلاح ، بفضل مساهمة الظروف المواتية ، فلم يصادفه شئ من الصعوبات التى عاقت نظراءه من الملوك المعاصرين ، وإنما كان الطريق ممهداً ، فانطلق يدعم حدود البلاد فى الجنوب صوب النوبة ويفرض سلطانه فى الشق الجنوبى من سوريا وفى بعض المدائن فى فينيقيا مثل صور وصيدا ثم استطاع آخر الأمر أن يفرض سيطرته على حلف الجزر فى مياه بحر إيجة.

إنه بعد الحرب السورية الأولى بين كل من" بطلميوس الثانى" "وأنطيوخوس الأول" (٢٧٤-٢٧٢ق.م) تم عقد الصلح بين الطرفين فى عام ٢٧٢ ق.م ، وبمقتضاه توطدت الإمبراطورية البطلمية وبانت معالمها. وفى ذلك الحين أو قرابة هذا التاريخ

كتب شاعر البلاط السكندرى "ثيوقريطس" قصيدة قال فيها ألوانا من المديح "لبطلميوس" ، وكان تاريخ هذه القصيدة فى عام ٢٧٠ ق.م لأنه جاء بها تنويه وإشارة إلى الملكة الأخت "أرسينوى" الثانية فقيل عنها أن الملك هو "الأخ والزوج العزيز" "لأرسينوى" الثانية ، ومعنى هذا أنها كانت إذ ذاك لا تزال على قيد الحياة. وفى شهر بشمس (يوليه) من عام ٢٧٠ ق.م توفيت وجاءت إشارة إلى هذا الحدث الأليم فى حجر "منديس" (Stele of Mendes) فقيل إنها رفعت إلى المقام العالى عند "رع" ، وكذلك كتب "هارماخيس" (Harmachis) كتابه عن وفاتها ، وقد مضى هذا الشاعر فعدد أسماء البلدان والشعوب التى كانت تدين بالولاء والخضوع "لبطلميوس" فذكر بالإضافة إلى فينيقيا وسوريا شعوبا أخرى كثيرة منها الأثيوبيون ذووا البشرة "الداكنة" وجزر السكيلاديس. ثم تجاوز هذا الشاعر فى إمعانه وخوضه فى تعداد الشعوب فذكر بلاد العرب وليبيا وبامفيليا وأهل كيليكيا وأهل كاريا. وكان "فيلادلفوس" قد استطاع أن يسترد نفوذه فى منطقة الأناضول فى أثناء الحرب السورية الأولى.

على أن هذه الرقعة الواسعة لم تبق فى حوزة مصر وإنما فقدت مصر جزءا كبيرا من هذه الإمبراطورية ، بل ومن السيطرة والسيادة التى كانت لمصر على البحار بعد أن كادت شواطئ آسيا الصغرى كلها تخرج من أيدى "فيلادلفوس" عقب معركتى قوص (Kos) ٢٦٢ ق.م وإفيسوس. وقد توفى الملك فى يناير سنة ٢٤٦ ق.م.

بطلميوس الثالث :

تولى "بطلميوس" الثالث الحكم فى عام ٢٤٦ ق.م واستمر فى الحكم حتى ٢٢١ ق.م ، وكان إبنا "لفيلادلفوس" من زوجته الأولى "أرسينوى" الأولى التى طلقت ونفيت إلى قفط قبل زواجه من أخته "أرسينوى" الثانية. وشاءت هذه الملكة القديرة أن تتبنى هذا الابن وتحتضنه ، وأصبح يطلق عليه فى الوثائق الرسمية على أنه ابنها ثم أسبغ عليه الشعراء كنية مؤداها أنه كان يتصف بدماثة الخلق ورقة الطبع ، وتأكد هذا المعنى فى اللقب الذى أطلق عليه واشتهر به وهو "يورجتيس" (Euergetes) ، ومعناه "فاعل الخير". ويمكن أن نفسر ذلك فنرى فى هذه الصفة الآلهية التى أسبغت وأضفيت عليه ما يفيد أنه كان محبا لخير شعبه، وفى هذا

تصوير عن تلك الملكية المثالية التى كان ينادى بها الفلاسفة الرواقيون والكلبيون[1]. على أن المؤرخين الحديثين تسرب إليهم بعض الشك فى أنه هو الذى أمر بإعدام "أبوللونيوس" آخر وزير مالية لدى والده "بطلميوس فيلادلفوس" ، إن صح أنه أعدم ، والثابت أنه توارى فجأة عن الأبصار عقب تولى بطلميوس الثالث ، وصودرت ضيعته وبيعت فى المزاد أملاكه وعقاره ومقتنياته. ولدينا فى وثائق البردى الدلائل القاطعة على صحة هذا المصير الأليم ، ثم إنه هو الذى أباح أو أمر بأن يقتل أخوه "ليسيماخوس" الذى كان قد تولى لفترة ما وظيفة الحاكم (استراتيجوس) فى فقط ثم ما لبث أن توارى بعد ذلك عن الأبصار بطريقة تشوبها الشكوك والظنون.

"وبطلميوس" الثالث هذا كان ملكا على قسط وافر من الثقافة ، تتلمذ على يد" أبوللونيوس" الرودى (من أهل جزيرة رودس) ، وهذا هو الذى خلف كاليماخوس فى وظيفة مرموقة هى رئيس الأكاديمية فى الإسكندرية. وفى صداقة الملك "لإراتوسثينيس" (Eratosthenes) الجغرافى دليل أيما دليل على ميوله العلمية والثقافية ثم إصلاحه للتقويم المصرى بواسطة جمع من الكهنة المصريين وكان قد دعاهم للحضور للاجتماع فى كانوبوس (أبى قير بظاهر الإسكندرية) فى عام ٢٣٧ ق.م دليل آخر على مبلغ اهتماماته وبعد نظره للتنظيم والإدارة ، وقد أصدر الكهنة قرارهم المشهور والمسطر على حجر يسمى بحجر كانوبس باللغة الهيروطيقية والخط الديموطيقى وباللغة اليونانية ، يشيدون فيه بأعمال الملك وعفوه عن المسجونين وتنازله عن المتأخرات من الديون ... ألخ من أعمال المديح بالملك ، وكل هذه التصرفات تكشف عن ميله الطبيعى إلى الاهتمام بالعلوم الإنسانية وحبه فى مساعدة المنكوبين والضعفاء. والثابت أنه كان ملكا متذوقا للآداب والفنون. وليس لدينا أية أوامر باقية مما كان يمليه على كبار موظفيه ومستشاريه ، أسوة بما حفظته لنا أوراق البردى من إملاء أبيه "فيلادلفوس" على نحو ما ذكرناه ، ولذلك لا نستطيع التعرف على ذوقه ولا على صوته المدوى. وفى أغلب الظن كان التقرير عن تلك العمليات العسكرية التى قام بها فى

(١) هى فلسفة زاهدة فى الحياة ، نسبة إلى حياة الكلاب (Kynikol).

سوريا فى مستهل حكمه هو الشئ الوحيد الذى كان من بنات أفكاره وربما من صنع يده ، وكان قد ذهب على عجل إلى سوريا لإنقاذ أخته ""برنيقة"" ابنة "فيلادلفوس" الذى كان قد زوجها من "أنطيوخوس" الثانى ملك سوريا فى عام ٢٥٢ ق.م ، وودعها والدها حتى الفرما وصحبها وزير ماليته "أبوللونيوس" حتى أوصلها إلى إنطاكية فى سوريا ثم تنكر لها زوجها واعتصمت بإفسوس مستنجدة بأخيها "بطلميوس" الثالث فسارع إلى نجدتها ، ولكنها ماتت قبل أن ينقذها من ورطتها. وقد تابع بعد ذلك حملته فى بلد ما بين النهرين وأبلى فيها بلاءا حسنا، وبذلك أصبح هو الملك المحارب المغوار واستحق بجدارة أن يلقب بأنه أعظم فاتح فى الأسرة البطلمية. على أنه بعد أن تحققت الغايات البعيدة المدى من فتوحه فى قلب آسيا ، مالبث أن تخلى عنها لأسباب إستراتيجية ، ومع ذلك بقى الحكم له فى إمبراطورية واسعة ولكنها متناثرة ، فبرقة[1] كانت تحت حكمه المباشر بفضل زواجه من ""برنيقة"" ابنة "ماجاس". أما فى سوريا وفينيقيا فظلت حدود مصر كما هى من قبل ، ممتدة على الساحل فى شمال صيدا صوب طرابلس ، وفى كيليكيا وبامفيليا توسعت مصر فى أملاكها ، وكذلك كان الحال فى كاريا بآسيا الصغرى. وليس هنا مجال ذكر التفصيلات المسهبة عن المدائن والبلدان التى كانت تدين بالولاء لمصر فى الهللسبونت (البسفور والدردنيل) ثم فى تراقيا ، وفى نطاق جزر بحر الأرخبيل ، فهذه كلها جزئيات ليس من وراء سردها طائل ، والخلاصة أن مصر كانت لها إمبراطورية متناثرة أجزاؤها هنا وهناك ، ومشتملة على بضع جزر فى نطاق الجزر الدائرية (Cyclades) تدين بالولاء لمصر فهى إذا كانت إمبراطورية منبعجة.

هذا هو الوضع فى الإمبراطورية اللاجيدية أو البطلمية وهى فى أوج عظمتها، وهذا الانبعاج فى شكلها كان راجعا إلى أنها تعدت النطاق وخرجت عن الحدود التى وصلت إليها الإمبراطورية المصرية فى ظروفها العادية على أيام الفراعنة العظام. وإذا صح أن الأصل فى نشأة هذه الإمبراطورية البطلمية هو أن

---

(١) هذا هو أسمها ، ولكن كان اسمها القديم "قورينى" (Kyrene) ، وهى فى إقليم بنغازى حاليا.

مصر كانت ترغب فى أن تزود نفسها بجميع الضمانات التى تكفل لها الأمان والتفوق والسيطرة الاقتصادية على نظراء مصر والمنافسين لها من جيرانها ، فإن تطور هذه الإمبراطورية واتساع رقعتها شيئا فشيئا جعلها تنبعج وتفوق كل المقاييس على غير انتظار. ولا يمكن أن نقبل الرأى الذى نادى به العالم الألمانى "ألريخ فلكن" والقائل بأن مصر عندما وطدت أقدامها على شواطئ آسيا الصغرى ابتداء من كيليكيا إلى الأناضول حتى الهللسبونت ثم امتدت إلى الخرسونيز (Chersonese) "الدردنيل" والى تراقيا (البلغار حاليا) ، كان ملوك البطالمة يبغون تحقيق أهداف أبعد من مجرد الرغبة فى الأشراف على الطرق التجارية المؤدية إلى الإسكندرية - وهذه الأمنية التى ينسبها "فلكن" إلى ملوك البطالمة الأولين ، كانت ترمى إلى السيطرة على جميع أنحاء بحر إيجة بقصد الحصول على السيادة (Hegemonia) على العالم فى هذا المحيط. ولعل هذه الرغبة كانت فى الحقيقة هى الدافع إلى كل هذه المنافسات والمشاحنات التى وقعت بين القوات التى اقتسمت دولة "الإسكندر" وبقيت فى صراعات ومؤامرات ودسائس ابتداء من أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. وبالتأكيد كانت هذه الرغبة أو بالأحرى هذا المطمع الذى داعب خيال ملوك البطالمة الأولين ، غير خاف على الملكين البطلميين الأولين ، بما أوتياه من بعد النظر والحصافة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف استطاعا استخدام جميع موارد البلاد أحسن استخدام. ولكن نظرة عابرة إلى خريطة هذه الإمبراطورية المصرية المترامية الأطراف يتبين منها أن بعض هذه المواقع كان مرتبطا بمحور الارتكاز ، وهو مصر التى كانت تمثل المركز الرئيسى ، بينما بعض المواقع الأخرى كان نائيا وبعيدا عن مركز الدائرة ويمثل نوعا من الانبعاج ، وعلى أى حال فإن هم البطالمة الأولين انصب على ضرورة الاحتفاظ بمواقع ثلاثة لا غنى عنها ، وهى برقة وسوريا المجوفة (سهل البقاع أو لبنان) ثم قبرص. وفى الوقت نفسه كانت مصر مستعدة للتفريط والتخلى عن غير هذه المواقع الثلاثة وذلك عن طيب خاطر. ومنذ عام ٢٥٣ ق.م لم يكن قد بقى "لبطلميوس فيلادلفوس" شئ من أملاكه فى صميم بحر إيجة ، ومع ذلك فإن "بطلميوس" الثانى قبل هذا الوضع على مضض وقد قضى نهاية حكمه فى عهد شهد سلاما مخيما دون أن يعكر صفوة شئ. وهكذا أدرك "بطلميوس" الثالث كيف أن الخلافات والنزاع الأسرى قد مزق

الإمبراطورية السلوقية شر ممزق ، وكيف تفككت أواصر هذه الإمبراطورية قبل أن يحاول "أنطيوخيوس" الثالث لم شملها ، بل والتوسع على حساب جيرانها عن طريق الإغارة على مصر فى عهد "بطلميوس" الرابع الملقب (فيلوباتور) ، ولكن أطماع "أنطيوخوس" الثالث باءت بالفشل الذريع فى معركة مشهورة هى معركة رفح ٢١٧ ق.م ، وارتد عن مصر ونجت الإمبراطورية البطلمية من خطر محقق بفضل جهود الفيلق المصرى الذى دربه "سوسبيوس" (Sosibius) وزير الحربية المصرية على عهد "فيلوباتور" بن "بطلميوس" الثالث ، وكان مدركا لهذا الخطر من قبل وقوعه بفترة طويلة، وكان يعلم أن الدولة السلوقية فى الشام كانت يقف لمصر بالمرصاد ، وأنها كانت منافسة ومناهضة لمصر وتتطلع إلى الإغارة عليها بين حين وآخر ، ولكن حكمة "يورجيتيس" الأول اقتضت عدم استغلال الخلافات الأسرية فى داخل تلك البلاد الواقعة على تخوم مصر من الشمال وآثر البعد عن التورط فى عمل عدوانى على جيرانه ، ولم يفكر فى توسيع رقعة بلاده فى الخارج بعد فترة الخمس سنوات الأولى من حكمه والتى قضاها فى حرب طاحنة فى هذه البلاد. وبقيت الحقيقة الأساسية ماثلة للعيان ، وهى أن مصر قبل كل شئ هى القاعدة الأساسية فى سلطان البطالمة ومحور الارتكاز فى ملكهم العريض، ولاينبغى والحالة هذه تعريضها لأى خطر أو المغامرة بها فى عمليات عسكرية خاسرة ، وكان الملك "بطلميوس" الثالث يرى بثاقب نظرة أن فى وسعه استخدام موارد البلاد فى تحقيق أهدافه ، ولكن لا ينبغى عليه أن يرهق مصر بما تكلفه هذه الحروب من مصاريف باهظة وأعباء لا قبل لها بها ، خاصة وأن مصر قد قدمت له فى حروبه فى السنين الأولى من حكمه بسخاء ولم تضن مواردها عن تزويده بكل ما كان يلزمه فى هذه الحروب التى كان فيها ينتقم لشرف أخته ""برنيقة"" زوجة "أنطيوخوس" الثانى ، ولكن لم يكن قد غاب عن باله أبدا أن مثل هذه الفتوح لابد أن تعود على مصر بالمغانم وألا تكون غرما أو سببا فى إرهاق موارد البلاد. ثم إن مصر هى المورد الرئيسى الذى كان يغذى الخزانة العامة فى مصر البطلمية ، وهى فى الوقت نفسه تمثل العنصر الأساسى فى هذه الإمبراطورية ولا ينبغى التفريط فى أى شئ يضر بمصلحة البلاد. وهذا هو السبب فى أن البطالمة أو بالأحرى الملوك الثلاثة الأولين إذ صح أن كان لهم التفكير فى

تكوين إمبراطورية فى وقت ما فإن هذا التفكير كان مجرد خاطر ما لبث أن تبخر وأعرضت عنه مصر كلية - إلى أن جاءت "كليوباترة" السابعة وهى الملكة الأخيرة فى هذه الأسرة فعاودت التفكير فى إمكان تحقيق شئ من هذا البرنامج ، الذى داعب خيال "فيلادلفوس" فى وقت ما. ولا ينبغى أن ننسى أن الموارد العسكرية والعنصر البشرى القادر على خوض هذه الحروب بكفاية ومقدرة ، كان غير متوفر فى مصر وإنما كانت موارده مقصورة على بلاد اليونان ومقدونيا وآسيا الصغرى ، وهذه كلها كانت من البلاد التى أحجم حكامها وملوكها عن السماح لمصر باستيراد تلك السلعة البشرية وهى الجنود المرتزقة وذلك من قبيل الكيد لمصر ، وهكذا كان حجبهم لهذا العنصر عملا عدائيا قصدوا من ورائه التنكيل بمصر وحكام مصر ، وعندئذ لم يبق أمام الملوك البطالمة والمقصود هنا عصر "بطلميوس" الرابع "فيلوباتور" سوى الاعتماد على إسكانهم وتوزيعهم وانتشارهم فى أرجاء البلاد ليكونوا عدتها فى وقت الأزمات والملمات ، وقد نجحت هذه السياسة فى المحافظة على هذا العنصر البشرى المجلوب من الخارج والمدرب على أساليب حرب الفيالق ونظامها. ثم عمدت حكومة "بطلميوس فيلوباتور" ووزيره "سوسيبيوس" إلى تجنيد العنصر المحارب المصرى وهم الذين أطلق عليهم "هيردودت" من قبل اسما مذريا ، ولكن الملك البطلمى أضطر إلى أن يكون فيلقا مصريا ، وقد نجحت الفكرة وأثبت أولئك الفلاحون المصريون أنهم أكفاء وكسبوا النصر "لبطلميوس" الرابع.

ولما كانت مصر مدينة فى تقدمها وفيما حققته من نجاح لا إلى تربتها الخصبة فحسب بل إلى تجارتها سواء منها العابرة أو لتجارتها الخارجية ، ولذلك آثرت مصر أن تركن إلى توخى السلم وهو شرط أساسى لرواج التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، وموقع مصر الفريد جعلها لا تستطيع الاتصال بآسيا عن طريق الممر السورى الذى يعتبر بمثابة دهليز (Corridor) ، وكذلك لا تستطيع الاتصال بأوروبا إلا عن طريق البحر ، فهى لذلك وبحكم هذا الموقع لا يمكن أن تكون مركزا لإمبراطورية عالمية لأن اتصالها بأطراف هذه الإمبراطورية سوف يكون خاضعا لجيرانها وواقعا تحت رحمتهم. وفضلا عن ذلك فلكى تكون لمصر إمبراطورية عالمية فإن هذا يتطلب بدوره وجود جيش قوى مرابط ، تتجدد عناصره

فى يسر وسهولة وأنى لمصر بذلك ، والجيش القوى البطلمى كانت عناصره أجنبية مجلوبة من الخارج كما قلنا ولكنها كانت باستمرار عرضة لأن ينضب معينها إذا ما تراءى لجيرانها ولخصومها أن يحبسوا عنها هذا المورد البشرى ويمنعوها من أن تتزود منه بخير زاد فأغلب القوات المحاربة يأتى من بلاد اليونان ومن جزر بحر الأرخبيل وكريت ، وهذا الاحتمال واقع لا مناص منه متى تم علم خصوم مصر بأن أطماعها زادت عن الحد وأنها أخذت تتطلع إلى تكوين ملك عريض وإمبراطورية طابعها الأساسى تكوين إمبراطورية بحرية (thalassocratia) ، وكانت مثل هذه الإمبراطورية لا تزال فى حوزة مصر على عهد "فيلوباتور" ، على الرغم من أن سيلوقيا الواقعة على نهر العاصى (Orontes) فى سوريا ارتدت إلى دولة السلوقيين وأن أجزاءا من باميفليا فى آسيا الصغرى ضاعت من مصر. ولكن الوضع بوجه عام هو أن إمبراطورية مصر بقت لها بشكل ما حتى بداية عصر "ابيفانيس" وهو "بطلميوس" الخامس (٢٠٣ ق.م) ثم بدأ الانهيار بعد ذلك مباشرة ، وكانت الخلافات الداخلية والانقسامات الأسرية هى أحد العوامل التى أضعفت مصر وأفقدتها القدرة على الدفاع عن نفسها ضد خصومها ونظرائها.

وفى عام ٢٠٠ ق.م استطاع "فيليب" الخامس ملك مقدونيا أن يسطو على أملاك مصر فى تراقيا (Thrace) ، وهى مجاورة لبلاده من الشرق وكذلك على ضفاف البسفور والدردنيل. وبذلك أقصى مصر عن هذه المناطق النائية شمالا. أما "أنطيوخوس" ملك الشام فقد استولى على سوريا الخالية (أو سهل البقاع). كما استولى على فلسطين وعلى جميع المواقع التى كانت فى حوزة مصر فى آسيا الصغرى. وهكذا تقلصت الإمبراطورية المصرية فى مستهل القرن الثانى قبل الميلاد ولم يبق لملك البطالمة فى ذلك الحين من إمبراطوريتهم والولايات الخارجية التى كانت تتبعهم سوى برقة وقبرص اللتان حرصت مصر على الاحتفاظ بهما أطول مدة ممكنة ، وهكذا انكمشت مصر وضاعت إمبراطوريتها.

الفصل الثانى عشر

مصر تنطوى على نفسها بلا إمبراطورية

هذه صفحة غير مشرقة من تاريخ مصر البطلمية ، تردت فيها البلاد فى سلسلة من المؤامرات والخلافات الأسرية ، ونجم عن هذا من الشرور الشئ الكثير، وساءت مصالح مصر وانتهى الأمر بارتمائها فى أحضان روما التى وجدت الفرصة متاحة كيما تقف موقف الحَكَم بين الأخوة والأخوات وهم يتنابذون بالألقاب ويتقاتلون ويكيد بعضهم للآخر. وقد سق أن ذكرنا أنه فى مستهل القرن الثانى شهدنا مصر وقد تجردت من إمبراطوريتها أو كادت ، ولكنها على الرغم من كل ذلك كانت لاتزال دولة قوية وثرية وبقيت محتفظة بهذا الثراء العريض حتى جاء عهد الملك البطلمى المفتون وهو "بطلميوس أوليتيس" أى الزمار والد ""كليوباترة"" السابعة آخر ملكات البطالمة ، فكان دخل هذا الملك (بحسب تقدير ذكره "شيشرون" الخطيب الرومانى فى إحدى خطبه دفاعا عن شخص يدعى رابيريوس "Pro Rabirio") يقدر بمبلغ ١٢,٥٠٠ تالنت من الفضة (والتالنت الواحد كان يساوى ٢٤٠ من الجنيهات تقريبا) ، فما هو السبب الذى حال دون أن تسعى مصر فى سبيل استرداد أهميتها ونفوذها القديم؟ هذا سؤال ينبغى أن نجيب عليه فى صراحة تامة ، فنقول إنها قوة روما التى كانت تقف لمصر بالمرصاد وتعمل جاهدة على تقطيع أوصالها وعلى عزلها عن جيرانها والحيلولة دون حدوث أى تكتل بين مصر وسوريا أو بين مصر وإحدى جاراتها أيا كانت هذه الجارة.

وهنا ينبغى علينا أن نعرف صفحة من تلك العلاقات بين مصر وسوريا منذ أول الأمر أى منذ ٢٧٣ ق.م عند عقد "بطلميوس" الثانى معاهدة صداقة مع روما (amicitia) ، وتبادل معها السفراء وأوفد بعثة مصرية إلى السناتو الرومانى لإعلان هذه الصداقة وتوكيدها فكانت هذه السفارة بمثابة حركة بارعة تنم عن بعد النظر الثاقب من جانب مصر ومركزها فى معترك السياسة العالمية ، وبان أثر هذا بشكل جلى عندما وقعت الحرب البونية الأولى (٢٦٤-٢٤١) ق.م بين كل من روما وقرطاجة والأخيرة كانت جارة أفريقية ، محلها الآن تونس وقد وقفت مصر موقفا محايدا تماما فى هذا الصدام ، وعرضت أن تقوم بدور الوسيط لإصلاح ذات البين

بين الطرفين المتقاتلين لو شاءتا، ولكن للأسف لم يتحقق شئ من ذلك وانتهت الحرب بهزيمة قرطاجة وإملاء شروط مهينة عليها ، على أن هذه العلاقات الدبلوماسية لم ينجم عنها أية نتائج سياسية حتى نهاية القرن الثالث ، مع أن بدء هذه العلاقات الدبلوماسية كان مرجعه إلى البلاط السكندرى الذى اتخذ الخطوة الأولى فى هذا السبيل. وعلى الرغم من أمارات الود والاحترام المتبادل والاتصالات التى كانت تتم بين الطرفين من حين لآخر فى صورة بعثات تكريمية متبادلة فى شتى المناسبات ، فلم تكن تلك كمعاهدة عدم اعتداء أو نحو ذلك بين روما ومصر وإنما هى صداقة جوفاء لا تغنى ولا تسمن من جوع. وعلى أى حال فالسياسة التى انتهجها ملوك البطالمة كانت سياسة استقلالية ، بل إنها فى واقع الأمر كانت تسفر أحيانا عن أنها ليست فى صالح مصر. ومن ذلك مثلا قيام "بطلميوس" فيلوباتور بالتدخل كوسيط فى الحرب التى شنها بعض الخلفاء ضد فيليب الخامس ثم تدخله فى الحرب المقدونية الأولى ، وكان هذا التدخل لخدمة مصالح فيليب وليس من أجل روما ، وحتى فى صدر عهد الملك "بطلميوس" الخامس عمد وزيره "أجاثوكليس" إلى إيفاد رسول لروما من أجل طلب العون والمساعدة من قِبَل مجلس السناتو الرومانى ضد ""أنطيوخوس"" الثالث ، وفى الوقت نفسه كان هذا الوزير بعينه يوجه جُل همه واهتمامه إلى التحالف مع ملك مقدونيا مع أن الأخير كان إذ ذاك هو العدو اللدود لروما ، بل إنه كان يتفاوض دون طائل من أجل عقد زواج بين الملك الشاب وابنته "لفيلب" الخامس ملك مقدونيا ، وأثبت بذلك أنه كان يتخبط فلا يعرف الصديق من العدو ، وفى عام ١٩٦ ق.م كان لروما موقف معين إزاء مصر فكانت النصيرة والمدافعة عن مصر ضد الملك السلوقى وتقمصت دور المدافع عن الحرية اليونانية والحامى لملك مصر المسلوب الإرادة.

على أن كل شئ مالبث أن تغير بعد أن عقدت روما معاهدة مع "أنطيوخوس" الثالث سميت بمعاهدة أباميا (Apamea) فى عام ١٨٨ ق.م. واستولت برجامة (Pergamum) بمقتضاها على معظم الأملاك السلوقية فى آسيا الصغرى وانكمشت بذلك دولة السلوقيين فى الشام وأصبحت روما بعد ذلك قوة مهابة فى الشرق ومن حقها أن تملى إرادتها بحد السيف. حقيقة إن روما لم تقرضهم

أجزاءً من بلاد الشرق إلى ملكها فى ذلك الحين ، ولكنها عندما انتصف القرن الثانى قسّمت بلاد اليونان ومقدونيا عام ١٤٦ ق.م وضمت إليها برجامة فى الفترة ما بين ١٣٣-١٢٩ ق.م وضمت كيليكيا عام ١٠٢ ق.م ، وسوف تنقضى فترة طويلة قبل أن تقدم روما على أن تضم إليها مملكتين عظيمتين أخريين هما دولة السلوقيين ثم دولة البطالمة مع أنهما كانتا فى حالة ضعف شديد. ومع ذلك فقد بقيت كل من هاتين الدولتين محتفظة بظل من الحياة الاستقلالية تنعم به تحت سيطرة روما أو خوفا من تهديداتها إلى أن يحين الوقت المناسب لدخول كل منهما فى الحظيرة الرومانية بشكل سافر.

وحتى بداية القرن الأول قبل الميلاد ، كانت روما مشغولة وأيديها مغلولة إلى عنقها بسبب حروبها الكثيرة والمغامرات العديدة التى تورطت فيها فى المياه الغربية من البحر المتوسط ثم بسبب تلك الأزمات الداخلية والخلافات بين الطبقات (البطارقة أو الأشراف والبلبز أو العامة) ، ثم زاد الطين بلة أن ظهرت طائفة من القواد فى الجيش أخذت تهدد روما وتملى على مجلس السناتو شروطها. وعندئذ كان ملوك البطالمة لا يزالون قابضين على ناصية الحكم ، ولكن المؤامرات كانت على أشدها بين الأخوة والأخوات ، وكان البعض منهم متى غلب على أمره لجأ إلى روما متوسلا وطالبا التدخل لصالحه ورده إلى عرشه المسلوب منه. وهناك فريق آخر كانت فرائصه ترتعد وترتجف خوفا وَوَجَلاً من روما وبطشها ، وهكذا كانت السياسة الخارجية لمصر تنطوى فى جميع الأحوال على عمل الحساب كل الحساب لروما واحتمال تدخلها بطريقة سافرة متى شاءت. وتاريخ مصر فى الداخل أصبح فى هذه الحقبة عبارة عن مناقشات جوفاء بين أفراد الأسرة البطلمية، ملوكا وملكات ، على تولى العرش ، وكانت هذه المساجلات مصحوبة بحروب دموية وانقسامات وانحرافات مما أضعف البلاد وساعد على تفكك أوصالها فالصعيد فى ناحية والوجه البحرى فى أيدى منافس أو معتدى أثيم ، والإسكندرية تطرد الملوك ثم تستقبلهم وهكذا دواليك. وبالطبع كانت أصابع الرومان وراء هذا كله ، تحث هذا وتؤلبه على ذلك من الأخوة والأخوات ، وكان زعماء الرومان ورجال الأحزاب فى روما بل وأعضاء السناتو أنفسهم يمدون أيديهم ويقبلون الرشاوى من أجل نصرة ملك معزول ورده إلى عرشه المسلوب أو من

أجل صد ملك سوريا ورده عن مصر. ويذكر التاريخ واقعة مشهورة تمت فى سنة ١٦٨ ق.م عندما انتصرت روما على مقدونيا وهزمت ملكها "برسيوس" (Perseus) فى موقعة بيدنا (Pydna) وصادف فى ذلك الحين أن كان ملك سوريا ""أنطيوخوس"" الرابع قد غزا مصر واحتل الإسكندرية بالفعل ، وعندئذ لاحقه السفير الرومانى "جايوس بوبليوس لايناس" (G. Popilius Laenas) ووجه إليه إنذارا سيئا وخيّره بين الرحيل فورا عن مصر وبين صداقة الرومان ، وطلب إليه أن يجيب على هذا السؤال فى الحال قبل مغادرته دائرة كان قد رسمها من حوله فى الرمل بعصاة كانت تحت إبط هذا السفير الرومانى المتغطرس. وقد استجاب ""أنطيوخوس"" الرابع لنداء هذا السفير مستسلماً لمطلب روما ورحل عن مصر. وبذا تم إنقاذ العرش المصرى بفضل تدخل روما ، وأصبح ملك البلاد إذ ذاك وهو "بطلميوس" فيلوميتور مدينا لروما بعرشه وصارت مصر فى الحقيقة تحت الحماية الرومانية المقنعة.

على أنه لا ينبغى علينا أن نطيل فى شرح تلك المؤامرات والدسائس التى كان يحيكها الأمراء فى الأسرة البطلمية وتشارك فيها بنصيب وافر الملكات والأميرات البطلميات من برنيقات وأرسنوات وكليوباترات ، وقد اشتهرن كلهن فى التاريخ بأنهن مستأسدات ومسترجلات وقويات الشكيمة. ولعل من أشهر الأمثلة على ذلك الملكة ""كليوباترة"" الثانية زوجة "فيلوميتور" ثم ترملت بعد أن مات زوجها ١٤٥ ق.م ، وأصبحت زوجة لأخيه "يورجيتيس" الثانى. ثم هناك "كليوباترة" الثالثة ابنة ""كليوباترة"" الثانية والزوجة الثانية "لبطلميوس "يورجتيوس"" الثانى. ثم هناك مثلان آخران من طراز آخر ، إحداهما "أرسينوى" الثانية وهى الزوجة الثانية "لبطلميوس" الثانى وحاملة لقب "فيلادلفوس" أى حبيبة أخيها ، وكانت امرأة بارعة وسنداً قويا لأخيها وزوجها وتعتبر مثلا على الملكة البطلمية القديرة. أما المثل الأخير فهو ""كليوباترة"" السابعة ذات التاريخ المشهور واليد الطولى فى نهضة مصر والتطلع إلى استعادة مجدها القديم دون طائل.

ولعل ذلك التزاوج بين الأخ وأخته على مدى أجيال وعلى النحو الذى كان يتم به فى الأسرة البطلمية كان من بين أسباب ضعف هذه الأسرة وضعف ملوكها الذين أفسدهم الانغماس فى الملذات وأقعدهم عن العمل الجاد أقدام

زوجاتهم ونسائهم على المشاركة فى الحكم بطريقة منفردة ثم إن الملق والاستلام من قبل الشعب المصرى جعلهم يرخون الحبل على الغارب ويتمادى الملوك فى غلوائهم - كل هذا أخرج لنا صورا بشعة عن وحوش كاسرة لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا ، فالأخ يقتل أخيه والأم تقتل ابنها ، وهكذا حدث من الأعمال ما تقشعر له الأبدان وتتفتت من الهول له الأكباد. ولو أتيحت لكاتب مثل المؤرخ الرومانى "تاكيتوس" (Tacitus) الفرصة لصور لنا هذه الأحداث بصورة قاتمة مثلما فعل بالنسبة لحياة إمبراطورين رومانيين هما "تيبريوس" "ونيرون".

ومنذ تولى "بطلميوس" السادس (فيلوميتور) ، وهو ابن الملك "إبيفانيس" ، وكان قد آل إليه الملك وهو لا يزال فى مقتبل العمر ، وكان ذلك فى عام ١٨٠ ق.م ثم إنه بلغ سن الرشد فى عام ١٧٣ ق.م ، وعندئذ بدأت المناورات والفتن على قدم وساق. حقيقة إن روما استطاعت فى وقت لاحق أن تمنع الملك السلوقى "أنطيوخوس" الرابع من أن يجنى ثمار انتصاراته وغزوه لمدينة الإسكندرية فى عام ١٦٨ ق.م ، وذلك على أساس أن روما ربما لم تشأ أن ترى العرشين المصرى والسورى فى يد واحدة خشية أن يصعب عليها فيما بعد إخضاع هذا العرش المتحد ، ولكنها لم تكن تبتئس أو تشعر بأى ضرر أو غضاضة فى أن ترى الانقسام يدب بين أفراد البيت البطلمى المالك. فلما خلع السكندريون "بطلميوس" فيلوميتور عن عرشه بتحريض من أخيه الأصغر "بطلميوس" السادس توجه الملك المخلوع صوب روما ومثل أمام السناتو متوسلا وراجيا وطالبا العون فى ذلة وامتهان. وعندئذ استطاعت روما أن تصلح ذات البين بين الأخوين ، وكان هذا الصلح يتضمن إعادة "فيلوميتور" إلى عرشه فى الإسكندرية بناء على استدعاء شعبه له ، بينما حصل "يورجيتس" الثانى على حكم برقة ، ومنذ ذلك الحين أصبح "يورجيتيس" الثانى يتمتع بحماية روما ، وسوف تثبت الأحداث أنه لم يكن جديرا بهذه الحماية فهو يمثل صورة بشعة للملوك هذا البيت واستحق بجدارة ذلك اللقب الذى أسبغه عليه شعب الإسكندرية وهو (Kakergetes) أى الشرير بدلا من فاعل الخير ، وهو اللقب الذى كان يتشدق به وهو منه براء. وقد سجل التاريخ العديد من الجرائم التى ارتكبها ، فمن قتل ودماء وتشريد والتورط فى حروب طاحنة بينه وبين زوجته ""كليوباترة"" الثانية ، وهذا كله سوأ سمعته

وجعله ينزل إلى الحضيض. إنه كان يبغى أن تعاونه روما فى ضم قبرص لبرقة تحت لواء حكمه المشترك ولم يكف عن الدس لأخيه لدى روما والتشنيع عليه وتصويره بصورة بشعة على أنه قاتل ومجرم أثيم ينصب الشباك ويدبر الخطط لقتل أخيه. ولكن "فيلوميتور" صادفه التوفيق فى إزالة الجفوة بينه وبين السناتو الرومانى واستطاع أن يكسب لجانبه الزعيم الرومانى المشهور "كاتو" (Cato) الذى انبرى للدفاع عنه أمام السناتو ، وأخيرا تحقق له النصر فى عام ١٥٣ ق.م وقضى بعد ذلك ثمانى سنوات فى أخذ وعطاء ومفاوضات بينه وبين أخيه وسط مكائد كانت تدبر له من قبل أخيه هذا.

عقب موت "فيلوميتور" سنة ١٤٥ ق.م الذى خر صريعا فى ساحة القتال فى سوريا ، اتحدت برقة مع مصر تحت حكم ""يورجتيس"" الثانى ، وكانت المملكة السلوقية يحكمها إذ ذاك ملك سلوقى نشيط ، استطاع أن يلم شملها ، ولذلك رأت روما ألا تكون مصر وهى جارة لسوريا مفككة الأوصال فتكون مطمعا لسوريا ، ولذلك عولت على إصلاح ذات البين بين ""يورجتيس"" الثانى وأرملة "فيلوميتور" وهى ""كليوباترة" الثانية" ، وكانت قد أصبحت زوجة "ل"يورجتيس"" الثانى وهى أخته كذلك.

على أن روما استفادت كثيرا لا من الولاء والاستسلام الذى كان يبديه الحكام وأولو الأمر فى كل من مصر وسوريا فحسب ، بل أفادت كذلك من ذلك الانقسام الذى كان يفت فى عضد هاتين الدولتين العظيمين وهما : المملكة البطلمية والمملكة السلوقية وساعد على تحقيق هذه البغية تلك التصرفات التى تردى فيها ""يورجتيس"" الثانى الذى كان يلقب كذلك بالبطين (Physkon) ، وكان السكندريون قد أسبغوا عليه كنية فيها إساءة إليه ، ولكنها نابعة من تصرفاته فلقبوه بالشرير (Kakergetes) بدلا من فاعل الخير ، وهو اللقب الرسمى الذى كان يتشدق به. على أن صفحة أعماله فى مصر أبعد من أن تكون صفحة فخار ، فأعمال القسوة التى تردى فيها إزاء علماء الإسكندرية ورجال القلم والفكر فى أكاديميتها ثم إزاء شعب الإسكندرية نفسه والرجال الأحرار المتمتعين بالمواطنة فى تلك المدينة الخالدة - كل ذلك جلب عليه كره السكندريين له ، وكان حقا عليه أن يحظى بالسخط العام الذى لقيه فى كل مكان من جراء أعمال

القمع التى ارتكبها عقب تنصيبه على عرش الإسكندرية فى عام ١٤٥ ق.م. وصحب ذلك ألوان من التعذيب والتنكيل فى الشخصيات البارزة وفى جموع اليهود الذين انحازوا فيما بعد لزوجته ""كليوباترة"" الثانية وناصروها ، وتلى ذلك إقدامه على طرد علماء الإسكندرية وأعضاء الأكاديمية بها وتشريدهم وتشتيتهم ، وكان من بين هؤلاء أستاذه السابق والعالم المشهور "أريستارخوس" (Aristarchos). ومما زاد الطين بلة وقوع تلك الجفوة بينه وبين زوجته الأولى ""كليوباترة"" الثانية فنشب بسببها حرب ضروس، قسمت البلاد إلى معسكرين ، وكانت ابنة هذه الملكة وهى المسماة ""كليوباترة"" الثالثة امرأة بشعة انضمت إلى الملك الذى تزوجها مع أنها ابنة زوجته من "فيلوميتور". وقد أدى كل هذا إلى سلسلة من المؤامرات والاعتصام المسلح وثورة جامحة قامت بها مدينة الإسكندرية وانتهت بفرار الملك من المدينة عام ١٣١ ق.م وانفراد زوجته ""كليوباترة"" الثانية بتولى الملك ، ولكن هذا لم يدم سوى فترة قصيرة استطاع بعدها بقليل أن يعود الملك إلى الإسكندرية وبلغ من إمعانه فى الغضب وتهوره أن قتل ابنه الذى كان قد أنجبه من "كليوباترة" الثانية. وقصد بذلك التنكيل بزوجته ، وعندئذ فرت الملكة إلى زوج ابنتها وهو ""ديمتريوس"" الثانى ملك سوريا ، واستمرت هذه الحرب الضروس بين "يورجتيوس" الثانى و"كليوباترة" الثانية عدة سنوات والبلاد منقسمة على نفسها وأعمال التخريب والتدمير فى كل مكان ، وانتهى الأمر بإتمام الصلح بين الطرفين فى عام ١١٨ ق.م ، وعملت تسوية وتراضى أطلق عليه "فيلانثروبا" (Philanthropa). ولدينا وثيقة بردية مشهورة نشرت فى مجموعة بردى "تيبتونس" تحت رقم "٥" ، وجاء فيها بنود هذه التسوية الشاملة وإقرار كل طرف من الطرفين بجميع التصرفات والإجراءات التى أتمها كل جانب ، كما تضمنت تسامحات وترضيات عديدة لإقرار السلم ، ولم يعمر الملك طويلا بعد ذلك إذ مات فى عام ١١٦ ق.م ، وكانت تصرفاته الهوجاء قد ساهمت إلى حد كبير فى تفتيت المملكة البطلمية ، إذ أنه كان قد أوصى بعرش برقة إلى ابن غير شرعى له اسمه "بطلميوس" "أبيون" (Apion) ثم جاء هذا الابن بدوره بعد عشرين عاما فأوصى بعرش برقة إلى روما ، ثم إن "يورجتيس" الثانى كان قد أوصى زوجته الثانية وهى "كليوباترة" الثالثة بأن يكون لها حق الاختيار لأحد ابنيها كيما

يكون ملكا على عرش مصر. وكانت "كليوباترة" الثالثة هذه يلقبها السكندريون "بالشقراء ذات الوجه الأحمر" ، وقد اضطرتها الظروف أن تختار ابنها الأكبر وهو "بطلميوس" الملقب ""لاثيروس"" (Lathyros) أى الحمصانى "ذو الوجه المبقع بحبات الحمص" ، وكانت فى الحقيقة تمقت هذا الابن ، ولكنها أكرهت على الموافقة على تنصيبه ملكا على البلاد ، وقد تحكمت فيه وجعلته يطلق أخته "كليوباترة" الرابعة التى كان يكن لها محبة وإخلاصا شديدا. ولكن الملكة الأم كانت تشك فى إخلاصها وولائها ومن أجل ذلك أطاحت بها وجعلته يتزوج من أخت أخرى له اسمها "كليوباترة" القمر (Kleopatra Selene). وما نظن أن موقفا شائكا كهذا يمر بسلام فى بيت بطلمى ، كله دسائس ومؤامرات فى العهد الأخير ، ولذلك خلق هذا الموقف جوا مريبا مليئا بالمتاعب ، واستمرت الاضطرابات حتى توارت الملكة الأم "كليوباترة" الثالثة عن الميدان وتوفيت فى عام ١٠١-١٠٠ ق.م ثم هدأت الأحوال بعد موت الأخ الأصغر للملك وهو ""الإسكندر"" الأول فأزيح من وجه أخيه الأكبر "بطلميوس "لاثيروس"" ، وبذا خلا الجو له فأخذ "يبيض فيه وينقر".

وكان السكندريون قد طردوه من المدينة فى أثناء حياة أخيه الأصغر فذهب إلى قبرص كيما يتولى الحكم فيها ، ولكن إلى حين بينما كان ""الإسكندر"" الأول يحكم فى الوقت نفسه فى الإسكندرية ، وبعد حروب مستمرة بين هذين الأخوين، استطاع الأخ الأكبر "بطلميوس" لاثيروس أن يدبر العودة إلى عرشه فى مصر حيث تولى الحكم مدة تقرب من ثمانى سنوات من ٨٨ حتى ٨٠ ق.م ، وأغلب هذه الحروب كانت تتخذ من سوريا ساحة لها يشن فيها الملكان البطلميان القتال أحدهما ضد الآخر ، ولكل منهما بالطبع مناصرون له فى سوريا. وفضلا عن ذلك فالملوك البطالمة تورطوا فى حروب ومنازعات من نوع آخر كانت تجرى فى الساحة السورية. ويبدو أن مصر حتى وهى فى النزع الأخير فى فترة عصيبة من تاريخها شهدت سلسلة مريرة من الانقسامات والمشاحنات بين الأخوة والأخوات الأشقاء ، ولكنها لم تتخل مطلقا عن حقها الذى ادعته لنفسها فى تملك الشق الجنوبى من سوريا. وهكذا كانت المسألة السورية لا تزال تداعب خيال

هؤلاء الملوك البطالمة الضعاف حتى وهم وسط هذه المحن والويلات والنكبات الأسرية التى ألمت بعرشهم فى مصر.

على أنه منذ عام ١٦٨ ق.م عرف العالم الهللينستى على سبيل اليقين أن مصر تحميها روما ، أما لماذا لم تعلن روما تلك الحماية رسميا ، ولماذا لم تشأ روما أن تضم مصر إلى ملكها نهائيا كما فعلت مع كثير من بلاد اليونان ومقدونيا ، فهذا موضوع آخر له أسبابه ، ولعل روما شاءت أن تتوخى التريث وألا تستعجل الحوادث ، وأن تترك الظروف تمهد السبيل للوصول لهذه النتيجة فى حينها ثم ربما كانت سياسة الأحزاب فى روما هى أحد الأسباب الجوهرية فى تأخير ضم مصر إلى ملك روما وفى إطالة هذه الفترة مدة قاربت من ١٣٨ عاما أى من ١٦٨ ق.م حتى ٣١-٣٠ ق.م.

وهكذا كانت الحروب التى شنها "أنطيوخوس" الرابع على مصر تمثل المحاولة الأخيرة التى تورط فيها الملك السلوقى ضد مصر بطريقة عشوائية لا مبرر لها سوى ذلك الطمع السورى. وتعين على مصر أن تنتقم وترد الصاع صاعين ، فتتدخل فى الخلافات والنزاعات التى سوف تؤدى بالمملكة السورية إلى الدمار. وعلى ذلك عندما تورط ملك سوريا "ديمتريوس" الأول (Demetrius) فى شئون جارة شمالية واقعة فى وسط آسيا الصغرى وهى ولاية كابادوكيا (Cappadocia) شمالى الفرات وجنوبى أنقرة ، مثيرا بذلك الكثير من الشكوك فى نفوس الرومان وكشفا للنقاب عن بعض التطلعات والأطماع فى شئون آسيا الصغرى بتدخله فى النزاعات الأسرية حول عرش كابادوكيا ، انبرت له روما كما انبرى له الملك "أتاللوس" الثانى (Attalos II) ملك برجامة ، إرضاء للرومان وكسبا لودهم ، فقدم أحد الأدعياء إلى عرش سوريا واسمه ""الإسكندر" "بالاس"" (Balas) مناهضا "لديمتريوس" الأول فى عرش سوريا ، وعندئذ لم يتردد "فيلوميتور" فى نصرة هذا الداعية ، وهذا المغامر المسمى ""الإسكندر" بالاس وتوكيدا لهذه الخطوة ، وتوثيقا لهذه العلاقة أعطى ابنته المسماة ثيا (Thea) أو "كليوباترة" (الإلهه) لتكون زوجة له. فكان بتزويجه ابنته له إيذانا من جانب مصر فى أنها تؤيد دعوى ""الإسكندر" بالاس ، ودليلا ضمنيا على أن مصر لم تعد تطرح ظهريا نواياها القديمة وتطلعاتها فى عرش سوريا. ولما قتل "ديمتريوس" الأول فى ساحة المعركة ،

وأثبت "بالاس" عدم صلاحيته للاضطلاع بالمهمة الموكولة إليه ، لابد أنه كان قد أغضب "فيلوميتور" الذى قلب له ظهر المجن وانضم إلى جانب ابن "ديمتريوس" الأول ، وهو "ديمتريوس" الثانى الذى زف إلى ابنته "كليوباترة" ثيا. وفى ساحة المعركة ذبح "بالاس" وتخلصت سوريا من هذا المغامر ، ولكن "بطلميوس" فيلوميتور الذى كلل النصر هامته فى المعركة نقل منها صريعا وما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة عام ١٤٥ ق.م. وهكذا لم تجن مصر شيئا من هذه الحرب السورية ، سوى أنها أفصحت بطريقة عملية عن نواياها البعيدة المدى ، وإنها لم تكن بعد قد تخلت عن أطماعها السابقة أو أنها وعت ذلك الدرس القاسى الذى تلقته فى عام ١٦٨ ق.م ، ولم يخلصها من هذه الورطة سوى السفير الرومانى "بوبيليوس لايناس".

وكان الحال لايزال على ماهو عليه فى نهاية حكم كل من "يورجتيس" الثانى (عام ١١٦ ق.م) فى مصر و"ديمتريوس" الثانى فى سوريا من حيث التواطؤ وعمل الدسائس والزج بمدعين فى عرش سوريا ، تساندهم مصر وتشد من أزرهم، وتلبية لدعوة موجهة من قبل السوريين الذين كانوا يمقتون "ديمتريوس" ، بعث لهم "يورجتيس" الثانى بابن غير شرعى "لبالاس" (Balas) كيما يكون ملكا عليهم ، وكان هذا الابن اسمه "الإسكندر" زابيناس (Alexander Zabinas). وبعد حرب شعواء استمرت ثلاث سنوات قتل "ديمتريوس" واعتلى زابيناس عرش سوريا فى أنطاكيا. ولكن سرعان مادب الخلاف بينه باعتباره صنيعة ، وبين "يورجتيس" الثانى الذى تخلى عن تقديم العون له ، فكان هذا التخلى عنه سببا فى ضعف مركزه ومالبث هذا المغامر ان خلع عن عرش سوريا عقب ثورة قامت ضده وانتهت بمقتله والتخلص منه. وجاء بعده أمير سلوقى أصيل اسمه "أنطيوخوس" الثامن (Antiochus) الملقب "جريبوس" (Grypos) فخلف "زابيناس" على عرش سوريا وتزوج من ابنة للملك البطلمى واسمها "كليوباترة" تريفاينا (Cleopatra Tryphaena).

على أن مصر لم تستطع أن تجنى ثمارا من وراء هذه الحروب التى كانت تمولها ولا من الاشتراك فى الدسائس التى كانت تحيكها وتدس أنفها فى شئون البلاط السورى وقضت الظروف بأن تورط نفسها بتقديم العون والسلاح لعديد

من مدعى العرش السورى على أن روما كانت دائما تقف بالمرصاد لمصر وتحول دون أن تزداد قوتها أو يدعم مركزها فى هذه المنطقة الحساسة ، ولربما كان الخوف من روما هو الذى جعل كلا من "فيلوميتور" و"يورجتيس" الثانى يختار أسماءا تحوم الشكوك حول أحقيتها فى عرش سوريا. ولما جاء الملك "بطلميوس" "لاثيروس" "الحمصانى" وجدناه يصدر إلى سوريا سلسلة من النزاعات التى كانت تقض مضجعها من قبل ، ولكن لم يحقق هذا الأسلوب أى توطيد لمركز مصر فى سوريا. فكان "لاثيروس" بوصفه ملكا إذ ذاك على البلاد قد أراد أن يوطد مركز "أنطيوخوس" التاسع ضد اليهود فى فلسطين وهم الذين كانوا باستمرار فى حالة ثورة وغليان ويكونون دولة داخل دولة سوريا ، وعلى ذلك تخاصم مع "كليوباترة" الثالثة التى كانت تعتمد على تأييد الحزب اليهودى فى الإسكندرية. ولما عزل "لاثيروس" عن العرش وحل محله أخوه الأصغر ""الإسكندر" الأول" وطد مركزه فى قبرص على الرغم من الجهود التى بذلتها له "كليوباترة" الثالثة من أجل إقصاء "لاثيروس" عن قبرص ، وكان جميع القواد العسكريين التابعين لها قد تخلوا عنها وخانوها فيما عدا قائدين يهوديين هما "خلكياس" (Khalkias) "وأنانياس" (Ananias). ومن قبرص استدعى "لاثيروس" بواسطة مدينة بطلمية بالصعيد كيما يعاونها ضد اليهود. وقد كانت هذه فرصة متاحة كيما يعود مظفرا إلى مصر عن طريق سوريا وبفضل أعوانه فى سوريا ، ولكن "كليوباترة" الثالثة ذهبت إلى ساحة القتال فى بطلمية بالصعيد لمنازلته ومطاردته ، وعندئذ آثر "لاثيروس" أن يعود أدراجه إلى قبرص ومنها حاول مرة أخرى التدخل فى شئون سوريا والاشتراك فيما يجرى فى ساحتها من منازعات أسرية وخلافات فرقت ذات البين بين أفراد الأسرة المالكة هناك. ولكن جميع الجهود باءت بالفشل ولم تجن مصر من ورائها أى طائل وانطوت على مشروعات غير مجدية. أما ما كان يجرى فى ساحة الإسكندرية فإنها أعمال فى غاية البشاعة تردى فيها الملك "الإسكندر" الأول ونجم عنها تحطيم كل آماله ، بل والقضاء على نفسه آخر الأمر. إذ ما لبث السكندريون أن ثاروا عليه وعزلوه عن عرشه فى عام ٨٩ ق.م ثم قطعوه أربا أربا جزاء فعلته الشنيعة وهى قتل أمه البغيضة "كليوباترة" الثالثة عام ١٠١ ق.م ، وهى التى جوزيت جزاء سنمار ونسى لها ما فعلته من أجله وما ارتكبته من جرائم

وموبقات من أجل توليته ، وهو الذى سمح لروما أن تستولى على برقـة باعتبارهـا أرثا أوصى به "أبيون" لها.

استدعت الإسكندرية "لاثيروس" فحضر فى عام ٨٨ ق.م وتولى الحكم لمدة ثمانى سنوات حتى ٨٠ ق.م قضاها فى سلام وطمأنينة بعد موت أخيه وقضائه على ثورة نشبت فى الإقليم الطيبى ، وبعد ذلك تخلت مصر عن أطماعها السياسية فى سوريا ولم تعد تنادى بعد ذلك بأن لها سياسة سورية تبغى تحقيقها.

حكم الملك "بطلميوس" أوليتيس (٨٠-٥١ق.م) :

- الاستقلال المصرى فى خطر:

منذ ذلك الحين لم يعد من حق مصر أن تدعى أن لها سياسة خارجية معينة على الإطلاق ، إذ لا يمكن بحال أن يطلق على تلك الدسائس الدنيئة التى كانت مصر تحيكها لجارتها فى الشمال أنها تنطوى على سياسة مرسومة وذات تخطيط معلوم ، وكان من الأولى بمصر أن تعنى بوضع خطط تصون بها استقلالها ضد روما. وعقب فترة الحكم القصيرة جدا التى حكمتها أبنة "لاثيروس" ، وهى "برنيقة" الثالثة التى قتلها زوجها "الإسكندر" الثانى بن "الإسكندر" الأول وبعد موت "الإسكندر" الثانى نفسه فى أثناء ثورة جامحة شنتها عليه الإسكندرية غضبا منه وبغضا لسياسته ، كان الفرع الشرعى لبيت البطالمة قد انقرض تماما فى عام ٨٠ ق.م ، وكان "الإسكندر" الثانى نفسه مدينا لروما بعرشه الذى حصل عليه بفضل تأييد الدكتاتور الرومانى سلا (Sulla) عام ٨٢ ق.م. وكان إذ ذاك سلا صاحب الحول والطول فى العالم الرومانى ، وهنا نقف حيارى إزاء ذلك المصير المحتوم لبلد أصبح عرشه خاليا من المطالبين الشرعيين به ، بينما دولة روما متطلعة إلى هذا البلد الذى فرضت حمايتها عليه منذ أمد طويل أى منذ عصر "فيلوميتور" عام ١٦٨ ق.م بالذات ، وإزاء هذه الحيرة وخشية سوء العاقبة لو طال الأمد على هذا الشغور (Interregnum) سارع السكندريون بتنصيب ابن غير شرعى للملك الراحل "لاثيروس" ، وذلك الابن هو "بطلميوس الزمار" (Auletes) الذى عرف بهذا اللقب غير الإلهي بسبب موهبة تميز بها ، بل وكان يفاخر بهذا الفن فى اللعب على الأرغول أو المزمار مع أن هذه الموهبة غير خليقة بأى ملك ، وقد

عرف عنه أنه كان يلقب نفسه "بديونيسـوس" الجديـد (Neos Dionysus) إمعانـا منه فى التشبه بإله الخمر والفن عند اليونان.

وعندئذ أخذ الحديث فى روما يتواتر عن وجود وصية مزعومة مـن مخلفـات ذلك الملك "الإسكندر" الثانى الذى قيل إنه اقتدى بما فعله من قبل ملوك غـيره ، وهم ملك برجامة (أتاللوس الثالث Attalos III) "وبطلميوس أبيون" (Apion) فى برقة ، وملك بيثينيا (Bithynia) المسمى "نيكوميديس" (Nicomedes) فيمـا بعـد ذلك بقليل وكأن "الإسكندر" الثانى تشبه بهؤلاء. ووهب بلاده إرثا خالصا لرومـا. وسواء صحت هذه الرواية أم لا فإن روما كانت قد ألفت هذا الأسلوب وهو النص على ذكرها بصورة أو بأخرى فى وصايا ملوك ذلـك العصـر مـن قبيـل الملـق أو التودد أو من سخرية القدر. ومع أن القصة التى كـانت تحوم حـول هـذه الوصيـة المنسوبة إلى "الإسكندر" الثانى ربما كانت فريـة ومحـض اختـلاق ، فـإن الموضـوع برمته أصبح مطروحا بالفعل على بسـاط البحـث فـى الدوائـر السياسـية برومـا ، وكانت الأحزاب الرومانية المتنازعة على السلطة فـى الجمهوريـة الرومانيـة مؤيـدة بالقواد من أمثال ""يوليوس قيصر"" "وبومبى" تتسابق فى الاضطلاع بهذه المهمـة وهى ضم مصر إلى روما ، ولكن هذه الأحزاب السياسية اختلفت فيما بينها علـى من يكون صاحب الفضل فى الاستيلاء على هذا الإرث العظيم وضـم هـذه الـدرة اليتيمة وهى مصر إلى سلطان الحكم الرومانى فى أواخر العصر الجمهورى. وهكذا أصبح تاريخ مصر مرتبطا أيما ارتباط بتاريخ روما وتطور الأحـداث الداخليـة فيـها فى هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الجمهورية الرومانيـة ، وهـى إذ ذاك فـى سـبيل الترقب والانتظار يتنازعها القادة والزعماء العسكريون ويملون شروطهم على مجلس الشيوخ أو السناتو الرومانى العتيد.

وكان قادة الحزب الديمقراطى وهم من نعرفـهم باسـم الأحـرار (Populares) يحبذون بشدة ضم مصر ، لأن هذه السياسة وما تنطوى عليه راقت فى نظر العامـة أو جماهـير البلـبز (Plebs) فـى رومـا وكـانوا يعرفـون باسـم البروليتاريـات (Proletaris) ، وقد استهوتهم تلك الثروة الطائلة التى كانت لـدى مصـر والغـلال التى كانت تنتجها أرض مصر أملا فى أن يجرى توزيـع هـذا وذاك عليـهم ، وقـد يصحب هذا توزيع رقع من الأراضى كأنصبة يحظى بها عامة الشعب الرومانى. ثـم

إن هذه الموارد الوفيرة قد تيسر السبيل أمام زعماء الأحرار للوصول إلى تولى السلطة فى روما ، وهذا أمر لا يروق لزعماء حزب الأشراف (Optimates) وناضلوا من أجل تعطيله وعدم تحقيقه بأى حال من الأحوال ، وكان من رأيهم أنه إذا ترك هذا الموضوع معلقا إلى حين ، فقد ينجم عن ذلك ميزة أخرى وهى أن يجزل الملك المصرى العطاء ويسخو فى تقديم الرشاوى كيما يضمن كسب الأشراف له فى سياسته ، وقد كان من اليسير استبعاد مطلبين تقدمت بهما "كليوباترة" القمرة (Cleopatra Selene) ، وهى أخت "لاثيروس" وأرملته ، وكانت قد تزوجت ثلاثة من السلوقيين على التوالى فطالبت بعرش سوريا لأحد أبنائها ، وكانت سوريا إذ ذاك فى أيد "تيجرانيس" (Tigranes) ملك أرمينيا وصهر "مثرداتيس" (Mithrdates) أحد أقطاب ملوك الشرق القديم ، كما طالبت بعرش مصر لابن آخر لها ، ولكن لم يحظ أحد المطلبين بالرضا وصرف النظر عن هذا وذاك.

وفى عام ٦٥ ق.م عندما كان الزعيم الرومانى "ماجنوس بومبى" (Magnus Pompeius) يطارد القراصنة ويضيق عليهم الخناق فى عرض البحر ، ويطهر المياه الشرقية من شرهم وكان مشغولا كذلك بإلحاق الهزيمة بعدو روما اللدود "مثرداتيس " انبرى أحد زعماء الحزب الديمقراطى وأحد رجال الحكم الثلاثى الأول وهو "ليكينيوس كراسوس" (Licinius Crassus) ، وتقدم باقتراح مقتضاه إكراه مصر على دفع إتاوة (Tributum) باعتبارها ولاية (Provincia) تابعة للشعب الرومانى على أن يوكل تنفيذ هذه المهمة "ليولويس قيصر". وفى العام التالى ٦٤ ق.م بان فى الأفق خطر مماثل جاء من ناحية أخرى فمن ثنايا لائحة خاصة بتوزيع الأراضى تقدم بها "سرفيليوس رولوس" (Servilius Rullus) اقترح فيها أن يجرى توزيع جميع أراضى الدومين والأملاك العامة الواقعة فى خارج إيطاليا على المواطنين الرومان الفقراء ، ولكن النبلاء أو الأشراف فى روما هزموا كلا من الاقتراحين السالفى الذكر وانبرى "شيشرون" فى خطبة عصماء عنوانها (de lege agraria) يندد بالاقتراح الأخير ويدعو إلى رفضه ، وبذلك فشلت الجهود فى إدماج مصر فى أى برامج إصلاحية.

وعلى هذا النحو أصبحت المسألة المصرية أحد الموضوعات الرئيسية فى برامج الأحزاب الرومانية ، يسيل لها لعاب العامة وتستهوى القادة والزعماء فى

الجمهورية الرومانية بما تثيره من خلافات فى الرأى وما توقظه من أطماع وآمال فى نفوس الآخرين.

كانت سنة ٦٣ ق.م فى روما تعرف بسنة كاتيلينا (Catilina) عضو السناتو الفوضوى وهو الذى انبرى له "شيشرون" ، وكان يشغل وظيفة القنصل فى ذلك العام فندد به وبأساليبه فى عدة خطب مشهورة عرفت بهذا الاسم "ضد كاتيلينا" (In Catilinam) كشف فيها أمام مجلس السناتو مبلغ ما تردى فيه هذا العضو من جرائم وأعمال تخريبية. وصحب هذا عودة "بومبى" من حملته المظفرة فى الشرق بعد أن تم له النصر على "مثريداتيس" وقيامه عقب ذلك بتنظيم الولايات الجديدة التى دانت لروما فى الشرق أو فى آسيا ، وكان من جراء هذا التنظيم أن أحكم الخناق من حول مصر بوقوع كل هذه البلاد فى حوزة روما. أما السلوقيون فكانوا قد سقطوا فى يد روما وأصبحت سوريا ولاية رومانية خالصة (Provincia)، وبجانب ولاية آسيا التى كانت فى وقت ما تمثل مملكة برجامة ، نجد كلا من بيثينا وبنطوس جنوبى البحر الأسود يشتركان فى حكومة واحدة. كما نجد غير ذلك سلسلة أخرى من الولايات التى وقعت تحت الحماية الرومانية، ومن هذه مملكة كابادوكيا وجالانيا ومملكة البسفور على ضفاف القرم. أما الأحداث الجارية فى روما فقد كان لها تأثيرها المباشر على مستقبل مصر ، ذلك أنه فى عام ٦٠ ق.م تألفت الحكومة الثلاثية الأولى (Triumvirate) من ثلاث رجال عظام هم ""يوليوس قيصر" وبومبى" "وكراسوس". وكان أمرا طبيعيا أن يثير "قيصر" موضوع تلك المشروعات التى سبق أن اقترحها "روللوس" ، وأن يحاول إقرارها. ولكن عيون الملك "بطلميوس أوليتوس" لم تكن غافلة عما يجرى فى روما وإنما كانت مسلطة باستمرار على خبايا هذه السياسة الرومانية ، وكان يتوجس خيفة من نتائجها على مستقبله ومستقبل مصر ، وقد استطاع بأساليبه الخاصة أن يشترى ذمة "يوليوس قيصر" ودفع له رشوة قدرها ستة آلاف من التالنتات. وبذلك استثنيت مصر وأخرجت من نطاق المشروعات الخاصة بتوزيع الأراضى وصدر قانون مشهور يعرف بقانون الملك السكندرى (De Rege Alexandrino) ، وبمقتضى هذا القانون أصبح "بطلميوس أوليتوس" هو الصديق والحليف للشعب الرومانى (amicus et socius populi Romani).

وهكذا استطاع "بطلميوس أوليتس" أن يحقق بغيته ، ولكنه أغفل شيئا مهما لم يكن قد عمل له أى حساب - ذلك هو شعب الإسكندرية ، ومع أن هذا الشعب كان يتألف على حد قول المؤرخ اليونانى "بوليبيوس" (Polybius) من جماعة من الغوغاء الذين ندد بهم هذا الكاتب ، فإن فيهم حمية القومية والوطنية الجامحة وفيهم اعتزاز بالنفس باعتبارهم من سكان مدينة "الإسكندرية ، وهى إذ ذاك أعظم مدينة فى حوض البحر المتوسط ، بل وفى العالم المأهول بالسكان. وكان هذا الشعب السكندرى بطوائفه العديدة يكن البغضاء والكراهية الشديدة لروما ويخشى الآثار الناجمة عما حققته من انتصارات فى الشرق.

وفى عام ٥٨ ق.م جاء أحد الترابنة المأجورين وهو "كلوديوس" (Clodius) وهو صنيعة من رجال "يوليوس قيصر" ، اشتهر بالإفك والبهتان ، وتقدم باقتراح بغيض يمس سمعة مصر فى الصميم ويحط من كرامتها ، وقد تمت الموافقة على هذا الاقتراح وهو يقضى بأن تلحق جزيرة قبرص بالجمهورية الرومانية وتسلخ عن مصر وتصبح تابعة لروما أى (annex). وماكان فى وسع هذا الملك الصديق والحليف للشعب الرومانى وهو "أوليتيس" أن يحرك ساكنا أو يعترض على مثل هذا الأجراء التعسفى والقاضى بتقطيع أوصال المملكة المصرية على هذا النحو المشين. على أن الإسكندرية ضاقت ذرعا بهذا الإذلال وأنحت باللائمة على الملك "أوليتيس" لتفريطه وطردته من مصر فى نفس العام ٥٨ ق.م ، وقد لاذ بالفرار بأقصى سرعة متوجها شطر روما طالبا منها العون والتأييد فى هذه المحنة التى حلت به ولم يكن هو السبب المباشر فيها.

وهنا قد يعرض لنا أن نتساءل عن موقف روما إزاء هذا الملك الطريد ، وهل هناك احتمال بأن يستجيب الرومان لدعوته ويسارعوا بنجدته ورده إلى عرشه المسلوب؟ أم ماذا يكون حل هذا المشكل؟ ، وكانت هذه المهمة مربحة للغاية يتسابق عليها عظماء الرومان إما علانية أو فى السر ، وكانوا يفكرون فى الاضطلاع بها لما تنطوى عليه من مكاسب مادية ومعنوية لا محيص عنها ، مآلها الفخار بالاشتراك فى عمل مجيد كهذا. وصادف فى ذلك الحين أن كانت الجمهورية الرومانية تسودها الدسائس والمؤامرات وتتنازع فيها أهواء القادة وتشتد الكراهية بين مختلف الأحزاب ، وكانت ساحات الفوروم (Forum) أو سوق المدينة فى روما

مسرحا لمعارك شتى تنشب كل يوم بين الخطباء وذوى المآرب والغايات ، وكان "يوليوس قيصر" قد ذهب إلى بلاد الغال (فرنسا حاليا) أملا فى أن يكسب من وراء غزو هذه البلاد نفوذا وموارد كان يحلم بالحصول عليها من قبل مصر. ثم فى الوقت نفسه ترك التربيون المهرج "كلوديوس" ليراقب ما يجرى من الأحداث فى سوق الفوروم ، ويتصرف فيها بما يتفق ومصلحة سيده "يوليوس قيصر". ولما عرض موضوع المسألة المصرية فى هذا الجو المكهرب كان ذلك بمثابة وضع الزيت فوق النار فازدادت لهيبا وسط تلك المشاعر المتأججة والملتهبة ، وتسبب عن هذا سفك الكثير من الدماء وارتكاب أعمال العنف. وقد استخدم "بطلميوس أوليتيس" بعض السافحين والقتلة المأجورين من أجل التخلص من مائة من السفراء الموفدين من قبل أهل الإسكندرية للدفاع عن قضيتهم فى روما ضد هذا الملك الطريد ، وكان رئيس هذه البعثة وهو ديون (Dion) عضو الأكاديمية السكندرية قد لقى نفس المصير فقتل الجميع ، وتسبب عن هذه الجرائم خلق جو من الخزى والعار حتى أن الموضوع برمته أثير أمام المحاكم فى روما ونوه عنه "شيشرون" فى إحدى خطبه (Pro Caelio, 10). ومع ذلك ففى عام ٥٧ ق.م قرر السناتو بفضل الذهب الذى أسبغه "بطلميوس" على زعمائه أن يعاد الملك إلى عرشه بواسطة "كورنيليوس اسبنسر" (P. Cornelius Spinther) حاكم كيليكيا (الأناضول). ولكن حزب الأرستقراطية الذى كان ضد هذا المشروع مؤيدا من قبل الزعيم "بومبى" الذى كان يطمع فى أن يوكل إليه مثل هذه المهمة شل قرار السناتو هذا حتى أصبح هذا القرار حبرا على ورق. وعندئذ أوى "بطلميوس" إلى الاعتصام بمعبد "إفسوس" فى آسيا الصغرى حيث وجد هناك مصرفا يستطيع أن يقرضه المال اللازم لتنفيذ بغيته ، وعندئذ استطاع أن يؤثر على الحاكم الرومانى فى الشام واسمه "أولوس جابينيوس" (Aulus Gabinius) ، وهو معروف بصداقته "لبومبى" ، وقد أغراه طمعه فى أن يحصل على عشرة آلاف من التالنتات كان قد وعده بها هذا الملك ، إذا ما رده إلى عرشه المسلوب ، وكان السكندريون فى هذه الأثناء قد نصبوا ابنته الكبرى "برنيقة" ملكة عليهم ، وكانوا فى واقع الأمر يشعرون بالخطر الداهم عليهم، فأخذوا يبحثون عن زوج لهذه الملكة واتجه تفكيرهم بالطبع إلى أحد أفراد سلالة السلوقيين باعتبارهم أصهارا سابقين. وكان

هذا الشخص الذى وقع عليه اختيارهم يعيش فى سوريا ، ولكن "جابينيوس" منعه من مغادرة سوريا وبذلك حطم آمال السكندريين ثم هداهم البحث إلى العثور على شخص آخر من سلالة السلوقيين كان يلقبه السكندريون بالسماك أو الفسخانى (Cybiosactes) ، وهذا اللقب الذى أسبغ عليه دليل على نوعية هذا الشخص والطباع التى كان يتحلى بها. وقد ضاقت الملكة بسلوكه ومالها ما كان يتطبع به فدبرت قتله والتخلص منه. وعندئذ اتجهت وجهة السكندريين نحو شخص آخر يدعى "أركيلاوس" (Archilaos) ، وهو ابن أحد قواد "ميثريداتيس"، وقد تمت الموافقة على قبوله زوجا للملكة ولكنه أظهر عجزا عن التصدى لجحافل الرومان والدفاع عن مصر ورد الفرق الرومانية الزاحفة من سوريا بقيادة "جابينيوس" ، وقد تم رد "بطلميوس" إلى عرشه ولكنه لم يعمر طويلا فمات فى عام ٥١ ق.م تاركا ولدين وبنتين إحداهما "كليوباترة" السابعة، وكانت "كليوباترة" هذه ذات شهرة واطماع بعيدة المدى ، وقد حكمت مصر بالاشتراك مع أحد أخويها وهو أصغر منها ببضع سنوات ، وكان هذا بناءا على وصية والدها الذى وكل إلى روما تنفيذ هذه الوصية ، وبذلك دخل تاريخ مصر فى إطار تاريخ روما.

"كليوباترة" السابعة (٥١–٣٠ ق.م) :

يقظة مصر ومحاولة إحياء الإمبراطورية المصرية :

هذه صفحة أخيرة فى تاريخ دولة البطالمة ، تربعت فيها على دست الحكم الملكة المشهورة "كليوباترة" السابعة ، وكانت فيها البطلة والمحركة لدفة الشئون ، وقد مثلت دورها بعناية وتفكير جاد ، وكادت الأخطار تجرفها بين حين وآخر ولكنها استطاعت النجاة فى هذا البحر المتلاطم الأمواج إلى أن عصفت بها الأحداث الوافدة من الخارج. وقد استعانت فى تحقيق مآربها بفضل قائدين رومانيين عظيمين هما "يوليوس قيصر" "وماركوس أنطونيوس" وهما اللذان آوت إليهما وجذبتهما إليها واستخدمتهما الواحد تلو الآخر فى تحقيق مآربها ، وكادت تنجح فى تحقيق برنامج سياسى واسع المدى ، ولكن الحظ خانها آخر الأمر. ثم إن الظروف التى أحاطت بالسياسة الرومانية الهوجاء لم تكن مواتية لها ، فلما أنجبت ابنا من "يوليوس قيصر" وسمته "قيصرون" (Caesarion) كشفت عن نواياها البعيدة بهذه التسمية وعن استعدادها فى الوقت المناسب لكشف النقاب عن أحقية ابنها فى إرث أبيه. وتجلى هذا بصورة سافرة بعد اغتيال "يوليوس قيصر" سنة ٤٤ ق.م فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس ، وهو يوم مشهود ومشهور كان يطلق عليه (Ides of Mars = March) فى التقويم الرومانى.

حقيقة إن مصر منذ عهد "فيلوميتور "كانت قد خرت على أقدامها ، وكانت تستجدى بين حين وآخر شيئا من العطف والعون من روما ، وكانت روما تستجيب لمطالب ملوك البطالمة المستضعفين فى مختلف الأزمان ، ولكن الإنسان المنصف لا يسعه إلا أن يعجب لهذه الحيوية الجمة التى أظهرتها مصر فى عصر الملكة "كليوباترة". ومصر كانت إذ ذاك هى البلد الوحيد الباقى فى حوض البحر المتوسط بشقيه الغربى والشرقى دون أن تخضعه روما وتضمه إلى أملاكها ، بل إننا نستطيع أن نقول إن مصر عادت تتطلع إلى استعادة إمبراطوريتها وتتحسس السبل التى تمكنها من تحقيق هذا الهدف ، وكان فى هذا التطلع بادرة خطر داهم على الجمهورية الرومانية فى فترة دقيقة كانت فيها الجمهورية الرومانية فى محنة كلها خلافات وانقسامات بين القواد الرومان والأحزاب ، واشتدت أزمة الجمهورية

بظهور نفر من الجمهوريين المطالبين بالعودة إلى الأسس والقواعد السليمة التى بنيت عليها الجمهورية (Res Publica) ، وأدى هذا إلى مقتل "يوليوس قيصر" وقيام الحزب الجمهورى برياسة "بروتوس" (Brutus) "وكاسيوس" (Cassius) وآخرين بحملة مؤداها الانشقاق والخلاف بين هؤلاء الزعماء الجمهوريين من ناحية وبين "أكتافيوس" (Octavius) "وماركوس أنطونيوس" (Marcus Antonius) من ناحية أخرى ، والزعيمان الأخيران هما الممثلان لإرث "يوليوس قيصر" والمطالبان بالانتقام لدمه من القتلة ، وسوف نرى كيف يحسم هذا الخلاف فى معركة برية فى شمال بلاد اليونان هى "فيليباى" (Philippi) فى سبتمبر من عام ٤٢ ق.م ثم إن "سكستوس" (Sextus) بن بومبى كان يقود حربا قرصانية فى مياه البحر المتوسط ، وهى حرب كانت تقض مضجع "أكتافيوس وأنطونيوس". وهكذا كانت الأخطار تهدد الجمهورية من كل مكان. ولكن الأمر الغريب حقا هو أن تلك الإمبراطورية التى داعبت خيال "كليوباترة" كان العماد فيها على الأسلحة الرومانية وعلى سواعد الجند الرومان والفرق الرومانية (legiones) ، وهذا وضع شاذ وأمر غير مستقيم ولا يمكن الاطمئنان إلى سلامته. ومما زاد الطين بلة أن القائد والبطل "ماركوس أنطونيوس" كان يمثل الداعية لقيام هذه الإمبراطورية المصرية والسند القوى لها بعد عام ٣٧ ق.م. على أن مجرد التفكير والرغبة فى إحياء هذه الإمبراطورية المصرية أظهر حقيقة واضحة هى مبلغ مافى وسع أى زعيم قدير أن يفعله متى توافرت لديه كل تلك الموارد المصرية والأموال المكدسة فى خزائن مصر بوفرة لا يمكن أن ينضب لها معين، ولا ينبغى أن ننسى أنه عندما احتدم الخلاف بين "أكتافيوس وأنطونيوس" وأخذا يتنازعان على السلطة فى الجمهورية الرومانية وعلى من تكون له الغلبة منهما ، كان هذا الخلاف ماثلا فى الأذهان ، ونراه كذلك مجددا ، ومتمثلا فى فريقين هما روما ويمثلها "أكتافيوس" والإسكندرية ويمثلها "أنطونيوس" و"كليوباترة" ، وهكذا تبلور الوضع واحتدم الخلاف فى معسكرين هما روما ضد الإسكندرية أو الغرب ضد الشرق.

وهانحن نستعرض بعض الأحداث الجارية ونحاول سرد أهمها لنرى كيف تطورت الأمور وكيف زج بمصر فى معارك عسكرية وسياسية هى فى الحقيقة من صميم تاريخ الجمهورية الرومانية. بعد موت "بطلميوس أوليتيس" بسنتين أقدم

"يوليوس قيصر" على عمل خطير وهو تنكره للنظم الرومانية السليمة ورمية القفاز فى وجه مجلس السناتو أو الشيوخ الرومانى بأن عبر من بلاد الغال إلى "كسالبين غالة" (Cisalpine Gaul) فى حوض نهر اليو كما كانت تسمى إذ ذاك ثم اجتاز نهيرا صغيرا فى شمال إيطاليا اسمه "الروبيكون" (Rubicon) بجيشه مندفعا صوب روما. وكان فى هذا العمل منتهكا لحرمة الدستور الرومانى ، ويعتبر هذا العبور فى عام ٤٩ ق.م إيذانا ببدء مرحلة جديدة وخطيرة فى تاريخ الجمهورية الرومانية ومثلا سلكه القادة والزعماء الذين استهانوا بالنظم الدستورية المرعية فى روما. وكان هذا العبور فاتحة عصر مرير من الحروب الأهلية (Civil Wars) التى شهدها العالم الرومانى بين قائدين عظيمين هما "يوليوس قيصر" "وماجنوس بومبى" ، وقد كان من سوء حظ مصر أن انساقت إلى مجال هذه الحروب الأهلية ، مع أنه لم يكن لها فى هذه الحروب لا ناقة ولا جمل ، ولكنها كانت ضالعة مع جانب "يوليوس قيصر" بالتبعية ، وكان أولى بها أن تناصر جانب "بومبى" فهو الذى كان قد أسدى للملك "بطلميوس أوليتيس" جميلا بأن أوحى إلى "جابينيوس" الوالى على الشام وهو أحد صنائعه أن يرد الملك المخلوع إلى عرشه ، وتم هذا بالفعل منذ بضع سنوات. وسوف نرى أن ابن "بطلميوس أوليتيس" وهو "بطلميوس" الرابع عشر وزوج "كليوباترة" ، وكان يصغرها سنا تنكر لهذه العلاقة وكان السبب والمحرض فى اغتيال "بومبى" فى المياه المصرية عند مرفأ الفرما (بيلوزيوم). وكان "بومبى" قد فر من المعركة بعد هزيمته على يد "يوليوس قيصر" فى فارساليا (Pharsalus) فى بلاد اليونان عام ٤٨ ق.م ظنا منه أن مصر هى المكان الآمن الذى يأوى إليه ، ولكن هذا الملك المصرى الشاب كان إذ ذاك فى خلاف مع زوجته وأخته "كليوباترة" والاثنان يقفان وجها لوجه على رأس جيوش متناحرة ظنا منه أن اغتيال "بومبى" هو خير قربان يقدمه "ليوليوس قيصر" المظفر. وكان إقحام مصر فى حرب أهلية رومانية قد جاء بطريقة غير مشرفة وغير خليقة بمصر ولا بملكتها المتربعة على عرش البلاد وهى "كليوباترة" السابعة التى ساقها طمعها إلى الزج بنفسها فى نزاع رومانى لحما ودما. وقبل معركة فارسالوس أو فارساليا كما كانت تسمى أحيانا ، وهى التى حسمت ذلك الخلاف والنزاع المحتدم بين القائدين الرومانيين العظيمين : "يوليوس قيصر" "بومبى" ، كانت

"كليوباترة" قد تورطت وقدمت سفنا "لسكستوس" بن "بومبيوس" العظيم صاحب اليد الطولى على البيت البطلمى ، وكان "سكستوس" هذا يقوم بحرب قرصانية فى المياه الغربية والشرقية من البحر المتوسط ، وماكان فى وسع "كليوباترة" أن ترفض طلبا كهذا ، ولما منى "بومبيوس" بالهزيمة فى فارساليا وأصبحت كفة "يوليوس قيصر" هى الراجحة صار موقف "كليوباترة" وزوجها وهو أخوها الأصغر حرجا للغاية بعد هذه الهزيمة. على أن العلاقة بين "كليوباترة" وبين زوجها هذا كانت على غير ما يرام فهى فى سن السابعة عشرة بينما هو يصغرها بسبع سنوات والخلاف بينهما على أشده فتركت "كليوباترة" الإسكندرية ولجأت إلى القبائل العربية المرابطة على تخوم الحدود الشرقية من مصر. ومن أجل محاربة "كليوباترة" حشد أخوها وزوجها قواته عند الفرما (بيلوزيوم) حيث أعد العدة لاستقبال "بومبى" بعد فراره من معركة فارسالوس مهزوما مدحورا ، ولكن هذا الاستقبال قدر له أن يكون فيه نهاية غير كريمة برجل أسدى للبيت البطلمى جميلا فجوزى جزاء سنمار واغتيل "بومبى" بتحريض من الملك عندما كان يتأهب للرسو بسفينته فى ميناء الفرما عام ٤٨ ق.م. ولما وصل "يوليوس قيصر" وهو يتعقب خصمه تعرف على جثمانه وعلى خاتمه وبكاه بكاءا مرا ، وكم تمنى لو مات كرومانى فى ساحة المعركة ميتة شريفة وخليقة بقائد عظيم مثله ، ولكنها الخيانة وقصر النظر تؤدى بالإنسان إلى مواقع التهلكة. أما "يوليوس قيصر" فقد أرضى القائدين الأخ وأخته وأصلح ذات البين بينهما وطلب إليهما أن يتوليا الحكم بالاشتراك سويا وذلك تنفيذا لوصية أبيهما وهى المودعة لدى روما.

ومنذ ذلك الحين أى منذ عام ٤٨ ق.م أخذ نجم "كليوباترة" فى الصعود وأصبحت تتقدم الصفوف وكلمتها هى المسموعة والتى يتردد صداها فى كل مكان، فهى المؤيدة والمؤزرة من قبل "يوليوس قيصر" البطل المغوار. وهنا قد يتساءل الإنسان هل كان فى وسع كيلوباترة أن تختار طريقا غير هذا الذى سلكته ، وأن تقتدى بأخيها وبأختها الكبرى وبما فعله الشعب الأبى فى مدينة الإسكندرية، فتعلن حربا شعواء على "يوليوس قيصر" فى الإسكندرية ، وهى الحرب التى عرفت فى التاريخ الرومانى بحرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) ، وقد صنفت أحداثها ووقائعها واستراتيجيتها باللاتينية ، ونسبت إلى كاتبها المسمى

"هرتيوس" (Hirtius). وقد انتهت هـذه الحـرب بعـد مقاومـة عنيفـة مـن جـانب السكندريين وملكهم بهزيمتهم وموت ملكهم وانتصار "يوليوس قيصر" عليهم. إنها لو فعلت شيئا من هذا لكان مسـلكها محفوفـا بالمخـاطر ، ولربمـا كـان فـى ذلـك خسارة محققة لكل شئ بل فيه خسارة لحياتها نفسـها ، ولكنـها بعقلـها الراجـح وبعد نظرها آثرت طريـق الآمـان وغلبـت الحكمـة علـى العاطفـة وتقديـر الواقـع الملموس بدلا من السير وراء الخيال متأثرة بروح الوطنية الجوفـاء. ولذلـك انطـوت كل سياساتها على أن تجذب إلى جانبها ذلك الرجل الذى ابتسم له الدهر وأصبـح المستقبل بين يديه ، مبشرا إياه بأنه سيكون سيد العالم ، وقـد تحقـق هـذا بـالفعل ولكن إلى حين.

وبعد انتهاء حرب الإسكندرية التى استمرت سـنتين أو نحـو ذلـك مـن ٤٨ حتـى ٤٧ ق.م ، وكـان السـبب فيـها شـعلة مـن الوطنيـة المتأججـة انتـابت أهـل الإسكندرية وجرفتهم نحو التورط فى ثورة جامحة ضد "يوليوس قيصر" الذى كان قد اتصل ب"كليوباترة" وعاشرها معاشرة الأزواج ونما هذا إلى علـم زوجـها وهـو ملك البلاد فخلع التاج من فوق رأسه وقـاد هـذه الحـرب ، فكـانت ثـورة عارمـة وسمم الآبار وأقام المتاريس فى الشوارع والطرقات الضيقـة ، وبذلـك وضـع أختـه وزوجته وعشيقها فى مراكز حرجة للغاية. ولكن "يوليـوس قيصـر" استطاع بما أوتى من براعة فى وضع الخطط ذات الاستراتيجية والمعرفة بالأوضـاع الطبيعيـة أن ينجو من هذه المحنة وأن يتحقق له النصر. وقد حكمت "كليوباترة" بالاشتراك مـع أخيها الأصغـر وتزوجتـه بعـد مقتـل زوجـها الأول فـى ميـدان الحـرب ، وكـانت الجيوش الرومانية بالطبع تؤيد عرشهما فى مصـر. وقـد بلغـت "كليوبـاترة" قمـة مجدها وأوج عظمتها بعد أن كللت هاماتها تلك الانتصارات التى كسبها "يوليوس قيصر". وعقب الحرب التى شـنها "يوليـوس قيصـر" فـى شمـال أفريقيـا وعرفـت بالحرب الأفريقية ، دعاها "يوليوس قيصر" للحضور إلى روما لتقيم فى قصر أعـده لها على ضفاف نهر التيبر (Tibur). وقد استجابت لهذه الدعوة وعاشت فـى رومـا فترة طويلة كانت فيها معززة مكرمة ، حتى إنها ظنت إنها أصبحت ملكـة العـالم. ولكن المفكرين من الرومان من أمثال الخطيب "شيشرون" كانوا يضيقون بها ذرعا وينظرون إليها كما لو كانت قذى فى عيونهم ويتمنون رحيلـها عـن رومـا حتـى

يتنفسوا الصعداء ، ولكنهم لم يكونوا يملكون لها نفعا ولا ضرا ،"يوليـوس قيصـر" هو سيدها ووالد ابنها "قيصرون" ، على أن هذا الابن كان شبيها بأبيه فى سحنته ومشيته. وشاء القدر أن يكون فى هذا الابن سر عظمتها وسر نكبتـها فـى الوقـت نفسه ، وفيه تكمن المتاعب وبسببه تشتعل حروب أهلية أخرى بين زعماء الرومان بعد أن يتوارى "يوليوس قيصر" عن الميدان ويغتال فى يوم مشئوم فى شهر مارس من عام ٤٤ ق.م نتيجة تلك المؤامرة التى دبرها له جماعـة مـن المؤمنـين بالتقـاليد الجمهورية فخر صريعا فى أحد دهاليز مجلس السناتو الرومـانى عنـد أقـدام تمثـال مقام "لبومبى" فى هذه الدهاليز. ولا ريب أن مصرع "يوليوس قيصـر" وهـو فـى قمة مجده يعتبر كارثة محققة بالنسبة ل"كليوباترة"، إذ أنه كان من الصعـب عليـها بل ومن المستحيل ألا تتعاطف مع القيصريين وهم الحـزب المنـادى بضـرورة أخـذ الثأر من الجمهوريين وهم حفنة من السفاحين والقتلة. ولكنها حـاولت ألا تـورط نفسها فاتخذت موقفا وسطا يتسم بـالحذر والتـأنى. إنـها أرسـلت بـالفعل جيوشـا كانت معسكرة بمصر وهى أصلا جيوش رومانية جلبها معـه "جـابنيوس" عندمـا قدم لرد والدها إلى عرشه منذ عام ٥٥ ق.م ثـم تركـها لتؤيـد عـرش هـذا الملـك ، فذهبت هذه الجيوش إلى القائد الرومانى المسمى "دولابلا" (Dolabella) ، وهو من دعاة الانتقام لدم قيصر. وكان القصد من وراء ذلك تقديم العون لهـذا القـائد فـى محاولة فاشلة ، أريد بها الاستيلاء على سوريا وانتزاعها من "كراسوس" الجمهورى، ولربما هداها تفكيرها أن تؤثر التريث فـى هـذا الجـو العـاصف والملـئ بـالأحداث الجسام حتى قيل إنها هى التى دبرت تعطيل خروج السفن التى طلبها منـها كـل من "أنطونيوس" "وأكتافيوس" كيلا تصل فى موعدها ويكون تأخير وصولهـا فيـه الضمان لها والنجاة من اللوم إذا ما تذرعت بشتى الأسباب والمعاذير كقيام عاصفـة أخرت إبحار هذه السفن أو نحو ذلك. وهكذا أرادت انتظـار المصـير المحتـوم ، وقـد جاء هذا فـى سـبتمبر مـن عـام ٤٢ ق.م ، إذ حسـم الموقـف فـى معركـة فيليبـاى (Philippi) التى قررت مصير العالم وانتصار حزب "يوليوس قيصـر" علـى هـؤلاء القتلة من الجمهوريين ، وكان الشرق كله فيما وراء بحر الإدريـاتيك مـن نصيـب "أنطونيوس" بينما الغرب بما فـى ذلـك إيطاليـا وبـلاد الغـال وأسـبانيا وبلجيكـا وغيرها من نصيب "أكتافيوس" وهو الوريث "ليوليوس قيصر" بحكم وصيته.

على أن أخبار مهمة "أنطونيوس" فى الشرق هى التى تعنينا فى الصميم لارتباطها ارتباطا وثيقا بمستقبل مصر وخاصة بعد أن توثقت صلات "كليوباترة" بهذا الزعيم الرومانى وهو "ماركوس أنطونيوس" الذى وكلت إليه روما تنظيم شئون الشرق كله، وذلك بمقتضى اتفاق تم بينه وبين "أكتافيوس" "وليبيدوس" وهو الاتفاق الثلاثى (Triumvirate) الرسمى والذى قدر له أن يعمر خمس سنوات ثم جدد لخمس أخرى ، وانتهى فى عام ٣٣ ق.م. وهذا الاتفاق كان فى حقيقة أمره اتفاقا ثنائيا (Biumvirate) أكثر منه ثلاثيا "فأنطونيوس" هو رجل الشرق "وأكتافيوس" هو رجل الغرب وهما بطلا العالم وليس لهما ثالث يقف فى سبيل أيهما. وكانت مهمة "أنطونيوس" فى الشرق تنطوى على تهدئة الأحوال ووضع حد للثورات المشتعلة فى الشرق وتصفية المشاكل التى تجمعت فى أرجائه ثم الأخذ بالثأر لمقتل الزعيم الرومانى "كراسوس" (Crassus) الذى لقى مصرعه بعد معركة كارى (Carrhae) عام ٥٣ ق.م فى العراق بواسطة "البارثيين" (Parthians)، وكان الخطر يتهدد أملاك روما فى الشرق من جانب هؤلاء البارثيين. وفى طارسوس (Tarsus) بآسيا الصغرى حدث لقاء تاريخى ومسرحى فى الوقت نفسه، وكان "أنطونيوس" قد بعث فى طلب "كليوباترة" لسؤالها عن أسباب تقاعسها فى تقديم العون والمساعدة لمن تصدوا للأخذ بالثأر من قتلة "يوليوس قيصر" ، ولكن الملكة آثرت الذهاب لملاقاة "أنطونيوس" لا كمتهمة وإنما فى صورة الإلهة "أفروديتى" الجديدة ، تحف بها مظاهر العظمة والأبهة التى تخلب اللب وتفتتن بها العقول. ولم تجد الملكة أية صعوبة فى تبرير موقفها ، إذ ما لبث "أنطونيوس" أن تحول من قاضى إلى محب متيم فى الغرام بها ، وقد صحبها فيما بعد إلى الإسكندرية حيث نعم بمباهج المدينة العظيمة وبحياة كلها مغامرات لم يسبق لها مثيل ، وهى حياة ليس فى مقدور أحد أن يقلدها أو يحاكيها. وكان هذا كله فى عام ٤١ ق.م. ولابد أن الملكة جال بخاطرها حينذاك أنها تستطيع بواسطة هذا الجندى العظيم أن تحقق مآربها وأن تتخذ منه عونا على تحقيق الإمبراطورية التى كانت تحلم بها هى وأسرتها فى سالف الزمان.

ولكن "أنطونيوس" لم يترك لنفسه العنان حتى يغرق فى مباهج الإسكندرية، فبعد أن قضى فيها فترة من الزمان شدته المتاعب التى سببتها له

زوجته "فولفيا" (Fulvia) عقب فشلها فى حرب عرفت بحرب بيروسيا (Perusia) كانت هى المحرضة على إشعالها ضد "أكتافيوس" ، وعندئذ ولت وجهها شطر الشرق كيما تسترد زوجها من أحضان "كليوباترة" وترده إلى إيطاليا بعيدا عن مباهج الشرق ومفاتنه. ولكن القدر خلص "أنطونيوس" من زوجته وتصالح مع "أكتافيوس" وتوثق هذا الصلح بزواج "أنطونيوس" من أخت "أكتافيوس" واسمها "أكتافيا". وعقدت بذلك معاهدات فى برنديزى وميسينوم وهما ميناءان فى جنوب إيطاليا عام ٤٠ ق.م. وكان "أنطونيوس" لا يزال حتى ذلك الحين محافظا على طابعه الرومانى الأصيل بوصفه قائد الجيش الرومانى والمعتز بولاء جنده له ، وبعد أن أقام فى أثينا فترة مع زوجته الشابة أخذ يتأهب ويستعد لخوض حرب آل على نفسه أن يشنها ضد البارثيين ، وكانوا قد غزوا آسيا الصغرى واجتاحوا سوريا ولكن "فنتيديوس" (L.Ventidius) صدهم وأنقذ تلك البلاد من شرهم عام ٤٨ ق.م على أن سياسة الدفاع هذه ليست كافية ، وأصبح من المتعين على "أنطونيوس" أن يشن هجوما توغل به فى أرض العدو لردعه والتنكيل به ، ولذا أخذ يستعد لهذه الحملة المرتقبة فطلب إلى زوجته أكتافيا أن تعود أدراجها إلى روما وأن تتركه وشأنه ثم ذهب هو إلى أنطاكيا فى الشام حيث كانت الملكة "كليوباترة" فى انتظار مقدمة وفى صحبتها أولادها منه ومن "يوليوس قيصر".

وابتداءا من هذا اللقاء طرأ تغيير واضح على "أنطونيوس" بفضل تأثير "كليوباترة" عليه بالطبع ، فأخذ يتحلل من الأفكار والمبادئ الرومانية الصميمة وينحاز إلى الملكة "كليوباترة" بطريقة سافرة ، غير أنه لم يكن يبالى بما يتقول به الرومان عليه من أقاويل ، والبعض منها مبالغ فيه بالطبع ، ولكن الحقيقة لم تكن خافية على أحد فلقد حاولت الملكة "كليوباترة" فى أول الأمر أن تستعين به فى استرداد أجزاء من الإمبراطورية البطلمية القديمة فجعلته يمنحها بعض أجزاء من سوريا الحالية أو سهل البقاع فى لبنان ثم يقدم لها كذلك جزيرة قبرص والبلدان التى كانت لمصر فى إقليم كيليكيا بآسيا الصغرى وفى جزيرة كريت ثم اقتطعت من أملاك الملك "هيرود" فى بلاد اليهودية (Judaea) إقليما غنيا بأشجار البلسم هو المعروف بإقليم اليرموك (Jericho). على أن الخطط التى وضعتها هذه الملكة بالاشتراك مع حبيبها اتخذت صورة مختلفة جاءت أكثر تحديدا عندما عقد العزم

على غزو بلاد الشرق ومحاربة البارثيين ، حقيقة إن هذا البرنامج ربما اعتبر فى حد ذاته جزءا من المهمة الأصلية التى وكلت إليه باعتباره أحد الرجلين العظيمين فى العالم إذ ذاك (diumvir) ، ولكن سرعان ما أتضح أن هذا الحاكم الرومانى لم يكن يفعل هذا من أجل روما ، وأن أفكاره قد تطورت وأصبحت بعيدة كل البعد عن هذا المجال ، فمصلحة روما لم تعد هى الرائد والمحرك الأساسى فى خاطره.

إنه لم يكن يبغى إلى تحقيق أهداف وأطماع قوامها تكوين ولايات رومانية أو محميات تسبغ عليها روما سلطانها ، وإنما انطوت أحلامه على تكوين حلف مؤلف من الممالك الشرقية مآله أن يصبح قوة موحدة تكون الإسكندرية عاصمة لهذا الحلف الموحد ، وهذا البرنامج هو أدنى ما يمكن تصوره من الخواطر التى ربما علقت فى أذهان كل من "أنطونيوس" و"كليوباترة".

وليس هنا مجال التعرض لأى وصف يصلح أن يكون سببا لتلك الحملة التى شنها "أنطونيوس" على أولئك البارثيين فى عام ٣٧ ق.م ولا لأى شرح لما لقيه من هزيمة أليمة ، ومن خسائر فادحة فى أثناء عودته. وقد أعقب هذا المصير قيامه بشن حرب على أرمينيا فى ٣٤-٣٣ ق.م ، ولعل قصده من وراء ذلك تغطية فشله السابق ، وقد أنساق فى هذه الحملة إلى التوغل فى قلب أرمينيا وانتهت تلك الحملة بأسر الملك الأرمينى ومعه أسرته. وقد احتفت "كليوباترة" بهذه الانتصارات بصورة تجلت فيها العظمة والروعة واسترعت جميع الأبصار فى الإسكندرية وفى العالم الرومانى وبانت فيها بصورة واضحة تلك الأطماع التى كانت تجيش فى صدر كل من "كليوباترة" "وأنطونيوس" ،"فكليوباترة" بالاشتراك مع "أنطونيوس" جلسا على منصة فى الإسكندرية ومن حولهما الأبناء والبنات وقد أعلنت "كليوباترة" نفسها ملكة الملكات ، ولم يكن هذا باللقب الأجوف لأنها قدرت أن تكون لها السيطرة التامة على جميع الممالك التى وزعت فى هذا الحفل على أبنائها وبناتها من "أنطونيوس" الذى كانت قد أعلنت من قبل زواجها منه ، فأرمينيا والأقاليم المنتظر اقتطاعها من أملاك البارثيين تكون من نصيب "الإسكندر" هليوس (الشمس) الذى زوجته من "يوتابية" (Jotape) أبنة ملك "ميديا" (Media). أما سوريا فكانت من نصيب "بطلميوس فيلادلفوس" الثانى ،

وكانت كل من قبرص وبرقة من نصيب "كليوباترة" القمر. وكان فى توزيع هذه الممالك على هذا النحو السافر إثارة لغضب روما وكشف للنقاب عن حقيقة نوايا "أنطونيوس" و"كليوباترة" إزاء روما ، ولكن معركة أكتيوم فى عام ٣١ ق.م جعلت هذا البناء قبل أن يكتمل صرحه. وقد تم تحطيمه كله بعد موقعة نيقوبوليس (Nikopolis) فى ظاهر الإسكندرية عام ٣٠ ق.م. وكانت روما تعلم علم اليقين أنه لو ترك الحبل على الغارب حتى يتم ذلك البناء لكان فيه خطر داهم على روما نفسها ، ولذلك عقد "أكتافيوس" العزم على تكتيل قواه وجعل ولايات الغرب وعلى رأسها إيطاليا تقسم له يمين الولاء (Conjuratio) فى حرب يعتزم شنها ضد "كليوباترة" التى كان الرومان يعتبرونها العدوة اللدودة. أما "أنطونيوس" فاعتبر متخليا عن رومانيته بتصرفه فى أملاك روما فى الشرق تصرف الشخص المفتون والغارق إلى أذنيه فى حب "كليوباترة". وقد حسم الموقف عندما التقى الشرق تحت لواء "أنطونيوس" والغرب تحت لواء "أكتافيوس" فى موقعة مشهور فى المياه الغربية من بلاد اليونان وفى خليج إمبراشيا فى أكتيوم عام ٣١ ق.م ، وهى تعتبر اشهر موقعة فى العالم القديم ، وكانت الهزيمة من نصيب "أنطونيوس" و"كليوباترة" اللذان فرا من المعركة وعادا إلى مصر ثم تلى ذلك موقعة نيقوبوليس التى حققت نصرا مؤزرا "لأكتافيوس" ، وانتهت بضم مصر إلى حظيرة الحكم الرومانى وانتهاء دولة البطالمة بانتحار كل من "أنطونيوس" و"كليوباترة" على التوالى.

وهكذا منذ وفاة "الإسكندر" الأكبر حتى معركة أكتيوم وهى فترة تبلغ نحو ثلاثمائة عام من ٣٢٣-٣١ ق.م تراوحت خلالها السياسة البطلمية بين المد والجزر ، وكان فيها تاريخ البطالمة يشتمل على حقب معلومة ، وكل حقبة منها تتميز بخصائص من القوة والضعف ، وكان أبرزها تلك الحقبة التى شهدت انهيارا فى عهد فيلوميتور واتخذ صورة متسمة بالحرج والخطورة فى عهد "إبيفانيس". وحوالى عام ٢٠٠ ق.م سار هذا التداعى والانهيار بخطى سريعة ، وسواء أكانت مملكة البطالمة تمثل مملكة محصورة فى وادى النيل أم اتسعت رقعتها وانبعجت فى الشرق والغرب والشمال فكانت بذلك نتوءات لابد من المحافظة عليها ، وأحرزت إمبراطورية مترامية الأطراف وتطلبت سلطانا بحريا شاملا للحوض الشرقى من

البحر المتوسط، فإن مصر بمعناها الضيق كانت هى القاعدة وهى الأساس الذى كان يرتكز عليه كل هذا الكيان الهائل ، وكانت هى الشغل الشاغل للملوك المتعاقبين فى هذه الأسرة فلم تغب مصالحها عن بالهم ولم تغفل عيونهم عن الاهتمام بالجهاز الحكومى حتى فى أحلك الظروف وأسوأ الأحوال.

الفصل الثالث عشر

الانفتاح على دول عالم البحر المتوسط
وعلاقة مصر بروما

بعد أن سردنا أهم الأحداث التى جرت داخليا وخارجيا على عهد ملوك البطالمة المتعاقبين ، يحسن بنا أن نجمل هنا معالم بعض الموضوعات ذات الأهمية الخاصة فى تاريخ مصر البطلمية ومدى الارتباط بين السياستين الداخلية والخارجية وأثر كل منهما على الأخرى. وإنه لمن الحقائق المعروفة أن الأضواء من جميع الجهات فى الحوضين الشرقى والغربى من البحر المتوسط ظلت مسلطة بشدة على مصر عقب فتح الإسكندر الأكبر لتلك البلاد فى عام ٣٣٢ ق.م أى فى مستهل الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد ، بل ومن قبل ذلك بكثير ، ولعل الفضل الأكبر فى ذلك كان راجعا إلى ذلك الوصف الشامل الذى كان "هيرودوت" قد دبجه فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عن مصر فى الكتاب الثانى من موسوعته التاريخية ، وشاء هذا المؤرخ اليونانى أن يسهب فى وصف ما شاهده من أمجاد تلك البلاد وآثارها وما خبره عن عادات قومها. وقد آن له أن يبرز ما كان لها من عظمة حضارية ومن تقاليد دينية متميزة وما كان لأهم معالمها الأثرية من روعة ، وما كان لطوائف سكانها من نشاط متعدد الجوانب. قد أخذ كل هذا بألباب القراء فى العالم اليونانى وبخاصة من أتيحت لهم الفرص لزيارة هذه البلاد، وملك عليهم نفوسهم وقلوبهم ، وهنا استجاب كثيرون من اليونانيين لدعوة "هيرودوت" ، ولبوا النداء فرادى أو جماعات. فلما جاءت غزوة الإسكندر لمصر فتحت البلاد أبوابها على مصراعيها مرحبة بأولئك الوافدين الذين جاءوا من كل صوب وانهالوا على مصر كالسيل المنهمر متهافتين عليها ، إما لمجرد مشاهدة معالم تلك البلاد أو للانضواء فى سلك الخدمة المدنية أو العسكرية لدى ملوك البطالمة وبخاصة الملك "بطلميوس فيلادلفوس" وهو الذى كان صيته قد طبق الآفاق ، وذلك بفضل إصلاحاته التقدمية العديدة وسعة أفقه وتشجيعه للعلم والعلماء والمؤسسات الثقافية والحضارية التى أقامها وأسبغ عليها من فضله وماله الشئ الكثير فأكسبه هذا شهرة عالمية واسعة. وكانت إصلاحاته العمرانية وحكومته

البيروقراطية مضرب الأمثال ، كما كانت انتصاراته بفضل قواده فى البر والبحر محل تفاخر وتباهى مما أوحى للشعراء اليونان أن يشيدوا بذكرها ، وكان شاعر البلاط السكندرى "ثيوكريتوس" (Theocritus) أحد الأعلام الذين دبجوا سلسلة من الأشعار والقصائد الرائعة (Idylls) التى طالما تغنى بها الرعاة ، وجاءت فيها إشارات مغلفة إلى أمجاد هذا الملك وإلى سخائه وتشجيعه للوافدين من اليونانيين وبخاصة من كان يرغب منهم فى الانضواء فى سلك الجندية ، وكان قد دعاهم الشاعر "ثيوفراستوس" إلى التبكير بالحضور إلى مصر ففيها على حد قوله ، كل شئ جميل وفيها ملك جواد كان يجزل العطاء للضباط والجنود ، ويقدم لهم أفضل الأجور عن سعة وسخاء. فلا هو بالضنين الشحيح وإنما يبسط لهم الرزق ويؤمن مستقبلهم بما كان يمنحه لهم من إقطاعات ومنح عينية ومساكن كان يوطنهم فيها وينزلهم على بيوت المصريين كيما يشاركونهم فى بعض طوابقها كنزلاء طبقا لأوامر ملكية صادرة فى هذا الشأن.

سار أغلب ملوك البطالمة من بعده على منوال "بطلميوس فيلادلفوس" ، ونهجوا على نهجه بصفة عامة فى مجالى السياسة الداخلية والخارجية ، وفتحت مصر ذراعيها مرحبة بمقدم شعوب كثيرة بين أوروبية وأسيوية ، واستجابت البلاد لجهود فئات من هؤلاء المغامرين والمفكرين والحرفيين الذين أوتوا مقدرة فائقة على العلم الجاد والمثمر والإصلاح فى شتى الميادين فأثمرت جهودهم وأينعت بذور هذه السياسة وانتعشت البلاد اقتصاديا وأدبيا وماديا.

وكان من بين المتطلعين إلى مصر المزدهرة بل والمتربصين بها دولة ناهضة فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ، وتلك هى روما الفتية والدولة الناهضة فى وسط إيطاليا. كانت هذه الدولة الفتية منذ بدء عهد "بطلميوس فيلادلفوس" ترقب الأحداث الجارية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط ، وصادف إذ ذاك أن كانت فى كفاح مرير وصدام وعراك مع دولة أفريقية هى قرطاجة وهى دولة بحرية وتجارية عتيدة ، وفى أثناء الصدام المسلح بين روما وقرطاجة فى الحرب الأولى ٢٦٤-٢٤٢ ق.م كانت مصر حذرة ووقفت موقفا محايدا متسما بالحكمة والروية ، وعرضت أن تقوم بدور الوسيط بين جارتها الأفريقية وبين روما من أجل تسوية هذا الخلاف المسلح ، ولكن طلبها هذا رفض. وعلى أى حال فمصر

ارتبطت بروما منذ ٢٧٣ ق.م برباط من الود والصداقة ، وأخذت الصلات بين الطرفين تأخذ شكلا وديا ، وتوثقت الروابط والعلاقات بينهما على مضى الزمان وتوطدت شيئا فشيئا ، ولكن روما كانت تدبر وترسم وتضع الخطط متطلعة إلى المستقبل البعيد ، وقد استطاعت أن تنصب الشباك التى كبلت بها أعناق ملوك البطالمة المتعاقبين وخاصة بعد أن دب الخلاف والنزاع الأسرى بين أفراد البيت المالك ، واستفحل هذا الخلاف واتخذ صورة مسلحة بين أخوين غير متحابين هما "بطلميوس" السادس "فيلوميتور" "وبطلميوس" الملقب "يورجيتيس" الثانى ثم مرة أخرى بين الأخير بعد أن آل إليه ملك البلاد وحده عقب موت أخيه وبين أخته وزوجته "كليوباترة" الثانية.

وحوادث ووقائع تلك الحروب التى نجم عنها انقسام البلاد وانفصال الصعيد عن الوجه البحرى ليست بخافية على أحد ، وقد امتدت آثارها إلى جميع مرافق البلاد وتعطلت حركة التقدم إلى أن تم الصلح فى عام ١١٨ ق.م بين الطرفين المتحاربين ، وسلم كل فريق للآخر بقبول ما تم من أوضاع وحقوق على نحو ما فصلته لنا وثيقة بردية مشهورة هى رقم (٥) فى مجموعة بردى "تبتونيس". فهدأت الأحوال ولكن إلى حين ، وكانت روما تتدخل وتنصح وتوفق بين المتقاتلين. وتجددت الخلافات بين أبناء "كليوباترة" الثالثة وهى الزوجة الثانية "ليورجتيس" الثانى ، وهما "بطلميوس الإسكندر" الأول "والإسكندر" الثانى ، وجاء "بطلميوس لاثيروس" فاشتط فى سلوكه وتجددت الثورات والقلاقل - كل ذلك وروما ضالعة من وراء ستار ، تارة تتدخل للتوفيق بين الزوج وزوجته والأخ وأخته ، وأخرى بين الأخوة المتنافسين على العرش.

وليس من قبيل الاستطراد أن يجرنا هذا الحديث إلى الكلام عن الأوضاع فى مصر والآفاق التى اتجهت إليها فى سياستها الداخلية والخارجية فى حقب حاسمة من تاريخها ثم التعرف على الظروف والأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى عصر شامل لملوك ثلاثة هم "بطلميوس إيبفانس" (٢٢١-٢٠٣ ق.م) ثم "بطلميوس فيلوميتور" (١٨١-١٤٥ ق.م) ثم "بطلميوس يورجتيس" الثانى ، وفى هذا الصدد ينبغى أن نذكر دائما حقيقة أساسية وهى أنه بينما كنا فى العصر السابق وهو عصر كل من "بطلميوس فيلادلفوس" "وبطلميوس يورجتيس" الأول نعتمد

أساسا فيما نستقيه من معلومات على النصوص الأدبية والوثائق البردية ، وهى وفيرة ثم على مجموعة من النقوش والعملة ، إذا بنا فى العصر الثانى وهو عصر الملوك الثلاثة المشار إليهم نواجه بحالة أخرى فيها ضحالة نسبية من حيث المصادر التى نستقى منها المعلومات. فالمصدر الأدبى اقتصر أغلبه على فقرات من المؤرخ اليونانى "بوليبيوس" (Polybius) الذى عاش فى عصر "بطلميوس يورجتيس" الثانى وزار مصر إذ ذاك ، ثم إن وثائق البردى والنقوش المسطرة على الحوائط والألواح الحجرية والجيرية والرخامية والبوابات أقل فى القرن الثانى مما كانت عليه فى القرن الثالث. على أن هذا الوضع قد يكون بمحض الصدفة ولا ينبغى التعويل عليه إذ قد تكشف الأيام عن أرشيف أشبه بأرشيف "زينون" الذى ألقى أضواءا ساطعة على عصر "بطلميوس فيلادلفوس" ، على فترة الأثنى عشر سنة من صدر عهد "بطلميوس يورجيتيس" الأول أو قد نعثر على وثائق ذات قيمة وأهمية تكشف لنا الغامض من الأمور وتضيف أشياء كثيرة لما لدينا من نتف المعلومات ، ثم إن تلك الفقرات التى كشفت حديثا عن قرار مهم كان قد أصدره الملك "بطلميوس فيلوميتور" عن عبادة الإله "ديونيسوس" والطقوس والمراسم الخاصة بهؤلاء العباد وضرورة حصرهم وتسجيل أسمائهم لدى ديوان معين فى الإسكندرية ودعوتهم من جميع أنحاء البلاد للمثول فى الإسكندرية أمام موظف معين اسمه "أرسطوبولوس" فى مواقيت معينة ... الخ مماجاء فى وثيقة بردية منشورة فى مجموعة بردى برلين – على أن هذا القرار لا يقل أهمية وقيمة عما جاء فى حجر رشيد من عهد "بطلميوس إيبفانيس" وصدر عن الكهنة ورجال الدين وهم يشيدون بذكر هذا الملك وينوهون بأعماله. ثم أن العملة زودتنا بقسط وفير من المعلومات لا يقل أهمية عما جاء فى نظيراتها مما يرجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وعندما نعرض لهذه الحقبة فإنه ينبغى علينا أن نتوخى الحذر الشديد فلا نعمد إلى التعميم والاستنباط جرياً على مبدأ مرعى أو طبقا للقاعدة التى تقول بأن السكوت وعدم النص يخول لنا التسليم بالوضع الراهن (argumenta ex silentio) فعلا إذا ما توافرت لدينا الأدلة على وجود وظيفة ما مثل وظيفة وزير المالية (dioecetes) فى القرن الثالث ، ولم نجد شيئا يدل على

بقائها فى القرن الثانى ، فليس من الضرورى أن نستنبط أنها توارت عندئذ وأصبحت فى خبر كان والعكس بالعكس إذا ما وجدنا إشارة لوظيفة عامة فى القرن الثانى مثل وظيفة الاديولوجس (Idiologos) أو الابيستراتيجوس (Epistrategos) فليس معنى هذا أن إحدى هاتين الوظيفتين أو كليهما كانتا موجودتين فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، وكذلك الحال إذا ما وجدنا ظاهرة مهمة من صميم الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية غاب ذكرها فى أى من الوثائق الخاصة بالقرن الثالث ثم ظهرت فجاءة ولأول مرة ثبت ورود إشارة إليها فى وثائق القرن الثانى ، فقد يكون هذا كله من قبيل الصدفة البحتة ، ذلك لأن معلوماتنا عن القرن الثالث ، على وفرتها وتنوعها ليست بالوافية ولايزال يعتورها النقص والقصور كذلك فى نواحى كثيرة ، وعلى ذلك ينبغى علينا أن نأخذ حذرنا فلا نعمد إلى التعميم ولا إلى استقراء الحوادث أو استنباط الأحكام العامة حتى لا نتهم بالإسراف فى أحكامنا أو التغالى والإفراط فى حسن النية.

ومما لا ريب فيه أن مصر فى هذه الحقبة أى فى عصر الملوك الثلاثة وهم "فيلوباتور" "وإيبفانيس" "وفيلوميتور" كانت تمر بمرحلة فى غاية الدقة والحرج من تاريخها ، وبالیتها مرحلة انتقال عابر وإنما هى سلسلة متصلة ومتلاحقة من الأزمات السياسية بين داخلية وخارجية ، وفيها مواجهات لمراكز قوى فى الداخل وفى الخارج. وكان أولى بها أن تتأهب وتستعد لكل هذه المواقف والمواجهات حتى لا تباغت فتتعثر وتقع فى شراك ينصبها لها الخصوم فى الداخل وفى الخارج. وهناك اتجاهان اثنان لابد من التنويه عنهما ، ومع أنهما ليسا بجديدين تماما ، إلا أنهما برزا بصورة جدية فى سياسة البطالمة مما استرعى أنظار الباحثين والكتاب ، والاتجاه الأول كان متعلقا بمعاملة الملك لطوائف الأهلين (Laos) من عامة الشعب المصرى ونظرته إليهم ، وقد شاب ذلك تغير ملحوظ فى هذه الحقبة قوامه الاهتمام بعناصر الشعب وجموعه الغفيرة (Laoi, Plethos) ، ومايمكن أن تؤديه هذه الأعداد الهائلة من خدمات لحكومة الملك البطلمى المتوج فى وادى النيل والمعتصم بين جنباتة متخذا استراتيجية طبيعية من موقع البلاد الفريد ومستعينا فى ذلك بطوائف الشعب المصرى. وقد أسفرت هذه السياسة عن نتائج باهرة بالنسبة لتدعيم مركز الأسرة البطلمية فى مصر. وقد اختلفت هذه السياسة عما كان متبعا

من قبل فى صدر عصر البطالمة الذين كان ملوكهم الثلاثة الأولون وهم "بطلميوس" (سوتير) "وبطلميوس" (فيلادلفوس) "وبطلميوس" (يورجتيس الأول) فى فترة طوالها "٨٤" أربعة وثمانون عاما من ٣٠٤ حتى ٢٢١ ق.م يتبعون سياسة تتسم بحب السيطرة والتحكم وإن كانت تهدف إلى حب الخير والصالح العام وعرفت بالاسم الآتى (benevolent domination). وكانت هذه السياسة موجهة نحو جميع طبقات الشعب المصرى ، ونحو طوائف اليونانيين على السواء ، وهى فى مجموعها تنطوى على البطش والجبروت بلا التفرقة فى المعاملة ، فالملك باعتباره سيد البلاد كان مسيطرا على كل مقاليد الأمور ومتحكما فى شئون عامة الشعب ومستعينا فى إدارة البلاد بالعناصر الأجنبية فى تسيير دفة الشئون الدينية والعسكرية ، وكان أغلب هؤلاء الأعوان من الإغريق أو الآسيويين المتأغرقين أى المصطبغين بصبغة يونانية. فلما جاء "فيلوميتور" تبدل الأمر غير الأمر وابتدعت سياسة جديدة كانت لا تزال فى دور التجريب والاختبار فأسفرت عن نجاح تام ، وقد تحسستها الحكومة البطلمية شيئا فشيئا بعد أن وجدت ألا جدوى من انتهاج سياسة السيطرة والتسلط والتحكم واتخاذ هذا المبدأ قاعدة أساسية فى سياسة الحكم الداخلى ، وقد حل محل هذه السياسة المنطوية على شئ كثير من التعنت وقصر النظر روح من التعاون والمشاركة الأخوية (association) ، وكان من جراء هذه المزاملة أن أقدمت الحكومة البطلمية على عدة تنازلات فى مجالات شتى من أهمها الشئون العسكرية والشئون الدينية فانضوى المصريون فى سلك العسكرية ، وتعلموا نظام الفيالق وأثبتوا جدارة وكفاية فى معركة "رفح" ثم أسبغت الحكومة على المعابد المصرية فى مختلف أنحاء البلاد بل وفى كثير منها ، ففى قرى الفيوم وبعضها من المعابد الصغيرة أسبغت عليها حق الإيواء والجيرة (heira asyla) ، وهو حق كان يخول للمعبد إيواء المستجيرين واللائذين. كما قدمت الحكومة منحا وامتيازات لبعض الشخصيات البارزة من بين طوائف الشعب المصرى ، وبذلك كسبت عطفه وتأييده.

أما الاتجاه الثانى فيتعلق بالسياسة الخارجية للملوك البطالمة وانعكاسات ما يجرى فى الشئون الداخلية على توجيه تلك السياسة الخارجية والحد من أهدافها

وأطماعها ، ذلك أن هذا الاتجاه المتطور فى تصريف الشئون الداخلية قد صاحبه تغير جذرى فى الأسلوب الذى اتبعته الحكومة فى الشئون الخارجية.

ولتفصيل ذلك نعاود الكرة فنقول أن الملوك البطالمة الأولين كانوا يحاولون جهد استطاعتهم فى كل من الداخل والخارج تحقيق غايتين أساسيتين أولاهما الاستقلال التام (autarchia) ثم الكفاية الاقتصادية (autarkeia) فى الناحيتين السياسية والاقتصادية وثانيهما قوامه متوقف على ما يحققه الأمر الأول ، والهدف منه تحقيق أكبر قدر مستطاع من السيطرة والسيادة (hegemonia) فى معترك شئون العالم المتحضر والمشاركة فى توجيه السياسة الخارجية ، وبهذا تتحقق السيطرة والعظمة لمصر وتضمن حرية الإرادة والحركة. وقد حدث هذا كله بالفعل وأصبحت بلدان العالم فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط تخطب ود مصر التى صارت حرة طليقة ذات كفاية اقتصادية وسياسية تحرك بها دفة أمورها بنفسها ولا يتحكم فيها أحد ، وبذلك كفلت لنفسها قدرا لا بأس به من العظمة والسيطرة واحتفظ الملوك الثلاثة الأولون بقدر متوازن فى هاتين الناحيتين. فلما جاء "بطلميوس" الرابع الملقب ""فيلوباتور"" وخليفتاه "بطلميوس إيبفانيس" ثم "بطلميوس فيلوميتور" حاولوا جهد استطاعتهم الاحتفاظ بالكفاية الاقتصادية والسياسية ، ولكن الأمر الثانى وهو السيطرة فد اعتوره شئ من القصور. وأخذ هؤلاء الملوك الثلاثة يتخلون شيئا فشيئا عن هذا الوضع ومتطلباته ، فالسيطرة أو بالأحرى السيادة (hegemonia) كانت عبئا ثقيلا كلف البلاد من الجهد فوق طاقتها فلم تعد تتمسك بهذه النعرة التسلطية. وعصر ""فيلوباتور"" كما نعرفه من ثنايا ما كتبه المؤرخ "بوليبيوس" ملئ بالقلاقل والاضطرابات والنشاط العسكرى تأهبا للحرب ضد "أنطيوخوس" الثالث ، وهى التى انتهت بالنصر المؤزر لسياسة "سوسبيوس" وزير الحربية للملك "فيلوميتور" ونجاحه فى رد الملك "أنطيوخوس" الثالث ، وهزيمته فى موقعة رفح سنة ٢١٧ ق.م ، وعقب انتهاء هذه الحرب قام المصريون بتأييد من القوات المحاربة المصرية وهى المسماه باسم (machimoi) بثورة جامحة وعمت البلاد حرب أهلية كبدت مصر ضحايا كثيرة وجعلت كلا من ""فيلوباتور" سوسبيوس" يفكران فى تدبير الأمر من أجل

مواجهة تلك المصروفات الباهظة فى حربيين متعاقبين ، حرب خارجية وثورة داخلية.

وقد اضطر الملك إلى إحداث بعض التغييرات فى التنظيمات المالية والإدارية، وكانت لهذه المستحدثات عواقبها وآثارها البعيدة المدى فيما شهدناه من ظهور أجهزة جديدة مثل جهاز ديوان "الإديولوجوس" ، ومن فرض بضع ضرائب بعضها على إيجار الأراضى وغلتها وبعضها الآخر مستحدث مثل ضريبة كانت أشبه ما تكون بضريبة الرأس ، وهذه لم تكن معروفة فى القرن الثالث وجاءت العينات الدالة على ظهورها لأول مرة فى العصور المتأخرة من الحكم البطلمى ، وكان أول من فرضها هو "فيلوباتور". ومن المحتمل كذلك أن الدولة عمدت إلى تشديد الخناق على الناس من أجل تحصيل الإيجارات والضرائب والوفاء بالمتأخرات ومطالبة الجماهير بالقيام بأعباء شتى والتزامات عديدة ذات طابع استثنائى مما يجرى عادة فى أوقات الأخطار وفى أعقاب الحروب. وفى أغلب الظن كانت مثل هذه الإجراءات ينجم عنها إدخال بعض الإصلاحات فى الجهاز البيروقراطى. والثابت أنه فى القرن الثانى قبل الميلاد لوحظ وجود بعض التغييرات الهامة فى الإدارة المالية ، فشدد النكير على الناس وأحكمت الرقابة من جانب الحكومة على الأفراد وحددت العلاقة بين الموظفين والموكلين بجباية الضرائب وبين المسئولين ماديا عن تحصيلها وذلك كيلا يفلت أحد من الوفاء بما عليه من التزامات. وقد يروق لنا القول بأن هذا الإصلاح الضريبى والتغيير فى أسلوب الجباية قد تم على يدى "فيلوباتور" ، ونظرا لأن التشدد فى جباية الضرائب والإصرار على توقيع المسئولية المادية على الموظفين والملتزمين والضامنين جر بالتبعية إلى عمل مصادرات للأملاك بين حين وآخر ، فإن تكدس هذه الأملاك المصادرة نتيجة لهذه السياسة المتشددة استتبع بالطبع التفكير فى إنشاء جهاز خاص يضطلع بمثل هذه الأعباء والمسئوليات. وإذا ما وجدنا أدلة وبينات ابتداءا من عام ١٧٩ ق.م وما بعدها على ظهور إدارة جديدة أو جهاز مالى جديد أطلق عليه "إيديوس لوجوس" (Idios Logos) كانت مهمته مرتبطة بالأملاك المصادرة والأملاك التى لا صاحب لها ، أليس يحق لنا والحالة هذه أن نتصور أن هذا الجهاز ربما كان يرجع تاريخ تنظيمه أو ابتداعه مع إبراز الأهمية المتزايدة له فى عهد "بطلميوس فيلوباتور"

(٢٢١-٢٠٣ق.م). على أن كل هذا هو من قبيل التكهنات وليس لدينا فى الوقت الحاضر أى سند يؤيد هذا الإدعاء ، ونظرا لأن بعض الشك والريبة لا يزال يحيط بهذا الموضوع الذى تشوبه شوائب ولا يعدو أن يكون سوى احتمالات نسوقها هنا من قبيل الاستدلال ، فإنه من الأحوط ألا نجزم برأى قاطع، فقد تسفر الأوراق البردية المكتشفة عن بينة دامغة تؤيد هذه الفكرة أو تدحضها. على أن الثابت الآن والقول المتداول هو ان هذه الوظيفة ظهرت فى عهد "فيلوباتور" عام ١٦٨ ق.م. على أن أهم إصلاح ينسب إلى "فيلوباتور" وقامت البينة والأدلة المؤيدة لذلك هو ما أدخله على نظرية الحكم وتغيير فى أهداف الحكومة ، فانتقل من سياسة التحكم والسيطرة والجبروت على المصريين إلى خط مغاير تماما هو مراعاة اللين والمشاركة والتعاون مع طبقات الشعب المصرى ، وذلك بقصد كسب ودهم وكسر حدة كرههم للحكم المقدونى.

وعندما نتحدث عن السياسة الداخلية وما قد طرأ عليها من تغير فى الأسلوب والأهداف ينبغى أن تكون أنظارنا مسلطة على روما لأن علاقة مصر بروما كانت هى كذلك فى تطور وتغير مستمر ، وقد أخذت تلك العلاقات تتوطد وتتوثق على مضى الزمان. وكانت روما فى الوقت نفسه تتطلع لمستقبل بعيد المدى وترسم وتخطط لصالح الشعب الرومانى ووجدت فى مصر المناخ الصالح والمجال الخصب لتنفث فيه سمومها وتحقق أهدافها وأغراضها ولكن على مهل وبدون تعجل للأحداث فنصبت من الخطط والشباك ما كبلت به أعناق ملوك البطالمة ابتداء من الملك "فيلوميتور" ومن تبعه من ملوك البطالمة الآخرين الذين انحى عليهم "إسترابون" باللائمة ونعتهم بأرذل الصفات ونسب إليهم الضعف والمسكنة ، وأطلق عليهم صفة المخمورين والمبتذلين ، وضرب المثل بالملك بطلميوس "أوليتيس" أو الزمار والد "كليوباترة" السابعة. وكان الخلاف الأسرى على أشده ، فدب بين الأخ وأخيه والزوجة وزوجها والوالد وابنته ، واتخذ صورا رهيبة ، امتشق فيها الجانبان السلاح. وكان من أبرز الأمثلة على ذلك ما وقع بين الأخوين "فيلوميتور" "وبطلميوس" السابع أو الثامن الملقب "يورجتيس" الثانى ثم ما وقع بعد ذلك من خلاف أسرى مسلح بين هذا الأخير وبين زوجته "كليوباترة" الثانية مما أدى إلى وقوع حرب أهلية انقسمت فيها البلاد على نفسها

، وبذلك أتيحت الفرص الذهبية لروما كيما تتدخل فتصلح ذات البين وتمعن في الوقت نفسه في إذلال هؤلاء الملوك الضعاف أو المستضعفين.

وقد وصف لنا المؤرخ اليوناني "بوليبيوس" بعض الأحداث التي وقعت وكان معاصرا لبعض منها فوصفها لنا بإسهاب وتفصيل وحكاها بأسلوب رصين متوخيا في ذلك الحيدة والاتزان ، فكان خير مرجع لنا عن هذه الحقبة. ولدينا وصف آخر على لسان مؤرخ روماني مشهور هو "ليفي" (Livy) ، وهو يؤكد نفس هذه المعاني المتضمنة روح الضعف والاستسلام والتدخل الروماني بصورة سافرة في شئون مصر وتأييد هؤلاء الملوك الضعاف من البطالمة ، وقد سرد لنا بعض الأحداث الأخرى والسياسة التي كانت تتبعها روما في إرسال السفراء لمصر لإملاء الشروط والتحكم في مصائر الأمور. وحادثة السفير الروماني "جايوس يوبليوس" مشهورة ، وهو الذي أملى شروطه على "أنطيوخوس" الرابع ملك سوريا وأرغمه على الرحيل من الإسكندرية والتخلي عن جني ثمار نصر كان قد حققه في مصر ، وبذلك خلصت روما مصر من عدوها هذا وصانت العرش البطلمي المتأرجح. ولكن كان هذا لفترة ما ، وعندما سنحت الفرصة وقعت مصر فريسة ولقمة سائغة في يد الرومان أنفسهم بعد حين طال أو قصر. والرومان كانوا منذ أول الأمر يعرفون جيدا أهدافهم ويتلمسون أفضل السبل لتحقيق هذه الأهداف ، وقد وقفوا لمصر بالمرصاد ولم يتورعوا عن استخدام الوقيعة في بعض الأحيان بين الأطراف المتنازعة من الملوك والأمراء والأميرات في البيت البطلمي ولم يكفوا عن التدخل في شئون مصر الداخلية والخارجية ونصرة هذا على ذاك ، ولم يتأخروا عن حماية عرش البلاد من الوقوع فريسة في حوزة الملك السلوقي "أنطيوخوس" الرابع عندما هم بالفعل في احتلال البلاد والحضور إلى الإسكندرية لجني ثمار انتصاراته على الجيش البطلمي فكان تخليص عرش مصر من أنيابه على هذا النحو السافر بمثابة وضع مصر تحت الحماية الرومانية. ولو أن هذه الحماية لم تعلن رسميا. وهكذا سارت أمور العرش البطلمي في تخبط وتأرجح ، وأصبحت في مهب الريح ، ويبدو أن ملوك البطالمة الأخيرين قد استكانوا وأثروا أن يسيروا في ركب روما ويصبحوا تحت حمايتها وأن يفاخروا بما كانت تسبغه عليهم من ألقاب جوفاء لا تغني ولا تسمن من جوع مثل اللقب الذي أسبغه مجلس

الشيوخ الرومانى على "بطلميـوس أوليتيـس" وهـو الحليـف والصديـق للشـعب الرومـانى (Socius et Amicus populi Romani) وهـذان لقبـان حصـل عليـهما بالرشوة والعطايا لأعضاء الشيوخ والقادة وزعمائهم من أمثال ""يوليـوس قيصـر"" "و"بومبى"" "وأولوس جابينيوس".

وهكذا تمثل هذا الوضع المشين بصورة تبينت فيها البشاعة علـى عـهد ذلـك الملك المستضعف "بطلميوس أوليتيس" (٨٠-٥١ ق.م) عندما ثار عليه السكندريون وطردوه سنة ٥٨ ق.م لتفريطه فـى المحافظـة علـى أمـلاك مصـر والسـماح لرومـا بالاسـتيلاء علـى جزيـرة قـبرص دون أن يحـرك سـاكنا وعندئـذ سـارع إلى رومـا مستنجدا ، ثم جـال وصـال فـى رومـا وأخـذ يـوزع الرشـاوى ويرتكـب مختلـف الحماقات إلى أن تمكن من أن يحظـى بعطـف الزعيـم "بومبـى" وبإقنـاع "أولـوس جابينيوس" وهو الوالى الرومانى على سوريا ووعده له بتقديم رشوة ضخمـة هـى عشرة آلاف من التالنتات إذا ما قدم له العون فـى رده إلى عرشـه بفضـل جحـافل الجيش الرومانى. وقد تحقق له المراد وجاء الجيش الرومانى زاحفا من الشام وبقـى فى الإسكندرية منذ عام ٥٥ ق.م لتأييد هذا العرش المتأرجح ، وكـان لبقائـه فيـها مغزاه ، وأصبح بمثابة جيش احتلال بل هو احتلال فعلـى مقنـع ، وبذلـك أصبـح الطريق ممهدا للحكم الرومانى السافر فى عام ٣٠ ق.م.

هذا عرض سريع لأهم الأحداث وتطوراتها وفيه تحليل لمغزاها ومرماها وليس من سرد هذه الأحداث أى مناص لكل من يتصدى لتاريخ مصر فى تلـك الحقبـة الأخيرة من الحكم البطلمى. وكان الشئ الذى يسترعى الأبصـار هـو أن الاحتـلال الرومـانى لمصـر لم يـأت فجـأة ، ولم يكـن ابـن سـاعته ولم تكـن رومـا متعجلـة للأحداث بل تربصت لمصر وتحينت كل الفرص من أجل تحقيق مآربها فى غير ما جلبة ولا ضوضاء ، ولم تتسرع إطلاقا فى اقتطاف هذه "الكمـثرى" الدانيـة ، بـل تركتها حتى نضجت وسقطت تلقائيا كما يسقط الفرخ فـى عـب. صاحبـه وهـو مستلقى على ظهره تحت الشجرة ينتظر فى غير تلـهف اقتطـاف هـذه الثمـار فـى الميقات والموعد المعلوم ، ويدل هذا على مدى الإحكام فى وضع الخطـط السياسـة ومبلغ الإتقان فى رسم روما لها.

تعقيب المؤرخ الجغرافى "إسترابون":

وإن خير ما يمكن أن نختتم به هذا البحث فى تبيان ألوان من الحضارة التى سادت فى مصر على عهد ملوك البطالمة وشرح سيرة أهم ملوكهم سواء من حيث القوة والضعف - هو أن نقدم هذه العجالة التى دبجها مؤرخ جغرافى لامع هو "إسترابون" الذى كان معاصرا للحقبة الأخيرة من الحكم البطلمى ، بل وكان شاهد عيان إذ زار مصر فى صدر الحكم الرومانى فى عام ٢٤ ق.م بدعوة من صديقه الوالى الرومانى الثانى على مصر واسمه "آيلوس جاللوس" (٢٦-٢٤ ق.م). وقد عاش "إسترابون" فى مصر لبضع سنين وجاب أرجاء هذا القطر ، وأتيحت له فرص فريدة كيما يتجول ويتقصى ، وقد وصف لنا معالم البلاد وآثارها ونظم الحكم فيها ، ومن الطريف أنه عرج على تاريخ الأسرة البطلمية وعقب على أحوال ملوكها مع الاقتضاب الشديد. ولكن أحكامه وأراءه اتسمت بالاتزان والتعقل فكان كالخبير والعليم ببواطن الأمور ، ولذلك لايجب أن نغفل ذكر بعض هذه الآراء ، وهو عندما سرد لنا قصة مصر البطلمية وما أحاط بها من ظروف قبيل الغزو الرومانى أفاض فى ناحيتين هما الكيفية التى كانت تدار بها شئون البلاد فى عهد ملوكها الأخيرين مع التنويه بصفة خاصة بتصرفات كل من الملك "بطلميوس يورجتيس" الثانى الملقب "فيسكون" أى البدين مع السكندريين الذين ناصبوه العداء فأغلظ لهم القول وأساء معاملتهم. وأنحى كذلك باللائمة على الملك المفتون "بطلميوس أوليتيس" الذى ساءت صحيفته وتردى فى سلوكه وتعثر فى تصرفاته مع السكندريين. أما الأمر الثانى فهو معالم نظام الحكم الذى وضعه الرومان لمصر والضمانات التى اتخذوها لكى يصونوا البلاد من التعرض للهزات التى واجهتها فى أواخر حكم البطالمة.

ولما كان "إسترابون" فى جملته ممن يوثق فى روايته ويعتمد عليه فيما ذكره وما دبجه كتصوير منه لحالة البلاد ، حتى أننا كثيرا ما نجد فى الكتب والمراجع عبارات مقتبسة منه من قبيل التدليل على أوضاع معينة فى سياسة الحكم والاختصاصات والتوجيهات فى هذا السبيل ، فقد آثرنا أن نسوق هنا ترجمة لبعض الفقرات والفصول من كتابه السابع عشر إيمانا منا بأن قول "إسترابون" لابد أن يؤخذ مأخذ الجد ويكون له الاعتبار قبل كل شئ ، وهاهى مقتبسات من

الكتاب السابع عشر (١) ، ١١ (٧٩٦) : "ذلك أن "بطلميوس بن لاجوس" خلف الإسكندر ثم جاء من بعده "فيلادلفوس" ابنه "يورجتيس" الأول ، ثم "فيلوباتور" بن "أجاثوكليا" ثم جاء من بعده "إيبفانيس" وخلفه "فيلوميتور" ، وهكذا كان الابن يخلف دائما أباه حتى جاء "فيلوميتور" فخلفه أخوه "يورجتيس" الثانى الذى كان يلقب كذلك (فيسكون) ثم جاء من بعده "بطلميوس لاثيروس" ، وفى آخر المطاف جاء "بطلميوس أوليتيس" (الزمار) المعاصر لأيامنا وهو والد "كليوباترة" ، وجميع هؤلاء الملوك فيما عدا الثلاثة الأولين قد أفسدتهم حياة الترف والدعة التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فأداروا شئون الحكم فى البلاد على نحو بالغ من السوء ، على أن أسوأ هؤلاء جميعا هم أولئك الملوك الذين يرقم لهم بالرابع والسابع ثم الأخير وهو الزمار ، وفضلا عن أن هذا الملك الأخير كان فاسقا ومفتونا فإنه انصرف إلى الملذات والشهوات ، وكان يهوى مصاحبة الجوقات بمزماره، وكان يفاخر بما يبديه من مهارة فى هذا الفن إلى حد أنه لم يكن يتردد لحظة واحدة فى إقامة مباريات ومسابقات من هذا النوع فى القصر الملكى". وفى هذه الحلقات والمباريات كان يجول ويصول ويحرز قصب السبق مع باقى المتنافسين، وانتهى به المطاف بأن نفاه السكندريون (عام ٥٨ ق.م). ولما كان له من البنات ستة كبراهن هى الابنة الشرعية (برنيقة) فقد أعلنها السكندريون ملكة عليهم ، أما أبناه الذكور فكانا لا يزالان فى سن الطفولة ، واقتضى هذا إقصاؤهما من معترك الحياة السياسية فى ذلك الحين. ولما استقر "لبرنيقة" الحكم وتربعت على عرش البلاد بعثوا إلى سوريا يبحثون لها عن زوج ووقع الاختيار على شخص يدعى الفسخانى ، وكان يدعى نسبته إلى ملوك السلوقيين. ولكن الملكة بعد بضعة أيام تخلصت منه ودبرت خنقه إذ لم تطق لفظاعته وغلظته ثم حل محله زوج آخر يسمى "أركيلاوس" تسلل إلى مصر دون علم "جابينيوس" إذ أحضره بعض العلماء إلى الملكة ونودى به ملكا على مصر (وقد حكم مدة ستة أشهر فقط) وانتهى أمره بذبحه بواسطة "جابينيوس". وفى الوقت نفسه كان "بومبى" العظيم "وبطلميوس الثامن" (وهنا أسقط "إسترابون" كلا من بطلميوس التاسع الملقب بالإسكندر الأول وأسقط كذلك أخاه "بطلميوس" العاشر الملقب بالإسكندر الثانى ، ولعل السبب فى إغفال ذكرهما أن هذه القائمة تضم أسماء الملوك

الشرعيين وهما فى أغلب الظن ليسا كذلك) ، وقد استقبل "أوليتيس" الذى كان قد وفد إلى روما "فأكرم "بومبى" وفادته" وقدمه إلى السناتو حيث أسبغت عليه كنيتان هما الصديق والحليف للشعب الرومانى واستطاع "بومبى" أن يضمن له التأييد لا فى رده إلى عرشه المسلوب فحسب وإنما كذلك فى الحكم بإعدام أغلب السفراء الوافدين من مصر والبالغ عددهم مائة ، وكانوا قد أوفدوا فى بعثة إلى روما لمناهضة ذلك الملك المخلوع وتفنيد حججه. وكان من بين هؤلاء "ديون" الفيلسوف الأكاديمى ورئيس هذه البعثة. وعلى ذلك أعيد "بطلميوس" إلى عرشه (مؤيدا بجيش رومانى) بواسطة "جابينيوس". وقد قتل "بطلميوس" كلا من "أركيلاوس" وابنته ، ولكن لم تنقضى فترة طويلة فى حكمه حتى وافاه أجله المحتوم ، فمات إثر مرض انتابه تاركا من بعده ابنين وبنتين كبراهن تسمى "كليوباترة" ، وعندئذ أعلن السكندريون كلا من الابن الأكبر و"كليوباترة" على عرش البلاد ، ولكن الرفقاء والخلان فى صحبة الابن الأكبر أوقعوا الفتنة وأثاروا الزوج الصغير على "كليوباترة" وسعوا إلى نفيها فأقلعت من الإسكندرية مصطحبة معها أختها الصغرى ومتجهة إلى سوريا. وقد صادف فى ذلك الحين أن أتت الرياح بما لا تشتهى السفن إذ جاء "بومبى" العظيم فارا من فارساليا وعند رسوه فى ميناء الفرما عند جبل كاسيوس وقعت خيانة كبرى ، فاغتيل "بومبى" العظيم بواسطة رجال حاشية الملك (وبتحريض منه). ولما جاء "يوليوس قيصر" أمر باستدعاء "كليوباترة" من منفاها ونصبها ملكة على عرش البلاد ثم عين الأخ الباقى زوجا لها وشريكا معها فى الملك على الرغم من أنه كان صغيرا جدا. وبعد مقتل "يوليوس قيصر" فى مارس من عام ٤٤ ق.م وبعد معركة فيليباى عام ٤٢ ق.م التى اندحر فيها قتلة "يوليوس قيصر" من الجمهوريين عبر "أنطونيوس" إلى آسيا وبعث إلى "كليوباترة" يستدعيها كيما يسائلها عن تصرفاتها (وتقاعسها فى تقديم العون ضد قتلة "يوليوس قيصر") ، ولكنه كرمها واحتفى بها احتفاءا كبيرا ثم اتخذ منها زوجة فيما بعد ، وأنجب منها ذكورا وإناثا ثم خاض غمار حرب فى موقعة أكتيوم عام ٣١ ق.م بصحبتها ، ولكنه آثر الفرار فى أعقاب الملكة عندما خرجت بأسطولها من خليج إمبراشيا ميممة شطر مصر. "وبعد ذلك اقتفى "أغسطس" "قيصر" أثرها وقضى عليها وذلك فى حد ذاته كان خاتمة لحكم مصر

التى كانت شئونها موضع عبث فئة من المفتونين والمخمورين". ويمضى "إسترابون" فى الفصل الثانى عشر مستهلا كلامه ببدء عهد جديد هو وقوع مصر فى حوزة الرومان ومفصلا لنا أركان الحكم الرومانى ووجهة نظر الإمبراطور الأول فى وضع البلاد ومنهاجه فى حكمها ، وقد عرج "إسترابون" على اختصاصات بعض كبار الموظفين الذين نصبهم أكتافيوس. وعاد يقول "لما كانت الحكومة البطلمية قد تنكبت سوء السبيل ولم تنهج النهج السليم فإن مستقبل مدينة الإسكندرية ورفاهيتها كانت فى تدهور وانهيار بسبب حالة من الفوضى كانت قد ضربت أطنابها فى كل مكان" ، وعلى أى حال فالمؤرخ "بوليبيوس" الذى كان قد زار المدينة ساءته حالتها المتفشية فى أرجائها فقال إن طبقات ثلاثة أصبحت هى التى تقيم فى المدينة أولاها العنصر المصرى من عامة الشعب وهؤلاء شديدوا الانفعال وسرعان ما يتملكهم الغضب وليس لهم أى ميل أو استعداد لتقبل الحياة المدنية وثانيها الطبقة المأجورة أو المرتزقة وهؤلاء فى قلوبهم قسوة وأعدادهم كبيرة ولا يمكن أن تسلس لهم قيادة ذلك أنهم بحكم عاداتهم القديمة كانوا يحتفظون بقوات أجنبية مسلحة ، وهذه القوات دربت وأهلت لكى تحكم بدلا من أن تحكم نظرا لضعف الملوك وميلهم للاستكانة وما عرفوا به من تفاهة. أما الفئة الثالثة فهى تتمثل فى عنصر مؤلف من السكندريين وهؤلاء كذلك لم يكن من شيمتهم الرغبة فى الأخذ بأسباب الحياة المدنية. ولكنهم على أى حال كانوا خيرا من غيرهم لأنهم مع كونهم أمشاجا مخلطة كانوا بحكم أصل نشأتهم ينتمون لليونان بأوثق الصلات وبعضهم كانوا يحرصون على المحافظة على العادات والتقاليد المرعية لدى عامة اليونان. ولكن حالتهم ما لبثت أن تدهورت بعد أن انقض عليهم الملك "بطلميوس يورجتيس" الملقب "فيسكون" وشتت شملهم ، وكان فى عصره أن وفد لزيارة الإسكندرية الكاتب اليونانى المشهور "بوليبيوس" وسجل انطباعاته ، وعندما تحزبت المدينة وجابهت هذا الملك "يورجيتيس" الثانى وكنته (بالشرير) بدلا من فاعل الخير وعصت أوامره صوب عليهم جنده الذين قضوا على كثيرين منهم - تلك كانت حال مدينة الإسكندرية.

وهذه هى الأوضاع السائدة فيها وهى على حد قول "بوليبيوس" ينطبق عليها قول الشاعر الخالد "هوميروس" فى الكتاب الرابع من إلياذته (السطر ٤٨٣) حيث قال إن الذهاب إلى مصر طريق وعر وهو طريق محفوف بأشد المخاطر.

مظاهر القومية المصرية على عهد البطالمة :

إن هذا الموضوع طريف للغاية ، وقد يشوق الدارس المصرى أن يعرض له بشئ كثير من التفصيل ، وهو يتطلب من المؤرخ استعراض الكثير من الأحداث واستنباط الكثير من النتائج من ثنايا تلك الأحداث وما كان يجرى خلالها من تصرفات الملوك البطالمة المتعاقبين ، بل ومن قبلهم الإسكندر الأكبر مؤسس تلك الحضارة الهيللنستية التى عمت أرجاء الشرق وتسربت إلى مصر بخطى وليدة وثابتة ، فأتت منها مصر أكلها فى كل حين واقتطعت خير الثمار من مناهلها الأصلية فى بلاد اليونان وحوض البحر المتوسط ، إما بصفة مباشرة أو على يد أولئك الوافدين من تلك الأقطار ، ثم ما لبثت مصر أن أصبحت هى نفسها قبلة الأنظار فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وهذا الأمر يستدعى منا أن نذكر بعض الأحداث التاريخية ، فنقول إن غزوة الإسكندر الأكبر لمصر فى عام ٣٣٢ ق.م كانت ضمن حملته الكبرى على دولة الفرس انتقاما للحروب الشعواء التى كان الفرس قد شنوها فى صدر القرن الخامس قبل الميلاد على المدن اليونانية فى شبه جزيرة اليونان ، ونكلوا فيها بالمدائن وأشعلوا النيران فى أثينا. وسرعان ما كللت مساعى الإسكندر بالنجاح والتوفيق على عدوه الفارسى "دارا الثالث" وتقوضت دولة الفرس وتمزقت عقب موت ملكها "دارا الثالث" ، وعندئذ دخلت مصر لأول مرة فى تاريخها المعروف فى زمرة حضارة أوروبية بعد استسلامها للإسكندر وترحيبها بجيوشه باعتباره المخلص لها من بطش الفرس وظلمهم. وبذلك انضوت مصر فى منطقة النفوذ الغربى والحكم الأوروبى. والغزاة من مختلف الشعوب كانوا قد تسللوا من قبل إلى وادى النيل فرأت الأجيال السالفة من الشرق والغرب والجنوب بعض هؤلاء الغزاة الذين استقروا فى مصر لفترات طويلة ، ولكن البلاد كانت دائما فى حرز مكين من الغزو من ناحية الشمال بفضل ذلك الحاجز المنيع الذى هيأته وأوجدته تلك المستنقعات الكثيرة المنتشرة فى شمال الدلتا ، بل إن نهر النيل نفسه كان بمثابة

الحائط الواقى من الغزو الخارجى من ناحية الشمال ، فصان مصر ضد "برديكاس" عندما هدد "بطلميوس بن لاجوس" فى فترة ولايته على مصر وأراد تأديبه، ولكن حملته باءت بالفشل ومات "برديكاس" نفسه فى هذه الحملة التأديبية الفاشلة. فالنيل إذا كان فى كثير من الأحيان خير واقى من غزوات الأعداء وشرهم. ولما أتيحت الفرصة السانحة لليونان والمقدونيين على السواء لغزو غرب آسيا وسقطت آسيا الصغرى والشام فى أيديهم أصبح الأمر يسيرا عليهم فتغلبوا على مصر وسيطروا عليها ووقعت البلاد كما قلنا فى قبضة الإسكندر فى يسر وسهولة. ولم يكن اليونانيون شعبا يجهله المصريون تماما قبل ذلك بل كانوا على معرفة وثيقة بهم من قبل فاختلطوا بهم وعركوهم أيام الفرعون أبسماتيك والأسرة الصاوية (السادسة بعد العشرين) ، وسمحوا للأيونيين والميليطين بالذات (وهم سكان مدينة ميليطوس Miletus) فى آسيا الصغرى بالإقامة والاستقرار فى مدينة أسسوها لهم ، وكانت خاصة بهم هى نقراطيس (Naucratis) "مركز إيتاى البارود فى غربى الدلتا" ، وقد أقام اليونانيون فى كنف هذه المدينة وسمح لهم بإقامة جميع الخصائص والمقومات اللازمة للتمتع بحياة يونانية خالصة ومباشرة. نظم الحكم المألوفة من مجلس "البولى" (الشيوخ) ومجلس يضم الأحرار (إكليسيا) ومعابد للآلهة اليونانية ومؤسسات ثقافية وحضارية مما كان اليونانيون يألفونه ويحرصون على الاحتفاظ به أينما ذهبوا. ثم فضلا عن هذا كله كانوا يباشرون تجارتهم بحرية تامة وقد تم كل هذا على سبيل الترضية والتشجيع لهم على السكنى فى مصر والانضواء فى خدمة ملوكها كجنود مرتزقة ، فكانوا بذلك نواة صالحة لنشر الثقافة اليونانية فى مصر منذ أبكر العصور. وهكذا كانت التجارة متبادلة بين مصر والبلاد اليونانية فى فترات متباينة طوال القرون التى سيطرت فيها "كريت" على ساحل الشام وفلسطين ، وهناك أدلة كثيرة على قيام مثل هذا الاتصال بين "كريت "ومصر.

ولما انتقلت مراكز السيطرة اليونانية إلى "ميكينى" أو "موكيناى" (Mycenae) الواقعة فى شبة جزيرة المورة (البليبونيز) ثبت بالأدلة المستنبطة من الكشوف الأثرية أن المدن فى بلاد اليونان احتفظت بسبل الاتصال والتبادل التجارى مع مصر. ولما ظهرت "هيلاس" الجديدة (Hellas) وأخذت مدائن اليونان

مثل أثينا وكورنثه وأرجوس وطيبة فى التوسع وحرصت على إرسال أبنائها للخارج لإقامة مستعمرات ومستقرات مدنية حافظت على بقاء الصلة بينها وبين المدائن الأم ، وسارعت المدن التجارية مثل ميليطوس وغيرها فى آسيا الصغرى إلى المشاركة فى هذا المضمار ، فأقامت مراكز فى مصر كانت بمثابة مستودعات ، واختارت من مدينة "نقراطيس" بالذات قاعدة فى غرب الدلتا ، على أن مقدار الأثر الذى كان لهؤلاء التجار اليونان على مصر سواء من الناحية الأدبية أو المادية لا يمكن الاعتداد به ولا مجال لذكره لتفاهته ، ذلك أن هؤلاء التجار كانوا قد وفدوا إلى مصر لمجرد التبادل التجارى ومباشرة الأعمال أملا فى تحقيق مكاسب وتحسين أحوالهم المادية ، ولعلهم كانوا فى أحسن الأحوال يجوبون أرجاء البلاد ويزورون مناطقها الأثرية بوصفهم سائحين. ويصدق هذا القول على أولئك الجنود من المرتزقة اليونان الذين قدموا إلى مصر لتأدية خدمات عسكرية بوصفهم مأجورين مجلوبين خاصة لهذا الغرض ، وانضووا فى خدمة الفرعون "أبسماتيك" ثم "أمازيس" وغيرهما من فراعنة مصر فى العصر الصاوى.

وإن بقايا نتف أدبية أو تاريخية دالة على ما أسماه الكتاب اليونان بحكمة المصريين ووجود إشارات عابرة إلى ذلك المعنى فى ثنايا المصنفات التى دبجها الكتاب اليونان فيما قبل عصر الإسكندر لعلها مجرد شذرات لا تكشف عن أى معرفة وثيقة بكنة الحياة المصرية ولا بألوان من الأدب المصرى الخالص. بل إن كاتبا ومؤرخا مشهورا مثل "هيرودوت" ، وقد جاب المدن المصرية فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وتقصى أحوال البلاد ، واختلط بأهلها وسأل كهنتها لم يتعمق فى الكتاب الثانى من موسوعته التاريخية وهو الجزء الذى خصصه لوصف مصر وأحوالها وعادات شعبها وآثراها ، ولم يزد فيما كتبه عن ذكر بعض المظاهر الخارجية والحالة الاجتماعية والدينية فى شئ من الإطناب ، ولذا جاء وصفه بعيدا عن أى تعمق ، ولذا كان متسما بالسطحية وأصبح لا يمكن التعويل عليه ولا يعدو أن يكون من قبيل الكلام العابر والمرسل الذى يروق للصحفى المتجول أن يسطره. ومما زاد الطين بلة أنه كان يحكى ما يذكره له الكهنة دون أى تمحيص ، فأوقعه هذا فى "مطبات" وجر عليه نقدا فرمى بالبساطة وعدم تحرى الدقة فى الرواية. وقد حرص فيما ذكره عن المصريين على أن يصمهم بتهمة النفور والخوف

من الأجانب والغرباء (Xenophobia) ، وقال إن المصريين يخشون الاختلاط بالأجانب ويحرصون على أن ينأوا بجانبهم حتى يكون هناك حاجب بينهم وبين الأجانب ، وهذه تهمة حقة لصقت بالمصريين على مدى أجيال وسنين طويلة.

وفى الوقت نفسه لا نجد من الناحية المصرية أى أثر دال على أن بعض المصريين شغفوا بالتغلغل فى حياة جيرانهم من اليونانيين أو حتى عرفوا شيئا من قبيل حب الاستطلاع عن الأفكار اليونانية أو أظهروا بعض الاكتراث بالوقوف على لون من ألوانها أو أنهم نهلوا فى وقت ما من عيون الآداب اليونانية والفكر اليوناني والفلسفة ابتداء من "طاليس" أو "سقراط" "وأفلاطون" "وأرسطاطاليس" أو اقتبسوا شيئا من الأشعار التى جادت بها قرائح هؤلاء الشعراء اليونان ابتداء من شعراء الملاحم "هوميروس" "والتراجيديين" "ايسخيلوس" "وسوفوكليس" "وميناندر" وكتاب القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى كان يمثل العصر الذهبى فى تاريخ الأمة اليونانية جمعاء. والأمر الغريب أن المصريين نأوا بجانبهم إلى حد ما عن مناهل الحضارة اليونانية هذه اعتزازا منهم بحضاراتهم المصرية العريقة ودقة الحس والقدرة على الابتكار وحسن التنظيم والتبويب. ولعل السر فى هذا النفور أو الخوف من الأجانب حسبما عبر عنه هيرودوت فكان لهذا الشعور أثره فى عقلية المصريين وجعلهم يحبون العيش بمنأى عن الأجانب ، متوجسين بعض الخيفة. وسواء أكان المصريون على حق فى تصرفهم هذا أم لا ، فإن هذه الظاهرة كانت بادية العيان فى تصرفاتهم إزاء اليونانيين الذين عايشوهم وسكنوا فى بيوتاتهم وعملوا فى المصانع والحقول معهم جنبا إلى جنب.

وعلى ذلك فإن قيام مملكة مقدونية فى مصر فى أعقاب دولة الإسكندر التى تم تقسيمها بين نفر من قواده وأركان حربه ، ثم استئثار "بطلميوس" بن لاجوس بوادى النيل بعد عام ٣٠٥-٣٠٤ ق.م وإعلانه الاستقلال بالمملكة المصرية وتأسيسه حكومة ملكية بيروقراطية على هذا النحو العاجل والسافر - كل هذا قد أثار مجموعة من المشاكل لها جدتها وطرافتها فى الوقت نفسه. وفى أغلب الظن لم يتيسر لأى من الأسر الأجنبية التى حكمت مصر من قبل أن تكون على هذا النحو من الاختلاف التام فى أفقها وعقليتها ، وعلى هذا البعد الواسع المدى عن قلوب المصريين الصميمين ، مثلما كان عليه الحال على عهد البطالمة ؛ ومع ذلك

فإذا كان الحكم الأجنبى البطلمى يروم ألا يقتصر على مجرد كونه احتلالا عسكريا بحتا فإن الضرورة كانت تقضى بأن يتحقق نوع من الاختلاط والمزج بين اليونانيين والمصريين فى شتى النواحى وبالأخص فى الناحية الدينية ، وكان لابد أن يحدث شئ من التماثل والتطابق أو التوفيق بين شتى المذاهب والعقائد والطقوس الدينية. ولم يجد اليونانيون أى ضير فى هذا الشأن مع تسليمهم بأن اليد المصرية كانت هى الطولى والعليا فى الشئون الدينية ، وأن المصريين كان كعبهم راسخا فى هذا المجال. وقد أصيب اليونانيون بشئ من الرعب والخوف والوجل إزاء ما يجرى فى المعابد المصرية من طقوس ومراسم دينية وما كان يقيمه الكهنة المصريون من مختلف العبادات فى شتى أنحاء مصر وما حرصوا عليه من مظاهر العظمة والجلال. ووقف اليونانيين مبهورين ومبهوتين إزاء معبد الكرنك بطيبة وشتى المعابد الأخرى بمفيس والفيوم وفيلة وأسوان وإدفو ، وحيثما ذهبوا فى أرجاء الوجهين القبلى والبحرى وجدوا معابد مماثلة ذات عظمة وجلال تتضاءل أمامها معابد اليونان فى بلادهم وفى شتى جزر بحر الأرخبيل. ثم إن سياسة الإسكندر الأكبر كانت تنطوى فى مجموعها على قيام إمبراطورية عمادها المزج والاختلاط والتوفيق بين الشعوب دون تفرقة بين اليونانى وبين الإغريقى أو الأسيوى فالجميع سواء ، وهم متآلفون فى النهوض بحضارة عالمية ، وفى دعوة الإسكندر هذه كان متقدما على عصره وكان سباقا إلى العمل الجاد من أجل تحقيق وحدة البشر. وهى فكرة ربما كان الموحى بها أستاذه ومعلمه الكبير الفيلسوف "أر سطو". وكان هدف الإسكندر الأسمى أن يتحقق مثل هذا المزج بين الشعوب فى كل ولاية من ولايات هذه الإمبراطورية المنبعجة ، وبمعنى آخر كان يبغى أن "يهلن" الشرق الأدنى برمته وبالصبغة الهيلينية المشوبة بالطابع الشرقى ، وأن تسود مصر حضارة هيللنستية فلا هى مصرية صميمة ولا هى يونانية خالصة وإنما هى مزيج منهما معا بحيث يكون التركيب فيها منسجما متسقا ومتحدا بعضه فى بعض. على أن وفاة الإسكندر الأكبر فى سن مبكرة ، إذ وافته المنية وهو لا يزال فى مقتبل العمر لم يتعدى الثلاثين إلا بقليل مما جعله يترك برنامجه الذى عمل جاهدا على تحقيقه فى صورة "كروكية" لم يكتمل إطارها ولم تتضح معالمها ، ولا تعدو أن تكون سوى خط بيانى اهتزت بعض أجزائه ، ولكنه على

أى حال كان السبب المباشر فى أن مصر انفتحت على العالم الأوروبى وسارت فى ركب حضارة أوروبية كان محور ارتكازها فى مقدونيا وبلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل.

وقد قيل فى وقت ما أنه كان من حسن حظ مصر ، عند تقسيم الولايات فى هذه الإمبراطورية بين قواد الإسكندر وأركان حربه أن وقعت مصر من نصيب رجل حصيف من هؤلاء القواد ، كان قد جاوز الأربعين من عمره وعركته الأيام وعرف من أين تؤكل الكتف والكيفية التى يتمكن بها من أن يصيد بحجر واحد عدة عصافير من على الشجرة. وفضلا عن ذلك فإنه كان يؤمن بأن عصفورا فى اليد خير من عشرة على الشجرة - ذلك هو "بطلميوس" بن "لاجوس" المقدونى الذى اشتهر بأنه من خيرة قواد الإسكندر وأقربهم إليه وأحبهم إلى نفسه وأكثرهم دهاءا وحنكة. وبالإضافة إلى هذا كله فإن الظروف كانت قد أتاحت له أن يكون فى صحبة الإسكندر ويكون برفقته عندما غزا مصر. ثم إنه لازمه طوال الفترة التى قضاها الإسكندر فى مصر وصاحبه فى رحلته الشاقة إلى واحة سيوة من أجل زيارة معبد آمون فيها ثم حضر تخطيط مدينة الإسكندرية واختيار هذا الموقع الرملى على الشاطئ الشمالى الغربى بالقرب من قرية تسمى راقودة كان يعيش فيها الصيادون. وفى هذا المقام القصير الذى لم يزد إلا قليلا عن المدة التى كان يقضيها السائح العادى فى مصر وهى بضعة أشهر استطاع "بطلميوس" وهو فى صحبة الإسكندر أن يطلع بحكم الظروف والملابسات وملازمته "للإسكندر" فى جميع خطواته وتحركاته ، على جميع الخطط والمشروعات التى كان الإسكندر ينوى تطبيقها وتنفيذها فى مصر ، فأفاد من ذلك وتعلم الشئ الكثير وهو كما قلنا يمثل الرجل الحصيف والحريص بطبعه والعليم ببواطن الأمور. وفى أغلب الظن كان البرنامج الذى اتخذه "بطلميوس" بن لاجوس لنفسه وعمل فيما بعد على تطبيقه هو بحذافيره صورة من تلك الأفكار التى كانت تداعب الإسكندر وتجول بخاطره بشأن مصر ، فهناك أوجه شبه كبيرة بين هذه الخطة التى طبقها "بطلميوس" وبين تلك التى كانت لدى "سيلوقوس" فى سوريا ، وهو أحد النظراء "لبطلميوس" ومن رفاق الإسكندر وقواده ، وهذا التطابق فى حد ذاته

يعتبر أكبر دليل على أن المصدر الذى استقى منه الطرفان المصرى والسورى واحد وأن كلا النظامين كان مقتبسا من نموذج واحد.

والخطة الأساسية التى انتهجها "بطلميوس" الأول وقام عليها برنامجه كانت تنطوى على ضرورة تسرب تلك العناصر الأجنبية من يونان ومقدونيين ومتأغرقين من الشعوب الأسيوية ومن سكان جزر بحر الأرخبيل وتغلغلها فى جميع أرجاء مصر، على أن يكون هذا التسرب بطريقة انسيابية ، ويراعى فيها أن تكون سليمة وطبيعية ، ولا أثر فيها لاستعمال العنف أو استخدام القوة الغشومة. وكان أسلوبه يعمد إلى عدم التظاهر بما لديه من قوة عسكرية أو اللجوء إلى الإكراه والبطش أو الجبروت. وإنما ترك أثر أن تجرى فى أعنتها فى شئ من الاسترخاء وعدم التعجل ودون أى إيحاء أو استجداء. ومما ساعد على تحقيق هذا الأسلوب فى التعامل مع المصريين وجود منطقة واحدة كبيرة ذات رقعة واسعة متاخمة للصحراء الغربية هى واحة الفيوم ، وقد استهوت اليونانيين واختارها ملوك البطالمة كيما يستقر فيها بعض الجند وتوزع عليهم الأراضى الواقعة فى كنفها. وكان اختيار "بطلميوس" الأول لهذا الموقع بالذات ينم عن حصافة ومهارة فائقة فتلك الواحة النائية كانت تسمى إقليم البحيرة (Limnē) باعتبارها واقعة فى أحضان بحيرة قارون ثم لما جاء بطلميوس الثانى غير اسمها وأطلق عليها الإقليم الأرسينويتى تخليدا لذكرى أخته وزوجته الثانية "أرسينوى" الثانية. وهذا الإقليم متحكم فى شريان كبير للمواصلات عند رأس الدلتا ويؤلف نقطة بارزة صوب الغرب ، يمكن أن تتخذ منها قاعدة ناتئة لحماية الحدود الغربية لمصر. وفضلا عن هذا وذاك فهى متاخمة للصحراء ويمكن الزحف منها وعمل توسع عمرانى فى جوف الصحراء ، وقد تم استصلاح أراضى شاسعة على حساب تلك المستنقعات والأراضى الملحة أو القلوية الواقعة فى جنوب بحيرة "قارون" وعلى جانبيها. ثم إن هذه الواحة النائية كانت بعيدة كل البعد عن المجرى الرئيسى لنهر النيل والوادى الواقع على جانبيه ، ولكنها فى المتناول وهى محصورة ويمكن الاطمئنان إلى أن الجند اليونان المستقرين أو المستوطنين فى نطاقها أصبحوا فى مأمن ، وكانوا بعيدين عن أى عائق وليسوا مصدر إثارة للروح القومية المصرية وهم الذين كانوا دائما فى عيون العناصر الوطنية أشبه مايكون بالقذى فى العين ويضيق بهم المصريون ذرعا

ويتوحسون منهم خيفة. وهكذا أكتظ إقليم الفيوم بالقرى والمدائن وعرف منها ستة وستون قرية تحمل أسماء يونانية ، وكان من بينـها أربعـة عشـر قريـة تحمـل أسمـاء بعض أفراد الأسرة المالكـة فكـان هنـاك "فيلادلفيـا" "وثيادلفيـا" "وفيلوتـيريس" وغيرها مثل (ديمى السـبا ع المسـماه سكنوبايونيسـوس فـى شمـال بحـيرة قـارون) وغيرها من مستوطنات اليونانيين ومؤسسـاتهم العمرانيـة ، وهكـذا آثـر اليونـانيون الإقامة فى تخوم الفيوم بعيدين عن المناطق المكتظة بالسكان وعن معـاقل الوطنيـة المصرية وأهمها طيبة.

والمركزان الرئيسيان للحياة اليونانيـة الصحيحـة وهمـا اللـذان قـدر لهمـا أن يكونا بواتق لعملية التهلين والتمدين والتحضير فى مصر هما الإسـكندرية علـى الشاطئ الشمالى الغربى وبطلمية فى أعماق الصعيد فى محافظـة جرجـا وكلاهمـا مؤسستان حضاريتان بحكم نشأتهما وطبقا للفـرض الأساسـى مـن تأسـيس كـل منهما. وقد تم تنظيم الحياة فى كل منهما على النسق اليونانى الصميم باعتبارهما مدينتين متمتعتين بالحكم الذاتى ، وليس فى إحدى هذه الحـالات الثـلاث الآنفـة الذكر بما فى ذلك القيوم ما كان يستوجب إخراج أحد من العنـاصر الوطنيـة مـن مكانه أو السطو على أرضه واغتصابها منـه أو مطـاردة السـكان الأصليـين بدرجـة تستحق الذكر ، فالجنود المستوطنون فى الفيوم حلوا فى أراضى تم استصلاحها فى أغلب الأحوال على أيدى هذه العناصر الأجنبية ، وكـان بعضـها إمـا مـن المنـاطق الصحراوية المتاخمة أو من مستنقعات جففت ومهدت بفضـل العقـول والأساليب المتطورة على أيدي عناصر خبيرة من مهندسين ومقـاولين يونـان. أمـا الإسـكندرية فكانت نشأتها واختيار رقعتها موفقة للغاية فهى عبارة عن سلسـلة مـن الكثبـان الرملية الممتدة على شاطئ البحر المتوسط إلى الغرب من الفرع الكانوبى فى دلتـا نهر النيل ، وكان يسكن هذه البقعة من قبل جماعات قليلة متناثرة من الصيادين الذين أقاموا عليها أكواخهم فى راقودة. ومع كل ذلك لم يكن هناك من ضير على أحد أو افتئات على أراضى الغير عندما وقع اختيار الإسكندر بذكائـه الفـذ وبعـد نظره ، على ذلك المكان ، وقيل إنه كان متأثرا بما شاهده عند حصاره لمدينة صـور وهو فى طريقه إلى مصر ، وما وجده فى جزيرة فاروس تجاه الشـاطئ السـكندرى من تشابه أوحى إليه بأن يربط هذه الجزيـرة الصغـيرة الرابضـة فـى عـرض البحـر

بالشاطئ بواسطة جسر طويل إقامة لهذا الغرض وعرف باسم "الهبتاستاديوم" (أو الفراسخ السبع من حيث الطول) ، وبذلك كانت هناك ميناءان شرقية وهى المستعملة وغربية تشتد فيها رياح البحر وتخشاها السفن. ولكن الفنار المقام فوق جزيرة "فاروس" كان خير مرشد يهدى السفن للرسو فى هذه الميناء. وقد قيل فى صدد اختيار الموقع الذى أسست فيه المدينة أن أهل "نقراطيس" من اليونانيين هم الذين أدلوا إلى الإسكندر بالنصح والإرشاد بصدد اختيار هذا الموقع الفذ وما يتمتع به من أهمية نظرا لبعده عن مصب النيل فى الفرع الغربى وهو الكانوبى وعدم تأثره بما تجلبه مياه الفيضان هناك من غرين. أما عن مدينة "بطلمية" فقد أسسها "بطلميوس" الأول وشاء القدر أن تكون هى المدينة الوحيدة التى أسسها ملوك البطالمة واقتصروا على ذلك ولم يسايروا الركب فى السياسة التى انتهجها الملوك السلوقيون ، وكانوا سباقين فى إنشاء المدن ولم يتقاعسوا عن ذلك مثلما فعل البطالمة الذين خشوا إذا ما توسعوا فى إنشاء المدن أن يقطعوا أوصال البلاد ويفتتوا من وحدتها وينالوا من الرابطة التى أوجدها نهر النيل. ولعلهم أرادوا بتأسيس مدينة واحدة أن يثبتوا للعالم أنهم يستحقون بجدارة بأن يكونوا خلفاء الإسكندر وأنهم لم يتأخروا عن الركب الحضارى بل ساروا فى هذا المضمار أسوة بملوك سوريا وغيرهم من خلفاء الإسكندر الذين ساروا فى هذا الشوط إلى مدى بعيد فتوسعوا فى تأسيس المدن. وكان تأسيس بطلمية على موقع به قرية مصرية صميمة تسمى "إبسوى" (Psoi) ، وهى قرية ليست بذات أهمية ولم تترك لنا سوى اسمها القديم ولم نعرف عنها شيئا كثيرا وقامت محل بطلمية فى العصر الحديث مدينة المنشأة (وهى مركز جرجا فى محافظة أسيوط) مخلدة لذكرى المؤسس لها وهو "بطلميوس" الأول وحاملة اسمه المجيد. ويقال إنه قصد بتأسيس هذه المدينة أن تكون أداة تحضير وتمدين فى الصعيد وأن تراقب الأحوال الجارية فى "طيبة" معقل الوطنية حتى تتعادل الموازين والأوضاع وتكبح جماح الغلاة من المناهضين للحكم الأجنبى إذا ما ثارت ثائرتهم بين حين وآخر.

ومن ثنايا هذه المراكز ، انبثق نور الثقافة والحضارة اليونانية فى طابعها الهيللينستى وتسربت إلى شتى أرجاء مصر حتى وصلت إلى الواحات والأقطار النائية والمتطرفة من مصر ، بما فى ذلك الريف والحضر على السواء ، ولكن

"بطلميوس" الأول كان حصيفا وحريصا للغاية فآثر الحذر الشديد فى اختيار الطرق التى يمكنه أن يسلكها إزاء تسرب تلك الأفكار والعادات اليونانية والنظم الحكومية المرعية عند اليونان ، وقد شاهدناه وهو عازف عن المغالاة والتوسع فى إنشاء المدن مكتفيا بالنصيب اليسير واتباع القسطاس ومقتصرا على تأسيس مدينة واحدة هى "بطلمية".

ويمكن اعتبار موقف "بطلميوس" الأول من العبادات المصرية وتسامحه إزاءها دليلا على السياسة التى انتهجها نحو العناصر القومية ودعاة الفكر المصرى الصميم ، فهو لم يشأ أن يتدخل فى شئون العبادة المصرية ، ولو فعل شيئا من ذلك لكان متناقضا مع نفسه وما جرى عليه العرف اليونانى. فكان الأهالى أحرارا فى مباشرة العبادات التى سار عليها أجدادهم واستمروا بالفعل يعبدون آلهتهم التقليدية فى معابدهم القديمة. وكان فى مصر (على حد قول العالم البريطانى الراحل سير "هارولد إدريس بل") وثنية حقه تعددت فيها الآلهة المصرية والآلهة اليونانية إلى درجة يحار الإنسان فى فهم مدلولاتها وسر تعددها. وقد جرت عدة محاولان للمطابقة والمقابلة بين بعض هذه الآلهة المصرية ونظرائها عند اليونانيين ، مثال ذلك الإلة "إمحوتب" إله الشفاء ويقابله عند اليونانيين الإلة "أسكلبيوس". على أن بعض هذه المحاولات كانت غير منظمة وفيها شئ كثير من الافتعال وسارت فيها الأمور على غير هدى. أما الملك البطلمى فقد اتخذ لنفسه المركز التقليدى المخول له باعتباره فرعون البلاد فهو إله يعبد ، وهو فضلا عن ذلك يعتبر المالك لكل شئ ولا رآد لكلمته. وعلى أى حال فالعبادات السائدة فى مصر كان مظهرها يساعد على إبراز صورة فيها شئ من التوافق بين المصالح المشتركة.

على أن المفتاح الذى ييسر لنا تفهم الخطة البطلمية نجده فى سياسة هذا الملك البطلمى الأول الرامية إلى ابتداع عبادة جديدة تجمع بين الأفكار المصرية والأفكار اليونانية فى مجال دينى واحد ألا وهو عبادة الإلة المبتكر "سيرابيس" (Sarapis) ، وقد حيك حول نشأة هذه العبادة الجديدة قصص كثير ، وفسرت مظاهرها وطقوسها المتفشية والمنتشرة بين طوائف عديدة بأساليب وطرائق كثيرة وشابتها أحلام ذكرها لنا الكاهن المصرى "مانيتون" السمنودى ورددها من بعده

كثير من الكتاب اليونان والرومان من أمثال المؤرخ الرومانى "تاكيتوس" (Tacitus). وأصبح هذا الإله والآلهة الأخرى المشتركة معه فى محرابه (Theoi Synnaoi) محور اهتمام الناس والحكومة اليونانية على السواء ، وانتشرت المعابد المكرسة له فى كل مكان حتى وصلت إلى أعماق القرى المصرية ، وتجمع الناس بين يونان ومصريين حول هذه العبادة التى اتخذت منذ نشأتها طابعا رسميا وأولتها الحكومة كل تشجيع. وفى اتخاذ هذه الديانة الجديدة عبادة رسمية مايوحى بخطة انتوتها الحكومة ، وهى العمل على إطماس جميع الآلهة الأخرى ذات الأهمية الضئيلة ، بقدر المستطاع ووضع الكثير منها على الرف إن أمكن ، وعلى ذلك يمكن القول أن السياسة التى كانت الحكومة البطلمية تهدف إلى تحقيقها هى السعى إلى ضم الشمل والعمل على التوحيد بين العناصر الساكنة فى مصر وبين الأجانب الوافدين والجمع بينهم فى صعيد واحد ، وكان هذا هدفا قوميا بالطبع وفكرة صائبة ، ومن شأنها أن تسلس قيادة المحكومين متى اشتركوا فى عبادة إله واحد ابتدعته لهم الحكومة البطلمية. وإنه لحدث خطير حقا فى تاريخ نشأة العبادات والديانات أنه يزمع الملك البطلمى الأول على تكليف هيئة مشتركة من العلماء يتمثل فيها العنصران المصرى فى شخص "مانيتون" واليونانى فى شخص "تيموثيوس" وهو فقيه ومتضلع فى الديانة اليونانية. وقد قامت تلك الهيئة بصياغة الطقوس اللازمة لهذه العبادة. وبالطبع كان للعنصر اليونانى الغلبة واليد العليا ، وكان "مانيتون" متجاوبا ومستسلما لأقصى حد. وهكذا وضعت مراسم هذه العبادة التى أنشأها "بطلميوس" الأول واقتبست عناصرها من ديانات عديدة سائدة فى أمم مختلفة وذلك استجابة لمطالب العامة حسبما تراءى لهذه اللجنة وطبقا لمقتضى المفاهيم التى وضعت لتسير عليها هذه الطبقات من الناس وتنهج على منوالها. فكان الإله "سيرابيس" ممثلا لشخص الإله "أوزيريس" وزوجته "إيزيس" وابنها "حورس" أو كما يسميه اليونانيون "هاربوقراتيس" (Harpocrates) فكان ذلك عبارة عن ثالوث مرموق فى نظر اليونانيين والمصريين على السواء ، وكان هذا الثالوث بمثابة حلقة اتصال ورباط دينى وثيق بين الشعبين : المصرى واليونانى - فتآلفت القلوب واتحدت الأهداف ، وهذا وضع له قيمته فى حد ذاته بالنسبة للحاكم والمحكوم ولا ينبغى أن نغفل ذلك الأثر فى

تقديرنا وتقييمنا لنشأة القومية المصرية. وفى الوقت نفسه قد أتاح هذا الإجراء فرصة سانحة للدولة كيما تتحكم فى شئون تلك العبادة المصرية دون حاجة لأى تدخل أو عبث بالأوضاع القائمة ، فالعبادات القديمة كان أمرها هينا ، إذ أمكن وضعها فى يسر وسهولة تحت إشراف موظفين حكوميين ثم تركت بعد ذلك تلك المؤسسات الدينية القديمة وشأنها على أمل أن تتضاءل وتنكمش شيئا فشيئا ، وينتهى بها المطاف إلى أن تذبل أمام تلك العبادة الجديدة ذات الرونق الباهر أو على أقل تقدير يجرى امتصاصها وتغلغلها فى داخل عبادة "سيرابيس" عن طريق التوافق والتطابق وهو أمر كان يكنى له فى كتب التاريخ البطلمى بعملية المطابقة بين المعتقدات (syncretism). ومهما كانت الأساليب المختارة من أجل ستر العبادة الرسمية الجديدة وتغليف عبادة "سيرابيس" بالمراسم والطقوس المقتبسة من مصادر مصرية صميمة فإن الروح اليونانية كانت هى الغالبة والبارزة بالطبع. وتمثلت هذه الصبغة فى الفكرة الأصلية التى كانت السبب فى ابتداع الإلة "سيرابيس" بقصد واضح لا لبس فيه ولا خلاف ، وهو جلب كل أولئك الذين عبدوا هذا الآلة إلى الدائرة اليونانية وضمان ولائهم للملك البطلمى والعمل على انضوائهم فى عبادة مشتركة كهذه فكأنما الغرض الحقيقى من وراء هذه العبادة هو سياسى بحت.

وهناك أساليب أخرى غير مباشرة كانت شبيهة من ذلك الإجراء الذى اتبع فى ابتداع عبادة "سيرابيس" ، وقد رؤى اتخاذها وسيلة أو أداة من أجل "تهلين" المصريين وطبعهم بالطابع اليونانى ، وهذه الأساليب تناولت المظهر والجوهر على السواء ، وكان لابد أن تؤتى ثمارها فى كل حين ، بل وفى شتى المجالات. فليس من المعقول أن يقف المصريون مكتوفى الأيدى أمام حضارة هيلينية متفتحة لتقبل العناصر الشرقية والآسيوية ولاحتضان الصالح منها ، على أن يكسى هذا كله ويطلى بقشرة رقيقة أو سميكة من غشاء "هيلينى". وبعض هذه الأساليب يمكننا التنقيب عنها فى أماكن أخرى ، ففى مجال اللغة كانت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية ، واستمر هذا الوضع مرعيا طوال العصرين البطلمى والرومانى أى نحو ألف سنة. وعلى ذلك كان على المصريين أن يجاروا هذا الوضع ويتقبلوه وهم صاغرون ويتأقلموا معه. ونحن نعرف أن الأمية كانت متفشية فى مصر وأن عدد الأميين (hoi agrammatoi) كان يمثل العنصر الغالب فى السكان ، وأن الكتبة

العموميين ورجال الدين هم الحفظة على هذا التراث الفكرى واللغوى. ومع أنه لا يوجد من الدلائل ما يشير إلى وجود أى اثر لروح الإكراه فى استعمال اللغة اليونانية واستخدامها فى المكاتبات والشكاوى ، إذ بقيت اللغة المصرية القديمة والخط الديموطيقى مرعيين فى شئون الديانة المصرية والأدب المصرى والمعاملات وعقود الزواج بين المصريين ثم فى النقوش والمراسم الدينية. فإنه كان من الطبيعى أن الشبان المصريين الطموحين والراغبين فى شق طريقهم فى سلك التوظف والترقى بقصد التعاون مع الحكومة اليونانية يتعين عليهم تعلم اللغة اليونانية والأخذ بنصيب من الثقافة اليونانية المجلوبة تمشيا مع روح العصر وتجاوبا مع سادة البلاد الجدد ، ومن أجل تحقيق هذه الأهداف أنشئت المدارس لتعليمهم وتثقيفهم على قدر المستطاع.

وقد جلبت هذه المدارس اليونانية فى ركابها ألوانا من المؤسسات والنوادى وحلبات المصارعة والندوات الثقافية والرياضية ، وهى المعروفة باسم (gymnasia) ثم الحمامات ، وكان يؤم كل هذه المنتديات جماعة من الشبيبة أو الفتيان (epheboi) ويتخرجون منها بعد فترة قصيرة بوصفهم شبانا صالحين ومواطنين مستكملى المواطنة ، وكان هذا مقصورا بالطبع على العناصر اليونانية وحرم على المصريين الانضواء فى هذه المؤسسات الثقافية وكان كل من تسلل إليها يقصى عنها ويعاقب ، فالأب المصرى الذى يعمد إلى تسجيل اسم ابنه فى سلك الشبيبة بطريق التدليس كان يعاقب بمصادرة ربع أملاكه ، وذلك بحسب ماجاء فى البند الرابع بعد الأربعين من مقننة الاديولوجوس[1] ، وهى الدستور المرعى ثم فى أواخر الحكم البطلمى وفى العصر الرومانى. وقد انتشرت الجمنازيات فى مصر البطلمية حتى وصلت إلى أعماق الريف وتسربت إلى القرى النائية. ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت هذه المؤسسة فى وسط المدينة المصرية العريقة وهى طيبة معقل الوطنية المصرية ومركز عبادة الإلة آمون. أما متحف الإسكندرية وأكاديميتها الثقافية ألا وهى "الموسيوم" (Museum) حيث كان التاسوع الإلهى (Musae) الراعى

---

(١) أنظر كتاب "مقننة الإديولوجوس" لمؤلفه "زكى على" ، القاهرة ١٩٩٩ ، البند ٤٤ ، والتعليق المستفيض عنه.

لربات الفنون التسع ثم المكتبة اليونانية المشهورة ، فكانت هذه كلها معالم زائعة انصيب ومفخرة لمصر البطلمية وفيها عكف نخبة من العلماء اليونان الذين جاءوا من بلاد اليونان والجزر وآسيا الصغرى ينعمون بضيافة الملك البطلمى الذى أغدق عليهم من عطفه وتشجيعه الشئ الكثير فعكفوا على إعداد الموجزات والملخصات من كتب العلم والمعرفة بين مصرية ويونانية ، وتم لهم إخراج مصنفات بوبوها فى ثوب يونانى قشيب لصالح العالم أجمع ، وبذلك أثرى الفكر العالمى ، وأصبح لدينا تراث أدبى وفكرى هائل كان يعرف بالأدب السكندرى بعد تنقيح أعمال المفكرين والكتاب والشعراء اليونانيين الأولين. ثم إن سبل التجارة المصرية كانت قد أخذت تتأثر كذلك وتتم فيها المعاملات وهى منسجمة مع التقاليد والعرف اليونانى ، وذلك باستخدام العملة المسكوكة كوسيلة ميسرة فى التبادل التجارى وعرفت قواعد البيع والرهن والائتمان والهبة ، ولا شك أن اليونان قد حذقوا فى كل هذه الأنواع من المعاملات.

باتت إمارات المعالم الرئيسية التى جرى تخطيطها لبرنامج وضع عن "الهلينة" والتحضر فى مصر قبل موت "بطلميوس" الأول فى عام ٢٨٣ قبل الميلاد (أو فى ٢٨٢ ق.م) ، وإن كان ابنه "بطلميوس" الثانى الذى توج فرعونا على البلاد فى يوم ٢٦ يونيه من عام ٢٨٣ ق.م قد نهض بمصر وقام بإضافة الكثير من المشروعات الإصلاحية فى شتى الميادين وأدخل على برنامج التعمير الكثير من التحسينات والتصويبات ، وسار على هذا المنوال بروح حماسية فكان كالمحموم لا يأبه بالصعوبات ولا بضخامة المشروعات التى عقد العزم على تنفيذها ، واستجابت البلاد إلى التنظيمات التى أدخلها وتقبلت التشريعات الكثيرة التى وضعها ، وأغلبها متسم بالطابع الاقتصادى والمالى والإدارى. وقد حاك لمصر حكومة بيروقراطية منسقة أحسن تنسيق حتى أصبحت هذه الحكومة المركزية مضرب الأمثال فى العالم الهيللينستى. على أنه بعد ذلك بقليل ظهرت بوادر اليقظة أو الصحوة من جانب الشعب المصرى وبانت أمارات حركات دالة على رد الفعل ، وظهر ذلك بشكل جلى فى التسليم والاستجابة للميول الشعبية وللمشاعر المصرية فى أكثر من اتجاه ، فمثلا فى موضوع العملة كان "بطلميوس" قد أقام نظام عملته طبقا للطريقة اليونانية المألوفة وذلك على قاعدة الفضة مع اعتبار

معدن الذهب معيارا بالنسبة للفئات ذات القيمة العالية والنحاس كأداة لعملة مساعدة ، ولكن التجار المصريين كانوا قد ألفوا حساب أثمان الأشياء عند تصريف بضائعهم بالنحاس فكان أمرا طبيعيا أن يعترضوا على إدخال معدن غريب عليهم كوسيلة للتعامل ، وعلى ذلك منذ عام ٢٧٠ ق.م رؤى في عهد "بطلميوس فيلادلفوس" إعادة تنظيم الأسلوب المتبع وأصبح العنصر الأساسي في العملة يتألف من النحاس وذلك إرضاءا للمصريين واستجابة لمطالبهم ، ولم يعد النحاس يعتبر عملات صغيرة كما كان مألوفا في التداول عند المدن اليونانية ، بل أصبح قطعا كبيرة ضخمة معيارها فيما يبدو على صورة سبيكة. ويقول العالم الروسي "رستوفتزف" في كتابه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العالم الهيللينستي طبعة ١٩٤١ ص ٤٠٠ (هامش ١٤١٦) ، إنه في النصف الثاني من عصر فيلادلفوس كانت العملات النحاسية الضخمة وقد رسمت على وجوهها رؤوس الآلهة المصرية تسك في مصر ، وهي لم تعد تتداول كعملات رمزية وإنما أصبحت قطعا من العملة المعتادة مما يقبله الناس حسب قيمتها المعدنية الحقيقية. وكانت هذه المرحلة أولى الخطوات في عملية كان من شأنها أن تؤدي خلال بضع سنوات أخرى إلى الاعتراف بالنحاس كمعيار للعملة المستعملة في داخل البلاد والمعترف بها في دار "السكة" بالإسكندرية ، وذلك في وقت أصبح فيه استعمال الفضة يأتي في المقام الثاني. وإنه لمن الجدير بالذكر أن ننوه بأن وجه العملة في هذه القطع النحاسية الكبيرة الحجم ، كان مرسوما عليه رأس إله له من الخصائص ما يشبه إلى حد كبير إلها محليا هو أقرب ما يكون إلى آمون ، الإله المصري العتيد ، بينما جاءت أنواع العملة التي كانت مستعملة من قبل وهي تحمل صورة رأس الإسكندر "ذي القرنين" "وبطلميوس" أو الإله اليوناني الكبير رب الآلهة على جبل أوليمبوس وهو "زيوس" (Zeus).

ومن الأدلة على يقظة العناصر الوطنية والشعور القومي ما نجده في تلك الأعداد الضخمة من أناس ملقبين بأسماء مصرية صميمة ، وقد جاء ذكرهم على أنهم يشغلون مراكز رسمية ويتولون مناصب مهمة في خلال القرن الثالث وفي الحقبة الأخيرة منه بالذات (أي قبيل معركة رفح في عام ٢١٧ ق.م ثم ما بعدها). وقد يرد على ذلك بالقول بأن هذا إنما يدل فقط على أن المصريين أخذوا يستغلون

تعليمهم اليونانى وذلك بالانضوا، فى سلك الخدمة الحكومية عن طريق التوظف أو شغل المناصب الأخرى ذات الأهمية والجاه والنفوذ العريض. ولكن هناك مقياس آخر نستدل منه على مبلغ ما جلبوه معهم من أفكار مصرية صميمة وأدخلوه فى عملهم من روح قومية واعتداد بالشخصية المصرية. ولعلنا نستطيع تبين هذا بشكل جلى من عمل مقارنة بين نقشين عظيمين مشهورين فى تاريخ البطالمة ، دبجت كلا منهما هيئة دينية من الكهنة المصرية خلال فترة تتراوح بين أقل من خمسين عاما تفصل أحد النقشين عن الآخر ، والنقش الأول يرجع تاريخه إلى عام ٢٣٧ ق.م فى حكم الملك "بطلميوس" الثالث الملقب "يورجتيس" الأول ، وهذا النقش معروف باسم قرار "كانوبوس" ، وقد صدر فى هذه الضاحية ومحلها الآن "أبوقير" بظاهر الإسكندرية ، والمتصفح لهذا النقش الذى خرج به الكهنة المصريون بعد اجتماعهم على شكل مؤتمر عام أو مجمع دينى ، يجد أن هذا القرار روعى فى صياغته أن يجئ على نسق متفق مع أى قرار يونانى من حيث المنهاج والأسلوب والديباجة ، وأن الأصل فيه هو النص اليونانى. وعن هذا الأصل ترجم النص الهيروغليفى وكتب كذلك بالخط الديموطيقى وعلى ذلك يمكن أن نقول إن الروح اليونانية هى الغالبة. والحال بالمثل فى نقش مسطر على حجر مماثل من عهد "بطلميوس" الثانى ويعرف هذا النقش بحجر "منديس" تخليدا لذكرى زيارة هذا الملك إلى "منديس" فى شرقى الدلتا ، وكان كذلك مصاغا باللغة اليونانية واللغة الهيروغليفية والخط الديموطيقى وهو من باب أولى باعتباره أقدم من حجر "كانوب" كان الأصل فيه اللغة اليونانية. ولكن هذا الحال تبدل فى الحجر الذى سطر فى عهد "بطلميوس" الخامس وعرف بحجر رشيد ، وقد صدر فى عام ١٩٦ ق.م وفيه تجلت حالة من الردة أو العودة إلى الصيغ المصرية الصميمة واتباع الأسلوب المصرى. فهو إذا نقش أكثر مصرية من النقش الأول ، ومع أنه فى جميع هذه الحالات ورد نص باللغة اليونانية ، ولكن شتان بين هذا وذاك فبينما فى نقش "كانوبوس" كانت اللغة اليونانية هى الأصل وعنها نقلت الصيغة المصرية إذا بنا فى حالة حجر "رشيد" جاءت الصيغة المصرية هى الأصل ، أما الصيغة اليونانية فماهى إلا ترجمة عن الأصل المصرى. وأى فقيه له دراية بقواعد اللغة واهتمام بالنواحى الفيلولوجية وعلم اشتقاق الكلمات وأساليب صياغتها يستطيع

التعرف على كنه ذلك وتمحيص هذه الفكرة بعمل دراسات مقارنة ذات طابع لغوى بحت.

وهنا حدث آخر مهم نوهت عنه جميع الكتب التى عرضت لتاريخ الأسرة البطلمية لما له من أهمية بالغة فى التدليل على ظهور روح القومية المصرية بصورة سافرة وبشكل بارز ، ذلك أنه عندما تعرض "بطلميوس" الرابع (الملقب "فيلوباتور") لغزوة من الشام شنها عليه "أنطيوخوس" الثالث فى الفترة مابين عامى ٢١٩ ، ٢١٨-٢١٧ ق.م كان الملك البطلمى يماطل فى المفاوضة حتى أعد العدة بتوجيه من وزيره اليونانى المسمى "سوسيبيوس" فكون فرقة مصرية صميمة دربها على نظام الفيلق اليونانى ، وكانت تضم عناصر مصرية خالصة. فلما خاضت المعركة أثبتت جدارتها وأبلت بلاءا حسنا فى معركة رفح فى يوم مشهود فى تاريخ الأمة المصرية هو الثانى بعد العشرين من شهر يونية عام ٢١٧ ق.م ، وفيه تم النصر للقوات المصرية على جيش "أنطيوخوس" الثالث ، وكان للمصريين دور هام فى هزيمة السوريين وردهم على أعقابهم. وقد وصف لنا المؤرخ اليونانى "بوليبيوس" الأحداث التى جرت وفصل لنا الاستراتيجية التى اتبعها الفريقان المتقاتلان ودور الفيلق المصرى فى كسب هذا النصر المؤزر. وعقب هذا النصر شعر المصريون بكرامتهم وأصبحوا يعتدون بشخصيتهم بعد أن تبين أنهم أصحاب فضل فى توطيد العرش البطلمى بعد أن كان هذا العرش قد أهتز تحت أقدام الملك "بطلميوس" الرابع. وهكذا كانت نتائج معركة رفح بعيدة المدى بالنسبة للمصريين، وقد قامت ثورات مصرية واضطرابات فى شتى أنحاء البلاد عقب هذا النصر ، وأخذ المصريون يطالبون بثمن غالى لهذا النصر وكانوا قد عقدوا العزم على استرداد كرامتهم المهدرة وكسب الحقوق المهضومة. ولذلك اعتبرت معركة رفح نقطة تحول هام ومنعطفا خطيرا فى تاريخ الدولة البطلمية ، وقد تلى هذا سلسلة من الترضيات والتسويات المنطوية على تعطف وتسامح (Philanthropa) قوامها الأخذ بيد المصريين ورد بعض الحقوق إليهم. ولعل المرسوم الذى انهيت به الحرب الأهلية التى نشبت بين "بطلميوس" الثامن (يورجيتيس الثانى) وبين زوجته الأولى "كليوباترة" الثانية سنة ١١٨ ق.م جاء شاملا لعدة نقاط وفيه تسوية لكثير من الأوضاع وإرضاء لجميع الأطراف من قبيل تهدئة الخواطر.

أما عصر "كليوباترة" السابعة (٥١-٣٠ ق.م) ففيه أكثر من مؤشر يدل على الأخذ بيد المصريين وفيه ما يدل على أن هذه الملكة كانت تحظى بالتأييد من جانب العناصر المصرية ، وأن هذه الملكة كانت فى نظر الشعب المصرى تعتبر بطلة وأنه كان مستعدا للمضى فى تأييدها إلى أبعد شوط باعتبارها ملكة مصرية يكن لها الحب والتقدير ، ولكن الظروف الخارجية لم تكن مواتية وخارت قوى زوجها الرومانى "ماركوس أنطونيوس" فى معركة شنها فى مرسى مطروح ضد القائد "كورنيليوس جاللوس" الذى كان يعمل لحساب "أكتافيوس". ثم هزم "أنطونيوس" مرة أخرى فى "نيقوبوليس" بظاهر الإسكندرية أمام قوات "أكتافيوس" فى شهر أغسطس من عام ٣٠ ق.م ، وبذلك أسدل الستار على ملك البطالمة بعد أغسطس من عام ٣٠ ق.م وانتحار كل من "أنطونيوس" و"كليوباترة" على التوالى ، وبدأ عصر جديد هو الحكم الرومانى فى مصر. وقد جاء هذا الحكم متهاديا وعلى مهل وتغيرت فيه جميع الأوضاع والأهداف بطريقة جوهرية. فالسياسة البطلمية التوسعية قد ألقى بها فى مهب الريح بل وضرب بها عرض الحائط ولم يعد هناك مجال على الإطلاق لأى تدخل من جانب مصر فى معترك السياسة الأوربية ولا فى دائرة الحضارة الأوروبية ، وأصبح محكوما على مصر أن تنأى بجانبها بعيدة عن هذه الدائرة الممتازة ، وكان القصد الوحيد الذى كان "أكتافيوس" يهدف إلى تحقيقه والذى عمل خلفاؤه من بعده على النهج على منواله هو العمل على استغلال موارد البلاد باعتبار أن مصر مصدر إيراد ضخم وتمثل خيراتها مادة دسمة أو بالأحرى على حد قولهم اعتبار مصر كالبقرة الحلوب التى لا ينبغى أن يجف لبنها أبدا وذلك لصالح روما.

الباب الثانى

عصر الجذر

الفصل الأول

نشـأة "كليوباترة"

تمهيد :

خلّدت هذه الملكة اسمها فـى سجل التـاريخ ، وطبّـق صيتـها آفـاق المشـرق والمغرب فى العالمين القديم والحديث ، وانبرى المؤرخون والمصنفون فى كل العصور لهذه الملكة بالذات ، يتناولون القصص المحيطة بسيرتها بالسرد والتفنيد ، ويعرضـون لأعمالها وأحوالها فى شئ كثير من الإسهاب والتفصيل. وقـد انحـاز البعـض منـهم ضدها جرياً على سياسة تقليدية ، استنّها لهم ساسة الرومـان وكتّابـهم فـى العصـر الأغسطى ، فأنحوا باللائمة على هذه الملكـة ، ورموهـا بـأفحش القـول والتبـذل ، وأسخنوها بالتجريح ، ونسبوا إليها شيئاً كثيراً من الشرور والآثام. وقد سرد المـؤرخ "بلوتارخوس" جانباً من حياتها ، لعله من أبهج الصفحات التى أنبهر لهـا العـالم ، وجاء وصفه لذلك الجانب ضمن حديثه عن حياة بطـل رومـانى وقـائد كبـير هـو "ماركوس أنطونيوس". ثم جرى الكتّاب وراء "بلوتارخوس" ، وأخـذوا يـرددون مـا رواه من قصص ونوادر ساقها عـن حيـاة هـذه الملكـة ، فكـان الشـاعر الإنجليـزى "شكسبير" من السباقين إلى ترديد لمحات من حياتها مـع "يوليـوس قيصـر" ، فلـم يخرج فى الصورة التى أبدعها من ثنايا حياة هذه الملكـة عـن التقليـد المرعـى فـى تصوير هذه الملكة بالفاتنة ، وتجريحها بأنها سـخّرت جسـدها فـى تحقيـق مآربـها ، وأفرطت فى انتهاج هذا السبيل ، ثم جاء الكاتب الروائى "برنارد شو" فـى روايتـه التى أخرجها عن "قيصر" و"كليوباترة" ، فأنكر أن "كليوباترة" أوتيت قسطاً عاليـاً من التعليم ، وتصورها فى صورة المرأة اللعوب ، وأنها قريبة الشبه بالقطيطـة. وإنـه ليحق بالطبع لأمثال هؤلاء الكتاب الروائيين من طـراز "برنـارد شـو" وهـم الذيـن عرفوا بأسلوبهم التهكمي الـــلاذع أن يُصـوّروا شخصياتهـم علـى النحـو الـذى يـروق لهم ، وأن يسبغوا على هذه الشخصيات التاريخية أو الخيالية مـا يرونـه مـن الصفات. ولكن الأمر الذى لا شك فيـه أن الصـورة التـى ابتدعـها "برنـارد شـو" ليخرج فيها "كليوباترة" جاءت غير مطابقة للحقيقة ، وليس لها سند مـن الواقـع ،

بل إن الأمر على عكس ذلك، فالظروف التى أحاطت بهذه الشخصية الملكية وضعتها منذ نعومة أظفارها فى مهب الريح ، وكان عليها أن تواجه تجارب قاسية ، إذ تفتحت عينها عقب سن الرضاع مباشرة على فكرة مشوبة بشئ كثير من الغموض ، عن قسوة قلوب الرومان ، وغلظة أكبادهم ووحشيتهم. وإن ما أتته هذه الملكة فى شتى مراحل حياتها من ضروب الشجاعة والبسالة فى ميادين السياسة والقتال لينهض دليلاً على نقض الرأى المتواتر فى كتابات أولئك القصّاصين والروائيين ، الذين تركوا العنان لخيالهم يسبح، وركبوا فى ذلك متن الشطط.

والد "كليوباترة" :

وفى صدر حياة هذه الملكة ، كان والدها "بطلميوس" الثانى عشر وكنيته "أوليتيس" أى الزمار يمثل صورة هزيلة من ملوك البطالمة الضعاف ، يُلاحق قواد الرومان وساستهم بمطالبه الفجة ، ويرتمى على أعتابهم كسباً للتأييد والاعتراف به ، وطلباً لتثبيته على عرش مصر ، وكانت الأحداث الجسام تجرى وتتزاحم وقائعها فى محيط العالم الرومانى ، فالجيوش إثر الجيوش يُسيرها قواد الرومان بعضهم ضد البعض ، تارة لإشباع أغراض ومآرب شخصية ، وتارة أخرى بدعوى أنهم انبروا لنصرة الجمهورية الرومانية ، وهى على شفا جرف هار وفى دور الاحتضار ، فكانت هذه الجيوش تجتاح بلاد الشرق أو الغرب. وكانت روما تعمل جاهدة منذ أمد بعيد على التدخل فى شئون مصر ، وتنصب الشباك لمختلف دول الشرق عامة، وتتربص بها الدوائر ، وتقف لمصر بصفة خاصة بالمرصاد. ومن أجل هذا توالت الوفود والبعثات الرومانية على وادى النيل ، وكان لملك مصر بدوره مندوبون ، يسعون لدى روما لكسب ودها وعطفها واتقاء شرها، بل إن والد "كليوباترة" تغالى فى هذا السبيل فأراق ماء وجهه ، وبقى نحو عشرين سنة واقفاً على الأعتاب ، يسعى لأن تعترف به روما ملكاً على مصر ، ويسبغ عليه مجلس شيوخها العتيد لقباً فخرياً كان محل زهوه واعتزازه ، فأصبح بذلك هو الصديق والحليف للشعب الرومانى ، وكان فى تحقيق هذه الأمنية القضاء على نفر من المدعين لعرش مصر. ويرجع الفضل فى نيله أمنيته هذه إلى "يوليوس قيصر" الذى تقدم باقتراحه هذا سنة ٥٩ ق.م عندما كان متولياً منصباً مرموقاً هو القنصلية ،

بعد أن قبض رشوة باهظة من الملك تبلغ ستة آلاف من التالنتات (والتالنتوم الواحد كان يساوى إذ ذاك نحو ٢٤٠ جنيها).

وما كانت حياة هذا الملك فى مصر بمستقرة على الإطلاق ، بل إن شعب الإسكندرية طرده من البلاد أكثر من مرة ، لأنه كان يضيق بتصرفاته وتهتكه بوصفه الإله "ديونيسوس" الجديد، وبما كان يفرضه على كاهل الناس من أعباء مالية، اشتط فى جمعها. ونظراً لتقصيره فى مساندة أخيه الذى كان حاكماً على قبرص عندما طمعت روما فى ضم هذه الجزيرة إليها ، ونظراً لما ألحقه بمصر من مهانة لسيره فى ركب الرومان واعتماده على زعمائهم فى الحظوة بالتأييد ، أعلن عليه شعب الإسكندرية العصيان العام ، وطرده سنة ٥٨ ق.م ، ففر إلى روما حيث نزل فى ضيافة "بمبى" أحد الشخصيات الكبرى فى روما إذ ذاك. وقد استدان كثيراً، وأسرف فى تقديم الرشاوى من قبيل السعى إلى كسب التأييد لشخصه ، ورده إلى عرشه وعندئذ تبارى القواد الثلاثة : "بمبى" "وقيصر" "وكراسوس" فى التسابق على أن يكون لأحدهم الفضل ، إما بالذات أو بالواسطة فى إعادة هذا الملك ، ورده إلى عرشه المسلوب ، ولكن مجلس الشيوخ الروماني كان متردداً ، فامتنع عن الموافقة على استخدام القوة فى تحقيق ذلك ، متذرعا بأسباب دينية مستقاه من الكتب السبلينية ، وبقى الوضع على حاله حتى كانت سنة ٥٥ ق.م ، عندما أوحى "بمبى" إلى أحد صنائعه وهو "أولوس جابيذيوس" (Aulus Gabinius) حاكم الشام بتبنى هذا المشروع الشائك ، ووعد "بطلميوس أوليتيس" بدفع مبلغ باهظ قدره عشرة آلاف تالنتوم "لجابينيوس" فى نظير هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر. وعلى الرغم مما كان يحظى به هذا الوالى الرومانى من تأييد "بمبى" له فإنه تقاعس وسوّف خوفاً من الزج بنفسه فى مغامرة عسكرية فى الطريق الصحراوى إلى مصر ، وخشية أن تواجهه بعض الصعاب أمام الفرما ، ولكن قائد الفرسان لدى "جابينيوس" وهو شاب كان لا يزال فى مقتبل العمر اسمه "ماركوس أنطونيوس" انبرى للإقدام على كشف الطريق ، وتبعه الجيش ، واستسلمت الفرما، ودخل "جابينيوس" الإسكندرية وفى صحبته الملك "بطلميوس أوليتيس" وبذلك ردّ الملك إلى عرشه ، وترك حامية رومانية لنصرته، ومضى الملك فى إشباع شهوة

الانتقام من خصومه والتنكيل بهم. وكانت ابنته "برنيقة" فى مقدمة الضحايا نظراً لأنها قبلت من السكندريين عن طيب خاطر أن تُنَصَّب على عرش مصر فى غيبة أبيها ، ولقيت "برنيقة" هذا المصير الأليم أمام أعين أختها "كليوباترة" البالغة من العمر إذ ذاك الرابعة عشرة. وبذلك أفسحت "برنيقة" السبيل ل"كليوباترة" التى ضمنت أن يكون مآل العرش إليها. وقيل فيما بعد إنه فى هذه المرحلة وقع بصر "ماركوس أنطونيوس" وهو فى الإسكندرية على تلك الأميرة الشابة ، وأنها بهرته واستهوته وهى لا تزال فى مطلع شبابها.

ولا بد أن الذعر قد تملكها ، واستولت عليها المخاوف فى السنين القلائل الأخيرة من حياة أبيها ، وهى تشهد رجال المال من الرومان وقد ضيّقوا عليه الخناق لاسترداد جميع ما أقرضه منهم فى سنى محنته ، فعمد إلى تعيين أكبر دائنيه وهو رومانى يسمى "رابيريوس" (Rabirius) فى وظيفة رفيعة هى وزير مالية البلاد المصرية وهى المسماه "ديويكتيس" (Dioecetes). واستطاع هذا الرومانى أن ينهب البلاد حتى ضاق الناس به ذرعاً ، وقامت حركات عصيانية ضده ، واختل الأمن وأخذ الفلاحون يهددون بعدم الوفاء بما عليهم من التزامات قِبَل الدولة. وخشية أن يفتك الغوغاء بوزير المالية الرومانى زج به الملك فى السجن ، ثم ما لبث أن دبر أمر إنقاذه وتهريبه إلى روما. وكانت خاتمة أعمال هذا الملك أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل ضمان العرش لكبرى بناته وهى "كليوباترة" ، وكانت تبلغ إذ ذاك من العمر نحو الثامنة عشرة ، على أن تشترك مع أخيها الصغير "بطلميوس" الثالث عشر ، وكان له من العمر إذ ذاك نحو عشر سنوات. فكتب وصية بهذا المعنى واحتفظ بصورة منها فى الإسكندرية ، وبعث بأخرى إلى روما ، وفيها أشهد الشعب الرومانى وقادته على أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة الملكية ، فلما توفى فى ربيع ٥١ ق.م كان عرشه الذى تركه لابنيه غير مستقر ، وبقى على هذين الوريثين أن يثبتا للعالم كيف يستطيعان الاحتفاظ بهذا الملك الذى أصبح فى مهب الريح ، تعصف به الأهواء من ناحية ، وتطمع فيه روما ، ويسيل له لعاب قادة الرومان من ناحية أخرى.

"كليوباترة" تتربع على عرش مصر :

إن تاريخ حكم هذه الملكة لملئ بالأحداث الجسام ، بعضها من طابع محلى بحت ، وأغلبها مرتبط بتاريخ العالم الرومانى وما كان يجرى بين قواده من كفاح من أجل الغلبة والسيطرة. وفى طيات تاريخ هذه الملكة يتجلى ما كان يبدو عليها من أحاسيس وانفعالات، وما كان يُسلط عليها من أضواء ساطعة بين حين وآخر ، فتارة تظهر فى الفرما ثم فى الإسكندرية وتارة أخرى فى تارسوس بآسيا الصغرى ثم فى بلاد الشام ، وفى آخر المطاف فى إبيروس ببلاد اليونان عند ساحل أكتيوم ، وهى فى كل ذلك قد اتخذت من الإسكندرية مقرها الدائم ، تدبر فيه من أمرها ما وسعها التدبير ، وتتولى بنفسها شئون الحكم ، وتنظم خططها وتستقبل السفراء من الرومان وغيرهم ، وتبعث بأخصائها والمقربين إليها إلى روما وبلاد الشرق لترقب ما يجرى من أحداث جسام على مسرحها. وعلى ذلك تعددت ميادين نشاطها السياسى بقدر اتساع أفقها ومآربها السياسية. وإن عرضاً وافياً لسجل كل هذه الأحداث ليتطلب منا أن نفرد له أسفاراً عديدة ، حتى يمكن أن نسلط بعض الأضواء الساطعة على كل ما كان يساق من أقوال ، تبارى الكتاب والأدباء القدامى فى سردها ، ونحا نحوهم بعض الكتاب المحدثين ، ومن هؤلاء من تجنى على مسلك هذه الملكة من قبيل المبالغة وتشويه السمعة ، والإمعان فى إرضاء الإمبراطور الرومانى الأول ، "اكتافيوس أغسطس" ، خصم "كليوباترة" اللدود.

وقد صمدت الملكة لما كان يحاك ضدها من دسائس فى محيط البلاط السكندرى فى أول عهد حكمها ، وعقب وفاة والدها مباشرة ، فجمعت إذ ذاك جيشاً على الحدود الشرقية من مصر ، واجهت به قوات أخيها وشريكها فى الملك. على أنها وقفت موقفاً أقسى وأشد من هذا عندما أعلن عليها "اكتافيوس" الحرب ، وتكتل وراءه العالم الغربى باعتباره بطلعه الذى يريد الانتقام من تلك الملكة الشرقية ، ولكنها فى كل هذه المواقف الحاسمة والأحداث الجسام لم تَلِن لها قناة ، ولم يتسرب إلى قلبها الخوف أو الوَجَل. وإنما كانت تظهر من المواهب والقدرات ما كان فيه خلاصها ، وإنقاذها من شتى المآزق، وقد انبهر الكتاب والمؤرخون بما أوتيته من فطنة وذكاء ، كان يجنباها الكثير من مواطن الزلل ، ويجعلانها تكسب

إلى جانبها فى براعة منقطعة النظير تأييد أكثر من قائد رومانى ، فكان الدكتاتور الرومانى العظيم "يوليوس قيصر" أول هؤلاء ، اتخذت منه أداة لتحقيق مآربها ، وتثبيت أركان عرشها بقوات الجيش الرومانى وعُدته ، فأبقى بعض الفرق الرومانية بالإسكندرية لتكون حامية ومؤيدة للملكة ، ترد بها كيد الأعداء عنها فى الداخل، ثم كان ما هو أدهى وأمر بأن أوحت إليه بكثير من الأفكار الملكية الهللنستية وطرازها المطبق فى مصر ، والمنطوى على حكومة بيروقراطية - مركزية - تسير فى يُسر وسهولة. ثم جاء من بعده خلفه "ماركوس أنطوانيوس" ، فارتمى فى أحضانها ومضى فى نصرتها وتأييدها بعد أن كان قد بعث فى طلبها لتمثل بين يديه فى تارسوس بآسيا الصغرى ، وتجيب عن تهمة التقصير فى المساهمة فى الحرب التى شنّها هو و"اكتافيوس" ضد قتلة قيصر من الجمهوريين ، لتأديبهم على فعلتهم الشنعاء. وهكذا ينهج "أنطونيوس" نهجاً فريداً ، فكان فى حبه عنيفاً ، وفى إخلاصه متفانياً حتى أصبح مضرب الأمثال للناس فى التفانى والمغالاة فى الحب والتضحية بالنفس من أجل حبيبته "كليوباترة".

ومن هذا العرض السريع يتبن مبلغ الصعوبة فى تفهم تاريخ حياة هذه الملكة على حقيقته ، لما فيه من تداخل وازدواج ، فجانب منه من صميم التاريخ المصرى فى إحدى حقبه الحاسمة ، ولكن الجانب الأكبر منه متغلغل فى آفاق أكثر اتساعاً ويُمثل مرحلة هامة من تاريخ الجمهورية الرومانية نفسها ، وبالطبع كان لكل جانب منهما ظروفه وملابساته، وما أكثر التداخل بين الجانبين وما أشد تشابك المصالح بين الطرفين ، فالسياسة المصرية فى ذلك الحين كانت فى الحق تدور فى الفلك الرومانى الذى كانت له دخائله ومصالحه البعيدة المرمى ، فقواد الرومان وأساطين ساستهم لم يتركوا مصر وشأنها ،بل أدخلوها فى حسابهم وعوّلوا على كنوزها وخيراتها فى برامجهم السياسية ، والملكة بدورها ورثت عن أبيها تقليداً مرعياً ، كان يقضى بالانحياز إلى الرومان والاعتماد على جانبهم فى التأييد الداخلى والخارجى ، ثم إن أباها كان قد كشف لها وهى لا تزال فى مطلع حياتها عن كنه هذه السياسة ، وأطلعها على مضمونها ، فهل كان فى وسعها أن تتبع سياسة استقلالية ، وأن تحافظ على هذا الاستقلال بمواردها الخاصة ؟ أم أن ظروف الحال كانت تقضى عليها بأن ترتبط أشد ارتباط بزمرة من هؤلاء القواد الرومان

اللاعبين؟ إنها رأت رأى العيان أن مقاليد العالم فى أيديهم وأنه لا مناص لمصر من أن تصانعهم وتسير فى ركبهم ولو إلى حين ، وعلى هذا النحو تغلغلت أطوار حياتها فى خضم تلك السياسة العالمية ، وعاصرت حقبة من التاريخ الرومانى كانت حاسمة فى تقرير مصير الجمهورية الرومانية (Res Publica) ، وهى التى تَعب الرومان نحو خمسة قرون فى تكوينها ، وإرساء قواعدها ونظمها الفريدة والمحافظة على كيانها ، وتوسيع رقعة أملاكها فى حوض البحر المتوسط حتى أصبحت تضم كل بلاد العالم المتحضر إذ ذاك ، والمطلة على حوض هذا البحر ، ثم كانت فعّالة بالتالى فى تقرير مصير مصر ، وإنهاء صفحة مجيدة من تاريخها على نحو فريد أخذ بالألباب وشغاف القلوب. و"كليوباترة" منذ توليها العرش سنة ٥١ ق.م إلى أن انتحرت بطريقة روائية فى آخر أغسطس من سنة ٣٠ فى قصر اعتصمت به فى زمام الإسكندرية كانت تجلس على عرش متأرجح فى خضم أحداث جسام طوال هذه العشرين عاماً التى قضتها ، مؤيدة بجند الرومان ، وما كان فى مُكنتُها بوصفها امرأة لها قصورها الطبيعى ، أن تسلك سبيلاً غير الذى فعلته ، وأن تؤثر اتباع سياسة استقلالية بدلاً من الاعتماد على عظماء الرومان وقادتهم فى تأييد حكمها وتثبيت عرشها.

وعقب وفاة "بطلميوس أوليتي" عام ٥١ ق.م تربعت "كليوباترة" بالاشتراك مع أخيها الصغير على عرش مصر ، فكان حكماً ثنائياً غير متكافئ ، اكتنفته الظروف والصعاب على نحو غير مألوف فأخوها "بطلميوس" شاب يافع فى العاشرة من عمره وأخته تكبره ، إذ كانت تبلغ إذ ذاك ثمانية عشر عاماً. وما كانت العلاقات بين هذين الأخوين ليسودها الوئام والود، والبلاط المحيط بهما فاسد ، تغشاه شخصيات متباينة متآمرة ، فمن خِصيان إلى قواد على قوات من الجند المرتزقة ، إلى كهنة ووزراء ، وكل يعمل لحسابه الخاص. والملك باعتباره قاصراً كان يحيط به ثالوث من الأوصياء ، يتألف من الخصى "بوثينوس" الذى وُكل إليه أمر الإدارة العامة وبخاصة الشئون المالية ، ومن "أخيلاس" المتولى قيادة القوات المسلحة، ثم من "ثيودوتس" وهو من أهل "ساموس" ، وكان يُمثل رائد الملك والمشرف على تربيته وتثقيفه. وسوف نرى ما تتمخض عنه ظروف هذا الحال ، وهل كان فى وسع تلك الملكة الشابة أن تقبل الخضوع لحكم هذا الثالوث وبَغيه ؟ أم تتبع

سياسة استقلالية ؟ تتخذها منهجاً لنفسها. وفى خلال السنين الثلاث التالية أصبح لا مناص من الإجابة على هذا السؤال بطريقة لا تقبل الشك ، فطردت "كليوباترة" من البلاد فى السنة الرابعة من حكمها ، مثلها فى ذلك مثل أبيها من قبل ، ولكنها لم تستسلم ، بل جمعت جيشاً مرتزقاً بما توفر لديها من أموال ، ووقفت فى سنة ٤٨ ق.م بالقرب من الفرما على رأس هذا الجيش على حدود مصر وسوريا ، على أهبة واستعداد للدفاع عن حقوقها وتسوية الحساب مع أخيها وبطانته الفاسدة فى ميدان القتال. ثم إن إرادتها التى لم تكن تفل ، وشكيمتها التى لا تنثنى ، ورغبتها فى أن تثبت وجودها - كل ذلك كان قد بدا ظاهراً للعيان منذ أول الأمر على نحو جعل هذا الثالوث من رجال البلاط ، يخشى بأسها ، ويعمل على التخلص منها فوجهت إلى الملكة تهمة العمل على تدبير أمر الخلاص من أخيها وشريكها فى الملك ، وكان جزاؤها الطرد ، ولكنها حرصت على أن تبقى ملكة (Basilissa) على مصر وعملت على الاحتفاظ بملكها وأبهته مهما كلفها ذلك. وكان أخوها الملك الشاب على رأس جيش عظيم جمعه ليحارب به أخته "كليوباترة" التى كان معسكرها على مسافة قصيرة من معسكره.

وصادف فى ذلك الحين أن كان "بمبى" يحارب "يوليوس قيصر" والتقى القائدان فى موقعة "فرساليا" ببلاد اليونان سنة ٤٨ ق.م حيث لحقت الهزيمة بالأول وولى وجهه شطر مصر آملاً فى أن يجد فيها الملاذ ، وساعياً وراء الحصول على مساعدة تكون بمثابة رد للجميل الذى كان قد أسداه للملك "بطلميوس أوليتيس" من قبل ، عندما ساهم فى رده إلى عرشه ، ولكن خاب ظن "بمبى". وفى هذا الصدد يسرد لنا المؤرخ اللاتينى "ليفى" والكاتب اليونانى "بلوتارخوس" بأسلوبه القصصى وبطريقة مؤثرة تلك الفاجعة الأليمة التى حلت على "بمبى" عندما رسا على شاطئ الفرما فى قارب صغير إذ قتلته يد أثيمة بإيعاز من رجال الحاشية المسيطرين على الملك ، طمعاً فى كسب رضاء "قيصر" الذى كان يتعقب أثر غريمه "بمبى" حتى ساقتهما المقادير إلى مصر. وبحسب ما جاء فى "بلوتارخوس" لم يسع "قيصر" عندما شاهد خاتم "بمبى" ، وتعرف على نقش الأسد المحفور على هذا الخاتم، إلا أن يذرف دمعاً هتوناً على غريمه الذى خر فى ميدان الخديعة والخيانة.

وبُعد ذلك واجه قيصر الوضع الراهن في مصر بشجاعة ، وقبض على ناصية الأمور فيها ، وبذل جُل اهتمامه في تصريف شئون البلاد[1].

(١) قيصر ، الحرب الأهلية (Bellum Civile) ، فصل ١٠٧.

"كليوباترة" و"يوليوس قيصر" :

فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة "كليوباترة" ، اعتملت فى رأسها شتى المشاعر ، فهى امرأة فى مقتبل العمر ، أوتيت قسطاً لا بأس به من الجمال ، على الرغم من أنفها الطويل المحدودب وفمها الكبير ، وفوق ذلك فإنها كانت على قدر كبير من الذكاء والجاذبية والمعرفة بحسن استغلال الظروف السانحة. إنها كانت تعرف الشئ الكثير عن "قيصر" الذى كان يبلغ من العمر إذ ذاك اثنين وخمسين سنة، ولا ريب أنها سمعت عن غرامياته ومغامراته ، وميله إلى النساء ، كما سمعت عما أظهره من مقدرة فائقة فى أعمال السياسة وشئون القتال ، وما كسبه من انتصارات باهرة. ومع أن هذا القائد الرومانى كانت تتوّج هامته كل هذا الانتصارات ، وغزواته لقلوب كثير من النساء ربما أثارت عجب امرأة شابة مثل "كليوباترة" ، فإنه قبل كل شئ رومانى بالنسبة لها ، بينما هى سليلة بيت مقدونى مجيد ، ويجرى فى عُروقها دم ملكى إلهى.

جالت بخاطرها مثل تلك الأفكار ، وأخذت تداعب خيالها آمال كبار ، ولكنها لم تنس أبداً فى تصرفاتها معه الاحتفاظ بهيبتها وسمو مركزها. وهاهى الأقدار وحدها قد ساقت هذا البطل الرومانى العظيم إلى مصر ، وألقت به فى طريق "كليوباترة" ، وهى إذ ذاك فى محنة قاسية تقود جيشاً وهى امرأة ، لا حَوْل لها ولا طول ضد أخيها وشريكها فى الملك وبطانة السوء المحيطة به. فماذا يضيرها أن تجد الخلاص من أزمتها التى ألمّت بها على يد "قيصر" ؟ إنها دبرت أمرها ، وأحكمت خطتها ، وأغنانا "بلوتارخوس" "وديوكاسيوس" بأن رويا لنا قصة فرارها على نحو روائى من المعسكر الخاص بها فى الفرما إلى الإسكندرية ، فركبت قارباً صغيراً فى ظلام الليل الدامس متسللة دون أن يلحظها أحد من حرس خصومها ، وفى صحبتها رجل صقلى كان محل ثقتها وهو "أبوللودورس" ، ورست فى ميناء الإسكندرية الكبير ، وحُملت إلى القصر الملكى فى طيات بساط أحكم رفيقها لفاته ونشرت هذه الطيات أمام قيصر ، فخرجت منها الملكة التى كانت تبلغ من العمر إذ ذاك الواحد والعشرين ، ومثلت أمام "قيصر" المشدوه فبهرته فى الحال ، واستهوته بجرأتها وجسارتها.

وكان المعاصرون "لكليوباترة" يعرفون جيداً أن قوة جاذبيتها هى فى مواهبها العقلية ، وطباعها ودماثة خُلقها. وفى حين أن أحداً من أسلافها من ملوك البطالمة وملكاتهم لم يستطع أن يقنع نفسه بضرورة تعلم اللغة المصرية بل إن البعض منهم أهمل كذلك اللهجة المقدونية نفسها ، فإن "كليوباترة" أوتيت ملكة وموهبة مرموقة فى هذا الشأن فتعلمت الكثير من اللغات الأجنبية ، وبالإضافة إلى اللغة المصرية ، واللهجة المقدونية ، واللغة اليونانية. كانت تعرف لغة الأثيوبيين والعرب والتروجليديين ، فضلاً عن لغات شعوب آسيا الغربية بما فى ذلك السريانية والميدية والآرامية ، واستطاعت بفضل هذه المقدرة اللغوية أن تستغنى عن المترجمين، وأن تجرى أحاديثها وسبل تخاطبها فى يُسر وسهولة ، فكانت تنتقل من لغة لأخرى فى براعة تستهوى الأبصار والأسماع وتستحق الإعجاب ، وفوق ذلك فإن نبرات صوتها كانت أشبه بصوت القيثارة، له رنين مختلف النغمات. وقيصر الذى عرف بتأنقه البالغ فى الأسلوب الكتابى (Elegentia Summa Scribendi) وبتعمقة فى المعرفة والعلم بأصول الفنون والعلوم ، على قدر معرفته بالسياسة وشئون القتال ، لابد أنه آنس فى حديثها والاجتماع بها لذة وإغراءاً شديداً ، فهى امرأة حاضرة الذهن ، تألق فى شخصها ما بقى لتاج البطالمة من روعة ، وانتهجت لنفسها سياسة خاصة ، فكان هذا مدعاة لأن تستهوى قيصر بما عُرف عنه من حب المغامرة بل والمقامرة.

كان وصول "كليوباترة" إلى الإسكندرية على هذا النحو المفاجئ ومحاولتها أن تكسب تأييد سلطان الرومان فى شخص قيصر ، سبباً فى غضب السكندريين وسخطهم الشديد. ولما استدعى قيصر فى اليوم التالى "بطلميوس" لإصلاح ذات البين، وإعادة الأمور إلى مجاريها بين الأخ وأخته ، جن جنون هذا الأخ عندما وقع بصره على أخته وخرج ثائراً وسط الجماهير المحتشدة أمام القصر الملكى ، وألقى بالتاج من فوق رأسه ، وهو يصيح بأنها الخيانة ، فثار الجمع ، وهدد الغوغاء بمحاصرة القصر ، وخرج إليهم "قيصر" للعمل على تهدئة خواطرهم ، ووعدهم بتنفيذ رغباتهم. وفى جمع للسكندريين حضر "قيصر" بوصفه ممثلاً للشعب الرومانى ، وقرأ عليهم وصية الملك الراحل ، وقضى بأن يتزوج الملك من أخته

"كليوباترة" ، وأن يشترك الاثنان فى الحكم بمصر تحت حماية الرومان ووصايتهم ، واقترح كذلك بحسب ما جاء فى "ديو" أن يسمح "لبطلميوس" الأصغر وأخته الصغرى ""أرسينوى"" أن يقوما بالحكم فى قبرص ، وكانت إذ ذاك فى حوزة الرومان بعد أن كانت قد سُلخت من أملاك مصر منذ عشر سنوات مضت ، وبذلك رُدت الجزيرة إلى الملك البطلمى على يد ذلك الغازى الرومانى الذى كان قد لقب منذ قليل بالدكتاتور ، وأصبح هو المتصرف وحده فى شئون الرومان وأملاكهم. وقد تم الاحتفال بزواج الملك الشاب و"كليوباترة" فى حفل بهيج ، وبذلك تحقق "لكليوباترة" أول نصر لها ، فالإمبراطورية البطلمية قد توقف تدهورها وانهيارها ، وبقى أن نرى هل تستطيع "كليوباترة" أن تحقق رسالتها فى إعادة المجد الغابر والعظمة التى كانت لهذه الدولة على أيام "بطلميوس فيلادلفوس" "ويورجتيس" الأول فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

حرب الإسكندرية بين "قيصر" والشعب السكندرى :

على أن موقف هذا الحامى الرومانى لعرش كليوباترة ما لبث أن أصبح محفوفاً بالمخاطر ، ففى أثناء مقامه فى القصر الملكى ، محاطا بسلالة "بطلميوس أوليتيس" ، وهم أربعة ، اتخذ من كبراهم محظية له. وعندئذ عمدت الأخت الصغرى، "أرسينوى" ، إما بدافع الغيرة من سلطان أختها "كليوباترة" ، وإما بتحريض من "بوثينوس" ، مربى الملك ورائده، إلى الفرار مع خصمها المسمى "جانيميدس" ولحقت بالجيش المرابط فى الفرما حيث نودى بها ملكة على البلاد المصرية[1]. وعلى الرغم من أنها كانت تبلغ إذ ذاك سبعة عشر عاماً، فإنها أصرت على الاشتراك فى تولى قيادة الجيش مع "أخيلاس" ، ثم ما لبثت أن غدرت به ودبرت قتله ، وانفردت بتولى القيادة ، ونَصّبت خصيها على رأس القوات المحاربة ، فضاعفت من أعطيات الجند وهباتهم ، أملا فى كسب رضاهم ، ولكن قسوته جرت عليه كراهيتهم ، وسرعان ما ضاق الجند ذرعاً بما كان يبدو على ملكتهم الشابة من تقلب الأهواء ، وفى العبارة اللاتينية التالية إشارة صريحة إلى ما كان

---

(1) Cassius Dio. XLII, 39, Caesar, Bellum Civile III, 112.

يساور جموع الجند من ضيق بتلك الملكة الشابة (Multitudinem Confectam taedio puellae) فبعثوا إلى قيصر يطلبون إليه إعادة ملكهم. وكان قيصر قد احتفظ به فى القصر ليكون تحت تصرفه، وقد استجاب قيصر لمطلبهم ، وسمح للملك الشاب بأن يلحق بهم بعد أن زوده بالنصح والإرشاد. وسواء أكان "قيصر" قد اتخذ هذا الإجراء بدافع الطيبة (Bonitas) وحب الخير ، أم أن هناك دوافع أخرى فإن تصرف قيصر ينم عن حصافة وبُعد نظر ، وينطوى على حركة بارعة ، إذ كان يأمل أن يشتد التنافس بينه وبين أخته الصغرى "أرسينوى" ، وبذلك تخف حدة القوة الضاربة لدى العدو. وقد أشار إلى هذه الواقعة مؤلف كتاب حرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) المنسوب إلى "هرتيوس" ، فقال إن "بطلميوس" بعد أن ذرف دموع التماسيح ملحاً فى الرجاء بأن يسمح له بالبقاء فى صحبة "قيصر" ، وثب لتوه بعد إطلاق صراحة متنكراً لتلك الدموع، ومضى يشن حرباً شعواء ضد الرومان بعد أن أقصى أخته "أرسينوى" وخَصّيها "جانيميديس" عن قيادة الجيش. فأخذ يشدد الحصار على الإسكندرية ، وقاسى "قيصر" الأمرين والشئ الكثير من جراء هذا الحصار وتعرض لأشد الأخطار ، فسُدّت القناة الرئيسية التى تمد الإسكندرية بمياه الشرب من النيل ، وحُولت المياه الملحة إلى الأفرع التى تأخذ من هذه القناة وتمد السكان بالمياه ، ولكن "قيصر" كان أوسع حيلة فلم يتسرب اليأس إلى قلبه ، وأمر على الفور بأن تحفر آبار بجوار شاطئ البحر ، علماً منه بأن القاعدة العلمية تقضى بأن مياهاً عذبة لا بد متفجرة من هذه الآبار المحفورة بالقرب من الشاطئ ، وقضى رجال "قيصر" الليل كله فى حفر هذه الآبار التى انبثقت منها على الفور مياه عذبة[1].

---

(١) انظر حرب الإسكندرية ومنها الفصلان ٦ و٨ ، حيث يقدم لنا هذا النص اللاتينى بيّنة من طراز فريد، فيصور لنا حالة الإسكندرية ومبانيها وشوارعها ومساقيها وأن المدينة كانت بمأمن من أخطار الحريق لاستخدام الملاط والأحجار والعقود المسقوفة وتجنب الأخشاب. وهذا الوصف على روعته وجديته وما يتصف به من أصالة ، يمتاز بأنه يحكى لنا حالة المدينة وما كان يمتاز به أهلها من ذكاء وحيوية وقدرة فائقة على الابتكار ، ومع كل هذا فقد لازمها الحظ العاثر فى حربها ضد "يوليوس قيصر" الذى هزمها رغم ضعف موارده الحربية وقلة المواد الغذائية وقطع موارد المياه العذبة من النيل عنه ، وبذلك وطد مركز "كليوباترة" وأمّن جانبها.

ثم أخذ يقيم المتاريس فى شوارع الإسكندرية الضيقة ، وعمد إلى اتخاذ موقف دفاعى إلى أن تصله الإمدادات الأولى من آسيا عبر الشام ، وقوامها عدد من ناقلات الجند والفرقة السابعة بعد الثلاثين ، وعندئذ اتخذ موقفاً هجومياً. وقد أظهر "قيصر" ضروباً كثيرة من سعة الحيلة وإحكام الخطة والموهبة العسكرية ، فغامر ذات مرة بحياته، غير آبه بها وعام البحر مسافة تبلغ مائتى ياردة ، وكان العدو يقتفى أثره ، ووقعت عباءته العسكرية فى أيدى خصومه. وقد أنقذ موقف الرومان وصول إمدادات أخرى بمقادير كافية فى ربيع سنة ٤٧ ق.م ، وكانت هذه تتألف من أهالى آسيا الصغرى وسوريا بالاشتراك مع ثلاثة آلاف من اليهود يقودهم "ميثريداتيس البراغامى". واستولى هذا الجمع على الفرما عنوة ، وتقدم صوب ممفيس دون أى عائق ثم سار بحذاء الفرع الغربي للدلتا ميمماً شطر الإسكندرية ، فكان وصول هذه القوات إلى مشارف المدينة إيذاناً بتغير موقف الجانبين المتقاتلين وقلب خططهما رأساً على عقب. وقد عوّل "بطلميوس" وهو على رأس جيشه على الإسراع لملاقاة هذا الجيش الزاحف والالتحام به قبل أن يتصل "بقيصر" ، ولكن هذا التدبير أفسده قيصر بأن رسا ليلاً على الشاطئ غربى الإسكندرية ، وتابع مسيره وزحفه إلى أن التقى "بميثريداتيس" فى الوقت المناسب ، وانقض الجانبان على المعسكر المصرى ، ففر المصريون إلى سفنهم الراسية فى النيل كيما يجتمعون فيها ، واكتظت أعدادهم ، واختل توازنهم ، وغرق الكثيرون منهم ، وقد أبلى "بطلميوس" بلاءاً حسناً ، ولكنه غرق فى النيل، وانتشلت جثته وجرى عرض درعه الذهبى على شعب الإسكندرية ليكون شاهداً حسياً على وفاة الملك. وعندئذ أسبغ "قيصر" مُلك البلاد على الأخ الأصغر ، وكان له من العمر إذ ذاك أحد عشر عاماً ، بالاشتراك مع "كليوباترة" فحكما بوصفهما الإلهين المحبين لأبيهما[1]. وقد حافظت "كليوباترة" فى هذه المرحلة الدقيقة من الحرب على ولائها لقيصر وبقيت فى رعايته. أما "أرسينوى" فقد بعث بها قيصر إلى روما باعتبارها أسيرة لعرضها فى موكب نصره ، كما أن فى إبعادها إزالة سبب من أسباب قيام الاضطرابات من أجل توليها العرش ، وتأمين ظهر "كليوباترة"، وضمان

---

(١) حرب الإسكندرية ، الفصلان ٣١ ، ٣٣.

سواد السلم والطمأنينة فى هذه البلاد التى أصبحت بالنسبة له أثمن من أن يسمح بتعرضها للأخطار مرة أخرى. وأبقى ثلاث فرق رومانية تحت إمرة جندى قدير هو "روفينوس" (Rufinus) لتحمى عرش "كليوباترة". وما كانت هذه لتخشى شيئاً بعد أن تخلصت من الثالوث المؤلف من "بوثينوس" "وثيودوتس" "وأخيلاس" بالقتل، ومن "بطلميوس" بغرقه ومن أختها "أرسينوى" بإبعادها إلى روما لتلقى حتفها هناك إثر عرضها فى موكب النصر الذى أقامه قيصر ، وهى مكبلة فى السلاسل والأغلال. وطالما كانت "كليوباترة" تحظى بتأييد أعظم الرومان شأناً فى عصره فلا خوف ولا جناح عليها. وكانت "كليوباترة" إذ ذاك (فى يناير سنة ٤٧) تحمل جنيناً من "قيصر" ، وركبت فى صحبته سفينة فخمة (دهبية) إلى أعالى النيل بقصد النزهة والترويح عن النفس بعدما ألمّ بها من جهد وعناء شديد ، وقد بالغت فى الاحتفاء بقيصر وتكريمه ، وإظهار معالم العظمة والفخامة التى اشتهر بها البلاط السكندرى ، فكانت هذه (الدهبية) مثلاً رائعاً على حب البطالمة فى إقامة المنشآت الفخمة [فطولها ثلاثمائة قدم وعرضها خمسة وأربعون قدماً وارتفاعها ستون قدماً]. وقد أتيح لقيصر بذلك أن يجوب أنحاء البلاد فى هذا الفلك المشحون ، وأن يشاهد معالمها ويتفقد أحوالها ويتعرف على معالم الجهاز الإدارى البيروقراطى السائد فيها ، وقد نُسق على الطراز الهيللينستى منذ عصر "فيلادلفوس" حتى أصبح مضرب الأمثال فى الإبداع والإتقان. وإنه لمما يسترعى النظر أن الكتاب القدماء كفوا عن تزويدنا بالتفاصيل عن مبلغ ما لقيه قيصر من حفاوة فى أثناء تجواله هذا فى أرجاء مصر عقب انتهاء حرب الإسكندرية ، مع أنه لما جاء ذكر حفلات المرح التى أسهم فيها "ماركوس أنطونيوس" مع "كليوباترة" فيما بعد ، بالغوا وأسهبوا فى وصفهم دون أن يقفوا عند حد. ولعل مرجع هذا التباين الغريب فى الحالين من حيث القصور فى الناحية الأولى ، والإفاضة إلى حد الإغراق فى الناحية الثانية، هو بإيحاء من "اكتافيوس" ، باعتباره وريث "قيصر" وربيبه ، فكان يرى أن فى العلاقة بين أبيه بالتبني وبين "كليوباترة" التى أصبحت خصماً لدوداً له، ما يشينه ويسئ إليه إذ أن ابنها من "قيصر" كان يُعتبر وصمة عار فى جبينه ، ولذلك كان حريصاً كل الحرص على أن يمحو من أذهان معاصريه بقدر المستطاع

ذكرى هذه العلاقة المشينة، حتى ينساها الناس أو يتناسوها فتبقى فى خلفية الصورة الماثلة فى الأذهان.

وإن رحيل "قيصر" من مصر ، ومراحل خطواته التالية ليمكن تأريخها فى شئ كثير من الدقة ، فاتخذ سبيله عن طريق الشام إلى آسيا الصغرى حيث التحم فى زيلا ببلاد بنطش فى ربيع ٤٧ ق.م بالملك "فارناكيس" وأنزل به هزيمة منكرة فى أقل من أربع ساعات ، وقد بعث إلى روما بنبأ هذا النصر الباهر فى عبارة لاتينية مشهورة هذا نصها (veni, vidi, vici) ، وترجمتها "إنى قد حضرت فرأيت فانتصرت" ، وقد جرت مثلاً بين الناس ودلّت على مبلغ هذا الاعتداد بالنفس. وكان هذا النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات التى أنزلها بأنصار "بمبى" وأذنابه فى أفريقيا وأسبانيا ، وسوف نرى فى خضم هذه الأحداث هل يصبح لقاؤه "بكليوباترة" فى الإسكندرية مجرد حلقة براقة عابرة فى سلسلة انتصارات هذا القائد العظيم ؟ أم سيمضى فى طريقه معها إلى النهاية لا يرعوى على شئ ولا يأبه بالنتائج ، فيخص الملكة بمنزلة رفيعة فى برنامجه ، ويضفى عليها من مراتب التكريم أعلى منزلة.

ومرة أخرى كان القدر كريماً مع "كليوباترة" فوثّق العلاقة بينها وبين "قيصر" بأن ولدت له ابنا فى صيف عام ٤٧ ق.م ، وقيل إن هذا الابن كان شديد الشبه بأبيه من حيث الخلقة ، وأنه كان يمشى مشيته عندما شب وكبر[1]. ومن البيّن من العبارة الواردة فى الفصل التاسع بعد الأربعين من حياة "قيصر" "لبلوتارخوس" أن قيصر كان قد رحل إلى سوريا قبل أن تضع "كليوباترة" هذا الطفل الذى أسماه السكندريون ""قيصرون" "، أو "قيصر الصغير" (Caesarion) ، تيمناً باسم أبيه. وقد اكتنفت حياة هذا الابن الكثير من الصعاب نظراً لأن المستقبل الذى كان يُعد له ، كان مخالفاً لغيره من أمراء أسرة البطالمة. إنه كان يُربى على أنه وريث "قيصر" الذى أصبح بعد موت ابنته "يوليا" من غير عقب. نظراً لما كان يؤهل له هذا "القيصر" الصغير من دور خطير ، ولما كان ينتظر أن يقوم به فى

---

(1) Suetonius, Caesar 52; Plutarch, Caesar XLIX.

المسرحية السياسية المرتقبة. وما حل به من مصير أليم لقيه فى مقتبل حياته بقتله.
فإنه لا عجب أنه حتى فى العالم القديم انبرى بعض الأطراف المعنيون بهذا الأمـر ، ومنهم "اكتافيوس" وريــث قيصـر بـالتبنى ، وأخـذوا يشـككون النـاس فـى بنـوة "قيصرون" ، ويثيرون الغبار حول صحة مولده ، ويتساءلون هل كان "قيصر" والده حقاً ؟ واستناداً إلى بعض العبارات المشوبة بكثير من الغموض مما ورد فى خطابات "شيشرون" لصديقه "أتيكوس" بشأن الملكة "كليوباترة" ومُقامـها فـى رومـا نحـو سنتين من صيف ٤٦ ق.م إلى ربيع ٤٤ ق.م ، وما كانت تظهره من كبرياء وغطرسة ، فـإن العـالم الفرنسـى "كـاركوبينو" (Carcopino) انـبرى لتنـاول علاقـة "قيصـر" "بكليوباترة"، فقسا عليها فى مقاله الذى نشره بـإحدى المجـلات العلميـة[1] فـأرّخ بالفعل مولد "قيصرون" فى أبريل من عام ٤٤ على أبكر الفروض ، أى عقب موت قيصر ، ثم أضنى نفسه فى التخريج والاستنباط للبرهنـة علـى اسـتحالة أن يكـون قيصر هو والد هذا الطفل على أساس حساب تقريبى عن وجود "قيصر" فى روما ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن "قيصرون" ولد فى حياة "قيصر" ، وشـاهدنا على ذلك أن "أنطونيوس" قرر فيما بعد فى مجلس الشيوخ الرومـانى أن "قيصـر" اعترف ببنوة هذا الطفل. وهذا التصريح من جـانب "أنطونيـوس" يـدل علـى أقـل تقدير ، على أن الطفل ولد فى حياة قيصر. هذا فضلاً عن أن إقامة الملكة فى قصر "قيصر" الكائن على ضفاف التيبر وفى ضيافته بالذات ، وسماحه بإقامة تمثـال لهـا من الذهب فى معبد "فينوس جينتريكس" ، جدة العشـيرة اليوليويـة ، ينفـى هـذه التهمة المغرضة. وفى تصرفات قيصر إزاء الملكة ، وما ردده "شيشرون" من شائعات مغرضة ، بأن الملكة حامل من قيصر مرة أخرى ، ثـم مـا اتخذتـه "كليوبـاترة" مـن مراسم دينية ونقوش رسمية على المعابد، كل هذا ينهض دليـلاً علـى صحـة نسـب "قيصرون" ، ثم إن ابتهاج الملكة وإعلانها على الملأ هذا النبـأ السـعيد لـه دلالتـه، فصورت ابنها فى هيئة "حورس" إلى جوار أمه "إيزيس" وهما يُعبدان ، ثم ظـهرت عملة، سكت فى قبرص ، وقـد نقشـت عليـها صـورة "كليوبـاترة" وهـى مرتديـة شارات "أفروديتى - إيزيس" وتقوم بإرضـاع ابنـها "قيصـرون" ، وبذلـك أسبغت

---

(1) Carcopino, Cesar et Cleopatre, Etudes D'Archeologie Romaine, 1937, pp. 37-78.

على مولد هذا الطفل طابعا رسميا له شأنه. على إن الكنية أو اللقب القيصرى الذى اختارته له أمه له مغزاه. وما لم يكن "قيصر" هو والده حقا فإن هذه التسمية تصبح غير مستساغة ، وغير مفهومة على الإطلاق، ولا يعقل أن يسمح قيصر بأن ينسب إليه ابن شخص آخر غير معروف ، ولا يتسق هذا مع ما نعرفه من دعوة "قيصر" للملكة فى صيف عام ٤٦ ق.م بأن تحضر إلى روما وفى صحبتها ابنها بالطبع.

مقام "كليوباترة" فى روما (من صيف ٤٦ ق.م - أبريل سنة ٤٤ ق.م) :

بناء على دعوة كريمة من قيصر لحقت "كليوباترة" به فى روما فى صيف عام ٤٦ ن وفى صحبتها بالطبع ابنها الرضيع "قيصرون" ، وأخوها الصغير وزوجها الملك "بطلميوس" الرابع عشر. ومن المحتمل أن مولد ابن "كليوباترة" هو الذى قرر مصير هذا الملك الصغير الذى مات أو لقى حتفه مسموما ، إما فى روما أو بالإسكندرية عقب عودة الملكة بقليل بعد مقتل قيصر. وقد اتخذت الملكة مقامها فى قصر "لقيصر" محاط بالحدائق الغناء على ضفاف نهر التيبر وحرصت على الاحتفاظ ببلاط وحاشية لها فيه ، ووفدت عليها أهم الشخصيات التى أخذت تتردد على قصرها ، وشاركت هى فى رسم الخطط العالمية الجارية ، وأتيحت لها فرصة الاطلاع على ما كان يجرى من أحداث فى روما وفى خارجها ، بل إن دورها فى توجيه السياسة الرومانية العالمية كان ملحوظا ، وبدها كانت المحركة من وراء ستار لدفة الشئون. ذلك كله يمكن استنباطه من مجرى الحوادث ، وإن لم تقم عليه أدلة قاطعة ، وعلى ذلك انبرى بعض المؤرخين والكتاب ، وتناولوا تلك الحقبة القصيرة وهى فترة مقامها فى روما بالتحليل والتفصيل ، وأخذوا ينقبون عن البواعث الكمينة والمشاعر الدفينة التى كانت وراء هذه الزيارة فى نفس كل من قيصر و"كليوباترة" ، بل عن سر هذا المقام الطويل بين ظهرانى الرومان الذين أخذوا يتساءلون عما إذا كانت السياسة هى الدافع الأول له ، أم أن دواعى الحب ولواعج الغرام وغصة الفراق هى التى دفعت "قيصر" لتوجيه هذه الدعوة "لكليوباترة" ، غير عابئ بمشاعر الرومان ومتحديا لهم بإسكانها فى قصره.

ونظراً لما لهذه الفترة من أهمية وما صاحبها من تطورات أليمة ، انتهت بفاجعة اغتيال قيصر نفسه فى منتصف مارس سنة ٤٤ ق.م ، فإنه يروق للمؤرخ أن يتلمس الأسباب ويناقش الشواهد والأدلة التى قامت فى حقبة تستحق منا بعض التحليل. ومما لا ريب فيه أن الملكة شعرت بحرج شديد عقب اغتيال "قيصر" فعجّلت بالرحيل من روما للتخلص من هذا الحرج ، وعملت على تأمين وصولها إلى مصر خشية أن تتطور الأمور إلى أسوأ فى هذا الجو المشحون بالتكهنات فى روما، وقد ردد الكاتب والخطيب "شيشرون" بعض الأصداء عن هذا الجو فيما كان يبعث به من رسائل إلى صديقه" أتيكوس" ، يبث فيها مشاعره ، ويعبر عن آرائه ، وينفث دعاية مسمومة ضد الملكة فى غير حرج. وإنها لحقبة حاسمة من حياة كل من "يوليوس قيصر" و"كليوباترة" مع أنها لا تعدو السنتين (من سبتمبر "يوليه" سنة ٤٦ حتى أبريل سنة ٤٤). وعلى نحو ما قيل ، كانت الملكة فيها لا تكف عن إسداء النصح والتحذير "لقيصر" مما كان يُدبر له فى الخفاء ، وما كان يحاك ضده من دسائس ومؤامرات ، واستطاعت فى خلال هذه الفترة أن تشهد عياناً وعن كثب تلك الأحداث الجارية ، واتصلت بالأشخاص المقربين لهذا الرجل العظيم فى السنتين الأخيرتين من حياته ، وشهدت حفل النصر الذى أقامه هذا القائد المظفر ، والموكب العظيم الذى سارت فيه أختها الصغرى "أرسينوى" وملوك آخرون وهم مكبلون فى السلاسل والأغلال وأعلن به "قيصر" على الملأ أنه أنهى بذلك حربا أهلية أضنت روما وكادت تزلزل بذلك كيانها. وفوق ذلك فإن مقامها أتاح لها الوقوف على أسرار تلك الخطة الطموحة التى كان هذا السياسى يبغى أن يستبدل بها النظام التقليدى لحكومة الجمهورية الرومانية ، وإحلال نظام آخر محله، يكون من صنع يده هو ومن تدبيره. ولربما كان هذا الذى يفكر فيه قد اقتبسه مما شاهده أو سمعه عن الملكية المصرية الهيللنستية ذات الطابع البيروقراطي ، على اعتبار أن هذا النظام كان مجرباً فى مصر ، وأثبتت التجربة صلاحيته فى وادى النيل. وفى آخر المطاف شهدت الملكة فى روما الحدث الأليم المفجع الذى حل بهذا البطل فى ١٥ مارس من عام ٤٤ ق.م فى أحد أبهاء مجلس الشيوخ الرومانى عندما مزّقت أحشاءه ، وهو فى عنفوان قوته ، خناجر المتآمرين، وعلى رأسهم "بروتس"

"وكاسيوس" ، ونجم عن ذلك إشاعة الفوضى في العالم الروماني من جديد ، وتزعزع مركز "كليوباترة" مرة أخرى.

وهنا قد يتساءل المرء عما يمكن أن يكون هناك من علاقة بين كل هذه الأحداث، وبين مُقام "كليوباترة" فى روما ، وهل كان لذلك المقام أثر مباشر على تتابع الحوادث والتعجيل بوقوعها ، وما هو الدور الذى كان "قيصر" يزمع تخصيصه للملكة فى برنامجه ومشروعه نحو عالم جديد ، وهل كان الحب الخالص أم السياسة ودواعيها هى الحافز على دعوة الملكة للحضور إلى روما على هذه الصورة الغريبة ؟ تلك وأشباهها أسئلة عميقة لا سبيل إلى سَبر غورها ، والتعرف على كنهها. وقد اختلف المؤرخون فى معالجتها ، فمنهم من نحا نحواً فيه تطرف ومغالاة ، فأنكر تماماً وجود أى أثر للمشاعر الشخصية لدى قيصر ، مؤكداً أنه لم يُقم أى وزن إلا للعوامل السياسية البحتة، فكان رأيهم أن دعوة قيصر "لكليوباترة" لتقيم فى روما ، كان رائدها أن تكون تحت سمعه وبصره فى روما ، بل تحت رقابته وأنه كان يريد أن يؤمن ظهره عندما يحين ذهابه إلى الشرق لتحقيق مشروع طالما داعب حلمه ، وهو إخضاع الفرس. وهؤلاء يبررون ظنهم هذا بأن "كليوباترة" باعتبارها امرأة لم تعد بالنسبة له ذات أهمية خاصة ، لما عرف عن قيصر بعد ذلك من أنه كانت له صلات ومغامرات مع نساء أخريات ، منهن زوجة "بوجود" ملك ماوريتانيا (مراكش) فى أثناء حملة قيصر الأسبانية سنة ٤٦-٤٥ ق.م ثم يمضون فى التدليل على وجهة نظرهم ، بأن مهام كثيرة للدولة وأعباءها كانت تقع على كاهل قيصر باعتباره قائداً وسياسياً ، وهذه كانت تستلزم فى أحيان كثيرة تغيبه عن روما، وبالتالى بُعده عن "كليوباترة" على مدى فترات طويلة ، ففى نوفمبر سنة ٤٦ ق.م كان فى طريقه إلى أسبانيا ولم يعد إلى روما إلا فى سبتمبر سنة ٤٥ ق.م ، وعلى ذلك فإن زيارة "كليوباترة" إلى روما لو صح أن الهدف منها كان لتحقيق أغراض ومآرب شخصية بحتة لِدى "قيصر" ، فإن الوقت الذى اختير لها لم يكن موفقاً ولا سعيداً.

على أن مثل هذه الاعتبارات وأشباهها من الأقاويل التى ليست بذات أهمية، لا يجب أن تصرفنا عن أخذ بعض الحقائق فى الاعتبار عند تقدير ما كان لمقام

"كليوباترة" فى روما والنظر إلى موقفها السليم. وإذا قصرنا البحث فى هذه الزيـارة على وجهة النظر الخاصة بالتعرف على مدى صواب هذا الـرأى ، وعمـا إذا كـانت دواعى الحكمة السياسية هى التى أملته فإن هذه الزيارة بما أثارته مـن نقـد شـديد ضد قيصر ، لم يكن أمرها مفهوما ولا مستساغا ، ولكننا عندمـا نتصـور "قيصـر" على أنه أصبح سيد العالم أجمع ، وقد اختمرت فى ذهنه فى سنى حياته الأخـيرة صورة جديدة لنظام الحكم ، وساورته أفكار عن الملكية الهيللنستية الإلهية ، فعندئذ فقط ندرك مدى التداخل والتشابك الغريب بين لواعج الحـب وعوامـل السياسـة ، وأن هذه كلها حفزته كيما يتخذ هذه الخطوة الجريئة.

وإن منظر "كليوباترة" وفى صحبتها زوجها الصغير ثم إبنها "قيصـرون" وقـد أحاط بهم رهط ضخم من الأغوات والأتباع وبطانة من رجال السياسة والقلم ، قد أثار الرومان ، وأخذوا يتساءلون على مضى الزمان عن مغزى كـل ذلـك. ومما زاد فى شكوك الناس أن الملكة قد اختارت أن تعيش فى روما عيشة الملكـات الحقـة ، مما كان له أثر قوى فى نفوس الرومان الذين ألفوا مشاهدة الملوك الأجانب ، وأمراء الشرق وهم يقيمون بين ظهرانيهم لفترات ، وكان "بطلميوس أوليتيس" نفسه والد "كليوباترة" ، أحد هؤلاء ، ولكـن زيـارة "كليوبـاترة" كـانت ذات طـابع فريـد ، وحظيت باهتمام خاص ، وعندما احتفى "قيصر" فى سبتمبر (يوليه) سنة ٤٦ على نحو باهر بما كسبه من فتوح فى بلاد الغال ومصر ، وما حققه من انتصارات على "فارناكيس" وجوبا ملك ماوريتانيا ، تجدد بذلك الاهتمام الذى كان قـد أثـير فـى نفوس الناس ، بقيام حرب الإسكندرية ، وما صاحبـها مـن مغـامرات. وإن عـرض تمثال إله النيل ، وصـورة الفنـار المقـام فـى فـاروس ، ومنظـر الأمـيرة "أرسـينوى" المنكودة الحظ وهى تسير فى موكب النصر ، وما أثارته فى نفوس النظارة من أسى. كل ذلك بعث الهواجس فى قلوب الرومان ، وأخـذ الجنـد يلمحـون فـى أغانيـهم الفجة إلى أن الملكة قد أوقعت قائدهم فى شباك غرامها ، وأصبـح اسمـها وحديثـها تلوكه الألسن وتندر الناس بما كانت تعيش فيه من بذخ غريب ، وساعدهم قيصـر فـى تثبيـت ظنونـهم هـذه حتـى لم يـترك مجـالا لأى شـك فيمـا يتعلـق بمنزلـة "كليوباترة" من نفسه ، ومـا تعنيـة بالنسـبة لـه ، بمـا أسبغه عليـها مـن ألقـاب ، فـأصبحت صديقـة الشـعب الرومـانى وحليفتـه ، وبذلـك تم إقـرار تصرفاتـه فـى

الإسكندرية ، وما اتخذه من قرارات بشأن مستقبلها ، وأسدل الستار بإسباغ صفة دستورية على مركز الملكة التى أصبحت تتمتع بحقوقها كاملة ، وتشغل المركز والمنصب الذى تعب والدها فى شرائه بالأموال ، وبإراقة الكثير من ماء الوجه. ومن الأمور التى كان لها مغزى خاص أن قيصر أولاها تكريماً وتشريفاً لذاتها عند احتفائه بالنصر الذى كسبه ، وتكريسه سوقاً عرفت باسمه (Forum Julium) أقام فى وسط ساحتها معبداً "لفينوس جنيتريكس" ، ربة الأسرة اليوليوية ، وعلى مقربة من تمثال هذه الإلهة أقام تمثالاً ذهبياً ل"كليوباترة". وقد تضمن هذا مغزى أبعد من مجرد تحية شخصية أراد أن يسديها لامرأة تعلق بها ، وإنما كان عملاً أملته حكمة سياسية ودينية ، وهى من نوع الأعمال المألوفة فى مصر والممالك الهيللنستية بوجه عام ، حيث كان الحكام والملوك يؤلهون. ولكن فى نظر الرومان كان السماح بإقامة تمثال لملكة أجنبية (Regina) فى معبد "فينوس" بالذات أمراً بغيضاً ، وفيه من التحدى لشعورهم الشئ الكثير. ونذير بوقوع الكثير من مخاوفهم ووساوسهم.

وليس هناك من سبيل إلى التكهن بما كان يطمع فيه "قيصر" ويهدف إلى تحقيقه فى المدى القريب ، وهل كان يروم تحقيق الملكية ، ولكن الشكوك كانت تحوم حوله فى هذا النطاق ، ولسنا ندرى على سبيل اليقين مبلغ تأثير "كليوباترة" عليه فى هذا الصدد ، ولكن الأمر الذى لا ريب فيه أنه يمكن القول أنها باعتبارها رمزاً يمثل الملكية الهيللنستية كانت فى أغلب الظن عوناً له على السير فى هذا السبيل ، بدلا من أن تكون عائقاً له عن التردى فى هذه الهاوية. وإنه لمن العسير علينا التكهن بنوايا شخص من طراز "قيصر" ، مع ما عرف عنه من سعة الحيلة ، ورحابة الصدر واتساع الأفق ، والجزم على سبيل اليقين بما يمكن أن توقظه فترة إقامته فى مصر من مشاعر ، وبخاصة أننا نعرف أن الثقافة الهيللنستية كانت قد غزَت على أى حال ومنذ أمد طويل - المجتمع الرومانى وأصبحت مسيطرة على عقول الطبقات الحاكمة والعناصر المستنيرة فى روما. ونظراً لأن قيصر كان ضليعا فى علوم الفلك والرياضة ، فإنه عُنى فى أثناء مقامه فى الإسكندرية بموضوع التقويم وحسابه ، وكان متأثراً فى ذلك بعالم سكندرى يسمى "سويجنيز" ، كان يشتغل بالرياضيات. وكان من ثمار ذلك التقويم اليوليوى المشهور الذى ابتدعه

"قيصر" فى أول يناير سنة ٤٥ ق.م ، ولهذا الإصلاح التقويمى مصادره وأصوله المصرية ، كما أن ألقاب التكريم التى أسبغت على هذا الدكتاتور يمكن بوجه عام تتبع أصولها فى العرف الهيللنستى والتقليد الذى جرى عليه.

وقد تمادى الناس فى غلوائهم وأخذت الشائعات تنسب إليه أعمالاً وأقوالاً تلمس الناس فيها نوايا ومآرب أخرى ، فقيل فيما بعد إنه كان من المتفق عليه عقب رحيل "قيصر" ليلحق بجيشه أن يتقدم أحد العامة وترابنتهم (Tribuni) واسمه "هلفيوس سنا" (Helvius Cinna) بلائحة خطيرة للعرض على مجلس العامة الرومانى، يسمح بمقتضاها "لقيصر" عقد زيجات أخرى شرعية من أجل ضمان نسل وذرية له ، وذلك نظراً لأن زواجه من "كالبورنيا" لم يسفر عن عقب له ، وبالطبع كان هدف هذا التشريع المرتقب لصالح "كليوباترة" ، إذ يتيح لها الفرصة كيما تصحح وضعها مع "قيصر" بعقد الزواج عليه حتى يصبح لابنه منها منزلة شرعية، ويكون وريثاً له ، أو قد تنجب له الملكة ابناً آخر. وهناك شائعة أخرى قالت بأن قيصر كان ينوى نقل مقره من روما إلى الإسكندرية أو إلى تروادة.

وفى مستهل عام ٤٤ تأزم الموقف السياسى بدرجة ملحوظة على أثر العثور فى الكتب السبلينية المقدسة على نبوءة تتفق مع مآرب "قيصر" ، وتلائم مطامعه الخاصة وتقول بأن الحرب ضد الفرس والبارثيين (Parthians) يمكن أن تكلل بالنجاح إذا كان على رأس الجيش الرومانى الذى يخوضها ملك ، وفى ضوء هذه النبوءة صيغ اقتراح يُخوّل لقيصر أن يلقب نفسه ملكاً فى أى وقت يشاء بشرط أن يكون هذا فى خارج إيطاليا ، وكان مقرراً أن يُعرض هذا الاقتراح على السناتو الرومانى فى ١٥ مارس ، ولكن خناجر الجمهوريين خلصت العالم الرومانى من أطماعه فى نفس هذا اليوم فخر صريعاً ، وبذلك خلق للملكة مركزاً حرجاً ودقيقاً للغاية ، وجعل مقامها فى روما محفوفاً بالمخاطر فعجلت بالرحيل والفرار (Fuga Reginae) على حد قول "شيشرون" فى إحدى رسائله إلى صديقه ، وعادت إلى مصر سالمة ، ترقب بعين الحذر ما تتمخض عنه الأحداث فى روما وفى خارجها. وبذلك طويت على هذا النحو الفجائى صفحة مجيدة من حياتها كانت حافلة ومليئة بالآمال العريضة.

الفصل الثانى

"كليوباترة" و"أنطونيوس"

يرتبط الشق الأخير من حياة "كليوباترة" ارتباطاً وثيقاً بحياة بطل رومانى آخر هو "ماركوس أنطونيوس" ، ولطول مدته والطابع العالمى فى أحداثه طغى هذا الشق على سابقه، وحظى بنصيب أكبر من الدراسة والتفصيل. وتعددت مواقف التلاقى والتوافق بين مصلحة هذين البطلين حتى بات من العسير أن نعرض لأحدهما دون الآخر، وإن من يتصدى لتأريخ هذه الحقبة من حياة كل منهما وتبويب صفحاتها الخالدة ليلقى بعض العناء والمشقة فى تبيّن كنه الحقيقة سافرة، نظراً لما شاب تلك الحياة من تداخل بين العوامل السياسية والعسكرية والعاطفية. فالجانب العاطفى فى حياة "أنطونيوس" أصبح بارزاً بصورة كانت مضرب الأمثال فى روعتها وبهائها حتى أصبح هذا الجانب من حياته وعلاقته"بكليوباترة" يحظى بشهرة أعظم من الجانبين السياسى والعسكرى ، وإن كان أقلها أهمية. ولعل السبب فى ذلك أن أضواءاً ساطعة سُلطت على مدى أجيال طويلة على هذه الناحية فضخّمت الأخطاء، وبالغت فى الأعمال والأهواء التى كانت تصدر عن هذا البطل ونُفخ فى بوق دعاية سيئة ومغرضة ، قصد بها تشويه سمعته فى نظر الرومان ، حتى تعذر أو كاد يصبح من المستحيل أن تتجلى الحقيقة مجردة عن الغرض أو الهوى وخالية من التهويل والمبالغة.

أما بالنسبة للملكة "كليوباترة" فإنه أصبح من المتعذر كذلك أن نُفرّق بين الجانب السياسى والجانب العاطفى فى حياتها ، فتداخلت شخصيتها كملكة قابضة على ناصية الحكم مُحبّة للسيطرة ، فى حياتها بوصفها امرأة جياشة النفس بالعواطف ، وسَطَت هذه كلها فى بعض الأحيان على الجانب السياسى وتغلبت عليه حتى ضاعت معالمه ، وأصبحت علاقاتها مع "أنطونيوس" بارزة وتحتل مركز الصادرة فى مقدمة الصورة الباقية فى سجل التاريخ، وهى تفيض بوصف ما كان يجرى من صخب فى الحفلات والموائد والندوات ، وما كان يُنظّم من استقبالات ومهرجانات، فضاعت معالم الأشياء وسط كل ذلك وتعذر استخلاص الحقيقة ، لأن

الكثيرين من الأوربيين جروا على منهاج تقليدى ، توخوا فيه المبالغة فى إبراز الجانب العاطفى ، وحرص نفر منهم على إشباع غيه ونفث سمومه وحقده على "كليوباترة"، باعتبارها امرأة شرقية تطلعت إلى السيطرة على روما ، وعملت على إذلال أبناء تلك الدولة. ولعل من واجب الإنصاف ألا ننساق وراء هذا النفر فى غلوائه هذا ، وإنما نفند المعلومات والإشارات الواردة على ألسنة الشعراء والأدباء والكتاب قبل موقعتى "أكتيوم" "ونيقوبولس" أى قبل انتحارها ، ثم ما قيل عنها بعد ذلك فى العصر الأغسطى وما تلاه من عصور ، فنرفض قبول كل ما ورد على ألسنة هؤلاء، وما كانوا فيه متأثرين بالهوى ، وتوجيه رجال السياسة والقائمين على الحكم فى صدر عصر الإمبراطورية الرومانية ، فأغلب هذا كان صادرا عن بغض وهوى ورغبة المنتصر فى تسوئ سمعة المهزوم ، وإخفاء معالم الحقيقة فى طيات الدعاية المغرضة. والأمر الذى لا ريب فيه أن حياة "كليوباترة" ، والمراحل الأولى من علاقتها "بأنطونيوس" ، وموقفها منه كبطل رومانى ، ثم تطور هذه العلاقة إلى زواج رسمى، ووقوفهما معا فى جبهة واحدة على رأس كل بلاد الشرق ضد روما وقوتها المتكتلة فى الغرب – ليست كلها مليئة بالهوى والحب الصارخ الذى يتمثل فيه اندفاع المحبين الذين يتردون فى الهاوية ، ويعميهم حبهم عن رؤية الحقيقة مجردة ، ويسوقهم إلى تنكب السبيل القويم.

على أنه توجد فى الحق فى حياة كل من "أنطونيوس" و"كليوباترة" مادة دسمة من المعلومات والتصرفات، فهذه الحياة المشتركة وحدها تمثل فى مجموعها ملحمة قائمة بذاتها ، وتصور تراجيدية رائعة انتهت بمأساة خالدة. ويبقى علينا الآن أن نستخلص بعض جوانب هذه الحياة ، ونفند عناصر هذه المأساة ، محاولين أن نميز بين الغث والسمين فيها، وخاصة أنها كما قلنا متداخلة الأحداث والمشاعر ، بعضها فى بعض إلى درجة التعقيد الشديد ، وأصبحت بعض جوانب هذه الحياة فى سيرة كل منهما مكسوة بأغلفة سميكة، ومحاطة بالأسرار ، فى حين أن البعض الآخر افتضح أمره. وهناك أكثر من سر دفين فى هذه الملحمة المزدوجة ، حمله كل من البطلين معه إلى قبره ، ومن ذلك على سبيل المثال سر فرارهما من ساحة القتال فى "أكتيوم" على رأس الأسطول المصرى وعودتهما إلى الإسكندرية ، وسر تلك

الوصية التى قيل إن "أنطونيوس" كتبها موصياً بأن يدفن فى الإسكندرية وافتضح هذا السر على يد "أكتوفيوس"، وضاع صوت "أنطونيوس" فى سبيل الدفاع عن نفسه وسط تلك الضجة التى أقامها "أكتوفيوس" فى العالم الغربى ، وهناك سر انتحار "كليوباترة" بعد أن خابت آمالها ونواياها فى أن تُجنّب نفسها عار السير فى موكب "أكتوفيوس" فى شوارع روما على نحو ما فعلته أختها "أرسينوى" من قبل فى موكب السير الذى أقامه "يوليوس قيصر" ، وفى أن تكون الإسكندرية عاصمة العالم الجديد - كل هذا وغيره يعتبر من الأسرار الدفينة التى حيّرت العالم، قد حملها البطلان إلى قبريهما. وإن كل الشواهد لتدل على أن النعره "المصرية" عند "كليوباترة" وشعبيتها كانت قوية ، وأن روحها القومية كانت عالية، وقد أنزلتها من نفسها فوق كل اعتبار ، وأن هذه الملكة كانت تلقى تأييداً شاملاً من العناصر المصرية التى وقفت إلى جانبها ، وأيدّتها فى السراء والضراء ، فثارت لثورتها ، وعضدتها فى محنتها[1]. وليس هنا مجال تنبرى فيه للدفاع عن مسلكها والتصدى لتبرير كل ما فعلته أو الاعتذار عنه (apologia) ، وإنما يفرض علينا واجب الإنصاف ألا نقسو فى الحكم عليها كما لا نبالغ فى حرق بخور المديح لها، وإنما نقف موقفاً يتسم بالحكمة والروية والإنصاف.

وفى حياة "كليوباترة" إزاء "أنطونيوس" مواقف حاسمة ، استُبقت بمركز دقيق أوقعها فيه اغتيال "يوليوس قيصر" وموته على هذا النحو الفجائى ، وكان ذلك بالنسبة "لكليوباترة" يستلزم منها فى الحق أن تشد أزر كل من "أنطونيوس" و"أكتوفيوس" ، وهما اللذان حملا وحدهما لواء الحرب ، وعبء الانتقام من قتلته فقادا الجيوش ضد الجمهوريين ، وانتصرا عليهم فى سنة ٤٣ فى معركة "فيليباى" ببلاد اليونان. وعقب الانتصار فى هذه المعركة تشتت قوى "بروتس" و"كاسيوس"،

---

(١) ومن الشواهد على ذلك ما ذكره العالم "و.ل. وسترمان" فى مقال طريف عنوانه "البطالمة وجهودهم فى العمل على تحسين أحوال رعاياهم" ، وهو منشور سنة ١٩٣٨ بالإنجليزية فى مجلة أعمال مؤتمر البردى الخامس الذى عقد فى أكسفورد سنة ١٩٣٧. وأيد هذا الرأى العالم سير "إدريس بل" فى كتابه عن "الهيلينية فى مصر" آخر الفصل الثانى ، ترجمة زكى على.

واتفق "أكتوفيوس" و"أنطونيوس" على أن يختص أولهما بحكم الغرب ، ويترك لثانيهما التصرف فى شئون الشرق برمته. واتهمت "كليوباترة" فى ذلك الحين بالنكوص على أعقابها والتردد والتقاعس عن تقديم العون والمساعدة فى هذه المعركة الانتقامية ، مما استوجب دعوتها للمثول أمام "أنطونيوس" ، وهو فى "إفسوس" بآسيا الصغرى لتجيب عما يمكن أن يوجه إليها من اتهام. وكان لقاؤهما الفعلى فى تارسوس (طرسوس) بآسيا الصغرى على صورة مسرحية رائعة. ففتح هذا المجال على مصراعيه للروائيين والمؤرخين على السواء ، لما فى ذلك اللقاء الذى بدأت به فترة العشق والغرام من مادة روائية تصدى لمعالجتها الكتاب الروائيون. على أن هناك مادة تاريخية وعوامل إنسانية يجد فيها مؤرخو هذا العصر شيئاً من الدوافع البشرية وهى تتصارع بشدة.

واستمرت هذه الفترة من ٤٢ حتى ٣٦ ق.م ، وقد تخللتها أوقات كان يقع فيها شئ من الفتور فى العلاقات ، بل فراق وإعراض كان يمتد أحياناً إلى سنوات وتنقطع أسباب المودة والاتصال ويُشغل فيها "أنطونيوس" بحملات كان يشنها على الفرس وأرمينيا ، مؤملا تحقيق ذلك البرنامج العسكرى الذى تركه "قيصر" ، واضطلع به هو من بعده باعتباره الخليفة الطبيعى له وسيد فرسانه (Magister Equitum) بحكم هذا المنصب ، ولكن التوفيق لم يكتب له فى مآربه هذه. وفى صدر هذه الفترة قضى "أنطونيوس" بعض الوقت فى الإسكندرية مع "كليوباترة" فى فصل الشتاء بقصد الاستجمام ، ولربما أعدا خلالها خطة مستقبلهما ، كما تلقن فيها من "كليوباترة" دروساً عملية فى ضروب السياسة إلى جانب لواعج ذلك العشق والغرام ، فالتقت مصالحهما ، واتفقت مآربهما ، فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن أن بمصر معيناً منها لا ينضب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها ، وتحقيق أغراضها ومطامعها السياسية. ولربما لم يجل بخاطرها فى ذلك الحين مد سلطانها وسيطرتها إلى روما ، والعمل على إذلالها. وقد تأثرت حياتها بما كان يظهره "أنطونيوس" من مواقف البطولة وما كان يلقاه من هزائم، وعلى ذلك كان للجانب العسكرى فى حياة هذا البطل صداه وانعكاساته على "كليوباترة" ، فما لبث هذا القائد العظيم بعد أن ذهب إلى الشرق الذى آل

إليه حكمه واعتبر منطقة نفوذ له ، وأخذ يجمع الأموال ، ويشتط فى فرضها على سكان آسيا الصغرى ، ويعد العدة للحملة المرتقبة على فارس - وكان الرومان قد علقوا الآمال الكبار على قيادته وبطولته ، ولكن مالبث أن توالت عليه الهزائم فى الشرق ، وفشل أكثر من مرة فى كسب النصر. فضاعت منزلته ، فى أعين الرومان ، وأخذ هو بالتالى فى أن ينحاز نحو الشرق أكثر من ذى قبل ، وأفسحت له "كليوباترة" بدورها الطريق وأمدته بما كان يلزمه من أموال ومؤن ومضت شوطا بعيدا فى نصرته. وإن زواجه من "كليوباترة" وإعلانه ذلك فى سنة ٣٦ أو ما بعد ذلك بقليل (سنة ٣٣-٣٢ ق.م) ، وتحديه زميله وشريكه فى حكم العالم الرومانى بطلاقه "لاكتافيا" ، أخت هذا الزميل ليمثل نقطة تحول ظاهر وخطير فى حياة هذا الرجل ، بل وفى حياة "كليوباترة" نفسها ، فتوثقت الصلات بينهما وارتبطت مصالحهما ووحدت الزوجية بين مآربها، وأصبحت مصلحة مصر لها المقام الأول فى تفكيرهما.

وبقى أن نعرض لتفاصيل هذه الأحداث فى شئ من الإسهاب لنتبين مراحل تطور العلاقات ونفند ما يساق من أقوال ، كان ظاهرا فيها بعض التلوين والتوجيه.

"ماركوس أنطونيوس" وحكومة الشرق :

وفى دراسة حياة "كليوباترة" وماركوس "أنطونيوس" ، وعلاقة الأخير بالشرق عامة ، وبسوريا ومصر خاصة ، لا بد لنا من التعرض لحكم الوالى الرومانى المسمى "جابينيوس" (Gabinius) على سوريا عام ٥٧ ق.م ، وذلك لأن مدة ولاية هذا الحاكم تعتبر على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ حياة "أنطونيوس" ، وبالتالى فى تاريخ حياة "كليوباترة" ، فقد كان الأخير قائدا لقوة الفرسان عندما زار سوريا وواجهته مشاكلها التى قدر أن يتصل تاريخها بالجزء الأخير من حياته أشد اتصال ، وأن تلعب دورا هاما يقرر مصيره النهائى.

ولما عين "جابينيوس" حاكما على ولاية سوريا منح السلطة فى أن يجمع الجيوش ، ويجند الجند لكى يكون على استعداد لخوض غمار الحرب إذا لزم الأمر، وشاءت المقادير أن تسوق له - وهو فى طريقه إلى البلاد التى عين عليها - "ماركوس أنطونيوس" الذى كان فى ذلك الوقت فى بلاد الإغريق يتمرن على

الألعاب الحربية ، ويتدرب على أساليب الخطابة ليكون بعيدا عن روما والمشاكل التى كان يخلقها له أعداؤه وخصومه فيها، فالتحق بخدمة "جابينيوس" ، وصحبه إلى الشام ، ولقد هيأت له هذه الفرصة التى أتيحت له فى الشام من الظروف ما مكنه من أن يدرس بنفسه ، وعن كثب تلك المشاكل الكبرى التى استعصى حلها على كبار المفكرين من الرومان ، وكانت الشغل الشاغل أمام روما فى الشرق ، ومن أهمها المسألة المصرية ، كما أنه تعلم على يد "جابينيوس" ما كان يجب على الحاكم الرومانى فى الشرق تعلمه ، وعرف منه كيف تعالج مثل هذه المشاكل. وزيادة على ذلك ، فقد رأى بعينى رأسه العمل الإنشائى الذى يقوم به حكام الولايات الرومانية ، فاستفاد من كل هذه التجارب والمعلومات التى جمعها فى الشرق أثناء حكم "جابينيوس" أيما استفادة ، حتى إنه عندما آل إليه حكم الشرق ، بعد مقتل "يوليوس قيصر" بقليل ، وتعلق به مستقبل مصر وملكتها ، كان على معرفة تامة بشئون الشرق وبلاده ، فاستطاع بذلك أن يجول فى ذلك الميدان ويصول.

كانت المسألة المصرية من أعظم المسائل السياسية أهمية فى روما إذ ذاك وكانت تتخذها الأحزاب السياسية بروما ضمن برامجها ، وتعيرها من الاعتبار ما تستحقه ، واستمرت هذه المسألة تستهوى الأحزاب السياسية وتجد لها أعوانا كثيرين فى روما طوال مدة من الزمان إلى أن سويت نهائيا على يد "أكتوفيوس" سنة ٣٠ ق.م، بضم مصر إلى حظيرة الدولة الرومانية فأصبحت جزءا مهما بل وحيويا فى كيان هذه الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف (Imperium Romanum) ، والتى كان "أغسطس" أول إمبراطور عليها.

وهكذا أرتبط "ماركوس أنطونيوس" بالشرق ، وحرص على أن يكون من نصيبه فى الاتفاق الذى أبرمه مع زميليه "أكتوفيوس" "ولبيدوس" عقب الانتصار الذى تم لهم فى موقعة "فيليباى" فى شهر أكتوبر من عام ٤٣ ق.م على قتلة قيصر ، والحزب الجمهورى ، وعلى رأسهم "بروتس" و"كاسيوس" ، وكانوا قد جمعوا قواتهم وركزوها فى مقدونيا ، فكانت فيليباى هذه آخر معقل لقتلة "يوليوس قيصر" ، ولكن سوء الحظ لازمهم فهزموا هزيمة منكرة ، ودفعوا حياتهم ثمنا غاليا

لجريمتهم الشنعاء. وهكذا تغلب الحكام الثلاثة على أكبر خطر جسيم كان يهددهم فى حياتهم ، وذلك بهزيمة أعدائهم ، ولكنهم ما نفضوا أيديهم من الحرب حتى واجهتهم مشكلة تحفها المخاطر من جميع الجوانب ، وتكتنفها الأزمات من كل ناحية. فقد كان العالم كله بعد أن وقع فى فوضى واضطراب ردحا من الزمن عقب مصرع "يوليوس قيصر" يتطلب السلام العاجل ، والانصراف للإصلاح والتنظيم ، وكان الحكام الثلاثة صفر الأيدى ، وخزائنهم خاوية من الأموال ، وكان الجند يطالبون بمؤخرات رواتبهم ، وهكذا تمخض الأمر عن خلق مشكلتين منفصليين تماما كان لابد لهم من حلهما حلا مرضيا ، فكان عليهم تهدئة الحالة فى الغرب ، وإعطاء الجند شيئا من مؤخرات رواتبهم. أما الشرق فكان لابد من إعادة تنظيمه ، والانصراف لمعالجة مشاكله على وجه السرعة ، أما المشكلة الثانية فهى حاجة الحكام الثلاثة الشديدة، لمكافأة جنودهم وفى هذا بقاء لكيانهم وحفظ لقواتهم - وكان "أنطونيوس" فى التقسيم الذى تم بعد موقعة "فيليباى" ، هو الشريك القوى الذى تمكن من أن يملى إرادته على شريكيه فى تقسيم المسئولية بينهما ، فاحتفظ وهو الظافر فى "فيليباى" بنصيب الأسد من الغنيمة ، وبالجزء الذى ينتظر أن يدر عليه خيرا كثيرا ، ويكفل له مستقبلا أعظم من مستقبل زميليه ، وبينما كان الشرق أغنى أجزاء الدولة الرومانية ، وكانت مهمة تسوية مشاكله أمرا يجلب ربحا كبيرا يملأ خزائن حكام الدولة وهى خالية ، إذا بمطالب الجند من الجانب الآخر وإفلاس الثلاثة كانت مصدر خطر جعل مهمة تسوية مشاكل الغرب أمرا محفوفا بالمخاطر لما يتطلبه هذا الموقف ، من مصادرة أملاك الرومان فى إيطاليا لإشباع نهم الجند ، والاستجابة إلى مطالبهم. ولا بد أن كان لهذه الاعتبارات - كلها أو بعضها - قيمتها فى اختيار "أنطونيوس" للشرق ميدانا له للعمل ، وتركه المشاكل الخطيرة بالغرب لزميله "أكتوفيوس" الذى كان أضعف منه صحة وأقل منه خبرة وحنكة.

ويجب هنا ألا نسلم بما ادعاه بعض المؤرخين الحديثين ، الذين تغالوا كل المغالاة فبعدوا عن الحقيقة بعدا كبيرا ، جعلهم ينسبون إلى "ماركوس أنطونيوس" دوافع تافهة كانت العامل الأكبر فى اختياره الشرق مجالا له ، فاتهموه بأنه كان يريد أن يشبع شهواته ، وأن يجرى وراء لذاته التى بالغوا كل المبالغة فى وصفها.

ويظهر أنه لابد أن كانت هناك اعتبارات أخرى جدية كانت العامل المرجح فى تصرفه هذا وفى تفضيله للشرق عن الغرب. ولقد كان الرومان فى ذلك العصر يعتبرون الشرق أثمن درة فى أملاك الدولة الرومانية وفيه بين المدن والحواضر مالا يدخل تحت حصر ، ولو أن هذه كلها لم تكن فى الحقيقة مدنا بالمعنى الذى نفهمه، بل هى قرى متواضعة ذات مجالس خاصة بها ، ولو قرأنا ما كتبه "شيشرون" عن غنى وثروة آسيا الصغرى لظهر لنا جليا أن الشرق كان يمد روما بأكبر وأضمن دخل تعتمد عليه فى أعز شئ لديها ، وتدين له بحياتها ، ثم أشار مؤرخ إيطالى يدعى "فريرو" (Ferrero) إلى هذا البون الشاسع بين حال القسمين بقوله "كانت أملاك الدولة الرومانية بأوربا فقيرة حقا ، ويقل السكان بها ، ولم تكن على جانب كبير من المدنية والرقى إذا ما قورنت بالشرق العظيم الشاسع الزاخر بالثروة والذى تقدمت به المدنية لدرجة عظيمة ، فقامت به مدن صناعية كثيرة ، وأسواق تجارية نافعة ، وطرق عظيمة ومراكز علمية شهيرة ، وأراضى زراعية خصبة". وفضلا عن ذلك كله فلم يقتصر الأمر على أن الشرق إذ ذاك كان أغنى من الغرب ، وأكثر سكانا منه ، ولكنه كان أقدم وأعرق منه فى المدنية. ولقد أخذ بنصيب وافر من مدنية اليونان بعد غزو "الإسكندر" ، واصطبغ بصبغة هيللنستية ، وشاع بين أرجائه استخدام لغة "الكوينى" ، وهى اللهجة اليونانية المتداولة فى آسيا الصغرى والشام ومصر والجزر. وهذا كله جعله جذابا بدرجة كبيرة ، تأخذ بلب الرومانى الذى تعود أن يعيش عيشة خشنة فى بلاده. وعلى ذلك يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الشرق كان حقا مطمح أنظار ذلك الجيل الرومانى ، ومحط خياله وهيامه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن "ماركوس أنطونيوس" كان يعتبر نفسه خليفة "يوليوس قيصر" ، ويرى أنه كان لزاما عليه أن يقوم بتنفيذ مشروع تلك الحملة الفارسية العظيمة ، فلا بد أن يكون قد جال بخاطره إخراج ذلك المشروع إلى حيز التنفيذ بعد تنظيم أمور الشرق ، ومعالجة مشاكله ، وهكذا كانت هذه الاعتبارات كان لها قيمتها بلا ريب فى تفكير "أنطونيوس" عند اقتسامه العالم الرومانى مع شريكه ، وعند تفضيله للشرق على الغرب.

وبعد اتفاقية "فيليباى" ذهب "أنطونيوس" ميمما نحو الشرق فوصل إلى بلاد اليونان، وكان يحضر الألعاب ويشترك فى المناقشات والمحاورات الأدبية بين العلماء والفلاسفة واشترك كذلك فى بعض الحفلات الدينية ، وكان يسره أن يشار إليه بأنه "محب لليونان" ، و"نصير وصديق للأثينيين" ، وقد علل المؤرخ "بلوتارخوس" هذا المسلك من جانب "أنطونيوس" بأنه كان ينطوى على حبه للهو واللعب ، ولكن نحب ألا نسلم بصحة ذلك الدافع ، إذ لابد أن يكون هناك سبب أقوى من ذلك ، مما حدا به إلى الاندفاع فى ذلك السبيل ، وهو أن "أنطونيوس" رأى مقدار أهمية اتخاذ مثل هذه الخطوات فى التأثير فى الرأى العام فى المدن اليونانية بآسيا الصغرى ، التى لم تكن تنظر بعين ملؤها السرور والارتياح إلى أى حكومة تتدخل فى شئونها الداخلية ، وتعبث بحرياتها المكفولة ، وهذا الامتعاض من جانب المدن اليونانية فى آسيا الصغرى يخلق مشاكل خطيرة لأى حكومة أو حاكم يسلك هذا المسلك. وفى ضوء هذا يجب أن نفهم السر فى إقامة "أنطونيوس" فى بلاد اليونان ، واشتراكه فى حفلاتهم الدينية البحتة ، وأن نفسر ذلك لا لحبه للهو والسرور وإنما هى السياسة الحكيمة ، والحكمة القوية ، وتلك الحكمة تنطوى على اعتراف العالم اليونانى خاصة والشرق عامة به محبا وغيورا على مصالح اليونان ، وبذا يتأثر الرأى العام فى أرجاء الشرق ، وينتصر له ، وهذا مكسب عظيم قدر أن يكون له فائدته الجلى بالنسبة له و"لكليوباترة" عند تطور الحوادث فيما بعد ذلك بقليل.

وفى أوائل فصل الربيع عبر "أنطونيوس" البحر ميمما نحو آسيا ، وإنه لمن المحتمل أن يكون "أنطونيوس" قد رسا على مدينة "إفسوس" التى كانت تمثل العاصمة والمقر الرسمى للحاكم الرومانى فى آسيا الصغرى ، وكانت كل السوابق تشير إلى دخول الحكام إلى آسيا عن طريق ميناء "إفسوس". وبعد أن قدم "أنطونيوس" القرابين والذبائح الكثيرة لإلهة المدينة المسماة "أرتيمس" ، وعفا عن معظم الذين لجئوا إلى الاعتصام فى معبدها ، أمر بدعوة جميع اليونانيين وملوك آسيا الصغرى التابعين لروما للاجتماع به فى "إفسوس" ، فهرولوا كلهم مسرعين ، وخروا بين قدميه ساجدين ، ورفعوه إلى مرتبة آلهتهم ، وخرج أهل المدينة عن بكرة

أبيهم فرحين مستبشرين ، كل قد اتخذ شعاره الذى لبسه عند تقدمه لآلهته ، فالنساء مرتديات ملابس أتباع الإله "باكوس" ومثلهم الرجال والأولاد فى زى أشخاص خرافيين للقاء "أنطونيوس" العظيم ، فكان الناظر يرى الرماح بارزة فى أنحاء المدينة قاصيها ودانيها، وقد غطيت أطرافها بشجرة اللبلاب ، ويسمع الأهلين فى الطرقات وهم يوقعون على العود والمزمار والقيثارة إجلالا "لأنطونيوس" الذى كان لديهم بمثابة الإله "باكوس" "إله الفرح والسرور وإله الرقة والإحساس الجميل". وفى هذه الجموع الزاخرة خطب "أنطونيوس" فيهم خطبة عامة سياسية ، تناول فيها أمورا شتى ، وكشف عن حاجته وحاجة زميلية: "أكتوفيوس" "وليبدوس" ، الماسة إلى المال لمكافأة الجند الذين اشتركوا فى موقعة "فيليباى" ، وأكد لهم أنه لن يطلب منهم أكثر مما ابتزه منهم "بروتس" و"كاسيوس" ، أعنى ضريبة عشر سنين ، تجبى فى سنة واحدة ، ولكن لما توسل إليه السامعون ، وطلبوا إليه الرأفة بهم ، وخاصة أن قتلة قيصر قد أوصلوهم إلى درجة من الفاقة والفقر قد بلغت حد المسغبة ، أثاروا رحمته وعطفه ، وبعد جهد قبل أن ينقص الإتاوة إلى ضريبة تسع سنين ، وأمهلهم فى دفعها سنتين. وهنا تثور فى الإنسان عوامل الاستغراب والدهشة ، إذ كيف استطاع أولئك الذين نضب معينهم لما ابتزه منهم "بروتس" و"كاسيوس" ، ولم يتركاهم إلا وهم على شفا جرف هار ، يكاد يفترسهم الفقر وتودى بهم الفاقة ، أن يجيبوا طلبات ذلك الطاغية المتعسف والغليظ القلب ، الذى لم تعرف الرحمة إلى قلبه طريقا. ولم تنفذ إليه توسلات القوم وتضرعاتهم ، فأصر على طلباته ، ولم ينزل إلا عن قليل منها وهو لا يسمن ولا يغنى من جوع – ولقد تقدم "أنطونيوس" فى آسيا الصغرى بلقاء الملوك والملكات وهم يقدمون له العطايا والهبات ، راجين أن تشفع لهم هذه عنده. وكان يحيط به جمع من المغنين واللاعبين فكانت حاشيته أشبه بحفل من أتباع الإله "باكوس" ، إله الخمر والطرب والسرور، منها بحاشية حاكم رومانى. ولقد أشار المؤرخ "بلوتارخوس" إلى ذلك بقوله "إن الحال بلغت درجة لا يحتمل معها الصبر ، ولا يستطيع الإنسان السكوت عليها ، إذ كانت تبعثر الأموال والثروات فى أتفه الأمور مع ما كان عليه الأهلون من فقر مدقع ، وكانت كل آسيا الصغرى أشبه شئ

بالمدينة التى وصفها الشاعر "سوفوكليس" فى شعره "قد ملأ البخور السماء ، وتردد فى الجو صدح الغناء، وكان بجواره نوح البكاء"[1]. وإن المؤرخين الحديثين يبنون على ما ساقه "بلوتارخوس" عن "أنطونيوس" فى استقباله فى "إفسوس" ، حكمهم بأنه كان رجل شهوات ، لا يهمه إلا الانغماس فى الملاذ ، والاجتراع من مناهلها. ولكن نظرة فاحصة إلى ما جاء فى "بلوتارخوس" نفسه على ألسنة المطربين والغوانى ، والطهاة الذين كانوا فى حاشيته تكشف لنا من وراء تلك الأغشية اللاهية عن صورة واضحة لخطة سياسية وإدارية كان يسعى جهد نفسه فى سبيل تنفيذها. وإن ذلك الاستقبال العظيم ، الذى تجلى فيه خضوع الأسيويين طائعين مختارين ، توددا "لأنطونيوس" إذ صار لهم الحاكم العتيد ، كان أمرا طبيعيا ، خصوصا فى بلاد الشرق حيث تعود الناس، فى كثير من العصور ، أن يصل بهم الاحترام لسيد البلاد إلى درجة تقرب من العبادة ، ولذا كان الحاكم دائما موضع إجلالهم واحترامهم ، وهم يسبغون عليه من عبارات التأله والتقديس ما يصل فى كثير من الأحوال إلى حد التأليه.

وبمجرد انتهاء "أنطونيوس" من عمله فى "إفسوس" بدأ يطوف فى الأقاليم التى كانت تحت حكمه ، ولقد دون لنا المؤرخ "أبيان"[2] بيانا دقيقا عن الأماكن التى اشتملت عليها رحلته، فذكر فريجيا وميسيا وجالاشيا وكابادوشيا وسيليشيا وسوريا الخالية أو فلسطين، وأضاف المؤرخ اليهودى "يوسيفوس" إلى هذه البلاد بيثينيا بآسيا الصغرى. ولقد كان "أنطونيوس" فى هذه الرحلة يأمر بإصلاح المبانى العامة ، وبناء الطرق والحصون، وفض الخلافات الحزبية بين المتنافسين على العروش. وتوجد بالأصول والأسانيد التاريخية إشارات قليلة إلى أعمال "أنطونيوس" القضائية فى الشرق ، ويشير "بلوتارخوس"[3] إلى أن هذه القرارات القضائية كانت عادلة وحكيمة. ومما ذكره "بلوتارخوس" فى هذا المقام أنه عند وصول "كليوباترة"

(١) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٢٤.
(٢) أبيان ، ٥ ، ٧.
(٣) بلوتارخوس ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٢٣.

إلى "طرسوس" بآسيا الصغرى ، كان "أنطونيوس" جالسا على منصة بسوق المدينة يقضى بين الناس ، ويوزع العدل بين المتناقضين. وفى مكان آخر من "بلوتارخوس" يقول إنه بينما كان يوزع العدل بين الناس الذين أتوا يحتكمون إليه، جاءه كتاب من "كليوباترة" قد كتب على عقيق.

ولسنا هنا بمحاولين الدفاع عن مسلك "أنطونيوس" الشخصى ، عن قصد وتعنت من أنفسنا وراغبين فى تبييض صحيفته الشخصية أو متعمدين أن نحرق له بخور المديح والثناء ، فنحيد بذلك عن جادة الصواب. بل إننا نجد من الإنصاف له أن ننظر إليه بمنظار غير ذلك المنظار الأسود القاتم الذى نظر به إليه من سبقونا من مؤرخيه متأثرين فى ذلك بالدعاية السيئة التى شنها عليه "أكتوفيوس" أغسطس فيما بعد ، ويكفى أن نلقى نظرة عاجلة على سياسته العامة فى الشرق إلى وقت قيامه بحملته على الفرس ، وقبل أن يتورط فى علاقته ب"كليوباترة" ، وتتخذه هذه الملكة أداة لتنفيذ مآربها ، وتحقيق برنامجها ، نجد أن سياسته كانت تطابق لدرجة كبيرة سياسة أغلب الحكام الرومان الذين سبقوه ، وكانت هذه السياسة تدور حول تأسيس حكومة قوية تشد أزره ، وتكون تكأة قوية له فى زحفه المزمع شرقا على الفرس ، وكانت مصر وعلى رأسها "كليوباترة" ضمن برنامجه هذا كسند قوى له فى الاعتماد على مواردها ودعائم الحكم فى وادى النيل. وعلى هذا النحو كانت فرص النجاح أمامه قوية ، وكان أمله أدنى إلى التحقيق لو أنه تأنى وصبر ولم يتورط فى استباق حوادث الزمان. إن "أنطونيوس" كان يعوزه الصبر اللازم للقيام بعمل دقيق وصعب ، كذلك الذى بدأه ولم يوفق لإتمامه على أكمل وجه. فبينما نجده مغرما بالمشروعات الخلابة التى تسترعى أنظار الناس ، وتستهوى أفئدتهم ، وتثير الدهشة فى نفوسهم، نجده تنقصه العزيمة والجهد الدائم والصبر الطويل ، الذى يحتاج إليه تنفيذ هذه المشروعات ، وقد استهوته الخطوات الأولى من برنامج "قيصر" فى الشرق ، وأقدم على تنظيم عظيم لأملاك روما فى الشرق ووضع إدارتها على أساس متين ، كيما تكون مركزا قوى الدعائم ثابت الأركان ويستطيع أن يعتمد عليه فى إمداده بالذخيرة والمال فى أثناء قيامه بحملته على الفرس ، ولذا بدأ "أنطونيوس" أعمال التنظيم وتوزيع الممالك على الأمراء الموالين

له ، وكان يقضى الساعات الطوال وهو يستمع إلى ما يحمله رسلهم. ومضى فى سبيله ، لا يقف فى طريقه شئ ولا تكأده عقبة ، ففرض الضرائب واشتط فى جبايتها، وسوى الخلاف بين الأمراء والملوك فى الشرق ، وكان عمله يبشر بنجاح عظيم ويرجى منه الخير الكبير لو صمد له وثابر عليه ، ولكنه كان يعوزه - كما قلنا آنفا - الصبر والمقدرة على متابعة عمله هذا ، ووضع الأساس المتين لبناء شامخ شاهق كان يطمح فى تشييده. ومما زاد الطين بلة أن "كليوباترة" عندما اعترضت طريقه ، غلب على أمره إذ عول عليها وعلى مصر ومواردها ، فكان لها فى حسابه وخططه المقام الأول ، وعولت مصر بدورها عليه فى تحقيق آمالها ، ووجدت فيه الملكة أداة طيعة لتنفيذ أطماعها ، ولكنه أثبت أنه كان مخيبا لكل هذه الآمال العريضة.

"أنطونيوس" والمسألة المصرية ولقاؤه "بكليوباترة" :

ولم تكن مصر ممثلة بين الملوك التابعين لروما الذين سارعوا بالحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة "لأنطونيوس" فى "إفسوس" ، وليس من اليسير علينا الآن تعرف الأسباب الحقيقية التى من أجلها تغيبت "كليوباترة" ، ولقد تميز "أنطونيوس" غيظا لتغيبها. وصمم على أن يدعوها للمثول بين يديه لتجيب عما يوجه إليها من تهم ، وهى : تقديمها المساعدة للمؤتمرين بقيصر وقاتليه ، وعدم إرسال مساعدة للذين اقتصوا من هؤلاء القتلة ، مع أنها تدين لقيصر بعرشها على مصر وأنجبت منه ابنا هو "قيصرون" الذى كان محط آمالها. وقد وكل "أنطونيوس" إلى "ديليوس" القيام بمهمة إحضارها ، ولكن من الممكن أن نصدق الرواية التى يسوقها "بلوتارخوس" ، وهى أن "ديليوس" هذا أكد لها حسن نيات سيده ، وأسر إليها أن تذهب إلى سيليشيا على الطريقة الهومرية "فى أحسن زى لها"[1]. وكانت "كليوباترة" على جانب عظيم من الفتنة والجاذبية الشخصية ، ولقد صممت آخر الأمر على تلبية ندائه فأعدت الهبات والزينات ، وجمعت من الأموال ما يليق

---

(١) أن تلبس أحسن حلة لديها كما فعلت "هيرا" فى ملحمة الإلياذة ، وهى ذاهبة للقاء "زيوس" على جبل "إيدا".

بمملكة غنية كمصر ، وكانت تعرف من قبل ميله الغرامى إليها ، ولا بد أن تكون قد عرفت الشئ الكثير عن أخلاقه من قيصر ، وعرفت فيه الآن حاكما مطلقا فى الشرق ، وكان أعظم شخصية فى الدولة الرومانية ، يتسابق فى خطب وده الملوك والأمراء ، لأنهم يرون فيه الحاكم فى المستقبل على جميع أجزاء الدولة الرومانية. وفوق ذلك كان معروفا بقوة البنية ، واعتدال القامة ، ولذلك صممت "كليوباترة" على أن تكسبه لنفسها ، وبنت تحقيق مطامعها ، وأمانى أسرتها ، وإخراجها إلى حيز الوجود والتنفيذ ، على مساعدته، ولكنها مع تصميمها على الذهاب إليه ، ورغبتها فى كسبه إليها ، أظهرت إهمال دعوته إلتى وجهها إليها وتجاهلت الكتب التى وصلتها من أصدقائه تستعجل مقدمها ، وفى آخر الأمر حملت فى جعبتها "لأنطونيوس" من الهدايا والكنوز ما يتناسب وسمعة البلاد المصرية من الغنى ، وسافرت إلى "طرسوس" وهى من أعمال سيليشيا أو قليقية بآسيا الصغرى ، وهنا نقتطف من "بلوتارخوس" وصف رحلة "كليوباترة" فقد قال[1] مايلى :

"إنها ركبت الفلك المشحون بهداياها ، فأخذ يمخر بها عباب الماء ، يلمع فى الجو مؤخره الذهبى ، وقد ارتفعت شراعه إلى أعنان السماء ، ومجاديفه الفضية تهتز فى صفحة الماء وفقا لأصوات الأراغيل والمزامير والقيثارات ، والملكة متكئة على وسائدها ، قد ضربت عليها قبة منسوجة من خيوط ذهبية ، تحاكى فى زينتها وروائها إلهة الجمال "فينوس" ، يطوف بها ولدان بهيو الطلعة ، بهيجو المنظر ، يشبهون رسل إلهة الجمال ويروحون عليها أحيانا بمراوح حريرية قد تماسكت أجزاؤها بخيوط من ذهب. والجوارى من حولها غاديات رائحات ، يحاكين فى منظرهن عرائس البحار ، بعضهن يمسكن بسكانها ، والأخريات يتجاذبن أرسانها ، وأريج العطر يفعم الأنوف ، ونشره قد ملأ الجو ، فانبعث ذلك إلى الشاطئين ، فجاءت الجموع الذاخرة تهرع إليه ، فوجدت فوق ذلك متعة السمع والبصر ، وقد اختلب ذلك المنظر قلوب بعضهم فساير السفينة فى مجراها ، بينما البعض الآخر جاء مسرعا ليقبس بنظره قبسة من ذلك الجمال الذى احتوته جارية فى اليم. حتى

---

(١) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٢٦.

لقد ترك الناس سوق المدينة قاعا صفصفا وانفضوا من حول "أنطونيوس" ، وكان قد جلس لإقامة العدل بينهم ، ليشبعوا نظرهم من "فينوس" ، إلهة الجمال التى هبطت إليهم من السماء فى صورة "كليوباترة" الحسناء التى استضافها "باكوس" إله المرح والسرور وكل ذلك من أجل خير آسيا العام".

ولقد نجحت حيلة "كليوباترة" ، إذ أن "أنطونيوس" بدلا من أن يطلبها للمثول بين يديه ، لتجيب عما يوجه إليها من تهم اضطر أن يرسل إليها لتتناول معه طعام العشاء. وكان جوابها على ذلك أن دعته إلى مائدتها ، مبينة له أن الأجدر برجولته أن يجيب هو دعوتها، وهنا نترك الكلام للشاعر الانجليزى "شكسبير" الذى لخص الموقف أحسن تلخيص فقال على لسان "أهينوباربوس" (Enobarbus) "إن "أنطونيوس" الذى عرف بالمحافظة على اللياقة والمجاملة ، ولم يجر على لسانه أن قال لامرأة "لا" زين نفسه وأحكم هندامه ، وخرج إلى الوليمة بزينته فرأى ما بهر نظره ، وأصاب شغاف قلبه ، ثم جلس إلى مائدتها ، وقد أسلم إليها أعز ما يملك الإنسان" ، وقد خلد لنا "سقراط" الرودى وصف هذه الوليمة التى أقامتها "كليوباترة" فى كتابه الثالث عن الحرب الأهلية ، ونقلها عنه "أثينايوس" فى كتابه الرابع من موائد الحكماء[1] فقال : إن جميع أدوات الوليمة الملكية التى أقيمت تكريما "لأنطونيوس" كانت من الذهب الخالص والآنية مرصعة بالجواهر ، وقد أتقنتها أيدى صناع مهرة ، وكانت الجدران مغطاة بستائر من الدمقس والحرير المزركش ، وقد علقت عليها قطع مصنوعة من الأرجوان والخيوط الذهبية ، لتكون بهجة للناظرين. ولقد دعت "كليوباترة" "أنطونيوس" وصحبه المخلصين لهذه الوليمة ، فبهروا كلهم بجمال وغنى هذه المعروضات ، ولما انتهت هذه الحفلة ألحت عليه هو وحاشيته أن يعودوا للعشاء معها فى اليوم التالى ، وكانت الوليمة الثانية أفخر من الأولى ، حتى إن الآنية التى استعملت فى الوليمة الأولى ضؤلت بجوار مثيلاتها التى استعملت فى المرة الثانية. وعند انتهاء الحفلة أهدت إليهم وإلى غيرهم ممن حضروا ، الأسرة والنمارق التى جلسوا عليها ، والآنية

---

(1) Athenaeus, Deipnosophistae, IV, 147-148.

التى وضعت أمامهم. أما كبار المدعوين فلقد قدمت إليهم الخيل المطهمة ، وأرسلت أمامهم العبيد والأحباش وهم يحملون المشاعل ، وفى اليوم التالى احتفل "أنطونيوس" باستقبالها ، وبذل جهدا جاهدا كبد فيه مدينة "طرسوس" من النفقات ما لم تقو عليه ، وذلك رغبة منه فى أن تولم وليمة تسامى ، فى الأبهة والعظمة، الوليمتين السابقتين اللتين أقامتهما "كليوباترة" له ، ولكن البون الشاسع بين المحاولتين كان ظاهرا للعيان ، فوليمته تعد مشوبة بالخشونة والسذاجة إذا ما قرنت بسابقتيها ، ولم يتأخر هو نفسه عن أن يكون أول من يعترف بقصوره وعجزه ويسخر من محاولته.

وإلى هنا ينتهى حديثنا عن المقابلات الأولى ، ومنها نرى أنها لم تكن سوى مجاملات بتبادل الدعوة إلى الطعام والمباهاة بتعدد ألوانه ، وأن تكون أدواته مظهرا للترف والغنى والبذخ. ولننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن معاملة "كليوباترة" "لأنطونيوس" التى كانت تختلف عن معاملتها لقيصر ، لاختلاف الرجلين فى النشأة والمشرب ، فكانت ملاحظات "أنطونيوس" وسخريته ونوع تهكمه من نوع ما يصدر عادة عن الجند ، وليست مما هو خليق بالندماء وجلساء الملوك والملكات الذين تشف أحاديثهم ونوادرهم عن براعة وصقولة فى اللفظ لا تدانيها براعة. ولقد أدركت "كليوباترة" بمهارة فائقة مدى الفارق ، وتنزلت إلى المستوى الذى كان عليه "أنطونيوس" ، فأكسبتها هذه المقدرة شهرة طبقت الآفاق ، واستحقت بجدارة اللقب الذى أسبغه عليها مؤرخو الإفرنج "محظية الملوك" لأنها بذت جميع النساء فى المهارة فى معاملة الرجال. ولقد نجحت "كليوباترة" فى خطتها ، وتبدلت الحال إذ "صار "أنطونيوس"" كما يقول المؤرخ "ديو"كاسيوس"" نصيرها والمدافع عنها ، يذب عنها التهم ، مع أنه كان يريد أن يوقفها موقف الاتهام ، ويقف منها موقف الحكم"، ولكن المؤرخ "أبيان"[1] يخالفه فى ذلك ، ويؤكد أن "أنطونيوس" لامها فى الواقع على عدم اشتراكها فى الانتقام لقيصر من قتلته ، وأنبها على عدم اعتذارها، ولكنها دافعت عن نفسها بقولها إنه كان فى عزمها أن تقدم المساعدة ،

---

(1) Appian V. 8-9.

وأنها بالفعل أرسلت أربعة فرق بقيادة "دولابلا" (Dolabella) ، وأنها هى شخصيا لم تعر كلام "كاسيوس" - وهو أحد القتلة - أدنى اهتمام ، ولم تلب طلبه ، وأنها بدأت وأبحرت على رأس أسطولها ، الذى عصفت به العواصف وحطمته الزوابع ، فاضطرت إلى العودة إلى الإسكندرية حيث أصابها المرض ، ولازمها حتى عقد لواء النصر النهائى لهم على قتلة "قيصر"(١).

ويظن بعض المؤرخين أن "أنطونيوس" عفا عنها انتظارا لمساعدتها ، التى منته بها فى حربه المستقبلة مع الفرس ، ولكن المؤرخ "أبيان" اتفق مع جميع المؤرخين الأقدمين فى قوله إن "أنطونيوس" شده العجب لذكائها الفذ ، وجمالها الفتان فأصبح أسيرها وهو الذى كان قد أخذ على نفسه أن يقوم بكل ما تأمره به ملكته ، بدون اعتبار لجميع القوانين ، سواء أكانت وضعية أم سماوية ، فأمر بأختها المسماة "أرسينوى" (Arsinoe) التى كانت تعتبر حياتها خطرا على عرش "كليوباترة" فى مصر أن تقتل مع أنها كانت معتصمة بمعبد الإلهة "أرتيمس" (Artemis) فى "إفسوس" ، كما أمر بقتل مدع عرش مصر وهو المسمى "بطلميوس" الرابع عشر، كان قد ظهر فى فينيقيا ولقد تخلصت "كليوباترة" من هذين من غير ما جلبة. وإن قتل "أرسينوى" قد سود صحيفة "كليوباترة" أبد الدهر ودنس شهرتها ، ويميل المؤرخون إلى أن يتخذوا من قتلها لأختها تكأة للطعن فى أخلاقها ، فيسوقونه مثلا حيا لقسوتها وحبها للانتقام ، ولكن لا يصح أن ننظر إلى الملكة بهذا المنظار القاتم، ونصب عليها جام غضبنا ، ويكفى للتخفيف من شناعة ذلك الجرم أن نذكر فى حكمنا عليها ، أنه كانت العادة عند البطالمة رجالا ونساء على السواء - ألا يجعلوا للرحمة أى سبيل فى معاملة ذوى قرباهم ، خصوصا من كان يعد من هؤلاء خطرا

---

(١) قيل فى وقت من الأوقات إنها آثرت أن تقف موقف الحياد بالنسبة للطرفين ، وإنها آثرت الانتظار حتى ترى الجانب الراجح فتؤيده وتنصره - أنظر بيفان فى كتابه عن "مصر على عهد أسرة البطالمة" ص ٣٧٣-٣٧٤ ، وفى هذا الرأى تناقض واضح لما جاءت به الأدلة التاريخية الواردة فى "دبو" ، و"أبيان". ويفسر بيفان دفاع "كليوباترة" وتذرعها بهبوب العواصف بأنه غير جدى ، ولا يمكن تصديقه ويعتبره من قبيل المهاترات النسائية.

دائما وسلاحا مشهورا يهدد عروشهم ، ولقد شاع قتل الملوك لذوى قرباهم. بل أبناءهم عند اللزوم ، حتى لقد سرى لأبنائهم عليهم المثل المشهور "الملك عقيم".

ولم تطل زيارة "كليوباترة" لمدينة "طرسوس" أكثر من أسابيع قليلة عادت بعدها إلى الإسكندرية ، بعد أن نجحت فى الحصول من "أنطونيوس" على وعد بأن يلحقها إلى الإسكندرية ، ليقضى فصل الشتاء معها (٤١-٤٠ ق.م). وترك "أنطونيوس" "ساكسا" (Saxa) الأسبانى ، الذى كان فى خدمة الدكتاتور قيصر رئيسا على القوات المرابطة بسوريا ، وأسرع فى اللحاق بالملكة بالإسكندرية فى أوائل فصل الشتاء من عام ٤١ ق.م، حيث استقبل استقبالا فخما فى القصر الجميل المعروف بقصر "لوخياس" فى الحى الملكى (بمنطقة السلسلة بالشاطبى) ، وهناك أمضى فصل الشتاء ، كفرد عادى مجرد من أبهة الملك ، وصولة الحكم ، فخلع أوسمة القائد الرومانى ، وزى بلاده الأصلي ، واستعاض عنه بالزى اليونانى والحذاء الأثينى الأبيض ، وكان يقضى مع "كليوباترة" معظم وقته ، ما عدا زيارات بين حين وآخر ، كان يقوم بها لرؤية المعابد والمدارس ، ويحضر مناقشات العلماء والفلاسفة ، ويقول "بلوتارخوس" بصدد هذه الزيارة : إن "أنطونيوس" أمضى وقته فى الإسكندرية فى راحة ، وبذا أفنى أثمن الأشياء القيمة كلها ، وهو الوقت فألف ناديا عرف بنادى "الزملاء الذين لا يحاكون" (Amimetobioi) ، وكان أعضاؤه يحتفون بزملائهم ويبسطون أيديهم كل البسط ، وينفقون عن سعة ، ولقد كشف المنقبون فى مصر عن مخطوطتين يونانيتين ، إحداهما بالإسكندرية ، على قاعدة تمثال "لأنطونيوس" كتب عليه ""أنطونيوس" ذو اليد البيضاء الذى لا يجارى" ، أما الثانية فهى قربان "لأنطونيوس" العظيم ذى الباع الطويل ، والبسطة العظيمة فى الرزق". وكانت الإسكندرية تموج بمثل هذه النوادى ، التى كانت مكونة على نسق مثيلاتها فى المدن الحرة ببلاد اليونان وآسيا الصغرى ، ولكن بكل أسف لم توجد بمؤلفات "بلوتارخوس" "وآثينايوس" "وديوفم الذهب" سوى إشارات قليلة جدا إلى هذه النوادى السياسية والاجتماعية ، وكان أحد أجداد "كليوباترة" الأولين ، وهو "بطلميوس" الرابع الملقب "فيلوباتور" يحرص على قضاء معظم وقته مع

أعضاء مثل هذه النوادى من الرجال والنساء الذين عرفوا باستهتارهم وبمجونهم[1].

ولقد كون "أنطونيوس" و"كليوباترة" ناديهما على نسق جد الملكة الأكبر "فيلوباتور" هذا ، وسبب تسمية هذا النادى بهذا الاسم أن الملكة كانت تريد ألا يتسرب لذهن أحد مهما تكن ثروته ، أنه فى مقدوره أن ينافس آخر ملكات أسرة البطالمة، وأن يحاول مجاراتها فى بذل المال للاحتفاء بأصدقائها بترف وإسراف يتناسبان مع ما تستطيع مصر واليونان والفرس وروما تقديمه. وإذا ساغ لنا أن نحكم على ما كانت تحتويه هذه الموائد - مما نعلمه عن مثيلاتها التى نسقت على نظامها فى عهد الإمبراطورية الرومانية ، ووصفها لنا "بترونيوس" (Petronius) صديق الإمبراطور "نيرون" - استطعنا أن نتصور مقدار العظمة والفخامة التى كانت عليها هذه الولائم ، حيث كان الضيوف يجلسون على كراسى من الفضة فى بهو عظيم أعد للاستقبال ، ولإقامة الولائم فى القصر الملكى. ولا حاجة بنا إذا إلى أن نعيد سرد القصص التى قصها "بلوتارخوس" عن طهاة القصر الملكى ، وإسرافهم إلى حد يفوق التصور. وفى أثناء سرد "بلوتارخوس" لأخبار هذه الولائم ، لم يفته أن يذكر أن "كليوباترة" كانت تفكر على الدوام فى ابتداع وسائل جديدة كيما تقر بها عين "أنطونيوس" ، وتدخل عليه المسرة ، حتى لا يتطرق السأم إلى قلبه ، فكانت تصحبه فى كل مكان ، وكانت عندما تشعر منه أنه لا يجد ميلا لسماع محاضرات العلماء أو لرؤية التمرينات والاستعراضات العسكرية ترتدى ملابس العبيد ويحذو هو حذوها ، ويصحبها متنكرين فى شوارع الإسكندرية يبحثان عن مخاطرات ومغامرات جديدة ، ولم يكن تنكرهما لتعرف أحوال الرعية ، بل على النقيض من ذلك كان "أنطونيوس" يقوم بحيل غير مألوفة ، وألاعيب صبيانية يتبذلان بها ، فكان يترتب عليها فى بعض الأحيان أن كانا يعودان إلى القصر "وقد

---

(١) كتب المؤرخ "بوليبيوس" واصفا لحياة البلاط فى عصر "فيلوباتور" هذا وما كان يقوم به طغمة من بطانة الملك ووزيره الماكر "سوسبيوس" من المؤامرات والدسائس مستعينا بثالوث مؤلف من "أجاثوكليس" وأخته الجميلة "أجاثوكليا" وأمهما "أويناثى". وفى هذا الوصف صورة من ألوان الفساد الذى أخذ يتفشى فى بلاط البطالمة أنظر (بوليبيوس، الكتاب الرابع عشر والخامس عشر).

أوسعهما الأهالى سبا ، بل وفى بعض الأحيان لكما وضربا"[1]. وفى صدد هذه الفكاهات يعتذر "بلوتارخوس" للقارئ بقوله "إنه من العبث أن نحصى ألاعيب "أنطونيوس" وحيله الجنونية التى لا تدخل تحت حصر وعد ، ولكننا لا يصح أن نغفل حادثة منها وهى حادثة صيده التى نذكر هنا تفاصيلها الشائقة ، وهى تبين كيف استفادت "كليوباترة" من سعة صدر "أنطونيوس" ، وقبوله للنادرة ، ولو كانت تساق مساق السخرية به. ففى ذات يوم خرج "أنطونيوس" للصيد ومعه جمع كبير من الناس ، ولما اصطاد سمكة لا تعيش إلا فى مياه البحر الأسود ، ضحك كل من حوله وسخروا منه ، ولكن "كليوباترة" التفتت إلى الصياد الحزين الكئيب قائلة له "دع أيها القائد شبكة الصيد لنا معشر ملوك "فاروس" و"كانوب" الفقراء ، فإن صيدك وقنصك يكونان فى الاستيلاء على عروش الملوك وفتح الأمصار ، وتدويخ المدائن[2]. ولم يكن منظر "أنطونيوس" وهو منغمس فى ملاذه وشهواته مثيرا لشعور أهل الإسكندرية الذين احتملوه ، وغضوا الطرف عن ألاعيبه ، ولقد أثار حبه للهو واللعب شفقتهم عليه ، وكانوا كثيرا ما يلاحظون عليه أن كان يكشر عن أنيابه للرومان فيظهر عبوسا قمطريرا فى وجوههم ، حين يطفح وجهه بالسرور والبشر فى الإسكندرية وبين أهلها.

وكانت "كليوباترة" كجداتها وبنات لحمتها اللائى كن يتسمين باسمها أو "بأرسينوى" أو "برنيقة" يكون سلسلة من النساء الشهيرات ، وقد شهد لهن التاريخ بالنشاط الجم وطول الباع فى السياسة ، وهن ذوات أطماع شخصية ويعملن جهد استطاعتهن لتحقيقها ، ولم تكن ملكات أسرة البطالمة ، كما هو معروف عن أصلهن المقدونى ، يتورعن عن أن يتآمرن وينصبن شباك المكايد لذوى قرباهم ، وكانت الملكات تشتركن فى السياسة ، وتتدخلن فى شئون الملك كغيرهن من الرجال ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك وأولاها "أرسينوى" الثانية أخت وزوجة "بطلميوس" الثانى الملقب (بفيلادلفوس) ، ثم "برنيقة" زوجة

---

(1) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٢٩.
(2) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٢٨.

"بطلميوس" الثالث الملقب "يورجتيس" ، وكلاهما كان لهن باع طويل فى التآمر، ونصب الشباك لتحقيق المطامع والأغراض الشخصية ، وكان آخر مثل على ذلك "كليوباترة" السابعة ، وقد أفاضت "ماكردى" (Macurdy) فى كتابها عن الملكات الهيللينستيات (Hellenistic Queens) فى الكلام عن سلسلة من هؤلاء ، ابتداء من "أوليمبياس" والدة "الإسكندر الأكبر" إلى "كليوباترة" السابعة آخرتهن[1] ، وكان الدافع الحقيقي لارتكاب جرائمهن والانغماس فى شهواتهن ، أطماعهن السياسية ، وليست شهواتهن الحسية، ولذلك لا يجوز أن يتسرب إلينا شئ من العجب عند قراءتنا لتاريخ آخر ملكات هذه الأسرة ، التى كانت على الدوام على أتم استعداد لاستخدام وسائل شيطانية ، فى سبيل تحقيق أطماعها ، فهى لم تكن تتورع عن أن تلوث الجرائم يديها لتبلغ أمانيها ، فكان من الهين عليها أن تتآمر وتدس الدسائس مع "قيصر" لتوطيد عرشها فى الماضى ، وصممت فى هذه المرة على ألا تترك مصر تسقط فى يد الدولة الرومانية بمثل السهولة التى سقطت بها ممالك الشرق الأخرى. وإن مظاهر العظمة والثروة التى تجلت فى رحلتها إلى سيليشيا ، لم تكن صادرة عن رغبة فى إشباع غرام أجوف ، ومجرد هيام امرأة خال من المرامى والغايات ، بل إنها أحكمت تدبير كل الدقائق والتفاصيل التى كانت نتيجة تفكير سابق، وتدبير قديم ، كى تقيم البرهان الحسى "لأنطونيوس" قائدها وزوجها ونصيرها فى المستقبل القريب على عظم ثروة مصر ، فتبهر أنظاره بثروة هذه البلاد ، وصادف أن كان ذلك وقت أن كان "أنطونيوس" فى حاجة ماسة إلى المال ، وكانت "كليوباترة" هى الأخرى فى حاجة إلى جهد "أنطونيوس" كيما تستعين به فى التغلب على أعدائها من بين الطبقات الراقية فى مصر ، وزيادة على ذلك فلقد كان ملوك البطالمة كغيرهم من ملوك الشرق الهللنستى فى ذلك الوقت ، يتقربون من الدولة

---

(١) فى هذا المؤلف العلمى تناولت تلك الكاتبة الأمريكية دراسة مستيفضة عن حياة عدد من هؤلاء الكليوباترات والأرسينوات والبرنيقات الشهيرات وقارنتهن بنظيراتهن وبينت أوجه الشبه فى سلوكهن ورمت بعضهن بأنهن كن نمرات ، محبات للسلطان ولا يتورعن ابدا عن ارتكاب أى من الموبقات ، وركوب متن الشطط فيقتلن أقرب الناس إليهن فى سبيل تحقيق أهدافهن.

الرومانية ويخطبون ودها ويخشون غضبها وبأسها. أما "أنطونيوس" فلم يجد فى آسيا مصدرا لتلك الثروة التى كان يحلم بها - لقد أنهكها توالى الضرائب والغرامات حتى أصبحت فى حالة فقر مدقع. أما مصر فكانت هى الدولة الوحيدة التى احتفظت حتى ذلك التاريخ باستقلالها الإسمى ، وكانت ذات شهرة عالمية بغناها وكثرة كنوزها ، وكان ملوك أسرة البطالمة الأخيرين يعتمدون فى الحق على نفوذ الدولة الرومانية. فلما اعتلت "كليوباترة" عرش آبائها المزعزع الأركان كان لأسرتها ظل من ذلك النفوذ القديم ، وكانت تلك الملكة المليئة بالطموح تطمع فى إعادة ذلك المجد التليد ، الذى كان لأجدادها من قبل ، ثم عفا عليه الدهر ولم تبق منه سوى آثاره وبذلك تعيد تاريخ أجدادها الأول ، وتجعل من سخرية الملك المزيف حقيقة تطمئن لها نفسها. ولم يكن تحقيق ذلك الحلم بالأمر المستحيل عليها ، إذ كان لديها من المال ما يضمن تنفيذه ، ولم ينقصها سوى نفر من الجند والقائد الفذ، ولذلك كان عليها أن تعمل لروما حسابا وألف حساب فى خططها ، فصممت على أن تستخدم روما كآلة فى تنفيذ برنامجها وتحقيق أطماعها، فخطبت من قبل ود "قيصر" عند حضوره إلى مصر ، وفى هذه الفرصة خطبت ود "أنطونيوس" الذى وجدت فيه شخصا آخر يمكنه أن يمثل ذلك الدور الذى طمعت من قبل فى أن يمثله "قيصر" فى برنامجها الإمبراطورى - ولذلك أخذت على عاتقها أن يكون "أنطونيوس" منحازا فى صفها ، وأن تؤثر فيه منذ البداية بفتح قلبها له ، وإغرائه بكل ما تملك المرأة من وسائل الإغراء - ثم عرضت عليه فى "طرسوس" مشروعا خلابا يتضمن عقد محالفة بينهما ، ولقد كانت رغبتها أن توقظ شغفه وأن تريه إمكان جعل مصر مركزا لحملة عدائية ضد روما : كما أرادت أن تجعله يؤمن بأنه إذا انتصر لقضيتها وقضية ابنها ""قيصرون"" الذى ولدته "لقيصر" ، وضعت تحت يده ثروة مصر وكنوزها التى لا تفنى ، فيملأ بها خزائنه الخالية الوفاض ، وكان قد اعترف من قبل بابنها كشريك لها فى ملك مصر فى

عام ٤٢ ق.م ووافق كل من "أنطونيوس" و"أكتوفيوس" على ذلك ، وكان قد لقب "قيصرون" كما يأتى "بطلميوس قيصر" المحب لأبيه وأمه"[١].

كان "أنطونيوس" وهو الخليفة الفعلى لقيصر هو الشخص الوحيد الذى يمكنها إذا ما تحالفت معه ، من أن يفتح لها هذا الملك العريض ، الذى كانت تصبو نفسها إليه ، والذى كان قتل قيصر السابق لأوانه سببا فى يأسها أمدا قصيرا من تحقيقه. وعلى ذلك كان لزاما عليها أن يتفهم "أنطونيوس" تلك المزايا الحقيقة التى تنجم عن اشتراكهما فى العمل سويا ، وضرورة مساعدتها له ماديا كيما يتخلص من منافسه ومناظره فى المستقبل وهو عدوه اللدود. فعليها إذا أن تريه عظم الثروة المصرية التى كانت كلها تحت تصرفها حتى تكسب مساعدته. وإذا ما رأى عمليا مقدار ما عليه البلاد من الثروة كان من غير المعقول أن يرفض القيام بمشروع يصل به إلى الذروة فيقبض على العرش بيديه ، ويصبح هو و"كليوباترة" وابنها "قيصرون" ملوك العالم الثلاثة – على ضوء كل هذه الحقائق يجب أن ننظر إلى مسلك "كليوباترة" فى ذلك الحين ، ونفسر بذلها عن سعة فى طرسوس وفى المحافل التى أقامتها بالإسكندرية ، فلا ننساق وراء أعدائها ، وننسب كل هذا إلى مجرد التبذير والإسراف والغرور من جانب "كليوباترة" ، إذ كان كل ذلك فى واقع الأمر صادرا عن أسباب سياسية ، ولا نكون بعيدين عن جادة الصواب أو مغالين إذا اعتبرنا أن هذا المسلك كان فى الواقع تمهيدا لعقد تحالف نهائى بينهما عندما تسنح الفرصة المناسبة لكشف القناع ، واتخاذ هذا المسلك النهائى.

وكان الفرس قد انتهزوا فرصة غياب "أنطونيوس" ، وذهابه لمصر لقضاء فصل الشتاء من عام ٤١-٤٠ ق.م مع "كليوباترة" ، تاركا الأمر "لبلانكوس" فى آسيا الصغرى "وساكسا" فى الشام ، وهاجموا الرومان فى كل مكان ، واقتحموا المعاقل والحصون فى الشام وآسيا الصغرى ، منتهزين فرصة هيام "أنطونيوس" وغرامه بالملكة "كليوباترة". وانقضوا على جيوش الرومان التى كانت متخاذلة خائرة القوى ، فاكتسحت جيوش الملك الفارسى "أروديس" (Orodes) بمعونة

---

(١) مجموعة النقوش اليونانية (Corpus Inscriptionum Graecarum).

رومانى فار اسمه "لابينوس" (Labienus) ، أقاليم كثيرة ، كان قد أغضبها سوء معاملة الرومان ، وثقل الضرائب على كاهل أهلها والمغارم التى كانوا يرزخون تحت أعبائها فاستولى الأعداء على سوريا وفينيقيا ، وفر كل من "ساكسا" "وبلانكوس" عاملى "أنطونيوس". ويدعى المؤرخون الأقدمون أن "أنطونيوس" استهان بشئون الدولة فلم ينفض عنه نفوذ "كليوباترة" ، ولم يسارع لمحاربة الفرس فى الشام وآسيا الصغرى أو لمساعدة زوجته "فلفيا" وأخيه "لوكيوس" "أنطونيوس" ، وكان كلاهما قد أثار حربا ضد "أكتوفيوس" فى إيطاليا. وفى تعرف الدوافع الحقيقية لتلك الأحداث التاريخية ، كان معظم الكتاب الأقدمين يلقون القول على عواهنه من غير تمحيص للحقائق ، ولا تحر للدقة ، فقالوا إن "أنطونيوس" كان ناسيا كل شئ غارقا فى بحار حبه ل"كليوباترة" ، حتى لقد أسرف المؤرخ "ديو" ، فزعم أنه كان "غارقا فى أدنان الخمر" ، وإننا لنعترف بادئ ذى بدء أن "أنطونيوس" أمضى جزءا كبيرا من وقته فى الإسكندرية فى إشباع شهواته ، إلا أن جاذبية "كليوباترة" لا يمكن أن تكون هى السبب الوحيد فى استهانته التى يزعمونها. وإنه لمن السهولة بمكان أن ندحض هذه المزاعم والمآخذ على "أنطونيوس" بالملاحظات الآتية التى أهملها الرواة الأقدمون ، فمنها أن "أنطونيوس" لم يلحق "بكليوباترة" فى الإسكندرية إلا بعد أن كان الخلاف فى إيطاليا بين زوجته وأخيه وبين "أكتوفيوس" قد استفحل ، ومنها أن الحصار الذى ضرب على أنصار "أنطونيوس" فى بيروسيا بإيطاليا وقع فى منتصف فصل الشتاء ، وقت أن كانت الملاحة فى البحر المتوسط عسيرة ، وهذا يجعلنا نجزم بأن أخبار الحصار لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى أسماع "أنطونيوس" إلا فى بدء عام ٤٠ ق.م ، وذلك بعد سقوط هذا الحصن وفوات أوان إرسال أى نصيب من العون والمساعدة. وفوق ذلك فإنه عندما ترك "أنطونيوس" الإسكندرية لم ير "كليوباترة" على مدى مدة طويلة بلغت نحو أربع سنوات ، وهذه حقيقة تكفى للبرهنة على صحة الرأى القائل بأن محبة "أنطونيوس" "لكليوباترة" لم تكن سببا مباشرا يشغله عن التفرغ للشئون السياسية عندما تدعوه المخاطر إلى التقدم للقائها.

وقد غادر "أنطونيوس" مدينة الإسكندرية فى أوائل فصل الربيع . وسافر إلى صور بطريق البحر قاصدا إنقاذ تلك المدينة ، وتخليصها من يد الفرس ، ولما وجد أن كل سوريا قد سقط فى يد العدو ، ترك المدينة تنتظر حظها واعتذر بقوله إن وجوده أصبح ضروريا فى إيطاليا ، ولقد علم بخبر سقوط مدينة بيروسيا وهو فى ميناء بحرية بآسيا الصغرى ، فأنحى باللائمة على زوجته "فلفيا" وأخيه "لوكيوس" وترك "فلفيا" مريضة فى بلاد اليونان ، وركب البحر الأدريانى ميمما شطر برنديزى فى إيطاليا ، حيث ألقى مراسى سفنه آخر الأمر على سواحلها ، وأخذ يفاوض فى إجراء الصلح مع "أكتوفيوس" ، ونجح بعض المصلحين فى إزالة نوازع الشر بين قائدى الرومان العظيمين ، وفى هذه المرحلة وصل خبر موت "فلفيا" فاستراح كلا الجانبين لتخلصهما من امرأة مشاكسة. ولقد تم الاتفاق بين القائدين على معاهدة تعرف باتفاقية برنديزى فى سبتمبر سنة ٤٠ ق.م ، واتفق فيها على إعادة تقسيم العالم الرومانى من جديد إلى قسمين تفصل بينهما مدينة "اشقودرة" فيكون من نصيب "أنطونيوس" كل بلاد الشرق ، ويكون من نصيب "أكتوفيوس" دالماشيا وإيطاليا وسردينيا وأسبانيا وبلاد الغال ، ووكل إلى "أنطونيوس" أن يأخذ على عاتقه إخضاع الفرس. ولتوثيق عرى المودة بين الطرفين المتعاقدين قبل "أنطونيوس" أن يتزوج من "أكتافيا" وهى أخت غير شقيقة ل"أكتوفيوس" وأصبح هذا الزواج ممكنا بعد موت "فلفيا" التى قيل إنها ماتت حزنا وكمدا لعدم اكتراث "أنطونيوس" بها وإنصافها والانتقام لها مما أصابها من ""أكتوفيوس"" واستطاعت "أكتافيا" بما أوتيت من جمال محتشم وخلق كريم ومقدرة عقلية أن تكسب قلب زوجها وقتا ما ، فلم يرجع إلى "كليوباترة" وولديها التوأمين لبضع سنين. وبمجرد الانتهاء من عقد تلك المعاهدة مع "أكتوفيوس" اتجه نظر "أنطونيوس" نحو إخضاع الفرس وطردهم من البلاد التى استولوا عليها فى الشام وآسيا الصغرى ، فعين القواد وبث فيهم روح الحماسة ليبذلوا أقصى ما فى وسعهم لاسترداد الأقاليم التى ضاعت ووقعت فى يد الفرس منذ سنتين ، وقد أمكن تشتيت شمل الفرس وإلحاق الخسائر بهم ففروا تاركين الشام وسيليشيا (قيليقية) للرومان ، ولما أعادوا الكرة لمهاجمة الشام فى السنة التالية أى سنة ٣٨

ق.م ، صدوا مرة أخرى ، واستطاع الجيش الرومانى أن يكسب نصرا مجيدا ومؤزرا ، وقد احتفى "أنطونيوس" فى أثينا بما كسبه هو وقواده من انتصارات ، وأسبغ عليه الآثينيون من ألقاب الشرف ما يتناسب مع المجهود العظيم الذى قام به فى حربه مع الفرس ، ثم أقيمت صلاة الشكر وسارت مواكب النصر إجلالا واحتراما "لأنطونيوس" ولنفر من قواده ، وفى ربيع عام ٣٧ ق.م ، غادر "أنطونيوس" أثينا فى طريقه إلى تارنتوم لمساعدة زميله "أكتوفيوس" ، ولكن الأخير تلكأ فى مقابلته وتردد فى قبول المطالب التى كان قد عرضها عليه ، وكان من الجلى أن شيئا من سوء التفاهم قد دب بينهما ، وقد توسطت "أكتافيا" فى الأمر بين الاثنين واستطاعت تلك الإمرأة العجيبة على حد قول "بلوتارخوس" أن تقيم السلام بين زوجها وأخيها عندما كان تحالفهما مهددا بأن تنفصم عراه سنة ٣٧ ق.م ، فتقابلا بالقرب من "تارنتوم" ، وقبل كل طرف من الطرفين مطالب الآخر من جند وسفن لتنفيذ برنامجه ، وكتب المؤرخ "أبيان" أنهما حسما الخلاف فى أهم موضوع كان عالقا إذ ذاك ، وبما أن مدة الاتفاق أو الحلف الثلاثى (Triumvirate) التى منحت لهما كانت على وشك الانتهاء ، فإنهما جدداها لمدة خمس سنين أخرى بدون الرجوع إلى الشعب الرومانى"[١]. ولما تم الوفاق بينهما افترقا فعاد "أنطونيوس" إلى الشرق ، ورد زوجته "أكتافيا" إلى إيطاليا من جزيرة كورسيرا[٢]، بحجة أنه لا يجب تعريضها إلى أخطار الحرب الفارسية.

حملة "أنطونيوس" على بلاد الفرس عام ٣٦ ق.م ودور "كليوباترة" :

ترك "أنطونيوس" زوجته "أكتافيا" ومعها أبناؤها بعد أن غادر إيطاليا عائدا إلى سوريا ، وهو مكتئب على شئ كثير من الامتعاض ، وكان مسلكه الذى استنه لنفسه بعد ذلك فى الشرق يدل على أنه كان متأثرا بالحوادث التى وقعت بينه وبين "أكتوفيوس" قبل عودته إلى الشرق مباشرة ، إذ كانت حالة "أكتوفيوس" فى أثناء مفاوضاته ومساومته مع "أنطونيوس" سببا فى إثارة كثير من الشك والخوف

---

(١) أبيان ، الحرب الأهلية ، ٧، ٩٥.

(٢) Dio, XLVIII, 54 .

فى نفسه، ولم يكن قد نسى الإهانة التى أصابته من "أكتوفيوس" فى تارنتوم ، واضطرته أن يلح فى عقد اتفاق لم يكن بأى حال ذا منفعة كبيرة له. وعلى ذلك كانت هذه التسوية غير المرضية التى تمت فى تارنتوم ، مضافا إليها ذلك الصلف الذى أظهره "أكتوفيوس" فى هذه الأثناء من الأسباب التى جعلت "أنطونيوس" يفكر مليا فى اتخاذ أقوم الطرق ليسلكها فى المستقبل ، ولا بد أن يكون قد تأكد أن سلطة مناظره قد ازدادت فى أثناء غيابه عن إيطاليا ، ولعدم مقدرته على جمع الأموال من آسيا التى كانت فى ضيق ، قارب حد الإفلاس. وفوق ذلك كله فإن أعداء "أنطونيوس" كانوا على أتم استعداد لكى ينسبوا عدم وجود هذه الأموال لديه إلى انغماسه فى شهواته فى الشرق ، ولقد أدرك الطرفان أن وقوع النزاع والاصطدام وشيك ، ولكن "أنطونيوس" رأى أن أولى الخطوات التى كان يجب أن يخطوها ، أن يسترد محبة الرومان له بكسب انتصارات باهرة ، ولكن تنفيذ ذلك المشروع كان يتطلب المال الذى هو فى حاجة ماسة إليه. واضطرته حاجته المالية هذه أن ينزل عن جزء من أسطوله فى تارنتوم لزميله ، ولقد كانت هذه المصاعب المالية هى السبب الأكبر فى تحالفه مع "كليوباترة" ومصر التى كانت أغنى بلاد الشرق فى ذلك الوقت ، إذ لم تخربها الحروب الأهلية، والثورات الداخلية منذ بضع سنين. وقد رأى بثاقب فكره أن هذا التحالف المرتقب سيكفل له أن تضع مصر تحت تصرفه كل ما يحتاج إليه من الأموال للإنفاق على جيشه ، وتنفيذ مشروعاته الواسعة النطاق. وتحت سلطان تلك الاعتبارات أرسل رسوله "فونتيوس كابيتو" (Fonteius Capito) إلى الإسكندرية يدعو "كليوباترة" إلى مقابلته فى سوريا. أما عن مشاعر "كليوباترة" إزاء تلك الأحداث الجسام طوال أكثر من ثلاث سنوات ، كان فيها "أنطونيوس" معرضا عنها كل الإعراض ، وتاركا إياها من أجل سيدة رومانية، فإن التاريخ لم يسجل لنا شيئا عن ذلك ، وإنه لا يمكن الجزم بحقيقة نية كل من "أنطونيوس" و"كليوباترة" فى ذلك الحين - أكان ينوى العودة إلى أحضان "كليوباترة" ؟ وهل كانت تطمع فى أن يعود إليها بعد أن تركها فى المرة الأولى فى أوائل فصل الربيع من عام ٤٠ ق.م ؟ أم تسرب إلى ذهنها أن "أنطونيوس" هجرها ؟ ولكن لا يمكن أن نتصور "كليوباترة" وهى حزينة كئيبة وقد استولى عليها الجزع.

واستسلمت لليأس ، ملقية بنفسها فى داخل قصرهـا وهـى تـذرف الدمع الهتـون حزنا على سفر "أنطونيوس" ، وليس هناك من شك فى أن "أنطونيوس" الذى كان يعلم علـم اليقـين أن مسـاعدتها كـانت ذات قيمـة ومنفعـة كبـيرة لـه فـى حربـه المستقبلة ، وفى تسوية النزاع بينه وبين زميله على السيادة فى العالم ، لابـد كـان يراسلها فى أثناء غيابه ، كما نستنبط ذلك من علاقتهما التى اشتدت أواصرها بعد ذلك ، كما أنه لا بد أن يكون قد حاول أن يبرر لها أن زواجه "بأكتافيا" كان لغاية سياسية. وبينما كانت "كليوباترة" تحكم مصر بالاشتراك مع ابنـها ""قيصـرون"" ، كانت ترقب باهتمام عظيم حركات هذين الزعيمين الرومانيين ، كمـا أن مـن تثـق بـهم مـن المصريـين الذيـن كـانوا فـى حاشـية "أنطونيـوس" لا بـد أنـهم أمدوهـا بالمعلومات أولا بأول عن التغيرات السريعة والتسـويات السياسـية التـى تمـت بـين القائدين. وعلى ذلك يمكن القول بأن دعوة "أنطونيـوس" لهـا لمقابلتـه فـى الشـام كـانت راجعـة إلى اعتبـارات سياسـية أكـثر منـها غراميـة ، وليـس كمـا يقـول "بلوتـارخوس" الـذى يعلـل مسـلك "أنطونيـوس" بقولـه "إن ولـع "أنطونيـوس" "بكليوباترة"، الذى كان قد انطفأت جذوة ناره وسكن لهيبه بتغلب العقل وصواب الرأى استجمع قوته مرة ثانية ، وتأججت نيرانه من جديد"[1]. ولو أننا لا يمكننا أن ننكر أن تجديد العلاقات مع الملكة واللحاق بها ربما أثـار فـى نفـس "أنطونيـوس" لواعج الغرام ونزعة الشباب بعد تخلصه مـن قيـود الزوجيـة بأكتافيـا التـى كـانت هادئة وتورث الإقامة معها ووجودها بجانبه شيئا مـن السـآمة والمـل ، وقـد نجم عنهما النفور والابتعاد ، إلا أنه من الجائز جدا أن نسلم بأن هذه الخطوة من جانبـه ودعوته لها للحاق به كانتا ناتجتين عن أسباب سياسية وأسباب شخصية معا. ومهما

---

(١) مرجعنا إلى المؤرخ الفرنسى "بوشيه ليكلـرك" فـى كتابـه تـاريخ اللاجيديـن Bouché Leclercq, Hist. Des Lagides، جزء ثان ص ٢٥٣ ، جاردهاوسن فى كتابه عن "أغسطس" وعصره : Gardthausen, Augustus und seine Zeite ص ٢٩١ إذ يقول إنه لا يرى دافعا آخـر غـير محبـة "أنطونيـوس" للمكلـة لتفسـير مسـلكه هـذا ، وهـو فـى هـذا الـرأى يتبـع "بلوتارخوس" ، أما الكاتب الإيطالى "فيريرو" فيرى فى تفسير مسلك "أنطونيوس" دافعا سياسـيا يرمـى مـن ورائـه إلى جمـع الأمـوال للصـرف علـى حملتـه. أنظـر الترجمـة الإنجليزية لكتابه ، الجزء الرابع ص ٣.

كان شعور الاستياء والغضب الذى لابد قد تملكها ، وأصبح دفينا فى قرارة نفسها فإنها كانت تتوق إلى فرصة التلاق والعودة إلى الاتصال بحاكم الشرق على أى نحو. ولقد قبلت "كليوباترة" تلك الدعوة التى وجهها لها "أنطونيوس" على يد "فونتيوس كابيتو"، وبغير أن تتجه إلى ذلك التأخير الذى تعمدته فى المرة الأولى عند دعوتها لمقابلته فى طرسوس ، بل أسرعت فى هذه المرة للحاق به فى مدينة أنطاكية بالشام. وإنه لمن الأسف أن التاريخ لم يسجل لنا ما دار بينهما فى مقابلاتهما الأولى ، ولكنه فى أغلب الظن قد انبرى "أنطونيوس" فأكد لها إخلاصه، وأنه تلمس الأعذار لمسلكه السابق فيما يتعلق بغيابه الطويل ، وزواجه "بأكتافيا" ، على أنهما يرجعان لأسباب سياسية. ويظهر أنه لم تكن هناك صعوبة كبيرة فى الوصول إلى شروط اتفاق أبرم بينهما ، كان من مقتضاه أن وهبها بلادا تعهدت فى نظيرها أن تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها من أجل الإنفاق على مشروعه العظيم ، وهو حملته الفارسية ، وعلى هذا الأساس أقطعها الأقاليم الغنية وحقول البلسم حول اليرموك وفينيقيا وكويلى سوريا أو سوريا الخالية المعروفة بسهل البقاع (فلسطين) وإقليم الأعراب النبطيين وقبرص وجزءا من سيليشيا أو قيليقية. ولقد ترتب على هذه المنح أن غضب الرومان ، واشتد امتعاضهم ، وانتقدوا "أنطونيوس" مر الانتقاد بسببها. واختلف المؤرخون الأقدمون فيما يتعلق بتأريخ هذه الهبات ، وفيما إذا كانت كلها قد أعطيت فى وقت واحد ، فذكر "بلوتارخوس" أن هذه الهبات كلها قد منحت فى عام ٣٦ ق.م قبل الحملة الفارسية[١]. ويتفق معه المؤرخ "ديو" فى نسبتها إلى عام ٣٦ ق.م ، ولكن بعد الحملة الفارسية عقب عودة "أنطونيوس" إلى الإسكندرية[٢]. أما المؤرخ اليهودى "يوسيفوس" فقد قسم هذه المنحة ، فخص الجزء الذى منح من شمال بلاد العرب واليرموك ويهوذا وفينقيا إلى عام ٣٤ ق.م ، عندما دعى "هيرود" إلى لأوديكيا ليبدى

---

(١) بلوتارخوس ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٣٦.
(٢) يوسيفوس ، تاريخ اليهود ، قسم ١٥ ، ٢٤ ، ١-٢.

أسباب مقتل "أرسطوبولوس"[1]. ولقد انقسم المؤرخون الحديثون فى الرأى فقبل "شيرر" (Shürer) قول "يوسيفوس" بينما قبل "جارد هاوسن" "وبوشيه ليكلرك" قول (بلوتارخوس) ، أما "كروماير" (Kromayer) فقد نسب هذه الهبات إلى سنة ٣٦ ق.م قبل الحملة الفارسية ونسب الاختلاف بين "ديو" "وبلوتارخوس" إلى إهمال ديو فى تأريخ الحوادث التى حدثت فى هذه السنة وترتيب وقائعها.

وإن مصر باستعادة هذه الأراضى والبلاد المجاورة ، قد ردت لها أملاكها التى كانت لها أيام ملوك البطالمة الأولين ، وبخاصة على عهد كل من "بطلميوس" الثانى "وبطلميوس" الثالث. وكان الرومان قد استولوا على بعضها فى عهد ملوك هذه الأسرة البطلمية المستضعفين ، ولذلك تستحق "كليوباترة" أن تغبط نفسها على هذا النصر المبين ، إذ استردت أملاك مصر ومجدها الذى كان لها أيام أعظم أجدادها وهو بطلميوس الثانى (فيلادلفوس). ولقد كان استرداد هذه البلاد جزءا من السياسة المصرية ، ولذا يعتقد المؤرخ "جاردهاوسن" أن هذه الهبات كانت السبب الذى من أجله ابتدأت "كليوباترة" ميقاتا جديدا فى حكمها. ويوجد على عملة سكت بعد ست سنوات من تاريخ هذه الهبات وجه كل من "أنطونيوس" و"كليوباترة" ، ومعهما العبارة الآتية : "فى حكم الملكة "كليوباترة" وفى السنة الحادية والعشرين التى هى أيضا السنة السادسة "من حكم الإلهة "ومما يؤيد نظرية "جاردهاوسن" السابقة ما سجله التاريخ من أن كثيرا من الملوك فى الشرق جعلوا استيلاءهم على أقاليم جديدة مبدأ لتاريخ جديد ، يحيون به ذكرى فتوحهم ، ويثبتون به لدى الأجيال مفاخرهم. ولقد استنبط بعض المؤرخين الحديثين أن ذلك البدء التاريخى ليس سببه إضافة أملاك إلى الدولة فقط ، بل سببه تخليد لذكرى تلك الزيجة التى تمت بينهما فى أنطاكية فى عام ٣٦ ق.م ، فبدأت الملكة تعد ذلك التاريخ بدء عهد جديد فى تاريخ حكمها ، وأن هذه الهبات ما هى إلا مهر زواجها.

---

(١) "جاردهاوسن" ، "أغسطس وعصره" ، ص ٢٩٢ ، (بوشيه ليكلرك) ، تاريخ اللاجيدين جزء ثان ، ص ٢٥٥ ، "كروماير" فى مجلة هرميز (Hermes) عدد ٢٩ ص ٥٧١-٥٨٥ ، وتجد آراءه ومقترحاته ممحصة ومدروسة فى دائرة المعارف الألمانية (Pauly-Wissowa) فى مقال له عن "هيرود".

ويظن المؤرخ الإيطالى "فيريرو" الذى برهن بمهارة فائقة على صدق الرأى القائل بزواجهما فى هذه المرحلة أنه قد كان هناك منهاج واسع النطاق قد أحكم ترتيب أجزائه بدقة فائقة ، فيكون معنى ذلك الزواج وضع وادى النيل تحت الحماية الرومانية ، وجعل كنوز البطالمة كلها تحت تصرف "أنطونيوس" كيما ينفق منها فيما يشاء وكيفما شاء ، ولكن يسوق بعض العلماء الحجج التى يدحضون بها الرأى القائل بأن الملكة تزوجت "أنطونيوس" نهائيا فى هذه المرحلة ، وسوف نعود إلى موضوع هذه الزيجة وكل ما يتعلق بها فى مكان آخر من الكتاب[1].

لقد كان "أنطونيوس" يعلم حق العلم أنه بقيامه بالحملة الفارسية التى كان قد فكر فيها "قيصر" من قبل ، سوف يقوى مركزه وينشر مهابته فى الشرق ، ويجذب إليه قلوب الرومان فى الغرب. ولقد كان "أنطونيوس" وهو الظافر فى فيليباى ينتظر أن يوفق فى مشروعه ، وأن يتوج اسمه بلقب "قاهر الفرس". وقد استهواه ذلك الخيال الرائع ، فخيل إليه أنه فاتح الفرس، وأن الرومان سينادون به بطلهم المنشود وقائدهم المغوار وليثهم الهصور ، وبذلك يأفل نجم "أكتوفيوس" ويختفى اسمه تحت لألاء صولته ، ومظاهر قوته ، وبذلك تصور أن الحملة الفارسية إذا كللت بالنجاح - ولم تجل بنفسه خالجة ريب فيه - كانت عاملا كبيرا فى جلب محبة الرومان ، وإمداده بالرجال والمال والكنوز التى تلزمه لهزيمة منافسه ونظيره فى الغرب. وفوق ذلك يجد من ذلك الفتح المبين معينا يستمد منه مددا من المال وقوة الرجال.

جمع "أنطونيوس" جيشا مكونا من عشر فرق وعشرة آلاف من الفرسان ، وتقدم إلى الأمام بجيشه تصحبه "كليوباترة" حتى وصل إلى مدينة زوجما (Zeugma)، وعندها تركته الملكة فى منتصف مايو تقريبا ، وفى هذا المكان حاول التغرير بخصمه ، فأوهمه أنه يريد عبور الفرات ، ثم تقدم مختارا الطريق الذى اتبعه بعد تفكير طويل مسترشدا فى ذلك بالخطط التى تركها له "قيصر" ولكنه

---

(١) "لترون" Letronne, Recueil des incriptions grecques et latines de l"Egypt. ص ٩٠ من الجزء الثانى ، "وفيريرو" ، الجزء الرابع من الترجمة الإنجليزية ، ص ٦-٨.

أساء الاختيار ، وقاسى الأهوال واضطر إلى التقهقر، ولم ينج من مضايقة العدو له فى أثناء تقهقره وسيره داخل أرمينيا فى طريقه إلى الشام، وفى أثناء المرحلة الأخيرة من تقهقره كانت أمام فلول جيشه ثلوج الشتاء التى كانت تمثل شبحا مخيفا فتك بهم ، ويبلغ من ماتوا فى هذه المرحلة الأخيرة من زحفه داخل أرمينيا إلى الشام ثمانية آلاف. وينسب المؤرخون الأقدمون عودة "أنطونيوس" إلى الشام إلى ميله الشخصى فى أن يكون بجوار "كليوباترة" ، ويظن بعض المؤرخين الحديثين أن هذا هو السبب الوحيد الذى يمكن أن يعللوا به عودته إلى الشام وسط هذه الصعاب ، وهناك رأى مخالف لذلك، ويعلل مسلك "أنطونيوس" بخوفه من خيانة أخرى ومكيدة يوقعه فيها ملك أرمينيا. وعلى ذلك لا يمكننا أن نجزم بيقين أن الدافع إلى العودة إلى الشام هو خوفه من خيانة جديدة إذا بقى بأرمينيا ؟ أم أن عشقه الملح ل"كليوباترة" هو الذى حمله على التعرض لأخطار جديدة بزحفه إلى الشام ، وكانت قد بدأت ثلوج الشتاء فى التساقط والنزول ؟ وقبل أن ينتهى فصل الشتاء وصل إلى الشام جزء من ذلك الجيش العرمرم الذى بدأ زحفه فى الربيع السابق بشجاعة لا يعرف لها مثيل. وفى القرية البيضاء بين صيدا وبيروت انتظر "أنطونيوس" وصول "كليوباترة" التى حضرت ومعها من الملابس والأموال ما ساعد "أنطونيوس" على تخفيف ويلات الجند الذين قسم بينهم الأموال التى قدمتها "كليوباترة" بعد أن أضاف إليها من أمواله الخاصة. وكان يقضى الوقت فى انتظار فترة حضورها على أحر من الجمر ، يحتسى الخمر ويترقب وصول المركب التى تحمل الملكة ومعها الملابس لجنده ليستبدلوا بها أسمالهم البالية.

ولقد عاد "أنطونيوس" إلى الإسكندرية ، وأحدث من التغييرات فى الحكام والملوك ما جعله يظهر للعالم الرومانى أجمع كأنه ملك شرقى عظيم يملك فى قوته أن يعين ملوكا ويخلع آخرين ، واعترف رسميا أثناء هذه الإقامة ببنوة الطفلين التوأمين الإسكندر و"كليوباترة" ، ثم "بطلميوس" الصغير المسمى "فيلادلفوس" منه. وقد اختلف كل من "بلوتارخوس" "وديو" فيما يتعلق بتاريخ هذه الحادثة الأخيرة فيقول الأول : إن ذلك الاعتراف ببنوة هذين التوأمين تم فى "زوجما" فى

سنة ٣٦ ق.م[1] ، أى قبل الحملة الفارسية فى حين يؤرخ "ديو" ذلك الاعتراف للتوأمين "ولبطلميوس" الصغير الذى ترجح ولادته فى أثناء الحملة الفارسية فى سنة ٣٦ أيضا، ولكن يخالفه فى تأخير الاعتراف حتى بعد الحملة. ويظهر أن ذلك الاختلاف بين المؤرخين القديمين لم يتسبب عن إهمال فى التدقيق من أحدهما ، بل تسبب عن أن "ديو" كان يريد أن يجعل الاعتراف شاملا لثلاثة الأخوة ، ولذلك يرجح أن يكون هذا الاعتراف قد تم فى الإسكندرية لا فى "زوجما".

وهكذا تبددت أمال "أنطونيوس" فى النصر وانهارت فى سنة واحدة قضاها فى حملته الحربية ، وفشلت تلك الحملة الفارسية فشلا ذريعا ،وخاب مشروع قيصر على يدى تلميذه وخليفته. ولو أنه خصص وقتا أطول للقيام بهذه الحملة وكان فى وسعه أن يولى ظهره لمنافسه "أكتوفيوس" لمدة طويلة تتيح له أن يضطلع بمهام هذه الحملة على الوجه الأكمل ، لتبدل الحال غير الحال. ولربما إذا كان قد ترك لنفسه العنان ، وغامر بنفسه فى حملة طويلة الأمد وصعبة المراس فى فارس ، كان وجد أن الشرق برمته قد خرج من قبضة يده كما حصل فى الغرب. ولذلك كان لزاما عليه أن ينجح فى الحال إذا كان فى الإمكان أن ينجح مطلقا ، ولكنه قد فشل فى هذا كله فكان هذا أول عثرة عثرها ، فلج به العثار من بعد إلى الخسران المبين – وكانت نتيجة هذه الحملة أن عاد "أنطونيوس" أدراجه لا كالقائد الذى عقدت له ألوية النصر ، وكلل جبينه بأكاليل الغار محملا بالغنائم والأسلاب من الشرق البعيد. بل عاد قائدا مخذولا اقتصر نجاحه فى قيادة جيشه المهزوم إلى الوراء ونجاته من خراب تام. اقتصرت مهارته فى أنه أحسن الفر ، وإن لم يحسن الكر ، فقد استطاع أن يعود ببقية جيشه سالمة. ولما حاول أن يعيد الكرة بإعداد حملة أخرى على بلاد الفرس ، كانت حماسته فيها مفلولة بذلك الانهزام ، وتردد خشية أن تتكرر المأساة ويعاد تمثيل رواية الفاجعة الأولى مرة ثانية. وإنه لمن الجائز أن يسوق النقاد القول بأن جيش "أنطونيوس" كان أحد الجيوش الكبيرة جدا التى جهزتها روما، وأنه كان أولى به فى الأحوال العادية أن يتقدم على الأقل نحو

---

(١) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، فصل ٣٦ ، "ديو" قسم ٤٩ ، ٣٢.

عاصمة الفرس ، إن تعذر عليه إخضاعها ، ولكنه لا يصح أن يغرب عن بالنا أن "أنطونيوس" كان يقوم بمحاولته هذه وسط ثورة وليس لديه من المال ما يكفى ، ولا بين يديه من الرجال سوى من تيسر جمعه فى أثناء الحروب الأهلية. وفوق ذلك كان فى أشد الحاجة إلى بضعة انتصارات باهرة يثبت بها مركزه ويؤكد ولايته على الشرق. ولربما إذا كان لديه مال أكثر ، ووقت أطول يريح فيه جنده فى أرمينيا فى السنة الأولى ، ثم يغزو ميديا فى السنة التالية ، ثم يحاول بعد ذلك غزو الفرس ، كان الحال أحسن وللقى من النجاح ما كان يأمله ، ولكنه كان فى حاجة ماسة إلى إحراز النصر فى أقل وقت ممكن ، وذلك لأنه كان مضطرا أن يكون على دوام الاتصال بما يجرى من الأحوال فى إيطاليا وفى الشرق ، وهذا يفسر عدم قدرته على توفير الوقت الكافى لمشروع كان يحتاج إلى ثلاث أو أربع سنين حتى يضمن نجاحه ، وفى هذه الحالة الأخيرة لم تكن لتساعده الأموال التى كانت تحت تصرفه ومن الجائز أن يرفض جنده الاشتراك فى حملة يطول أمدها بهذا القدر. وعلى ذلك يكون فشله راجعا من بعض الوجوه إلى خطأ فى وضع خططه الحربية ، ومن جهة أخرى للحالة السياسية التى كان عليها العالم الرومانى والتى تطلبت السرعة فى إتمام غزوته وفى تقهقره. ولقد لخص المؤرخ "ممسون" الموقف بقوله "إنه مما لا ريب فيه أن هذه الحملة كانت آخر بريق مضئ فى نجم "أنطونيوس" دال على شجاعته ومقدرته ، ولكنها كانت من الوجهة السياسية عاملا كبيرا فى هدمه ، وبخاصة أنه فى الوقت نفسه كان "أكتوفيوس" قد أنهى حرب صقلية على وجه مرض ، وهذه أكسبته السيطرة فى الغرب وجلبت له ثقة أهل إيطاليا ومحبتهم فى الحال والمستقبل"[1].

---

(١) "ممسون" (Mommsen) فى الترجمة الإنجليزية ، جزء ثان ص ٣١.

الفصل الرابع

الدور الحاسم فى علاقة "أنطونيوس" "بكليوباترة"

فى ربيع عام ٣٣ ق.م زحف "أنطونيوس" إلى أرمنيا ، أملاً فى الظاهر أن يهزم الفرس ، وأن يستعيد هيبته المضاعة ، وكان يظن أن غزو أرمينيا فى السنة السالفة ما هو إلا مقدمة لازمة كيما يتخذها قاعدة حربية للحملة الفارسية ، ولكن لا يستطيع الإنسان الجزم بأنه كان لا يزال فى نيته غزو بلاد الفرس ، وإن أعماله عند وصوله إلى أرمينيا لتدل على أحد أمرين : إما أنه تبين له أنه لم يعد يقوى على تحمل هذا العبء ، ولم يشعر برغبة أكيدة فى تكرار التعرض للأهوال التى صادفها فى تقهقره السابق ، وإما أنه رأى أنه لابد له أن يدبر أمر قواته استعدادا لتنفيذ أمر آخر. وكان "أنطونيوس" قانعاً بما عقده من تحالف مع ملك ميديا ، الذى كان قد وعده أن يساعده ضد "أكتافيوس"، نظير أن ينال جزءاً كبيراً من أرمينيا العظمى ، وجزءاً من جند الرومان ليكون جبهة قوية فى وجه الفرس ، وفضلا عن ذلك فإن الأميرة الصغيرة "يوتابى" خطيبة الإسكندر بن "أنطونيوس" تركت فى رعاية "أنطونيوس" على أمل أن تتعلم فى الإسكندرية. وعقب انتهاء المفاوضات ، وعقد الاتفاق مع ملك ميديا وجه "أنطونيوس" وجهه شطر الغرب ، ولكى يعد عدته للحرب المستقبلة مع "أكتافيوس" أمر "كانيديوس كراسوس" أن يذهب على رأس قواته البرية إلى إفسوس ، وكذلك أمر الفرسان الذين حصل عليهم من أرمينيا أن يلحقوا بهذه القوات ، وطلب إلى حلفائه أن يرسلوا جندهم إلى إفسوس. أما عن التفاصيل الأخرى المتعلقة بالطريق الذى اتبعه "أنطونيوس" فى عودته من هذه الرحلة ، فليس من اليسير معرفته ، إذ ترتيب الحوادث الزمنية التى ذكرها المؤرخون الأقدمون يُعوزه الدقة فبعض الحوادث مقدمة عند مؤرخين ومؤخرة عند آخرين، وإذا كان "أنطونيوس" قد ذهب إلى إفسوس كما يزعم معظم المؤرخين ، فلا بد أنه كان يتولى قيادة جنده بنفسه إلى هذا المكان. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، إذ أن الواقع كما أشرنا يدل على أنه ترك مهمة القيادة إلى كراسوس ، وإنه ليس من السهل التكهن بالسبب الذى من أجله أسرع إلى الإسكندرية ، وخصوصاً أنه كان مضطراً لأن ينتظر

حضور "كليوباترة" التى أرسل فى طلبها. ويرى المؤرخ الفرنسى "بوشيه ليكلرك" أن الحملة على ميديا لا يمكن أن تكون قد احتاجت إلى وقت طويل ، إذ أن "أنطونيوس" كان يبغى من ورائها تحقيق أغراض سياسية فبعد إتمام مهمته عاد مسرعا تاركا قيادة جنده لكراسوس، وقد زوده بالأوامر لكى يزحف نحو بحر الأرخبيل ، ولذا وجد لديه متسعا من الوقت لتوصيل "يوتابى" خطيبة "الإسكندر" إلى الإسكندرية[1]. ومن ذلك استنبط هذا المؤرخ الفرنسى ذلك السبب الوجيه من أجل زيارته للإسكندرية فى هذا الوقت بالذات قبل ذهابه إلى إفسوس ، ومضى يسوق لتدعيم ذلك الاستنباط حججا قيمة ولكنها غير حاسمة فى الموضوع وغير مقنعة إقناعا تاما. وقد ذكر غيره من المؤرخين أن "أنطونيوس" ذهب رأسا من ميديا إلى إفسوس، وسواء اتبعنا هذا الرأى أم ذاك فإن الأمر متعلق بالتفاصيل البحتة التى يتعذر الوصول إلى رأى حاسم فيها.

ولقد ظهرت صورة "أنطونيوس" وكليوباترة معا على النقود التى سكت فى وقت يحتمل أن يكون بعد تجمع الجند فى إفسوس مباشرة ، أى بعد سنة ٣٣ ق.م ، وكان سكها هذا بمثابة التخليد لذكرى فتح أرمينيا. وعلى هذه النقود سجل لقب "كليوباترة" الجديد وهو "ملكة الملوك" ، وإنه لمن الممكن أن نستنبط من هذه النقود التى تحمل صورتيهما معا أن "أنطونيوس" كان من قبل قد احتفل بزواجه بكليوباترة. ويشير بعض الكتاب الحديثين إلى أن مقدم السفينة الذى صور على ظهر هذه النقود تحت رأس "كليوباترة" "يثبت تلك المساعدة التى قدمتها "لأنطونيوس"" بإعداد أسطول حربى ، وأن هذه العملة قد سكت فى عام ٣٢ ق.م، ولكن لسوء الحظ لا تدل تلك العملة التى يعتمد عليها نفر من العلماء فى إثبات دعواهم دلالة قطعية على تاريخ زواجهما. ويشير "بلوتارخوس" فى هذا الخصوص إلى أن "أنطونيوس" بزواجه امرأتين فى نفس الوقت قد فعل فعلة لم يقدم عليها رومانى من قبل ، كما يشير إلى أنه طرد زوجته الأولى الشرعية من بيته ثم اجترأ

---

(١) "بوشيه ليكلرك" ، تاريخ اللاجيدين – البطالمة ، جزء ثان ص ٢٨١-٢٨٧.

على ما هو أشد من ذلك وأنكى فطلقها كيما يُرْضى إمرأة أجنبية تزوجها بالفعل متحدياً بذلك قوانين الرومان وتقاليدهم ومشاعرهم[1].

ولقد اتفق الكاتبان "يوتروبوس" (Eutropus) "ويوسبيوس" (Eusebius) مع ""بلوتارخوس"" فى الرأى ، فأثبتا أن "أنطونيوس" تزوج من "كليوباترة" ، وطلق أخت "أكتافيوس" على حد قولهم (Repudiata Sororo Caesaris) ، ولو جمعنا هذه الحقائق التى أتفق كل من ""بلوتارخوس"" "ويوسبيوس ويوتروبوس" على صحتها وأضفناها إلى تلك البيّنة التى تقدمها العملة المسكوكة لأمكننا أن نسلم باحتمال حصول الزواج قبيل طلاق "أكتافيا" ، وإذا جاز لنا أن نستنبط رأياً من كل هذه الاحتمالات لقلنا إن هذا الزواج قد تم فى الجزء الأخير من عام ٣٣ ق.م أو فى عام ٣٢ ق.م. وقد انبرى مؤرخان حديثان هما "كروماير" "وفريرو"[2] لإثبات دعواهما بحجج تقول بأن هذا الزواج قد تم فى عام ٣٦ ق.م ، ونحن نسلم بأنه ليس من الممكن أن نأمل فى اتفاق كل المؤرخين فيما يتعلق بهذا الزواج النظرى ما لم تظهر براهين جديدة من المصادر القديمة تؤيد بدرجة لا تحتمل الشك والجدل كل ما يتصل بهذا الزواج وتاريخ عقده. ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نقبل رأى "فريرو" "وكروماير" لما فى ذلك من تجاوز كثير للحقائق التاريخية وتسليم بأمور لا تؤيدها حجج دامغة مستندة إلى أسانيد قديمة صحيحة. وإن فى عدم وجود إشارات واضحة إلى هذه الواقعة الهامة فى كتابات المؤرخين الذين كانوا معاصرين لعهد "كليوباترة" "وأنطونيوس" "وأكتافيوس" لأمراً غريباً أشد الغرابة ، وإذا كان "أنطونيوس" بعد عقده معاهدة تارنتوم السالفة الذكر سنة ٣٦ ق.م وتجديده الحكم الثلاثى لمدة خمس سنين أخرى ، ترك زوجته وولديه ولم ينتظر ولو لبضعة أشهر وأقدم على عقد زواج لا يقره القانون الرومانى لجمعه بين زوجتين فى وقت واحد ، وهو فى الوقت نفسه أمر لا يحتمله الرومان ولا يصبرون عليه ، فمن الغريب ألا توجد أية إشارة إلى هذا الزواج فيما دَوّنه كتاب العصر الذهبى الأغسطى ، وهم الذين كانوا معادين لكل من "أنطونيوس" وكليوباترة أشد العداء ، ويمثلون فى الوقت نفسه بوق الدعاية

---

(١) "بلوتارخوس" ، مقارنة بين "ديمتريوس" "وأنطونيوس" ، ٤.١.

(٢) "كروماير" ، مجلة (Hermes) ، العددان ٢٩ ، ٣٣ ص ٣٦ ، "وفريرو" ، جزء رابع ص ٦-٨.

المسمومة ضدهما فى عصر الأباطرة اليوليين - الكلودبين من أول عهد "أغسطس" حتى نهاية حكم "نيرون". وإنه لمن غير المعقول جداً أن يبقى أمر ذلك الزواج سراً مكتوماً ، إذ أن خبر زواج مخالف للقانون الرومانى ، مما أقدم عليه ثانى اثنين كانا قابضين على زمام الأمور فى الدولة الرومانية لمن الصعب إخفاؤه ، وخصوصاً أنه كان ""لأنطونيوس"" أعداء فى الشام ، وآخرون محايدون لا يمكن أن يغفلوا عن الإشارة إلى هذه الفضيحة. وفوق ذلك فإنه من غير المعقول أيضاً أن يكون "أكتافيوس" - إذا كان قد وصل لعلمه خبر هذا الزواج - قد سمح لأخته فى سنة ٣٥ ق.م أعنى بعد مضى سنة على هذا الزواج المزعوم ، بزيارة زوجها العاق الذى تزوج منافستها.

وإذا كان "أنطونيوس" قد تجاسر بالإقدام علي هذه الخطوة التى كان لابد أن ينتج عنها قطع العلاقات بينه وبين بنى وطنه أدبياً ومعنوياً. فإن الحوادث حينئذ ما كانت تأخذ ذلك المجرى البطئ الذى أخذته بين وصول "أنطونيوس" إلى سوريا فى صيف عام ٣٧ ق.م ونشوب الحرب فى أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ومن أجل كل هذه الأسباب نكتفى بالوصول إلى هذه النتيجة غير القاطعة بأن هذا الزواج حدث فى أغلب الظن سنة ٣٣-٣٢ ق.م ، وليس قبل ذلك بأربعة أعوام. وإذا حاولنا تعرف خطط "أنطونيوس" فى هذه المرحلة إزاء "كليوباترة" فلا بد أن نقول : إنه ظن عند وصول الظروف إلى هذا الحد أن المعركة لابد واقعة بينه وبين "أكتافيوس" عما قريب. وإنه لمن حسن السياسة أن يُسوّى مركزه ويقوى علاقته من الوجهة الشرعية بكليوباترة حتى يمكنه أن يكون ذا مركز قوى فى الشرق. ولابد أنه كان يعلم حق العلم أن علاقته غير الشرعية بالملكة وتوزيع الأقاليم الرومانية على أولادها بمثل هذا السخاء مُذْهب بشعور الأمان ، ومثير لغضب الرأى العام فى إيطاليا عليه. وبموازنته بين هذين الأمرين رجح لديه أن زواجه بتلك الملكة الشرقية يُكسبه قوة عظيمة ، ويُعلى من شأن مركزه فى الشرق ، ويجعل "كليوباترة" تضع ثروتها العظيمة وكنوزها الكبيرة تحت تصرفه. وإنه فى المعركة النهائية التى ستتخذ حتماً شكل نزاع بين الشرق والغرب ، يصبح أمراً طبيعياً أن يلتف الشرق حول "أنطونيوس" كزوج لملكة شرقية ، فتحالفهما إذاً فى هذه المرحلة كان أمراً طبيعياً ، وزواجهما كان ذا مغزى سياسى بقدر ما كان ناشئاً عن أسباب غرامية.

وكان "أنطونيوس" فى نظر "كليوباترة" يُمثِّل الخليفة الحقيقى لقيصر ، الـذى يمكنها أن تأتمنه ، وتثق فيه ، وتطمئن إلى أنه لن يُخيب ظنها فـى الانتصـار لقضيـة إبنها ضد "أكتافيوس" عدوهما اللدود المشترك ، وكان مـن مصلحتـهما المشـتركة أن يتم التضامن على هذا النحو. أما موقف "أنطونيوس" عندما أمر بحشـد قواتـه فـى إفسوس ، فكان قوياً ثابت الأركان ، وكان من الجلى لكـل شـرقى أن "أنطونيـوس" كان يعمل بالاشتراك مع مصر ، وكان على أتم وفاق وتحالف مع "كليوباترة" ، كمـا أنه كان واضحاً وجلياً أنها أصبحت زوجته الشرعية ، وكان الجميـع يعلمـون أنـه إذا كتب له النجاح فى هذا النزاع فسيدخل روما دخول المنتصر الظافر وبجانبـه تلـك الملكة ، ولربما أعلن نفسه مُلكاً بالاشتراك مع "كليوباترة" ، وأسس مُلكاً لأسرته من بعده على هذه الإمبراطورية المنتظرة ، ولكن يظهر أنه فى الوقت نفسه كان يفكر فى تأسيس ملكية فى روما ، مع أنه كان يكثر مـن القـول بأنـه يـود إعـادة الجمهوريـة الرومانية إلى شأنها الأول. وحجته التى كان يُدعم بـها سياسـته أنـه كـان يقـول إنـه يحارب لتنفيذ رغبات الدكتاتور العظيم ، وليخلص الرومان من حكـم "أكتـافيوس" الغاصب ، وعلى ذلك أمكن أن تلتقـى مصـالح "أنطونيـوس" وكليوبـاترة فأخرجـا مشروعاً مقبولاً يأخذ بلب الجماهير ، ويحقق آمال أعوانه من الرومان ومن الشرق.

وبينما كان كل منهما ينتظر بفارغ الصبر حلول شهر يناير سنة ٣٢ ق.م وهو الميعاد الذى تنتهى فيه الحكومة الثلاثية وتسقط تلقائياً ، لأن أحـداً منـهما لم يكـن راغباً فى تجديدها وبعده يبدأ العداء بشكل سافر وظـاهر وجلـى ، قضـى الزعيمـان المتنافسان الوقت فى تبادل رسائل الشـتائم والتنديـد "pseudologia"، وعلـى ذلـك سبق إعلان الحرب النهائى تبادل هذه الرسائل المهينة بين هذين القطبـين والصـهرين السابقين ، ولقد زادت الكراهية بين الاثنين ، ووجـد مـن الأسـباب الكثـيرة مـا زاد نيرانـها اضطرامـاً حتـى أصبحـت تتلظـى. ولقـد خلـد لنـا المـؤرخ "سـويتونيوس" (Suetonius) اقتباساً من كتاب ""لأنطونيوس"" رداً على كتاب كان قـد بعثـه إليـه "أكتافيوس" فى الشتاء السابق يشكو منه عدة أمـور ، وفـى هـذا الخطـاب[1] الشـئ الكثير من فحش القول فأشار "أنطونيوس" فيه إلى أكثر المسائل دقة بوضوح وجـلاء

---

(١) "سويتونيوس" ، حياة "أغسطس" ، ٦٩.

عظيمين لا نظفر بمثلهما فى غير اللغة اللاتينية. ولم يترفع عن أن يستعمل أحط العبارات والشتائم ، فجاء بذلك كتابه جامعا لكل سفساف ومبتذل "ما الذى جعلك تتغير وتنقلب ؟ إلا أنى متصل بالملكة ؟ إنها زوجتى ! وهل علاقتى بها ابتدأت الآن أم كانت مستمرة منذ تسعة أعوام؟." ، ولقد حاول العالم "كرومايز" أن يستنتج من هذا الخطاب تاريخ بدء هذه المراسلات الخاصة ، وتاريخ ذلك الخطاب الذى اقتبس منه "سويتونيوس". ويظهر "أنطونيوس" فى هذا الخطاب دهشته من اتهام "أكتافيوس" له بالتفريط ، وتأنيبه له بسبب علاقته مع الملكة ، وخاصة أنها بدأت منذ تسع سنين. وإن بدء هذه العلاقة مع الملكة لا يمكن أن يكون قد حصل قبل ربيع عام ٤١ ق.م ، فيكون إذا العام التاسع هو ربيع عام ٣٣ ق.م ، ولا يمكن أن يكون قد تبودلت خطابات الهجاء بينهما قبل هذا التاريخ: وهذا الخطاب الذى نحن بصدده الآن قد أرسل فى الأيام الأولى من هذه المراسلات التى يمكن تعيين بدئها على وجه التقريب فى شتاء عام ٣٤-٣٣ ق.م ، ومما لا يحتاج إلى برهان أن هذه الرسائل الخاصة قد كتبت قبل تبادل المكاتبات الرسمية التى أعلن فيها كل منهما اتهاماته للآخر ، فكان "أكتافيوس" يندد فى مجلس الشيوخ وأمام الشعب الرومانى بسياسة "أنطونيوس" فى الشرق ، وكان "أنطونيوس" يجاوبه فى رسائل عامة مبينا أن "أكتافيوس" أغفل زميله ، ولم يوف بالوعد الذى قطعه على نفسه فى عام ٣٧ ق.م، ولم يكن عادلا فى تقسيم جميع الأراضى بإيطاليا بين جنده وحده فلم يترك شبرا من الأرض لجند زميله "أنطونيوس" ، ولقد أفحمه "أكتافيوس" باتهامه بأنه ألحق العار بالرومان لخداعه ملك أرمينيا فى حملته على بلاده وأسره "لأرتاواسديس" بتلك الطريقة القاسية ، وهو صديق وحليف للجمهورية الرومانية ، كما اتهمه بامتلاكه لمصر وأرمينيا بدون اقتسامهما مع زميله ، وإعطائه نصيبه فيهما، ولامه كذلك أشد اللوم على منحه ألقاب الشرف للملكة "كليوباترة" وأولادها وإهدائهم أقاليم رومانية ، ولقد بين له شديد استيائه من سوء تصرفه بانتصاره "لقيصرون" ، وإعلانه المطالبة بحقوقه فى عرش أبيه "قيصر" فأنبه على إعلانه ، واعترافه ببنوة

"قيصرون" الحقيقية من "قيصر" ، وأنه الوارث الحقيقى ، وذكر أنه بفعلته هـذه قـد أساء إلى سمعة "قيصر" العظيم فى قبره[1].

ولقد سلك "أنطونيوس" نفس الخطة التى اتبعها "قيصر" مع زميله "بمبى" فى عام ٥٠ ق.م، فكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى مقترحا أن يعتزل سلطته على شريطة أن يجاوبه "أكتافيوس" بالمثل ، وكانت هذه الخطة مجرد سياسة مدبرة ، يقصد بها كسب محبة الشعب الرومانى ، وأن يعيد إلى أذهان الرومان ذكرى أيام "بمبى" وقيصر عندما كانت تتخذ هذه الخطط وسائل لكسب ثقة الشعب. ولقد بين المؤرخ "ديو" الدافع الذى حمل "أنطونيوس" على سلوك هذا السبيل ، وهو اقتراحه اعتزال كل من الاثنين الحكم الثلاثى فى الوقت نفسه ، بأن "أنطونيوس" كان يقصد بذلك أن يجرد عدوه من كل أمل فى تجديد قوته ، وتجريده من سلطته فى الوقت الذى سيستمر فيه "أنطونيوس" حافظا لمركزه فى الشرق ، متخذا من مصر وملكتها "كليوباترة" تكأة يستمد منها موارده ، ويعتصم بها إذا ما تأزمت الأمور. على أنه فى حالة رفض "أكتافيوس" اقتراح زميله سيجر عليه سخط الشعب الرومانى[2] ، وبذلك تتاح "لأنطونيوس" الفرصة فى أن يقف موقف المدافع عن حرية الشعب الرومانى التى اعتدى عليها زميله ، وتتهيأ له الأسباب التى تمكنه من أن يقضى على سلطة "أكتافيوس" الإستبدادية ، فيصير سيد العالم الرومانى بمفرده ، ويحقق لكليوباترة أمانيها بالتبعية. وزيادة على ذلك فإن قوات "أنطونيوس" التى تجمعت فى إفسوس ستكسب مطلبه قوة ، ولكن حساب "أنطونيوس" قد أخطأ إذ أجاب "أكتافيوس" بأنه يود من صميم قلبه أن يحضر "أنطونيوس" إلى روما ، ويشترك معه فى إعادة نظام الحكم الجمهورى ، وفض الحكم الثلاثى ، وكان يعلم حقا أن "أنطونيوس" لن يأبه لطلباته ، وأن عدم اكتراثه هذا سيفيده فى إظهار "أنطونيوس" للشعب الرومانى بمظهر من ينقصه الإخلاص والولاء ، وأنه كان فى نياته وأغراضه هازلا وغير جاد.

---

(١) "ديو" ، ٥٠ ، ١ ، ٢ ، حياة "أنطونيوس".

(٢) ديو ، ٤٩ ، ٤١ ، ٦.

وفى الوقت نفسه الذى كانت تجرى فيه هذه المكاتبات ، كان "أنطونيوس" يعد العدة ويبنى الأسطول ، ويجند الجند ، ويجمع الأموال مظهرا كل ذلك لفرض آخر ، وهو فى الحقيقة يتأهب للحرب المقبلة[1]. وكانت "كليوباترة" بالطبع ضالعة فى كل هذا ، وهى العماد الذى اتخذه "أنطونيوس" فى برنامجه العدوانى ضد روما. وفى يناير من عام ٣٢ ق.م استحكمت حلقات الأزمة ، إذ انقضت مدة الحكومة الثلاثية ، ولم يتقدم أحد منهما باقتراح تجديدها لمدة أخرى ، وبدا فى أول يناير كل من القنصلين للعام الجديد وهما "دوميشيوس" "وسوسيوس" من أتباع "أنطونيوس" ، يباشران سلطتهما[2]. ولما التأم عقد اجتماع مجلس الشيوخ الرومانى تحت رئاستهما بدأ سوسيوس سنته الرسمية بخطبة رنانة ، يؤيد فيها سياسة "أنطونيوس" ، ويندد بسياسة "أكتافيوس" ، ويصب عليه جام غضبه ، وكان الأخير غائبا عن روما فى ذلك الوقت، ويؤكد "ديو" أن "سوسيوس" كان لا شك سيقدم اقتراحا فى غير مصلحة "أكتافيوس" ، لولا أن عارض ذلك أحد زعماء الشعب ونقبائه من الترابنة[3]. وعلى اثر ذلك عاد "أكتافيوس" مسرعا إلى المدينة ، ودعا مجلس الشيوخ للانعقاد ، ولو أنه لم يكن ليملك هذا الحق من الوجهة القانونية ، ولكنه ارتكن على مركزه وسمعته العالية ، ولذا تأكد أن دعوته ستجد آذانا واعية فدخل روما ومعه جماعة من الجند ونفر من الأصدقاء الذين كانوا يحملون الخناجر فى طيات ملابسهم. ولما اجتمع المجلس جلس "أكتافيوس" بين القناصل ، ودافع عن نفسه بعبارات ملؤها التواضع المتصنع ، ثم هاجم "سوسيوس" "وأنطونيوس" وفند سياستهما ، وذكر يوما معينا وعد أن يبرز فيه البراهين المؤيدة بالوثائق ليثبت صدق قوله. أما القنصلان فقد استولى على قلبيهما الرعب لعدم توقعهما هذه الصدمة ، فلم يحركا ساكنا للدفاع عن "أنطونيوس" ، إذ كانا بوصفهما قنصلين داخل حوائط روما لا يملكان قوة عسكرية يستندان إليها ، فى حين أن "أكتافيوس" كان تحت سلطانه كل الجيوش بإيطاليا ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانا بعيدين كل البعد

---

(١) ديو ، ٤٩ ، ٤١ ، ٦.

(٢) ديو ، ٤٩ ، ٤١ ، ٦.

(٣) ديو ، ٥٠ ، ٢ ، "بوشيه ليكلرك" ، تاريخ اللاجيدين ، البطالمة ، جزء ثان ص ٢٨٥.

عن حليفهما المسلح ، ولما شعرا بضعف مركزهمـا وعجـزا عـن أن يجـدا لأنفسـهما مخرجا من هذا المأزق تحاشيا الاصطدام مع "أكتافيوس" وكانا يشعران أن هـذا لا بـد واقع يوما ما ، فانسلا فى الخفاء مـن المدينـة قبـل اليـوم الـذى ضربـه "أكتـافيوس" موعدا لإبراز ما لديه من بينة وأسرعا للحاق بحاميـهما وولى نعمتـهما فـى الشـرق وتبعهما عدد من أعضاء مجلس الشيوخ يبلغ ثلاثمائة كانت تحوم شبهة "أكتـافيوس" نحوهم ، وكان لديهم من الأسباب ما جعلهم يخافون بطش "أكتـافيوس". ولمـا علـم "أكتافيوس" برحيل أعضاء مجلس الشيوخ لم يدر كيف يعالج الموقـف ، وأعلـن أنـه منح الفارين الإذن بالرحيل ، وأنه مستعد للسماح بالخروج لكل من يفضله.

وفى ربيع عام ٣٢ ق.م وصل أعضـاء مجلـس الشـيوخ الفـارين إلى إفسـوس ، ولكن بمجرد وصولهم بدأ القلق يدب فى المعسكر ، إذ دهشـوا لوجـود "كليوبـاترة" فى المدينة ، وخصوصا أنها كانت تتمتع بنصيب كبير مـن القـوة والسـلطة مما أثـار سخطهم، وأذهلتهم هذه الحال التى تبينوهـا بأنفسـهم عنـد حضورهـم. ولقـد تعـذر عليهم أن يدركوا كيف تكون ملكة مصر بخيلها ورجلها وأموالها التى كانت تقدمها عن سعة للصرف على ما يجرى من الحوادث ، تهمـها حـرب يدعـى أنصارهـا ، إن صدقا وإن كذبا ، أنها لإعادة النظام الجمهورى فـى رومـا. وبعـد أن تبينـوا غوامـض الأمور ، أدرك كثـير منـهم فـى وقـت قصـير أن "أنطونيـوس" وهـو الحـاكم المسـتبد "الأتوقراطى" ، بالشرق وزوج "كليوباترة" لم يكن يرجى أن يتم علـى يديـه إعـادة الحكومة الجمهورية فى روما. ولقـد أصـر "دوميشـيوس أهينوبـاربوس" علـى عـدم الاعتراف لكليوباترة بحقها فى السلطة والسطوة التـى بلغتـها ، ولم يقبـل أن ينطـق بألقاب الشرف عند مخاطبتها ، بل كان علـى الـدوام يناديـها باسمـها المجـرد ونصـح "لأنطونيوس" بأن يرسلها إلى مصر[١] ، وأوشك "أنطونيوس" أن يقبل النصيحة التـى قدمها له "دوميشـيوس" ، وبعـض أعضـاء "السـناتو" البـارزين وكـاد يبعدهـا عـن المعسكر ويأمرها بالعودة إلى مصر ، ولكن لم يكن من طبع "كليوباترة" الـتردد فـى الوقت الذى كانت تشعر فيـه أن نفوذهـا فـى خطـر ، وكـان مـن حسـن حظـها أن بجانبها موردا ومعينا من المال لا ينضب ولا يعجـز عـن أن يوجـد لهـا كمـا أوجـد

---

(١) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، ٥٦ ، فيلليوس (Velleius) ، ٢ ، ٨٤.

لأبيها من قبل، المحامين الذين يدافعون عنهما، إذ قيل إنها قد رشت شخصا يدعى "بوبليوس كانيديوس" (Publius Canidius) لكى يدافع عن وجهة نظرها. فأبان "لأنطونيوس" أن الأسطول المصرى يبذل أقصى الجهود ، ويتفانى فى الحرب إلى أبعد مدى إذا كان تحت ظل ملكته ، وبين "لأنطونيوس" أنها قدمت مساعدات عظيمة فى سبيل تهيئة الجيوش والقوات التى لزمت لهذه الحرب[1]. وبمثل هذه البراهين ساد الرأى المناصر لها ، وسقط رأى "دوميشيوس" ، وبقيت الملكة مع "أنطونيوس". وهنا يجب أن نسجل على "أنطونيوس" ارتكابه خطأ عظيما بإبقائه الملكة معه فى المعسكر، فقد أدى هذا إلى سلسلة أخطاء أخرى وقع فيها. إذ أن وجود "كليوباترة" فى إفسوس ، وتدخلها فى شئون الحرب ، وتصريف ما يتصل بها من أمور كانت من صميم اختصاص قادة الرومان ، كان سببا فى انفضاض كثير من أعضاء مجلس الشيوخ من حول "أنطونيوس" بعد أن كانوا مؤيدين له حتى هذه المرحلة. وبدءوا ينقسمون إلى شعبتين متميزتين ، ففريق يريد الحرب ويؤيد "أنطونيوس" فى كل مشروعاته ، فى حين أن الفريق الآخر يروم السلم حتى ولو كان ذلك على حساب "كليوباترة" ، ولا يتردد الفريق الأخير فى تقديم "كليوباترة" فداءا بأى ثمن كان ولو كان بخسا ، ولكنها أجمعت رأيها على أن تضطر "أنطونيوس" أن يقدم على أمر يجعل استمرار السلام بينه وبين "أكتافيوس" مستحيلا ، فلم تدخر وسعا فى استغلال كل ما أوتيت من قوة وحيلة فى التأثير فى زوجها ، وإغرائه بأن يطلق "أكتافيا". وهذه الفعلة تكون لطمة كبيرة "لأكتافيوس" لا ينفع فى محو أثرها اعتذار ، وبذا تجعل الصلح أمرا مستحيلا ، وكان موضوع الطلاق مشكلة تضاربت بصددها الآراء بين الجانبين الرومانى والمصرى ، ولقد كسبت الملكة لصفها بفضل الأصفر الرنان بعض الرومان الذين لم يترفعوا عن أن يقبلوا مالها ، وهؤلاء كانوا قوة فى جانبها ، انتفعت بنفوذهم فى التأثير فى "أنطونيوس" ليقدم على هذه الخطوة الجريئة. وكان أكثر الجانب الرومانى فى صف "أكتافيا" يعارض فكرة طلاقها ويبين أنه لو حصل لأوجد من الخلاف هوة سحيقة لا تسد. ولما أن أزعجت "أنطونيوس" كل هذه النصائح المتضاربة ، صمم أن يؤجل البت فى هذا الأمر لفرصة أخرى

---

(١) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، ٥٦ ، ٢.

وتقدم إلى الغرب فعبر البحر إلى بلاد اليونـان ، تاركا جزءا من جيشه فى آسيا الصغرى. وعندما وصل إلى أثينا بلغه نبأ خطبة ألقاها "أكتافيوس" فى مجلس الشيوخ الرومانى[1]. ولكن لم يصل إلى أيدينا فحواها. وكل ما نعلمه عنها أنها أثارت "أنطونيوس" ، واستفزته لدرجة جعلته يصمم على أن يعلن عنها أنها أثارت "أنطونيوس" ، واستفزته لدرجة جعلته يصمم على أن يعلن عن خطته فى غير تورية ولا مداراة ، فجمع مجلسا من أعضاء الشيوخ الذين كانوا معه ، وعرض الأمر عليهم، وبعد حوار طويل مع من كانوا يرومون الصلح وإصلاح ذات البين ، والذين كانوا يعتقدون أن الطلاق لا بد مؤد إلى إعلان الحرب وبين من أخذ بلبهم مال "كليوباترة" ومالوا إليها كل الميل ، وصاروا يرون بمنظارها - بعد ذلك الحوار صمم "أنطونيوس" على الحرب ، وقطع العلاقة بينه وبين "أكتافيا" بطلاقها فأمضى خطاب طلاقها وأرسل رسلا من قبله لروما ، يعلمونها بالأمر ، ويطلبون إليها أن ترحل عن منزله[2] ، وفى الوقت نفسه أمر جنده المعسكرين بإفسوس أن يبحروا إلى بلاد اليونان ، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب ، وقطع نهائى للعلاقات بينه وبين "أكتافيوس". ولقد كان فى مسلكه هذا ما يعنى هزيمة سافرة للحزب الرومانى ، وانتصار لكليوباترة التى شمخت بأنفها تيها وعجبا بنفسها ، وفرحا بفوزها المبين. وإن الإنسان ليرى يدها تحرك دقة الأمور من وراء ستار ، ولا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يبرئها من تحريض "أنطونيوس" على اتخاذه هذا المسلك إذ أنها كانت هى الوحيدة التى استفادت من قطع العلاقات. فإنه ما دام ""لأنطونيوس"" زوجة شرعية بجانب "كليوباترة" كان من المستحيل على اليونان والرومان أن ينظروا إليها أكثر من أنها حظيته ، فطلاق "أكتافيا" إذا كان يقصد به تسوية حالتها وتثبيت مكانتها بجعلها زوجة شرعية. ولكن هذه المعاملة القاسية لأكتافيا ، تلك السيدة التى كسبت قلوب الناس إليها بطبعها الهادئ وإخلاصها لزوجها العاق ، قد صرفت من حول "أنطونيوس" عددا كبيرا من المؤيدين له الذين لم يصعب عليهم أن يروا فى

---

(١) ديو ، ٥٠ ، ٣ ، ٢.

(٢) ديو ، ٥٠ ، ٣، ٢ ، "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ٥٧ ، مختصر "ليفى" ١٣٢ ، "يوترويبوس" ٧ ، ٦، "أوروسيوس" ٦ ، ١٩ ، ٤.

هذا التصرف برهانا قاطعا على تعلقه الشديد ، ووقوعه التام تحت نفوذ وسلطان تلك الملكة المصرية. ولم ينس "أكتافيوس" أن يتخذ من طلاق "أنطونيوس" لأكتافيا سلاحا ماضيا فى المعركة السياسية بينهما ، فأهاب بالرومان ألا يتأخروا عن إظهار سخطهم ضد الأجانب الذين من أجلهم طلق "أنطونيوس" زوجته الشرعية ، فكأنما قدم له "أنطونيوس" السلاح الماضى الذى به يمكن عدوه من التأثير فى عقول أتباعه، وإثارة ثائرتهم ضد الأجانب ، أعداء روما ، وسبب أزمتها ومحنتها الحالية ، فانساقت الجموع إليه ونفث فيهم روح العداء ضد خصمه ليصبوا عليه جام غضبهم.

"كليوباترة" "وقيصرون" فى وصية "أنطونيوس" :

وفى هذه المرحلة وقعت واقعة كان لها أثرها فى الخلاف المحتدم ، وذلك أن "تيتيوس" (Titius) "وبلانكوس" (Plancus) ، وهما من رجال حزب "أنطونيوس" البارزين ، وكانا يكرهان الملكة لأسباب شخصية ، ويكيدان لها كل الكيد ، ويعملان على عرقلة أطماعها وسياستها ، هجرا حزبه وانضما "لأكتافيوس" ، ولقد كانا متصلين اتصالا وثيقا "بأنطونيوس"، وعلى علم تام بكل أسراره ونياته ، وكانا شاهدى عدل حضرا كتابة "أنطونيوس" وصيته التى أودع صورة منها بمعبد الإلهة "فستا" (Vesta) بروما ، ولكى يكيدا "لأنطونيوس" أخبرا "أكتافيوس" بما تحتويه هذه الوصية ، فطلب إلى العذارى حارسات معبد الإلهة أن يسلمنه الوصية ، ولكنهن رفضن ، وعلى ذلك أسرع إلى المعبد واستولى على الوصية بالقوة ، وجمع مجلس الشيوخ ، وأطلعه أولا على محتوياتها ، وبعد ذلك أطلع الشعب الرومانى المجتمع فى سوق المدينة (الفورم) عليها. وكان "أنطونيوس" يصرح فى هذه الوصية الأخيرة والوثيقة الفذة أن "يوليوس قيصر" هو والد "قيصرون" ، وأنه يترك بعد موته إرثا عظيما وأراضى كثيرة هبة منه "لقيصرون" ولأبناء "كليوباترة" الآخرين ، وكان يطلب فى هذه الوصية أنه فى حالة وفاته فى روما يحتفل بجثته فى "الفورم" ، ثم تحمل بعد ذلك باحتفال رسمى مهيب إلى الإسكندرية حيث تدفن بجوار

"كليوباترة"[1]. ولقد استفاد "أكتافيوس" فائدة جلى من تصريح "أنطونيوس" الخاص بأمر دفنه ، فألهب بذلك عقول الرومان ولوح به أمام أعينهم ليكون برهانا حسيا قدمه "أنطونيوس" بخط يده يتبرأ فيه من الشعب الرومانى حتى بعد مماته. ويشك العالم الكبير "روستوفتزف" فى صحة هذه الوصية ، ويجد من الصعوبة بمكان "أن نصدق صحة هذه الوثيقة مالم نسلم بأن "أنطونيوس" كان فى الواقع قد فقد صوابه ، واعتراه الخبل"[2]. وفى البرهنة على صحة ذلك الرأى وللدفاع عن نظريته مضى ذلك المؤرخ يقول "إنى لا أستطيع أن أتصور هذه الوصية المنسوبة إلى "أنطونيوس" إلا مزورة أخرجتها بنات أفكار "أكتافيوس" "أغسطس" "وموناتيوس" "وتيتيوس" ، الصديقين القديمين "لأنطونيوس" ، وليس بعجيب على "أكتافيوس" أن يلجأ إلى تزوير وثيقة لا يمكن لغير مجنون أن يرسلها إلى روما لتحفظ فى معبد الإلهة "فستا" ... وإذا فرضنا أن "أنطونيوس" احتج على جرأة "أكتافيوس" هذه فإن هذه الاحتجاجات لا بد أن يكون قد ضرب بها عرض الحائط ولم يقم لها الناس وزنا ، ثم مالبث هذا الصوت الخافت أن ضاع وسط الحرب وعجيجها." ، وإنه لمن المسلم به أن هذه الوصية كانت ذات فائدة عظيمة ""لأكتافيوس"" الذى لا بد أنه قد اعتمد عليها فى إثارة شعور الرومان فى وجه عدويه : "أنطونيوس" وكليوباترة. وهذا ما يبرر لدرجة عظيمة احتمال صحة رأى العالم "روستوفتزف" فى إحاطة أمر هذه الوثيقة بسياج من الشك ، ولكننا إذا فحصنا الأمر وصرفناه على وجوهه المختلفة نجد أن هذا الشك الذى أثاره العالم الروسى لا يقوم على دعائم قوية ، وبراهين قاطعة - ويفتقر إلى كثير من الحجج القوية التى تثبته ، هذا مع أن رأيه الذى بسطه يبدو بادئ الأمر خلاباً يأخذ بلب سامعيه لأول وهلة.

وهانحن أولاء نسوق هذه الاعتراضات التى تدحض رأى العالم الروسى وتثبت صحة هذه الوثيقة ، وأنها من مخلفات "أنطونيوس" ، فإننا إذا فحصنا محتويات تلك

---

(١) فيتيوس ، ٢ ، ٨٣ ، ١-٢ ، "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ، ٥٨ ، ٢ ، سويتونيوس ، حياة "أغسطس" ، ١٧ ، ديو ، ٥٠ ، ٣ ، ٢-٥.

(٢) رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، الفصل الأول ، ص ٥٦ ثم هامش رقم ٢٤ من الجزء الثانى ، ترجمة زكى على ، ومحمد سليم سالم.

الوثيقة المشكوك فيها فى زعم "روستوفتزف" ، وجدنا أن ما جاء بها عبارة عن تكرار لما سبق أن أرسله "أنطونيوس" فى رسائله لمجلس الشيوخ للتصديق عليه فى عام ٣٤-٣٣ ق.م. وإذا استثنينا العبارة الخاصة بتعليمات "أنطونيوس" إزاء دفنه ، فإن الوصية فى جوهرها عبارة عن هذه الرسائل التى أرسلت لروما قبل انفضاض كل من "بلانكوس" "وتيتيوس" من حوله ، وتسللهما إلى معسكر عدوه ، ولا يمكن أن تكون هذه العبارة التى جاءت بالوصية خاصة بدفنه مثيرة لسخط الرومان عليه بقدر ما كانت تثيرهم تلك الهبات العظيمة التى أسبغها على أبناء "كليوباترة". ولم يكن أمر هذه الهبات سراً مكنوناً أخفاه "أنطونيوس" ، بل إنه أمر وكلاءه أن يعلنوا هذه الرسائل على مسامع مجلس الشيوخ فى روما ، ويرجع الفضل لحكمة هؤلاء الوكلاء فى أن هذه التدبيرات التى أتاها "أنطونيوس" طويت فى زوايا الكتمان. وفوق ذلك إذا سلمنا جدلاً بأن "أكتافيوس" "وبلانكوس " "وتيتيوس" قد دبروا هذه المكيدة ""لأنطونيوس"" ،.وأخفوا معالم الوصية الحقيقية وزوروا أخرى ، فإن حارسات معبد الإلهة "فستا" حيث كانت الوثيقة الحقيقية فى حوزتهن ، لم يكن ليسكتن على ذلك ، بل كن يبادرن بالكشف عن كنه الأمور وإعلان أن الوصية مزورة. وعلى ضوء هذه الحقائق تنساب الشكوك التى أثارها العالم "روستوفتزف" ، ومنها زعمه أن الوصية مزورة ، وتكون النتيجة الحتمية التى يمكن استخلاصها أنه لا يصح تسرب الشك فى صدق هذه الوصية ، وأنها من صنع يد "أنطونيوس" ، وأن "كليوباترة" هى المدبرة لكل هذه الخطط وصاحبة المصلحة الأولى فيها.

وإن الاستيلاء على هذه الوصية وإعلان محتوياتها كان عملاً سياسياً موفقاً وبارعاً من قِبَل "أكتافيوس" ، فعمّ السخط روما وثار الناس وصبوا اللعنات على "أنطونيوس" الذى جالت بخاطره أطماع غير رومانية ، وسلك مسلكاً لا يليق برومانى ، وبلغ غضبهم درجة جعلتهم يسارعون إلى تصديق كل ما كانت تلوكه ألسنة الناس من الحكايات عنه. وتواترت على ألسنة الناس القصص والروايات عن مسلكه ، وقابلها الناس بالتصديق ، لا يفرقون بين معقول وغير معقول ، وبلغ الأمر أن كان بعض هذه الحكايات بغيضاً مبتذلا، وبه من فحش القول الشئ الكثير عن بلاط الإسكندرية ، ومسلك "أنطونيوس" "وكليوباترة".

وكانت التهم تُكَال جزافاً للملكة "كليوباترة" التى قيل إنها كانت مسيطرة سيطرة تامة على "أنطونيوس"، مستعملة فى ذلك مشروبات سحرية أعدها السحرة لتدسها "لأنطونيوس" حتى إذا ما شربها تملكه حبها وأعماه عن أن يرى بغير ناظرها. وكان من بين الحكايات التى أشيعت عنها وتناقلتها الألسن أنها كانت تطمع فى القضاء على الكابيتول وإخضاع روما لتكون تابعة لمصر ونقل عاصمة العالم الرومانى إلى الإسكندرية[1]. ولقد انتشرت هذه الرواية بعد أن أدخل عليها ما كان يُزاد على مثيلاتها من التلفيقات والتغييرات بما يتفق مع هوى خصوم "أنطونيوس" وما يصادف قبولاً حسناً من لدنهم[2]. ولقد وصف المؤرخ الفرنسى "بوشيه ليكلرك" هذا الموقف بقوله : إن روما قد وُهبت مهراً لكليوباترة. وبذلك أصبحت تابعة لهذه الأجنبية إذ قدمها أحد أبنائها وحماتها بِحْلَةً أى عطاء - لبغى - محظية قد أكرمت مثواه وآثرته على غيره وأسبغت عليه من الفضل ما ألهج لسانه بالحمد والثناء - لقد طمعت مصر أن تتحكم فى روما وتُملى إرادتها على من بالكابيتول، غير آبهة بذكرى أجدادهم العظماء وساخرة من الضعف والجبن اللذين استوليا على قلوب جيل ذلك العصر - ألم يكن كل هذا كافياً لكى يوقظ عزة النفس والرغبة فى الذود عن البلاد فى نفس ذلك الشعب القوى القاهر ويثير الحماسة الوطنية فى نفس أقل الرومان ميلاً للتضحية، والذود عن الأوطان[3]!.

ولقد استولى الهلع والرعب على نفوس أصدقاء "أنطونيوس" بروما، وهالتهم تلك الحملات الشعواء التى كانت تكيلها الكثرة الغفيرة الجمهور الرومانى "لأنطونيوس" كيلاً بلا حساب، ومضوا يحاولون أن يخففوا من غلواء القوم بتعداد مناقبه، والتقليل من ذلك الأثر السئ الذى أحدثه نشر الوصية ومحتوياتها معللين النفوس بالآمال بأن يكسبوا "لأنطونيوس" بضعة آحاد وأن يوجدوا ثلمة فى تلك

---

(١) ديو، ٥٠، ٤، ٥.

(٢) هوراس، الأنشودة الأولى، ٣٧، ٦-١٢، بروبرتيوس ٣، ٣١-٢، فلوروس ٢، ٢١، ٢، يوترويبوس ٧، ٧. على أن فريرو، الجزء الرابع ص ٦٨، انبرى للدفاع عن "كليوباترة" بقوله "إنها فى الحقيقة لم يخطر لها على بال أحد تلك الأطماع التى نسبها إليها خصومها فى روما".

(٣) "بوشيه ليلكرك"، تاريخ اللاجيدين - البطالمة جزء ثان ص ٢٩٣.

الجبهة القوية التى تكونت فى روما ضده من الساخطين عليه ، والمنادين بالويل والثبور وعظائم الأمور لذلك لخائن الخاسر عدو وطنه وصديق عدوة روما ، التى قدمها قربانا لحظيته بأبخس الأثمان فكان هذا هو الخسران المبين - ولقد أرسلوا له "جيمينيوس" (Geminius) ليحذره بوصفه عاتبا عليه أفعاله وليرجوه ألا يرتكب من الأغلاط بحمقه وسوء فعاله ما يسبب له الخسران المبين لقضيته. ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر "أنطونيوس" بأثينا تنكر القوم لصنيعة "أكتافيوس" ورسوله الأمين ، وأعرضوا عنه ، ولم يكرم "أنطونيوس" وكليوباترة وفادته ، وبالغا فى الإعراض عنه وإهماله حتى شعر الرسول أنه قد زج بنفسه فى مأزق لا يجدى ولا يفيد ، فحاول التخلص منه بأسرع ما يمكن. وقد سأله "أنطونيوس" ذات مرة عند تناول العشاء عن حاجته التى أتى ليقضيها فى أثينا فقال له إنه يفضل أن يبقى الجواب عن ذلك إلى فرصة أخرى يسودها التعقل والرزانة ، ولكنه لا يتردد فى أن يذكر أمرا واحدا فى هذه الساعة وهو أنه يضمن الفوز لقضيته إذا أعيدت الملكة إلى مصر ، فغضب "أنطونيوس" لقوله هذا وأجابته "كليوباترة" على الفور "لقد أحسنت صنعا يا "جيمينيوس" بإفشاء سرك وإعلان الغاية من حضورك بدون أن نضطر لتعذيبك"[1]. ولما وجد أن مهمته فاشلة لا محالة ، انسل من أثينا بعد أن أقام بضعة أيام وعاد أدراجه مسرعا إلى روما. وإن رسالته هذه لتظهر بأجلى وضوح أن عددا كبيرا من الرومان كان ينظر إلى "كليوباترة" على أنها السبب فى كل هذه المصائب ، وأنه حتى فى هذه المرحلة لم تكن إزالة الخلاف ، وإعادة المياه إلى مجاريها من الصفاء وحسن التفاهم بالأمر العضال ، إذا قدر "لأنطونيوس" أن يجد فى نفسه من الشجاعة والجرأة ما يكفى للإقدام على تسريح "كليوباترة" إلى مصر ، فقد كان الكثيرون من أتباع "أنطونيوس" والمؤيدين له يؤمنون بأنه كان من الضرورى لضمان النصر فى المعركة القادمة أن يبتعد "أنطونيوس" ولو مؤقتا عن "كليوباترة" ، وأن الأفضل ألا توجد على مقربة من ميدان الحرب. ولكن تمسك الملكة كان فى ذلك الوقت سببا

---

(١) "بلوتارخوس" ، حياة "أنطونيوس" ٥٨-٥٩ ، "بوشيه لكليرك" ، تاريخ اللاجيدين - البطالمة ، جزء ثان ص ، ٢٩٤.

من الأسباب التى جعلت اليأس يستولى على قلوب كثيرين من أصدقاء "أنطونيوس" فانفضوا من حوله وولوا وجوههم شطر "أكتافيوس".

وفى نفس الوقت كان "أكتافيوس" يعمل على نشر القصص عن عدويه : "أنطونيوس" وكليوباترة ، وكانت غايته القصوى من ذلك هتك أسرارهما والتشنيع عليهما ، وإعداد الرأى العام بإشعال نيران الوطنية التى كانت تتأجج فى صدر كل واحد لأخذ القسم العظيم (Conjuratio) بالإخلاص التام والولاء له حتى يصيب الغاية. ولما تم له ما أراد ، وأصبح الرأى العام فى روما وإيطاليا مستعدا لقبول ما يملى عليه ، فكر فى كسب مساعدة الولايات الرومانية الغربية ، وصبغ مشروعه هذا بصبغة وطنية حماسية حتى نال ولاءهم ، وأخذ عليهم العهد الذى أخذه على سائر الرومان فى الغرب. ولم يفته أن يسجل ذلك الحادث فى أثر أنقرة المشهور (Monumentum Ancyranum) ، وهو سجل الحياة الرسمية الذى كتبه بنفسه "أكتافيوس" ، إمبراطور الدولة الرومانية الأول ، وبذا أتاح للعالم فرصة الاطلاع على رأيه الشخصى فى يمين الطاعة هذه التى أقسمها له الغرب ، وهاهو ذا كلامه عن هذه اليمين ، مترجما عن الأصل اللاتينى "لقد أقسمت لى إيطاليا بأسرها يمين الطاعة، طيبة النفس فى قسمها ، مدفوعة برغبة قلبية ، وعينتنى قائدا فى الحرب التى انتصرت فيها بأكتيوم ، ولقد اشتركت فى هذا القسم بلاد الغالة وأسبانيا وأفريقيا وصقلية وسردينية"[1]. ويظهر أن "أكتافيوس" - كما يدل صريح عبارته التى وردت بتلك الوثيقة قد أراد أن يوهم العالم ويلقى فى قلوب الناس أن الحرب فرضت عليه فرضا ، ولم تكن من صنع يده وتدبيره ، ويرفض بعض المؤرخين تصديق ذلك الزعم الذى يجعل "أكتافيوس" آلة صماء فى يد الجماعات الإيطالية التى اختارته زعيمها وقائدها بذلك القسم الذى يحاول هو وأولياؤه أن يلقوا فى روع الناس أنه لم يكن نتيجة مؤثرات خارجية ، بل أتى إثر حماسة وطنية وانفعال نفسانى. ويوجد بعض المؤرخين الحديثين الذين يخالفون هؤلاء فى الرأى ، ويجدون فى هذا القسم إعلانا عاما للولاء والطاعة ويقبلونه على أنه نتيجة طبيعية وحتمية لتلك الحماسة العامة التى انبثقت وتجلت بأظهر معانيها فى نفوس القوم المؤيدين

---

(١) أثر أنقرة ، الفصل الخامس ، ٣-٦ عن الأصل اللاتينى واليونانى المنشور فى طبعة (gagé).

"لأكتافيوس" والمعارضين "لأنطونيوس" وسياسته التى كانت تنطوى على الخيانة العظمى لبلاده. ولكن ليس لدينا الأدلة القاطعة التى تثبت أحد الرأيين بطريقة لا تقبل الشك. ومهما يكن التفسير الذى يسوقه المؤرخون لتوضيح أمر ذلك القسم، وسواء أكانوا ينسبونه للحوادث التى وقعت فى ربيع عام ٣٢ أم خريفه، فإنه من الصعب علينا أن نفهم مظهرين غريبين وهما إجماع الإيطاليين وتطوعهم لهذا القسم. ومن حيث أن البراهين التى يسوقها المؤرخون غير كافية وحججهم غير قطعية، فإن هذه النقاط ستبقى على الدوام غامضة وسرا مكنونا لا نصل إلى كنهه إلا إذا لجأنا إلى الحدس والتخمين.

وبعد ذلك بقليل أعلن "أكتافيوس" الحرب رسميا، ولكنه لم يعلنها على "أنطونيوس"، بل على "كليوباترة" بالذات، وهى التى اعتبرها عدوة (Hostis) للرومان. ويقول "ديو" فى تفسير ذلك أنه كان المعروف ان "أنطونيوس" لن يتنكر لكليوباترة وإنما ينوى أن يحارب دفاعا عنها، وبذلك يقدم "أنطونيوس" بنفسه دليلا آخر على عدم وفائه لوطنه وخيانته لبلاده وتخليه عن رومانيته[١]. ثم تبع ذلك إعلان "أكتافيوس" أن "أنطونيوس" أصبح مجردا من ألقابه ورتبه، فلم يعد شريكا فى الحكم الثلاثى، ولم يسمح له بأن يشغل وظيفة القنصلية التى كان مقدرا له أن يشغلها لعام ٣١ ق.م، ولكن "أكتافيوس" لم يقدم على الخطوة التالية وهى أن يعلن أن "أنطونيوس" وأنصاره أعداء للدولة الرومانية، وأن يهدر دمهم، ولربما رغب "أكتافيوس" أن يتظاهر للعالم أجمع بأن الحرب الأهلية قد انتهت فعلا بإعلانه ذلك بعد انتصاره على "سكستوس "بمبى"". ويعلل بعض المؤرخين هذا الإهمال من جانب "أكتافيوس" "لأنطونيوس" وعدم إعلان الحرب عليه بأنه كان معروفا أن "أنطونيوس" لن يترك "كليوباترة" فى مهب الريح على هذا النحو تتلقى وحدها الصدمات من جانب "أكتافيوس"، بل سينتصر لها ويحارب فى صفها، وبذا يكون قد قدم سلاحا ماضيا فى أيدى أعدائه يحاربونه به ويشهرونه فى وجهه، ذلك هو محاربته لوطنه وبلاده من أجل ملكة أجنبية. وإنه لمن الجائز أن "أكتافيوس" باتخاذه هذا السبيل لم يشأ أن يغضب أتباع "أنطونيوس" وأنصاره، ويثير سخطهم لحد بعيد

---

(١) ديو، ٥٠، ٦، ١.

وبذا مهد لهم السبيل ليعودوا إلى حظيرة بلادهم وينفضوا من حول زعيمهم وبطلهم "أنطونيوس" بدون أن يلحق بهم أى ضرر أو ينزل بهم أى عقاب. وبإهمال "أنطونيوس" إلى هذا الحد الكبير، وبتحاشى ذكر اسمه فى إعلان الحرب على "كليوباترة" ، أظهر "أكتافيوس" احتقاره لشأن "أنطونيوس". ولكى يتم إعلان الحرب رسميا لبس لباس الكاهن ، وقد تبعه أعضاء مجلس الشيوخ وفقا للعادة الرومانية التى توجب على القائد أن يلبس لباس الكهنوت ويذهب إلى معبد إله الحرب ، مارس (Mars) ، حيث يؤدى الواجبات المرعية فى مثل هذه الأحوال ، ويرمى السهم إعلانا بأن روما فى حالة حرب مع عدو أجنبى ، وقيل فى الذريعة التى تذرع بها فى إعلان الحرب فى ذلك المعبد إن "كليوباترة" ادعت ملكية أقاليم، فتحها الرومان وملكوها. وبذا انصب جام غضب روما كلها على "كليوباترة" وسيرت جيوشها وقواتها ضد هذه الملكة ، ولم ينته عام ٣٢ ق.م إلا وكان زعيما الشرق والغرب قد أعدا عدتهما وسيرا جيوشهما بعضها ضد بعض. وكان كل من الطرفين يطمع فى أن تكون له الغلبة والسيطرة النهائية على العالم الرومانى بأسره.

الفصل الخامس

النزع الأخير

الشرق والغرب وجهاً لوجه :

وهكذا تهيأت كل الظروف والملابسات لإثارة العداوة المتأصلة بين الشرق والغرب من جديد، وسار جيش من الشرقيين لا تجمعه جنسية واحدة لقتال الغرب، فاستولى على نفوس الغربيين ذعر شديد، وهلع كبير، من جراء زحف الشرقيين عليهم وتهديدهم بغزو بلادهم. ولكن كان من سوء حظ "أنطونيوس" أن الرومان لم ينظروا إليه نظرهم إلى أحد القواد الرومان، بل رأوا فيه قائداً أجنبياً، لا يمت إليهم بصلة، تولى قيادة الشرقيين والدفاع عن قضيتهم وقضية "كليوباترة" بالذات فى الهجوم على دولة الرومان فى الغرب وناصب "أكتافيوس" الذى تولى الدفاع عنهم العداء، فأجمعوا أمرهم للانتقام من ابن روما العاق وعدوها اللدود الذى احتضن الشرق وألّبه على الغرب وتنكر لوطنه وبلاده وبنى جنسه فحلت عليه نقمتهم أجمعين.

وكان تقدم الجيوش من كل من الشرق والغرب حادثاً ذا خطر، إذ كان الناس فى جميع أنحاء الإمبراطورية من الفرات إلى أسبانيا غرباً يتساءلون عن نتيجة الحرب التى يتوقف عليها مآل حكم العالم القديم، وكان "أنطونيوس" قد أخذ ببعض أسباب النجاح ، وكان من الجلى أنه إن كتب له النصر دخل روما وملكة مصر إلى جانبه دخول المنتصر الظافر، فأذلها وترك العنان "لكليوباترة" تنتقم من أعدائها انتقاماً صارماً، ولكن ليس من السهل أن نحكم بأن الغرب كان يقبل طوعاً أو كرهاً مثل تلك الحال دائماً أو إلى أمد قصير أو طويل. وإذا قُدّر على "أنطونيوس" الفشل فى حملته فسيواصل "أكتافيوس" السير ويستحوذ على شرق البحر المتوسط. ولربما تسرب إلى "أنطونيوس" أنه ليس فى مقدور "أكتافيوس" فى حالة نجاحه وانتصاره أن يصل إلى كل هذه النتائج، ويمكن القول بأن "أنطونيوس" قد فكر فى حالة هزيمته أن يقتصر على حكم الشرق الإغريقى ثم يترك الغرب وشأنه. وإنه ليمكن الظن أن "أنطونيوس" قد اتخذ عُدته وأهبته لحالة ربما نجمت إذا تحقق هذا الاحتمال وصدقت النبوءة. ومما يقوى هذا الظن عندنا أن "أنطونيوس" قد

رضى الشرق له مقاماً، واتخذ مطامحه له آمالاً، واصطبغ بعاداته وتقاليده وزيه وكل خصائصه، وفوق ذلك فإن الحوادث التى وقعت بعد ذلك دلت على أن "أنطونيوس" كان متخذاً الشرق قاعدة له فى فتوحه وتقدمه وموئلاً أخيراً فى حالة ما إذا مُنِى بالفشل. وعندئذ يعود القهقرى إلى الشرق ويتخذ مصر مركزاً رئيسياً له، ويؤسس له فيه أسرة تحكمه، وبذلك يترك إيطاليا والأقاليم الغربية وشأنها يحكمها "أكتافيوس" ويكون "أنطونيوس" قد خلف لعدوه مهمة شاقة وعسيرة وهى اضطراره الزحف علي الشرق ومحاربة "أنطونيوس" فيه إذا ما جال بخاطره أن يوحد الصف الرومانى، ويلم شعثه من جديد فى قبضة يده. ولربما كان فى ذلك الحل الأخير الذى جال بخاطر "أنطونيوس" ورسمه لنفسه، والذى كان يقضى بفصل جسم الإمبراطورية الرومانية إلى شقين متباينين: الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية، وهذه أمنية صادفت هوى فى نفس "كليوباترة"، وكان فيها احتمال عملى يصح السكوت عليه إذا لم تتحقق أطماعها بفشل محاولتهما الاستئثار بالغرب وضمه للشرق تحت حكمهما.

الإعداد لموقعة "أكتيوم" :

بدا أنصار كل من الشرق والغرب فى جمع جيوشهم على جانبى بحر اليونان، فكان معظم جيش "أكتافيوس" فى برنديزى وتارنتوم أما جيش "أنطونيوس" الذى ازداد عدده وتضخم حتى بلغ نحو ثلاثين كتيبة فكان فى بلاد الإغريق، ولكن أكثر جيش "أنطونيوس" كان من الشرقيين لأن "أكتافيوس" منعه من أن يستنفر جنداً من إيطاليا، ولقد اتخذ "أنطونيوس" من بلاد الإغريق مركزاً لتسع عشرة كتيبة وترك أربعة كتائب فى برقة وأربعاً فى مصر ومثلها فى الشام ورسا معظم أسطوله الذى كان يتألف من خمسمائة سفينة قرب الساحل الغربى لبلاد الإغريق بين أكارنانيا وإبيروس عند مدخل خليج أمبراشيا. أما قوة "أكتافيوس" فكانت تبلغ مائتين وخمسين سفينة وثمانية آلاف راجل واثنى عشر ألف فارس. وفى أوائل عام ٣١ق.م صدم "أكتافيوس" أعداءه الصدمة الأولى إذ سار جزء من أسطوله يقطع البحر اليونانى قاصداً الساحل الجنوبى لبلاد الإغريق برئاسة صديقه الحميم أجريبا (Agrippa) فباغت ذلك الأسطول "ميثونى" ونجح فى أسر بعض الفلك المشحون بالحنطة الآتية من الشام ومصر وآسيا الصغرى؛ ويخيل

للإنسان أن أجريبا بهجومه هذا وأسره لتلك السفن صادف نجاحا كبيراً ، إذ جعل "أنطونيوس" يركز انتباهه إلى هذه الناحية ويغفل إلى حد كبير النواحي الأخرى فيصيبه منها "أكتافيوس" على غرة. وبينما كان "أنطونيوس" متجهاً بأكبر عنايته إلى هذه الناحية أقلع "أكتافيوس" سراً بأسطوله الذى يحمل نحو ثمانى كتائب وخمس فصائل من برنديزى، وأنزل جنده بساحل إيبروس. ولما وصل إلى مسامع "أنطونيوس" هذا النبأ العظيم وهو وصول أسطول الأعداء، أقلع وشيكا إلى "أكتيوم" (Actium) التى يظهر أنه وصل إليها بعد وصول "أكتافيوس" بقليل. وكان على "أكتافيوس" أن يُشل حركة أسطول "أنطونيوس" الذى كان راسياً فى خليج أمبراشيا، ولكنه فشل فى اقتحام الطريق إلى داخل الخليج، واكتفى بضرب الحصار حول مدخله. وبذلك حبس أسطول منافسه داخل الخليج وعسكر "أكتافيوس" على بعد أربعة أميال فى شمال المضيق، أما "أنطونيوس" فقد عسكر هو الآخر على الجانب الجنوبى للخليج، ولم يكن مستعداً للنزال لأن كتائبه لم تكن قد تجمعت بعد، ولما وصلت تلك الكتائب عبر "أنطونيوس" المضيق وضرب خيامه فى معسكر آخر على بُعد ميلين جنوبى موقع الأعداء، ولما رفض "أكتافيوس" مقاتلته حاول "أنطونيوس" محاصرته ومنع وصول الماء عنه ولكن لم تُكلل هذه الحركة بنجاح كبير لسعة دائرة الحصار التى كان يبلغ محيطها نحو خمسة أميال وفى نفس الوقت نجح أجريبا بأسطوله فى بحر الأرخبيل من أن يقطع عن "أنطونيوس" موارده التى كانت تصل إليه عن طريق البحر وأن يكسب انتصارات أخرى. وعندئذ سارع "أكتافيوس" بإرسال رسله إلى روما ليعلنوا أخبار هذا النجاح على أنه ظفر ونصر مبين وليبلغوا الشعب الرومانى أن قائدهم قد اقتنص أسطول "أنطونيوس" داخل الخليج. ويظهر أن هذه الانتصارات على قلة خطرها وضعف شأنها قد ألقت الرعب فى نفوس أتباع "أنطونيوس"، فانفض من حوله "دوميشيوس" عدو "كليوباترة" اللدود وانضم إلى "أكتافيوس" وتبعه غيره ممن أيقنوا بهزيمة "أنطونيوس" وبذلك أصاب الخور عزيمة "أنطونيوس" من جراء هجر أتباعه له وفقد الروح الحافزة إلى القتال.

ومما زاد فى تَثبيط همته ، واستياء أتباعه من القلة المطردة فى موارده والأوبئة الفتاكة فى صفوف جيشه. فترك فكرة الهجوم جانباً ، واكتفى بخطة الدفاع إذ رآها

الطريقة المثلى للنجاح فانسحب ليلاً إلى شبه الجزيرة الجنوبية وتحصن فى موقعه الأول بمعسكره الأصلى- ولقد كان حصار "أكتافيوس" محكماً حتى أن موارد "أنطونيوس" قد قلّت ، حتى كادت تبلغ حد المجاعة، فأصبح مقامه لا يحتمل البقاء. وكان لزاماً عليه أن يجد وسيلة للخروج من هذا المأزق، وقد أقنعه سير الحوادث بأن "أكتافيوس" قد عقد العزم على ألا يحاربه فى موقعة برية فاصلة، وأنه لا سبيل إلى إجباره على ذلك- كما تأكد بأنه لا يمكنه هزيمة "أكتافيوس" فى موقعة بحرية؛ لأنه كان قليل الخبرة بالحرب البحرية وقوة "أكتافيوس" البحرية أعز من قوته وهى بالأمس القريب قد برهنت على عظمتها وخبرتها بأساليب الحرب البحرية بانتصارها على "سكستوس "بمبى"" فكان هذا النصر بمثابة الحجر الأساسى فى عظمتها البحرية، وزد إلى ذلك أن سفن "أنطونيوس" كانت مثل خططه بطيئة متثاقلة بينما كانت سفن "أكتافيوس" صغيرة، سريعة الحركة فى التنقل فكانت آمال "أنطونيوس" فى النصر بحراً تكاد تكون معدومة، كما يفهم ذلك من الأوامر التى كان يصدرها. وعلى ذلك كان الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلكه هو أن يخترق أسطول عدوه ويهرب إلى مصر حيث يمكنه أن يجمع قواته من برقة وسوريا ويقاوم "أكتافيوس" مقاومة برية عنيفة- ولو أن "أنطونيوس" سمح لكليوباترة بالهروب من المعركة وحدها لوجد نفسه وحيداً فى بلاد قد ضاعت فيها هيبته، وتقلص نفوذه أو كاد، ولاضطر أن يعرج وحده على بلاد لا يعلم إلا الله مدى استعدادها لمناصرته ومؤازرته فى محنته. ذلك إلى أنه لم يكن معه جيش قوى بآماله وعتاده فقد أنهكته الأمراض وتفشته الأوباء، وأضعفت قوته المعنوية فوق ذلك تلك الهزائم المتوالية وانحياز كثيرين من الرومان فيه إلى العدو، وهو بطبيعة تكوينه كان ينقصه الإخلاص "لأنطونيوس" والشجاعة فى ميدان الحرب.

ويُفهم من كل ذلك أن ملابسات الأحوال أشارت على "أنطونيوس" باتباع طريق الفرار، وهو الجندى الخبير الذى لا يحتاج إلى نصائح محترفى الحرب. وقد وافقت "كليوباترة" أيضاً على هذه الخطة ، ولكنه رأى ذراً للرماد فى العيون أن يدعو مجلساً حربياً للانعقاد، وأن يعرض عليه الموضوع بتفاصيله للبحث والتحرى، وقد عرض عليه بالفعل أحد أمرين: إما التقهقر وإطالة أمد الحرب، وإما البقاء والمقاتلة فى موقعة فاصلة، ففضل "كانيديوس كراسوس" الخطة الأولى ، وأخذ

يبرهن على سدادها ، ونصح "لأنطونيـوس" أن يتقـهقر إلى تراقيـا أو مقدونيـا فـى البلقان لكى يستدرج عدوه وراءه، ثم يحاربه فى موقعة لاشك فـى انتصـاره فيـها، لأنه كان قائدا بريا أكثر كفاية من عدوه. وقال إنه ليس من العار تسليم البحـر إلى "أكتافيوس". وإنه لمن الحمق أن يترك "أنطونيوس" الميدان الذى يعرف كيف ينتصر فيه، ويخاطر بأسطوله فى حرب بحرية، ثم أشار خصوم "كليوباترة" اليوم، وإن كان منهم من رشته بالأمس، على "أنطونيوس" بإعادة الملكة إلى بلادهـا. أمـا هـى فـقد عارضت خطط "كانيديوس كراسـوس" بشدة ونصحـت "أنطونيـوس" بـأن يحتـل بعض أماكن حصينة سوف لايجد "أكتافيوس" مفرا مـن حصارهـا، وبذلـك يـوزع قوته ويفنى رجاله، وأن يقـوم الأسـطول فـى نفـس الوقـت بـهجوم عنيـف ليفـك الحصار. وقد حمى وطيس الجدال ولكن القرار الأخـير فـوض أمـره "لأنطونـيوس" الذى اصبح من المحتم عليه ان يقرر خطة معينة للمستقبل فلم يوافـق علـى خطـة "كانيديوس كراسوس" ، واتبع مشورة "كليوباترة" إذ رأى أنه لو تقهقر بجيشـه إلى داخل البلاد لترك أسطوله وشأنه محبوسا فى الخليج، ولوقـع دون شـك فـى قبضـة الأعداء، وهل كان من الممكن الدفاع عن إمبراطوريته دون أسطول؟ بل هل كان من المعقول ترك أسطوله دون معين وتحت رحمة الأعـداء؟ وهـلا توجـد وسـيلة أخـرى يستطيع بها إنقاذ الكتائب والأسـطول وبعـد فـترة راحـة واسـتجمام القـوى يمكـن قيادتها إلى القتـال فـى أحـوال أليـق وأنسـب؟ وقـد يتسـاءل الإنسـان هـل كـانت اقتراحات "كانيديوس كراسوس" قابلة للتنفيذ فى هذه المرحلة؟ ويمكن القول مـن المعلومات الضئيلة التى لدينا بأن ذلك كان مستحيلا أو على الأقل شـديد الخطـر، وكانت اعتراضات "كليوباترة" على تضحيتـه بجـزء مـن أسـطولها شـيئا معقـولا ، ويصعب على المرء أن يعتقد أن "أنطونيوس" قد تصرف بحكمة لو أنه ضحى بكل سفينة حتى ولو ضمن النصر برا- وإنـه لمن المعقـول أن نـرى جنـد "أنطونيـوس" شغوفين وحريصين على أن يترك لهم وحدهم تقرير هذا المصير، واتخاذ قـرار حاسـم بشأنه ، ولكن ذلك لا يـبرهن علـى حسـن تصريـف الأمـور لـو أن "أنطونيـوس" يستمع لنصيحة جنده فقط وينفذ لهم ما يريدون، فإنه عندئذ قـد يسـتهدف لخطـل

الرأى على ذلك كانت موقعة "أكتيوم" وهى من أعظم المواقع فى التاريخ القديم ، تُمثل مشكلة حارٍ فى أمرها المؤرخون من القرن الأول الميلادى إلى يومنا هذا[1] ، وقد اتفقوا جميعاً على أن "أنطونيوس" "وكليوباترة" مسئولان عن خطة الموقعة ولكنهم اختلفوا فى ماهية تلك الخطة تماماً.

وقد تبين بوضوح تام أن إنزال أحسن الجند على ظهر مراكب الأسطول واقتحام نطاق الحصار البحرى والرحيل إلى مصر مصطحباً الملكة والبحث عن موقع أكثر ملاءمة وانتهاز فرص انسب للقتال- كل ذلك كان مقدمات لموقعة "أكتيوم". ولما استقر رأى "أنطونيوس" على هذه الخطة اصدر أوامر لم يفهم الجند مغزاها ولا مراميها لأول وهلة، فقد أمر بالاحتفاظ بثلاثين ومائتى سفينة كانت تمثل أحسن السفن وأكثرها عدة ومن بينها ستون سفينة كانت تحت إمرة "كليوباترة"، ثم أمر بإحراق بقية السفن التى كانت غير صالحة للقتال، ولم يكن بها عدد كاف من الجند وأمر مرشدى السفن بالاحتفاظ بالساريات وأن يأخذوا معهم أشرعة كبيرة ما كان يحتاج إليها فى حالة الحرب ، بل هى فى الحقيقة عائق كبير يمنع سرعة حركة الجند فوق متونها. وقد علل الاحتفاظ بها بلزومها عند اللحاق بالعدو، ولكن هذا التعليل لم يقنع ضباطه الذين تسرب إليهم الشك فى حقيقة الأمر خصوصاً وأن "أنطونيوس" أمر بنقل النفائس ليلا إلى السفن التى احتفظ بها. وكانت الخطة تقضى بإنزال عشرين ألف جندى إلى السفن وألفين من حملة الرماح وفريق آخر من رماة المنجنيق. ولقد فزع الجند عندما تسرب إلى أذهانهم أنه ينوى الإلتحام مع العدو بهذا الرهط كله فى موقعة بحرية. وقد رجاه أحد ضباطه وهو يشير إلى آثار جروح عديدة بجسمه ليظهر له بلاءه وجلاده، أن يغير خططه ويحارب على اليابس، وقد كان يُعبر فى هذا عما يجول برأس بقية الجند، ومع ذلك فإن "أنطونيوس" لم يعره التفاتا - وقد أيدت أوامره الأخيرة شكوك من أساءوا الظن به، فقد كان

---

(١) تناول العالم "تارن" (Tarn) موقعة "أكتيوم" بالبحث فى مقال طريف نشر فى مجلة الدراسات الرومانية (Journal of Roman Studies) فى العدد ٢١ لسنة ١٩٣١ صـ ١٧٥وما بعدها. وفيه يدلل على أن "أنطونيوس" لم يكن لديه خطة واحدة وإنما كان أمامه حرية الاختيار بين أحد أمرين فإما أن يكسب النصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلا وإلا فإن خطته كانت تنحصر فى أن يُيمم شطر مصر.

المقصود من تلك المعركة البحرية أن تكون ستاراً للهروب إلى مصر- الأمر الذى صمم عليه. وتأكد كل من "ديليوس" "وأمينتاس" من أغراضه الحقيقية، إذ لم تخدعهما أوامر "أنطونيوس" المبهمة، فانفض من حوله كل من "ديليوس" "وأمينتاس" وصحبهما عشرون ألفاً من الجند، وانضموا جميعاً إلى "أكتافيوس" فى العقد الأخير من شهر أغسطس. وقد اطلع "ديليوس" الفار "أكتافيوس" على قصد "أنطونيوس"، وأخبره بأنه قرر أن يشق لنفسه طريقاً فى الخليج ويهرب مع "كليوباترة" إلى مصر. وقد كان "ديليوس" هذا مُقرباً من "أنطونيوس" لدرجة مكنته من معرفة حقيقة أغراضه. وكانت الخطة التى رسمها "أكتافيوس" لنفسه بمجرد أن أحاط علماً بنيات خصمه أن يسمح لعدوه بالخروج من الخليج. ثم يتعقبه من المؤخرة فى عرض البحر ويدحره، ولكن "أجريبا" وهو الساعد الأيمن "لأكتافيوس" عارض هذه الخطة ، مبيناً أنها خطة غير عملية لأنها قد تمكن العدو من نشر أشرعته والفرار بها على عجل، فيكون من المستحيل اللحاق به وبذا يطول أمد الحرب دون مسوغ. فقبل "أكتافيوس" نصيحة "أجريبا" هذه وصمم على أن تكون خطته إرغام العدو على القتال ، وعدم السماح له بتهريب النفائس المصرية، ولذا قضت تعليماته الأخيرة بإنزال ثمانة كتائب وخمس فصائل إلى سفنه، والاستعداد للقتال. فكانت موقعة "أكتيوم" يوم ٢ سبتمبر وفيها كان "أنطونيوس" يقود القسم الأيمن من الأسطول وكانت "كليوباترة" على رأس سفنها الستين فى مؤخرة الأسطول. أما "أكتافيوس" فكان يقود القسم الأيمن من أسطوله "وأجريبا" يقود الجناح الأيسر. وتقدم "أكتافيوس" ومعه سفنه وكان كلما اقترب من العدو اتسع خط القتال، حتى أخذ أسطوله يحيط بأسطول عدوه من الجانبين، وظل الخصمان وجهاً لوجه بضع ساعات دون البدء فى القتال، وأخيراً تقدم الجناح الأيسر من أسطول "أنطونيوس" وقد استدرجه "أكتافيوس" إلى عرض البحر ، متظاهراً بأنه يتقهقر بأسطوله، ولما أمعن قائد الجناح الأيسر فى التقدم فى عرض البحر، نحا بقية أسطول "أنطونيوس" نحوه، فتقهقر أجريبا ومد فى خطوط القلب والميسرة، ففقد "أنطونيوس" زمام أسطوله وتوزعه البحر بامتداد خطوط القتال لأن أسطوله تبع دون تبصر أسطول الأعداء الذى أخذ يتقهقر ببطء ونظام، فعمت الفوضى أسطول "أنطونيوس" بضع ساعات، ثم لحقت سفن "أكتافيوس" الصغيرة

بسفن "أنطونيوس" الكبيرة التى أخذت كل واحدة منها تقاتل حسبما يتراءى لها، وبذلك قامت تلك المعركة الهائلة بين أسطول قوى متصل الأرسان، ونثير من السفن لا يتصل بعضها ببعض ولا تجمعها قيادة محكمة ذات خطط متزنة. ومع ذلك فقد ظلت النتيجة معلقة بين كفتى ميزان لا تثقل إحداها عن الأخرى حتى تمكن أعداء "أنطونيوس" من فصله عن قلب أسطوله، وذلك عند محاولته منع "أجريبا" من الإحاطة بأسطوله. وفى تلك اللحظة أدركت "كليوباترة" أن النصر بدأ يحالف "أكتافيوس" وأنها وأنطونيوس قد خسرا الموقعة، فاغتنمت فرصة وجود ثغرة فى أسطول الأعداء، وأمرت رجال أسطولها باقتحامها، وصادف ذلك أن هبت ريح شمالية مكنتها من الإبحار نحو مصر. وعندئذ أطاع "أنطونيوس" عاملا أقوى من الحب لكليوباترة، ولو أنه كان متشوقا فى ذلك الوقت لأن يصحب الملكة. فلقد حارب لكى يضمن سلامة التقهقر لأن التقهقر كان ممكنا ولو أن الأمل فى النصر كان معدوما. وعلى ذلك ترك المعركة عقب ذلك مباشرة وتبع "كليوباترة" بسفينته وحدها.

فرار "أنطونيوس" "وكليوباترة" :

واتباعا للراى التقليدى الذى يقتبسه الناس من المؤرخ ""بلوتارخوس"" وصف هذا الفرار من ميدان القتال بأنه خيانة من "كليوباترة"، وتلبية لداعى الغرام من جانب "أنطونيوس" الذى انفطر قلبه عندما رأى أن روحه قد فرت من جواره، ولكن هذه الرواية الخيالية لا تتفق مع الواقع وهى بمثابة تفسير وجدانى لموقف عسكرى وقد قيل إن "كليوباترة" قد نقضت عهد "أنطونيوس" لما رأت أنه دارت عليه الدائرة فى المعركة فى الوقت الذى كانت تأمل فيه بأن تحصل على شروط مشرفة للصلح مع "أكتافيوس"، وقيل أيضا أن هيام "أنطونيوس" بكليوباترة دفعه إلى أن يطرح كل اعتبار آخر وراء ظهره لما رآها فارة ميممة وجهها شطر مصر. ولكنه من السهل أن نفند ذلك الرأى إذ أكد المؤرخ "ديو" أن خطة الهرب هذه كانت مدبرة من قبل، ويرى ذلك جليا فى الاستعداد للمعركة، بل إنه يؤيده ويزيد "ديو" على ذلك بقوله: إن "أكتافيوس" كان على علم تام بتلك الخطة قبل المعركة وقد أطلعه عليها من نكثوا العهد من رجال وأتباع "أنطونيوس" وقد حذا المؤرخون الحديثون حذو "ديو" واعتمدوا عليه، فإنهم يقولون إنه كانت هناك خطة

مدبرة قبل المعركة بين "أنطونيوس" "وكليوباترة"، كما جاء فى وصف "ديو" لتلك المعركة. ويمكن المرء أن يتساءل ما الذى كانت تكسبه "كليوباترة" بانتفاضها على "أنطونيوس" إذا فرض أنها هى التى دفعته إلى القتال بحرا لكى تتخلص منه وتخونه حتى تحصل على رضاء "أكتافيوس"؟ والجواب على ذلك لا شئ لأنها بجعل "أنطونيوس" كبش الفداء ما كانت لتكسب شيئا من "أكتافيوس"، أو تتقرب زلفى إليه ، بل على العكس من ذلك تخسر حماية "أنطونيوس" لها نهائيا من غير أن تكسب أى شئ فى وقت لم يكن "أنطونيوس" قد فقد الأمل فى النجاح وكان جيشه لا يزال تحت إمرته وتصرفه. ومن المؤكد أنها لم تكن تأمل أى خير من "أكتافيوس"، وهو الذى لم يعلن الحرب على أحد سواها، فهى الهدف الذى كان يرمى إليه سهامه وهى التى تزوجها "أنطونيوس" بدلا من أخته أكتافيا. وفى الحق إنه ليس من المعقول أن ترد على خاطرها فكرة التحول إلى "أكتافيوس" إلا إذا ضاع كل أمل لها فى الانتصار. وفى "أكتيوم" كانت لا تزال تثق فى المستقبل، وقد تدخلت بالفعل فى وضع خطط الحرب التى كان يتوقف كيانها على الانتصار فيها. ولكن مع أن التقهقر إلى مصر كان خطة مدبرة قبل الموقعة، فإن تنفيذ هذه الخطة كان بغير إحكام، وكانت الظروف والملابسات على غير ما كان يتوقع "أنطونيوس". وكانت النتيجة أنه بدلا من أن يرى نفسه على رأس معظم أسطوله ويقود قوة كبيرة من جيشه تحملها سفنه نحو مصر بعد اقتحام الحصار، رأى نفسه أحد الهاربين من معركة خاسرة، وهذا ما قضى القضاء المبرم على نفوذه فى الشرق، وختم مصيره ومصير الملكة. ولما انتشر خبر موقعة "أكتيوم" فى العالم الهيللينستى وأرجاء الشرق، أحدث هزة ورجة كبيرة، فعصف بآمال الكثيرين وألقى الذعر والخوف فى نفوسهم فى حين فتح أبواب الأمل فى النصر الحاسم والفرج القريب لغيرهم، وسنرى أنه لن يمضى وقت طويل حتى يختفى من الميدان الشخصيتان الكبيرتان اللتان أقامتا الأرض وأقعدتاها، هما "أنطونيوس" وكليوباترة فيستريح منهما العالم القديم بانتحارهما ويصفو الجو كل الصفاء "لأكتافيوس" الذى ذاق طعم الانتصار فى "أكتيوم"، ثم استساغه فلعبت براسه نشوة النصر، ولكنه كبح جماح نفسه فلم يطلق لها العنان، ومضى فى طريقه ونفسه ممتلئة ثقة واطمئنانا

بأن المستقبل القريب له كيما يتم العمل الذى بدأه فى "أكتيوم" فياتى على عدويه اللدودين ويصرعهما بعد أن كادا يصرعانه.

فر "أنطونيوس" من الموقعة حزينا كئيبا علـى سـفينة مصريـة إلى مصـر فـى صحبة زوجتـه، بـل معبودتـه "كليوبـاترة"، وحـاول "أكتـافيوس" اللحـاق بعدويـه الفارين من الموقعة، ولكنه لم يوفق فعاد إلى المينـاء وبـدأ يفكـر فـى ضـم جيـوش "أنطونيوس" التى كان قد تركها وراءه، ومضى فى طريق فراره لا يلوى على شـئ، ولا يأبه لما سيكون من أمرها. وكانت هذه الجيوش قد تركـت معسـكرها، وبـدأت التقهقر إلى مقدونيا فتبعها "أكتافيوس" وأسرع فى اللحـاق بـها، ولم يجـل بخـاطر هؤلاء الجنود البواسل أن قـائدهم الأعلـى قـد فـر، ولم يكـن فـى نيتـهم التسـليم لعدوهم، ولكنهم لما أستبطأوا "أنطونيوس" وعلموا أنـه رحـل لغير عـودة فأورثـهم بهروبه الخزى والعار، ووجدوا فوق كل ذلك أن القائد الجديـد "كراسـوس" الـذى كان مطلعا على حقيقة الأمر، وعلى ما كان من أمر "أنطونيـوس" قـد لاذ بـالفرار أيضا، لم يجدوا بدا من مواجهة الأمر الواقع بعد أن ظلوا سبعة أيام يرفضون ما كـان يعرضه عليهم "أكتافيوس"، وهم واثقون من أن قائدهم ما تغيب إلا من أجل مهمة حربية، فلما تأكد لديهم آخر الأمر أنه ولى فرارا استخذوا وسـلموا تسـليما. وهـذا يرينا أنه لو أن "أنطونيـوس" رجـع مباشـرة إلى جيشـه وانفصـل مـن "كليوبـاترة" لاستمر جيشه على ولائه له، ولقادهم إلى حرب مظفرة أو هزيمة غير منكرة، ولكنه لم يفطن إلى أن جنده كانوا ينقمون على وجود "كليوباترة" بين ظهرانيهم ، وعلـى استسلامه الظاهر لنفوذها. وقد زاد الطين بلة، وأذهب كل روح معنوية فى الجيـش تـرك كانيديوس كراسوس وهو يعلم علم اليقين حقيقـة الأمـر، للميـدان واقتفـاؤه آثار الفارين واللحاق بهم، فاضطروا حينئذ إلى الخضوع والتسليم كارهين.

وبعد انتهاء الحرب واستسلام جنود "أنطونيوس"، قـدم "أكتـافيوس" فـروض الشكر للآلهة على ما أولوه من نصر على عدويه فى "أكتيوم" ، ثـم اتخذ التدابـير اللازمة للاحتفاء بذكرى هذا النصر كل عام، فأسس فـى موضـع معسـكره مدينـة النصر "نيقوبوليس" تخليـدا لذكـرى هـذه الموقعـة واحتفـى بـهذه الذكـرى بإقامـة الألعاب فى "أكتيوم"، وجعل يقيمها كل أربع سنوات- ولاشك أن الأمـور شـغلته بضعة أيام عقب الموقعة مباشرة، كان فى خلالها فرحا مسرورا. هذا ما كان من أمـر

"أكتافيوس"، وأما ما كان من أمر "أنطونيوس" وكليوباترة فى أثناء فرارهما على ظهر إحدى مراكب الأسطول المصرى، فلقد كانا كئيبين بعد أن أظلمت الدنيا فى وجهيهما ، ويكن كل منهما للآخر الكراهية المصحوبة بالسخط. وكانت تحيط بهما المخاوف من جميع الجهات ، فالهزيمة من الوراء كانت تطاردهما وتلاحقهما ملاحقة الظل لصاحبه، والمستقبل من الأمام مظلم حالك الظلمة، تسكنه أشباح مخيفة تلوح لهما بالخطر الداهم والكوارث المدلهمة التى يخبئها لهما القدر المحتوم. وقيل إنهما قضيا بضعة أيام فوق سطح هذا المركب الذى أقلهما من "أكتيوم" وهما يتحاشان اللقاء. ولم يجد "أنطونيوس" فى نفسه من الشجاعة ما يكفى لأن يستجمع قوته ويخاطب زوجته. وكان خلال هذه الرحلة الكئيبة لا يفكر إلا فى الكارثة التى نزلت به، وأفقدته جيوشه، وكانت "كليوباترة" من جانبها تفكر فى مصيرها ومستقبل مصر الذى أصبح مهددا. وعلى ذلك قضى الجانبان الأيام الأولى من رحلتهما فى حزن واكتئاب، فأنطونيوس يرى الماضى القريب فتذهب نفسه حسرات على ما فاته من الأمر ، وقد برح به الأسى ، ونال منه الكمد واستولى عليه اليأس القاتل، وكليوباترة تنظر إلى المستقبل المظلم فتنحدر عبراتها ، وتستدر شئون عيونها، ويستولى عليها الهلع والجزع ، وتذرف الدمع الهتون على ما فات.

وهنا قد يتساءل المرء عن ذلك الدور الذى كان يمكن "لأنطونيوس" أن يمثله على مسرح السياسة بعد أن فقد جيشه وقوته، وأصبح مهزوما مدحورا. لقد تغير وجه الأمور، وأصبح "أنطونيوس" اليوم غيره بالأمس من الوجهة الدستورية والسياسية، وأصبحت كل عنايته موجهة فى ذلك الوقت نحو الفرار إلى مصر والاعتصام بها. وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام ألقيا مراسيهما عند رأس تايناريوم (Taenarium) فى جنوب شبه جزيرة البليبونيز ببلاد اليونان، ويظهر أنهما قد اصطلحا هناك ، وعادت الأمور بينهما إلى مجاريها، وصمما على الخطط الأولى التى سيتخذانها.

ولما كانا لا يستطيعان البقاء طويلا برأس تايناريوم خشية أن يقعا فى يد "أكتافيوس"، وكانا يخشيان كذلك أن يصل خبر الهزيمة التى لحقت بهما إلى مصر قبل وصولهما ، فقد عجلا بالسفر عبر البحر المتوسط، ووصلا إلى بارايتونيوم (Paraetonium) ومحلها الآن مرسى مطروح، وكانت تمثل الميناء الغربية على حدود

مصر التى تفصلها عن برقة أو ليبيا، وهناك افترقا فبقى "أنطونيوس" فى بارايتونيوم ينتظر وصول جيشه من برقة، وأسرعت "كليوباترة" إلى بلادها. ولكن سوء الحظ لازم "أنطونيوس" فلم يكن موفقا فى خططه، إذ كان قد وصل خبر الهزيمة إلى برقة، وكانت تخشى بطش القائد المنتصر وتود أن تضمن عفوه ورضاءه بالإسراع فى الانضمام إلى جانبه والتنكر لعدوه. فقدم قائد جيوش "أنطونيوس" ولاءه إلى "جاللوس" (Gallus) حاكم أفريقيا من قبل "أكتافيوس"، ولكى يبرهن هذا الحاكم على ولائه، وصدق نيته أعدم رسل "أنطونيوس" الذين كان قد أرسلهم إلى حاكم أفريقيا، وهكذا خسر "أنطونيوس" جيوشه فى برقة وتبددت الأمانى الأخيرة التى بناها على أساس واهى. وفى هذا الوقت جال بخاطره الخلاص من الحياة بالانتحار، وإنقاذ نفسه بأن يودع الحياة ويتركها ببخع نفسه، ولكن كانت تعوزه الشجاعة الكافية، فتغلبت محبته للحياة على الخلاص منها، وبعد أن استولى عليه اليأس وأقعده عن التفكير السليم فى الإقدام على عمل جرئ لم يجد مفرا من أن ييمم شطر ناحية طالما اتجه نحوها مندفعا وراء رغبته وعاطفته وحبه للاستمتاع - تلك هى الإسكندرية وكليوباترة.

عودة "كليوباترة" إلى الإسكندرية :

وفى الوقت نفسه كانت الملكة أشجع وأنشط من "أنطونيوس"، فسارعت إلى تدارك الأمور قبل أن يصل خبر الهزيمة إلى الإسكندرية فتظاهرت فى عاصمة ملكها بأنها منتصرة ظافرة، وأمرت بالاحتفاء بهذا النصر الوهمى على أعدائها وتزيين مراكبها بأكاليل من الغار لتضلل رعاياها. وفى الواقع لو كان الشك تطرق إلى أهل الإسكندرية، وارتاب الحزب المعادى لها فى انتصارها فى "أكتيوم" لقبض على زمام الأمور ومنعها من الوصول إلى الميناء، ولكنها بدهائها وخداعها تمكنت من التغرير بشعبها إلى أن طأطأ خصومها لها رءوسهم. ولما استقر بها المقام فى قصرها واحتل جيشها المدينة، أمرت بقتل أعدائها فخرت تلك الرءوس العاتية صريعة، وبذا تخلصت نهائيا من عقبة كؤود لم تسلس لها القياد، وضمنت عدم تكدير صفو هنائها من هذه الناحية ، ولم تكن الملكة تعرف التردد فى التخلص بمثل هذه الطريقة من كل من كانت تشك فى إخلاصهم، فاستراحت من متاعبهم واستفادت بأموالهم وكنوزهم، وملأت خزائنها بما كانت تفرضه من الضرائب على شعبها وما

استولت عليه من كنوز المعابد. وادخرت كل هذا العتاد الذى كان عونا لها فى قابل أيامها. ولقد جمعت كل قواتها الداخلية فى الإسكندرية، وصممت على ألا تستسلم لليأس وتفر من الميدان، وألا تستسلم لعدو بدون الاشتراك معه فى حرب وأخذت تسعى فى الحصول على حلفاء لها فأرسلت تخطب ود ملك ميديا وكانت ابنته "يوتابى" خطيبة ابن "كليوباترة" المسمى "الإسكندر هيليوس" أى الشمس لا تزال بمصر وأرسلت للملك ميديا رأس ملك أرمينيا الذى كان سجينا فى الإسكندرية ثمنا لصداقتهما ودليلا على حسن التفاهم بينهما على مواجهة الوقف الجديد- ولم تكن مجهودات الملكة مقصورة على ناحية واحدة، بل تعددت نواحى نشاطها، وجال بخاطرها بعض المشروعات التى تدل على جرأة عظيمة، ووصفها "بلوتارخوس" بأنها "من أجسر وأعجب المشروعات"- كل ذلك من أجل تحاشى وقوع كارثة عظيمة، أوشكت أن تودى بحياتها، وتعصف بملكها العظيم، مؤملة أن تغير فى آخر لحظة ذلك المصير المخيف الذى كان ينتظرها. فأخذت فى بناء أسطول ومراكب فى البحر الأحمر تستطيع أن تهرب بها محملة بكنوزها وذخائرها إلى الهند أو بلاد أخرى أجنبية إذا ألجأتها الضرورة القصوى أو الحاجة الماسة إلى الفرار، ولكن النبطيين من سكان بطراء (سلع) والأعراب فى شبه جزيرة سيناء أحرقوا مراكبها بتحريض من حاكم سوريا الذى خان عهد "أنطونيوس"، وانحاز إلى جانب القائد المنتصر "أكتافيوس". ولما وجدت أنه لم يتحرك أحد لنصرتها ومساعدتها فى محنتها فى هذه البلاد، وحبط ذلك المشروع الجرئ، ولت وجهها شطر المغرب لعلها تفوز هناك بما لم تفز به فى المشرق. إذ قد فكرت فى أن تنزل إلى أسبانيا بقوة حربية، وهناك تثير السكان ضد "أكتافيوس"، وبذا يتجدد النضال وتعود الحرب خدعة، وربما جال بخاطرها أن يصادف ذلك المشروع هوى فى نفس "أنطونيوس" الذى كان قد وصل فى ذلك الوقت إلى الإسكندرية فينضم إليها، ويتعاونان من جديد على تنفيذه، ولكن قد يتساءل المرء هل كان فى استطاعة "أنطونيوس" تنفيذ مشروعاتها بمثل تلك المقدرة التى كانت له فى الأيام الخالية؟ لقد سلبته فاجعة "أكتيوم" عقله وصوابه وخارت قواه، وفقد الثقة بنفسه، وتهدم جسمه، وعاش فى عزلة فى منزل ابتناه لنفسه فى الميناء الشرقية بالإسكندرية، وسماه "تيمونيوم" (Timonium) تيمنا باسم "تيمون" الآثينى الذى عاش فى القرن الخامس قبل

الميلاد فى أثينا، غريب الأطوار يستأنس بالذئاب والحيوانات إذا عوت ويفر من الإنسان كلما رآه - هكذا عاش "أنطونيوس" ينفر من أخيه الإنسان، ولا يثق بأحد من الناس، وإنه لمن المستحيل على المؤرخ أن يجزم بالدوافع الحقيقية التى جعلته يسلك هذا المسلك الغريب. ألأنه كان يشك فى كل من رآه أم كان قد سئم الحياة وملها، أم لأن الصدمة التى لحقته بعد أن هوى من أوج عظمته أفقدته رشده وصوابه، وجعلته يتخذ هذا المسلك؟ لقد عاش ليشهد عدوه اللدود يدخل أثينا دخول المنتصر الظافر، ويستقبله الشعب الأثينى بأحسن مما استقبل به "أنطونيوس" من قبل- عاش ليشهد الملوك والأمراء، بل والحكام والولاة ينفضون من حوله، ويسارعون لتقديم فروض الولاء والطاعة لعدوه المنتصر، وكلما اتجه بصره رأى عدوه تعقد له ألوية النصر، ويستقبله الناس استقبال الفاتح المنتصر، وكأنما العالم كله قد هجره لينضم لعدوه- تلك لاشك كانت بعض الخواطر والهواجس التى كانت تجيش بصدره، وهو فى وحدته وعزلته، فما أشقاه وما أبأسه!!!

ولكن بؤس "أنطونيوس" وما انتابه من شقاء لم يحركاه لينشط لعدوه. لقد جردته هذه الصدمة من الرغبة فى التفكير فى مستقبله، ولكنها لم تؤثر فى محبته لكليوباترة، إذ دلت الحوادث التى وقعت بعد ذلك على أن محبته لها وارتكانه عليها كلية لم تهن ولم تضعف- وفى هذه المرحلة وصل إلى الإسكندرية ملك فلسطين المسمى "هيرود" (Herod) وهو يحمل فى جعبته مشروعا خطيرا، لو نفذ لكان فيه القضاء المبرم على "كليوباترة"، إذ حاول هذا الملك إقناع "أنطونيوس" - بكل ما كان يملك من المقدرة والمهارة والدهاء - أن فى قتل الملكة ضرورة ملحة، وأن التخلص منها بهذه الطريقة الماكرة هو الوسيلة الوحيدة لتمهيد الطريق فى الصلح مع "أكتافيوس"، ولكن مساعى "هيرود" لم تنجح إذ أبى "أنطونيوس" أن ينصت له أو يفكر فى أى مشروع يرمى إلى مسها بسوء، وكانت محبته لها هى الدافع الذى أوحى إليه اتخاذ هذا المسلك فجعله يصم آذانه ويعرض عن مشروع "هيرود"- تلك هى المحبة التى كانت تسرى فى عروقه، والسلطة التى كانت لها عليه وهما اللتان أنقذتاها من مخالب "هيرود" اليهودى الماكر. وهكذا أضاع "أنطونيوس" بمسلكه هذا وعناده فرصة خلاصه، ثم خسر "هيرود" نفسه، فأخذ يعمل على تدبير خطة أخرى للانضمام "لأكتافيوس"، بعد أن يئس من إقناع

"أنطونيوس" بالأخذ برأيه. ولقد استعان بتقديم الهدايا الفاخرة، وبما كان عليه من المهارة السياسية فى استمالة "أكتافيوس" وجلب محبته له والعفو عنه، ومن ذلك الوقت تفانى فى خدمة سيده الجديد، ولم يأل جهدا فى العمل على إرضائه.

ولقد انفض من حول "أنطونيوس" سكان آسيا الصغرى كلها وقواته التى كانت فى سوريا وفلسطين وبرقة ، وكان يأمل أن يحشد كل هذه القوات فى مصر ليقاوم بها "أكتافيوس" فتكون هى المقاومة الأخيرة، ولكنها حذت حذو جيشه فى إيبروس، وخانت عهده فى أول فرصة سنحت وانضمت إلى "أكتافيوس". ومما أتى ضغثا على إبالة أن قدم على "أنطونيوس" "كانيديوس كراسوس" نفسه وهو يحمل فى جعبته ذلك الخبر المشئوم، وهو عصيان جيشه فى "أكتيوم" وانضمامه إلى "أكتافيوس"، وبذلك ساعد القدر المحتوم على تحقيق ما جال بخاطر "أنطونيوس" إذ ذاك من أن يرتبط نهائيا بحكم الصلات إلى أقصى حد بكليوباترة، فأصبحت قوته مقصورة على مصر، ولا حليف له ولا ناصر من دونها- ولقد انقضى عام بأكمله بين موقعة "أكتيوم" ودخول "أكتافيوس" الإسكندرية، وقد أعمل فيه الفكر لتدبير شئونه قبل أن يتقدم خطوة، ربما كانت ذاهبة بثمرات انتصاره فى "أكتيوم"، فقد خشى أن يكون مغامرا فى التعجيل بقدومه إلى الإسكندرية، فيجر على نفسه حربا فيها كما حدث "ل"يوليوس قيصر"" من قبل. وإن ذلك البطء والتريث فى الحركات والمنطوى على تفكير عميق لهو السبب الذى جعل المعركة النهائية مقرونة بهذا الانتظار الرهيب الذى كان يسود جو الإسكندرية. وإن ذلك اليأس الذى استحوذ على عقول ذوى السلطة والقوة فى الإسكندرية لهو السبب فى ذلك الارتباك الكبير الذى كان من مظاهره تعدد نواحى التفكير، ومنازع الآراء واضطرابها- ومع تعذر معرفة الدوافع الحقيقية التى كانت تحرك "أنطونيوس" بسبب قلة التفاصيل التى وصلت إلى أيدينا عن هذا العهد الأخير، يمكننا أن نستنبط أن حالة "أنطونيوس" الكئيبة التى لازمته فى معزله فى مبنى "التيمونيوم"، قد تبدلت إلى فرح وسرور، ولكن هذا التفكير لم يكن صادرا عن حبه فى الحياة، أو تعلقه بزخرفها، أو مظهرا من مظاهر حبه للملكة والتفافه حولها، بل كان قصد كل من "أنطونيوس" وكليوباترة أن يلقيا فى روع أهل الإسكندرية أن ليس هناك أى خطر يهدد كيان مصر، إذ كيف يكون من المعقول أن يشتغلا بتنظيم كل هذه

الاحتفالات فى وقت يتوقعان فيه زحف الجيش الرومانى على البلاد؟ ولقد تذرعا ببلوغ كل من "قيصرون" بن "كليوباترة" من "قيصـر"، "وأنتيلـوس" (Antyllus) بن "أنطونيوس" من فلفيا، سن الرشد لإقامـة هـذه الاحتفـالات المموهـة والسـاترة للحقائق.

"كليوباترة" تضع خططا جريئة :

ولقد أسست "كليوباترة" جماعة سميت بالشركاء والإخوان فى المـوت ، وقـد انضوى تحت لوائها كل من جمعهم اليأس من حياة عزيزة بسبب ظفر "أكتافيوس" وتوقع الفتك بهم، وقد ارتبط أعضاؤها بأغلظ المواثيق والأيمـان أن يعيشـوا ويموتـوا سويا. ولما كان سلاح الموت مسلطا فوق رقابهم، وكان شبحه المخيـف أمامـهم أنـى ذهبوا، دفعهم ذلك الشعور بالموت القريـب إلى قضـاء الوقـت القصـير البـاقى مـن حياتهم فى الاستمتاع بالحياة أيمـا استمتاع، فـتركوا العنـان لملاذهـم وشـهواتهم، ومضوا فى طغيانـهم يعمـهون. وإنـه لمن المستحيل أن نكشـف الآن عـن حقيقـة البواعث الدفينة التى دفعتهم إلى إنشاء هذه الجماعة الانتحارية، أهى بواعث دينية أم إنها أغراض عملية دفع إليها اليأس القاتل.

وقد بنت "كليوباترة" داخل قصرها الملكى زيادة علـى معبـد الإلهـة إيزيـس مقبرة لها، تشبها بما كان يفعله الفراعنـة الأقدمـون الذيـن بنـوا المصـاطب والأهـرام لتكون المقر والمثوى الأخير لأجسامهم. ولكن هذه المقبرة التى بنتها الملكة لم تبنـها للموت فحسب، بل جعلتها مستقرا لجميع كنوز البطالمة من ذهـب وفضـة ولآلـئ وأحجار كريمة وعاج، وآيات للفن وغير ذلك من الأشياء الثمينة التى اعتاد الفراعنة أن يدفنوها فى مقابرهم لتكون بجوار أجسـامهم بعـد موتـهم. ولكـن هـذا الكـنز العظيم كان مقدرا له أن يلعب دورا كبيرا فى تطور الحوادث المسـتقبلة، وذلـك لأن "كليوباترة" كانت تعلم علم اليقين أن "أكتافيوس" كان مشغوفا بالاستيلاء عليـه ليفك به أزمته، ويسد به حاجته. ولكيلا تمكنه من الحصول عليه جمعت المشـاعل والمواد القابلة للالتهاب بالمقبرة، حتى تسـتطيع أن تشـعل النـيران فـى هـذا الكـنز الثمين قبل أن يصعد نفسها الأخير.

وقيل إن الملكة أخذت فى هذا الوقت تجمع المعلومات التفصيليـة عـن المـواد السامة وأثر كل منها، وكانت تقوم بهذه التجارب على أجسام المجرمين لكـى تقـف

على خواص كل منها وأثره، ومقدار الآلام التى يشعر بها من تخالجه حشرجة الموت بسببه، وكانت ترمى من وراء ذلك إلى معرفة أى من هذه المواد بطئ الأثر، وأيها سريعه ومقدار الألم الذى يصحب كل واحدة منها. ولم تتردد فى إزهاق أرواح الناس كيما تصل إلى طريقة سهلة للتخلص من حياتها. وكانت هذه المحاولة خليقة بأن تصدر عن ملكة امتازت بعقل نشيط، وذكاء حاذق لا يقف بصاحبته عند حد، وقد أطمعها فى العظمة والسلطان فى الحياة، ثم زين لها التغلب على الموت قبل الممات بعد أن حم القضاء وصار الفشل قاب قوسين أو أدنى. وفى تجاربها التى أجرتها على الإنسان والحيوان، قيل إنها توصلت إلى أن السم السريع العمل يتسبب عنه أشد الآلام والأوجاع، بينما السموم ذات العمل البطيء يصحبها ألم وضعف. ثم توسعت فى دراسة أنواع السموم وخاصة أثر سم الحية. ويروى أنها وصلت إلى النتيجة الآتية وهى أن لدغة الثعبان لا يصحبها ألم أو انفعال، بل يتبعها نوع من التصلب فى العضلات، ثم يعقب ذلك اضمحلال سريع فى الجسم، وارتخاء تام فى العضلات يصحبه الموت.

وفى وسط هذه الاستعدادات لملاقاة الموت، وخلال ذلك الجو الحالك الظلمة الذى كان ينذر بقرب النهاية، ويملأ أرجاء السراى الملكية، تبدو لنا محاولة "أنطونيوس" الدفاع عن البلاد فى "بارايتونيوم" على الحدود الغربية لمصر، ولكن محاولة "أنطونيوس" هذه لن تغنى عن الواقع فتيلا. وهى على العكس من ذلك ستعجل بالقضاء النهائى على أمله الأخير. وبذلك تتبدد ثقته فى نفسه وفى رجاله، ويخر صريعا جزاء ما قدمت يداه. وكان بريق الأمل والثقة فى النفس التى تجددت عنده باعثا له فى أغلب الظن بأن النصر سيكون لاشك حليفه بفضل شجاعة بعض أتباعه المخلصين، وبتأثير نفوذه الشخصى الذى كان له عليهم فيما مضى ، وهذا ما جعله يعتقد بأنه بمجرد ظهوره أمام جند الأعداء، وجلهم حاربوا من قبل تحت لوائه، وأخلصوا فى الماضى له، سوف يهرعون إليه مسرعين، ويقدمون له ولاءهم وإخلاصهم، فيحاربون فى صفه كما فعلوا من قبل فى الحرب الأهلية فى إيطاليا. ولكن الحوادث برهنت على أنه كان خاطئا فى مزاعمه هذه، فما أن ظهر أمام ميناء "بارايتونيوم" التى كان قد استولى عليها جند العدو، وأصبح يهدد حدود مصر الغربية حتى تحقق أن الزمان قد تغير. وأن سحره وشخصيته التى

أتت بالأعاجيب فى سابق الزمان، لم تعد ذات أثر فى نفس الجند، فإنه لما وصل إلى حوائط حصن "بارايتونيوم" وطلب إلى حامية ذلك الحصن أن تعود إلى حظيرة قائدهم السابق أمر "جاللوس" الذى كان متوليا القيادة على الجيش فى هذه المنطقة، أن ينفخ فى الأبواق حتى لا يسمع الجند صوت "أنطونيوس"، وهكذا ضاع أمل "أنطونيوس" الأخير وألحقت به جند العدو خسائر فادحة لم يقو على احتمالها، وصد هجماتها ، وعجز أسطوله أن يستولى على ميناء "بارايتونيوم" فأتى تحطيم أسطوله وإحراق بعض سفنه، وإغراق البعض الآخر فى الميناء ضغثا على إبالة، ولاذ من جراء هذه الهزيمة المزدوجة بالفرار إلى الإسكندرية حيث بقى ينتظر وصول الجيوش الرومانية المنتصرة، وهى تزحف وتتدفق إلى مصر من الشرق، وقد دانت لها كل البلاد، وكتب لها النصر أنى ذهبت. وكان حضور الأعداء سببا فى استيلاء اليأس التام على "أنطونيوس" "وكليوباترة". وكان هذا اليأس يدفعهما للتفكير أحيانا فى خطط جنونية، وكان آخر الأمر سببا فى تفكك تلك الرابطة المقدسة التى كانت بينهما، والتى كانت السبب فى كل هذه الكوارث والفواجع التى صبت فوق رأسيهما. وكانت "كليوباترة" هى البادئة فى العمل على فك هذه الرابطة الزوجية، والتحرر من هذه العقدة، كما كانت فى الماضى هى العامل الأكبر فى تقوية هذه العلاقة، وتنميتها إلى أقصى حد. بدأت العلاقة بينهما إذا تدخل فى دور حاسم، حتى قطع الموت العقدة بحد السيف. وكانت أمام "كليوباترة" فى هذه المرحلة مسألتان دقيقتان إلى أقصى حد، وهما كيف تستطيع ان تتقرب من "أكتافيوس" وتسوى خلافها معه حتى تحافظ على عرشها، ثم ما هو الدور الذى يمكن "لأنطونيوس" أن يمثله فى هذا الموقف الجديد؟؟.

وللمرة الرابعة منذ زيارة "سكستس "بمبى" للإسكندرية عام ٤٨ق.م قبل موقعة فارساليا التى تقرر فيها مصير النزاع بين "يوليوس قيصر" وماجنوس "بمبى"، كان مستقبل "كليوباترة" ومصيرها كملكة لمصر يتوقفان على مقدم قائد رومانى إلى مدينة الإسكندرية. ولكن الرومانى فى هذه المرة كان هو "أكتافيوس"، ولقد كانت تعلم علم اليقين أن الظروف فى هذه المرة كانت مغايرة تماما لسابقاتها، وأن موقفها إذ ذاك كان مغايرا لموقفها بالأمس، وأن القرائن لا تبشر بالتوفيق. وأنى لها أن تطمع الآن فى الصلح مع "أكتافيوس" وهو الرومانى الذى لم تدخر وسعا

ولم تأل جهدا فى تحريك قوى السماء والأرض للعمل على هدمه وفنائـه، ولكنـها تلك الأمانى الخادعة التى أحيت فى نفسها بعض الرجاء فى المستقبل. تلك كانت مهزلة القدر، وكم له من مهازل- "كليوباترة" التى ارتكبت فـى نظـر رومـا أعظـم الجرائم وأفظعها، واقتطعت من الدولة الرومانية أملاكها، وسلبت أثمن دررهـا تحـاول فى ذلك الوقت الصلح مع روما المنتصرة، صاحبة الحول والطول وسيدة العـالم، ثـم تطمع أكثر من ذلك فى كسب ولاء "أكتافيوس" الذى أعلن الحرب عليـها بنفسـه، والذى لم ينس لها أنها سلبت أخته زوجها، وأنه بتحريضـها ورغبتـها طـردت أختـه "أكتافيا" من بيت زوجها "أنطونيوس" على ضفاف التيـبر- تلـك كـانت سـخرية القدر التى أطمعت "كليوباترة" فى النصر إلى النهاية. عندئذ قدم إليها "أكتافيوس" والحقد عليها يأكل قلبه، والكراهية لها تجـش بصـدره، وهـو يضمـر لهـا كـل سـوء ويطمع فى التنكيل والبطش بها لأنها تمثل العدو اللدود، ولكن "كليوباترة" مع ما قدمته من إساءات له ولأخته كانت تعلل النفس ببريق الأمـل فـى حلمـه وعطفـه وعفوه عنها.

والآن نعـود إلى "أنطونيـوس" لـنرى كيـف تـأزمت حالتـه، وتحـرج موقفـه ، وأصبح مجرد وجودة يمثل حجر عثرة فى سبيل "كليوباترة"، التى رأت أنه لا يجـب أن تتأخر عن تقديمه قربانا تضحيه فى سبيل طمعها فى الاتفاق مـع "أكتـافيوس"، وكان القدر يسخر الأمور ضده، فلم تجد مفرا من أن تهمله، ولا تحسب لـه حسـابا كما عاملها من قبل عندما تزوج من "أكتافيا" وأهمل شأنها، ولكـن بينمـا كـان يرفض اقتراح "هيرود" أن ينجـى نفسـه بتضحيتـها وقتلـها لم تـتردد هـى عـن أن تضحى به. ولم تظهر له ما أضمرت، وعلى ذلك صممت علـى التخلـص منـه مـع أنها اضطرت أن تعيش معـه، وأن تدافـع بالاشـتراك معـه، وأن تجـرى بينـهما وبـين "أكتافيوس" سلسلة طويلة من المفاوضات الدبلوماسـية عـن طريـق الرسـل، وكـان غرضها الأساسى إذ ذاك أن تلبس للحالة الجديدة لبوسها، فتتخذ عدوا من صديقها الحالى، وصديقها على عدوها بالأمس، وتتقمص هـذا الشـكل الجديـد كيمـا تنقـذ الموقف. وكان هذا الدور الذى لعبته هو آخر وأصعب دور مثلته على مسرح الحياة، ولكنها فشلت فشلا ذريعا فى القيام بالشق الثانى منه ، فلما أظلمت الدنيـا فـى وجهها امتدت يدها إلى جسدها، وتخلصت من حياتها كما سنرى فيما بعد.

وفى هذه المرحلة بدأت مفاوضات دبلوماسية ذات شأن عظيم وخطر كبير عقب عودة "أكتافيوس" من إيطاليا فى نهاية فبراير من عام من ٣٠ ق.م، وكانت تلك المفاوضات فى الظاهر بين فريقين، المنتصر والمهزوم المقهور، ولكنها فى الحقيقة كانت بين ثلاثة: "أكتافيوس"، "وأنطونيوس" "وكليوباترة"، وكان لكل من هؤلاء الثلاثة خطط ظاهرية وأخرى سرية، وكانت تتجاذب الثلاثة عوامل خفية، وتؤثر من وراء ستار فى الموقف من حب مدعى ورغبة حقيقية فى الموت، وأخيرا عزم مصطنع على الحياة. ولقد أظهر "أكتافيوس" خلال تلك المفاوضات صلابة مشوبة بصراحة لا تعرف الالتواء والتردد فى أمر واحد وذلك هو إصراره على حرمان "أنطونيوس" من كل وسيلة للنجاة بنفسه وحياته. وكانت ردوده "لأنطونيوس" كصمته العميق تظهر تصميمه على طلباته التى كانت تتلخص فى تلك العبارة المختصرة، التى تلخص الموقف أحسن تلخيص "إن موتك أمر محتوم" إذ قد هداه عقله إلى أن ذلك المنافس الذى استخدم الرومان فى الدفاع عن ملكة مصر والذى حاول أن يقضى على روما من أجل أن يؤسس بدلها إمبراطورية شرقية يونانية، مركزها الإسكندرية، لابد أن يلقى حتفه أولا، وبعد أن يتوارى عن الميدان يمكن أن يعاد تأسيس الإمبراطورية الرومانية من جديد. ويكفى للتدليل على خضوع "أنطونيوس" وكليوباترة التام "لأكتافيوس" أنهما كانا البادين بفتح باب هذه المفاوضات، فرجا "أنطونيوس"، وألحف فى الرجاء أن يسمح له "أكتافيوس" أن يعيش كآحاد الناس فى أثينا إذا لم يرغب "أكتافيوس" فى بقائه فى مصر، بينما طلبت "كليوباترة" أن تحتفظ بعرش مصر لأبنائها. ولقد أجزلا العطايا والهبات الفاخرة "لأكتافيوس" عله تأخذه الشفقة عليهما فيجيبهما إلى طلبهما؛ وزيادة على هاتين الرسالتين الرسميتين اللتين أرسلهما كل من "أنطونيوس" وكليوباترة معا، قد انفردت "كليوباترة" بإرسال رسالة سرية "لأكتافيوس" معها شارات الملك كعلامة لخضوعها، راجية أن يعيدها إليها ثانية أو يمنحها لأبنائها، وبذا أفهمته أنها على أتم استعداد للتضحية "بأنطونيوس". وفى الحال دخل معها "أكتافيوس" فى مفاوضات سرية. ولقد كان للرسائل التى وصلت من الإسكندرية تأثير تجاوب صداه فى ثلاثة أشكال: ففى أول الأمر أجاب على طلب "أنطونيوس" بالصمت والإعراض التامين، متجاهلا وجوده، ومفترضا موته، ثم كتب إلى "كليوباترة" رسميا يطلب إليها أن

تكف عن الحرب فى الحال، وأن تسلم مقاليد الحكم، ومتى فعلت ذلك يمكن حينئذ البحث فى مآلها وتقرير مصيرها. وفى هذا الجواب نرى بريق أمل "لكليوباترة" إذا قورن بمعاملته "لأنطونيوس"، ولقد أردف هذا برسالة سرية ردا على رسالتها السرية، يعد فيها الملكة بالإبقاء عليها وعلى عرشها على شريطة أن يعدم "أنطونيوس" أو ينفى من مصر. ولكن الردين اللذين وصلا "كليوباترة" لم يشفيا غليلها، كما أن "أنطونيوس" لم يقنع بصمت "أكتافيوس" وإهماله شأنه، فعول الإثنان على أن يعيدا الكرة، علهما يفوزان هذه المرة بأكثر مما فازا به فى المرة السابقة، فلجأ "أنطونيوس" إلى حيلة جريئة إذ قدم "لأكتافيوس" آخر قتلة "قيصر" واسمه "بوبليوس توريليوس" (Publius Turullius) كيما يثأر "أكتافيوس" منه لقتل أبيه، ولقد أقدم على هذا مع أن "توريليوس" هذا كان يعيش إلى هذه اللحظة صديقا "لأنطونيوس" فى الإسكندرية. ولقد ظن "أنطونيوس" أن من المناسب، بل من الضرورى أن يصارح "أكتافيوس" بشأن علاقته بكليوباترة، وحبه لها، فكتب إله شارحا حقيقة الحال وملتمسا لنفسه العذر بأنه وكليوباترة كلاهما قد شغف حبا بصاحبه حتى صارت بينهما عاطفة أبدية متبادلة لا يمكن انتزاعها إلا بنزع الروحين. ولكى يبرهن "لأكتافيوس" على مقدار إخلاصه وتضحيته للملكة أكد له أنه على أتم الاستعداد لأن يموت إذا كان فى موته خلاص للملكة. ولكن كل الدلائل تدل على أنه لم يكن خالص النية فى استعداده للتضحية، وأنه لم يكن يقصد ما يقول فعلا لأنه دافع عن حياته بشدة وضن بها إلى النهاية. ومهما تكن دوافعه ونواياه فإن الجواب الذى لقيه من "أكتافيوس" على رسالته كان الصمت التام والرهيب ، وقتل صديقه الذى أرسله مصفدا فى الأغلال. أما وعود "أكتافيوس" لكليوباترة فى هذه المرة، فلم تزد عما قاله من قبل، وكانت رسالته لها تجمع بين الترغيب والتهديد، والوعد والوعيد، ومع ذلك فلم يلق هذا الإهمال فى قلب "أنطونيوس" يأسا، ولم تثبط عزيمته بإعراض "أكتافيوس" عنه فبدأ يلعب على الوتر الحساس، ويستعطفه عل قلبه يرق بإرسال إبنه "أنتليوس" (Antyllus) إليه وكانت قد خطبت له فى عام ٣٧ق.م "يوليا" (Julia) ابنه "أكتافيوس" ثم أرسل معه مقدارا كبيرا من المال، وظن أن ابنة ، وهذا المال الكثير سيشفعان له عند "أكتافيوس"، ويكونان السبب فى خلاصه. وفى الوقت نفسه أرسلت "كليوباترة"

"لأكتافيوس" تبلغه أنها إذا ضيق عليها الخناق لن تجد مناصا من الانتحار، وتخريب كل ما تملك من نفائس وكنوز. ولقد كان "أكتافيوس" شديد الرغبة فى المحافظة على حياة "كليوباترة" بقدر حرصه على قتل صاحبه، والتخلص من منافسه بأى ثمن، وعلى ذلك لم يغير موقفه بالنسبة "لأنطونيوس"، فقبل المال ورد الرسل بدون جواب. أما تهديد "كليوباترة" فلقد كان سببا فى إزعاجه، لأنه كان يريد أن يملأ بكنوزها ونفائسها خزائن الدولة الخالية، وأن يدفع مرتبات جنده ويجزل لهم العطاء والهبات فى حين كان يريد بها أن يحتفظ نفسها ليعرضها فى احتفاله بالنصر عند عودته إلى روما، فتكون بشخصها أكبر رمز محسوس على ما كسبه من نصر، وأبدع آية لانتصاره. ومن أجل ذلك كان الاحتفاظ بحياتها لتحقيق هذه الغاية، والاستيلاء على كنوزها ونفائسها والقضاء على "أنطونيوس" والتخلص منه بأى ثمن، هو شغل "أكتافيوس" الشاغل، والمحور الذى تدور عليه سياسته فى هذا الدور الأخير من النزاع.

ولكى يمنع "كليوباترة" من أن تتسرع بارتكاب ذلك الأمر الخطير، ولكى يكسب ثقتها، وعدها فى شيء من الغموض والإبهام أنه فى حالة وفاة "أنطونيوس" سوف يسمح لها بالاحتفاظ بعرشها. ثم أرسل لها أحد رجاله المخلصين، وأمره أن يحادث الملكة بكياسة ولباقة، وأن يؤكد لها بأن "أكتافيوس" قد أحبها، ووقع فى شرك غرامها، وأصبح من عشاقها. وقد أمل "أكتافيوس" بذلك أن يطمعها فيه، ويحيى الرجاء فى قلبها بأنها ستستولى على مشاعره، كما استولت على مشاعر أبيه "قيصر" وزميله "أنطونيوس" من قبل فتحجم عن الإقدام على الموت منتحرة، وإتلاف جميع نفائسها فيتم له كل ما يريد ويبغى فى التنكيل بها. أما عن غرام "أكتافيوس" بها فلم يكن أمرا يستحيل عليها تصديقه، فأحواله الغرامية كان يجرى ذكرها على الألسنة وتفيض بها المجالس مما جعل الملكة على استعداد لأن تصدق ما جاء فى رسالته، وفوق ذلك فإنها كانت تعتمد على مقدرتها على الإغراء والاستهواء وتثق فى قدرتها على تنمية هذه الرغبة فى "أكتافيوس"، حتى تجعله يهيم بها ويصير من عبادها كما فعل أب له من قبل. وكانت فى ذلك الوقت تبلغ التاسعة والثلاثين من عمرها ولكنها كانت على جانب عظيم من الجاذبية والذكاء مع تقدم سنها. ولقد سرت، وأيقنت أنها وجدت

مخرجا من مأزقها، فأكرمت مثوى رسول "أكتافيوس"، وكان التكريم لرسول من قبل عدوهما "أكتافيوس" مثيرا للشك فى نفس "أنطونيوس"، ولكن لم يكن فى مقدوره أن يفعل شيئا وخصوصا أن "أكتافيوس" كان قد تقدم بجيشه من سوريا حتى وصل إلى الفرما (بيلوزيوم) على مصب الفرع الشرقى للنيل. وكانت حامية المدينة تحت قيادة "سيلوكوس" (Seleucus) قد أبدت مقاومة ضعيفة للأعداء، وقيل أنها سلمت بناء على أوامر خفية من "كليوباترة" نفسها، وأدى وقوع المدينة فى يد العدو إلى انتشار الإشاعات بأن قائد الحامية بالمدينة قد خان بلاده، وسلمها للعدو بناء على تعليمات "كليوباترة". وأخذت الإشاعات عن خيانتها تذاع، ويرجف بها الناس، وإن مسلك كليوباترا هذا -إن صحت الإشاعة التى نسبت إليها الخيانة- ليتفق مع سياستها التى رسمتها لنفسها فى هذه المرحلة الأخيرة، التى تنطوى على عدم تحقيق مطامعها بالقوة، بل كانت معتمدة الاعتماد كله على عطف "أكتافيوس" ورحمته، وعلى مقدار نفوذها الشخصى، ولم يكن يمنعها من إلقاء السلاح بين يدى خصمها والجنوح إلى التسليم المطلق سوى خوفها من "أنطونيوس" الذى كان لا يزال قابضا على ناصية الأمور، ويأتمر الجيش كله بأمره. وكان الاستيلاء على الفرما ذا أهمية حربية عظيمة؛ لأنه جعل الطريق مفتوحة إلى الإسكندرية من الشرق. ولقد جاءت الإشاعات إلى الإسكندرية تترى عن خيانة "كليوباترة". وقال المؤرخ "ديو" بأنه لما كان "أكتافيوس" يتقدم نحو الإسكندرية، نهت "كليوباترة" رعاياها سرا عن أية مقاومة له. ولقد روج الرومان الموالون "لأنطونيوس" هذه الإشاعات، ليوقعوا فى روعه صدقها؛ ولكن الملكة حاولت إدحاض هذه التهم بالإلحاح على "أنطونيوس" فى أن يعاقب من كان سبب هذه الهزيمة، وهو حاكم الفرما بقتل أسرته التى كانت بالإسكندرية، حتى تزيل كل تهمة من شأنها أن توحى بأنها كانت على اتفاق معه على الفشل والتخاذل، والتمكين للأعداء. وهكذا حاولت إسكات صوت الرومان دون أن تقدم برهانا قطعيا على براءتها. ولكى تكسب "أكتافيوس" إلى جانبها كان لابد لها من أن تستعين على تنفيذ مآربها بالكتمان الشديد، خشية أن يعلم "أنطونيوس" فتستهدف لعدوانه، وتعرض نفسها لخطر الموت، ولكنها كانت تعلم أنها إن لم تفعل ذلك فلا أمل لها فى رحمة القوى الظافر. وكانت أغراضها ونواياها الحقيقية

معروفة فى الفرما، وإن كانت فى الإسكندرية لا تزال تمثل دورا روائيا مسرحيا وفى كلتا المدينتين كانت تحاول إنقاذ حياتها، وتسوية مركزها بقدر ما كانت تسمح به ظروفها السيئة. وبينما كانت حليفة "لأكتافيوس" سرا، كانت فى الوقت نفسه لا تزال تقيم مع "أنطونيوس" فى أحد القصور الملكية بالإسكندرية. ولقد اضطرتها ظروفها الصعبة والمواقف الحرجة التى وقفتها أن تستحث الجند على القتال بينما كانت فى الوقت نفسه تتخذ التدابير اللازمة لكى تمنعهم من أن يستميتوا فيه، وكانت تقضى أوقاتها من الصباح إلى المساء تقدح زناد فكرها متلمسة طريقا لإيجاد مخرج لنفسها فأثبت بذلك شدة بأسها وعزمها الحديدى وحدة ذهنها. ولقد ظنت أنها قد توصلت إلى نتيجة يحسن السكوت عليها، وهى أن أصبحت حليفة "أكتافيوس"، ولكنها لم تكن تشك فى أن تلك المحالفة كانت مؤسسة على الخداع والمكر، وأن القدر يخبئ لها شرا مستطيرا، وأن "أكتافيوس" يخفى لها فى جعبته ذلا ومهانة ليس بعدهما من مزيد.

بيد أن المقادير كانت تعاكس مشروعاتها من ناحية أخرى، وذلك لأن "أنطونيوس" كان قد بدأ يتجدد نشاطه، ووضع لنفسه خطة عملية هى على النقيض من الخطة التى ترسمها لنفسها، فصمم على امتشاق الحسام مرة أخرى، عله يصل بحد السيف إلى ما لم يستطع الوصول إليه بالمفاوضات واللين، وكان قد تأكد أن عدوه لن يرحمه، وأن خلاصه لن يكون بغير الدفاع عن نفسه بشجاعة المستميت. ولما علم بوصول "أكتافيوس" إلى "كانوبس" (أبى قير)، قاد فرسانه وقابل خيالة "أكتافيوس" فدحرهم، وكان هذا آخر انتصار أحرزه، وبريق أمل بعث فيه النشوة والسرور والاختيال والإعجاب، وجعله يزهى به ويتكبر؛ ولكنه كان لا يزال حتى ذلك الوقت يشعر أن الظفر كل الظفر فى ابتسام "كليوباترة" له ورضائها عنه؛ ولذلك سارع من ساحة القتال إلى القصر الملكى فى الإسكندرية وارتمى بنفسه بين أحضان "كليوباترة" وكله محبة وفرح وسرور. وشجعه النصر الذى أحرزه على التفكير فى خطط ومشروعات جديدة، فأمر رماة السهام أن يصوبوا سهاما إلى معسكر "أكتافيوس" يحمل كل منها وعدا بأن كل جندى يسلم نفسه إلى "أنطونيوس" يكون جزاؤه ألفا وخمسمائة دينار. ولقد أفسد "أكتافيوس" عليه تدبيره هذا، بأن حمل بنفسه إلى جنده وعد "أنطونيوس"، وبين لهم أن فى هذا

العمل برهانا حسيا على حرج مركزه، وتأزم حالتـه، ووعدهـم خـيرا أكـثر وعطـاء أجزل متى تم لهم فتح الإسكندرية. ولما وجد "أنطونيوس" أن حيلتـه هـذه لم تنفـع أراد ان يقوى مركزه فى أعين جنده، فطلب إلى "أكتافيوس" أن ينازله القتال وحـده فأجابه ان سبل الموت مفتحة بين أيديـه، وأن لـه أن يختـار مـن بينـها غـير المبارزة طريقا، ثم ختم رسالته بقوله إن طريقا واحدة يتعذر عليـه سـلوكها، إذ قـد أحكـم سد مسالكها وهى الطريق إلى الحياة- وإن هذا الحوار الأخير بين القائدين لهو ختام لسلسلة الاتهامات التى كان يكيلها كل منهما للآخر، فى رسـائله وخطبـه، وكـان كل منهما يعرف أن الغلبة للأقوى، وأن المـوت المؤكـد للمـهزوم المدحـور، ولكـن "أنطونيوس" كان لا يزال متعلقا بأهداب الحياة فاخذ يستعد للموقعة الفاصلة التى لم يطل فيها أمد القتال، وذلك لأن جند "أنطونيوس" هجروا جانبه، إما يأسا من أن ينالوا النصر وهم فى جانبه، وإما تنفيذا لأوامـر "كليوبـاترة" السـرية بعـدم القتـال وإلقـاء السـلاح، ولذلـك فـرت الجمـوع الغفـيرة مـن المشـاة والفرسـان إلى صـف "أكتافيوس"، ولم يبق "لأنطونيوس" سوى الأسـطول الـذى أخـذ يتـأهب بـه كيمـا يلقى آخر سهم فى جعبته، ولكن "كليوباترة" سلبته هذه الفرصة الأخيرة فأفسدت عليه بحارة الأسطول، وأغرتهم بالانضمـام إلى جـانب "أكتـافيوس". ولابـد أن هـذا الدور الذى لعبته الملكة فى خيانة الجيش كان سرا قد هتك حجابـه، وفشـا أمـره، وذاع بين الجموع خبره، فتسرب الشك إلى نفـس "أنطونيـوس"، غـير أنـه أغمـض عينيه عن الحقيقة، واستولت عليه عواطفه واندفـع وراء أهوائـه. وهنـا نـترك خيـال القارئ كيما يتصور تلك اللحظة الرهيبة التى تمثلت فيها الحقيقة المؤلمة سافرة أمام عينيه، والتى أدرك فيها تماما أنه لم يعد فى استطاعته أن يقاوم، وأن القضـاء المحتـوم قد حان أوانه. فانسحب إلى أحد القصور الملكية حيث انـزوى وحيـدا منبـوذا مـن جنده وأحبائه، لا حول له ولا طول، ينتظر تلك الساعة الرهيبة التـى يدخـل فيـها منافسه الإسكندرية فاتحا مظفرا.

انتحار "أنطونيوس":

كان "أنطونيوس" يبلغ من العمـر إذ ذاك ثلاثـة وخمسـين عامـا، ولم يخالجـه أدنى شك فى أن قضاءه المحتوم قد حان، ولم يبـق بينـه وبـين "أكتـافيوس" حـائل سوى مدينة غير محصنة، وقد اكتظت شوارعها بأناس من جميـع الأجنـاس، فمنـهم

المصريون واليهود واليونان، وجاليات من الأسيويين والإفريقيين، وكلهم ترتعد فرائصهم من الحكم الروماني المرتقب.

ولكن "أنطونيوس" حتى تلك اللحظة الرهيبة كان لا يفكر فى غير "كليوباترة"، ولا يزال محافظا على العهد القديم، ناسيا نفسه، وباقيا على حبها، فأخذ يندب حظها المنكود. على أن الملكة التى كانت موضع كل ذلك الإخلاص والمحبة لم تكن تفكر فيه أو تقيم له وزنا فى وضع خططها، بل كانت ترى أن الفرصة قد حانت وتتطلب منها الإسراع فى العمل على قتل "أنطونيوس" كيما تحصل ثمنا لذلك ، على رضاء "أكتافيوس"، فلجأت إلى الحب الذى يكنه لها، تستخدم منه سلاحا قاتلا يأتى على "أنطونيوس". ولكى تنفذ خططها لجأت إلى قبر ابنتنه على شكل معبد هو المسمى "الماوسليوم" (Mausoleum) وخبأت فيه كنوزها ونفائسها، واتخذته موئلها الأخير تعتصم به ضد هجمات العدو ولو إلى حين قصير، وفيه تستطيع أن تتخلص من حياتها متى أدركت وأيقنت بفشل كل الوسائل لنجاتها. ويؤخذ مما كتبه المؤرخ "بلوتارخوس" أنها خشيت غضب "أنطونيوس"، وبعثت إليه من هناك من يقول له إنها فرت إلى قبرها "وأنها انتحرت كى تنجو من انتقام "أكتافيوس". وكانت واثقة أن "أنطونيوس" الذى لم يكن ليستطيع وهو فى أوج عظمته وفى أسعد أوقات حياته أن يعيش بدونها، سيصعق عند سماع خبر انتحارها، فيذهب صوابه ويكون خبر موتها هو الضربة القاصمة، وبذلك يموت وتطوى صحيفته، وبموته يبعث الأمل فى نجاتها هكذا فعلت "كليوباترة" ففرت إلى قبرها، ولم تصطحب معها سوى وصيفتيها الأمينتين "إيريس" (Eiris) "وخارميان" (Charmian) وخصيها الذى كان يلازمها، ثم أحكمت ورائها باب القبر الذى تحصنت فيه. ولقد تحقق ظنها إذ كان خبر انتحارها المزعوم كالسهم الذى أصاب فؤاده أو كالصاعقة التى أذهبت لبه ورشاده؛ ولم يتركه الخبر المشئوم إلا مشدوها جريحا كليما، فلقد وضح له الطريق التى يحق لمثله أن يسلكها فى مثل هذه الأحوال.

وكان شبح الموت منذ موقعة ""أكتيوم"" يتمثل له، وفكرة الانتحار تجيش بصدره وتداعبه بين حين وآخر، ولكن كان يعوزه العزم والإقدام. بيد أن خبر موت حبيبته قوى عزمه على الموت واقتفاء أثرها والحذو حذوها فأمر أحد خدمه وعبيده

المسمى "إيروس" (Eros) أن يطعنه بخنجره فعز على ذلك الخادم الأمين أن يهوى بخنجره على صدر سيده، وهوى به على صدره فخر صريعا، ضاربا بذلك مثلا أعلى فى الشجاعة والوفاء والإخلاص؛ وكان منظره هذا حافزا "لأنطونيوس" فامتدت يده إلى خنجره وهوى به على نفسه فخر صريعا على الأرض، ولكن الضربة لم تكن قاضية لساعتها، والجرح لم يكن بليغا إلى درجة الموت العاجل، فأخذ يتقلب ويضرج فى دمه متوجعا متوسلا إلى من حوله أن يجهزوا عليه ويخلصوه من عذابه، وعندئذ بلغ مسمع "كليوباترة" خبر انتحار "أنطونيوس"، ولكن سرعان ما ذاع الخبر بأنه لا يزال على قيد الحياة، وكانت رغبته الأخيرة أن يرى "كليوباترة"، ولقد تحققت تلك الرغبة إذ جاء "ديوميديس" (Diomedes) كاتم سر الملكة، وأخبره بأن الملكة تود أن تراه، ولقد مد القدر فى حياته حتى حمل إليها فى مقبرتها وهو مدرج بدمائه. وهنا قد يعجب الإنسان لماذا حققت الملكة رغبة "أنطونيوس" الأخيرة، فسمحت بحمله إليها وهى السبب فى انتحاره والمدبرة له. وقد يصح القول فى الجواب عن ذلك بأنها رغبت الاستحواذ على جثته، حتى لا يدعى أحد لنفسه شرف قتله. أما ما حدث بينهما داخل المقبرة فلم يتسرب إلى الخارج منه إلا ما رغبت "كليوباترة" وخادماتها فى أن يذعنه. وقد وصف المؤرخ "بلوتارخوس" وداع العاشقين وصفا مؤثرا، إذ ناجته بقولها إنه سيدها وزوجها وهو الآخر ظل يواسيها طوال ما بقى بين ذراعيها وأخذ يحثها على ائتمان "بروكليوس" (Proculeius) فقط وهو من أتباع "أكتافيوس" عندما تبدأ مفاوضاتها معه، وقد جاء فى "بلوتارخوس" أنه طلب منها وهو يلفظ النفس الأخير ألا تذهب نفسها حسرات على مصيره ونهايته، بل يجب أن تذكر الماضى من سعادته، لأنه كان سعيدا حتى فى ختامه المحتوم، إذ لم يهزمه وهو الرومانى الشريف إلا رومانى شريف مثله. وإنه لمن العسير أن نصدق ما يقوله البعض من أن اليأس قد بلغ منها مبلغا عظيما جعلها تمزق صدرها حزنا وكمدا، وأن "أنطونيوس" ناداها بأحب الأسماء قبل أن يموت، وأنه أعلن لها أنه سعيد لموته بين ذراعيها. وقد يقال إن مثل تبادل هذه العواطف فى موقف كهذا بعيدة الإحتمال، وأنه ليس من الطبيعى صدورها فى مثل هذه الظروف، ولكن لا يمكن الجزم بما جرى بينهما ساعة اللقاء،

وعندما حان حينهما للافتراق الأبدى. وإن أقصى مـا يمكننـا أن نصدقـه أنـه لقـى الموت بين أذرع "كليوباترة" حيث تنمم وشرب كأس ملاذه حتى الثمالة.

وكان موته حدثا خطـيرا قـام لـه النـاس وقعـدوا فـى جميـع أرجـاء الدولـة الرومانية، ولكن العالم تنفس الصعداء لموت هذا الرجل الذى خضب أرض الشـرق والغرب بدماء الأبرياء من أجل طموحه ومطامعه السياسية، ثم رغباته وشهواته، لقد أسرع أحد حراس "أنطونيـوس" حـاملا ذلـك النبـأ العظيـم إلى "أكتـافيوس" فـى معسكره ومعه سيف "أنطونيوس" المخضب بالدماء ليشهده على صـدق نبئـه. ومـا كاد "أنطونيوس" يلفظ النفس الأخير حتى أرسلت "كليوباترة" رسـولا مـن قبلـها إلى "أكتافيوس" ليزف إليه هذه البشرى، وبوصول ذلك الرسـول مـن الملكـة تـأكد لدى "أكتافيوس" موت ذلك القائد العظيم، ولكنه بدل أن يتلقـى الخـبر بالسـرور والفرح تلقاه بالحزن والكآبة، إذ تصور زميله القديم فى الجهاد وقائد رومـا المظفـر فى ماضى حياته قد صار جثة هامدة، فعكف فى خبائـه يبكيـه، ولم يمنـع تنـازع المطامع بينهما وتضارب مشاربهما من أن يسح الدمع الهتون عليه مدرارا. وقد تذكر "أكتافيوس" تلك الدموع التى ذرفها أبوه ""يوليوس قيصر"" من قبـل وفـى أرض مصر بالذات منذ ثمانية عشر عاما عندما جـاءه النعـى بمـوت "بمبـى"، ورآه مجنـدلا على شاطئ الفرما، فلم يشأ "أكتافيوس" أن يكون أقل من أبيه وفاءا وإحساسا فـى موقف يشبه موقفه، إذ أن موت "أنطونيوس" كموت "بمبى" كان نتيجـة تدبـير أيـد مصرية، فالأول من صنع "كليوباترة"، والثانى كان نتيجة تدبـير بطلميـوس أخيـها وزوجها الأول. وكلاهما لم ينل الثواب المنتظر جزاء ما قدمت يداه.

وبعد أن بكى علـى "أنطونيـوس"، بدأ "أكتـافيوس" يشـعر بضـرورة كسـب الرأى العام إلى جانبه. وفى وسط هـذا الجـو المضطـرب وتحـت أرعـاد آلات الحـرب والقتال، وبينما الإسكندرية والملكة ومن حولها يهلعون من هول ما ستتمخض عنه الظروف، وترتعد فرائصهم من شدة خوفهم من بطش ذلك القوى القاهر، كان لدى "أكتافيوس" متسع من الوقت يجمع فيه أصدقاءه والمقربين منـه ليثبـت لهـم بمـا دار بينه وبين "أنطونيوس" من الرسائل أنه كان على أتم استعداد لحسن التفـاهم، وأنـه حاول جهد استطاعته أن يصل إلى حل مرض مع "أنطونيـوس" الـذى يحملـه هـو وحده مسئولية فشله فى الوصول إلى نتيجة مرضية وتسوية ما بينـهما مـن خـلاف

بروح ملؤها الرغبة الصادقة فى حسم النزاع من غير أن يضطر إلى قتل نفسه، واختتم أقواله برثاء "أنطونيوس" والتعبير عن شديد أسفه لوقوع تلك الفاجعة الأليمة.

أما موقف الملكة بعد انتحار "أنطونيوس" فلقد كان حرجا شديد الحرج، ضيقا شديد الضيق إذ كانت تعلم أن حسابها سيكون عسيرا، وأن عقابها سيكون قاسيا غاية القسوة، مع أنها بذلت قصارى جهدها فى سبيل استرضاء "أكتافيوس" فقدمت له خدمة جليلة بتدبير مقتل "أنطونيوس" - وكانت سياسة "أكتافيوس" بعد ذلك ترمى إلى الاحتفاظ بشخصها، ثم بكنوزها الثمينة وهما أمران لا تقوى جيوشه وعساكره على تحقيقهما. ولذلك صمم على الاستمرار فى الخديعة والمكر وبذل الوعود الخلابة حتى يستحوذ عليها، وتصبح فى قبضة يده، فأرسل لها رسولين من قبله وهما صديقه الحميم "بروكليوس" (Procleius) وخادمه الأمين "إيافروديتوس" (Epaphroditus) كيما يفاوضاها، وزودهما بالتعليمات الدقيقة عن الطريقة التى يجب أن يسلكاها، والوعود الغامضة التى يمكنهما بذلها، ولكن "كليوباترة" رفضت أن تسمح لهما بالدخول إلى قبرها الحصين، إذ أنها كانت تعلم أنها تستطيع أن تملى شروطها مادامت مستحوذة على كنزها، ولكنها أخذت تفاوض "بروكليوس" من كوة أو ثقب بباب المعبد الحصين. وإنه ليس من الممكن معرفة شروطها التى عرضتها إذ ذاك على سبيل اليقين ، ولكن يمكن الظن بأنها تتلخص فى الاحتفاظ بعرشها لنفسها أو لأبنائها من "أنطونيوس". ومن المؤكد أنها ربما كانت قد صرفت النظر فى ذلك الوقت عن الأمل فى أن تجلس ابنها من "قيصر" والمسمى "قيصرون" على عرش مصر، إذ أنه عندما تبين لها أن الأمر قد صار بيد "أكتافيوس" وآل إليه مصير البلاد، أيقنت أن "قيصرون" سيكون أول من ينتقم منهم "أكتافيوس" فأرسلته مع مربيه "رودون" (Rhodon) إلى إثيوبيا أو بلاد النوبة ليحاول منها الفرار إلى بلاد الهند. على أننا مهما نعمل الفكر ونطلق العنان للخيال، فإننا لن نستطيع تفهم سر الحوادث التى تعاقبت إثر انتحار "أنطونيوس"، وسيبقى الشيء الكثير منها مكنونا فى طى الكتمان. وقد يسائل الإنسان نفسه عن الفائدة الحقيقية التى كانت تعلقها "كليوباترة" على وعود "أكتافيوس" الغرامية، مع أن هذه الوعود يمكن نقضها بسهولة، ومع أن لدى "أكتافيوس" ألف وسيلة

ووسيلة للتخلص منها ومن جميع الأشخاص غير المرغوب فيهم، مهما يبذل لهم من وعود وعهود. ولربما كانت "كليوباترة" مصممة على مقابلة "أكتافيوس" نفسه والحصول منه على تأكيد شخصى لتلك الوعود والآمال التى أبداها عن طريق "بروكليوس" ورسله المخلصين. وكانت التعليمات التى تلقاها هؤلاء الرسل تقضى بألا يجعلوا الريب يتسرب إليها فى احتفاظها بعرشها، وألا يجول بخاطرها أن "أكتافيوس" يحافظ على حياتها من أجل عرضها فى روما عند احتفاله بنصره، وأوصاهم بأن يؤكدوا لها إخلاصه بدون أن يورطوه بعهد أو ذمة، وأن يحاولوا إقناعها بالتسليم من تلقاء نفسها، ولكنهم وجدوا أن الموقف أشد حروجة مما كان يظن "أكتافيوس"، فسارعوا بإخباره ليتدبر الأمر بحكمته، فأرسل لها "كورنيليوس جالوس"(Cornelius Gallus) وهو الذى أصبح فيما بعد أول حاكم رومانى على مصر بعد موت "كليوباترة". وكانت له دراية ومعرفة خاصة بالشئون المصرية وأساليب السياسة فيها، فنفذ التعليمات التى تلقاها من سيده، وهى أن يطيل حواره ومفاوضاته مع الملكة، وكان ذلك بواسطة ثقب باب المقبرة الحصينة المعتصمة بها، وفى الوقت نفسه تَسوَّر "بروكليوس" المقبرة بواسطة بعض الجند من الجانب الآخر. ولقد علمت "كليوباترة" بصعود "بروكليوس" ومن معه إلى معقلها الحصين ولكن بعد فوات الوقت، وبينما هم يقتربون منها، مدت يدها إلى خنجر كانت قد اخبأته فى طيات ردائها، فحاولت أن تطعن نفسها به، فسارع "بروكليوس" إليها وحال دون تحقيق رغبتها، وخلص حياتها الثمينة "لأكتافيوس"، فاستحق بذلك ثناء قائده لأنه احتفظ له بالملكة وكنزها من عبث العابثين. ولقد حاول "أكتافيوس" تهدئة روعها وسمح لها بالبقاء فى قبرها وأمر "إيافروديتوس" أن يعاملها بالاحترام الذى يليق بالملكة، وأن ينفذ لها كل رغباتها، وألا يعصى لها أمراً. ولكنه كلف فى الوقت نفسه بمراقبتها أشد مراقبة خشية أن تتخلص من حياتها بالانتحار، وسمح لها بتحنيط جثة "أنطونيوس" وبالقيام بكل ما يلزم من معدات لدفنه والاحتفال به احتفالاً يليق بمثله من عظماء الرجال، بيد أنه مع كل تلك التجلة والاحترام والسهر على تنفيذ رغباتها كانت الملكة تشعر بالموت يقترب منها رويداً رويداً، وهو يخيم عليها بظلماته ويهبط عليها بكلكله.

أما مدينة الإسكندرية فقد كانت ترقب تطور الأحداث بعين ملؤها الخوف والهلع، وهى لا تدرى ماذا ينوى القائد المنتصر صنعه فى مدينة عزلاء، لا مدافع عنها، ولكن لما وجد "أكتافيوس" أنه أصبح السيد الذى لا منازع له فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية أراد أن ينهى الحرب، وأن يبدأ عهداً جديداً يسود فيه السلم والطمأنينة (Pax Romana). ولم يجد من الضرورى أن يقسو ويشتد ويبطش بالأهلين، ويخضب بدمائهم شوارع العاصمة المصرية، واكتفى باحتلال الإسكندرية بجيشه كعلامة لنصره، وكان دخوله المدينة إيذاناً للعالم أجمع أن جميع الممالك التى تحيط بالبحر المتوسط قد اعترفت بسلطان الدولة الرومانية، وأن البحر المتوسط نفسه قد أصبح بمثابة بحيرة رومانية. ولكن الخوف كان قد تملك الإسكندرية، وملأ أرجاءها كما حدث أيام ""يوليوس قيصر"" فى صدر عصر "كليوباترة" وقت احتلاله لتلك المدينة عقب انتهاء الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية. وللمرة الثانية فى حقبة قصيرة من الزمن هى عهد هذه الملكة، سار الجند الرومان فى شوارع المدينة، وعلا صوت أقدامهم وعجيجهم فى أنحائها وأبهائها وقبواتها وقصورها الغناء ومعابدها الفخمة ومبانيها العالية، وقد ازدحمت بالناس من جميع الأجناس إذ خرجوا عن بكرة أبيهم ليقدموا ولاءهم للقائد المنتصر. ولقد تأثر "أكتافيوس" بعظمة المدينة وجمالها فلم يتنكر لها فى المعاملة ويحكمها بيد حديدية، بل ترفق بها وخفف الوطء عنها، وأركب بجانبه وهو داخل المدينة معلمه الفيلسوف "أريوس" (Arius) الذى كان من أهل الإسكندرية وذلك ليشعر أهلها برأفته، وليقدم لهم برهاناً حسياً على شديد احترامه وتبجيله للفلسفة، ثم يتوجه بموكبه للملعب الرياضى- الثقافى والمعروف "بالجمنازيوم" (Gymnasium) حيث وقف "أنطونيوس" منذ أربع سنين من قبل يقتطع أملاك الدولة الرومانية فى آسيا وأفريقيا، ويهبهما "لكليوباترة" ولأبنائها؛ ولكى يمحو ذكرى الحرب وبلائها أعلن نيته فى استعمال الرأفة والرحمة، فخر له جميع الحاضرين راكعين ساجدين. وكان خطابه باللغة اليونانية التى يحسن المستمعون فهمها، ودفعه على اتخاذ هذا السبيل عظمة الإسكندرية التى كانت أم المدائن والأمصار فى ذلك العصر، واحترامه لمؤسسها الذى كان قدوة لوالده ""يوليوس قيصر""، وإكرامه لشأن مربيه ومعلمه "أريوس" ورغبته فى كسب محبة الأهلين له. ولكن مع عموم عطفه ورفقه لم يشأ

العفو عن بعض أفراد كان يرى فى التخلص منهم ضرورة لا مناص منها ولا يصح إغفالها. وأهم من حرص "أكتافيوس" على قتله هو "قيصرون" "وانتيللوس" وكليوباترة، فقد أرسل "أكتافيوس" جنده للحاق بالأول وهو فى طريقه إلى إثيوبيا فأغروا معلمه فزين له أن "أكتافيوس" سوف يعترف به ملكاً على مصر. ولذلك أقنعه بالعودة إلى الإسكندرية، وفى طريقه إليها أمسك به كمين كان قد تربص له وقتله. وكان تاريخ هذا الحادث بعد انتحار "كليوباترة". أما "انتيللوس" فكانت كراهية "أكتافيوس" له شديدة، وهذا يرجع إلى والدته "فلفيا" أكثر منه إلى أبيه "أنطونيوس"، ولكننا لا نستطيع أن نتكهن بالدافع الحقيقى الذى كان الباعث على قتله. وبذلك تخلص "أكتافيوس" من إسمين كريهين على نفسه إلى الأبد.

إنتحار "كليوباترة" :

أما "كليوباترة" نفسها فقد كانت تشعر مع الأبهة والعظمة التى كانت لا تزال تحيط بها عن كثب أن نهايتها قد حانت، وأن تيار الحوادث يعلو من حولها شيئاً فشيئاً، ويجرف فى طريقه كل من كانوا موضع سخط "أكتافيوس"، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى يبتلع ذلك التيار القوى شخصها. وإن مسلك الملكة التى غررت من قبل ""بأنطونيوس""، ودفعته إلى الموت دفعاً، والتى حاولت قبل وقوعها فى يد العدو، التفاهم مع رُسله فى أثناء تحصنها فى مقبرتها، ليدلنا على أنها كانت ترغب فى الحياة، وأنها كانت تطمع فى الاحتفاظ بعرشها فى مصر لنفسها أو لأبنائها. ولكن بعد وقوعها أسيرة فى يد العدو انهار بناء آمالها من أساسه، وأصبح هشيماً تذروه الرياح، وأيقنت حينئذ بما كان يخبئه لها القدر وهى العليمة بأساليب السياسة وتصاريفها، تُعز ذليل الأمس وتذل عزيز اليوم، فأنى لها بالرحمة وكيف يرحمها "أكتافيوس"؟؟ حقاً ربما سنح لها خاطر أشعّ فى نفسها بريق الأمل بين حين وآخر، مرتكنة فى ذلك على قدرتها على كسبه إلى جانبها بفضل ما أوتيت من قوة الجاذبية الشخصية والنفوذ العظيم، والمقدرة على أسر الرجال، ولكنها لابد كانت فى سريرة نفسها تعلم علم اليقين أن الفشل ينتظرها، وأن مصيرها المحتوم هو أن تتردى فى هوة سحيقة من اليأس، وأن الموت الوشيك لابد آت عما قريب. وكانت الملكة تردد على لسانها لأخصائها فى ذلك الحين الجملة الآتية "لن يستطيع أحد أبداً أن يعرضنى فى موكب نصر" وهذه الجملة تدل على

أنها كانت تفضل الموت العاجل على أن يمثل بها هذا التمثيل المهين. ولكـن القـدر كان يكيل لها بنفس الكيل التى كالت به لأختها "أرسينوى" (Arsinoe) التى سيق بها فى شوارع روما مكبلة فى السلاسل والأغلال تحت أعـين "كليوبـاترة" نفسـها فى الاحتفال بانتصار "يوليوس قيصر"، ثم أمرت بها فقتلـت- كـل تلـك الفظـائع تمثلت أمام ناظرها، وتذكرت ما أعدتـه لهـا تصـاريف الحدثـان. ولكـن الملكـة مـع ارتكابها هذا الجرم مع أختها تستحق إعجابنا الشـديد؛ لأنـها رفضـت أن تستسـلم للقدر، وصممت على ألا تمكن أحدا من أن يعرضها فى موكب رسمى من مواكـب النصر. وكانت روما التى استردت قوتها وسـطوتها تـرى فـى "كليوبـاترة" عدوتـها اللدودة التى أعلنت عزمها على الجلوس فـى الكـابيتول (Capitolium) فـى رومـا والحكم بين الناس، والتى غررت "بقيصر"، وأطمعته فى إقامة ملكيـة هيللينسـتية من العالم الرومانى، ثم غررت من بعده "بأنطونيوس"، وهو البطل المغـوار فكسبت الأول إلى جانبها، وكانت سبب نكبة الثانى. وإنـه لمـن الصعـب أن نتصـور مقـدار الكراهية الشديدة وروح الانتقام والسخرية وفحش القول الذى كان لاشـك يكيلـه الشعب الرومانى للملكة، ويتردد صداه فى شوارع روما لو قـدر لها أن تسـاق فـى طرقاتها ، وهى ترسف فى السلاسل والأغـلال - كـل تلـك الاحتمـالات لابـد أن تكون قد جالت بخاطرها، وجعلتها تصمم على التخلص من حياتها فتوسـلت إلى "أكتافيوس" أن يقتلها، ولكنه لم يجبها إلى ما طلبت، فـأعملت الفكـر كـى تنتحـر رغم تلك التحوطات والرقابة الشديدة التى كانت تحيط بها لمنعها من الوصـول إلى مأربها هذا. وصممت على أن تلقى بآخر سهم فى جعبتـها بـأن تعيـد تمثيـل دور لعبته من قبل وصادفت فيه نجاحا عظيما، فخيل إليها أن التوفيق قـد يلازمـها إلى النهاية ولذلك طلبت مقابلة "أكتافيوس"، وتمت هذه المقابلة بين الإثنين فى معقلها الملكى، وقد علمنا بنبأ هذه المقابلة الوحيدة بينهما من كل "بلوتارخوس" "وديو"، ولكن لم نعلم من التفاصيل الحقيقية لتلك المقابلة بـين الاثنـين إلا الـنزر اليسـير. ويقـول "بلوتـارخوس"، والعـهدة فـى روايتـه علـى طبيـب "كليوبـاترة" المسـمى "أوليمبوس"، أن أعز رغبة لديها كانت فى أن تلقى المـوت، وأنـها آثـرت الامتنـاع عن الأكل حتى تموت جوعا، ولكن "أكتافيوس" هددها إذا عمدت إلى تحقيق ذلك بأن ينزل بأبنائها ضررا بليغا، وينكل بهم. وهنـاك روايتـان مختلفتـان بشـأن زيـارة

"أكتافيوس" لها فى معقلها الذى اعتصمت به، إحداهما جاءت على لسان "بلوتارخوس" مستمدة من "أوليمبوس"، والأخرى ذكرها "ديو" الذى كان يعبر فيما يسرد عن الوصف الرسمى لتلك الزيارة. فقدمها لنا فى صورة الفاتنة البارعة التى لم تكن لتعجزها الحيلة ولا الدهاء، والتى لم تكن تعرف حقا للضمير، فحاولت فى بساطة أن تستعطف "أكتافيوس" إلى جانبها، وتستميله إليها بتقبيل صور "يوليوس قيصر" وخطاباته، ثم تقدمت إليه بعروض، صحبتها بكلمات عذبة معسولة ونظرات فاتنة تأخذ بالألباب. ولما أعرض عنها ونأى بجانبه وأجابها بجفاء دون أن يذكر شيئا عن مملكتها، ودون أن ينبس ببنت شفة عن ذلك الحب المزعوم، قال "ديو" إنها يئست منه، وطلبت إليه أن يسمح لها بأن تموت، وأن تدفن فى نفس القبر الذى يضم رفات "أنطونيوس"، ويقول "ديو" إنها أبدت طلبها بأن تركت بعد موتها كتابا ضمنته هذا المطلب. وعندئذ طيب "أكتافيوس" خاطرها بالترفق فى حديثه معها حتى لا تقطع الأمل، لأنه كان ينوى أن ترافقه إلى روما لتسير فى موكب نصره فتضفى عليه من الروعة والبهاء ما كان يطمع فيه، وسمح لها أن تذهب فى صحبة وصيفتها لزيارة قبر "أنطونيوس" حيث أخذت تستمطر الرحمات من السماء عليه وتتوسل إلى روحه أن تنقذها من محنتها وتخلصها من عار السير فى موكب النصر الرومانى فى روما، وأن تسمح لها بمشاركته قبره. وبعد ختام صلواتها أروع مثال ضربه "بلوتارخوس" فى التعبير عن مبلغ الأسى واللوعة أو هو أنات صادقة جرت على لسانها، ما كان لأترابها وبنات جنسها، لا من قبلها ولا من بعدها أن يأتين بمثلها، فكانت مخلصة عندما نادته بقولها "ليس بين أتراحى، وما أكثرها ما هو أمر وأقسى من تلك اللحظات القصيرة التى قضيتها بعد أن افتقدتك".

ومهما يكن من أمر هذه المقابلة بين "أكتافيوس" وكليوباترة، فقد كانت مقابلة بين قاهر ومقهور، بل بين حاكم رومانى وملكة مصر. وأما مدى أمالها والحقيقة بشأن رغبتها فى إيقاع "أكتافيوس" فى شراك غرامها، أو إيقاظ عوامل الشفقة فى قلبه ليسمح لها بالبقاء بمصر وتصنعها اليأس للوقوف على شعوره الحقيقى نحوها– كل تلك الأمور ستبقى سرا مكنونا حملته معها إلى قبرها. ولقد كان موقفها وتوسلاتها وتضرعاتها وكل الوسائل التى تسلحت بها لغزا، من صعب

حله حتى على "أكتافيوس" نفسه. وقد قيل بعد ذلك إنها وهى فى سن الأربعين من عمرها، حاولت أن تنجح لثالث مرة فى إيقاع حاكم العالم الرومانى فى شراك حبها، ولكن وسائل إغرائها لم تنجح هذه المرة أمام جمود "أكتافيوس". وفى أغلب الظن أن هذه القصة افتراء عليها، إذ قد بدأ الناس بعد انتحارها يشيعون عنها كل ما تجود به قرائحهم ومخيلاتهم من أراجيف كيما يصوروها بغيا للملوك. وعلى أية حال فلقد كانت نتيجة تلك المقابلة بينها وبين "أكتافيوس" أنها وثقت تماما بأن "أكتافيوس" كان يرمى إلى عرضها كأسيرة حرب على الشعب الرومانى خلف مركبه الحربى، مما جعلها تصمم على الانتحار. ولكن لكى تنفذ مشروعها هذا كان من الضرورى أن تضلل أعداءها. فخدعت "أكتافيوس" حتى أصبح يعتقد أنها تخلت عن فكرة التخلص من الحياة، وأنها وافقت على الذهاب معه إلى روما. ومن هنا كان السر فى السماح لها بأن تقدم آخر قربان على قبر "أنطونيوس" قبل رحيلها من مصر، وكان تصرفها هذا سببا فى تخفيف الرقابة التى كان يقوم بها "إيافروديتوس" وأعوانه عليها، وبعد أن أذرفت الدمع الهتون على "أنطونيوس" على نحو ما أوضحنا وقامت برثائه رثاء بليغا على قبره وودعته الوداع الأخير، عادت من هذه الزيارة إلى قصرها، وبعد قليل سمح لها الرقباء عليها بوصول سلة تين إليها كانت قد خبأت بها ثعبانا أو حية تسعى. وعندئذ أعطت "إيافروديتوس" خطابا ممهورا بخاتمها ، وطلبت إليه أن يسلمه إلى "أكتافيوس" فى الحال. وقد رجته فى ذلك الخطاب أن يدفنها مع "أنطونيوس" فى قبره. ووجدت الملكة بعد ذلك بمدة وجيزة جثة هامدة بملابسها الملكية – ولكن طريقة موتها كانت سرا غامضا حتى لمعاصريها ولأول من استكشف جثتها، ومازالت للآن موضع الحدس والتخمين من الجميع. ومن العجيب أيضا أن المؤرخين الأقدمين المعاصرين يقولون بصراحة إنه لم يقف أحد على الطريقة التى ماتت بها "كليوباترة". وقد وصلت إلينا حكايات مختلفة عن موتها. والرواية التى لاقت قبولا فى روما بعد ذلك بعدة أسابيع هى أن "كليوباترة" وخادمتيها قد لدغهن ثعبان. ولكن الكتاب ليسوا متفقين على شيء فى أمر موتها حتى الذين صدقوا أن موتها كان بلدغة ثعبان لم يتفقوا على موضع اللدغ. وقد تكون هذه الرواية بشكلها الرسمى مأخوذة فى جملتها وتفاصيلها من كتاب نشره بعد موتها طبيبها الخاص "أوليمبوس" (Olympus) عن أيامها

الأخيرة، ولكن لا يمكن لأحد أن يتأكد من صحة ما نشره "أوليمبوس" هذا، وهل كان هذا لغرض روائي ولتسلية الشعب الروماني أم كان يرمي به إلى إظهار الحقيقة. وعلى ذلك فإن موتها سيبقى على الدوام سرا غامضا على كل من يروم استقاء التاريخ من مصادره الحقيقية- وهكذا لجأ كل من "أنطونيوس" وكليوباترة إلى الموت بعد أن خابت آمالهما، وفشلت خططهما فمات الرجل الذي أثار الشرق ضد الغرب تحقيقا لأطماعه ورغباته بعد فشل سياسته، ولحقته "كليوباترة" بعد أن أظلمت الدنيا في وجهها وضاقت في ناظرها حتى صارت أضيق من كفة الحابل، وتأكدت أن لا حياة ولا هناءة بعد فراق "أنطونيوس". وبموتها أصبح العالم الروماني بما فيه مصر في قبضة القائد المظفر "أكتافيوس" أغسطس، مؤسس الإمبراطورية الرومانية العتيد.

وإن العالم بأسره ليعلم ما كان من أمر تلك الحيات التي أمرت بإحضارها في قفص من التين الطازج، وموت هذه الملكة بتأثير لذعات الحية، وموت وصيفتيها بعد أن بعثت "لأكتافيوس" برسالة ترجوه فيها أن يأذن بدفنها مع "أنطونيوس" في قبر واحد، وأنها بعد تناول العشاء صرفت الجميع عنها فيما عدا وصيفتيها "إيريس" "وخارميان"، فلما قرأ "أكتافيوس" كتابها، عجل بإرسال رسله كيما يستجلوا حقيقة الأمر، وعندما دخلوا عليها رأوا "كليوباترة" وقد لفظت أنفاسها الأخيرة ، راقدة في رواء الملك وبهائه على مخدع من عسجد، ومن تحت أقدامها "إيريس" ، وقد أسلمت الروح، أما "خارميان" فكانت لا تزال تعاني سكرات الموت، وما فتئت تحكم بأناملها وضع تاج سيدتها على جبينها. وعندما ابتدرها أحد الرسل غاضبا بقوله "أيليق هذا - أي "خارميان؟" أجابته على الفور "حسنا فعلت وأيمن الحق، وإن هذا لخليق بسليلة ملوك أماجد" ثم هوت لتوها بجوار مضجع سيدتها.

وقد تواترت الأقوال بأن "أكتافيوس" أمر بقتلها، وأن رواية لذعة الحية ما هي إلا من بنات أفكار الرومان، ابتدعوها لإخفاء جريرة هذا الإثم؛ ولكن ليس من المحتمل فيما يبدو أن يكون "أكتافيوس" قد رغب في قتلها قبل أن يحتفي بموكب نصره، وتسير هي فيه لتكون آية وعبرة للناس. وبحسب ما جاء في "ديو" يظهر أنه بذل قصارى جهده ليحول دون تحقيق رغبتها والعمل على إنقاذ حياتها بعد أن

حضر ورآها مضطجعة فى فراشها، فلما عجز عن الوفاء بغرضه، أخذ فى إظهار الإعجاب بها، والأسف عليها، ولكنه شعر بوجه خاص بمزيد من الألم والغضاضة لأنه حرم من الاستحواذ عليها وهى حية لتكون أعظم درة فى تاج نصره، ثم مضى "ديو" فى حديثه عنها فلخص أحوالها وصور أخلاقها فيما يلى "إنها ما كانت لتشبع أبدا فى البحث وراء الحب، وما كان طمعها فى الحصول على المزيد من الثروة ليعرف حدا. إنها كانت طموحة للغاية، شغوفة بالشهرة. صلفة ومتعجرفة، محبة للشموخ بأنفها فى قحة؛ ولقد استحوذت على عرش مصر واستأثرت به بفضل غرام رجل عظيم هام بها، وكانت تأمل بانتهاجها نفس السبيل أن تصبح ملكة على عرش روما، ولكنها منيت بالفشل الذريع فى ذلك ، وهكذا أضاعت ملك مصر. إنها استطاعت أن تستحوذ تحت سلطانها على اثنين من أبطال روما وعظمائها فى ذلك العصر ولكنها تعثرت بسبب ثالثهم وأودت بحياتها بظلفها"[1] ويتناول المؤرخ الفرنسى "بوشيه ليكلرك" موضوع تهجم الكتاب الرومان على "كليوباترة" وتعمدهم القذف فى حقها، وصب جام غضبهم عليها فيقول "إن هذا إلا حديث معاد وموضوع مكرر طالما عرض له الكتاب الحديثون بالتفنيد"[2]. ومن بين هؤلاء الدكتور "و.و. تارن" فى كتابه عن "الحضارة الهيللينستية" إذ يقول "إن بريقا وهاجا قد سلط على النزع الأخير من حكم تلك الأسرة (البطلمية) بفضل اسم "كليوباترة"" وقد سطر الكثير عنها ولكن قدرا قليلا مما كتب يعطينا فكرة صادقة عن تلك الإمرأة، التى استطاعت على الرغم مما اقترفته من جرائم وآثام وما يعتورها من قصور ونقص أن تبلغ درجة العظمة، حدت بروما أن تهابها وتخشاها، وكانت فى جسارتها ومطامعها من طراز ما تجلى من روح "الإسكندر". وإنها لإمرأة تصدت لها النبوءة فأشارت بأنها بعد أن تتمكن من القضاء على روما، سوف تعمد إلى الأخذ بيدها وبدء عصر ذهبى يتعين فى مستهله وضع حد للنزاع والصراع الطويل بين أوربا وآسيا، وتسوية أوجه الخلف بينهما وسواد حكم ترفرف عليه ألوية العدالة والمحبة؛ وكانت مراميها تهدف إلى أن تكون سيدة العالم الرومانى وإمبراطوريته الشاملة ولو قدر "لقيصر" أن يمتد به

---

(١) "كاسبوس ديو"، ١٥،٥١.

(٢) "بوشيه ليبارك"، تاريخ اللاجيديين، جزء ثان ص ٣٣٦، هامش رقم ١.

الأجل لتحقق لها فى أغلب الظن ما أرادت، ولكنه توارى عن الأبصار، ولحق به الموت بالاغتيال فاضطرت إلى أن ترتد فتتكئ على "أنطونيوس" باعتباره خير من وجدت، واستطاعت أن تكسبه آخر الأمر إلى جانبها وتتخذه أداة فعالة فى تنفيذ برنامجها المنطوى على جرأة وجسارة والمتضمن محاولة غزو روما بواسطة جند من الرومان، ولكن هذا المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ إلا بعد فوات الأوان، فكان هناك العصيان والتمرد بين رجال أسطوله فى "أكتيوم" سنة ٣١ق.م، وهذا هو القاضى على الحلم الذى ساورها فى قيام تلك الإمبراطورية. وبانتحارها فى السنة التالية انتهت فى الواقع آخر سلالة مقدونية تربعت فى دست الحكم واحتل أغسطس عرش البطالمة".[1]

وقد دلل العالم الأمريكى "وليم لن وسترمان" فى مقال له منشور فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم أوراق البردى، على أن "كليوباترة" كانت ملكة مصرية صميمة فى نظر المصريين، وأنها خلدت فى الأدب الباقى من عصرها ومن العصر التالى على أنها مصرية، ويستند فى ذلك على ما جاء فى أقوال "بلوتارخوس"، حياة أنطونيوسن الفصل ٢٥، من أن "كليوباترة" كانت "المصرية". وإن المحاولة المسرحية الأخيرة من جانب "كليوباترة" فى إقامة دولة عظيمة ذات سلطان واسع عن طريق التحالف مع الحزب الرومانى الموالى "لأنطونيوس"، كان العماد الأساسى فى اعتقادها بأن ولاء الشعب المصرى وإخلاصه لقضية الأسرة البطلمية ومليكة البلاد كان أمرا مسلما به. وإن ذلك الحلم الرائع الذى داعب خيال "كليوباترة" فى الوصول إلى سلطان الحكم على إمبراطورية مترامية الأطراف ربما كان عديم الجدوى، وينطوى على محاولة طائشة ومغامرة فاشلة، لو لم تكن واثقة من تأييد المصريين من رعاياها وولائهم وإخلاصهم لها[2]. وقال العالم سير "هارولد إدريس

---

(١) "و.و. تارن" ، "الحضارة الهيلينستية"، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢ صـ٤٦.

(٢) "وليم لن وسترمان"، "البطالمة وما بذلوه من جهد فى تحسين أحوال رعاياهم" مقال منشور فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم أوراق البردى المنعقد فى سنة ١٩٣٧ ونشر فى بروكسل سنة ١٩٣٨ ص ٥٧٧.

بل" فى كتابه عن "الهيلينية فى مصر" إن اثنين فقط اللذان أذلا روما وجعلا أنفها فى التراب، وهذان هما "هانيبال" ، القائد الفينيقى، وكليوباترة، الملكة المصرية.[1]

وكانت التهمة التى لصقت بكليوباترة، وهى أنها كانت ترغب فى إشباع شهوتها ليس بالأمر العسير فى أن تدفعها عنها وتفنيد القول الذى كثيرا ما أطلقه بعض المؤرخين من أنها كانت امرأة بغى، فليس هناك من الحقائق ما يبرر مثل هذه التهم فى حياتها الخاصة، إذ أنها أخلصت فى علاقتها بكل من القائدين الرومانيين: "يوليوس قيصر" "وماركوس أنطونيوس"، وكانت تأمل فى أن تصير زوجة شرعية للأول، وأصبحت بالفعل زوجة للثانى. وهى وإن كانت صلفة قاسية القلب، محبة للجاه والسلطان، ولا تتورع أحيانا عن ارتكاب أعمال لا يبررها الضمير الإنسانى، فإنها على أى حال لم تشبها الشوائب والرذائل التى اتصف بها ملوك البطالمة من أمثال "بطلميوس" الرابع الملقب "فيلوباتور" وغيره، من الإدمان على شرب الخمر والانهماك فى الملذات والشهوات الجامحة. وفى الحق إن مثلها فيه تطابق لأمثلة كثيرة غيرها من نساء هذه الأسرة البطلمية، فى أنها لم يكن لها غرام خاص بالدس والكيد من أجل المغامرات فى شئون الحب، وإنما كرست جهودها فى العمل على الاستحواذ على الحكم والسلطان السياسى فحسب.

وينعى عليها المؤرخ البريطانى العظيم "ماهافى" (Mahaffy) أن مسلكها فى "أكتيوم" كان ينم عن الخيانة، فولت الأدبار تاركة "أنطونيوس" فى موقف لا يحسد عليه[2]. ومضى فى قوله إنها فى "أكتيوم" قدرت وحسبت بغاية الدقة جميع فرص الكسب والخسارة ثم الأقدار التى كانت أمام القائدين المتنافسين ، وكانت تأمل فى النهاية أن تستطيع بفضل مقدرتها على الإغراء استهواء عظيم رومانى آخر وكسبه إلى جانبها. ولكن آراء "ماهافى" فى هذا الشأن لا يعتد بها ، ولابد أنه قد وصل إليها نتيجة قراءته المستفيضة فى القصص الشجوى ، غير مستقرئ للحوادث ودون اعتماد على تجارب الحياة الواقعية. ولعل فى مقال

---

(١) "هارولد إدريس بل"، "الهيلينية فى مصر" الفصل الثانى "عصر البطالمة" ، ترجمة "زكى على".

(٢) Mahaffy, Empire of the Ptolemies p. 445

الدكتور "و. تارن" (W. Tarn) عن موقعة "أكتيوم" وهو المنشور فى مجلة الدراسات الرومانية[1]، ما يفى وينهض لتفنيد آراء "ماهافى". وفى رأى "تارن" أن "أنطونيوس" لم تكن لديه فى هذه المعركة خطة واحدة، وإنما أتيحت له حرية الاختيار بين أحد أمرين، فإما أن يكسب النصر لو استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإذا ما تعذر ذلك فإن خطته كانت تنطوى على أن يُيَمم وجهه شطر مصر". وإن "كليوباترة" قد أمرت بأن تصطف مراكبها فى الخلف كيما تكون فى حماية من القتال، ووقفت هى على رأس ذلك الأسطول المصرى، فلم يكن ذلك لأن الشجاعة كانت تُعوزها أو لأنها كانت تخشى عواقب الالتحام فى تلك المعمعة، ففى شبابها قادت بالفعل جيشاً ضد أخيها فى شرقى الدلتا وركبت سفينة، تسللت بها من الفرما إلى الإسكندرية فى مقتبل حياتها فى ظروف محفوفة بالمخاطر والأهوال. على أنها فى الظروف التى أحاطت بها فى "أكتيوم" كانت ترى أن إنقاذ الكنوز التى لديها، وكانت تحملها معها فى سفنها، أمر على أعظم جانب من الأهمية، كما كانت تقدر أن عودتها سالمة إلى أولادها ومملكتها يأتى فى المقام الأول، وله من الأهمية ما يفوق تعريض حياتها للخطر فى معركة ميئوس منها. وعلى ذلك فأمر الهرب كان مرتباً ومتفقاً عليه مع "أنطونيوس"، مع ما كان يستتبع ذلك من غضاضة. وقضت شهامة "أنطونيوس" أن يعمل على تجنيب "كليوباترة" مواطن الخطر، وذلك بجعلها تقف فى موضع آمن. ولو كتب له النجاح فى حركته وخطته ضد "أجريبا"، فإن "كليوباترة" كانت تبادر بالتقدم بمراكبها للقيام بدورها كاملاً غير منقوص، بما عُرف عنها من شجاعة وإقدام. ولكن لا هى ولا "أنطونيوس" كان راغباً فى تعريض حياته للخطر من غير طائل فأبناؤها كانوا فى مصر ينتظرون أوبتهما سالمة.

وهناك من المؤرخين الحديثين من أنبروا لإظهارها فى صورة بطلة حظيت بعطف الناس "وملكة فتية دقيقة التقاطيع تحمل بين يديها طفلها الرضيع وقد ارتسمت على محياه دلائل الصحة" وامرأة وحيدة مجروحة كليمة، قسا عليها الدهر،

---

(١) W. Tarn, Journal of Roman Studies, XXI, 1931, p. 175

كانت تعمل جاهدة طوال حياتها من أجل تحقيق مطمع وطنى باهر"[1]. إنها قضت الجانب الأكبر من حياتها مع "أنطونيوس" فجاء كله صَخَب ملئ بـالأطوار الغريبـة وغير متسق مع حياة الجندى الرومانى الشجاع المقدام، الذى كـانت تفـرض عليـه وطنيته لبلاده أن يقضى الوقت فى محاربة الفرس والبارثيين والميديين والعمل على تأمين حدود الإمبراطورية الرومانية فى الشرق. علـى أنـه لـو كـان قـد أدى واجبـه كجندى، لضاعت علينا صفحة مجيدة من صحف التاريخ الحافلة بالوثائق، مما سطره القلب البشرى، والروح الأخاذة، ولأفلتت منا إحدى الروايـات التراجيديـة الخـالدة، التى انبرى لتسطيرها نفـرٌ مـن الكتـاب كـانوا يفـهمون روح "كليوبـاترة" الوثابـة وشخصيتها النارية. لقد داهنت "أكتافيوس" واستطاعت أن تفلت من يديه وفوّتـت عليه فرصة ذهبية كان يروم اقتناصها ليتخذ منها أداة يحتفى بشخصها فـى موكـب نصر يقيمه فى شوارع روما، على النحو الذى جرى عليه العرف الرومانى، وبذلك حرمته من أن يسلبها شهرتها الخالدة، ولو أنه فى آخر المطاف استولى على زُمردهـا وجواهرها وكنوزها كيما يدفع منها رواتب جنده ويفى بديونه فى إيطاليا.

ومما لا ريب فيه أنها فاقت أى مقدونى آخر، فيما عدا "الإسـكندر" الأكـبر ، فى عظمتها الباهرة وذكائها الخارق وأطماعها الواسعة. وقد استطاعت أن تؤثـر بمـا أوتيت من قدرة سحرية ومقدرة وكفاية، على كل رجال زمانها وأبناء عصرها. وهى وإن لم تكن أنموذجـاً خالصـاً للفضيلـة ، فإنـها لم تكـن وحشـاً كاسـراً ألقـت بـه المقاديـر (fatale monstrum) كما صورها الشاعر "هوراس" فى إحـدى أناشيده[2]. ولم تصطنع الخبث ونصب الأحابيل، كما أنها لم تكن مثال الزوجـة الطيبـة القلـب الوادعة، ولم تكن وطنية رائعة الإخلاص فى وطنيتها. وإنمـا كـانت ملكـة بطلميـة، جمعت عن خصال بنى جنسها قسطاً غـير متعـادل مـن الفضـائل والرذائـل علـى السواء؛ فهى البسّامة فى عظمتها وأبهتها، المونعة المشرقة فى منبت قديم هو البيـت

---

(١) أنظر المؤرخ "ويجول" (Weigall) فى كتابه عن "حياة "كليوباترة"".

(٢) "هـوراس" Odes B. I, XXXVII, 21-22 ، إذ أنشـد يقـول" fatale monstrum quae generosius perire quaerens" إن "كليوباترة" ليست بشراً سوياً وإنما هى وحش كاسـر، بعثت بها الأقدار لتعيث فى الأرض فساداً وتنشر الذعر والرعب فى أرجائه.

الملكى المقدونى فى مصر، وكان إذ ذاك آيلاً للإنهيار والسقوط. وهى طوال حياتها كانت أبعد ما تكون عن أن توصف بالإمرأة الخاملة.

وفى نطاق سياستها الداخلية وأسلوبها فى الحكم، وعنايتها بأحوال البلاد الداخلية، كشف لنا مؤرخ جغرافى هو "إسترابون"، النقاب عن قصور ظاهر من جانبها فى هذه النواحى[١]. فقال إنه فى حكم "كليوباترة" كانت إدارة البلاد مختلة بسبب الترف والمجون الذى كان عليه ملوك البطالمة المتعاقبون وما أصاب ثروة البلاد الطبيعية من تلف وضياع، وقد أنحى "إسترابون" باللائمة على "كليوباترة" وخصها بشيء من اللوم. ذلك أن عنايتها بالإشراف على مطالب الجيش والأسطول صرفها عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية وإصلاح الجهاز الإدارى المتداعى، كما كانت غيبتها عن مصر ومُقامها فى روما مدة بلغت نحو سنتين من ٤٦ق.م حتى ربيع ٤٤ق.م ثم ترددها على الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان لاستقبال "أنطونيوس" وتقديم العون له فى شتى المناسبات- كان كل ذلك مدعاة لأن تصاب الإدارة المصرية ببعض الخلل، فأُهمل تطهير القنوات المصرية، وتراكم الطمى فيها ونجم عن ذلك نقص فى مياه الفيضان وتعذر وصولها إلى الحقول والمزارع، مما أدى إلى حدوث مجاعة فى البلاد فى عام ٤٤- ٤٣ق.م[٢]. وهناك من البيّنة ما يكشف عن وقوع اضطرابات فى أحوال البلاد، منها نصب أو لوحة من طيبة عرفت بلوحة "تورين" وهى مؤرخة فى عهد الملكة "كليوباترة"، الإلهة المحبة لأبيها (Philopator) "وبطلميوس" وهو أيضاً "قيصرون"، الإله المحب لأبيه وأمه[٣]. وقد أقام هذا النّصب كهنة آمون رع فى طيبة بالاشتراك مع شيوخ المدينة وبقية سكانها تكريماً "لكاليماخوس"، الذى عُني بأمر المدينة فى أوقات المحنة الشديدة التى ألّمت بها وخلصها من المجاعة ، متحملا العبء وحده بإخلاص وبذلك استحق منحه لقب مُخلص المدينة. وفى وثيقة أخرى أصدرت "كليوباترة" بالاشتراك مع ابنها "بطلميوس قيصرون"، أمراً ملكياً فى عام ٤١ق.م يقضى بأن السكندريين الذين كانوا يعملون فى الريف، وهم مشتغلون بحرث الأرض وزراعتها، لا يفرض عليهم

---

(١) "استرابون"، الكتاب السابع عشر من جغرافيته، ٧٩٧- ٧٩٨.

(٢) Appian Bellum Civile, IV, p. 61; Pliny, Natural History, V, 58; Josephus, Apion II, 60.

(٣) Turin Stele, O G I, 194

من الضرائب سوى ما كان مقرراً عليهم من ضرائب عادية مستحقة على الأراضى المنزرعة غلالاً وكروماً. وكان فى هذا القرار الملكى استجابة لطلب تقدمت به بعثة من السكندريين مثلت بين يدى "كليوباترة". وفيما عدا هذا المرسوم ، لا توجد أدلة قاطعة على أنها كانت معنية بشئون البلاد الداخلية وساهرة على أحوال رعيتها ، وأنّى لها ذلك وهى مشغولة بالسياسة الخارجية ، وكانت تحب فيها وتضع باستمرار.

ولما فشلت سياستها الخارجية وخابت آمالها توارت عن الأبصار على النحو المسرحى الروائى الذى أقام الأرض وأقعدها، بعد أن تأكدت أن الدنيا أظلمت وضاقت فى ناظرها. وبموتها أصبحت مصر فى قبضة "أكتافيوس"، ودخلت البلاد فى حظيرة العالم الرومانى فأعاد تنظيم أحوال البلاد وعمّ سلام خيم على ربوعها، جنت مصر من جرائه رخاءاً وخيراً وفيراً فى صدر االعصر الرومانى.

الفصل السادس

القرار الأخير للملكة كليوباترة السابعة

هذه لمسة كريمة وصفحة مجيدة للملكة كليوباترة السابعة وابنها وشريكها فى الملك قيصرون (Caesarion) ، كانت لها دلالاتها على أريحتها وحسن صنيعها إزاء طبقات معينة من الشعب السكندرى فى مجال الزراعة :

ἐπιδή γὰρ ἡ βασιλίσσα δεδεῖκται ἀει τὴν μεγιστὴν
φιλανθρωπίαν τοῖς γεωργοῖς etc.

كان من المآثر الحميدة والأعمال المجيدة التى أسدتها الملكة كليوباترة السابعة وابنها قيصر الصغير على طائفة من صغار المزارعين ما ألهج ألسنتهم بالشكر والعرفان بالجميل فى نقش على لوح حجرى جاء به القرار الأخير الباقى من عهد كليوباترة وهى ملقبة بأنها حبيبة أبيها ومعها ابنها قيصرون الملقب بطلميوس الخامس عشر ، حبيب أبيه وأمه على السواء (Philopator and Philometor) ، ويمثل هذا القرار أمراً ملكياً (τό πρόσταγμα) وفيه استجابة فورية لمطلب كانت قد تقدمت به طائفة من المزارعين السكندريين فى ضواحى الإسكندرية (οἱ γεωργοί) كانوا قد نزحوا إلى إقليمين من أقاليم الدلتا وهما الإقليم البروسوبيتى (Prosopite) فى وادى النطرون والإقليم البوبسطى (Bubastis) أى الزقازيق ، وذلك سعياً وراء طلب الرزق (εἰς τὴν φιλεργίαν)[1]. وكان هؤلاء المزارعون قد حظوا بلقاء الملكة فى أثناء تجوالها فى موكب مهيب ، وقدموا إليها شكواهم المريرة (ἐντευχις) من ثقل عبء الضرائب ومطاردة الحكام الإقليميين وجباة الضرائب لهم (οἱ στρατηγοί καὶ οἱ πρακτόρες). والالتزام بالأعباء الثقيلة على مختلف أنواعها (αἱ λειτουργίαι σωματικαι καὶ χωρίκαι) بين جسدية وريفية. وقد شاءت إرادة الملكة وشريكها فى الملك بعد مضى شهر على هذه الشكوى العابرة أن

---

(١) كلمة (ἡ φιλεργία) وردت فى نقش مشهور OGI. 669,33 من القرن الأول الميلادى ومعناها حب العمل والسعى وراء الرزق ، وقد علق عليها العالم الفرنسى الراحل "بيير جوجيه" فى كتابة المعنون "La Vie Municipale"

يُسبغا منحة تقضى بالإعفاء من هذه الضرائب الثقيلة والحيلولة دون جبايتها من صغار المزارعين الذين هم من أصل سكندرى ، ويشمل هذا الإعفاء الكريم أترابهم وأقرانهم فى عموم أقسام الدلتا العشرة ، وبذلك أصبحت هذه بمثابة منحة عامة شملت جموعاً كثيرة من رجال الزراعة ، وهم الذين كان يقضى مضجعهم ويؤرقهم العديد من الضرائب والالتزامات الكثيرة ذات الأعباء الثقيلة والبغيضة. وكان المعروف والمسلم به أن السكندريين إذا ما خرجوا من ديارهم فى ضواحى الإسكندرية إلى الريف أى إلى (η χωρα) كانوا يتمتعون بالإعفاء من أداء هذه الأعباء ، وهذا هو كنه ذلك المطلب لهؤلاء الشاكين. وقد استجابت الملكة إلى مطلبهم وأصدرت ذلك القرار الملكى المشهور ، وهو المنقوش على لوح حجرى بالخط الديموطيقى واللغة اليونانية ، وقد قام بنشره عالم فرنسى اسمه جستاف ليفيفر "Gustave lefevre" فى موسوعة تسمى "Metanges Holleaux, 1913" الأسطر ١٠٣-١١٣ واللوحة رقم أربعة ، وهو محفوظ الآن فى المتحف المصرى. وقد قام بدراسته نفر من العلماء الأعلام بين فرنسيين وبريطانيين وألمان.

وجاء فى هذا الأمر الملكى الضمان لهذا النفر من المزارعين وأقرانهم من ظلم الموظفين المحليين والتعسفات والتصرفات العشوائية التى كان يرتكبها الموظفون المحليون وحكام الأقاليم (οι στρατηγοι) . ومن العلماء الاعلام الذين تناولوا هذا الموضوع بالشرح والتفصيل العالم فردريك بيلابل "Friedrick Bilabel" وذلك فى العدد الرابع من الموسوعة المعروفة باسم (Sammelbuch) لسنة ١٩٣١ تحت رقم ٧٣٣٧ ، وجاء فيه ما يدل على أن هذا النقش يتألف من خطاب مؤرخ فى (١٢) أبريل من عام ٤١ ق.م. وهو موجه من قبل الملكة وابنها قيصرون إلى الحاكم الإقليمى (strategos) على إقليم هيراقليوبوليس ،وجاء فيه ما يفيد الأمر بضرورة نشره (ποιεῖν) وتنفيذ ما جاء به من تعليمات فى جميع أنحاء مصر والعمل على محاربة الفساد المتفشى فى عموم البلاد والذى عمد إلى إرتكابه نفر من الموظفين المحليين.

وكانت الدوافع التى دعت إلى صدور هذا التشريع تلك الشكوى التى كان قد تقدم بها نفر من الفلاحين السكندريين إلى الملكة شخصياً ، وهاك نصها كما نشرته العالمة البلجيكية الراحلة "مارى تريز لانجيه" "Marie Thérese Lenger"

في مجلة Chronique d' Egypte xxv, No. 5 July 1950 تحت عنوان Note Sur le dernier decret des legides ، وهاك نص هذه الشكوى :

τῶν ἀπὸ τῆς πόλεως γεωργουντων δ' ἐν τῶι Π ροσω πίτηι καὶ βουβαστειτηι ἐντυχον των ἡμεῖν ἐπὶ χρημισμοῦ τῆι ιε του φαμενωθ κατὰ τῶν πρὸς χρείαις τῶν νομῶν ι ὃν τρόπον οὐ τὸs etc (κτλ).

وتتضمن هذه الفقرة اليونانية أن نفراً من المزارعين السكندريين الذين نزحوا إلى السكنى فى الاقليم البروسبيتى والاقليم البوبسطى تقدموا بشكوى إلى الملكة كليوباترة فى أثناء موكبها ضد الموظفين الذين ساموهم سوء العذاب فى الأقاليم العشرة التى كانت تشتمل عليها الدلتا وأن تاريخ تقديم هذه الشكوى كان فى الخامس عشر من شهر فامينوث.

وقد عرض العالم البريطانى ب.م.فريزر (P.M. Fraser) فى كتابه عن الإسكندرية فى عصر البطالمة (Ptolemaic Alexandria) سنة ١٩٧٢ ، ص ١٢٧ لموضوع كليوباترة ، وهى غائبة عن مصر ومقيمة فى روما فى ضيافة القائد الرومانى العظيم يوليوس قيصر ، وكان معها ابنها الصغير وشريكها فى الملك فى الفترة ما بين ٤٦ قبل الميلاد حتى مارس سنة ٤٤ ق.م. وهو تاريخ اغتيال يوليوس قيصر فى الخامس عشر من شهر مارس ثم إنها سارعت على أثر ذلك بالعودة إلى مصر ، وهى على حد قول الفيلسوف والأديب الرومانى "شيشرون" كانت هى الفارة والهاربة (Fuga reginae) عقب هذا الحدث الأليم أما تفاصيل العلاقة بينها وبين شعبها إذ ذاك فإن شيئا من الغموض يحوم حول ذلك ويستمر فى ذلك طوال المدة الباقية من حكمها حتى منتصف أغسطس سنة ٣٠ ق.م. وهو تاريخ انتحارها وتواريها عن الأبصار ، تاركة الغموض واللبس والحدس والتخمين يحوم حول كثير من الأمور الهامة المتعلقة بأساليب وأطماع تلك الملكة البارعة. وهكذا يجئ هذا القرار الأخير ملقيا شيئا من الضوء حول صنيعها إزاء مطالب بعض طبقات من الشعب السكندرى من المشتغلين بالزراعة ، وجاء هذا القرار الأخير الذى أصدرته بالاشتراك مع ابنها قيصرون فى عام ٤١ ق.م. لصالح طائفة من السكندريين المقيمين أصلا فى ضواحى الإسكندرية والنازحين إلى إقليمين من أقاليم الدلتا سعيا وراء

طلب الرزق (ἡ φιλεργία) ، وقد جاء فى ثنايا هذا القرار ما يدل على ماكانت تتمتع به تلك الملكة من حصافة ، وحرصها على مراعاة مصالح هذه الطوائف من المزراعين ورفع الأعباء عن كواهلهم ، وهكذا جاء هذا القرار الملكى الموجه إلى الحاكم الإقليمى المسمى ثيون (Theon) على أن يعلن ذلك فى حاضرة القسم وفى الأماكن البارزة من ذلك الإقليم ، وكان القصد من وراء ذلك رفع الأعباء والتكاليف والتظلمات عن طوائف المزارعين (αἱ λειτουργίαι) فى الاقليمين البروسوبيتى والبوبسطى (οἱ ἀπὸ τῆs πὸλεως γεωργοῦν τες) وعلى أقرانهم ونظرائهم فى جميع أنحاء الدلتا.

والثابت أن الداعى إلى صدور هذا القرار هو بضع شكايات ومطالبات لسد بعض الاحتياجات ممن وقع عليهم ظلم وغبن وحيف ، ولم يسع هؤلاء الشاكون إلا أن يتقدموا بتظلماتهم إلى الملكة وسلموها إليها فى لقاء أو مقابلة تمت فى الخامس عشر من شهر برمهات فى السنة الحادية عشرة وهذا يوافق الخامس عشر من شهر مارس سنة "٤١" ق.م. وذلك بواسطة لفيف من المزارعين الوافدين من الإسكندرية وضواحيها (ἡ χώρα) ، وهم الذين كان قد أسفر بهم المقام فى زمام قسمين إداريين كبيرين من أقسام الدلتا. وقد استمر هذا المطلب عن إصدار ذلك القرار أو الأمر الملكى بعد انقضاء شهر واحد على تقديم الشكوى (τό πρόσταγμα) المنوه عنها آنفاً. وقد روعى فى هذا الأمر الملكى أن يكون عاماً وشاملا ، فيجرى تطبيقه فى جميع أنحاء البلاد وليس فى الاقليمين المذكورين آنفاً فحسب. وهنا يجدر بنا الكشف عن تلك الدوافع الدفينة التى دفعت إلى إصدار هذا القرار وتعميمه على النحو السالف الذكر ، ومما لاشك فيه أن الشكوى المقدمة من طائفة المزارعيين السكندريين كانت مجرد ذريعة ، اتخذتها الملكة وسيلة لدرء بعض المفاسد ولعلاج نوع من الانحرافات التى كانت ذات طابع عام وذلك عن طريق إصدار هذا الأمر الملكى. ومن الجدير بالذكر أن أولئك الأشخاص المعنيين فى هذا المرسوم لم يكونوا متمتعين بأى من الحقوق المدنية المعترف بها للمواطنين الأحرار فى الإسكندرية ، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه ينتمون إلى فئة من الناس متمتعة بامتيازات مالية معينة ، فنجد أنهم كانوا معفيين من أى شكل من أشكال العوائد والضرائب والأعباء الاستثنائية (Leitourgiae). وإنما كان المنوط بهم فقط الوفاء

بالاستحقاقات عيناً ونقداً مما تحل جبايته سنوياً لصالح الخزانة الملكية (τό βασίλικον) والشون الحكومية (Thesauroi) مما كان يقع على كاهل المزارعين الذين يقومون بزراعة القمح والكروم. ولكن بعض هذه الامتيازات كانت باستمرار موضع انتهاك واستخفاف من قبل مندوبى الخزانة وجباتها الذين كانوا منبثين فى أرجاء البلاد وهم دائبون على إكراه الناس على تحمل أعباء ، لا قبل لهم بها ومطاردتهم حتى يوفوا بالمفروض عليهم.

وقد جاء هذا الأمر الملكى منصفاً لهذه الفئة وعاصماً لها من أعمال التعسف والقرصنة التى كان يرتكبها أولئك الحكام. وقد تضمنت الشروط والبنود الواردة فى هذا الشأن مجموعة من الأوامر التى كان قد أصدرها الملوك المتعاقبون من البطالمة. وكلها تُحرم أعمال الابتزاز وتحول دون فرض تلك الأعباء التى تخالف ما يقضى به القانون وما يُحرمه المركز المالى الذى كان عليه الناس ويمنع فرض أى ضرائب جديدة لأغراض شخصية. ونحن نؤثر هنا أن نوافى القارئ بترجمة دقيقة لهذا النص :

"من الملكة كليوباترة الإلهة المحبة لأبيها والملك بطلميوس الخامس عشر قيصرون الإله المحب لأبيه ولأمه إلى الحاكم الإقليمي على هيراقليوبولس تحيات. لما كان الأمر الملكى المسطر فيما يلى هذا جاء مصحوباً بالصيغة التنفيذية له ، يتعين كتابته أو نقشه بحروف يونانية وديموطيقية ويتعين كذلك إعلانه فى حاضرة القسم، وكذلك فى المراكز الرئيسية أو المهمة للغاية ، وهى الواقعة فى دائرة القسم. وفيما يتعلق بالباقى يصير الالتزام بتنفيذ الأحكام الواردة فى هذا الأمر ووجوب اتباعها والسير بمقتضاها. والسلام".

صدر هذا فى السنة الحادية عشرة ، وفى اليوم الثالث عشر من شهر ديسبوس الموافق الثالث عشر من شهر برمودة سنة ٤١ ق.م.

"إلى ثيون (Theon) :

حيث أن لفيفاً من الناس ممن قدموا أصلاً من المدينة (أى من الإسكندرية) واشتغلوا بالزراعة فى زمام الإقليمين : وهما البروسبيتى والبوبسطى وقدموا لنا شكوى عند اللقاء بهم فى اليوم الخامس عشر من شهر برمهات ضد الموظفين

المحليين فى إقليميهما بشأن الأسلوب الذى كان يتبعه هـؤلاء ، مخالفين بذلـك مـا قضيت به رغبتنا وإرادتنا والأحكام الصادرة منا وتلك الصـادرة عـن الإدارة الماليـة والقائمين بالإشراف على تلك الإدارة بشأن عدم مطالبـة هـؤلاء القـوم بـأكثر مـن المستحقات المشروعة لصـالح الخزانـة الملكيـة (τό βασιλίκον) ، وإنمـا عمـدوا إلى الانقضاض عليهم ومواجهتهم بمطالبات والتزامات تعسفية ، كان فيـها إثقـال علـى كواهلهم ثم سعوا إلى إخضاعهم وتكليفهم بأعباء زراعية وإقليمية ، مما لا بشأن لهم بها وفوق ذلك كانت غريبة عليهم. ونحن بحكم ما جبلت عليه نفوسنا من بُغض شديد للشر ، صح قرارنا على توقيـع عقوبـة مشـتركة وعامـة ضـد الجميـع. وقـد أصدرنا أمرنا بأن جميع المزارعين الوافدين من المدينـة (أى الإسـكندرية) إلى ريـف البلاد أى الخورا (ἡ χώρα) أن يتم اعفاؤهم من دفـع ضرائـب التـاج التـى كـانت تفرض على الناس بين حين وآخر وتحتمها الظروف المحليـة بـالإقليم ، ثـم يعفـون كذلـك مـن الضرائـب والعوائـد الإضافيـة ، فـلا ينبغـى أن تحصـل مـن أملاكـهم ومقتنياتهم ضرائب مماثلة عن طريق توزيعـها وتقسـيمها علـى الأفـراد. ولا يطلـب إليهم أو يقتص منهم. أى ضريبة أخرى مستحقة. فإذا ما قام هؤلاء القوم بالوفاء بما عليهم من مستحقات عينية أو نقدية قبـل الخزانـة الملكيـة ، مما هـو مقـرر علـى الأراضى المنزرعة قمحاً وعلى الكروم ، فلا ينبغى التعنت معهم أو مضايقتهم على أى نحو مهما كانت الأسباب فى ذلك أو تلمس أى من الذرائع على الاطلاق.

ولينفذ هذا الأمر إذاً (ποι ειν) وليعمل بمقتضاه علـى أن يعلـن فـى مكـان ظاهر فى كل إقليم من أقاليم البلاد المصرية (κατά νομόν).

وهنا ينبغى التنويه ببعض الملاحظات عن كتابة هذا النقش وأسلوب تسطيره على لوح حجرى وما جاء فى ثناياه من بعض الأخطـاء التـى وقـع فيـها الحفـار ، ولكن البعض فيها يمكن تصويبه بسهولة ، ويبدو لأول وهلة أن هـذا النقـش جـاء خلواً من أى محسنات لفظية وخلت لغتة من أى عبارات أدبيـة ، وكـان شـأنه فـى ذلك شأن أغلب النقوش التى جرى الأسلوب المرعى فيها على هذا النحو.

ومن الملاحظ هنا أن الملكة كليوباترة كانت تبغـى فـى الحـق القضـاء علـى تفشى أعمال الابتزاز والضرب على أيـدى المسـتغلين ووضـع الأمـور فـى نصابـها

ولذلك سارعت بإنصاف السائلين على الفور وعممت تطبيق هذه القاعدة على جميع الأقسام الإدارية العشرة التى انقسمت إليها الدلتا. وهذه مكرمة جميلة ، تحمد للملكة وتذكر لها بالخير العميم.

وإنه ليتحتم علينا عند دراسة أى نقش من هذا النوع أن نزود أنفسنا بالمعلومات العامة عن كنه النظام الإدارى السائد فى مصر البطلمية والحكومة المركزية والبيروقراطية الشديدة التى كانت سائدة فى مصر فى ذلك الحين ثم نظام الضرائب وطرق جبايتها ونظام الالتزام المجلوب من أثينا وما أدخل عليه من تحسينات فى مصر على يد ملوك البطالمة المتعاقبين ، وشتى الأعباء (Leitourgiae) التى كبّلت الناس ، وكانت تفرض على القادرين من ذوى اليسار وممن كانوا يملكون النصاب المطلوب وهو ما يسمى بكلمة (πopos) ، وهؤلاء كان يطلق عليهم كلمة (οι ευποροι) وهكذا أشار ذلك النص إلى العديد من هذه المسائل وملابساتها ، وهذا كله يتطلب منا تفهماً وتعرفاً على مواضع الخطأ والصواب فى الإجراءات التى كانت متبعة ومطبقة بمنتهى الدقة ، وهذا النص بحالته الراهنة قد تناوله الكثيرون من العلماء الأجانب وعلقوا عليه تعليقات مستفيضة وجاء ذلك على مدى أكثر من ستين عاماً.

وها هى بعض المراجع التى ذكرتها العالمة البلجيكية الراحلة "مارى تيريز لانجيه" Marie Theres Lenger , Corpus des Ordonnances P.212

1- Sammelbuch (Bilabel No. 7337, 1931).

2- M.N. Tod, Greco – Roman Egypt, Inscriptions.

3- M.N. Tod, Journal of Egyptian Archaeology II, 1915.

4- Bevan, Egypt under Ptolemies PP. 371-372.

5- Claire Préaux, Ecnomie royale des Lagides P.393.

6- Rostovtzeff, Social and Economic History of Hellenistic World PP. 910 & 1551-1552.

7- R. Taubenschlag, Law P. 588 N. 26.

8- Collomp, Rechereches sur la charcelerie 1926, P. 196.

9- H. Gauthier, les Nomes d' Egypte 1935 P. 85.

خاتمة للقسم الثانى (كليوباترة)

وهكذا قُضى الأمر بأن تُطْوى صحيفة "كليوباترة" نهائياً ويتقلَّص حكمها بعد فترة طويلة تُربى على العشرين عاماً ، وجاء هذا حافلاً بالأحداث الجسام، وملیئاً بالأزمات المتلاحقة. وفيما عدا أزمتها الكبرى التى انتهت بانتحارها، فإن الأمر الذى يستأهل منا شيئاً من العَجَبْ أن كل أزمة من هذه الأزمات كادت بمفردها أن تزلزل كيانها وتقضى على سلطانها. ومع ذلك فإنها استطاعت أن تخرج من كل واحدة منها مُظفرة وقوية الجانب، بفضل ما أوتيته من فطنة وكياسة، وما توافر لها من مواهب جمه. وكانت بفضل حسّها المرهف، وكفايتها النادرة قادرة على التغلب على ما يعترضها من صعاب وتحويل الخصوم إلى أعوان، بل إنها كانت تتخذ من بعض هؤلاء أدوات لتحقيق مآربها ومراميها. فكانوا ينبرون مهرولين لخدمتها فى تفان وإخلاص منقطع النظير. وليس من قبيل الصدف أن يجيء تاريخ حكمها مليئاً بالأحداث الجسام والأزمات المتلاحقة، ومعاصراً لأحداث عالمية، ما لبثت مصر أن وجدت انه قد زُجّ بها فى معامعها: إما لأن مصير البلاد نفسه كان متوقفاً على النتيجة التى يمكن أن يحسم بها ما كان ينشب من خلاف بين قادة الرومان، وما يسفر عنه حل الأزمات بين رجال الحكم الثلاثى الثانى من أوضاع تؤثر فى مستقبل مصر ، وإما لأن "كليوباترة" كانت طامعة فى خير مرجو تسعى إلى تحقيقه من وراء ما كانت تنصبه من شباك أو تتورط فيه من مغامرات، كانت تسعى جاهدة فى أن تلقى فيها بدلوها فى شيء كثير من الحيطة والحذر. وفى القليل النادر كانت "كليوباترة" تساق لبعض هذه الأزمات بحكم ما لها من صلات وثيقة دون أن يكون لها فيها بطريق مباشر لا ناقة ولا جمل.

ولعل السر فى أغلب ما كان يعترض سبيلها من أزمات مستحكمة هو أن ابنها "قيصرون" كان بمثابة همزة الوصل بينها وبين روما، ويمثل حلقة الاتصال بين مصر وبين ما كان يجرى على مسرح السياسة العالمية. إنها اتخذت من "قيصرون" هذا فى أول الأمر تكأة للوصول إلى بغيتها وتحقيق أغراضها البعيدة المرمى. ومن هنا كانت أغلب غاياتها وأهدافها تقع خارج الحدود المصرية، فكبدت نفسها من المشاق ما هو فوق طاقتها كيما تنال مجدا مؤثلا وسؤددا ورفعة، وتؤسس

مُلكاً عريضاً يمت إلى "قيصر" وإلى حق ابنها منه فى إرث أبيه، فكأنما هذا الابن هو فى الحق الدافع الحقيقى والعامل الأول على إيقاظ تلك الآمال العريضة التى بنتها فى خيالها وتصورتها فى آفاق واسعة، ولم تر بأساً من تحقيقها، إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وعلى ذلك كان هذا الابن يُعتبر عبئاً على كاهلها، لأنها اتخذته محور تفكيرها الدائم ووجدت ألا مناص من أن تسعى إلى تصحيح وضع هذا الابن وإثبات بنوته وتثبيت مركزه على هذا الأساس. وهى فى هذا السبيل لم تكن تتورع عن شيء، فأدى هذا إلى تورطها وركوبها متن الشطط. ثم مضت بعد ذلك فى طريقها لا تلوى على شيء غير آبهة بما كان يجره عليها من متاعب لدى "أكتافيوس" أو غيره من عمالقة الرومان وساستهم الذين كانوا يبغضون الملكية فى شتى صورها ويحقدون كثيراً على الملكة "كليوباترة" بالذات. ولعلها نسيت أو تناست أن "أكتافيوس" بالذات هو ربيب "قيصر" بحكم ما جاء فى وصية الدكتاتور العظيم، وأنه بهذا الوصف كان ينظر شذراً إلى كل ما يقام فى مصر من ادعاء بصدد بنوة "قيصرون" وما يُثار من أحقية هذا الابن فى إرث "قيصر"، بل إن "أكتافيوس" كان يعتبر هذا الابن سُبّة فى جبين أبيه "قيصر". وكلما تمادت "كليوباترة" فى إبراز هذه الحقيقة ونفخت فى هذا البوق وعمدت إلى اصطناع الأعوان والأبطال الذين كانوا يضربون على هذا الوتر الحساس وينتصرون سراً وعلانية لدعوى "كليوباترة" وما تبسطه من أحقية تدعيها لابنها من "قيصر" بعد أن اشتد ساعده ونما وكبر، تكدرت العلاقات بينها وبين "أكتافيوس". وازدادت العداوة بُغضاً وسوءاً حتى ضاع الأمل كله فى عمل أى مهادنة أو مصالحة بينهما، فكل طرف من الطرفين كانت مصالحه على النقيض من الآخر. وقد أصبحت "كليوباترة" فى آخر المطاف هى العدوة اللدودة "لأكتافيوس" الذى أعلنها عدوة للرومان (hostis) وخصّها بشن حرب شعواء عليها، لا بوصفها ملكة على مصر فحسب، بل لأنها أم لذلك المنافس الطبيعى "لأكتافيوس" فى إرث "قيصر". وعندئذ لم تأل الملكة جهداً فى سبيل الدفاع عن حق ابنها، وكانت متفانية فى ذلك، وعاملة على كسب الحلفاء من بين صفوف الرومان أنفسهم لنصرة قضيتها. وكان على رأس هؤلاء جميعاً ذلك البطل المغوار "أنطونيوس" الذى كان له حتى النهاية فى نفوس نفر كبير من الرومان منزلة مرموقة ومركز ممتاز. ولما استحكمت

حلقات الأزمة ، وتكشفت نوايا كل من الطرفين بطريقة سافرة، لم يعد بُدٌّ من حسم ذلك الخلاف فى ساحة القتال بخوض معركة برية أو بحرية أو كليهما معاً. وقد بانت أمارات كل هذا بشكل واضح جلى عندما ألقى "أنطونيوس" القفاز فى وجه خصمه بتطليق أخته "أكتافيا" وإقصائها عن بيت الزوجية فى روما، ثم إعلانه الزواج من غريمتها "كليوباترة"، واعترافه بأبنائه منها، وانتصاره "لقيصرون" والعمل على تثبيت وتدعيم مركز هؤلاء جميعاً، وعلى رأسهم "كليوباترة" بتوزيع الهبات التى اقتطعها من أملاك الرومان فى آسيا والشام، وأسبغها على زمرة من هؤلاء الأبناء. وعندئذ اتسعت هوة الخلاف، وضاع الأمل فى رتق الخرق وأصبح لا مفر من امتشاق الحسام لفض هذا النزاع المستحكم.

وقد يحلو للمؤرخ المنصف أن يبحث ويُنقّب فى خلفية هذه الصورة العامة، أملاً فى التعرف على الأسباب والمسببات وكشف الأستار عن معالم هذا الخلاف المحتدم الذى قَسَّم العالم القديم إلى شقين: قوى الشرق تجاه قوى الغرب، وقد ألّبت "كليوباترة" الشرق الهيللينستى ضد الغرب الرومانى، واستعْدَت بلدانه ، وأقامت الأرض وأقعدتها من أجل قضيتها وقضية ابنها الأكبر. وقد يكون هدف المؤرخ وبُغيته من وراء ذلك بذل محاولة تهدف إلى تلمس المعاذير والتصدى للدفاع عن الملكة، فيصوغ من حولها إطارا من المعاذير (apologia) ليدفع عنها أوجه الاتهام، ويكون هذا بمثابة إنصاف لقضيتها التى طلعت بها على العالم. وقد يتاح لهذا المؤرخ أن يسير شوطا بعيدا فى البحث عن أسانيد تاريخية أو إشارات أدبية جاءت عابرة فى كتب السير وقصص الشعراء والكتاب، وجلهم من الرومان واليونان. ومما يدعو للغرابة أنه ليس من بين هؤلاء جميعا مصدر مصرى واحد، يمكن أن يعتد به فى هذا الصدد. فلم يجد الزمان بشيء من هذا ليفص علينا وجهة النظر المصرية البحتة فى هذا الصراع، ونستطيع أن نتلمس من ثناياه أوجه الدفاع عن الطرف الثانى، وهو المصرى، وكان هذا لسوء الحظ هو الطرف المغلوب. وذلك فيما عدا عبارات تقليدية مما كان ينقش فى مناسبات التكريم والتكريس على حوائط المعابد والمقابر والبوابات، وما يُصور على العملة التى كانت الملكة تسكها بين حين وآخر لتسجيل أحداث جساماً أو بدء حقبة جديدة فى حكمها، وكانت تَضمنها صوراً لها ولأبنائها مع ذكر عبارات مقتضبة وبعض التواريخ للتوقيت، ثم

ما كان يصدر عنها من أوامر ملكية (ta, prostagmata) صمـــاء، صيغـت كلـها فـى قوالب وصور مألوفة. وكانت هذه وتلك تتناول أخـــص شـئون الحكـم، وليـس لهـا علاقة ما بتكتل القوى الداخلية فى البلاد ولا بتنظيم شئون الدفاع. فلم تـــرد بـها أدنى إشارة، ولو خفية إلى ما كان يقلق بال الملكـة، ويقـض مضجعـها طـوال هـذه السنين الطوال والعجاف ، مع أن الملكة لم تكن بـأى حـال خاليـة البـال أو هادئـة الفكر فى ذلك الحين. وهى فى واقع الأمـر كـانت قـد نغَّصتـها الأحـداث وأرَّقـت لياليها، فكان خصومها عديدين، وهم تارة من رجال البلاط المصرى الذين حرّضـوا اخوتها وأخواتها على التنكر لها والبطش بها، وتارة أخرى كانوا من عظماء الرومان وأدبائهم من أمثال "شيشرون" الخطيب والشاعر اللامع ، وعـدد عديـد مـن أعضـاء السناتو الرومانى الذين ما فتئوا يسخرون منها ويندددون بأســاليبها ويكشـفون عـن مآربها ويفضحون نواياها ، وبذلك يقضون مضجعها.

وفوق هذا كله فلم يكن الزمان نفسه كريماً بها، بل قسا عليها أكثر من مـرة. يوم أن سلبها "يوليوس قيصر" فى الرابع عشر (Ides) من شهر مارس سـنة ٤٤ق.م، وقد أظلمت الدنيا فى وجهها إلى حين، إذ توارى حينئذ هذا الدكتـاتور فجـأة وهـو فى عنفوان قوته وأوج عظمته، وكانت تطمع وتأمل فى أن يُحقق لها بعض مآربـها. ولكن القدر اختطفه منها بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنـــى مـن اتخـاذ الخطـوات الحاسمة لتصحيح وضعها ووضع ابنها منه، وكان "قيصر" إذ ذاك على أهبة الخـروج لتنفيذ برنامجه العسكرى الهائل ، وفى طياته كان يزمع تحقيق ما انتـوى عليـه مـع الملكة، ولكنه أخذ هذا السر الدفين معه إلى قبره. وقد فجعـت فيـه "كليوبـاترة"، إذ رأته بين عشية وضحاها يخر صريعاً ومجندلاً فى أحد أروقة ودهاليز مجلس الشـيوخ الرومانى. وكانت الملكة تقيم إذ ذاك على مقربة من مكان مصرعه وتـنزل بقصـره على ضفاف نهر التيبر فى روما، فوقع خبر هذه الفاجعة الأليمة عليـها كالصاعقـة وكاد يزلزل كيانها ويُحطم قواها. ولكنها لم تيأس ولم يَهِن منها العظم وإنما صهرتها تلك الأحداث الجسـام، بعـد أن كـادت تُـودى بـها. وبعـد مصـرع "قيصـر" سـاد الصخب فى روما وانتاب الرومـان حالـة مـن الاضطـراب والأسـى لهـول الفاجعـة الأليمة. وكان "مـاركوس أنطونيـوس" متوليـاً وظيفـة "سـيد الفرسـان" (magister equitum) وهى ثانى وظيفة بعد الدكتاتور ، وقد كشف النقاب عن هذه الحالة فى

خطبته التأبينية فأفصح عـن فحـوى المشـاعر التـى تملكـت الشـعب الرومـانى وأن النفوس كانت تغلى غليان المرجل وتتأجج فيها النـيران. وأخشـى مـا كـان يخشـاه المؤيدون "لقيصر" والموالون للملكة هو أن يتحول هذا الغضب نحـو "كليوباترة"، فينفجر بركانه فى وجهها، ويلحق بها بعض الأذى في هذا الجو المكفـهر. ولذلـك رؤى إنه من الخير أن تُعجل الملكة بالفرار من روما خِفيـة، وتعـود إلى الإسـكندرية لتعيش بمنأى عن هذه الأحداث الصاخبة. فهل طال مقامها فى أمان وسكينة؟ كلا، إنها كانت ترقب الأحداث العالمية بعين حذرة، وتنتظر مـا يمكـن أن تتمخـض عنـه تصرفات الحدثـان. ولا يستطيع أحد أن يقول إن التطورات التى كـانت تجـرى فـى العالم الرومـانى، والقتـال الناشـب فـى بـلاد اليونـان بـين طرفـى النـزاع: الحـزب الجمهورى والقتلة من ناحية والآخذون بالثأر من هذا الحزب الجمهورى من ناحيـة أخرى -كل ذلك لا يعنيها فى شيء أو أنه بعيد عن عقـر دارهـا. كـان فـى الحـق صالح ابنها "قيصرون"، وهو لم يكن قد تخطى بعدُ سن الطفولة، إذ كان يبلـغ مـن العمر نحو أربع سنين، متوقفاً على مصير تلك الحـرب الناشـبة. ولم يقتصـر الأمـر على مستقبل هذا الابن وحده، بل إن استقلال مصر نفسه وتحقيق البرنـامج الـذى كانت تنتويه الملكة- كل هذا كان متوقفاً كذلك على الكفاح الذى خاض غمـاره طرفا النزاع من الرومان فى موقعة "فيليباى" ببـلاد اليونـان سـنه ٤٣ق.م. وهكـذا قضت الملكة نحو عام فى الإسكندرية عقب فرارها من روما فى حالة شـديدة مـن القلق والاضطراب. إنها كانت تخشى أن تُقدم رجـلاً أو تؤخـر أخـرى، فتسـيء إلى أحد الجانبين، وبذا يضيع حقها وتفقد المكاسب التى كانت تعلل النفس بالأمل فى تحقيقها. وقد أتيح لها بفطنتها وكياستها أن تتلمس سبيلها، فتخرج من هذه الأزمـة منتصرة. فقد نَقبت فى جُعبتها فوجدت بعضـاً مـن المـبررات والمعـاذير التـى قـد تشفع لها وتفسر موقف حيادها المريب، الذى اعتبر على أقل تقدير أنه كـان يتسـم بالجمود وتعوذه المروءة وعدم الوفاء. ولكن اعتزازها بنفسها وبكفايتـها وثقتـها فـى عدالة مطلبها – ساعد كل هذا على خروجها من أزمتها هذه قوية الجـانب، يبتسـم لها المستقبل مرة أخرى، وتتطلع إلى تحقيق أحلامها. فكان "أنطونيوس" نفسـه وهـو بطل معركة "فليباى" هو الناصر الأمين لها والعـون المدخـر لمستقبلها فـى العشـر سنين التالية، وهو البطل الذى أمّن جانبها وتبنى قضيتها علانية متحدياً فـى ذلـك

العالم الرومانى، وكان نِعْم المدافع والحليف ثم فى آخر المطاف نعم الزوج الوفى والحبيب المتفانى.

وعلى هذا النحو جاء تاريخ هذه الملكة بالذات فى جملته مُترعاً بالأحداث الجسام والمتزاحمة، وحادياً للغث بل والسمين منها، ومفعماً بالعظات والأخطاء. ولكن فيه من الجدّية الشيء الكثير، كما أن فيه كذلك من المساخر والترّهات والمظاهر البراقة والخلابة ما جعل المؤرخ يتيه فى بيداء من القصص التاريخى والروائى الذى قد يأخذ بالألباب، ولكنه لا يغنى ولا يسمن من جوع. وسيبقى تاريخ الملكة "كليوباترة" على مَرّ الزمان متعة للقارئ وفيه من الخلجات والمشاعر ما يستهوى الكتاب والمؤرخين على السواء. ولن يكف هؤلاء عن أن يلقى كل واحد منهم بدلوه، عله يصيب كبِد الحقيقة أو يكشف عن الجوانب الخفية من حياة "كليوباترة" بتسليط أضواء جديدة عليها. ولن يَمل القارئ من مطالعة هذه الصفحات الخالدة ، ليشبع نهمه ويستجلى هذه المشاعر الإنسانية فى أجمل وأجل صورها ، وذلك بعد أن طويت صحيفتها إلى الأبد فى آخر أغسطس من عام ٣٠ ق.م بانتحارها فى شجاعة منقطعة النظير.

"أغسطس" وتصويره لموضوع ضم مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية :

وبعد أن انقضت سنوات عديدة على وفاة "كليوباترة" ، أخذت الأصداء الخافتة تُسمع عن مصر وأحوالها ضمن السجلات الرسمية؛ وكان منها ما دوّنه أكبر شخصية فى عصره، وذلك هو "أكتافيوس أغسطس" الذى تناول فى وثيقته الأنقيرية (Monumentum Ancyranum) موضوعات متفرقة ، أحاط فيها إحاطة شاملة بمعالم السياسة التى عوّل على انتهجها، وضمّنها سجل حياته. وقد لخص فيها أهم أعماله المجيدة فى أوقات السلم والحرب على السواء (Res Gestae divi Augusti) وعرض لحروبه المختلفة التى خاضها إما بنفسه أو بواسطة قواده ومندوبيه (Legati) وكان من بين هذه الحروب بالطبع حربه ضد "كليوباترة". وذكر قواعده التى اتكأ عليها فى البر والبحر وبيان الشعوب والأجناس التى أخضعها، والقرصان الذين أمّن البحر من شرورهم وآثامهم، وعدّد المنشآت العمرانية التى شيّدها والمعابد المختلفة التى كرّسها لشتى الآلهة فى روما وفى خارجها، ثم الألعاب

الـرومانية والتقليديـة بأجيالها (Ludi Romani et Ludi Saeculares) التـى أقامـها. كما سرد تلك المناسبات المختلفة التى أغدق فيها على جنده وعلى عامـة الرومـان الشئ الكثير من المنح والعطايا التى أجزلها لهم، وكان بعضها من إرث أبيه وبعضـها الآخر من جيبه الخاص. وقد أسهب فى ذكر الألقاب والوظائف المدنية والعسـكرية والدينية التى أُسبغت عليه تارة من مجلس الشيوخ الرومانى أو من مجـالس العامـة، منذ مطلع شبابه وهو لا يزال يافعاً فى التاسعة عشرة من عمره إلى مماته سـنة ١٤م. وكان بعض هذه الألقاب والوظائف من قبيل التكريم البحت، بينمـا كـان البعـض الآخر منها من واقع سلك الوظائف الرومانيـــة (cursus honorum). فأسبغ عليـه الرومـــان لقب أب الوطـن (Pater Patriae) ووكلـوا إليـه رعايـة الأخـلاق العامـة والعمل على أن يجتث الفساد ويعيد العـادات السـليمة التـى حـافظ عليـها الآبـاء وتوارثها الرومان.

وفى ثنايا كل هذا الفيض العظيم فى هذا السجل لم يُغفل مصر ومـا أحـرزه من انتصارات على ملكتها "كليوباترة"، بل كانت إشارته إلى ذلك بارعـة وعـابرة. وعندما عرض لحفلات النصر التى أقامها فى روما، والمناسبات فى كل حالة، ذكـر أنها فى مرتين كانت من النوع الذى يسير فيه القائد المظفـر ممتطيـاً صـهوة جـواده (bis ovans) وفى ثلاث مرات أخرى كانت من النوع الذى يجلس فيه القائد علـى كرسى من العاج (curulis). وهاك نص العبـارة اللاتينية التـى وردت فـى الفصـل الرابـع مـن هـذه الوثيقـة الأنقيريـة: Bis ovans triumphavi, tris egi curulis (.triumphos) ، وفى طيات هذه العبارة المقتضبة معان كثيرة وإشارات عديدة تلقفها الكاتب الرومانى "سويتونيوس"، وتناولها بالشرح والتفصيـل عندمـا عـرض لحيـاة "أغسطس" (الفصل ٢٢) فأفصح عن تلك المناسبات فـى كـل حالـة: ففـى المرتـين الأولتين، دخل روما عقب معركة "فليباى" واحتفى بنصـره فـى الحـرب الصقليـة على "سكستوس بمبى" وفلول جيشـه، وقضائـه علـى القرصـان. أمـا فـى المـرات الثلاث التى كان احتفاله فيها بالنصر وهو جالس على كرسى من العاج، فكـانت أولاها فى مناسبة انتصاره فى حربه فى دالماشيا (الليريوم) وفـى المرتـين الأخريـين كان يحتفل بنصره على "كليوباترة" فى "أكتيوم" ثـم فـى الإسـكندرية. ومما هـو جدير بالملاحظة والذكر أن "أكتافيوس" أغفل ذكر اسم "كليوبـاترة" هنـا متعمـداً،

وكان لهذا الإغفال مغـزاه. على أن المؤرخ "ليفـي" كشـف لنـا الستار عـن هـذا الغموض المتعمد ، فألمح في صراحة في كتابه المختصـر (Epitome 33) إلى ذكـــر كل هذه التفاصيل على النحو الآتـــي: (Tres triumphos egit, unum ex Illyrico, alterum) ex Actiaca victoria, tertium de Cleopatra. وبذلك أغنانـا هـذا الكـاتب عـن الحاجـة إلى التأويل والتفسير، فذكر صراحة أن الاحتفال بـالنصر الأول بفضـل مـا كسـبه فـي "الليريوم" وأنه فـي الثـاني والثـالث كـان بفضـل مـا كسـبه فـي "أكتيـوم" وفـي الإسكندرية على "كليوباترة" في "نيقوبولس". وهكذا لم نحظ من قلم "أكتافيوس أغسطس" إلا بإشارة عابرة ومقتضبة إلى احتفاله بالنصر لتخليد ذكـرى ضـم مصـر لسلطان الشعب الروماني، فلم يفصح عن شيء من ذلك ، وإنما آثر أن يُجمل ذلك ضمن انتصاراته الأخرى. وإمعاناً في الاقتضاب وعـدم الرغبـة فـي الإفصـاح علـى النحو الذي درج عليه "أكتافيوس" إزاء "كليوباترة" وأبنائها، جاء في الفصل الرابع من الوثيقة الأنقيرية (سطر ٢٧- ٢٨) أنه في انتصاراته التي احتفل بـها كـان يسـير في الموكب أمام عربته ملوك وأبناء ملوك بلغ عددهم تسعاً. وقد عرفنا من مصـادر أخرى أن "بوليمون" "وهيرودس" "وأنطيوخوس" كانوا من بين هـؤلاء. وذكـر لنـا ديو (Dio, 51, 21.) أن ابنا وبنتاً "لكليوباترة" كانا كذلك من بين هؤلاء التسعة.

ومع كل تلك التفاصيل المسهبة والوظائف العديدة التي تولاها "أكتـافيوس" أو الإشارات إلى الشعوب والأجناس التي أخضعها أو ارتبـط معـها بروابـط الحلـف والصداقة، فإنه لم يشر ولو مرة واحدة فـي وثيقتـه الأنقيريـة هـذه إلى "كليوبـاترة" وأبنائها صراحة وبالاسم، ذلك أن خصومته لها كانت عنيـدة، وحربـه التـي أعلنـها عليها خصيصا كادت أن تهز كيانه وتعصف به. ولكنه آثـر ألا يذكـر "كليوبـاترة" بالاسم، ويقتصر على الإشارة إلى ذلـك الحـادث الجلـل وهـو ضـم مصـر لسـلطان الرومان وذلك بعبارة موجزة، جاءت عابرة في سياق سرده للحوادث فقـال جملتـه المأثورة هكذا (Aegyptum imperio populi Romani adieci) ، ومعناهـا "ضممـت مصر لسلطان الشعب الروماني"[1]. وقد جاء في عبارته هذه من الإغفـال والتعميـة ما جعل المؤرخين يتخبطون في تعرف ما تضمنته مـن المعـاني والأهـداف الدفينـة.

---

(1) Res Gestae Divi Augusti, chap. XXVII.

فقد ستر "أكتافيوس" وراء هذه العبارة أكثر من حقيقة يلحظها المؤرخ المدقق، وهى أن "أكتافيوس أغسطس" عندما دبّج هذا السجل التاريخى وأراد أن يُودع فى طياته جميع أسراره ومشاعره، لم يكن صريحاً كل الصراحة، ولم يقصد أن يتوخى فيما يكتب وما يصور من مشاعر ويكشف من أمور، ذكر كل الحقائق دون مواربة. إنه لم يكن ناسياً لمجرى الحوادث، على الرغم من تلك الفترة الطويلة التى مَرّت على أحداث "أكتيوم" وما تلاها، وكانت قد انقضت عند موته سنة ١٤م، فترة تقدر بنحو أربعة وأربعين عاماً منذ قيام الإمبراطورية . وهذه الفترة- على الرغم من طولها- ما كانت لتنسيه أحداث الأعوام الثلاثة المضطربة التى سبقت "أكتيوم" من ٣٣ حتى ٣١ق.م ثم عام ٣٠ق.م بالذات وفيه وقعت موقعة "نيقوبولس" بظاهر الإسكندرية (فى حى مصطفى باشا) وفيه توارت "كليوباترة" عن الأنظار إلى الأبد. وإنما هو الأسلوب البارع وطابع الرجل السياسى الحصيف الذى آثر أن يسيطر على الأحداث، فلا يقيم وزناً ولا شأناً لما عساه أن يثير هذا الماضى البغيض إلى نفسه، فيعيد بذلك إلى الأذهان موضوعاً حساساً طالما أقضّ مضجعه وشاء ألا يُذكر الناس "بكليوباترة" وابنها "قيصرون" ثم ما كان "لقيصر" من علاقة وثيقة بكليهما. إنه بلا ريب كان يبغى إسدال الأستار السميكة على كل هذا. ومن هنا جاء هذا الاقتضاب. ولعل هذا هو السر فى إشارته البارعة إلى حادث جَلَل هو ضم مصر بعبارة مقتضبة كل الاقتضاب المتعمد. وياليت الأمر اقتصر على هذا الاقتضاب فحسب، بل إنه تجنى على الواقع من ناحيتين، فهو لم يضم مصر حقاً إلى سلطان الشعب الرومانى ولم يجعل منها ولاية حقة على نسق غيرها من الولايات الرومانية (provinciae) ، وإنما جعلها ولاية من طراز فريد وأحاطها بسياج خاص بل واتخذ منها ضيعة خاصة له أو ما يشبه الضيعة، ووضع لها من الضمانات ما يكفل له دوام حكمها والمحافظة عليها، فاستن لها قواعد الحكم (arcana imperii) ما جنّبها الأخطار وأبعد عنها ذوى المآرب والأطماع. وقد قَصَر اختيار الحكام والولاة عليها (praefecti) على طبقة طيّعة هى طبقة الفرسان الرومان (equites) وحرّم على طبقة الشيوخ النابهين (optimates) وأعضاء البيت المالك فى روما أن تطأ أقدامهم أرض مصر أو يهبطوا إليها بقصد زيارتها، دون أن يحصلوا على إذن خاص منه بذلك، خشية منه على تلك الدرة اليتيمة فى تاج إمبراطوريته من أن يكدر صفوها أحد

أو يتخذ من موقعها الإستراتيجى الفذ وهى مفتاح البر والبحر (claustra terrae et maris) على حد قول المؤرخ "تاكيتوس"[1]، أداة يهدد منها الإمبراطورية أو يستأثر بها حاكم من الولاة. فكان بذلك حصيفاً بعيد النظر فيما اتخذه من ضمانات، ثم حرص خلفاؤه الأولون على اتباعها. ثم يعود هو فيتجنى مرة أخرى، عندما يؤثر عدم الإفصاح عن شيء وهو يتحدث عن ضم مصر فأغفل حقائق كثيرة فى هذه النبذة والخلاصات (breviarium) وكان أولى به أن يسرد أهم التفاصيل التى أدت إلى هذا الضم ، ليشبع بها نهم الباحث ويُوفى للأجيال التالية حقها من المعرفة. ذلك أن تفاصيل حادث ضم مصر لسلطان الشعب الرومانى لها أهميتها البالغة، لأن مصير الإمبراطورية قاطبة، بل ومستقبل العالم الرومانى برمته كان متوقفاً على نتيجة ذلك القتال الذى دار رحاه فى ""أكتيوم"". فكان أحرى به أن يذكر لنا أسباب ذلك القتال فى شيء من الصراحة، ويفسر للأجيال التالية وجهة النظر الرومانية وهى الوجهة الرسمية فى هذا الشأن، فيعرض للأسباب الحقيقية التى من أجلها شَنَّ الحرب على "كليوباترة" وحدها فى إصرار وعناد وحضّ العالم الغربى كله على أن يَصُبّ جام غضبه على الملكة "كليوباترة" بالذات. ولعل السر فى كل ذلك علمه علم اليقين بأن هذا هو السبيل الذى يتعين عليه أن يسلكه، وهو واثق كل الوثوق منه بأن هذا سيجر معه بالتبعية حليفها الأول وهو "أنطونيوس" وهذا هو بيت القصيد. وكان حرياً به كذلك أن يكشف عما ترامى إلى سمعه من أسباب فرار "كليوباترة" من المعركة فى "أكتيوم"، فيفضى إلينا بملخص عما تواترت به الإشاعات فى ذلك الحين، ويوفر بذلك علينا ما عسانا نقع فيه من تخبّط فى دياجير الحدس والتخمين عن تلك الوقائع بالذات.

تلك صفحات عابرة من مأساة "كليوباترة"، عرضنا لها بشيء من الشرح والتفصيل الدقيق. وهذا هو موقف العالم من هذه الملكة المصرية التى قسا عليها الدهر، فأثخنها بالطعنات والجراح حتى خرَّت كليمة. وهى الآن أحوج ما تكون إلى كلمة عدلٍ وإنصاف.

---

[1] Tacitus, Annals, II, chap. 59.

الرومان، وما يسفر عنه حل الأزمات بين رجال الحكم الثلاثي الثاني من أوضاع تؤثر في مستقبل مصر ، وإما لأن "كليوباترة" كانت طامعة في خير مرجو تسعى إلى تحقيقه من وراء ما كانت تنصبه من شباك أو تتورط فيه من مغامرات، كانت تسعى جاهدة في أن تُلقى فيها بدلوها في شيء كثير من الحيطة والحذر. وفي القليل النادر كانت "كليوباترة" تُساق لبعض هذه الأزمات بحكم ما لها من صلات وثيقة دون أن يكون لها فيها بطريق مباشر لا ناقة ولا جمل.

ولعل السر في أغلب ما كان يَعْترض سبيلها من أزمات مستحكمة هو أن ابنها "قيصرون" كان بمثابة همزة الوصل بينها وبين روما، ويُمثل حلقة الاتصال بين مصر وبين ما كان يجرى على مسرح السياسة العالمية. إنها اتخذت من "قيصرون" هذا في أول الأمر تكأة للوصول إلى بُغيتها وتحقيق أغراضها البعيدة المرمى. ومن هنا كانت أغلب غاياتها وأهدافها تقع خارج الحدود المصرية، فكبّدت نفسها من المشاق ما هو فوق طاقتها كيما تنال مجداً مؤثلاً وسؤدداً ورفعة، وتؤسس مُلكاً عريضاً يمت إلى "قيصر" وإلى حق ابنها منه في إرث أبيه. فكأنما هذا الابن هو في الحق الدافع الحقيقي والعامل الأول على إيقاظ تلك الآمال العريضة التي بنتها في خيالها وتصورتها في آفاق واسعة، ولم تر بأساً من تحقيقها، إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وعلى ذلك كان هذا الابن يُعتبر عبئاً على كاهلها، لأنها اتخذته محور تفكيرها الدائم ووجدت ألا مناص من أن تسعى إلى تصحيح وضع هذا الابن وإثبات بنوته وتثبيت مركزه على هذا الأساس. وهي في هذا السبيل لم تكن تتورع عن شيء، فأدى هذا إلى تورطها وركوبها متن الشطط. ثم مضت بعد ذلك في طريقها لا تلوى على شيء غير آبهة بما كان يجره عليها من متاعب لدى "أكتافيوس" أو غيره من عمالقة الرومان وساستهم الذين كانوا يبغضون الملكية في شتى صورها ويحقدون كثيراً على الملكة "كليوباترة" بالذات. ولعلها نسيت أو تناست أن "أكتافيوس" بالذات هو ربيب "قيصر" بحكم ما جاء في وصية الدكتاتور العظيم، وأنه بهذا الوصف كان ينظر شذراً إلى كل ما يقام في مصر من ادعاء بصدد بنوة "قيصرون" وما يُثار من أحقية هذا الابن في إرث "قيصر"، بل إن "أكتافيوس" كان يعتبر هذا الابن سُبّة في جبين أبيه "قيصر". وكلما تمادت "كليوباترة" في إبراز هذه الحقيقة ونفخت في هذا البوق وعمدت إلى اصطناع

الأعوان والأبطال الذين كانوا يضربون على هذا الوتر الحساس وينتصرون سراً وعلانية لدعوى "كليوباترة" وما تبسطه من أحقية تدعيها لابنها من "قيصر" بعد أن اشتد ساعده ونما وكبر، تكدرت العلاقات بينها وبين "أكتافيوس". وازدادت العداوة بُغضاً وسوءاً حتى ضاع الأمل كله فى عمل أى مهادنة أو مصالحة بينهما ، فكل طرف من الطرفين كانت مصالحه على النقيض من الآخر. وقد أصبحت "كليوباترة" فى آخر المطاف هى العدوة اللدودة "لأكتافيوس" الذى أعلنها عدوة للرومان (hostis) وخصّها بشن حرب شعواء عليها، لا بوصفها ملكة على مصر فحسب، بل لأنها أم لذلك المنافس الطبيعى "لأكتافيوس" فى إرث "قيصر". وعندئذ لم تأل الملكة جهداً فى سبيل الدفاع عن حق ابنها ، وكانت متفانية فى ذلك، وعاملة على كسب الحلفاء من بين صفوف الرومان أنفسهم لنصرة قضيتها. وكان على رأس هؤلاء جميعاً ذلك البطل المغوار "أنطونيوس" الذى كان له حتى النهاية فى نفوس نفر كبير من الرومان منزلة مرموقة ومركز ممتاز. ولما استحكمت حلقات الأزمة ، وتكشفت نوايا كل من الطرفين بطريقة سافرة، لم يعد بُدّ من حسم ذلك الخلاف فى ساحة القتال بخوض معركة برية أو بحرية أو كليهما معاً. وقد بانت أمارات كل هذا بشكل واضح جلى عندما ألقى "أنطونيوس" القفاز فى وجه خصمه بتطليق أخته "أكتافيا" وإقصائها عن بيت الزوجية فى روما، ثم إعلانه الزواج من غريمتها "كليوباترة"، واعترافه بأبنائه منها، وانتصاره "لقيصرون" والعمل على تثبيت وتدعيم مركز هؤلاء جميعاً، وعلى رأسهم "كليوباترة" بتوزيع الهبات التى اقتطعها من أملاك الرومان فى آسيا والشام، وأسبغها على زمرة من هؤلاء الأبناء. وعندئذ اتسعت هوة الخلاف، وضاع الأمل فى رتق الخرق وأصبح لا مفر عن امتشاق الحسام لفض هذا النزاع المستحكم.

وقد يحلو للمؤرخ المنصف أن يبحث وينُقّب فى خلفية هذه الصورة العامة، أملاً فى التعرف على الأسباب والمسببات وكشف الأستار عن معالم هذا الخلاف المحتدم الذى قسّم العالم القديم إلى شقين: قوى الشرق تجاه قوى الغرب، وقد ألّبت "كليوباترة" الشرق الهيللينستى ضد الغرب الرومانى، واستعدت بلدانه ، وأقامت الأرض وأقعدتها من أجل قضيتها وقضية ابنها الأكبر. وقد يكون هدف المؤرخ وبُغيته من وراء ذلك بذل محاولة تهدف إلى تلمس المعاذير والتصدى للدفاع عن

الملكة، فيصوغ من حولها إطاراً من المعاذير (apologia) ليدفع عنها أوجه الاتهام، ويكون هذا بمثابة إنصاف لقضيتها التى طلعت بها على العالم. وقد يتاح لهذا المؤرخ أن يسير شوطاً بعيداً فى البحث عن أسانيد تاريخية أو إشارات أدبية جاءت عابرة فى كتب السير وقصص الشعراء والكتاب، وجُلهم من الرومان واليونان. ومما يدعو للغرابة أنه ليس من بين هؤلاء جميعاً مصدر مصرى واحد، يمكن أن يُعتد به فى هذا الصدد. فلم يَجُد الزمان بشيء من هذا ليقص علينا وجهة النظر المصرية البحتة فى هذا الصراع، ونستطيع أن نتلمس من ثناياه أوجه الدفاع عن الطرف الثانى، وهو المصرى، وكان هذا لسوء الحظ هو الطرف المغلوب. وذلك فيما عدا عبارات تقليدية مما كان ينقش فى مناسبات التكريم والتكريس على حوائط المعابد والمقابر والبوابات، وما يُصور على العملة التى كانت الملكة تسكها بين حين وآخر لتسجيل أحداث جساماً أو بدء حقبة جديدة فى حكمها، وكانت تَضمنها صوراً لها ولأبنائها مع ذكر عبارات مقتضبة وبعض التواريخ للتوقيت، ثم ما كان يصدر عنها من أوامر ملكية (ta, prostagmata) صماء، صيغت كلها فى قوالب وصور مألوفة. وكانت هذه وتلك تتناول أخص شئون الحكم، وليس لها علاقة ما بتكتل القوى الداخلية فى البلاد ولا بتنظيم شئون الدفاع. فلم ترد بها أدنى إشارة، ولو خفية إلى ما كان يقلق بال الملكة، ويقض مضجعها طوال هذه السنين الطوال والعجاف ، مع أن الملكة لم تكن بأى حال خالية البال أو هادئة الفكر فى ذلك الحين. وهى فى واقع الأمر كانت قد نغَّصتها الأحداث وأرَّقت لياليها، فكان خصومها عديدين، وهم تارة من رجال البلاط المصرى الذين حرّضوا اخوتها وأخواتها على التنكر لها والبطش بها، وتارة أخرى كانوا من عظماء الرومان وأدبائهم من أمثال "شيشرون" الخطيب والشاعر اللامع . وعدد عديد من أعضاء السناتو الرومانى الذين ما فتئوا يسخرون منها ويندون بأساليبها ويكشفون عن مآربها ويفضحون نواياها ، وبذلك يقضون مضجعها.

وفوق هذا كله فلم يكن الزمان نفسه كريماً بها، بل قسا عليها أكثر من مرة. يوم أن سلبها "يوليوس قيصر" فى الرابع عشر (Ides) من شهر مارس سنة ٤٤ق.م، وقد أظلمت الدنيا فى وجهها إلى حين، إذ توارى حينئذ هذا الدكتاتور فجأة وهو فى عنفوان قوته وأوج عظمته، وكانت تطمع وتأمل فى ن يُحقق لها بعض مآربها.

ولكن القدر اختطفه منها بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من اتخاذ الخطوات الحاسمة لتصحيح وضعها ووضع ابنها منه، وكان "قيصر" إذ ذاك على أهبة الخروج لتنفيذ برنامجه العسكرى الهائل ، وفى طياته كان يزمع تحقيق ما انتوى عليه مع الملكة، ولكنه أخذ هذا السر الدفين معه إلى قبره. وقد فجعت فيه "كليوباترة"، إذ رأته بين عشية وضحاها يخر صريعاً ومجندلاً فى أحد أروقة ودهاليز مجلس الشيوخ الرومانى. وكانت الملكة تقيم إذ ذاك على مقربة من مكان مصرعه وتنزل بقصره على ضفاف نهر التيبر في روما، فوقع خبر هذه الفاجعة الأليمة عليها كالصاعقة وكاد يزلزل كيانها ويُحطم قواها. ولكنها لم تيأس ولم يَهِن منها العظم وإنما صهرتها تلك الأحداث الجسام، بعد أن كادت تُودى بها. وبعد مصرع "قيصر" ساد الصخب فى روما وانتاب الرومان حالة من الاضطراب والأسى لهول الفاجعة الأليمة. وكان "ماركوس أنطونيوس" متولياً وظيفة "سيد الفرسان" (magister equitum) وهى ثانى وظيفة بعد الدكتاتور ، وقد كشف النقاب عن هذه الحالة فى خطبته التأبينية فأفصح عن فحوى المشاعر التى تملكت الشعب الرومانى وأن النفوس كانت تغلى غليان المرجل وتتأجج فيها النيران. وأخشى ما كان يخشاه المؤيدون "لقيصر" والموالون للملكة هو أن يتحول هذا الغضب نحو "كليوباترة"، فينفجر بركانه فى وجهها، ويلحق بها بعض الأذى فى هذا الجو المكفهر. ولذلك رؤى إنه من الخير أن تُعجل الملكة بالفرار من روما خِفية، وتعود إلى الإسكندرية لتعيش بمنأى عن هذه الأحداث الصاخبة. فهل طال مقامها فى أمان وسكينة؟ كلا، إنها كانت ترقب الأحداث العالمية بعين حذرة، وتنتظر ما يمكن أن تتمخض عنه تصرفات الحدثان. ولا يستطيع أحد أن يقول إن التطورات التى كانت تجرى فى العالم الرومانى، والقتال الناشب فى بلاد اليونان بين طرفى النزاع: الحزب الجمهورى والقتلة من ناحية والآخذون بالثأر من هذا الحزب الجمهورى من ناحية أخرى -كل ذلك لا يعنيها فى شيء أو أنه بعيد عن عقر دارها. كان فى الحق صالح ابنها "قيصرون"، وهو لم يكن قد تخطى بعدُ سن الطفولة، إذ كان يبلغ من العمر نحو أربع سنين، متوقفاً على مصير تلك الحرب الناشبة. ولم يقتصر الأمر على مستقبل هذا الابن وحده، بل إن استقلال مصر نفسه وتحقيق البرنامج الذى كانت تنتويه الملكة- كل هذا كان متوقفاً كذلك على الكفاح الذى خاض غماره

طرفا النزاع من الرومان في موقعة "فيليباى" ببلاد اليونان سنه ٤٣ق.م. وهكذا قضت الملكة نحو عام فى الإسكندرية عقب فرارها من روما فى حالة شديدة من القلق والاضطراب. إنها كانت تخشى أن تُقدم رجلاً أو تؤخر أخرى، فتسيء إلى أحد الجانبين، وبذا يضيع حقها وتفقد المكاسب التى كانت تعلل النفس بالأمل فى تحقيقها. وقد أتيح لها بفطنتها وكياستها أن تتلمس سبيلها، فتخرج من هذه الأزمة منتصرة. فقد نَقبت فى جُعبتها فوجدت بعضاً من المبررات والمعاذير التى قد تشفع لها وتفسر موقف حيادها المريب، الذى اعتبر على أقل تقدير أنه كان يتسم بالجمود وتعوزه المروءة وعدم الوفاء. ولكن اعتزازها بنفسها وبكفايتها وثقتها فى عدالة مطلبها – ساعد كل هذا على خروجها من أزمتها هذه قوية الجانب، يبتسم لها المستقبل مرة أخرى، وتتطلع إلى تحقيق أحلامها. فكان "أنطونيوس" نفسه وهو بطل معركة "فليباى" هو الناصر الأمين لها والعون المدخر لمستقبلها فى العشر سنين التالية، وهو البطل الذى أمّن جانبها وتبنى قضيتها علانية متحدياً فى ذلك العالم الرومانى، وكان نِعْم المدافع والحليف ثم فى آخر المطاف نعم الزوج الوفى والحبيب المتفانى.

وعلى هذا النحو جاء تاريخ هذه الملكة بالذات فى جملته مُترعاً بالأحداث الجسام والمتزاحمة، وحادياً للغث بل والسمين منها، ومفعماً بالعظات والأخطاء. ولكن فيه من الجدّية الشيء الكثير، كما أن فيه كذلك من المساخر والترهات والمظاهر البراقة والخلابة ما جعل المؤرخ يتيه فى بيداء من القصص التاريخى والروائى الذى قد يأخذ بالألباب، ولكنه لا يغنى ولا يسمن من جوع. وسيبقى تاريخ الملكة "كليوباترة" على مرّ الزمان متعة للقارئ وفيه من الخلجات والمشاعر ما يستهوى الكتاب والمؤرخين على السواء. ولن يكف هؤلاء عن أن يلقى كل واحد منهم بدلوه، عله يصيب كبد الحقيقة أو يكشف عن الجوانب الخفية من حياة "كليوباترة" بتسليط أضواء جديدة عليها. ولن يَمل القارئ من مطالعة هذه الصفحات الخالدة ، ليشبع نهمه ويستجلى هذه المشاعر الإنسانية فى أجمل وأجلّ صورها ، وذلك بعد أن طويت صحيفتها إلى الأبد فى آخر أغسطس من عام ٣٠ ق.م بانتحارها فى شجاعة منقطعة النظير.

وبعد أن انقضت سنوات عديدة على وفاة "كليوباترة" ، أخذت الأصداء الخافتة تُسمع عن مصر وأحوالها ضمن السجلات الرسمية؛ وكان منها ما دوّنه أكبر شخصية فى عصره، وذلك هو "أكتافيوس أغسطس" الذى تناول فى وثيقته الأنقيرية (Monumentum Ancyranum) موضوعات متفرقة ، أحاط فيها إحاطة شاملة بمعالم السياسة التى عُوّل على انتهجها، وضمّنها سجل حياته. وقد لخص فيها أهم أعماله المجيدة فى أوقات السلم والحرب على السواء (Res Gestae divi Augusti) وعرض لحروبه المختلفة التى خاضها إما بنفسه أو بواسطة قواده ومندوبيه (Legati) وكان من بين هذه الحروب بالطبع حربه ضد "كليوباترة". وذكر قواعده التى اتكأ عليها فى البر والبحر وبيان الشعوب والأجناس التى أخضعها، والقرصان الذين أمَّن البحر من شرورهم وآثامهم، وعدَّد المنشآت العمرانية التى شيّدها والمعابد المختلفة التى كرّسها لشتى الآلهة فى روما وفى خارجها، ثم الألعاب الرومانية والتقليدية بأجيالها (Ludi Romani et Ludi Saeculares) التى أقامها. كما سرد تلك المناسبات المختلفة التى أغدق فيها على جنده وعلى عامة الرومان الشئ الكثير من المنح والعطايا التى أجزلها لهم، وكان بعضها من إرث أبيه وبعضها الآخر من جيبه الخاص. وقد أسهب فى ذكر الألقاب والوظائف المدنية والعسكرية والدينية التى أسبغت عليه تارة من مجلس الشيوخ الرومانى أو من مجالس العامة، منذ مطلع شبابه وهو لا يزال يافعاً فى التاسعة عشرة من عمره إلى مماته سنة ١٤م. وكان بعض هذه الألقاب والوظائف من قبيل التكريم البحت، بينما كان البعض الآخر منها من واقع سلك الوظائف الرومانية (cursus honorum). فأسبغ عليه الرومان لقب أب الوطن (Pater Patriae) ووكلوا إليه رعاية الأخلاق العامة والعمل على أن يجتث الفساد ويعيد العادات السليمة التى حافظ عليها الآباء وتوارثها الرومان.

وفى ثنايا كل هذا الفيض العظيم فى هذا السجل لم يُغفل مصر وما أحرزه من انتصارات على ملكتها "كليوباترة"، بل كانت إشارته إلى ذلك بارعة وعابرة. وعندما عرض لحفلات النصر التى أقامها فى روما، والمناسبات فى كل حالة، ذكر أنها فى مرتين كانت من النوع الذى يسير فيه القائد المظفر ممتطياً صهوة جواده

(bis ovans) وفى ثلاث مرات أخرى كانت من النوع الذى يجلس فيه القائد على كرسى من العاج (curulis). وهاك نص العبارة اللاتينية التى وردت فى الفصل الرابع من هذه الوثيقة الأنقيرية: Bis ovans triumphavi, tris egi curulis (triumphos.) ، وفى طيات هذه العبارة المقتضبة معان كثيرة وإشارات عديدة تلقفها الكاتب الرومانى "سويتونيوس"، وتناولها بالشرح والتفصيل عندما عرض لحياة "أغسطس" (الفصل ٢٢) فأفصح عن تلك المناسبات فى كل حالة: ففى المرتين الأولتين، دخل روما عقب معركة "فليباى" واحتفى بنصره فى الحرب الصقلية على "سكستوس بمبى" وفلول جيشه، وقضائه على القرصان. أما فى المرات الثلاث التى كان احتفاله فيها بالنصر وهو جالس على كرسى من العاج، فكانت أولاها فى مناسبة انتصاره فى حربه فى دالمنيا (الليريوم) وفى المرتين الأخريين كان يحتفل بنصره على "كليوباترة" فى "أكتيوم" ثم فى الإسكندرية. ومما هو جدير بالملاحظة والذكر أن "أكتافيوس" أغفل ذكر اسم "كليوباترة" هنا متعمداً، وكان لهذا الإغفال مغزاه. على أن المؤرخ "ليفى" كشف لنا الستار عن هذا الغموض المتعمد ، فألمح فى صراحة فى كتابه المختصر (Epitome 33) إلى ذكر كل هذه التفاصيل على النحو الآتى: (Tres triumphos egit, unum ex IIlyrico, alterum ex Actiaca victoria, tertium de Cleopatra.) وبذلك أغنانا هذا الكاتب عن الحاجة إلى التأويل والتفسير، فذكر صراحة أن الاحتفال بالنصر الأول بفضل ما كسبه فى "الليريوم" وأنه فى الثانى والثالث كان بفضل ما كسبه فى "أكتيوم" وفى الإسكندرية على "كليوباترة" فى "نيقوبولس". وهكذا لم نحظ من قلم "أكتافيوس أغسطس" إلا بإشارة عابرة ومقتضبة إلى احتفاله بالنصر لتخليد ذكرى ضم مصر لسلطان الشعب الرومانى، فلم يفصح عن شيء من ذلك ، وإنما آثر أن يُجمل ذلك ضمن انتصاراته الأخرى. وإمعاناً فى الاقتضاب وعدم الرغبة فى الإفصاح على النحو الذى درج عليه "أكتافيوس" إزاء "كليوباترة" وأبنائها، جاء فى الفصل الرابع من الوثيقة الأنقيرية (سطر ٢٧- ٢٨) أنه فى انتصاراته التى احتفل بها كان يسير فى الموكب أمام عربته ملوك وأبناء ملوك بلغ عددهم تسعاً. وقد عرفنا من مصادر أخرى أن "بوليمون" "وهيرودس" "وأنطيوخوس" كانوا من بين هؤلاء. وذكر لنا ديو (Dio, 51, 21.) أن ابنا وبنتاً "لكليوباترة" كانا كذلك من بين هؤلاء التسعة.

ومع كل تلك التفاصيل المسهبة والوظائف العديدة التى تولاها "أكتافيوس" أو الإشارات إلى الشعوب والأجناس التى أخضعها أو ارتبط معها بروابط الحلف والصداقة، فإنه لم يشر ولو مرة واحدة فى وثيقته الأنقيرية هذه إلى "كليوباترة" وأبنائها صراحة وبالاسم، ذلك أن خصومته لها كانت عنيدة، وحربه التى أعلنها عليها خصيصاً كادت أن تهز كيانه وتعصف به. ولكنه آثر ألا يذكر "كليوباترة" بالاسم، ويقتصر على الإشارة إلى ذلك الحادث الجلل وهو ضم مصر لسلطان الرومان وذلك بعبارة موجزة، جاءت عابرة فى سياق سرده للحوادث فقال جملته المأثورة هكذا (Aegyptum imperio populi Romani adieci) ، ومعناها "ضممت مصر لسلطان الشعب الرومانى"[1]. وقد جاء فى عبارته هذه من الإغفال والتعمية ما جعل المؤرخين يتخبطون فى تعرف ما تضمنته من المعانى والأهداف الدفينة. فقد ستر "أكتافيوس" وراء هذه العبارة أكثر من حقيقة يلحظها المؤرخ المدقق، وهى أن "أكتافيوس أغسطس" عندما دبّج هذا السجل التاريخى وأراد أن يودع فى طياته جميع أسراره ومشاعره، لم يكن صريحاً كل الصراحة، ولم يقصد أن يتوخى فيما يكتب وما يصور من مشاعر ويكشف من أمور، ذكر كل الحقائق دون مواربة. إنه لم يكن ناسياً لمجرى الحوادث، على الرغم من تلك الفترة الطويلة التى مرّت على أحداث "أكتيوم" وما تلاها، وكانت قد انقضت عند موته سنة ١٤م، فترة تقدر بنحو أربعة وأربعين عاماً منذ قيام الإمبراطورية . وهذه الفترة- على الرغم من طولها- ما كانت لتنسيه أحداث الأعوام الثلاثة المضطربة التى سبقت "أكتيوم" من ٣٣ حتى ٣١ق.م ثم عام ٣٠ق.م بالذات وفيه وقعت موقعة "نيقوبولس" بظاهر الإسكندرية (فى حى مصطفى باشا) وفيه توارت "كليوباترة" عن الأنظار إلى الأبد. وإنما هو الأسلوب البارع وطابع الرجل السياسى الحصيف الذى آثر أن يسيطر على الأحداث، فلا يقيم وزنا ولا شأناً لما عساه أن يثير هذا الماضى البغيض إلى نفسه، فيعيد بذلك إلى الأذهان موضوعاً حساساً طالما أقضّ مضجعه وشاء ألا يُذكر الناس "بكليوباترة" وابنها "قيصرون" ثم ما كان "لقيصر" من علاقة وثيقة بكليهما. إنه بلا ريب كان يبغى إسدال الأستار السميكة على كل هذا. ومن هنا جاء هذا

---

(١) Res Gestae Divi Augusti. chap. XXVII.

الاقتضاب. ولعل هذا هو السر فى إشارته البارعة إلى حادث جَلَل هو ضم مصر بعبارة مقتضبة كل الاقتضاب المتعمد. وياليت الأمر اقتصر على هذا الاقتضاب فحسب، بل إنه تجنى على الواقع من ناحيتين، فهو لم يضم مصر حقاً إلى سلطان الشعب الرومانى ولم يجعل منها ولاية حقة على نسق غيرها من الولايات الرومانية (provinciae) ، وإنما جعلها ولاية من طراز فريد وأحاطها بسياج خاص بل واتخذ منها ضيعة خاصة له أو ما يشبه الضيعة، ووضع لها من الضمانات ما يكفل له دوام حكمها والمحافظة عليها، فاستن لها قواعد الحكم (arcana imperii) ما جنّبها الأخطار وأبعد عنها ذوى المآرب والأطماع. وقد قَصَّر اختيار الحكام والولاة عليها (praefecti) على طبقة طيّعة هى طبقة الفرسان الرومان (equites) وحرّم على طبقة الشيوخ النابهين (optimates) وأعضاء البيت المالك فى روما أن تطأ أقدامهم أرض مصر أو يهبطوا إليها بقصد زيارتها، دون أن يحصلوا على إذن خاص منه بذلك، خشية منه على تلك الدرة اليتيمة فى تاج إمبراطوريته من أن يكدر صفوها أحد أو يتخذ من موقعها الإستراتيجى الفذ وهى مفتاح البر والبحر (claustra terrae et maris) على حد قول المؤرخ "تاكيتوس"[1]، أداة يهدد منها الإمبراطورية أو يستأثر بها حاكم من الولاة. فكان بذلك حصيفاً بعيد النظر فيما اتخذه من ضمانات، ثم حرص خلفاؤه الأولون على اتباعها. ثم يعود هو فيتجنى مرة أخرى، عندما يؤثر عدم الإفصاح عن شيء وهو يتحدث عن ضم مصر فأغفل حقائق كثيرة فى هذه النبذة والخلاصات (breviarium) وكان أولى به أن يسرد أهم التفاصيل التى أدت إلى هذا الضم ، ليشبع بها نهم الباحث ويُوفى للأجيال التالية حقها من المعرفة. ذلك أن تفاصيل حادث ضم مصر لسلطان الشعب الرومانى لها أهميتها البالغة، لأن مصير الإمبراطورية قاطبة، بل ومستقبل العالم الرومانى برمته كان متوقفاً على نتيجة ذلك القتال الذى دار رحاه فى ""أكتيوم"". فكان أحرى به أن يذكر لنا أسباب ذلك القتال فى شيء من الصراحة، ويفسر للأجيال التالية وجهة النظر الرومانية وهى الوجهة الرسمية فى هذا الشأن، فيعرض للأسباب الحقيقية التى من أجلها شَنَّ الحرب على "كليوباترة" وحدها فى إصرار وعناد وحضّ العالم الغربى

---

(١) Tacitus, Annals, II, chap. 59.

كله على أن يَصُبّ جام غضبه على الملكة "كليوباترة" بالذات. ولعل السر فى كل ذلك علمه علم اليقين بأن هذا هو السبيل الذى يتعين عليه أن يسلكه، وهو واثق كل الوثوق منه بأن هذا سيجرٍ معه بالتبعية حليفها الأول وهو "أنطونيوس" وهذا هو بيت القصيد. وكان حرياً به كذلك أن يكشف عما ترامى إلى سمعه من أسباب فرار "كليوباترة" من المعركة فى "أكتيوم"، فيفضى إلينا بملخص عما تواترت به الإشاعات فى ذلك الحين، ويوفر بذلك علينا ما عسانا نقع فيه من تخبّط فى دياجير الحدس والتخمين عن تلك الوقائع بالذات.

تلك صفحات عابرة من مأساة "كليوباترة"، عرضنا لها بشيء من الشرح والتفصيل الدقيق. وهذا هو موقف العالم من هذه الملكة المصرية التى قسا عليها الدهر، فأثخنها بالطعنات والجراح حتى خرّت كليمة. وهى الآن أحوج ما تكون إلى كلمة عدلٍ وإنصاف.

ثبت بأهم الأحداث والتواريخ
فى تاريخ مصر البطلمية وجاراتها

نظراً لتداخل الأحداث وارتباط ما كان يجرى فى مصر البطلمية بما كان يقع فى البلدان المجاورة التى تخلفت عن إمبراطورية "الإسكندر" بعد تقسيمها بين نفر من القواد ، ونظراً للصعوبات التى قد تواجه الباحث فى هذا التيه فقد آثرنا أن نشفع هذا البحث بقوائم بها أهم الأحداث على الصعيد المصرى ثم فى العالم المحيط بمصر فى تلك الحقبة مع نبذة مقتضبة لربط الأحداث وعمل تصور شامل منذ وفاة "الإسكندر" الأكبر فى ١٣ يونيو من عام ٣٢٣ ق.م.

أولاً : خلفية ضرورية موجزة :

- كان "برديكاس" (Perdiccas) هو الخليفة على هذه الإمبراطورية والممثل الرسمى عن "فيليب" الثالث الملقب "اريدايوس" (٣٢٣ ق.م – ٣١٦/٣١٧ ق.م) ، وعن الابن المولود وهو "الإسكندر" الرابع بعد وفاة "الإسكندر" الأكبر (٣٢٣-٣١٠/٣٠٩ ق.م).
- وقد أصبح "بطلميوس" بن لاجوس هو الوالى على مصر ويحمل فى أول الأمر لقب ساترب (Satrap) أى "مرزبان" ، وله سياسة معلومة ومرسومة اتبعها طوال فترة ولايته ، وعرفت هذه بالسياسة الساتربية (Satrapenpolitik) باللغة الألمانية الحديثة. وكان "بطلميوس" هذا واحداً من أقرب المقربين من قيادة "الإسكندر" إلى نفسه ، ووضع مصر ضمن طموحاته السياسية ، ولم يلبث أن تخلص من "كليومينيس" (Cleomenes)، الذى كان من أشهر التجار من أهل "نقراطيس". وكان "الإسكندر" قد عيّنه ليشرف على مالية البلاد المصرية ولكنه مالبث أن استغل نفوذه وأخذ يتاجر فى الغلات وفى أقوات الناس فحكم عليه "بطلميوس" بالإعدام ثم جاء بعد ذلك مقتل "برديكاس" فى أثناء هجومه على مصر لتأديب "بطلميوس" الذى كان قد خرج عليه وعصى أمره.
- "أنتيباتر" يعين بدلا من "برديكاس" نائبا عن هذا الملك العريض.

ثانياً : هاك تواريخ ثابتة :

٣٢٠-٣١٨ ق.م "بطلميوس" يغزو سوريا الجوفة (سهل البقاع - لبنان).

٣١٩ ق.م تعيين "بوليبرخون" نائبا وممثلا عن هذا الملك بعد موت "أنتيباتر" ٣١٩ ق.م كان كل من "بطلميوس" ، "وأنتيجونوس" ، "وكساندر" ، "وليسيماخوس" وآخرون يعصون أمر "بوليبرخون" ويشقون عصا الطاعة عليه باعتباره وصياً.

٣١٧ ق.م أم "الإسكندر" وهى المسماه "أوليمبياس" دبرت مقتل "فيليب أريدايوس" و ""الإسكندر" الرابع" يعتبر ملك العالم الأوحد وبالتالى ملك مصر.

٣١٥ ق.م "بطلميوس" يغزو قبرص.

٣١٥-٣١١ ق.م نشوب حرب شعواء يشترك فيها نفرن من خلفاء "الإسكندر" من بينهم "بطلميوس".

٣١٣ ق.م "بطلميوس" يقمع ثورة نشبت فى برقة.

٣١٠-٣٠٩ ق.م "الإسكندر" الرابع وأمه الفارسية "روكسانا" يقتلان ويتواريان بناء على أوامر صادرة من "كاسندر".

٣١٠-٣٠٨ ق.م "بطلميوس" الأول يحاول عبثاً إحياء حلف كورنثه وإعادة هذا الحلف إلى سيرته الأولى.

٣٠٩ ق.م موت أوفيلاس حاكم برقة.

٣٠٨ ق.م مولد "بطلميوس" الثانى فى جزيرة قوص (kωs) - عودة برقة إلى "بطلميوس".

٣٠٧ ق.م "ديمتريوس" المحاصر (Poliorketes) يغزو أثينا ، وعلى أثر ذلك يفر حاكمها المسمى "ديمتريوس" الملقب بـ "بالفاليرى" (نسبة إلى مرفأ فاليروم أحد موانى أثينا) ، ويلجأ الأخير إلى بلاط "بطلميوس" الأول فى سنة ٢٩٩ ق.م

، وهذا الفار كان فيلسوفاً ومشرعاً وبان أثره فـى كثـير مـن القوانين والتشريعات التى صدرت فى مصر إذ ذاك فـأصبح اسم "ديمتريوس الفاليرى" ملحوظاً فى السياسة البطلمية فى هذا العهد الأول ، وكان يحظى بعطف كبير مـن قبـل الملـك بلطميوس الأول.

٣٠٦ ق.م تحطيم الأسطول المصرى بواسطة "ديمتريوس" المحاصر فى مرفأ "سلاميس" فى جزيرة قبرص. أعلن كل من "أنتيجونـوس" الأعور "وديمتريوس" نفسه ملكاً.

٣٠٥-٣٠٤ ق.م "بطلميوس" الأول يعلن نفسه ملكاً افتداءاً بما فعله كل من "سلوقوس" "وليسيماخوس" "وكاسندر" فى بلادهم.

٣٠٠-٢٩٨ ق.م يتزوج "ليسيماخوس" (Lysimachus) من "أرسينوى" ابنـة "بطلميوس" الأول.

٢٩٨ ق.م يقـوم "ماجـاس" وهـو الأخ غـير الشـقيق "لبطلميـوس" باسترداد برقة لحساب "بطلميوس".

٢٩٧ ق.م فرار "ديمتريوس الفاليرى" إلى بلاط "بطلميوس" الأول.

٢٩٦ ق.م استيلاء "بطلميوس" على قبرص.

٢٩٢ ق.م موت الكاتب الساخر "ميناندر" فـى أثينـا ، وكـانت سمعتـه ورواياته المسرحية محببة فى مصر ، وعرفـت منـها مسـرحية "الفـظ" المنطـوى علـى نفسـه (Dysklos) ، والمـرأة المحترفـة والمرأة الحليقة (Epikeiromene) وغيرها.

٢٨٧ ق.م ابتداء عبادة الإله "سيرابيس" فى مصر ، وكان لهذه العبـادة شأن عظيم فى تدعيم سياسـة الحكـم فـى مصـر البطلميـة. وكان لها أهميـة فـى توثيـق الروابـط وجمـع شمـل اليونـان والمصريين فى صعيد واحد فـهم يتعبـدون لإلـه واحـد هـو الذى أنشـأه ,"وابتدعـه بطلميـوس" الأول وبنـى لـه معـابد كثيرى فى جميع أرجاء مصر ، ويرجع أصله إلى (+ Osiris

Apis) ، ومعابده هى السرابيومات (Serapeum-Serapea) فى الإسكندرية وفى حواضر الأقاليم بجميع أنحاء مصر وفى قراها وتُعد هذه بالعشرات ، ثم مالبث أن انتشرت عبادته فى الخارج فى البلدان التابعة لمصر.

٢٨٦ ق.م "بطلميوس" الأول يحتل مدينة صور ومدينة صيدا.

٢٨٥ ق.م * "بطلميوس" الثانى يصبح شريكاً مع أبيه فى الملك فى الفترة مابين مارس وأبريل من هذا العام ثم يتقاعد "بطلميوس" الأول ويعتزل نهائياً لصالح ابنه ، ثم تجئ "بطلميوس" الصاعقة - "كيراونوس" (Ceraunus) وهو أخ غير شقيق لبطلميوس الثانى ، وكان الابن الأكبر لبطلميوس الأول ينسحب ويذهب إلى بلاط "ليسيماخوس" فى تراقيا.

* عقد معاهدة بين "بطلميوس" الثانى وأحد ملوك الهند ، وقيام "ليسيماخوس" بغزو بايونيا (رومانيا حالياً) وبالاستيلاء على تساليا شمال شرق بلاد اليونان.

٢٨٤ ق.م تتويج "بطلميوس" الثانى فرعوناً على مصر فى يوم ٢٩ من شهر يونيه.

٢٨٣ ق.م موت "بطلميوس" الأول.

يقوم "بطلميوس" الثانى بتنظيم عبادة الملك الحاكم (ruler-cult) على النسق البطلمى والنسق الفرعونى.

يودع "بطلميوس" الثانى الفيلسوف "ديمتريوس الفاليرى" السجن، وقيل أنه هو الذى أمر بإعدامه ، وهكذا جوزى هذا الفيلسوف جزاء سنمار.

٢٨٠ ق.م نشأة الأعياد البطلمية ، وهى عيد يسمى (Ptolemaia) أو (Pentaeteres) ، وكان يحتفى به كل خمس سنوات ، ولهذه الأعياد والمهرجانات مابعدها مما كانت تشهده مدينة الإسكندرية بين حين وآخر. ثم تم بناء فنار فاروس على

جزيرة فاروس قرابة هذا العام فكان أحد عجائب الدنيا ، ويسر الملاحة البحرية بإرشاد السفن والملاحين عند الرسو فى ميناءى الإسكندرية وهما الميناء الشرقية والغربية (Eunostus) بعد بناء جسر الهيبتاستاديون ذى السبعة فراسخ.

٢٨٠-٢٧٩ ق.م تنشب حرب ضروس بين "بطلميوس" الثانى "وأنطيوخوس" الأول. ويستمر العمل فى تطهير القناة الواقعة بين النيل قرب السويس والبحر الأحمر (بحر القلزم). وهذه القناة ترجع إلى عهد الفراعنة ، وكانت قد سدت فقام "بطلميوس" الثانى بتطهيرها.

٢٧٩ ق.م عودة "أرسينوى" أرملة "ليسيماخوس" ملك تراقيا (Thrace) إلى موطنها فى مصر لدى أخيها الذى يتزوجها بعد ذلك بقليل (٢٧٨-٢٧٤ق.م) أسوة بزواج الإله "أوزوريس" من أخته "إيزيس" فكان هذا التصرف من جانب "بطلميوس" الثانى لفتة كريمة لم تغب على فطنة المصريين واعتبرت إشارة من الملك بعزمه على التقرب من عقائد المصريين ، وكانت حركة سياسية بارعة قصد بها فى أغلب الظن توثيق الصلات بين الأسرة المالكة وبين المصريين(*).

طلق "بطلميوس" الثانى زوجته الأولى ، وكان اسمها كذلك ارسينوى ، وهى ابنة الملك "ليسيماخوس" ملك تراقيا ثم نفاها إلى فقط وعقد زواجه على "أرسينوى" الثانية فى الفترة مابين ٢٧٨-٢٧٤ ق.م.

• هذه الآراء من بنات أفكارنا نحن ومحاولة منا للكشف عن نوايا الملك البطلمى إزاء تصرفه الغريب هذا والخارج على تراثه وعلى حضارة اليونان كلها حيث لم يثبت أنهم تزوجوا يوما ما بأخواتهم.

٢٧٤-٢٧١ ق.م تنشب الحرب السورية الأولى بين "بطلميوس" الثانى "وأنطيوخوس" الأول ثم يبعث "بطلميوس" الثانى بقوات يقودها قواد من قبله. أما هو فقد آثر أن يقبع فى مصر يدبر شئون حكومته البيروقراطية ويتعرف على مجريات الأمور فيها.

٢٧٤ ق.م ماجاس حاكم برقة وهو أخ غير شقيق "لبطلميوس" يتحالف مع عدو مصر "أنطيوخوس" الأول من قبيل الكيد لمصر. "بطلميوس" الثانى يحتل بضع نقاط على السواحل الغربية لآسيا الصغرى ويتخذ منها موطئ قدم للتوسع فى الداخل.

٢٧٣ ق.م إيفاد بعثة مصرية من قِبَل "بطلميوس" الثانى إلى روما لإعلان الصداقة (amicitia) التى تربط مصر بروما ، وكانت هذه حركة بارعة تنم عن بعد النظر فى السياسة المصرية التى آثرت اتخاذ موقف محايد ، وانطوت على عدم تقديم العون والمساعدة لجارة إفريقية تقع فى الغرب من مصر ، وهى قرطاجة (تونس حالياً) "Carthaga"، وكانت إذ ذاك فى حالة حرب مع دولة فتية هى روما ، وتعرف هذه بالحرب البونية الأولى (٢٦٤-٢٤٢ق.م) ، وانتهت بهزيمة قرطاجة. ويعتبر اتخاذ "بطلميوس" الثانى لهذا الموقف المحايد فى معترك سياسة عالمية كهذه عملا سياسياً بارعاً.

٢٦١ ق.م إتمام الصلح بين "بطلميوس" الثانى "وانتيجونوس جوناتاس". موت "أنطيوخوس" الأول فى الأول أو الثانى من شهر يونيه من هذا العام وخلفه ابنه "أنطيوخوس" الثانى الملقب بالإله (Theos).

٢٦٠-٢٥٣ ق.م نشوب الحرب السورية الثانية ووقوف مصر ضد كل من مقدونيا وسوريا فى عهد ملكها "أنطيوخوس" الثانى.

٢٥٣ ق.م	إتمام الصلح بين "بطلميوس" الثانى وأنطيوخوس الثانى على أن تصبح إفسوس (Ephesus) وميليتوس (Miletus) بآسيا الصغرى مدينتين سلوقيتين.
٢٥٣-٢٥٢ ق.م	"برنيقة" (Berenike) إبنة "بطلميوس" الثانى تتزوج من "أنطيوخوس" الثانى بعد أن يطلق زوجته الأولى (لاوديكى). ويذهب الملك "بطلميوس" الثانى لوداع ابنته حتى الحدود الشرقية لمصر ثم تصحبها بعثة شرف يرأسها "أبوللونيوس" وزير مالية "بطلميوس" الثانى حتى تصل إلى سوريا وتزف إلى ملكها هناك.
٢٤٦ ق.م	موت "بطلميوس" الثانى فى شهر يناير وموت "أنطيوخوس" الثانى فى الربيع من نفس العام فى إفسوس. "سلوقوس" الثانى يخلف "أنطيوخوس" الثانى ويوافق على أن تقوم أمه "لاوديكى" بقتل غريمتها "برنيقة". "بطلميوس" الثالث يخلف "بطلميوس" الثانى ويسارع لتوه لنجدة أخته دون جدوى، ويعلن الحرب على "سلوقوس" الثانى ويتقدم إلى مملكة بابل ويحرز انتصارات باهرة ويثبّت أقدامه فى بعض المدائن الواقعة على ساحل تراقيا وفى سلوقيا وفى فلسطين وفى أجزاء كبيرة من الأقاليم المطلة على ساحل آسيا الصغرى. وقبل إتمام هذا البرنامج عقد زواجه على "برنيقة" من برقة وكانت هدية زواجها ضم برقة إلى مصر.
	الشاعر البرقاوى المشهور "كاليماخوس" يدبج قصيدة عصماء عنوانها "خصلة شعر "برنيقة"" ، وكانت هذه الملكة قد قصّت هذه الخصلة من شعرها وقدمتها قرباناً للإلهة "إيزيس" بمعبدها بأبى قير متوسلة إليها بأن تعيد لها زوجها سالما من حروبه فى آسيا.

٢٤٦-٢٢١ ق.م مدة حكم "بطلميوس" الثالث الملقب "بفاعل الخير"يورجتيس" الأول.

٢٤٦-٢٤١ ق.م الحرب السورية الثالثة تمتد أربع سنوات بين "بطلميوس" الثالث "وسلوقوس" الثانى.

٢٤٥ ق.م فى أثناء هذه الحرب يضطر "بطلميوس" الثالث إلى العودة إلى مصر بسبب اشتعال ثورة وقيام حركة عصيانية لم تدم طويلا إذ أسرع بإخمادها.

٢٤١ ق.م الكهنة المصريون يلتئم جمعهم وشملهم بدعوة من الملك فى مجمع يعقد بأبى قير ويصدرون قراراً مشهوراً عرف بالاسم الآتي (قرار كانوب "Kanopos") ، وقد أشادوا فيه بالملك "بطلميوس" "يورجتيس" الأول وبما أسداه للبلاد من خير وما قدمه من خدمات جُلّى ومن عفو عن المسجونين ، وتنازل عن المتأخرات من الضرائب وأصلحوا التقويم المصرى وصدر القرار باللغة الهيروغيلفية والخط الديموطيقى ثم باللغة اليونانية ونقش على حجر بهذه الخطوط الثلاثة.

٢٢١ ق.م وفاة "بطلميوس" الثالث بين الخامس والسادس عشر من شهر فبراير من ذلك العام.

٢٢١ ق.م تولية "بطلميوس" الرابع الملقب فيلوباتور (فى ٢١ فبراير تقريباً).

٢٢١-٢١٧ ق.م نشوب الحرب السورية الرابعة بين "أنطيوخوس" الثالث وبطلميوس الرابع.

المؤرخ اليونانى المشهور "بوليبيوس" يعرض لبعض الأحداث التى وقعت فى عهد هذا الملك ، ويشير إلى سياسته الداخلية وارتمائه فى أحضان ثالوث مؤلف من أم عاهرة وبنتها "أجاثوكليا" التى كانت محظية الملك وأخوها "أجاثوكليس" الذى كان أحد وزاء الملك ثم "سوسيبيوس" وزير الحربية

في عهد هذا الملك كان صاحب الفضل الأكبر في النصر الذي كسبته مصر في معركة مشهورة وقعت على الحدود الشرقية في رفح ٢١٧ ق.م يوم ٢٧ يونية.

تأليف فيلق مصري من المحاربين المصريين الذين كان هيرودوت قد كناهم ورحاهم من قبيل التحقير باسم (الماخيموري) أي المحاربين ، ورماهم بصفات فيها الأزدراء والاحتقار لشأنهم ، ولكنهم لما تم تدريبهم على نظام الفيلق أبلوا بلاءا حسنا وكسبوا النصر وثبتوا أقدام العرش البطلمي.

٢١٠ ق.م مولد "بطلميوس" الخامس ونصب بعد قليل شريكا في الملك مع أبيه.

٢٠٦-١٨٦ ق.م انفصال الإقليم الطيبي عن مصر بعد أن استقل به ملكان من بلاد النوبة.

٢٠٥ ق.م موت "بطلميوس" الرابع (٢٨ نوفمبر أو في عام ٢٠٤ ق.م) وإخفاء خبر هذا الحادث الأليم لفترة من الزمان حتى تم تلفيق وصية مزورة افتعلها الثالوث الماكر (أجاثوكليس وأخته وأمهما).

٢٠٥/٢٠٤-١٨٠ق.م بدأ عهد الملك "بطلميوس" الخامس الملقب "ابيفانيس" "الظاهر".

٢٠٣ ق.م عقد معاهدة سرية بين "فيليب" الخامس "وأنطيوخوس" الثالث ضد "بطلميوس" الخامس والملوك الثلاثة من الشباب اليافع.

٢٠١ ق.م الحرب السورية الخامسة بين "أنطيوخوس" الثالث "وبطلميوس" الرابع.

١٩٧ ق.م تتويج "بطلميوس" الخامس فرعونا على مصر ، واتمام هذا التتويج في ممفيس وليس في الإسكندرية ، وهذا الإجراء له

مغزاه ويعتبر لفتة كريمة من البطالمة للتقرب من مشاعر الشعب المصرى والكهنة المصريين بالذات ، واتخذ دليلا ضمنيا على بروز القومية المصرية ممثلة فى رجال الدين ، ثم كان على هذا الملك الشاب أن يشن حربا على الثوار فى الشمال والجنوب، وذلك بالإضافة إلى حربه ضد "أنطيوخوس" الثالث.

١٩٦ ق.م يشتهر هذا العام فى التاريخ البطلمى بأنه سطر فيه حجر مشهور فى التاريخ المصرى كله ذلك هو حجر رشيد الذى أشاد فيه الكهنة بالملك "بطلميوس" الملقب ابيفانيس ، وسطر بخطوط ثلاثة هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، ويرجع إلى هذا النقش الفضل فى التوصل إلى فك طلاسم اللغة الهيروغليفية بمقارنة أسمين واردين فى النصر اليونانى ، وهما "بطلميوس" "وكليوباترة" زوجة الملك ، ومقابلة حروفها على نفس الأسمين الواردين داخل إطار فى النص الهيروغليفى ، وبذلك أمكن التوصل والتعرف على العديد من الحروف الهجائية فى اللغة الهيروغليلفية.

١٩٥ ق.م إبرام الصلح بين "أنطيوخوس" الثالث "وبطلميوس" الخامس ، وإنهاء الحرب السورية الخامسة.

١٩٤ ق.م عقد الزواج بين "بطلميوس" الخامس وبين "كليوباترة" الأولى ابنة "أنطيوخوس" الثالث ، وكان مهر هذه الزيجة الملكية هو الموافقة على أن يؤول الإيراد الناجم عن أملاكه الجديدة فى فلسطين وجنوب سوريا إلى الملكة "كليوباترة" الأولى.

١٩٢-١٨٢ق.م نشوب حرب سورية بين روما وبين "أنطيوخوس" الثالث.

١٨٦ ق.م يخيم السلم فى الصعيد ، وتهدأ الخواطر فى أرجائه ، وتبدأ عمليات البناء والتشييد فى معبد إدفو.

١٨٤-١٨٣ق.م مولد "بطلميوس" السادس فى سايس ونهاية الاعتصام المتفشى فى صعيد مصر.

١٨٠ ق.م موت "بطلميوس" الخامس.

١٨٠-١٤٥ق.م عهد الملك "بطلميوس" السادس الملقب "فيلوميتور" أى "حبيب أمه" ، وهو عهد مشحون بالأحداث وحالة عدم الاستقرار.

١٧٦ ق.م وفاة "كليوباترة" الأولى أم "بطلميوس" السادس والوصية عليه.

١٧٥-١٦٤ق.م "أنطيوخوس" الرابع الملقب "إيبفانيس" يتولى الحكم فى سوريا خلال هذه الفترة ، ويحدث صدام بينه وبين مصر ، وتظهر أطماعه فى مصر بصورة سافرة.

١٧٥-١٧٤ق.م عقد زواج بين "بطلميوس" السادس وأخته "كليوباترة" الثانية ، وتمت هذه الزيجة فى الفترة مابين فبراير من عام ١٧٥ ، ومارس عام ١٧٣ ق.م.

١٧٣ ق.م روما توفد بعثة رومانية إلى الإسكندرية (لعلها من قبيل التقصى والاستطلاع).

١٧٠-١٦٨ق.م وقعت فى هذه الفترة الحرب السورية السادسة بين "أنطيوخوس" الرابع وبطلميوس السادس.

١٧٠ ق.م بدأ هذا العام بغزوة قام بها "أنطيوخوس" الرابع لمصر ، اشترك "بطلميوس" السادس وزوجته "كليوباترة" الثانية وأخوها الأصغر "بطلميوس" الثامن فى الحكم فى مصر. اتساع رقعة أملاك "أنطيوخوس" الرابع ، وكانت هذه تشمل الشام وماوراء الفرات حتى الهند ، ويدخل ضمن ذلك وسط إيران وباكتريا وسمرقند والتركستان وأفغانستان وباكستان ، وفضلا عن ذلك كان له أحلاف فى آسيا الصغرى وفى مقدونيا.

١٦٩ ق.م شن حملة ثانية على مصر من قبل "أنطيوخوس" الرابع ، وربما صحب ذلك إعلانه عن أنه أصبح ملكا على مصر. وربما كانت بعض نفقات هذه الحملة قد غطاها "أنطيوخوس"

الرابع مما حصل عليه من أسلاب استولى عليها من معبد بيت المقدس.

قيام شعب مدينة الإسكندرية بثورة أعلنوا فيها السخط على "أنطيوخوس" الرابع وأعماله العدوانية.

١٦٨ ق.م قيام "أنطيوخوس" الرابع بغزوة ثالثة على مصر ووصوله إلى الإسكندرية وتربعه على عرش البلاد والتحكم فى مصيرها ومستقبلها بحق هذا الغزو والفتح - ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن وحرم هذا الملك من أن يجنى ثمرة انتصاراته، هذه نظرا لأن روما انبرت له بشكل سافر ، وكانت إذ ذاك قد خرجت مظفرة من حرب بينها وبين ملك مقدونيا المسمى "برسيوس" (Perseus) ، وهو خصم عنيد ، ولكنها استطاعت أن تنتصر فى موقعة بيدنا (Pydna) سنة ١٦٨ ق.م فى يوم مشهود هو ٢٢ يونيه من ذلك العام ، وعندئذ تقع حادثة مشهورة نوه عنها جميع المؤرخين وذكرها المؤرخ الرومانى "ليفى" فقال إن بعثة رومانية حضرت إلى الإسكندرية على رأسها سفير رومانى يدعى "جايوس بوبليوس لايناس" (G.Popilius Laenas). وواجه هذا السفير الملك السورى "أنطيوخوس" الرابع وهو فى نشوة نصره وطلب إليه الرحيل عن مصر على عجل ، ولم يشأ أن يمهله وقتا ليتدبر فيه الأمر بل إن المبعوث الرومانى خط بعصاه كانت فى يده على الرمل بدائرة من حول الملك وشدد النكير عليه بأن طلب منه الإجابة فى الحال وبطريقة حاسمة على الموافقة على الرحيل ومغادرة البلاد وإلا أن يختار الحرب التى تشنها روما عليه. ولكن الملك آثر اختيار الحل الأول وأعلن موافقته على الرحيل ، وبذلك خلصت روما مصر من أنياب الملك السورى واضطر أن يرحل عن مصر وعن قبرص وأن يتخلى عنهما بطريقة فيها إذلال. وهكذا ساقت المقادير ظروفا قهرية جعلت من مصر بل

والمملكة البطلمية كلها حليفا تابعا لروما ، وأصبح منذ ذلك الحين العرش البطلمى مدينا لروما بهذه الحماية والرعاية فهى التى خلصته من الهزيمة ، وهى التى أزاحت عن البلاد تلك الغمة التى لحقت بها من جراء الغزو السورى والتدخل فى شئون البلاد ، ثم تبع ذلك قيام الثورات فى أرجاء الإمبراطورية السلوقية نتيجة لحرمان البلاد من جنى ثمار الانتصارات التى ذهبت عبثا.

١٦٨-١٦٤ق.م على مدى أربع سنوات قامت ثورات جامحة فى شتى أنحاء البلاد كانت إحداها ثورة تزعمها شخص يحمل اسما مزدوجا هو "ديونيسيوس بيتوسيرابيس" (Dionysius Petosarapis) ، وهو يجمع بين التسمية اليونانية والمصرية.

١٦٤ ق.م يقوم الأخ الأصغر "بطلميوس" الثامن بطرد أخيه الأكبر "بطلميوس" السادس من مصر.

١٦٣ ق.م يعود "بطلميوس" السادس إلى عرش مصر ويحكم وحده على كل من مصر وقبرص مؤيدا ومدعما بالسلاح الرومانى. أما "بطلميوس" الثامن فقد تم الاعتراف به كملك بطلمى على برقة.

١٦٢ ق.م يقوم "بطلميوس" الثامن بزيارة لروما ويتسلم قبرص ، ولكنه يضطر لقمع ثورة وعصيان تنشب فى برقة.

العلاقات بين روما "وبطلميوس" السادس تسوء وتتوتر بعد أن كان الفتور يخيم عليها ولا يعرف السبب ، ولعل السر فى ذلك أن روما كانت تعضد أخاه الأصغر "بطلميوس" الثامن وتنصره عليه ومن هنا بدأ الامتعاض والنفور من جانب "بطلميوس" السادس.

١٥٥ ق.م "بطلميوس" الثامن يعلن عن وصية كان قد أبرمها منذ عام ١٦٢-١٦١ ، واتخذ فيها من روما الوريثة لملكه ، وكان قصده

بذلك حماية نفسه من محاولات الاغتيال والمؤامرات التى كان يظن أن أخاه "بطلميوس" السادس دبرها ضده ، ولذا اتخذ من هذا الخوف ذريعة لتبرير تلك الوصية المذرية التى إن دلت على شئ فإنما تدل على مدى التخاذل والضعف والتفريط فى حقوق الوطن من قبل "بطلميوس" الثامن.

١٥٤ ق.م "بطلميوس" الثامن يهاجم قبرص ، ولكنه يرتد على أعقابه بعد أن صده أخوه الأكبر "بطلميوس" السادس.

١٤٧ ق.م "بطلميوس" السابع الملقب (Neos Philopator) ، وهو ابن "بطلميوس" السادس (فيلوميتور) يصبح شريكا مع أبيه فى الملك.

١٤٦ ق.م "بطلميوس" السادس يقلب ظهر المجن ويتنكر لحلفائه من أجل تمكينه من السيطرة على سوريا بطريقة أفضل ، فيشن حربا يحرز فيها النصر ويخر عدوه صريعا فى المعركة فى شهر يوليو من عام ١٤٥ ق.م ، ولكن الجراح التى أصيب بها "فيلوميتور" فى المعركة كانت قاتلة فمات بعد فترة قصيرة فى عام ١٤٥ ق.م وتولى الحكم لفترة لاتعدو بضعة أشهر ابنه "بطلميوس" السابع الملقب "نيوس فيلوماتور" ، ولكنه نحى فى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر عن الملك بواسطة "بطلميوس" الثامن الذى أعلن بعد ذلك عن عقد مهادنة سادت بين مصر وقبرص.

١٤٥-١١٦ق.م هى تلك فترة حكم "بطلميوس" الثامن الملقب "يورجتيس" الثانى ، وكان سلوكه فى حكم مصر ومعاملته للسكندريين والقسوة فى تصرفاته إزاء العلماء والأدباء فى أكاديمية الإسكندرية مضرب الأمثال - كل هذا جلب عليه السخط فأسبغ عليه السكندريون لقب "الشرير" (Kakergetes) بدلا

من لقب كان يدعيه لنفسه وهو لا يستحقه وهو لقب فاعل الخير (Euergetes).

١٤٥-١٤٤ق.م استهل هذا الملك حكمه بنفى نفر من العلماء المشهورين والعمل على وترحيلهم من الإسكندرية ، وكان من بين هؤلاء العالم الفيلولوجى أى الأديب فى فقه اللغة وهو المسمى (أريستارخوس "Aristarchus") ذو الشهرة اللامعة.

١٤٤ ق.م إتمام تسوية بين "بطلميوس" الثامن وبين "كليوباترة" الثانية أرملة أخيه الأكبر ، وكان الرومان هم الوسطاء فى عمل هذه التسوية وبمقتضاها تزوج "بطلميوس" الثامن من "كليوباترة" الثانية ، ثم أمر "بطلميوس" الثامن بمقتل "بطلميوس" السابع الملقب (نيوس فيلوماتور) ، وهو ابن أخيه "بطلميوس" السادس حتى يزيح هذا الابن من طريقه ويؤمن عرشه من هذه الناحية.

١٤٤-١٤٣ق.م مولد ابن "لبطلميوس" الثامن من "كليوباترة" الثانية وهو الملقب بالمفيتى أى من ممفيس العتيدة والعاصمة المصرية القديمة.

١٤٢ ق.م زواج "بطلميوس" الثامن من "كليوباترة" الثالثة ، وهى ابنة "بطلميوس" السادس من "كليوباترة" الثانية أى أنها ابنة زوجة "بطلميوس" الثامن. وبذلك أصبح زوجا للأم ولأبنتها على حد سواء.

١٤٠-١٣٩ق.م "كليوباترة" الثانية تحرض على إعلان العصيان ضد هذا الملك.

١٣٢-١٣١ق.م وقد عم العصيان فى أرجاء مصر العليا والوسطى.

١٣١ ق.م "كليوباترة" الثانية تكره "بطلميوس" الثامن وزوجته "كليوباترة" الثالثة على الفرار من مصر إلى قبرص.

"بطلميوس" الثامن يقتل ابنه الملقب (بالممفيتى) من زوجته "كليوباترة" الثانية إمعانا فى الانتقام منها.

"بطلميوس" الثامن يتحصن فى ممفيس وأغلب مصر العليا.

١٣٠ ق.م يسترد "بطلميوس" الثامن الإقليم الطيبى وأجزاء أخرى من مصر.

١٢٩-١٢٨ ق.م "كليوباترة" الثانية تهرب إلى "ديمتريوس" الثانى ملك سوريا وتحمل معها كنوزها أملا فى أن يقدم لها "ديمتريوس" الثانى هذا شيئا من العون والمساعدة. وقد هم بالفعل بغزو مصر، ولكنه اضطر إلى التوقف عن الزحف على البلاد عند الفرما عندما سمع أن بعض البلدان فى سوريا أعلنت الثورة عليه.

١٢٨ ق.م واجه "بطلميوس" الثامن هذا الخطر المحدق به، وهو الغزو الأسيوى بإطلاق مدعى لعرش سوريا يسمى "الإسكندر" الثانى "زابيناس" (Zabinas)، وهو ابن بالتبنى "لأنطوخيوس" السابع وقد نصب هذا الابن بالفعل فى أنطاكيا بفضل ما قدمته مصر من عون ومساعدة له.

١٢٧ ق.م استطاع "بطلميوس" الثامن أن يستولى على الإسكندرية بعد غيبة طويلة امتدت منذ ١٣١ ق.م عندما طرد منها إلى ذلك الحين.

١٢٥ ق.م "بطلميوس" الثامن يقرر التوقف عن تقديم العون "للإسكندر" الثانى.

١٢٤ ق.م "كليوباترة" الثانية تعود إلى مصر ويتم الصلح بينها وبين "بطلميوس" الثامن وكليوباترة الثالثة.

١٢٢-١٢ ق.م ثم يعود الشقاق من جديد بين الطرفين.

١١٨ ق.م تجرى تسوية مشهورة (Philanthropia) بين "بطلميوس" الثامن "وكليوباترة" الثانية، وجاءت بنود هذه التسوية كما وردت

فى وثيقة بردية مشهورة ومنشورة فى مجموعة بردى "تبتونيس" رقم (٥)، وكثيرا ما يعرض لها المؤرخون للتعرف على مدى ما أقر به كل طرف للآخر من حقوق وما اعترف به من إجراءات كان كل طرف قد اتخذها لصالح أعوانه ومؤيديه.

يموت فى هذا العام ١١٨ ق.م المؤرخ اليونانى العظيم "بوليبيوس" ، وقد نيف على الثانية بعد الثمانين من عمره.

١١٧-١١٦ ق.م اكتشاف طريق بحرى مباشر بين مصر والهند بفضل استخدام الرياح الموسمية ، وصاحب هذا الكشف هو "يودوكسوس" (Eudoxus) ، وقد شاركه فى هذا الكشف العظيم "هيبالوس" (Hippalus).

١١٦ ق.م وفاة "بطلميوس" الثامن فى ٢٨ يونيه ، وبذلك تصبح زوجته بونية الثانية وهى "كليوباترة" الثالثة هى الحاكمة الحقيقية لمصر ، وتختفى أية إشارة إلى "كليوباترة" الثانية بعد ٢٧ نوفمبر من عام ١١٦ ق.م.

أما وصية "بطلميوس" الثامن فلم يؤخذ بها وتصبح فى مهب الريح. "بطلميوس" التاسع يتولى العرش بفضل المساعدة التى لقيها من أمه "كليوباترة" الثالثة ، "وبطلميوس" الملقب أبيون (Apion) يستولى على برقة بوصفه ملكا بطلميا بعد ذلك ببضع سنوات.

١١٥ ق.م "كليوباترة" الثالثة تضطر "بطلميوس" التاسع الملقب لاثيروس (Lathyrus) كيما يطلق "كليوباترة" الرابعة التى استطاعت بعد ذلك أن تدبر جيشا غزت به سوريا وتزوجت من "كيزيكينوس" (Cyzicenus).

١١٤-١١٣ق.م "بطلميوس" العاشر الملقب (بالإسكندر) يعين حاكما على قبرص.

تنشب الحرب الأهلية بين "أنطيوخوس" الثامن "وأنطيوخوس" التاسع ، وكادت أن تكون هي السبب في تقويض أركان الحكم السلوقي في الشام.

١١٠-١١٨ق.م "بطلميوس" التاسع جرت تنحيته عن العرش لفترة ما ثم حل محله أخوه "بطلميوس" العاشر لفترة أخرى خلال العامين (١٠٨-١٠٦) إلى أن يتم التصالح بين "بطلميوس" التاسع وكليوباترة الثالثة.

١٠٧ ق.م "بطلميوس" العاشر يشترك في الحكم مع "كليوباترة" الثالثة.

١٠٧-١٠١ق.م تواجه مصر فترة طويلة سادها القلق والاضطراب بسبب هذين الأخوين : "بطلميوس" التاسع "وبطلميوس" العاشر ، وتأليب أمهما "كليوباترة" الثالثة أحدهما ضد الآخر.

١٠١ ق.م تموت "كليوباترة" الثالثة وينفرد بالحكم في مصر "بطلميوس" العاشر.

٩٦ ق.م يموت "بطلميوس" أبيون وتؤول برقة إلى روما بناء على وصيته.

٨٨ ق.م يعود "بطلميوس" التاسع إلى مصر عقب موت "بطلميوس" العاشر في معركة بحرية كان قد خاضها على مقربة من ساحل ليكيا بآسيا الصغرى.

- ثورة عارمة تنشب في الإقليم الطيبي الذى أصبح معقل الثورات والروح القومية.

٨٠ ق.م يموت "بطلميوس" التاسع ثم تخلفه ابنته "برنيقة" لفترة قصيرة بين مارس ويونية من هذا العام.

"بطلميوس" الحادى عشر يعلن نفسه ملكا على مصر بعد أن حصل على تأييد مباشر من الدكتاتور الرومانى "سلا" (Sulla) ، ويتزوج "بطلميوس" الحادى عشر من "برنيقة"

هذه فى يوليو ثم يقتلها بعد انقضاء تسعة عشر يوما من مشاركتها له فى الحكم ، ولكن السكندريين قتلوه جزاءا له على فعلته الشنعاء.

٨٠ ق.م "بطلميوس" الثانى عشر الملقب (أوليتيس) (auletes) أى الزمار يتبوأ عرش مصر فى أواخر عام ٨٠ ق.م.

٧٩ ق.م الملك "بطلميوس" الثانى عشر يتزوج من "كليوباترة" تريفانا ابنة "بطلميوس" التاسع.

٧٦ ق.م تم تتويج الملك "بطلميوس" الثانى عشر فى الإسكندرية وليس فى ممفيس.

٧٥ ق.م روما ترفض الاعتراف بالملك "بطلميوس" الثانى عشر لفترة ما.

٧٤ ق.م برقة تصبح ولاية رومانية بمقتضى الوصية التى تركها "بطلميوس" أبيون.

٦٤ ق.م سوريا تصبح ولاية رومانية.

٦٣ ق.م الزعيم الرومانى بومبى يستولى على بيت المقدس ضمن حملته على بلاد الشرق وقيامه بتسوية أموره.

٥٩ ق.م يوليوس "قيصر" "وبومبى" "وكراسوس" ، وكان الثلاثة يمثلون أركان الحكم الثلاثى الأول وهم يعترفون "ببطلميوس" الثانى عشر ملكا على مصر فى نظير رشوة ضخمة قدمها الملك إلى "يولويس قيصر" ، وهذه سبة فى جبين السياسة الرومانية.

٥٨ ق.م قبرص تصبح ولاية رومانية.

٥٨ ق.م تقوم ثورة فى الإسكندرية ضد هذا الملك المفرط فى أملاك مصر لأنه لم يحرك ساكنا إزاء ضياع قبرص. مما جعل الملك يضطر إلى ترك المدينة الثائرة ومغادرة البلاد إلى روما.

٥٩-٥٧ ق.م حكم مشترك بين "كليوباترة" تريفانيا وبرنيقه يسود فى مصر.

٥٧-٥٥ ق.م فى خلال هذه السنوات انفردت "برنيقة" بالحكم فى مصر.

٥٦-٥٥ ق.م عودة "بطلميوس" الثانى عشر إلى عرشه بفضل جهود الزعماء الرومان "وبومبى" بالذات وبمعونة الجيش الرومانى المرابط فى سوريا تحت قيادة "أولوس جابينيوس" حاكم سوريا. الملك "بطلميوس" الثانى عشر يقتل ابنته "برنيقة" ويقتل كذلك زوجها المسمى "أركيولاوس".

٥١ ق.م موت "بطلميوس" الثانى عشر.

٥١ ق.م تحكم "كليوباترة" السابعة وهى كبرى بناته مصر، وكانت فترة توليها الحكم على مدى نحو عشرين عاما حافلة بالأحداث الجسام وبالآمال العريضة، وتخوض فيها مصر بنصيب وافرا فى معارك سياسية وعسكرية عالمية، وتثبت للعالم أجمع أنها تمثل حضارة عظمى، وأنها ند لعظماء الرجال. وهذه الفترة من تاريخ مصر شهدت تطورات كثيرة فى الداخل والخارج، وتجددت فيها أطماع الأسرة البطلمية وتداخلت السياسة المصرية مع السياسة الرومانية ورجالاتها وكادت "كليوباترة" أن تلقى التوفيق والنجاح ولكن الظروف العالمية كانت أقوى منها فباءت فى آخر المطاف بخسران مبين.

٤٩ ق.م نشب نزاع أسرى بين "كليوباترة" السابعة وبين أخيها وزوجها "بطلميوس" الثالث عشر، وكان يصغرها بسبع سنوات، وكانت هى نفسها فى سن مبكرة أى تبلغ السابعة عشر، وكان الاثنان يحكمان بالاشتراك طول الفترة من ٥١ حتى ٤٩ ق.م.

٤٩-٤٨ ق.م نشبت حرب فى الإسكندرية سميت فى التاريخ الرومانى بالحرب السكندرية، ونسبت لمؤلف أو مصنف رومانى

يسمى "هرتيوس" وقد وصف فيها الأحداث الاستراتيجية فى شوارع الإسكندرية ومبانيها وقد خاض فى هذه الحرب الملك دفاعا عن شرفه ، وتعرض المؤلف لوصف مواقف ذلك الشاب الصغير زوج "كليوباترة" دفاعا عن شرفه ضد "يوليوس قيصر" الذى كان قد حضر إلى الإسكندرية متعقبا غريمه "بومبى" بعد أن هزمه فى فارساليا سنة ٤٨ ق.م واتصل بكليوباترة وعاشرها معاشرة الأزواج.

٤٨ ق.م "بطلميوس" الثالث عشر يغرق فى النيل وتلحق به الهزيمة على يد "يوليوس قيصر" الذى استطاع أن يقضى على الثورة. وتنتهى تلك الحرب التى أشعلها "بطلميوس" الثالث عشر ويصبح الأخ التالى وهو الأصغر ملكا وشريكا مع "كليوباترة" وزوجها لها.

٤٧ ق.م يولد ابن لكليوباترة من "يوليوس قيصر" ويسمى هذا الابن "قيصر" الصغير أو بالأحرى "قيصرون" (Caesarion) ، وسوف نرى كيف يصبح هذا الابن ملقبا باسم "بطلميوس" الخامس عشر ، وكيف يكون محور تفكير "كليوباترة" ومحط آمالها بل وسر نكبتها. قبرص تعود إلى مصر بتأييد من "يوليوس قيصر" بالطبع.

٤٦ ق.م تذهب "كليوباترة" إلى روما بدعوة كريمة من "يوليوس قيصر" ، وتقيم في قصر منيف على ضفاف نهر التيبر ، وتبقى فى روما حتى وقعت الواقعة الأليمة ، وهى اغتيال "يوليوس قيصر" فى يوم مشئوم هو الخامس عشر من شهر مارس (Ides) سنة ٤٤ على يد "بروتس" و"كاسيوس" ونفر من الجمهوريين المتشددين الذين ظنوا أن "يوليوس قيصر" تخامره نوايا غير جمهورية ، وأنه بدأ ينحو نحو المذاهب الهيللينستية التى أسقتها له "كليوباترة" ، وتشبع بها فخشوا على مستقبل الروح الجمهورية الصميمة من أطماعه وتصرفاته فاغتالوه وهو يتأهب

للخروج من مجلس السناتو إلى الشرق ببرنامج عسكرى ضخم ضد الفرس. وكانت "كليوباترة" فى أثناء مقامها فى روما تعقد صالونا أدبيا تتردد عليه شخصيات لامعة من بينها الخطيب والزعيم "شيشرون" ، وكانت "كليوباترة" تعيش فى روما معززة مكرمة بفضل ما أسبغه عليها "يوليوس قيصر" من عطف ومحبة ، ولكن الألسن كانت تلوك اسمها وتندد بهذه العلاقة الآثمة بينها وبين هذا الزعيم الرومانى الكبير ، وأخذت تتردد مختلف الأقاويل عن خطط ومآرب ذات طابع ملكى أو هيللينستى وتتوجس خيفة من أطماع سياسية قيل إن الملكة كانت تبثها فى نفس هذا الزعيم الرومانى وروما الجمهورية كانت تضيق بمثل هذه الأفكار الملكية وتخشى على مصيرها مما قد تخبئه الأقدار لها. ومن هنا نشأ التآمر ووقعت الكارثة. وكان توارى هذا الزعيم الكبير على هذا النحو الفجائى بمثابة نكبة كبرى وكارثة حلت بكليوباترة وبابنها من "يوليوس قيصر" وقلبت كل الأوضاع رأسا على عقب.

٤٤ ق.م — عادت "كليوباترة" إلى مصر هاربة على حد قول "شيشرون" (Fuga reginae) ، وتنفست روما الصعداء لخروج تلك الملكة المصرية من صعيد روما. أمرت "كليوباترة" بقتل أخيها الأصغر وزوجها "بطلميوس" الرابع عشر (بعد السادس والعشرون من شهر يولية وعندئذ أعلنت أن ابنها "قيصرون" أصبح هو "بطلميوس" الخامس عشر والشريك لها فى الملك.

٤٣ ق.م — تقع معركة بين الجمهوريين وبين كل من "أكتافيوس" "وأنطونيوس" ، وذلك أخذا بالثأر لدم "يوليوس قيصر" المهدر ويتم فيها النصر على الجمهوريين فى معركة "فيليباى" (Philippi) بشمال بلاد اليونان.

٤١ ق.م — يتم لقاء مهم وخطير بين "أنطونيوس" وبين "كليوباترة" فى آسيا الصغرى فى بلدة "طارسوس" (Tarsus) ، ومنذ ذلك

الحين يرتبط مستقبل "كليوباترة" بهذا الزعيم الرومانى الذى تحول إلى محب ومتيم "بكليوباترة" ، وهى بدورها اعتبرته بمثابة الأداة المنفذة لبرنامج سياسى كانت عاقدة العزم عليه وتنتويه بحق ، وفيه رفعة لشأن مصر واستعادة إمبراطوريتها المضاعة.

٣٧-٣٦ ق.م تتسلم "كليوباترة" بعض أجزاء من لبنان ، وتسك عملتها باسمها.

٣٦ ق.م "كليوباترة" وهى الملقبة باسم ملكة الملوك.

٣٤ ق.م "أنطونيوس" يسبغ هبات ويوزع الممالك على أبناء "كليوباترة" وبناتها منه ، وبذلك يثير ثائرة الرومان عليه وعلى تلك الملكة المصرية الطموحة.

٣١ ق.م معركة "أكتيوم" فى المياه الغربية من بلاد اليونان ، وقد انتصر فيها الغرب على الشرق بفرار "أنطونيوس" وراء "كليوباترة" دون أن تنشب معركة فعلية ، وبذلك يحسم النزاع بين الشرق والغرب ويتقرر المصير النهائى.

٣٠ ق.م استيلاء "أكتافيوس" على الإسكندرية فى الثالث من أغسطس بعد معركة "نيقوبوليس". وفى يوم ١٢ أغسطس من نفس هذا العام انتحرت "كليوباترة" بعد أن استولى عليها اليأس ، وبعد أن فقدت "أنطونيوس" الذى كان سندا لها ، وقد انتحر قبلها ببضعة أيام.

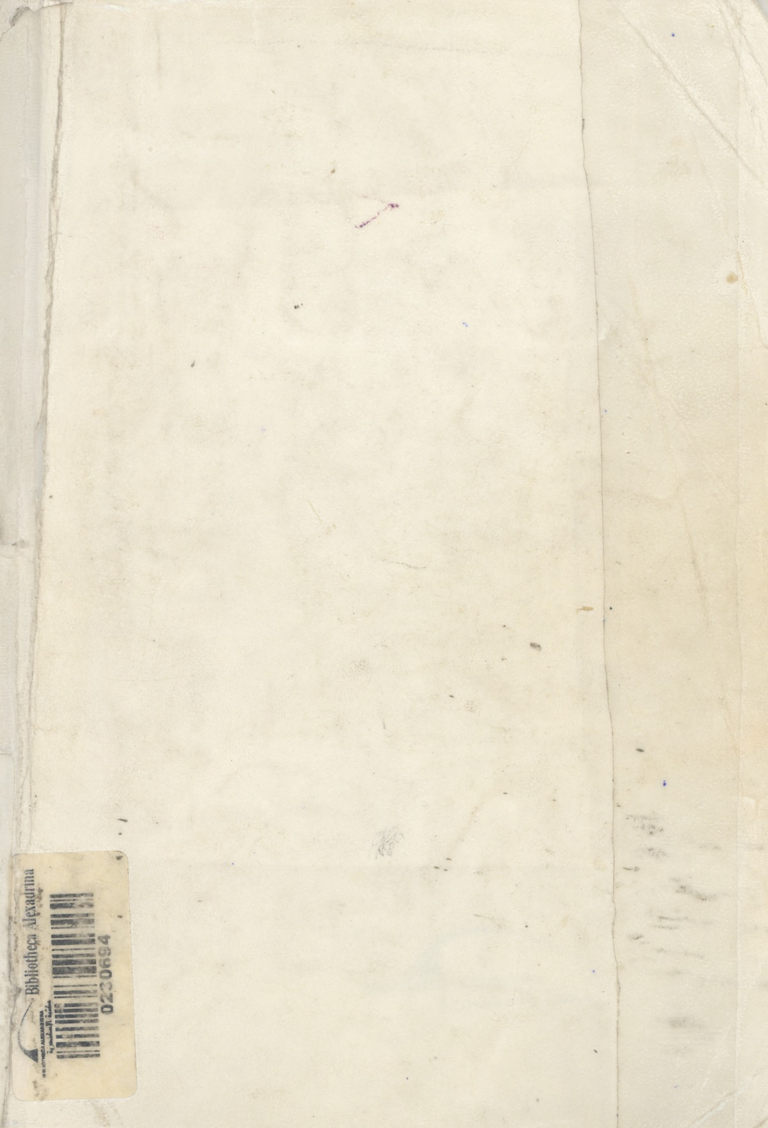
وبذلك أسدل الستار على صفحة كفاح مرير خاضته "كليوباترة" من أجل رفعة شأن مصر. ولكنها لم توفق فضم "أكتافيوس" مصر إلى حظيرة الحكم الرومانى وجعلها ولاية تابعة لسلطان الشعب الرومانى منذ الثلاثين من شهر أغسطس سنة ٣٠ ق.م.

الفهـــرس

الصفحة

الفهـرس

الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0230694